عبد الهادي بوطالب

ذكريات شهادات ووجوه

الجزء الأول

■ ذكريات شهادات ووجوه
■ تصفيف وتصميم غلاف الشركة المغربية للطباعة والنشر
43. زنقة أبو فارس المريني الطابق الثالث رقم 9
الهاتف : 70-70-25/70-70-23 الفاكس 76-60-55 الرباط المغرب
■ الناشر الشركة السعودية للأبحاث والتسويق
■ رقم الايداع القانوني 1992/809

تقديم

تتطرق مذكرات الاستاذ عبد الهادي بوطالب لمراحل بالغة الأهمية من تاريخ المغرب والبلاد العربية والإسلامية، تم فيها تشكيل الملامح الاساسية لعصر النهضة في العالم العربي والاسلامي الذي تميز بقيام الحركات الفكرية والسياسية والتحريرية التي يرجع إليها الفضل في صياغة الأسس التي قامت عليها الحياة السياسية في أوطان العروبة والإسلام. وتمتاز هذه المذكرات إلى جانب دقة الوصف وشفافية العرض وتلقائية التناول واشراقة اسلوبها الأدبي بخوضها في تفاصيل المعارك السياسية والفكرية التي انخرط فيها الشعب المغربي خاصة، وشعوب المغرب العربي عامة، في مرحلة شديدة الحيوية من مراحل التطور التي اجتازتها هذه المنطقة وهي تتجه نحو تحرير ارادتها، وتأكيد هويتها واستكمال الشروط الموضوعية لنيل استقلالها بالتخلص من العهد الاستعماري.

وعبد الهادي بوطالب، وهو من القمم السياسية والثقافية في المغرب، تقلد عدة مناصب سياسية رفيعة، وله اسهامات وكتابات. لذلك هو خير من يجلى لنا هذه الصفحات المشرقة من تاريخ هذا الجزء من الوطن العربي الاسلامي. ولقد وفق إلى أبعد الحدود في الكشف عن دقائق الحياة العامة في المغرب في العقد الثالث من هذا القرن حين اختلف الى جامع القرويين وهي تعد معقلاً من معاقل الثقافة العربية والاسلامية ينهل العلوم ممزوجة بالروح الوطنية، يتفتح وعيه على الصراع السياسي في بلاده وهي تناضل من أجل التخلص من ربقة الاستعمار، وتكافح في سبيل التحرر من رواسب التخلف والانحطاط، سواء على المستوى الفكري أو الثقافي، وعلى مستوى الممارسة الفعلية للحياة وفقاً للقيم الحضارية التي صاغت تاريخ المغرب وشكلت وجدان شعبه العربي المسلم.

ومن خلال مذكرات عبد الهادي بوطالب تتبدى لنا مظاهر مختلفة من المجتمع المغربي، وملامح متفرقة من تاريخه الحديث، وصور متعددة من الجهاد الوطني

الفكري والثقافي والعسكري الذي خاضه شعب المغرب في الجبال والسهول والوديان والصحراء تمرداً ورفضاً للحماية الفرنسية والإسبانية التي فرضت عليه.

ويبرز بوطالب في إشراقه بيان وجمال عرض حياته منذ أن كان طالباً في القرويين، وما اكتنف هذه الحياة من ضروب المعاناة طلباً للعلم في ظروف كانت وطأتها شديدة على المغاربة أجمعين، ويستعرض وهو يروى المراحل الأولى من نشأته وتكوينه البطولات والمراحل التي عاشها المغرب وهو يدافع عن هويته العربية الإسلامية، وهو يرفض الهيمنة والقهر، وهو ينشد حياة الحرية والكرامة والعزة.

ولا تخلو هذه المذكرات من متعة عقلية راقية، فالمؤلف، وهو العالم المثقف والباحث الاكاديمي، لا يغفل اثناء استغراقه في الرواية السياسية للاحداث والوقائع عن أن يخوض في القضايا الفكرية والمسائل الثقافية وشئون شتى، مما يتصل بالفكر والتاريخ والأدب واللغة، وتراجم الإعلام وتحليل الشخصيات، وشرح غوامض الأحداث والكشف عن ابعاد الوقائع والروايات التاريخية سواء التي عاشها وهو في طفولته المبكرة ويفاعته، أو تلك التي كانت تروج وتتناقلها الألسن ويرويها الأباء للأبناء.

وتشتمل المذكرات على قسط وافر من المعلومات عن بواكير الحركة السلفية في منطقة المغرب العربي، وعن علاقة هذا الجزء من الوطن العربي الاسلامي بالحركات السلفية والأدبية والسياسية في المشرق العربي. وعن شخصيات فذة لعبت ادواراً متميزة في الحياة الفكرية والثقافية والسياسية في بلدان المغرب العربي، وبصفة خاصة في المغرب الأقصى حيث نتابع مسرح الأحداث، ونعيش تجربة نمو مفكر فذ، وسياسي محنك، ورجل دولة سيكون له موقعه في بناء استقلال بلاده، وفي بلورة العمل العربي والاسلامي المشترك من خلال علاقاته واتصالاته والمناصب القيادية التي شغلها.

إن مذكرات عبد الهادي بوطالب سفر قيم من اسفار تاريخ الأمة العربية الاسلامية في مطالع هذا القرن، بقلم أحد الشهود على العصر ممن توفرت لديهم صدق التجربة وحسن البلاء، وسعة الاطلاع، وعمق المعرفة.

واللـــه الموفق ، ، ، ،

الناشران

هشام و محمد علي حافظ

مقدمة الجزء الأول

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

ليس هذا الكتاب تاريخا ولا فلسفة تاريخ . وإذا كانت الأحداث التي سأعرضها فيه تبدو في شكل نسيج اتصلت خيوطه بحياتي فالكتاب ليس بمذكرات بقدرما هو رحلة عبر أحداث امتدت طيلة ما ينيف على نصف قرن من حياتي سأستعرضها وأسلط الأضواء عليها. لن أصدر في عرضها عن وثائق ومحفوظات، ولن أحيل في شأنها على مراجع. ان هذا الكتاب إذن في آن واحد ذكريات ، وشهادات ، وآراء وتأملات .

ستأتي هذه المسيرة في سياق تسلسلها الزمني بدءا من العشرينات وعبر الثمانينات في شكل أحاديث متنوعة الموضوعات ، مختلفة الأغراض، كل ما يوحد بينها أن أحداثها واكبت جزءا من عمري. فيها ما عشت وقائعه، ومنها ما ساهمت في صنعه باقتناع وحماس، وبعضها الآخر تأثرت به راضيا أو تحملته على كره، ومن بينها ما انتهى حديثه الى سمعي وعلمي .

وتأتي هذه الأحاديث في شكل أمالي تنساب من اللسان في عفوية، أو يخطها القلم في غير تكلف ، تتخللها أحيانا استطرادات متصلة بالحديث تعترض تأملاتي وأنا أمضي مجتازا مراحل الرحلة، أو توقفات عند ملاحظات تعن لي بشأن حادث أو آخر، فأحرص على تسجيلها بالمناسبة.

والسؤال الذي أطرحه على نفسي منذ البداية هو: ترى هل سأستطيع أن أتوفق في استعراض هذه الأحداث بالموضوعية اللازم توفرها لكل كاتب نزيه، أم أني سأحيد عن ذلك كما اعتاد البعض - إن لم أقل الكثير - أن يفعل ؟

وهذا السؤال يفرض نفسه لا على المؤرخين فقط،ولكن بصفة أكثر إلحاحا على جميع من يثيرون بشكل أو بآخر كل ما يتصل بهم من وقائع وأحداث ، حتى لقد قال

كاتب الدولة الأمريكي الأسبق دين أشيسون (Dean Acheson): « لا أعلم أني قرأت مرة تقريرا كتبه من ساهم في مناقشة جرت داخل اجتماع دون أن يقول عن نفسه إنه كان صاحب الفضل الأكبر والنصيب الأوفى في جميع ماراج في الاجتماع وما تقرر فيه». وما أصدق هذه المقولة! ففي اعتقادي أن السمة الأولى التي تطبع الانسان - كل إنسان - منذ أولى صرخة تنطلق منه لحظة ميلاده هي الأنانية : أنانيته في إثارة اهتمام الآخرين به ، وأنانيته في سعيه المستمر لفرض وجوده ، تلك الغريزة التي تلازمه طوال حياته من خلال حرصه الدائم على إرضاء رغباته ونزواته ، وعبر تطلعه بدون حد للحصول على المزيد من المكاسب، وتفانيه في إيثار نفسه بالحميد من المنافع، وكل ذلك على حساب الغير ، ذلك الغير الأناني بطبعه هو الآخر ...

إن غريزة الأنانية ومايتصل بها من حب النفس والفخر والعجب والزهو والكبرياء، و الطمع والاستعلاء والتنكر والجحود الى آخر السلسلة ملتصقة بالانسان الى حد الالتحام . ويحلو للذين لايرتفعون بالإنسان إلى منزلة التكريم المميزة له عن بقية الخلق أن يجعلوا منه حيوانا ، ولكنهم يضيفون إلى إطلاق الحيوان عليه أوصافا كاشفة تميزه عن سائر الحيوانات فينعتونه بالناطق، والضاحك، والسياسي، والمخطط، والطباخ، ويمكن أن أضيف الأناني .

ما أقل الذين يتغلبون بكبح جماح النفس على هذه الغريزة المتأصلة فينا ! فمن يوفق في ذلك مرة يخب في سعيه الى ذلك مرارا. وبين الطبع والتطبع مباراة سباق لا تتوقف، قل أن يسجل فيها هذا الأخير إصابة ...ولولا أنانيتنا لكنا ملائكة.

سأجهد إذن أنانيتي على أن تخفف من حدتها . سأتجنب أن أسطو على الأحداث كي أؤولها بإصرار في وجهة بناء نفسي أو كسب المزيد من مجدها. فلن أدافع عن جميع المواقف التي اتخذتها ، ولن أبرر دائما اختيارات اعتمدتها ، ولن أغمط أحدا حقه أو أبخسه فضله ما أيقنت أن له حقا لايجوز أن يغمط وفضلا لاينبغي أن ينكر، ولكنني لن أنسى لنفسي نصيبها « فإن لنفسك عليك حقا » على أن أقوم بنقد ذاتي عند الاقتضاء .

وأنا متيقن سلفا أن رفاقي القدامى في مسيرة كفاحنا السياسي سيعتبون علي لأنهم لن يجدوا في أحاديثي هذه ما ينتظرونه مني من دفاع متحمس عن جميع مواقفنا المشتركة. وسيستغرب خصومي السياسيون السابقون كيف أني أنصفهم مرارا و أنتقد تصرفاتهم مرات أخرى. فليتقبل الطرفان مني ذلك بروح رياضية، ذلك أني منذ أن تحللت من العمل السياسي النشيط أو ما يعبر عنه بالسياسة السياسية لم أعد مقيدا في تصوراتي وتقييماتي بالصداقات الحزبية، ولامتأثرا بالخصومات السياسية، فقد دخل كل ذلك بالنسبة لي في طي التاريخ. وأراني أحس

أن روح المواطنة تتقمصني بلا حدود ولاقيود. فبهذه الروح أصبحت أفكر ، وعنها أصدر في مواقفي وأعمالي .

إن حياتي طافحة بما ساهمت في إنجازه من أعمال ، ونضالي السياسي الطويل عرف تتويجه لحسن حظي وأنا في عنفوان العمر ، إذ قدر لي أن أرقى شابا فكهلا الى أسمى درجات المسؤولية ، وأتسنم ذروة المناصب السامية. فلم إذن التعصب وإنكار الحق ؟ وماذا يمكن أن أستفيد أكثر بالتجائي لذرائع وصولية ممقوتة لاتقدم شيئا فيما بقي من حياتي ولاتؤخر ؟

أجدني خلقيا ملزما بتوخي الحقيقة والتزام الصدق فيما أكتب ، لاخدمة للحقيقة والصدق فقط ، ولكن أيضا إرضاء لأنانيتي ، إذ ذلك وحده هو الذي ييسر لي الاحتفاظ برصيدي عند من يقدرون وزن الحقيقة ويلتزمون بالصدق ولو أنهم قل في مجتمعنا .

إن الحقيقة قد تضطهد ، ولكنها لابد أن تنتصر لأن حبل الكذب قصير مهما امتد.

وثم سؤال آخر لابد أن يختلج في صدر الكاتب الهادف حين يعتزم الكتابة والنشر: الى أي صنف من القراء يريد أن يتوجه بما يكتب ؟

أبادر الى القول إني لا أستهدف استهواء نوع ما من القراء بهذه الأحاديث، لأن كل حدث من أحداثها وكل شخصية من شخصياتها لا تستأثر باهتمام جميع القراء ولاتهم إلا نوعا منهم . وذلك ما يجعلني أطلق نفسي على سجيتها في عفوية أتحلل بها من القيود التي قد يتقيد بها هذا الصنف من الكتاب أو ذاك ، سالكا طريق الإجمال أحيانا حتى لأكتفي بالإشارة ، مطيلا أحيانا لا إلى حد الإطناب .

فإلى القراء الذين لايكتفون بالإجمال، وإلى الذين يتضايقون منهم من التفصيل أعتذر سلفا مؤملا أن يفهموا أن قصدي ليس إفادة الجميع. وإلى الذين يعلمون أو يحيطون بمجموعة من الأحداث التي سأعرضها أقول : إن قصدي هو ملء الفجوات التي تحتف ببعض الأحداث في أذهان البعض ، وتسليط الأضواء على جوانب منها كانت لي فرص اكتشافها من خلال اتصالاتي الخاصة، فحرصت أن أرسم بنفسي صورة لها من منظوري الخاص في هذه المجموعة من الذكريات والشهادات والوجوه .

عبد الهادي بوطالب

الفصل الأول

أطماع ومناورات

أطماع ومناورات

أتم هذا القرن الثالثة والعشرين من عمره - كما كان يقول فيكتور هيكو - عندما رأيت النور بمدينة فاس(بالمغرب) أو عاصمة المغرب العلمية كما كانت تدعى . كانت البشرية تعيش العقد الثالث من عمرالقرن العشرين بأحداثه وتطوراته ، ولكل عقد من عقود القرون ما يميزه طبقا لما يجري به التاريخ داخل المجتمعات وعبر القارات والأمصار: في الأحداث الصاخب والمثير، ومن بينها ما يلفه الهدوء فيطويه النسيان، ومنها ما تختلف وتيرته بين الصنفين فلايملك المؤرخ أو المحلل له تصنيفا.

ترى ماذا كان يحتضن العقد الثالث من قرننا ، أو كيف كان العالم يموج آنذاك في خضم الأحداث؟. إن العالم يضيق لسعة رقعته وشساعة أرجائه عن الإحاطة بوصفه، ولو حاول الباحث حصره في فترة محدودة من حجم الزمن .

مع ذلك يمكن القول إن العالم كان يعيش في العشرينات فترة استراحة واستجمام إثر نهاية حرب عالمية عظمى أنهكت قواه المتصارعة طيلة أربع سنوات، واستنزفت موارده وخيراته، ومزقته شر ممزق، وقذفت به في ضائقة مالية واقتصادية، وخربت عمران أوربا التي أدت أكثر من غيرها غاليا ثمن تلك الحرب، وفقدت الجبهة المنهزمة فيها مليونا ونصفا من الأرواح ، وقدرت خسارة المنهزمين فيها ب 3760 مليار فرنك فرنسي .

كان العالم في فترة العشرينات يعيش في حلم يداعب آماله بنهاية كابوس الحرب وبزوغ فجر السلام ، وتاق مسوقا بهاجس الأمل الى تشييد مجتمع دولي حر، يحل مشاكله ويسوي نزاعاته بالحوار المباشر تحت قبة عصبة الأمم التي أقامها بجنيف، بعد أن استسلمت لإرادة الحلفاء المنتصرين الجبهة الدولية التي أمضت دولها تباعا على اتفاقيات تكرس هزيمتها ، من اتفاقية فرساي (Versailles) مع ألمانيا الى اتفاقية سانت جرمان آن لي (Saint-Germain En-Laye) مع النمسا، واتفاقية

نويي(NEUILLY) مع بلغاريا . وهي الاتفاقيات التي أمضيت خلال سنة 1919، فاتفاقية تريانون (Trianon) مع هنغاريا ،فاتفاقية سيفر(Sevres) مع تركيا التي تم الإمضاء عليها خلال سنة 1920، فالاتفاقيتان الثنائيتان الممضيان من جهة في رابالو (Rapallo) بين إيطاليا ويوغوسلافيا الجديدة سنة 1920 ، ومن جهة ثانية بين روسيا البلشفية وبولونيا في ريغا (Riga) سنة 1921 .

وقد لمعت في هذه الحرب العالمية أسماء عسكرية وأخرى مدنية اقترنت بانتصار الحلفاء الساحق: فمن العسكريين الجنرال جاك (Jacques) من بلجيكا، والجنرال دياز(Diaz) من إيطاليا والجنرال فوش (Foch) من فرنسا، والجنرال بيرشينغ (Pershing) من الولايات المتحدة الأمريكية، والأمرال بيتي(Beatty) من المملكة المتحدة، ومن المدنيين «الأربعة الكبار» لويد جورج (Lloyd George) البريطاني ، وأورلاندو (Orlando) الإيطالي، وكليمانصو(Clemenceau) الفرنسي، وويلسون(wilson) الأمريكي .

كان العالم بعد هذه الاتفاقيات يحيا حقبة الخلاص التي كان يعتقد أنها وضعت آلام البشرية وويلات صراعاتها بين قوسين . فانصرفت أوروبا ترمم وتصلح ما هدمته أو أفسدته الكارثة العالمية وتبني حاضرها لإقامة غد أفضل .

لكن أجزاء من العالم لم يهنأ لها بال بنهاية الحرب، بل كانت نهايتها بداية لآلامها ومآسيها : إن الحلفاء المنتصرين أمسكوا بقبضة من حديد على الشعوب والأمم التي استعمروها قبل الحرب، أو أحكموا نفوذهم بعد الحرب على ما أورثتهم انتصاراتهم من تركات المنهزمين. كان ذلك شأن الأقطار العربية في المشرق العربي التي كانت مشمولة بنفوذ الخلافة العثمانية، وكان ذلك مصير بقية العالم الثالث خاصة في إفريقيا وآسيا .

وبعد الحرب العظمى العالمية الأولى (1914 - 1918) دقت ساعة تصفية تركة الخلافة العثمانية التي كانت من بين القوات المهزومة، وتوزع الحلفاء الأقطار العربية بين محميات ومنتدب عليها.لكن قبلها وسعت فرنسا وأنجلترا رقعة استعماريهما بعد إبرامهما الاتفاق الودي سنة 1904 الذي أطلقت فرنسا بمقتضاه لحليفتها الإنجليزية العنان لبسط نفوذها على مصر باسم الحماية، وأعطت أنجلترا النور الاخضر لحليفتها الفرنسية لتتابع غزو الأمبراطورية الشريفة(المغرب) بقصد إرغامها على إمضاء عقد الحماية.

وهكذا كرس انتصار فرنسا وأنجلترا في الحرب نفوذهما على العالم العربي في

المشرق والمغرب ، إذ أصبحت أنجلترا منتدبة على فلسطين بالإضافة الى انتدابها على العراق وحمايتها لمصر ، بينما منحت عصبة الأمم فرنسا صكي انتداب على سوريا ولبنان .

وكان المفروض أن تقوم دولة عربية كبرى داخل المشرق العربي إثر نهاية الحرب، وفاءً من الحلفاء لالتزامهم للعرب بذلك، وجزاءا على ما قدمه العرب خلال الحرب للحلفاء من مساعدات وتسهيلات عسكرية، لكن الحلفاء - وخاصة بريطانيا - نكثوا العهد ، وبيعت القضية العربية في صفقة دولية كانت بالنسبة للعرب صفقة الغبن.لحسن حظ العرب أخذت تبدو في سماء الشرق العربي مع توالي سنوات العشرينات ومضات أمل مؤذنة بجلاء الظلمة ، بإعلان استقلال مصر سنة قبل أن أرى النور، وإن لم يتم جلاء القوات البريطانية عنها إلا سنة 1954 و بميلاد لبنان الكبير في نفس الحقبة، وبإقامة دولة عربية فوق شبه الجزيرة العربية سنتين بعد ميلادي منذ أن فتح جدة مؤسس الدولة السعودية المرحوم عبد العزيز آل سعود وأعلنت بيعته بالحجاز .

وواكب ميلادي في حقبة متقاربة ميلاد تركيا الثورة التي أعلن استقلالها مصطفى كمال أتاتورك (أبو الأتراك) وأقامها علي أنقاض الامبراطورية العثمانية وثار على تعريب الأتراك واستبدل بالحروف العربية الحروف اللاتينية، وذلك ما يجعلني أقول إن ميلادي واكب ميلاد هذه الدول التي أدعوها «قرينة العمر» إن صح أن يكون إنسان ما قرين حدث أو رفيق تاريخ.

كان المشرق العربي يغلي ويمور بالأحداث ، فالحركات الاستقلالية تعلن عن مناهضتها للنفوذ الأجنبي المبسوط عليها باسم الانتداب سواء في العراق أو سوريا أو فلسطين أو لبنان ، والوعي العربي بخطر وعد بلفور يتنامى ويتبلور في حركات سخط وتذمر.

أما في المغرب العربي فإن الحركات الوطنية كانت تتأهب للقيام بحركة تصحيحية لمسار التاريخ ،سواء في الجزائر التي ضمتها فرنسا لترابها منذ احتلالها سنة 1830، أو في تونس التي بسطت عليها الحكومة الفرنسية نفوذها باسم الحماية بمقتضى اتفاقية باردو التي أبرمتها سنة 1881 مع الباي، أو في المغرب الذي تميزت العشرينات فيه بضراوة حرب الريف، وبانتشار حركة المقاومة العسكرية في جبال الأطلس ، وبعجز جيوش فرنسا هنا وهناك عن قمع حركة رفض الاحتلال .

كان المغرب الى أن أخضع لحماية فرنسا سنة 1912 بمقتضى اتفاقية الحماية المعلن

عنها دولة عظمى معروفة باسم « الأمبراطورية الشريفة». وكانت حدودها تمتد أحيانا حتى إلى ما وراء السنغال في إفريقيا الغربية، والى برقة وطرابلس على حدود مصر. وظلت الدولة العربية الثانية التي عجز عن إخضاعها النفوذ العثماني الذي امتد على العالم العربي بما في ذلك تونس والجزائر ، مثل المغرب في ذلك مثل المملكة المتوكلية اليمنية التي لم تخضع له هي أيضا في المشرق العربي .

ومضى هذا العهد الزاهر لتقع بلادي في العقد الثاني من هذا القرن تحت حكم استعماري ثلاثي ضرب خناقه عليها ، وهي التي لم يكسر الاحتلال رقبتها قط منذ وصول الإسلام إليها ، أي طوال أربعة عشر قرنا .

كان إذن في العشرينات - كما هو الحال بالنسبة لكل عهد - عالمان : عالم السعداء الأقوياء المسيطرين ، وعالم المستضعفين المقهورين المكافحين لتغيير الأوضاع ومجابهة التحديات وكسب الرهان .

ولم يكن الأقوياء كاسرو شوكة المهزومين في الحرب العظمى العالمية يتوقعون أن الأحلام التي تداعبهم لن تمتد طويلا . من منهم كان يظن أن تلك الأحلام ليست إلا نوعا من الأوهام ؟ ومن كان منهم يتوقع أن ما سمي بعهدسلام ليس إلا فترة هدنة بين حربين، أو مجرد فاصل بين عهد إيقاف حرب وعهد إعداد أخرى ؟ من كان يظن أن هذه الفترة لن تطول حتى عقدين من الزمن لتجد البشرية نفسها مواجهة لتهديد ديكتاتورية إيديولوجية نازية مرعبة، تقوم فلسفتها على سمو العنصر الآري الذي يختصر علاقات الشعوب والأمم والدول في تركيعها جميعها لنفوذه وسلطانه ؟ ومن كان يتوقع أن البشرية ستكون مضطرة بعد أقل من ربع قرن الى خوض حرب عالمية ثانية أكثر ضراوة ؟

لقد ولدت إذن بين حربين، أي في فترة صراع الزمن والناس بين الحياة والموت وبين الانتصارات والهزائم . ولعل الزمن كله منذ بدأ وفي جميع العهود ظل في قبضة هذا الصراع : صراع الأحلام والحقائق ، وصراع الآمال والتطلعات لتغيير الأوضاع المفروضة. لأقل إذن إني ولدت في فترة ما بين الحربين مما جعل من العشرينات عقدا وسطا في سلسلة حلقات القرن العشرين. وربما طبعت هذه الوسطية حياتي كلها ، لأني أنتمي فعلا إلى العصر المخضرم الذي شببت فيه على مفاهيم ما قبل الحرب العالمية الأولى، ولكني وعيت أكثر تطورات الأربعينات ومفاهيم ما بعد الحرب العالمية الثانية، وتفاعلت معها تربية وفكرا وسلوكا .

في ركاب محمد بن يوسف

في ركاب محمد بن يوسف الذي اعتلى عرش المغرب يوم 18 نونبر (تشرين الثاني) 1927 تنطلق مسيرتنا عبر الأحداث ، فبه ارتبطت حياتي طيلة ما يناهز عشرين سنة من فترة الكفاح الوطني بما تخللها من ظروف المحنة والانتصار، وأثناءها شاء لي الحظ أن أرتبط بهذا الرجل وأن أراه وهو يعيش أمجاده وانتصاراته وأن أقترب منه وهو يناضل ويقاوم، وأن أزوره في منفاه فألقاه أصلب عودا وأشد ايمانا بالنصر من كل وقت مضى .

تذكر لي والدتي أني انطلقت أردد اسمه دون وعي قبل أن أخطو نحو الرابعة من العمر. فقد كانت أسرتي تتحدث يوم 18 نونبر(تشرين الثاني) من سنة 1927 عن موت السلطان المغربي مولاي يوسف في ذلك اليوم، وعن بيعة ابنه الأصغر سيدي محمد، وتستمع إلى والدي وهو يقص تفاصيل وقائع البيعة كما شهدها بالقصر الملكي بفاس، فإذا بي أنطلق مرددا في سذاجة طفل غرير لا يعي ما يقول: السلطان سيدي محمد ، السلطان سيدي محمد.

كان ذلك مبتدأ الحديث، ولم يكن أحد من أسرتي يتوقع أن خبر هذا المبتدأ سيؤلف في حياتي قصة ممتدة الفصول، وأن رباطا متينا سيشدني إلى هذا الاسم الذي التقطته عفوا ورددته دون وعي، وأني سأظل متصلا بهذا الرجل العظيم إلي وفاته .لم تكن لوالدي أية صلة بالحياة السياسية، ولم يكن ضمن أعوان المخـــزن(هكذا كانت تسمى آنذاك حكومة المغرب) ولم يشهد وقائع البيعة إلا بسبب ارتباطه بالمصاهرة مع أحد أعضاء الهيأة الوزارية المغربية آنذاك. وقبل مواراة جثمان السلطان بمدفن أجداده في ضريح مولاي عبد الله بجوار القصر الملكي بفاس حضر لتشييع الجنازة كبار المسؤولين وعلى رأسهم الصدر الأعظم (الوزير الأول) الحاج محمد المقري، وكان من بينهم زوج عمتي عباس الشرفي الذي كان يشغل منصب نائب الصدر الأعظم أو حسب اللقب الرسمي الكاتب الأول للصدارة العظمى.

بيعة السلطان الجديد

تقضي التقاليد في الظروف العادية عند مواراة جثمان السلطان الراحل أن ينصب خلف له تحقيقا للاستمرار وتجنبا لفراغ السلطة.وإذ كان صهرنا السيد الشرفي أديبا وشاعرا ومتوفرا على الشروط المتعارفة في كتاب الدواوين فقد عهد اليه بتحرير نص بيعة السلطان الجديد وكتابتها بخطه الجميل، كما عهد اليه بالإشراف على الترتيبات الإدارية والمادية التي يتطلبها حفل التنصيب. وهكذا استصحب معه والدي لمساعدته في المهمة الأخيرة.

وفي القصر الملكي بفاس التأم يوم 18 نونبر (تشرين الثاني) 1927 اجتماع سلطة البيعة مؤلفا من كبار رجال المخزن والأشراف والعلماء والقضاة والأعيان. وكانت مفاجأة كبرى توفر الإجماع على اختيار سيدي محمد الابن الأصغر .

لم يكن هذا الأمير الشاب قد تخطى عتبة الثامنة عشرة، بل ربما كانت سنه أقل من ذلك . وكان يقيم في قصر فاس بعيدا عن حياة العاصمة بالرباط منقطعا للتعلم باللغتين العربية والفرنسية من لدن أستاذه الفقيه محمد المعمري أحد الأطر الجزائرية التي كانت الإقامة العامة الفرنسية تستعملها في المغرب لاطمئنانها إلى خبرتها وحسن تعاونها. وسهل مهمة اختيار هذا الشاب الذي كان ألمع إخوته وأوفرهم استعدادا وإن كان أصغرهم سنا أن السلطان الراحل لم يرشح لولاية عهده أي واحد من أبنائه ، ربما لأن المنية باغتته في ظروف غامضة لاتزال إلى اليوم موضوع تساؤل. وربما لأنه كان بطبعه عزوفا عن فرض رأيه فآثر أن يترك للأمة بعده تحمل مسؤولياتها باختيار الأصلح من أبنائه .

في « الكواليس» كان الصراع على تولي السلطة (الذي ابتدأ قبل وفاة السلطان مولاي يوسف) يخيم على جو البيعة، إذ كان أعضاء حكومة المخزن موزعين بين أنصار الصدر الأعظم المقري وأنصار حاجب السلطان التهامي اعبابو. وكان هذا الحاجب يتطلع إلى أن يعيد عهد أحمد بن موسى المعروف « با احماد » الذي عمل حاجبا في عهد السلطان الحسن الأول ثم استغل بيعة ابنه السلطان عبد العزيز في سن مبكرة ليقفز إلى الصدارة العظمى ويجعل من نفسه وصيا على العرش، ويحكم مباشرة وطيلة ست سنوات باسم السلطان الصغير .

أما الحاجب اعبابو فكان يعمل جاهدا لنفس الغاية ولكن بأسلوب آخر. كان يسعى ليجعل من الأمير ادريس الابن الأكبر للسلطان مولاي يوسف وخليفته على مراكش ولي عهد المملكة.

وكان الحاجب يخطط لذلك باتفاق مع الجنرال موجان (Mougin) مدير الديوان العسكري للمقيم العام ستيغ (Steeg) وبمساعدة قدور بن غبريط الجزائري مدير التشريفات السلطانية .

ويبدو أن أكثرية رجال المخزن كانت تعارض نزعة اعبابو التسلطية، وتستنكر الوسائل اللاأخلاقية التي كان يستعملها لتنفيذ خطته. ومن بينها الوشاية لدى السلطان والإيقاع بينه وبين ولديه الأوسط مولاي الحسن (سيدي بابي) والأصغر سيدي محمد لتوجيه اختيار السلطان لولده الأكبر، إلا أن دهاقنة الإقامة العامة تنبهوا في النهاية الى خطورة لعبة الحاجب الطامع ، وتخوفوا أن يقابلهم بحكم قوي وهم مايزالون يواجهون المقاومة المسلحة في عدة واجهات ، وسلطتهم معرضة للهزات، فخذلوا الحاجب وساعدوا على الحيلولة بينه وبين الحضور لفاس للمشاركة في البيعة التي تمت كذلك في غيبة شريكه ابن غبريط الذي كان بتلمسان .

وببيعة سيدي محمد بن يوسف أقبر حيا الحاجب الطموح، وخلا الميدان للمقري الذي كان هو وأعضاء حكومة المخزن مجرد واجهة لإخفاء حكم الحماية المباشر.

في هذه الظروف تمت بيعة السلطان الشاب الذي لم يلتصق اسمه طيلة عهد أبيه بصراع النفوذ. وكانت مؤهلاته - ومنها صغر سنه - تقوي جانب ترشيحه.ويقال إن السيد المعمري الذي كان أستاذ الأمراء الثلاثة قد يكون لعب دورا أساسيا في ساعة الاختيار بتنويهه بمؤهلات الأمير الأصغر .

ويروي الصحفي الفرنسي جورج فوشي في كتابه المعنون «تحت أشجار الأرز بإفران» أن السيد المعمري ذكر «أنه عندما كلفه السلطان مولاي يوسف بتعليم أنجاله الثلاثة الأمراء مولاي ادريس النجل الأول ، ومولاي الحسن النجل الثاني، وسيدي محمد النجل الأصغر سنا شده المعمري لذكاء هذا الفتى الصغير الذي كان يتميز عن أخويه باستيعابه كل ما يسمع ، حتى إنه عندما جاء السلطان ذات يوم ليمتحن أبناءه وجد أن سيدي محمد هو وحده الذي يستظهر القرآن بطلاقة، فكافأه على اجتهاده وآثره بذلك على أخويه».

لاشئ في تقاليد العرش المغربي لا في عهد الدولة العلوية ولاقبلها يفرض أولوية الابن الأكبر في تولي المسؤولية العظمى، فالاختيار كان يتم في الغالب

بالبيعة التي كانت تنتهي بتكريس اختيار السلاطين لمن يرشحونهم من أبنائهم أو أسرتهم . ولم يكن السلاطين يرشحون دائما خلفا عنهم أو يختارون دوما خلفا لهم من بين أبنائهم. فالبيعة كانت المؤسسة الدستورية الحاسمة في موضوع اختيار الأصلح لتولي مسؤولية تربع العرش . وذلك ما تم ببيعة الملك الشاب.

قد يكون من بين الأسباب التي جعلت رجال الإقامة العامة يبتعدون عن تعديل كفة الميزان لصالح إدريس الابن الأكبر - بالإضافة إلى ما أسلفناه - طمعهم في أن يستفيدوا من المرحلة الانتقالية بين بيعة السلطان الشاب وبلوغه سن الرشد السياسي ليتعاملوا مباشرة مع زمرة طيعة من رجال المخزن، حتى يصدروا في هذه الفترة طائفة من التشريعات التي تتفق وتصوراتهم الاستعمارية وتمكنهم من تطبيق الحماية في شكل حكم مباشر .

ومما لاشك فيه أنه لم تكن سن السلطان المبكرة لتسمح له بممارسة سلطاته، وأنه لم تترك له حرية الممارسة السياسية طيلة السنوات الأولى من عهده. كان المقري ومن معه يمارسون السلطة باسمه من مراكز المسؤولية التي وضعوا على رأسها. وكان دورهم أن يصادقوا على ما تقدمه لهم الإقامة العامة من تشريعات وتدابير، خصوصا وقد أصبحوا مدينين لها بترجيح كفتهم في التهافت على السلطة.

الوصاية غير المعلنة

لقد أحيط الملك الشاب منذ بيعته بمجلس وصاية كان يرأسه الصدر الأعظم وإن لم يعلن رسميا عن ذلك المجلس بهذا الاسم . وهذا ما يفسر صدور ظهير(مرسوم ملكي) 16 مايو لسنة 1930 في ظل هذا المجلس وهو الظهير الذي اشتهر باسم الظهير البربري .

ما أكثر ما قيل عن هذه الحقبة التي أحيطت بمؤامرة صمت كامل شمل أيضا الحقبة الأخيرة من حياة السلطان مولاي يوسف ، باستثناء ما تسرب من همس البعض بامتناعه عن توقيع عدد من الظهائر مدة استمرت بضعة أشهر قبل وفاته، قد يكون من بينها الظهير البربري ، وأنه من أجل ذلك مات مسموما إثر عودته من باريس لمجاهرته الحكومة الفرنسية بمعارضة مشاريعها الرامية إلى تطبيق الحماية بما يخالف نصها وروحها .

وكيفما كان واقع الأمر،فالذي يعلم ما كان يتوفر عليه السلطان محمد بن

يوسف من شعور ديني ووطني، وما كان يميزه من تعلق بشعبه وغيرة على الإسلام - وقد لمست ذلك فيه عن كثب - لايمكن أن يقبل أن يكون الملك الشاب قد وعى حقيقة مقتضيات الظهير البربري ساعة إمضائه إن كان فعلا قد أمضاه. وما كان ليمضيه راضيا لو أن البطانة الممارسة للوصاية الفعلية نبهته الى خطورته. وإن الذي أكده التاريخ هو أن رجال الحماية أعدوا للأمر عدته في سرية بالغة، وأنهم انتزعوا المصادقة على ذلك الظهير بطرق ملتوية، علما منهم بأنه لايمكن أن يقبل السلطان المصادقة على تجزئة كيان بلاده أو يرضى بتقسيم شعبه الى عناصر يقتطع بعضها عن سلطته ونفوذه.

الإرث الثقيل

كانت بيعة فاس امتدادا لحكم الدولة العلوية الذي قام منذ بداية القرن السابع عشر.وكان السلطان المبايع في ذلك اليوم هو الثاني والعشرين في سلسلة سلاطين هذه الدولة التي تنتسب إلى جدها الأعلى مولاي علي الشريف الذي هاجر جده الحسن (الداخل) إلى المغرب قادما من ينبع النخيل قرب المدينة المنورة، كما كان ثالث سلاطين المغرب على عهد الحماية بعد عمه السلطان عبد الحفيظ فوالده المولى يوسف. وهو حفيد السلطان الحسن الأول الذي بويع سنة 1873 واستمر حكمه طيلة إحدى وعشرين سنة .

لاتفصل بين نهاية عهد الجد وبداية عهد الحفيد إلا فترة ثلاثة عقود كم هي قصيرة في عمر الزمان ولكن كم كانت حافلة بالوقائع . لقد سار الزمن خلالها يركض كما لو كان يفر من ملاحقة الأحداث .

وبين إعلان الحماية الفرنسية (30 مارس (آذار) 1912) وبيعة السلطان محمد بن يوسف (18 نونبر 1927) عقد ونصف فحسب، ولكن ما أكثر ما جد في هذه الحقبة الوجيزة من تطورات ، وما أثقل ما خلفته من أعباء كان على الملك الفتى أن يشمر لها عن الساعدين منذ أولى لحظات توليه مقاليد العرش وإن كانت البطانة المحيطة به تزيد الوزر كيلا بتوخيها إرضاء عناصر الحماية الممسكة بالعصب الرئيسي للدولة.

يقال إن التاريخ يعيد نفسه. وكأنه عند أصحاب هذه المقولة لايعدو أن يكون تكرارا لنفس الأحداث . ويقال إن عجلة التاريخ لاتتوقف عن الدوران. ولكن ليس صحيحا أن أحداث التاريخ متشابهة إلى هذا الحد ، أو أن الزمن يجري بها في نفس

الدوامة والنسق والسرعة. فالأحداث تعترضها نفس العوارض البشرية ، إذ قد يمتد نشاطها ويتضاعف حتى ليصاب ملاحظها بدوار، وقد تمنى بالكسل والركود حتى لايسجل لها حركة أو وجود. . إنها كالناس : فيها ما يمتد عاليا امتداد العمالقة، وماينزل وطيئا الى حجم الأقزام.ومن بينها ما يبرز علما يفرض نفسه فيثير الانتباه ويشد إليه الأبصار ، وما يظل نكرة لايعلم بوجوده أحد.

وما كانت الفترة الفاصلة بين عهدي السلطانين الحسن الأول ومحمد بن يوسف إلا من ذلك النوع من الأحداث بارزة المعالم ، التي تفرض على التاريخ تسجيلها في غمار تلاحقها وتزاحمها وتنوع تطوراتها .

كان المغرب على مفترق الطرق عندما اعتلى الحسن الأول العرش سنة 1873 خلفا لوالده السلطان محمد بن عبد الرحمن(محمد الرابع) ، فقد نما طمع الدول الأوروبية في بسط نفوذها السياسي والاقتصادي على عرشه وشعبه وربوع مملكته.وكان المغرب عندما تولى السلطان محمد بن يوسف (محمد الخامس فيما بعد) يئن تحت عواقب هذا الجشع الاستعماري الذي بدا خلال ما بين عهدي السلطانين في شكل تنين متعدد الرؤوس تنمو له عند كل خطوة أنياب ومخالب .

قبل ولاية الحسن الأول وفي أيام والده محمد الرابع تنامت المطامع الدولية الاستعمارية في اقتسام المغرب، واستهدفت إسبانيا شماله خاصة وقد سبق أن جثمت على مليلية وسبتة المغربيتين مخططة للغزو. فقد احتلت مليلية سنة 1497، ثم سطت على سبتة سنة 1640 ، ومن حدود سبتة أخذت تستفز المغاربة، وأعلن برلمانها على المغرب في 22 أكتوبر(تشرين الأول) سنة 1859 حربا سقطت فيها في بداية سنة 1860 مدينة تطوان ، وحملت الحرب اسم حرب تطوان. وفي عملية ابتزاز فرضت إسبانيا على المغرب – مقابل الجلاء عن المدينة الشهيدة-إتاوة نقدية ظلت خزينة السلطان محمد الرابع تؤدي أقساطها طيلة عهده من مداخيل الجمارك على موانئ الساحل. واستمر النزيف حتى على عهد الحسن الأول نفسه الذي واجه هذا الوضع المالي الثقيل.

وامتدت المساومات الاستعمارية طيلة عهد هذا السلطان ، فواجهت ديبلوماسيته تكتلات القوى العظمى التي تحلبت أشداقها لتأخذ كل واحدة موطئ قدم بالمغرب سواء سياسيا أو اقتصاديا . وتوالت المواجهة بين الديبلوماسيين المغاربة الرافضين للمساومات وممثلي الدول الكبرى الطامعين في تحقيق المكتسبات لحكوماتهم على حساب سيادة المغرب ووحدته .

وهكذا شهدت سنة 1878/1877 مؤتمراً دوليا عرف باسم مؤتمر طنجة تلاه سنة 1880 مؤتمر مدريد الشهير، حيث كان محمد بركاش وزير خارجية الحسن الأول يواجه وحده مندوبي اثنتي عشرة دولة أجنبية كانت تلتقي على أرضية مؤامرة دولية لتحقيق أطماع استعمارية مشتركة.وكانت جميع تلك الدول تتطلع إلى أن تكون لها حمايات فوق أرض المغرب، وأن تحظى بامتيازات اقتصادية تفضيلية. ولم يفلح المغرب داخل ذلك المؤتمر في ثني اشتطاط الدول الطامعة في هذه الامتيازات ، إذ كان ممثل فرنسا مصرا على الاحتفاظ للدول الأجنبية بحق بسط حماياتها على المواطنين المغاربة كحق مكتسب لايجوز المس به ، متذرعا في موقفه ذاك بمقتضيات الاتفاقية التجارية التي فرض على المغرب إمضاؤها سنة 1863 بعد حرب تطوان التي عرفت باسم حرب سنة 1860 . وقد نجح ممثل فرنسا فأقر المؤتمر الدولي له بما أراد، بل أكثر من ذلك أقر المؤتمر للأجانب بحق تملك أراضي المغرب. وعندما اجتمعت الدول في مؤتمر برلين (1884 - 1885) أقرت الدول الطامعة في الأراضي المرشحة للاستعمار بحق تملكها لما سمي بالمدى الضائع (Espace Perdu) كلما قامت دولة كبرى بمجهود بحث أو اكتشاف في تلك الأراضي. وكان ذلك يعني تبرير احتلال أراضي الغير وإضفاء الشرعية على الغزو الاستعماري الدولي الذي أعطى له مؤتمر برلين النور الأخضر للاستيلاء على أراضي الشعوب المستضعفة ، وكان المغرب كغيره من أقطار إفريقيا ضمن الدول المرشحة للخضوع للنفوذ الاستعماري . ومن هنا قيل إن هذا المؤتمر انتهى بإبرام الدول فيما بينها العقد الاستعماري.

هكذا ورث الحسن الأول تركة ينوء بها الكاهل ، إلا أنه قدرها حق قدرها وصمم على مواجهتها بالصبر والمثابرة عندما كان يردد « إن تيجان الملوك معقودة على صهوات خيولهم» . وتطبيقا لهذه المقولة اتخذ من صهوة جواده عرشه المتنقل، عندما شن حركاته(بتسكين الراء كما كانت تدعى باللهجة المغربية) لمطاردة فلول التمرد والعصيان التي كان الأجنبي يذكي جذوتها ، ولتنظيم أقاليم المملكة والاتصال المباشر بالسكان ، وظل كذلك لايتفيأ ظل الراحة يوما إلا لفحته رمضاء الجهد والعناء أياما. وكان يراهن على تأخير الاستحقاق المحتوم ، ويتزود للعراك بالنفس الطويل، لقد كافح في جميع الواجهات العسكرية والديبلوماسية والاقتصادية ، وقاوم الضغوط وصمد في وجه المؤامرات ، بل طبق حتى سياسة الغياب في مفاوضته للأجانب عندما كان يغادر العاصمة للتجول في الأقاليم والجهات تاركا في الانتظار بعثات الدول التي كانت تفد على المغرب لممارسة ضغوطها عليه معتمـــــــدا على التسويف

لاستثمار الزمن الذي لم يكن يهيئ له دائما الظروف المواتية .

وبعدما يزيد على عشرين سنة امتدت بهذا الكفاح المرير قضى الحسن الأول نحبه وهو يعاني مرارة الصعوبات التي عاقته عن تحقيق مراده ، فقد كتب عه المؤرخ الفرنسي ميج (Miege) في كتابه « الحسن الأول» ، «أنه كان يلاحظ عليه في آخر حياته أمارات الحزن والأسى ، وتعكس نظراته شعور الملل والإحباط ».

الفصل الثاني

الحماية والمقاومة

فرض الحماية

بعد المؤامرات الدولية المشار إليها فيما سلف أخذت الدول الأوربية الطامعة في اقتسام الأراضي الإفريقية عامة والمغرب خاصة تبرم اتفاقيات ثنائية لتوزيع الأسلاب في غيبة المعنيين بالأمر . وهكذا أبرمت فرنسا وأنجلترا الاتفاق الودي سنة 1904. وبمقتضاه أطلقت فرنسا اليد لأنجلترا في بسط حمايتها على مصر مقابل تخلي أنجلترا لفرنسا عن أطماعها في المغرب. وأبرمت فرنسا يوم رابع نونبر(تشرين الثاني) سنة 1911 اتفاقية مع ألمانيا التي كانت ضمن الدول الطامعة في المغرب تنازلت فيها فرنسا لألمانيا عن مطمعها في الكونغو مقابل تنازل ألمانيا عن مطالبتها بجزء من المغرب . وتم الاتفاق أيضا بين فرنسا التي تنازلت عن ليبيا وبين إيطاليا التي سلمت لفرنسا بالمغرب ، وأمضت فرنسا وإسبانيا عدة اتفاقيات سرية وعلنية وافقت فرنسا بمقتضاها على وضع منطقة الريف في شمال المغرب وإفني وطرفاية في جنوبه تحت نفوذ إسبانيا . أما طنجة فقد أعلنت منطقة دولية.

وبينما كانت فرنسا تؤمن ظهرها للتوغل في أرض المغرب باستصدارها الموافقة الدولية في عملية صفقة رابحة، تقدمت بوارجها الحربية من ميناء تولون الفرنسي إلى ميناء الدار البيضاء لتقصفه يوم سابع غشت (آب) سنة 1907 وتوطئ السبيل لتوغل الجيوش الفرنسية في هذه الناحية من المغرب في عملية تطويق العاصمة فاس، التي كانت تستهدفها فيالق فرنسية أخرى قدمت من الجزائر واجتازت الحدود الشرقية إلى أن دخلت مدينة وجدة في نفس السنة.

وعندما أحكمت فرنسا هكذا الطوق دوليا على عنق المغرب،وحاصر الجيش الفرنسي عاصمة فاس حيث كان يقيم السلطان عبد الحفيظ دقت بالنسبة لفرنسا ساعة الحسم، فعرضت على السلطان أن يربط مصير المغرب بها بالإمضاء على عقد حماية نقلت بعض مقتضياته من اتفاقية باردو التي أمضاها باي تونس مع فرنسا سنة 1881 وبسطت بمقتضاها فرنسا حمايتها على تونس .

ولقد حاول السلطان أن يرفض العرض الفرنسي، وتلكأ طويلا في قبوله مهددا فرنسا بالتخلي عن العرش إن هي انتزعت منه بالقوة الإمضاء ، وطال أمد الحوار بينه وبين مبعوث الحكومة الفرنسية السفير رينيو (Regnault) الذي كان مفوضا للإمضاء على العقد باسم فرنسا. وكان السلطان يعترض على عقد الحماية المقترح بأنه يتنافى مع مقررات آخر مؤتمر دولي انعقد حول مصير المغرب بالجزيرة الخضراء سنة 1906 وقرر استقلال السلطان، ووحدة تراب المغرب، والحرية الاقتصادية للدول، أو ما سمي بالباب المفتوح.

ولا يستطيع مؤرخ أن يجزم بأن السلطان أمضى فعلا على العقد، فطيلة عهد الحماية الفرنسية الذي امتد ما يقرب من خمسين سنة،لم يعثر المغرب على الوثيقة الرسمية الممضاة ، و«الكي دورسي» ظل لا يعلن إلا عن النص الفرنسي للعقد، ولايتصور أن يكون السلطان قد أمضى عليه، كما لايتصور أن لايكون للعقد إلا نص فرنسي، بينما لغة المغرب ظلت اللغة العربية وحدها .

وإذا صح أن السلطان قد أمضى في نهاية الأمر العقد يوم 30 مارس (آذار) 1912 فإنه قد يكون قد اعتبر أن ذلك العقد يحتفظ للمغرب بوضعيته القانونية الدولية وإن كان يضعف من سيادته الخارجية، مادام لايعطي لفرنسا إلا حق التصرف باسمه في ميداني الدفاع الوطني والديبلوماسية، حتى لقد قيل عن المقيم العام الفرنسي الذي أصبح يمارس باسم السلطان الديبلوماسية الخارجية إنه وزير خارجية المغرب .

إن الحماية- بمفهومها القانوني الدولي - عقد بين دولتين تظل الدولة المحمية بمقتضاه تمارس سيادتها الداخلية، وتقر تشريعاتها وتنظيماتها بإرادتها السياسية، ولاتعتبر مستعمرة فاقدة ذاتيتها القانونية ، بل ترتبط الدولتان الحامية والمحمية بقواعد القانون الدولي العام .

إن الحماية كانت في الظروف التي أشرنا إليها أخف الضررين ، إذ كانت البديل عن الاحتلال وإدماج المغرب في شخصية المحتل وكيانه، وهو المصير الذي عانت منه الجزائر طيلة ما ينيف على قرن وربع قرن حيث أعلنت فرنسا بإرادتها أن الجزائر ثلاث مقاطعات فرنسية لا تتجزأ ولا تنفصل عن التراب الفرنسي، وطبقت عليها القوانين والتشريعات الفرنسية الصادرة عن البرلمان الفرنسي، ولم تعد لها حكومة وطنية.

ولم يكن في مقدرة السلطان عبد الحفيظ أن يصد الهجمة الفرنسية على المغرب، ولا أن يفاوض مفاوضة الند للند، إذ لم يكن يعترض على الحماية من مركز

القوة، خصوصا وفرنسا قد عزلت النظام المغربي دوليا، وطوقت عاصمته عسكريا،وأثارت الاضطرابات والفتن فيه داخليا .

وبعد نهاية المفاوضات لم يجد السلطان مخرجا له أمام رفض الشعب المغربي للحماية في المدن والقرى والجبال إلا أن يتنازل عن العرش معلنا في تصريح بطولي: «لقد جئت الى العرش سلطان الاستقلال ، ولا أرضى أن أصبح سلطان الحماية».

لقد كتبت جريدة «لوطان» الفرنسية عن هذه الملحمة التاريخية مقالايشخص وقائع جو المساومة الذي تم فيه الإعلان عن توقيع السلطان لعقد الحماية مما جاء فيه: « لقد امتنع السلطان عن إمضاء العقد، وصرخ في وجه السفير رينيو:« ابحثوا عن سلطان آخر يمضي معكم عليه» وكان بادي الغضب، فحاول السفير تسكين غضبه دون جدوى. وأثناء المفاوضات كان السلطان يستوضح مخاطبه الفرنسي عن المادة الواردة في العقد التي تأذن لفرنسا باتخاذ التدابير العسكرية التي تستلزم وضعية المغرب المضطربة اتخاذها»، وتزيد الصحيفة« لوطان» قائلة : « كما أن السلطان طالب بأن تعطي فرنسا ضمانات صارمة لاحترام التعاليم الإسلامية، وتقاليد دولة المغرب المرعية» وختمت مقالها بالعبارة التالية:« لقد كانت معاهدة فاس بتاريخ 30 مارس (آذار) 1912 أخطر معاهدة يوقع عليها السلطان وهو يشخص سيادة المغرب الكاملة، وكانت آخر ما وقعه».

السلطان يستخلص النتائج

كان السلطان عبد الحفيظ يدرك أن شعبه غير راض عن الواقع الفرنسي المفروض الذي لم يملك هو مقاومته، خاصة وهو مقيد ببيعة صيغت في شكل ميثاق دستوري وتلقي عليه التزامات. فهي تلزمه «أن يسعى جهده في رفع ما أضر بالرعايا من الشروط الحادثة في الخزيرات(إشارة إلى مؤتمر الجزيرة المنعقد سنة 1906) حيث لم توافق الأمة عليها، ولاسلمتها ، ولارضيت بأمانة من كان يباشرها، ولا علمت بتسليم شئ منها، وأن يعمل جهده في استرجاع الجهات المأخوذة من الحدود المغربية، وأن يباشر إخراج الجيش المحتل من وجدة والدار البيضاء، ويزين صحيفته الطاهرة بحسنة استخلاصهما، وأن يستخير الله في تطهير رعيته من دنس الحمايات، والتنزه عن اتباع إشارة الأجانب في أمور الأمة. وإذا عرض ما يوجب مفاوضة مع الأجانب

فلا يبرم أمرا إلا بعد الرجوع للأمة حتى يقع الرضى منها بما لايقدح في دينها أو عوائدها أو استقلال سلطانها».

لذا ظل السلطان عبد الحفيظ في الفترة الحرجة الفاصلة بين موعدي الإعلان عن الحماية الفرنسية والتنازل عن العرش يعاني من شعور الحسرة، ويعمل للخروج من المأزق الذي حبس مكرها فيه.

قيل إنه حاول مرارا التسلل من قصره مخططا لشن مقاومة مسلحة بجبال الأطلس،وأنه اصطدم دائما بالأرصاد والعيون التي وضعتها سلطات الحماية داخل قصره المطوق.

لقد كانت حقا فترة معاناة قاسية بالنسبة له وهو الذي اشتهر بأنه لم يكن يلين له عراك. كان بمثابة الأسد الهصور الذي فارق العرين الى قفص.وكان ابتعاده عن المسؤولية ومغادرته المغرب على متن الباخرة دوشايلا(Duchayla) إلى باريس التي اختارها له الفرنسيون منفى بداية فرجة كروبه.

وقد قيل أيضا إنه قبل أن يمتطي الباخرة كسر المظلة التي تعتبر شارة الملك في المغرب، والتي كان أحد أعوانه يرفعها فوق رأسه ليظله بها في إشارة رمزية منه إلى أنه استدبر مسؤولية الملك إلى غير رجعة.

وعلى ضفاف السين بباريس كان السلطان يستعرض في غربة المنفى فصول ملحمته، ويقوم في هدوء بنقد ذاتي، ويتساءل وحيدا أما كان عليه أن يختار غير ما فعل ؟ وهل لم يكن واجبه أن يثور ويحرض قومه على الجهاد؟ فيجيب متعللا وهو الشاعر الفحل في قصيدة رائعة من ستين بيتا :

أآمر بالجهاد وجل قومـــــي يرى أن الحماية فرض عـــــين ؟

وهو يشير بذلك إلى نظام حمايات المغاربة الذي عممته الدول الطامعة في استعمار المغرب طيلة أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين،حيث كانت تمنح تلك الحمايات لطائفة من المواطنين تخول لهم جنسياتها مع ما يتبع ذلك من امتيازات قضائية وقانونية، أو ترفعهم بحمايتها إلى مستوى مواطن مغربي متميز محصن ضد الوقوع تحت طائلة القانون المغربي، وغير خاضع للمحاكم المغربية. وكان ذلك أحد العوامل التي ساعدت على شيوع الانحلال وتفكك السلطة الوطنية، وخلقت المناخ لتفشي الاضطرابات الداخلية، مما عجل بفرض الحماية.

التعلل بالإصلاح

ينص الفصل الأول من معاهدة الحماية على «أن حكومة الجمهورية الفرنسية اتفقت مع جلالة السلطان على إنشاء نظام جديد في المغرب يسمح بالإصلاحات الإدارية والقضائية والثقافية والاقتصادية والمالية والعسكرية التي ترى الحكومة الفرنسية فائدة في إدخالها للمغرب».

وكان المراد من تصدير هذه المقتضيات في صلب المعاهدة إضفاء الصبغة الإصلاحية على رسالة الحماية وتقديم نظامها للشعب المغربي والرأي العام الدولي في شكل نظام تمديني حضاري قصده تطوير أوضاع الدولة المحمية وجعلها قادرة على مسايرة العصر ضمن ركب قافلة التقدم.

وكلمة الحماية نفسها توحي بأن الدولة الحامية تقدم للدولة المحمية نوعا من الخدمات الإنسانية، فهي تبقي على كيانها الدولي، وتعمل لترشيدها دوليا، وتسهر على الدفاع عن ترابها ووحدته في الداخل ، وتقوية شخصيتها في الخارج، وتنقلها من مرحلة الضعف والانحلال إلى مصاف الدول الراقية التي تنعم بالاستقرار وتتدرج على طريق التقدم والتطور .

وقد انطلقت الفكرة الإستعمارية عند الدول الرأسمالية خاصة بعد الثورة الصناعية من مرحلة شعورها بالاستعلاء وتفوقها المادي إلى توسيع مجال هيمنتها وتبرير بسط نفوذها على الشعوب المستضعفة. وأكد منظرو الفكرة الإستعمارية أمثال شارل ديلك (Charles Delke) وسيلينغ (Seeling) الإنجليزيين، وبول لوروا بوليو(Paul le Roy Baulieu) وجيل فيري (J-Ferry) الفرنسيين أن عظمة الدولة تقاس بامتداد ترابها الوطني أو مجالها القومي، وأن رسالة الدول العظمى هي بسط نفوذها على الغير للقيام بعمليات الإصلاح والتمدين .

وجاء القانونيون- من دهاقنة الاستعمار - ليعززوا هذه النظرية بالوسائل القانونية ، فأفتوا بشرعية الأمر الواقع ومطابقة الغزو الاستعماري لمقتضيات القانون الدولي، وبرروا ذلك خلقيا بدواعي رسالة التمدين والإصلاح التي يؤديها المستعمرون للبلدان المحتلة، ووصفوا الحرب الاستعمارية بأنها حرب عادلة، وأن الذين يعارضونها

من الشعوب الضعيفة إنما يقفون في وجه امتداد الإشعاع الحضاري وانتشار القيم المادية والروحية التي يحارب الاستعمار لفرضها لصالح الشعوب المتوحشة أو العاجزة عن خوض غمار التطور.

وباسم الإصلاح تنافست الدول الاستعمارية على المغرب متعللة بمساعدته على تطويره ، ثم عندما تنازلت عنه لفرنسا في الصفقات الدولية الثنائية أو متعددة الأطراف أعلنت أنها تطوق عنق فرنسا بالمهمة الإصلاحية في المغرب .

ولتتحلل فرنسا من هذه المسؤولية تجاه الدول التي تنازلت لها كان من المنطقي والطبيعي أن تتضمن المادة الأولى من معاهدة الحماية التنصيص على مساعدة فرنسا للمغرب بإدخال الإصلاحات على تنظيماته وتراكيبه .

والواقع أن السعي إلى ما دعي بإصلاح المغرب من طرف الدول الطامعة فيه كان يهدف - بعد أن أخذت تقضم أطرافه - إلى خلق المناخ اللازم توفره لاستقرار جالياتها على أرضه في نفس الظروف المادية التي كانت تتوفر لها في أوطانها، ولم يكن الهدف منه رفع مستوى المواطن الأهلي. وكانت الإصلاحات تعني تجهيز المغرب ماديا بما يوفر استغلال خيراته بشق طرقه وتطويع أرضه لتوظيف الرأسمال الأجنبي بما يضمن النهب السريع لخيراته وموارده.

وقد طبق الإصلاح في المغرب منذ إقامة نظام الحماية من هذا المنظور الاستغلالي البشع، وكان دائما في صالح الجهات التي يقطنها المستعمرون الوافدون من أعضاء الجاليات في المدن الكبرى، أو في مزارع المعمرين الذين جهزت الأراضي التي اغتصبوها بالوسائل الزراعية الميكانيكية المتطورة تحت سمع الفلاح المغربي وبصره الذي ظل مجبورا على استعمال الوسائل البدائية، مما اضطر معه إلى ترك أرضه لفائدة المعمر الأجنبي والعمل أجيرا في مزارعه العصرية .

وليس صحيحا أن الحماية قد استقرت على فراغ بعد فرضها على المغرب، فالمغرب وإن كان سنة 1912 قاصرا عن النهوض بنفسه في المجالات المادية، وفرضت عليه أوضاع واضطرابات خلقت له من الخارج لتأهيله لتقبل الاستعمار الأجنبي، فإنه رغم ذلك كان في مصاف الدول ذات التاريخ المشرق والحاضر المتميز، وكان وراءه أزيد من أحد عشر قرنا توالت في ظل استمرارية الحكم والدولة. والنظام المغربي الذي وجدته الحماية قائما ظل الى سنة 1912 مخاطبا مؤهلا للحوار مع الأجانب ، يساهم في المؤتمرات الدولية، ويبرم اتفاقات التعاون الدولي، ويتوفر على إدارة ذات تقاليد عريقة، وتنظيمات دستورية ممتدة جذورها إلى التاريخ الضارب في القدم.

وكان له جيش نظامي يصنع المغرب نفسه محليا جزءا من سلاحه في مصانع السلاح والذخيرة الوطنية التي أقامها لنفسه بمجهوده الخاص.

لنستمع إلى الجنرال ليوطي أول مقيم عام لفرنسا وهو يتحدث إلى حكومته عن المغرب كما كان عند إعلان الحماية في تقرير بعث به إلى باريس وجاء فيه:

«لقد وجدنا هنا في المغرب دولة وشعبا بالمعنى الصحيح. ويكفي الرجوع قليلا إلى الماضي لنجد أن للمغرب حكومة فعلية متميزة دوليا،ذات وزراء وسفراء عظام، ولهم علاقات وطيدة مع دول أوربا، ولازال الكثير منهم حيا إلى اليوم. إن البلاد كانت تتوفر على مؤسسات قروية واجتماعية، وتعمل بواسطة منظمات مهنية، وجماعات منتخبة من لدن القبائل .وكانت تقوم بها مؤسسات تجارية ينوب عنها وكلاء في أكبر الموانئ الإنجليزية والألمانية والإيطالية».

وبذلك شهد شاهد من أهلها. وفي بادئ الأمر فإن الحركة الوطنية السياسية التي قامت في المغرب في الثلاثينات سجنت الحماية في منطقها فطالبت فرنسا بالوفاء بالتزاماتها بادخال الإصلاحات التي تعهدت بها ضمن مقتضيات عقد الحماية، وكانت تعلم أن الحماية لاتنوي مطلقا أن تطبق أي إصلاح، ولكن الحركة الوطنية كانت تسجل في تلك المرحلة أن المغرب يتطلع فعلا إلى التطور وولوج أبواب التقدم، وأن مسؤولية تعويقه ترجع إلى فرنسا التي جعلت من معاهدة فاس حبرا على ورق وطبقتها في شكل استعمار سافر. وكان هذا التعجيز التكتيكي هادفا لإدانة فرنسا بعدم الوفاء ، وممهدا للمطالبة بالاستقلال البديل الصحيح للإصلاح المزعوم، والقادر وحده – كما ستؤكد الظروف ذلك – على دفع عجلة التقدم المغربي إلى الأمام

المقاومة المسلحة

منذ أن أخذت القوات الفرنسية والإسبانية تتوغل في المغرب قبل إعلان الحماية انطلقت الانتفاضة الشعبية المسلحة في عمليات حرب تحريرية امتدت طيلة سبع وعشرين سنة (1907-1934) وواجه الجيش الفرنسي النظامي المجهز بالأسلحة المتطورة وحدات شعبية متفرقة لم تكن تحمل سوى بنادق من صنع قديم ، لكنها كانت تغنم في كل معركة من السلاح الذي يتركه الجيش الفرنسي المهزوم ما يساعدها على مواصلة المقاومة. وكان وضع مقاومة المغاربة لإسبانيا لايختلف عن ذلك في الشمال .

وساعدت حرب العصابات التي قادتها حركة التحرير الوطنية الوطنيين الثوار على كسب المعارك التي كانوا يتحكمون في شنها بينما لم يكن الجيش الفرنسي يملك ما يمكنه من التغلب دائما فيها ، إذ كان جيشا نظاميا لاخبرة له بهذا النوع من الحرب.وكانت إسبانيا تمنى بنفس الهزائم .

وجاء الإعلان عن فرض الحماية الفرنسية واقتسامها المغرب مع إسبانيا ليزيد المقاومة المسلحة ضراوة وشراسة. فمن عاصمة فاس انطلقت رصاصات الاحتجاج على انتهاك فرنسا استقلال المغرب أسبوعين فقط بعد ذلك الإعلان خلال ما عرف بأيام فاس الدامية (17و18و19و20 أبريل نيسان) 1912 وذلك عندما ثارت وحدة من الجيش المغربي المرابط بفاس وقتلت الضباط الفرنسيين الذين وضعتهم الحماية على رأسها ، وفجر هذا الحدث تضامن المدينة كلها.فلجأت الحامية الفرنسية المرابطة بمرتفعات العاصمة بضاحيتي ظهر المهراز ودار الدبيبغ إلى إعدام قادة الثورة وقمع السكان. وقد كتب المؤرخ الفرنسي فوانو الذي حضر هذه الأحداث عن هذه الانتفاضة متهما السلطان عبد الحفيظ بأنه هو مدبرها .

وانتشرت الانتفاضة انتشار نقطة الزيت ، وتناوب على قيادتها في تادلة موحى وسعيد بطل القصيبة وسيد الحسين بطل أحنصال، واستمرت المعارك في هذه الناحية من سنة 1913 إلى سنة 1933.

وفي الجنوب جرت معارك التحرير بقيادة المجاهد الشيخ ماء العينين مؤسس مدينة سمارة الذي ثار على دخول الجيش الفرنسي للدار البيضاء وخرج من الساقية الحمراء للجهاد على رأس ثلاثمائة من رجاله الملثمين أو الرجال الزرق حيث اشتبكوا مع الجيش الفرنسي وكبدوه خسائر جسيمة. وانتهت المسيرة بالشيخ ماء العينين إلى عاصمة فاس فاستقبل من لدن السلطان المولى عبد العزيز وأعلن أنه سيواصل الجهاد ضد المعتدين بمباركة السلطان وتشجيعه .

وبعده ظهر ولده أحمد الهيبة قبل أن يتجاوز السابعة عشرة من عمره، فسيطر لفترة على مدينة مراكش وسجل انتصارات على الجيش الفرنسي في منطقة الشاوية، وأمكنه أن يسيطر على معظم الجنوب في الفترة المتراوحة من 16 غشت (آب) إلى 27 نوفمبر(تشرين الثاني) 1912. وقد اشتهر في هذه المعارك اسم قائد جيشه مربي ربو الذي واجه الجنرال الفرنسي شارل مانجان (Charles Mangin) الذي لمع اسمه فيما بعد خلال معارك الحرب العالمية الأولى .

وعرفت حركة التحرير المغربية التي نتحدث عنها معارك ضارية في جبال

الأطلس استمرت بدورها من سنة 1913 إلى سنة 1934. وسجل تاريخها اسم البطل موحا وحمو الزياني الذي واجه الجنرال الفرنسي بويميرو (POYEMIRAU) الذي أصيب بجرح قاتل في إحدى معارك تافيلالت يوم 15 يناير 1919 .

وقد شهد المؤرخون الفرنسيون العسكريون لموحى وحمو بميزاته البطولية وأشادوا به كبطل مثالي ظل في شباب مقاومته بالرغم من أنه كان يبلغ سبعين سنة عندما استشهد سنة 1912 في آخر معركة، بعدما تحصن وراء صخرة. واستمر يطلق النار على الجيش الفرنسي إلى أن سقط جميع رفاقه ونَفَدَت آخر رصاصة في بندقيته.ولما أحس بمن كان يهيب به من خلفه أن يستسلم ، وقف وبدا من وراء الصخرة رافعابندقيته وكأنما سيصوب منها رصاصة فأردي قتيلا في الحين.

ومن بين المعارك الظافرة التي قادها هذا البطل معركة الهري التي اشتهرت في تاريخ هذه المعارك. وتقع الهري على بعد عشرة كيلومترات من مدينة خنيفرة. وقد جرت معركتها سنة 1914.

ومن سنة 1919 إلى سنة 1934، برزت المقاومة المغربية المسلحة في ناحية سفرو وفي أغبالو نكردوس والمناطق الشرقية في الأطلس المتوسط، وسجل فيها التاريخ أسماء قبائل مجاهدة كقبيلة آيت خماش بقيادة بلقاسم النكادي، وعسو باسلام الذي هزم الفرنسيين هزيمة نكراء يوم 12 فبراير(شباط) 1933 وبقي اسمه مرتبطا باسم معركة جبل بوغافر، وهو من قبيلة آيت عطا التي توقفت عند بطولاتها أقلام كتاب عالميين خاصة منهم فرنسيين وانجليزيين .

وفي كل مكان أذاقت المقاومة المغربية الأمرين جيوش الاحتلالين الفرنسي والإسباني.ولايمكن الإلمام بتفاصيل هذه الحقبة البطولية التي أفرد لها المؤرخون العالميون كتبا وأبحاثا غنية بالدلالات،وقد ألفت هذه الوقائع الحربية ما سماه الفرنسيون «معركة المغرب» التي ينبغي تسميتها حرب المقاومة والتحرير المغربية وفيها حاورت الثورة الشعبية في الجنوب والشمال فرنسا وإسبانيا بمنطقيهما عملا بمبدأ لايفل الحديد إلا الحديد،حيث أصبح المغرب بؤرة حامية، فارضا على الدولتين الحاميتين ثمنا غاليا أدّتاه في شكل ضحايا وخسارات في العتاد وتكلفة مالية باهظة وهزائم متلاحقة.

وقد وجدت فرنسا نفسها في وضع حرج ابتداء من سنة 1914 عندما أصبحت جيوشها تخوض غمار الحرب العالمية الأولى في الوقت الذي كانت تواجه فيه حرب المغرب، وساعد توزع المجهود العسكري الفرنسي بين الحربين على الإمداد في عمر

المقاومة المغربية التي استفادت من هذا الوضع.

وطيلة المواجهة المسلحة كان الاستعمار الفرنسي يغالط المجتمع الدولي ورجال المخزن بأنه إنما يقوم بما سماه عمليات تهدئة وإقرار الاستسلام لسلطة النظام المغربي في مناطق أسماها« بلاد السيبة»(أي التمرد) مقابل « بلاد المخزن» التي يسود فيها النظام وتدين بالولاء للسلطان ، وكان يبرر هجوماته بأنها تستهدف حماية السلطان من المتمردين المغاربة، سعيا منه إلى التشكيك في سلامة أهداف الانتفاضة الشعبية التي كانت موجهة في واقع الأمر ضد احتلاله .

ثورة الريف

وإلى نفس الأسلوب لجأ الإسبانيون عندما واجهوا ثورة البطل محمد بن عبد الكريم الريفي الخطابي التي اندلعت سنة 1920، حيث قدموها في شكل رد فعل شخصي انتقاما من المراقب المدني الإسباني الذي قالوا إنه أهان ابن عبد الكريم بكلمة عار نابية إن لم يكن لطمه ،بينما كان الفرنسيون يقدمونه للمخزن في شكل متمرد روكي(أي فتان) جديد من نوع أبي حمارة همه احتلال فاس واقتعاده عرش المغرب .

لقد كان تبسيط أسباب ثورة الريف بل تصويرها في هذه الصورة الباهتة الزائفة أكذوبة إسبانية بلقاء تضم في حناياها عناصر تزييفها. فلايعقل أن تكون اللطمة هي التي أثارت بطل الريف ودفعت به إلى شن حرب ضروس تهلك الحرث والنسل، ولا أن يكون وراء ثورته مجرد نزعة إلى التمرد على السلطة المغربية الشرعية، ذلك لأن محمد بن عبد الكريم ينتمي إلى قبيلة بني ورياغل المعروفة بشجاعتها وصلابتها في الحرب، وهو قد شب وترعرع في محيط ثوري هو محيط الريف الذي كان يغلي غليان المرجل منذ بسط النفوذ الأجنبي على المغرب، ولذلك دمجت الحماية الفرنسية منطقة الريف على عهد ليوطي وقبل ثورة الخطابي ضمن « بلاد السيبة» التي لم تكن في الحقيقة إلا جيوب المقاومة المسلحة المناهضة للاحتلال ،ولأن بطل الريف تدرج في مسيرته الثورية عبر أحداث لاشك أنها أثرت مباشرة على اختياره الثوري .

قبل ثورة محمد بن عبد الكريم عاشت منطقة الريف طيلة خمس عشرة سنة ثورة مجاهدي الريف بقيادة البطل محمد أمزيان، أي منذ أن بدا واضحا أن فرنسا وإسبانيا مندفعتان في جنون إلى احتلال المغرب من أقصاه إلى أقصاه، خاصة عندما

حشد الإسبان سنة 1909 جيوشهم في مليلية تأهبا لغزو الريف. وقد كان محمد بن عبد الكريم في فترة هذه الثورة الأولى شابا يافعا يقظا يعي ما يجري حوله من أحداث، فقد كان في سن السابعة والثلاثين عندما أنهى دراسته بجامعة القرويين وعاد من فاس إلى أجدير(بسكون الجيم) حيث وجد قبائل الريف تتجمع حول والده عبد الكريم في انطلاق لثورة تكون امتدادا لثورة أمزيان، مما يؤكد أنه عاش في أحضان الثورة التي كان والده يستعد لشنها .

وقد ساعدته إقامته بمليلية الواقعة تحت الاحتلال الإسباني على التعرف على العقلية الإسبانية ودراسة مواطن القوة والضعف في الأجهزة الإدارية للدولة الإسبانية الطامعة في ابتلاع الشمال المغربي، بل تعرف هناك على طائفة من الأسرار التي كانت تحتضنها الأجهزة الإدارية، أو كان يبوح بها أو يسرها المطلعون عليها من الإسبان . فهو تارة معلم، وأخرى محرر في جريدة «تلغراف الريف»، وثالثة موظف في الإدارة المحلية. وصعد في السلم الإداري إلى أن رقي أعلى مناصب القضاء، وفي جميع ذلك كان محتكا بالإسبان. إن هذا الاتصال قد كشف له عن حقيقة النوايا التوسعية للاستعمار الإسباني وما يدبره للمغرب من مكايد.

وماكان محمد بن عبد الكريم ليثور تحت تأثير لطمة، وهو الذي زج به الإسبان قبل ذلك في سجن البرج بمليلية بتهمة مناهضة النفوذ الإسباني. وقد ظل يحمل طول حياته آثار كسر ساقه عندما نجح في اللوذ بالفرار من زنزانته ليلا مرتميا من شاهق. ثم إن الاستعدادات التي سبقت حرب الريف والتطورات التي عرفتها والانتصارات التي حققتها ما كانت في مستوى رد فعل لطمة، أي في مستوى تصفية حساب بين شخصين أو بين رئيس ومرؤوس .

وأذكر أني عندما لقيت بطل الثورة الريفية بالقاهرة في بيته بالدقي أيام نفيي الاختياري بها سنة 1954، وأثرت معه حديث اللطمة أجاب وابتسامة السخرية على شفتيه «بأن الأمر لو كان مجرد إهانة فردية لهان،وأن ما كتب وقيل ليس إلا أسطورة من نسيج الخيال الاستعماري واضحة الدلالة على قصدها تحريف أهداف الثورة التحريرية والتنقيص من رسالتها».

أما أن يكون محمد بن عبد الكريم وأخوه محمد(بفتح الميم الأولى) مجرد متمردين على شرعية السلطان- وهي الكذبة الفرنسية الأخرى - فقد فندها الملك محمد الخامس نفسه عندما التقى بهما في القاهرة بعد استقلال المغرب أثناء زيارته الرسمية لمصر سنة 1958، وخاصة بدعوتهما للعودة إلى الوطن المحرر كمجاهدين

مكرمين.كذلك قام البطل الريفي بتكذيب هذه الادعاءات عندما أدلى بتصريحه إثر نزوله ببورسعيد سنة 1947 فارا من قبضة فرنسا بأنه «يدين بالولاء للعرش وللجالس عليه جلالة محمد بن يوسف اتباعا لنهج آبائه وأجداده الذين تقيدوا بهذا الولاء».

ثم أضاف يوم 27 يونيو(حزيران) 1947 إلى هذا التكذيب قوله في تصريح خص به جريدة «الفيغارو الفرنسية»: «لقد ظللت دائما وفيا لملك المغرب ، وقد صرحت بهذا عند وصولي للقاهرة، وأؤكده اليوم».

معركة أنوال

إذا تجاوزنا أسباب الثورة إلى فعلها وآثارها نلاحظ أن إسبانيا دفعت عن احتلالها لمنطقة الريف ثمنا لا يمكن تقديره، بما كلفتها الثورة من ضحايا مادية وبشرية، وبتكبيدها هزيمة نكراء في معركة أنوال(يوليوز(تموز)1921) على بعد عشرين كيلومترا من جنوب غربي الحسيمة.

إن تاريخ إسبانيا في القرن العشرين لن ينسى هزيمة الجيش الإسباني المكون من أربعين ألف مقاتل في معركة أنوال،وما سباه المجاهدون الريفيون الذين لم يتجاوزوا الألفين من عتاد حربي تركته الفلول الإسبانية مولية الأدبار في ساحة المعركة بجانب أشلاء الضحايا المتراكمة، وما تميزت به هذه المعركة من ضراوة، حيث سقط فيها صرعى ضباط إسبانيون سامون على رأسهم الجنرال سلفستر (Sylvester) قائد الجيش الذي اختاره لهذه المهمة الملك الفونسو (Alfonso) الثالث عشر بنفسه، منتظرا منه سحق ثورة الريف ومعززا قيادته بضباط سامين انتقاهم من بين المقربين إليه. وإن الرواية الإسبانية التي روجت أن الجنرال انتحر ولم يقتل تزيد في هول الفاجعة التي أصابت إسبانيا على يد مجاهدي الريف.وكان الجنرال المنهزم يتباهى قبل المعركة بأنه سيشرب الشاي في دار ابن عبد الكريم بعد أن يسحقه سحقا ، وكان يردد في خاصته أن «النصر موفور، وأنه ينتظر أن يكافئه ملك إسبانيا بإدراجه في صف النبلاء المحظيين».

إن ما حصل عليه محمد بن عبد الكريم من عتاد حربي – وكان تركه الجيش الإسباني في الميدان – شكل النواة العصرية للجيش الريفي، وإن ما أدته إسبانيا له من جزية مالية باهظة فداء لأسرها غير ميزان القوى لصالحه وأمد في عمر الثورة التي أصبحت تتوفر على وسائل نضالها .

قص بطل الريف بنفسه في مذكراته حديثا مفصلا عن هذه المعركة مما جاء فيه :
«ردت علينا هزيمة أنوال مدافع وبنادق ومقادير لاتحصى من القذائف وملايين الخراطيش ،وسيارات وشاحنات وتموينا ضخما يتجاوز الحاجة، وأدوية وأجهزة للتخييم.وبالجملة تبرعت علينا إسبانيا بين عشية وضحاها بكل ما كنا نفتقده لنجهز جيشا كامل العدة، ونتابع حربا منظمة واسعة. ولقد أسرنا من الجيش الإسباني سبعمائة أسير. وفقد الإسبانيون في المعركة 15.000 جندي ما بين قتيل وجريح».

وفي نهاية 1924 لم يعد لإسبانيا وجود بالريف باستثناء الشواطئ، مما دفع بالثورة الى الزحف على الجهات المجاورة الخاضعة للحماية الفرنسية. فقد توغلت القوات الريفية في وزان في الغرب ، وتقدمت في وجهة تازة وفاس. وكان ذلك تحديا صارخا وضعت فيه القوات الفرنسية موضع الابتلاء.وكان الجواب الفرنسي على تحدي الثورة هو المواجهة المسلحة في تحالف بين الدولتين الحاميتين .

وبصدق وبلاء خاض مجاهدو الريف حربا لاهوادة فيها تحولت من حرب تحرير محدودة الى حرب شاملة في مواجهة جيشين نظاميين كاملي العدة، خاصة الجيش الفرنسي الذي لم يكن - بعكس الجيش الإسباني - يعاني من عقدة الهزيمة، والذي كان يحسب أن المعركة تحولت بالنسبة إليه إلى معركة استمرار أو فناء للاحتلال الفرنسي للمغرب .

تألف الجيش - الذي أعد لخوض المعركة الحاسمة ضد ثوار الريف الذين كان عددهم عشرين ألفا فقط - من ستين جنرالا على رأسهم المرشال بيتان (Pétain) بطل فيردان (Verdun) ومن اثنتين وثلاثين فرقة. وبعد أن استنفد محمد بن عبد الكريم جميع ما كان لديه من عتاد لم يجد بدا من الاستسلام في فجر 27 مايو(ايار) 1926 للجيش الفرنسي، لتنقله الحكومة الفرنسية إلى منفاه السحيق في جزيرة لاريينيون (La Réunion) ، حيث ظل هناك إلى سنة 1947.

هكذا اتصلت حلقات حرب المغرب التي سقط آخر أوكارها على أرض الصحراء سنة 1934. وقد تحدث عنها الجنرال كيوم (Guillaume) عندما كتب عنها وكان فيها شاهد عيان: «لم تأت إلينا في المغرب قبيلة راضية مختارة، ولم تستسلم لنا أية قبيلة دون مقاومة، وبعض القبائل لم تتوقف عن محاربتنا إلا بعدما استنفدت آخر ماكانت تتوفر عليه من وسائل المقاومة». وهي الشهادة نفسها التي أدلى بها المرشال بيجو(Bugeaud) قائلا: «كيف يمكن أن نهادن أو نلاين شعبا لايترك أمامنا إلا مقاتلين أشداء يردون على الجمل العاطفية بإطلاق النار؟».

صدى ثورة الريف

عندما كانت ثورة الريف تسجل انتصاراتها على الجيشين الفرنسي والإسباني كانت أنباؤها وأصداؤها تلهب وطنية شباب المدن، خاصة عندما امتدت الى مشارف وزان، وأصبحت مدينة فاس ترجع أصداء مدافع الحرب .

وإلى فاس كان الفرنسيون ينقلون جرحاهم لتلقي الإسعاف الأولى في مستشفاها الوحيد، على مرأى من سكانها الذين كانوا يدركون خسارة العدو ويرتاحون لهزيمته.

ومع هذه الهزيمة ترددت أناشيد وطنية لايعرف أصحابها منها نشيد يقول :

يا بني المغـــــرب إن الوطنا تقتضي سمعته ترك الونى
فاحملوا الصُّمْصام مع سمر القَنا واسألوا الله انتصار الريفيين

وساهم الأدب الشعبي في الإشادة بالملحمة البطولية الريفية فشاع نشيد كان يردده الأطفال في حارات فاس القديمة متوجهين به إلى فرنسا مستهزئين بجندها الرخو المهزوم الذي يشبه عساكر «البطاطس» ،الذين غلبهم عبد الكريم وقص أجنحتهم كالدجاج :

يا عسكر بطاطا ما فيكم«كُوراج» عبد الكريم غلْبكُم وَرَدّ كُم دُجاج

وقد ظل هذا النشيد يردد إلى أواسط الثلاثينات حيث أدركت أطفالا يرددونه فيطاردهم أعوان المخزن(الحكومة المغربية) مقدمو الحارات بالعصي زجرا لهم عن النطق بهذا الكلام غير المباح.

أما الشعراء مالكو القوافي والأوزان فقد فاضت قرائحهم بالإشادة بالثورة الريفية وانتصاراتها .ومن بين روائعهم قصيدة المرحوم محمد بن اليمني الناصري، ومما جاء فيها عن بطل الريف :

أنظر لما تلقى فـــرنســـا منه إذ قصدتْ بشامخ مجده استخفافا
فـــأدال دولتـــهـــا بفـــرط دهائه وتمزقت أحـــــزابهـــــا أطرافا
وإذا "ليـــوطي" قـــد تردى ســاقطا مـــتـــحـــمـــلا مما جناه إكـــافا
تـلـك المـواقـع حـطـمـت أبـطـالـهـم وأرتهم من ويلهـــا أصنافـــا

ومن القصائد التي اشتهرت كذلك قصيدة الشاعر المؤرخ محمد السليماني الملقب بابن الأعرج التي نشرت في مجلة«العصر الجديد» التونسية وجاء في مطلعها:

دع الفتيات تمرح في القصور ويمم مسعفا وادي النُّكور

وهي إشارة إلى منشأ الثورة الريفية التي انطلقت من «وادي النكور». وكان مبعوثو ثورة الريف يتمكنون من التسلل عبر حدود المنطقتين الجنوبية السلطانية والشمالية الخليفية ليحملوا إلى مختلف المدن مناشير تعرف شباب المغرب بأهداف الثورة وانتصاراتها، وتدعوهم إلى إسنادها وحتى الالتحاق بصفوفها، أو تتوجه بالنداء إلى فصائل الرأي العام لخوض الجهاد المقدس، وكانوا يعودون بالتبرعات أو بعض المتطوعين .

عبد القادر التازي

وفعلا استجاب لنداءات الثورة شباب سلكوا سبيل المغامرة، فر بعضهم عبر الحدود إلى أجدير(بسكون الجيم) عاصمة الثورة، كان من بينهم المرحوم عبد القادر التازي الذي كان تلميذا في ثانوية مولاي إدريس بفاس فقطع دراسته والتحق بحركة الريف في سن مبكرة ، دون علم أسرته التي أوقعتها مغامرته الجريئة في مأزق ، إذكانت تحتل مناصب سياسية عليا في حكومة المخزن. وبذلك شق طريقه إلى العمل السياسي داخل الحركة الوطنية بعد نهاية حرب الريف وعودته الى فاس، منفرداً بهذا الاتجاه عن سائر أعضاء أسرته.

كان عبد القادر التازي أمهق البشرة أخفش لايملك أن يفتح عينيه في توهج نور الشمس الذي كان يعشيهما. وكانت سحنته الشقراء وشكل عينيه القرنفليتين تشدان إليه الأنظار، وكان في شكله الغريب مع ذلك خفيف الظل باده الخاطر، سريع النكتة، عانى من مضايقة الاستعمار الكثير، ولكنه لاقى من أسرته الغنية المتعاونة مع الحماية عنتا أشد، أصبح معه منبوذا من أهله وذويه، فقد كان الوحيد- في أسرة التازي المشهورة بفاس وطنجة - الذي اختار الكفاح الوطني، وكان في جميع مواقفه شجاعا صريحا مهما غلا الثمن الذي يؤديه في ذلك. سجن ونفي وصبر واحتسب، ومات فقيرا على مقربة من ثروة أسرته التي حرمته مواقفه الشجاعة من الاستفادة منها. اعتزل الحياة السياسية بعد انقسام كتلة العمل الوطني، ولكنه التحق بحزب الشورى والاستقلال سنة 1947 .

وأذكر أنه كان يحلو لي ولثلة من أصدقائه أن نستمع إلى فصول مغامرات التحاقه بالثورة الريفية عندما تعرفت عليه إثر انضمامه إلى حزب الشورى والاستقلال والتحاقه بنا عضوا في المكتب السياسي بعد رجوع الزعيم الوزاني من منفاه في أقصى الصحراء .

كانت مغامرة هذا الشاب تملي درسين اثنين: فسلطات الحماية رأت فيها إيذانا بفشل سياسة الجنرال ليوطي القائمة على اصطفاء أبناء كبار الأعيان في المدن والقبائل لاستعمالهم كواجهة في تسيير الإدارة لتغطية الحكم المباشر، وكبار الأعيان المغاربة أخذوا يدركون أن زمام المراقبة على أبنائهم سيفلت من أيديهم إذا هم ظلوا لايجارون التيار الوطني ، وسلطات الحماية نفسها أحرجها موقف الشاب التازي، فقد راهنت على سند الطبقات الكبرى وتعاون الأسر البورجوازية، فأصبحت تتساءل أراهنت على الجواد الخاسر، وهل أن الأرض لاتتزلزل بها من تحت أقدامها ؟

وقد كتب الجنرال ليوطي لحكومته عن ظاهرة تعاطف الشباب مع ثورة الريف مبديا مخاوفه من تفاحشها ومن انتصارثورة الريف قائلا:«ليس هناك بالنسبة لنظامنا أسوأ من قيام دولة إسلامية مستقلة التنظيم على مشارف فاس،خاصة وأن تطورات حركة الريف تستأثر باهتمام الشباب كما تستأثر بها تطورات الأحداث في المشرق العربي، وجميع ذلك ينمي في أذهان الشباب المغربي عوامل كراهيتنا»، بينما كتب المؤرخ الفرنسي روبير مونطاني(RobertMontqgne) في كتابه «ثورة في المغرب»(Révolution au Maroc) يقول:«إن شباب فاس أصبحوا يهربون من بيئاتهم البورجوازية ليلتحقوا بابن عبد الكريم الذي يعطيهم بعض الرصاصات وبصلة وقطعة خبز».

وما من شك أن مغامرة الشاب التازي قد طرحت سؤالا خطيرا على رجال الحركة الوطنية التي كانت آنذاك تتلمس طريقها هو : ولماذا لا يساهم أهل المدن هم أيضا في المقاومة المسلحة مادام شاب من أعرق الأسر الثرية المحافظة قد غالب نفسه وغير نمط عيشه الرتيب فاخشوشن وتمعدد ، وتحول إلى مرابط في الخنادق ؟ إنه درس حافل بالدلالة، غير المفاهيم وهز مدينة فاس هزا .

ولما كان عبد القادر التازي ينتمي إلى الأسرة التازية التي كان لها مقام ملحوظ لدى سلطات الحماية، فإنه قد تمتع بالعفو بعد رجوعه من أجدير إلى فاس تحت ضمانة أسرته، لكنه خيب أمل أسرته ورجال الحماية فيه، إذ عاد يعمل في الحركة الوطنية الناشئة، مما جعل سلطات الحماية تختطفه سنة 1931 إلى منفاه في الصحراء دون أن يعرف أحد مكانه، ثم أطلقت سراحه بعد بضعة أشهر .

محبوب الطنجوي

كما التحق بحركة الريف السيد محبوب الطنجوي الذي نشأ بطنجة وعاش في رعاية الشرفاء الوزانيين بهذه المدينة، ثم اشتهر بعد نهاية حرب الريف في فاس بلقب الطبيب، بينما كان يعمل فقط ممرضا للقوات المسلحة الريفية، أي أنه في الحقيقة كان مجربا أكثر منه طبيبا(على حد المثل المغربي). وقد امتهن لمدة طويلة في فاس بعد عودته من الريف مهنة الإسعاف الطبي باسم طبيب. وكان كاسمه محبوبا من أهلها. نجح في مهنته تلك أكبر نجاح في وقت عز فيه الدواء وندر الأطباء،وكان يتنافس مع «ممرض مجرب» آخر هو الطبيب ابن ادريس بنيحيى الذي كان يتمتع بشقة سكان فاس، ويظل طول اليوم متنقلا من بيت إلى بيت لعلاج المرضى لا يساوم على ما يتقاضاه من أجر، وأحيانا لايتقاضى عن زيارته أي مقابل.كان الطبيب بنيحيى مستشفى حيا متنقلا يعمل بدون انقطاع ، لا أعلم أن أسرة في فاس لم تستفد من خدماته.

وبعد الإستسلام

وقد شاع بعد استسلام ابن عبد الكريم لفرنسا أدب رثاء للحركة الريفية صور شعور الحسرة والأسى الذي ساد الشعب المغربي ومن ذلك مساجلة جرت بين المرحومين علال الفاسي والمختار السوسي جاء فيها :

قـــضي القـــضـــاء وحُقّق الأمـــر وعـــرا الذي مـــا خلتـــه يعـرو
عـــبـــد الكريم فنحن نعلم والورى واللـه أنـك مـــــــسلم حـــر
اذهب فـــقـــد أديت للأوطان مـــا ترجـــــو وإن أخنى بك الدهـــر

لقد كان عميقا الأثر الذي خلفته نهاية الثورة الريفية في نفوس الوطنيين،كما كان استسلام ابن عبد الكريم مؤذنا بنهاية المقاومة العسكرية التي استمرت مع ذلك ثماني سنوات، أي إلى سنة 1934، وذلك ما دفع بالحركة الوطنية إلى التعجيل بارتياد سبيل الكفاح السياسي المنظم .

الفصل الثالث

تعليم في خدمة الحماية .. وتعليم وطني

تعليم في خدمة الحماية

كانت مهمة الإصلاح التي التزمت فرنسا بإدخالها في المغرب أمام الدول عامة والمغرب خاصة وتضمنتها المادة الأولى من عقد الحماية تستدعي الإسراع في تكوين جيل عصري قادر على مواجهة متطلبات المعاصرة بفتح الآفاق واسعة أمامه في ميدان التربية والتعليم.كما أن التزامها باحترام القيم الإسلامية وتعهدها بالمحافظة على التقاليد المغربية التاريخية - وهو ما تضمنته نفس المادة الأولى من العقد - كان يفرض عليها الإبقاء على الهوية المغربية الثقافية الحضارية الأصيلة، والبعد بها عن قذفها في متاهات الاستلاب الفكري ، لكن فرنسا وإسبانيا طبقتا منهاجية مخالفة تبين من البدء أنها كانت تستهدف العكس. فقد شرعت الدولتان في إطار منسق في طمس الشخصية المغربية وإحداث تعليم نخبوي جديد كانتا تطمحان من ورائه إلى خلق أجيال طيعة ترى وتسمع وتفقه بالمنظور الفرنسي والإسباني ، كما عملتا على محاربة التعليم القومي الأصيل وإقامة العراقل في طريق ازدهاره وتطوره. فتوزع التعليم من هذا المنظور الاستعماري على خانات فكرية متشعبة المسالك . وفي العقدين الأول والثاني من بسط الحماية على المغرب كان هذا التعليم موزعا كما يلي :

-أ- تعليم فرنسي:

خططت له الحماية الفرنسية على أن لاتجود به إلا بمقدار، يقتصر على النخبة أو أبناء علية القوم، أي أبناء حكومة «المخزن» وكبار القواد من الذين يتعاونون مع سلطات الحماية، أو بعض الأسر التي كان ينتقى أبناؤها لنيل حظوة هذا التعليم بعد التأكد من حسن سلوكهم السياسي. وقد دشنت الحماية الفرنسية هذا التعليم بخلق مدارس في العواصم المغربية الكبرى أطلقت على بعضها بمنتهى الصراحة اسم «مدارس أبناء الأعيان» وهي مدارس ابتدائية كانت تُعدُّ لولوج التعليم الثانوي، الذي كان معهد مولاي ادريس بفاس ومعهد مولاي يوسف بالرباط يشخصان

نموذجه.وكانت إدارة التعليم الفرنسية تعلم هذا الجيل النخبوي في كتب خاصة أعدت بعناية لتحقيق التحول الحضاري في ذهنيات التلاميذ في اتجاه التبعية بل والاندماج في شخصية الحامي الفرنسي، لدرجة أن بعضها كان يلقن التلاميذ في محفوظاتهم ومطالعاتهم الحديث عن «أمنا الحنون فرنسا»، و «انحدارنا من أسلافنا الغاليين»(LES GAULOIS)، كما لو كان المغاربة أبناء فرنسا ومن سلالة الغال. وهي كتب استعملتها فرنسا لمدة في مدارس الجزائر ومستعمراتها الأخرى.

كان الهدف من وراء هذا التعليم الفرنسي تكوين أطر مغربية محدودة الثقافة متأثرة بالذهنية الفرنسية، مؤهلة للعمل كأطر متوسطة داخل الإدارة المغربية المسيرة من أعلى بأطر فرنسية ساهرة على تطبيق سياسة الحماية. ولذلك لم يكن هذا النوع من التعليم ينفتح على تعليم عال، إذ لم تحدث الحماية لا جامعة ولا معاهد عليا. وكان المراد أن يحال بين الأطر المغربية وبين تكوينها في حظيرة الفكر الوطني المتمرد على النظام القائم ، بل ربما كان التفكير الكامن في أذهان منظري هذا التعليم هو الاستعانة بتلك العناصر النخبوية على مساعدة فرنسا في تحويل المسير المغربي نحو التبعية لها والاندماج فيها «كأم الوطن».

وفي هذا التعليم كانت اللغة الفرنسية هي أداة التلقين الأولى انطلاقا من تجربة الفرنسة التي حققت أهدافها في الجزائر، والتي قال في شأنها سنة 1922 اليوتنان بويي دولاتور(BOYER DE LA TOUR) الذي ارتقى إلى رتبة جنرال وأصبح في الخمسينات في آخر عهد الحماية مقيما عاما لفرنسا بالمغرب: «إن المعلم يجب أن يلقن تلاميذه أنهم فرنسيون، ولكن عليه أن لايلقنهم إلا القليل من المعلومات».

وإذا كان هذا في الجزائر ، فإن الجنرال ليوطي(Lyautey) المقيم العام الأول بالمغرب كان يعتبر أن « المهمة التمدينية» التي تضطلع فرنسا بها في المغرب طبقا لنص وروح معاهدة الحماية تقتضيها العناية بتعليم مجموعة من الشباب، ولكن دون أن يغيب عن الذهن أن المدرسة هي «أداة كل اضطراب مجتمعي».

ومن أجل ذلك كان المشرفون على التعليم من معلمين وأساتذة كلما تعرضوا لمحاسن الإنسية الفرنسية في دروسهم تجنبوا مثلا التركيز على القيم والمبادئ التي أقرتها الثورة الفرنسية، كما كانوا يتحاشون تلقين تاريخ الثورات العالمية التي قد تغرس في الأذهان مفاهيم مشوشة على التخطيط الاستعماري ، بل حتى في الرياضة البدنية كان الحرص قويا على أن لاتزرع تمارين الحركات البدنية في التلاميذ أصول الشهامة العسكرية.

وقد طعم التعليم الفرنسي في هذه المدارس بتعليم عربي هزيل، كان مقتصرا على مسكة من اللغة العربية والمواد المساعدة على معرفتها معرفة سطحية. ولم يكن هذا التعليم يشكل حتى نصف الحصة التعليمية، إذ كان التركيز على التعليم الفرنسي هو الأساس .

- ب - وتعليم إسباني :

في منطقة الشمال و كان ينقل عن التعليم الفرنسي في الجنوب مناهجه بحكم التقائه مع النهج الفرنسي في أهدافه المتمثلة في الاستلاب الفكري والتغريب ومسخ شخصية المواطن ، وتربيته على قيم المستعمر، وتشكيكه في مقوماته الذاتية، وصوغه صياغة تبتعد به عن هويته الفكرية الثقافية ترسيخا لقدم الاستعمار لا في الأرض فحسب، ولكن في جذور الفكر والضمير .

- ج - وتعليم إسرائيلي :

وهو مخصص لليهود المغاربة .وهؤلاء وإن كانوا قد احتفظوا لأنفسهم بتعليم خاص وجدته الحماية الفرنسية قائما بالبلاد ، فقد حرصت هذه الحماية على ترسيخ جذوره لتعميق الهوة بين اليهود ووطنهم المغرب. وفي البداية حاولت سلطات الحماية أن توجه اليهود نحو التعليم المهني باعتبار أنه يضمن لهم تطورا عصرياً ويساعدهم على أن يصبحوا لا غنى عنهم في المجتمع المغربي ، ولكن القادة اليهود العالميين ضغطوا ليعطى لليهود المغاربة داخل مدارسهم تعليم فرنسي متطور كفيل بدمجهم في البنيات المجتمعية الفرنسية ، ومحقق لانفصالهم عن المجتمع المغربي الذي تطبعه العقلية الوطنية المتميزة بخصوصياتها عن المنهج الفرنسي .

- د - وتعليم فرنسي بربري :

وقد خطط له منذ بدئه سنة 1923 لينشئ جيلا بربريا مؤهلا للفرنسة في ظل أعرافه التقليدية، ومفصولا عن محيط المغرب، فقد استبعد من هذا التعليم تلقين العربية والدين الإسلامي وركزت فيه اللغة الفرنسية بقوة. ولا أبلغ في تعريف هذا النوع من التعليم مما كتبه عنه المقيم العام ليوطي نفسه في نشرة وجهها الى رؤساء النواحي الفرنسيين حيث قال «إن الهدف من إنشاء المدارس الفرنسية البربرية هو تطويع العنصر الأهلي البربري والاحتفاظ له بكيفية سرية ولكن مؤكدة بالفوارق

اللغوية والدينية والمجتمعية التي توجد بين «بلاد المخزن» المتميزة بإسلامها وعروبتها، وبين الجبال البربرية التي لاتعرف العربية».

وكان تنظير هذا النوع من التعليم يجاري عقلية الحماية التي كانت تحلم بقيام كيان بربري مقتطع عن المغرب يستمد مقومات وجوده من دعم الحامي، وهي العقلية التي أعدت بعناية وفي سرية تامة الظهير البربري الذي صدر سبع سنوات بعد تدشين هذا النوع من التعليم .

- هـ - وتعليم إسلامي تقليدي :

وقد حافظ المغرب به على أصالته وهويته بما كان يستوعبه من تلقين أصول الدين الإسلامي وضروب المعرفة الإسلامية بما فيها علوم القرآن والشريعة ،وما كان يمتزج به من روافد البحث العلمي من بقايا عهد النهضة الفكرية الإسلامية، وما تضمنه من المواد الكفيلة بترسيخ أصول العربية وآدابها في أذهان متلقيه ورواده. وهو تعليم وجدته الحمايتان الفرنسية والإسبانية متمثلا في جامعة القرويين بفاس وروافدها في العواصم المغربية الكبرى في الجنوب والشمال .

وكان في إمكان سلطات الحماية بنوعيها تطعيم هذا النوع من التعليم وتجديده، ولكنها سعت بإصرار إلى دفنه حيا أو الاحتفاظ به هيكلا عندما سدت عليه المنافذ واعتبرته البديل الخطير المناوئ لسياسة الدمج والاستلاب الثقافي، أي العرقلة الكبرى لتخطيطها الاستعماري ، فتعاملت معه من هذا المنظور .

وكان هذا التعليم التقليدي يبتدئ من مرحلة التعليم الحضاني عبر الكتاتيب القرآنية إلى أن ينتهي برواده إلى مرحلة التعليم العالي الذي يتخرج منه العلماء الذين كانوا يشكلون في جميع العهود النخبة الرائدة والقدوة الحسنة للشعب المغربي كما كان الشأن بالنسبة لسائر الشعوب المسلمة.

في الكتاب القرآني

في السنة الثالثة من عمري كنت أرسم الخطوة الأولى إلى ارتياد الكتاب القرآني الذي يطلق عليه سكان مدينة فاس بالمغرب اسم « المسيد » ويسميه سكان مدينة مراكش «الحضار». وقد يكون هذا التعبير الأخير منبثقا عن تعبير المحظرة(وجمعها محاظر) التي كانت تطلق على الكتاب في الجنوب المغربي

أيام المرابطين والموحدين. وهو نفس التعبير الذي احتفظت به إلى اليوم موريتانيا. ولايقتصر استعمال لفظ المسيد على المغرب، فهكذا يسمى إلى اليوم في بعض أقطار المشرق العربي كالعربية السعودية والسودان. وربما كانت كلمة المسيد تحريفا للفظ المسجد، أي أن ياء عوضت حرف الجيم وهذا شائع بين اللغات، و كان المسجد المنطلق الأول والمقر الدائم لهذا التعليم، قبل أن ينتشر خارج المساجد. وبهذا الاعتبار يطلق عليه في بعض الأقطار العربية الإسلامية وفي بعض بوادي المغرب اسم الجامع الذي هو مرادف المسجد .

و « المسيد » في المغرب عبارة عن مركز يضم حلقة من الأولاد من مختلف الأعمار يشرف عليها الفقيه من فوق مصطبة تعلو قليلا الأرض المفروشة بالحصير الذي يقتعده التلاميذ. والفقيه الذي يختصر المغاربة اسمه في كلمة « لفْقي» رجل وقور مهيب الجانب يرتدي غالبا البياض، ويسدل لحية كلما طالت زادت في جلاله وهيبته، ويحمل في يده قضيبا طويلا دقيق المنتهى يلسع به من بعيد الأيدي والرؤوس والأقفاء كلما دعاه إلى ذلك تكاسل ملحوظ من تلامذته إذا ما قعد بعضهم عن الحفظ والأداء ، أو تقاعس بعضهم الآخر عن الامتثال لأوامره القاضية بالصمت والإنصات. وما أشبه وضع« المسيد» ودور الفقيه بوضع الكُتّاب ودور « سيدنا » في مصر، كما وصفهما الدكتور طه حسين في كتابه « الأيام»! وهذا التشابه وشيجة أخرى في سلسلة الوشائج التي تحكم حلقات الاتصال وتشخص التشابه القائم بين جناحي العروبة في المشرق والمغرب.

ولم يكن هذا النوع من التعليم مجانيا إذ كان يصرف الآباء للفقيه أجرا يختلف باختلاف مستواهم الاجتماعي، فقد كان نقدا أو مواد غذائية أو أحيانا كسوة محترمة لائقة بجبتها وسلهامها. وكانوا يقدمون ذلك للفقيه مباشرة أو يبعثونه مع أطفالهم. كما كان الأجر يختلف باختلاف المناسبة: فهناك حق الأربعاء(يوم العطلة الأسبوعية) وحق العيد، وحق الختمة الأولى أي ختمة سور الفاتحة والمعوذتين والإخلاص، وحق ربع الختمة (أي حفظ التلميذ لربع القرآن) وحق الختمة (حفظ القرآن كاملا وعن ظهر قلب). ويكاد يكون للفقيه حق ثابت في جميع المناسبات التي يحتفى بها. وكانت الختمة تمر في شكل « كرنفال» صغير يقام بالحي الذي ينتمي إليه حامل القرآن . ويتم التهييئ والإعداد للختمة قبل موعدها بأيام وبمجرد ما يشير الفقيه، فهو الذي يعلم ما إذا كان تلميذه قد تأهل لذلك .

بمجرد ما تجاوزت عتبة الثلاث سنوات من عمري حملني والدي إلى «مسيد» الفقيه الفشتالي على بعد خطوات من بيتنا في درب مشماشة في أحد أحياء فاس العتيقة، هذه المدينة الضاربة في أعماق التاريخ كقلعة من قلاع الإسلام الكبرى،والتي لمع اسمها في تاريخ العرب و المسلمين بين أسماء القيروان ودمشق وبغداد والقاهرة . وقد سبقت مدينة فاس إلى الوجود القاهرة المعزية.

ولما كنت أصغر الأطفال سنا فقد خصني الفقيه بحظوة وضعي خلفه على المصطبة التي كان يشرف منها على حلقة التلاميذ. وكان هؤلاء يكتبون بأقلام من قصب يغمسونها في محابر الصمغ الأسود ، ويخطون بها الآيات القرآنية فوق ألواح الخشب المكسوة بالصلصال الأبيض الذي يسهل محوه بالماء كلما استظهر تلميذ عن ظهر قلب حصته المكتوبة ليعود في الغد إلى كتابة حصة أخرى .

وفي وضعي المتميز خلف ظهر الفقيه، كان هذا كلما رفع يده بالقضيب ليعاقب أحد التلامذة حاذى القضيب رأسي في لمس خفيف لم يكن يصل لحسن الحظ إلى حد الضرب الموجع الذي كان يمكن أن يصيبني في موقعي ذاك.وما أزال أحتفظ في ذاكرتي بصورة لذلك الفقيه الذي كان ينتمي إلى « فشتالة» بناحية فاس،ويدعى لذلك بالفقيه الفشتالي . ما أزال أتخيله وهو يتقمص جلبابه الأبيض، ويلوح له وجه ملتح عملت فيه السنون عملها بما نشرته عليه من غضون وتجاعيد، مما كان يخيف صغار الأطفال ويفرض على كبار التلاميذ هيبته ووقاره.

وكان الفقيه الفشتالي يمثل نوعا من الزهد والكفاف ولكن لا إلى حد العزوف عن الحد الأدنى الحيوي للأجر، مقابل ما يسديه لتلامذته من تلقين سور القرآن وتعليم القراءة والكتابة.

وأمضيت أشهرا معدودات في ضيافة الفقيه الفشتالي « بمسيده» الذي كان على بعد خطوات من البيت ، لكن والدي رغم وجود هذا الكُتاب على خطوات من بيتنا كلف من يحملني أو يأخذ بيدي كلما رحت منه إلى البيت أو غدوت إليه، فما كان لطفل في سني أن تترك له حرية السير خطوات على قدميه في غير حماية، في وقت كان فيه الآباء يمارسون على أطفالهم شديد الحراسة وعظيم الرقابة معتبرين ذلك مسؤولية مقدسة لايصح التهاون فيها. وما أذكر كيف حفظت الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين بدون أن أكون قد مهرت في الكتابة، ولكن أذكر أنني عندما كنت أكرر هذه السور أمام أعضاء الأسرة كانت الوجوه تطفح حولي بالتحبيذ وتنطلق الألسنة بالمباركة « عفًا ولدي» وكنت أكافأ على النجاح في هذا الامتحان بقطع من

الحلوى أو« الفانيد» (الملبس)، وكنت أحس بأني طفل مدلل، فأعود لتكرار ما حفظت كلما تاقت نفسي للمكافأة.

ودقت ساعة «التخرج» من هذا الكُتّاب عندما قرر والدي إقامة حفل الختمة لذلك الجزء اليسير الذي حفظته من القرآن وتكريمي بمحضر رفقائي في الكتاب، حيث حضر الفقيه إلي بيتنا فوضعتُ في مائدة وطاف بها رفقائي التلاميذ وتحلقوا حولي، ولاأدري من حمل المائدة على ظهره، وإنما أذكر أن الزغاريد انطلقت من أرجاء البيت، وأن الجميع كان يردد وأنا فوق المائدة هذا النشيد الذي كان يلقى في هذه المناسبة:(جايبّوه جايبّوه، يا فرحة يماه وبوه).

وذلك ما يعني في فصيح اللغة : ها قد جاؤوا به ، فيا لفرحة أمه وأبيه !

وقد كان الاحتفاء بالطفل حين يصل إلى هذا المستوى من التعليم الحضاني يسمى« حفلة جايبوه».

كان هذا النوع من « المساجد» رغم عيوبه يكتسي نوعا من الأهمية من حيث حفاظه على الأصالة ، ولأنه يمكن من حفظ القرآن باكرا، فيشب الطفل منذ فطرته الأولى على حب العربية ومعرفة مبادئ الدين. ولقد كان الآباء ينظرون إلى هذا النوع من التعليم الحضاني على أنه السبيل الممهد لولوج أبنائهم مسالك التعليم العالي التقليدي المحافظ على الهوية المغربية الإسلامية والعاصم لها من الاستلاب الثقافي، فهو بالنسبة إليهم صمام الأمان ضد تيار الإلحاد والاندماج في شخص الفرنسي والإسباني الحاميين. وكان اختيار بعض الآباء له وتفضيلهم إياه على التعليم المقدم من لدن سلطات الحماية يعني نوعا من العصيان المدني الصامت للحماية ونهجا من مناهج الصمود في وجه التيار الاستعماري الفكري.

كانت مرحلتي الثانية في مسيرة التعلم بمدرسة الفقيه ابن البشيرحيث نقلني والدي إليها إثر اجتيازي ختمة حفظ الفاتحة والمعوذتين وسورة الإخلاص وبهذه المدرسة تلقيت معلوماتي الأولى بطريقة التلقين السريع كما نسميه اليوم، فقد كان الفقيه يدربني طوال اليوم على حفظ أكثر مما يتيسر من القرآن الكريم، ويحشو دماغي بما ينتقيه من أنواع المتون يكدسها في حافظتي تكديسا ، ويحملني علي استظهار القرآن والمتون في آن واحد،دون أن أعي كثيرا مما أقول. كنت أستسلم في البيت إلى ترديد ما أحفظ طول النهار وزلفة من الليل بالبيت. وكان والدي ووالدتي كلما استمعا الى ما كنت أردده يفيض لسانهما بالحمد لله والشكر له على أن وفق طفلهما للسير على الهدي ،وعلى أن البيت يعبق بعطر الإيمان واليقين.

حفظ القرآن

وما كدت أتجاوز عتبة الثامنة من العمر حتى وجدتني وقد حفظت القرآن كله عن ظهر قلب.والحق أن أخي الأكبر محمد(وهو الذي لقنني كتابة الحروف الهجائية) الذي كان أنهى دراسته بالقرويين وكان يقيم مع والدي بالبيت قد ساعدني بالمتابعة الدائمة والمراقبة الصارمة على اجتياز هذه المرحلة بالسرعة القياسية.ولعلني لم أتميز وحدي آنذاك بميزة حفظ القرآن في تلك السن المبكرة ، إلاأنهم كانوا قلة من كانوا يبلغون هذا الشأو في تلك السن. وإلى يومنا هذا ماتزال ظاهرة ختم حفظ القرآن في سن مبكرة تنتشر عبر العالم الإسلامي .

دراسة عصرية

مما عجل بطي مرحلة المدرسة القرآنية اكتشافي لمدرسة ابتدائية عصرية واقعة على مقربة من بيتنا كانت شرعت أبوابها في وجه التلاميذ لتلقين تعليم عربي أكثر تطورا ، كنت أمر عليها صباحا وأنا أتوجه من البيت إلى مدرسة الفقيه ابن البشير ومساء عند العودة، فتستوقفني أصوات تلاميذها وهم يرددون عاليا ما يلقنه لهم معلموهم من محفوظات أو معلومات كان يشدني إليها فضول ملح. وكنت أختلس أحيانا لحظة أو لحظات أثناء ذهابي أو إيابي فأجتاز باب المدرسة وأتوقف في دهليزها لأرقب من خلال تفاريج الحاجز الخشبي منظر التلاميذ وهم يجلسون على مقاعد أمام سبورة سوداء يكتب عليها المعلم بالطباشير معلومات ليست من نوع ما أتلقاه في مدرستي . وكان يستقر أحيانا في سمعي جزء من تلك المعلومات دون أن أعي مضمونه .

وكان أخي الأكبر يعمل بهذه المدرسة. فكنت أقعد بجانبه في البيت ألاحظه وهو يحضر الدروس، ويستأثر بي الفضول فأتصفح بعض الدفاتر التي يصحبها معه لتصحيحها متطلعا لاستكناه محتواها. ولازمني ملازمة الظل خيال هذه المدرسة التي بدت لي رائعة لأنها متميزة في مظهرها عن مدرستي التي لم تكن تتجاوز «مسيدا» أدخلت عليه رتوش. فقد كان تلاميذها يجلسون أمام السبورة على مقاعد خشبية

تبدو مريحة، بينما كنا نقتعد الحصير في ذلك الكتاب المنقح. وتطلعت إلى الالتحاق بالمدرسة الجديدة وفاتحت والدي في الأمر. وبالرغم من مباركة الأخ مطلبي، فإن الوالد أصر على إرجاء النظر في الأمر إلى ما بعد ختمي للقرآن بالتمام والكمال، فما كان لي أن أستدبر بلوغ هذا الشأو بعد أن أصبحت على مقربة منه .

وكان هذا كافيا للدفع بي إلى اجتياز الأشواط الباقية بأسرع ما يمكن ،حيث أصبح محو ما كنت أخطه على اللوحة الخشبية مما كان يمليه علي الفقيه من آيات القرآن لا يقتصر على المرة الواحدة في اليوم. وأثناء ذلك كنت أنتزع من وقتي فترة أتوقف خلالها عند الحاجز الخشبي المقام في فناء المدرسة التي استهوتني لأتابع ما يجري بها، حتى أني استهدفت مرة للعقاب على هذا الفضول ، إذ باغتني تلميذ مفتول العضلات حملني ورفع قدمي أمام الفقيه الذي كان يلقن القرآن بالمدرسة، فانهال عليهما بسياط موجع جأرت له بالبكاء والاستنجاد، وكان أن لاحظ المشهد أخي في موقعه بالقسم فتسارع لإنقاذي منبها الفقيه إلى أني أخوه، وكان التلميذ الذي تولى كبر ذلك هو المرحوم حماد العراقي الذي أصبح لي رفيق دراسة وعمر. لم يؤثر الحادث على تعلقي بالمدرسة الموعودة، بل إن شغفي المتزايد بها هو الذي جعلني أحقق ما بقي لي حفظه من القرآن في ظرف يسير.

ووفى والدي بوعده، فتحدد باتفاق مع الفقيه المشرف على المدرسة موعد إقامة الختمة، وأرسل والدي للمدرسة مائدة حافلة بصنوف الأطعمة وبصلة نقدية تعويضا للفقيه عما أسداه لي من نعمة تحفيظ القرآن التي لا تعوض بثمن.

وكان صبري قد عيل شوقا الى المدرسة الموعودة، فما أن تناولنا الغداء بالمدرسة يوم حفل الختمة وأخذنا أستاذنا كالعادة إلى صلاة الظهر، وركعنا وانحنينا إلى السجود، حتى انتهزت الفرصة وقفزت متخطيا صفوف المصلين الساجدين مغادرا مدرسة الفقيه ابن البشير- دون أن أودع - إلى مدرستي المفضلة. معلنا لأخي أني جئت إلى المدرسة لأسجل بها نفسي طبقا لتعهد والدي.

والآن وأنا أرتد ببصري إلى الوراء عبر السنين يبدو لي أن قرار تسجيلي بتلك المدرسة الذي أبرمته ونفذته بمفردي كان أول القرارات الحاسمة التي اتخذتها في حياتي. وما أراني نادما عليه، فلم يكن لي من بديل إلا أن ألتحق بمدارس الحماية الفرنسية - وهو ما كان والدي غير راغب فيه - ، أو أن أرتاد رحاب جامعة القرويين بدءا من الطور الابتدائي ، وهذا ما كان سيحرمني من الاستفادة من التجربة الغنية التي وفرتها لي مدرستي الجديدة التي كانت تحمل اسم « المدرسة الخضراء» .

المدارس الوطنية الحرة

كانت « المدرسة الخضراء» حلقة في سلسلة المدارس العربية الوطنية التي أسستها حركة الإصلاح الوطنية بعد قيام نظام الحماية لمواجهة الاستلاب الفكري واستمر تأسيسها طيلة العشرينات وما بعدها. وهي الحركة التي سبقت التنظيمات الوطنية السياسية ومهدت لها الطريق .

لم تلتئم حركة الإصلاح هذه في هيأة منظمة، وإنما كانت تيارا فكريا عفويا غمر طائفة متنورة رائدة من أبناء الشعب انتظمت جهودها الموزعة حول هدف إنقاذ المغرب من التردي في المخطط الاستعماري الرامي إلى فرض تبعيته الشاملة على بلاد الحماية باسم الإصلاح المزعوم.

وحفاظا على المقومات المغربية الأساسية حرصت الحركة الإصلاحية الوطنية في مرحلة عملها الأولى على تطوير الكتاتيب القرآنية وتحويرها إلى مدارس عصرية تلقن الإنسية العربية الإسلامية وترسخ مضامينها في ضمير جيل الحماية حتى لا يستأثر التوجيه الفرنسي بتكوينه. وكان يطلق على هذه المدارس اسم « المدارس الحرة». وكان الجديد الذي ميز هذا النوع من المدارس عن الكتاتيب القرآنية وعن المدارس الحكومية بالإضافة الى تلقين المواد العربية الإسلامية هو إقامتها في الزوايا أو الدور، بينما ظلت الكتاتيب القرآنية في المساجد أو في مراكز ضيقة المساحة ، كما كان يميزها تجهيزها بقاعات دراسية متوفرة على مقاعد وسبورات،وتنظيم سنوات الدراسة بها حسب السلم التعليمي العصري، وإدخال نظام الامتحانات والعطل. وكان يشرف عليها في أحياء المدن علماء وفقهاء يضمون إليهم بعض الميسورين. وكان حسن الإرادة سلاحهم الوحيد وسخاء الميسورين منهم زادهم الأوفى . لقد كانت حقا مدارس شعبية.

وانطلقت حلقات هذه المدارس من المدن ممتدة عبر فاس ومكناس والرباط وسلا وتطوان. وازدهرت خاصة في منطقة سوس بالجنوب التي احتضنت عبر القرون ثقافة عربية أصيلة لم يشب لغتها عجمة أو دخيل. وكان تمويل هذه المدارس يتم بتبرعات نقدية من بعض الميسورين المغاربة وبرسوم رمزية يقدمها الآباء .

اشتهرت بالرباط مراكز لهذا التعليم، هي مدارس الزاوية المباركية، والزاوية

الغازية التي أسسها المرحوم أحمد الشرقاوي ثم امتدت لتصبح مدارس محمد الخامس، ومدرسة الزهراء ، ومدرسة الزاوية الكتانية، ثم أعقبتها مدارس أكثر تجديدا عوضت بناياتها المتواضعة جدا الزوايا العتيقة التي كانت تحمل أسماءها تلك المدارس ، ومنها مدرسة جسوس التي أشرف على إدارتها منذ الثلاثينات وقبل تأسيس كتلة العمل الوطني الحاج أحمد بلافريج .

وفي فاس توالى أيضا تأسيس هذا النوع من المدارس، وربما كانت أولى حلقات السلسلة هي مدرسة سيدي بناني فمدرسة رحبة القيس، فالمدرسة الناصرية التي كان يشرف عليها المرحوم الفقيه غازي، فالمدرسة الخضراء التي انتسبتُ إليها والتي أصبحت تحمل اسم مدرسة العدوة ، فمدرسة رأس الزاوية التي أسسها وأدارها طيلة ما قبل الاستقلال السيد محمد بن عبد الله. وقد اعتقلت سلطات الحماية الفقيه غازي وأجبرته على مغادرة فاس سنة 1922 بعد أن أغلقت المدرسة الناصرية متضايقة من نشاطها الإصلاحي السلفي. كما اقترن اسم المدارس الحرة المتحدث عنها بأسماء شخصيات وطنية ستصبح في الثلاثينات بارزة في الحركة الوطنية، منها بوشتى الجامعي، وعبد العزيز بن ادريس، وعبد الهادي الشرايبي، والهاشمي الفيلالي، والحاج عثمان جوريو .

وفي سلا تأسست مدرسة زاوية ابن عبود ببورمادة بإشراف الحاج أحمد معنينو وهو الذي أنشأ فيما بعد بنفس المدينة المدرسة القرآنية، فمدرسة الفتاة السلوية، وأخيرا مدرسة الأميرة عائشة التي امتدت إلى ما بعد الاستقلال.

وفي كتاب صدر عن السيد أبو بكر القادري بعنوان «قصة النهضة» ذكر أنه هو الذي أسس مدرسة الزاوية القادرية، على حين يقول زميله الحاج أحمد معنينو أنه هو مؤسسها. وعلى كل حال فقد تعاونا معا على إدارتها والتدريس بها. وقد أسس السيد أبو بكر القادري مدرسة النهضة التي استمر على رأس إدارتها حتي ما بعد الاستقلال . ومن هذه المدارس كانت ترفد جامعة القرويين بفاس بالطلبة السلاويين.

وربما كانت مدرسة درب العلو بسلا أولى مدرسة قرآنية أقيمت بمدينة سلا التي كانت من أسبق مدن المغرب تطلعا إلى الإصلاح، وأقواها تعبئة في الكفاح الوطني، وكانت مدرسة درب العلو تقع في منزل الحاج أحمد الصابونجي ، ثم أصبحت تابعة لمدرسة الزاوية القادرية.

وفي منطقة الشمال الخاضعة للحماية الإسبانية أقيمت مدارس عربية إصلاحية، ولاسيما في تطوان التي كانت تعتبر عاصمة المنطقة، كالمدرسة الأهلية التي أسسها

كل من الحاج عبد السلام بنونة، والفقيه داوود. وقام في تطوان أيضا في فترة لاحقة المعهد الحر التطواني برعاية المرحوم عبد الخالق الطريس زعيم حزب الإصلاح والمكي الناصري زعيم حزب الوحدة المغربية.

وسبقت تطوان مدن المغرب إلى إنشاء مدرسة لتعليم البنات كانت تدعى المدرسة الخيرية الإسلامية للبنات وكان يشرف عليها المرحوم محمد بن علي الخطيب.

وبطنجة أسس السيد عبد الله جنون« المدرسة الحرة» التي لم تلق المضايقات التي عانت منها أخواتها بمنطقة الجنوب الخاضعة للحماية الفرنسية، لأن طنجة كانت في الفترة التي نتحدث عنها خاضعة للنظام الدولي،وإليها هرعت أفواج من تلاميذ طنجة وخارج طنجة مما جعل من الأستاذ جنون أستاذ الأجيال .

وكانت « مدرسة السلام» أولى مدارس الدار البيضاء، وقد أسسها المرحوم محمد بن اليمني الناصري،وهو نفسه الذي أحيا المدرسة المعطوية بالرباط وأطلق عليها اسم مدرسة الحياة.

ولاتذكر المدارس الحرة التي قامت في هذه الفترة بالدار البيضاء دون أن تقترن بها أسماء لامعة في ميدان التعليم ، من بينها أسماء الفقهاء ،الضرباني ، والحمداوي، والغرباوي، وذلك قبل أن يتطور التعليم في هذه المدينة ليرقى الى مستوى مدرسة الأمير مولاي الحسن التي أنشأها في الأربعينات وأشرف عليها السيد محمد ابن العربي العلمي واختار لها خيرة المعلمين والأساتذة، ولقن فيها تعليما عربيا فرنسيا .

في المدارس المؤسسة في العشرينات وعلى يد أولئك الرجال الطلائع الذين أسسوها وربوا الجيل في رحابها كانت تختمر فكرة انتفاضة سياسية يراد بلورتها في شكل حركة وطنية منظمة يتسع مجال عملها لأكثر من تربية الجيل. وبتولي تلك الصفوة الرائدة قيادة التعليم في مدارس العشرينات ، رشحت نفسها وتأهلت بدءا من هذه المرحلة إلى قيادة الحركة الوطنية التي ستبرز على الساحة في بدء الثلاثينات.

الفصل الرابع

الإصلاح و السلفية
ونشأة الحركة الوطنية

حقيقة السلفية

كانت حركة إصلاح التعليم التي تحدثنا عنها وليدة فكرة السلفية التي دعا لها رواد إصلاحيون في المشرق العربي والمغرب العربي على السواء .

وتعني السلفية في مفهومها الأصيل العودة إلى الاقتداء بنهج السلف الصالح الذي ساد المجتمع الإسلامي على عهد ظهور رسالة الإسلام فما يليه، أي العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين، وهي عهود لايختلف المسلمون على تسميتها بالعهود الزاهرة التي لم تمتد لسوء الحظ في خضم الفتنة الكبرى التي تقسم معها وبعدها المسلمون مذاهب وشيعا، وكان ذلك هو مفهوم السلفية في لغة أهل السنة. أما السلفية الشيعية فتؤكد على الاقتداء فقط بالإمام علي والأئمة الذين تلوه.

وعلى كل حال ، فالسلفية بهذا المفهوم لا تعني الرجوع إلى الماضي في جميع عهوده وأطواره ، بل ترفض جملة من العهود الإسلامية التي تعتبرها مشينة بالانحراف وتنحي باللائمة عليها .

إن السلفية إذن تتلمس في ماضي الإسلام والمسلمين في عهد إشراقه الينابيع الصافية التي تنقع منها غلتها لمواجهة ما يعترضها من شؤون ظرفية، وتركن الى المواقع الإسلامية التاريخية لتتحصن بها في حاضرها من الوقوع في متاهات الضلال، ولتجنب زلل الانجراف في التيارات الفكرية المتعارضة مع الأصول الإسلامية.

إنها من هذا المنظور مفهوم حضاري مستمر. ومطالعاتنا التاريخية تؤكد أن دعاة الإصلاح لم يخفض لهم صوت عبر عصور التاريخ للدعوة إلى الرجوع للأصول الإسلامية باعتبارها المنقذ من الضلال والعاصم من الزلل . ولم تكن هذه الدعوة تستهدف التوقف عند الماضي لذاته ، ولكنها كانت تشدد على العودة إليه باعتباره يحتضن الرصيد التراثي القادر على مواجهة مقتضيات التطور .

وقد كانت السلفية أو العودة بالمسلمين إلى ينابع الإسلام الصافية تقابل التيار

الذي حاكم واقع تردي المسلمين واتهم الدين بمسؤوليته عنه ، وجاءت تؤكد قدرة النهج الإسلامي على مواجهة تحديات العصر وانسجام تعاليمه مع مقتضيات التطور، وبالتركيز على أن تردي العالم الإسلامي في الانحطاط والتأخر والتبعية لا يرجع إلى الإسلام ، بل المسؤول عنه هم المسلمون الذين لم يطبقوا النهج الإسلامي كما طبق في العهود الزاهرة .

وفي كل عهد كانت ترتفع فيه الدعوة للسلفية بالمشرق العربي أو بالمغرب العربي كانت كل واحدة منهم تردد أصداء الدعوة الاخرى، مما يصح معه القول إن الدعوة السلفية كانت عطاء فكريا مشتركا بينهما.

ففي المشرق العربي يمكن اعتبار المذهب الحنبلي بداية لانبعات السلفية لتركيزه خاصة على تطهير الفكر من الخرافات ، ومناهضته الفرق الدينية المتأثرة بالنزعات الضالة التي أخذت تتسرب - بعد تفرق المسلمين - إلى المشرق العربي .

وفي القرن التاسع الهجري أعطت مدرسة الإمام ابن تيمية الفكرة السلفية مضامين غنية من خلال الكتب والفتاوي التي نشرها، واعتمدتها فيما بعد النزعة السلفية الحديثة منطلقا لتنظيراتها .

أما المغرب فقد كان مهيأ بطبيعته لتقبل الفكرة السلفية بحكم روح المحافظة التي طبعت الفكر الديني المغربي في أكثر العهود، إلا أن القرن السادس الهجري يحمل إلينا نزوع الموحدين إلى الرجوع إلى كتب الأصول في التفسير والحديث والفقه، ويحدثنا تاريخه عن إصدار الخليفة عبد المومن ابن علي أمره بإحراق ما كان يطلق عليه اسم كتب الفروع، وتوجيهه منشورا إلى علماء المغرب و الأندلس يشرح فيه سياسته السلفية التي طبقها بنوع من الغلو دفع به إلى إحراق كتب هي -كيف ما كان الحال - جزءاً من الثرات .

وكثيرون هم علماء المغرب الذين تميزوا بالجهر بالعودة إلى الأصول الإسلامية، بل إن القرن الثالث عشر الهجري سجل أن أحد سلاطين المغرب العلويين هو السلطان محمد ابن عبد الله (محمد الثالث) تصدر لهذه الدعوة بنفسه، والعمل على نشر كتب الحديث الصحيحة حتى لا يروج غيرها وألف كتابه المطبوع المشهور «الفتوحات الالهية» التي يبدو فيها اتجاهه السلفي .

وتميز عهد السلفية بالمشرق بثورة الإمام محمد بن عبد الوهاب بالحجاز على البدع والضلالات ودعوته إلى الرجوع إلى الأصول الإسلامية، متأثرا في ذلك بسلفية الإمام ابن تيمية. وقد بعث قائد الحركة الوهابية مبعوثة عبد الله بن سعود

الوهابي حاملا رسالة منه إلى السلطان مولاي سليمان بفاس ، في نفس الوقت الذي بعث فيه رسائل الى المسؤولين في العراق والشام ومصر يشرح فيها مقاصد حركته، فسارع المولى سليمان إلى الجواب، وأوفد ابنه ابراهيم حاملا إليه رسالة ملكية جوابية. وتجاوب السلطان مع الحركة، فوزع منشورا بالدعوة إلى الأصول الإسلامية أذاعه في المغرب كله، وحث فيه الرعية على التقيد بمقتضاه.

وانطلقت الدعوة السلفية في برقة وطرابلس(ليبيا) عندما أسس الشيخ محمد بن علي السنوسي سنة 1843 أول نواة للطريقة السنوسية بالزاوية البيضاء قبل أن ينقل مقرها الرئيسي إلى واحة جعبوب.وكان مؤسس هذه الطريقة قد درس بجامعة القرويين ثم جامعة الأزهر ، ودخل إلى برقة متأثرا بتوجيهات أساتذته بفاس والقاهرة.

وتابع ابنه الشيخ محمد المهدي (1859-1901) دعوة والده، ونقل مقر الطريقة إلى منطقة الجوف كما جعل من الطريقة في آن واحد منظمة دينية سياسية عسكرية قادت الحرب ضد إيطاليا وأوقفت زحفها لمدة على تشاد وليبيا .

الحركة السلفية الجديدة في المشرق

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر أخذت تتبلور في المشرق العربي حركة سلفية تجاوز تنظيرها مبدأ العودة إلي الأصول الإسلامية إلى تحديد منهاجية متعمقة خطت بالفكرة السلفية نحو أبعاد جديدة، إذ نشأت في ظل الظروف الصعبة التي كانت تجتازها منطقة الشرق الأوسط المتطلعة إلى تغيير أوضاعها السياسية والاجتماعية، وحاولت الإجابة على التساؤلات والتحديات المطروحة على العالم الإسلامي .

وقد أراد رواد هذه السلفية أن يسهموا في حركة التحرير السياسية بعطاء فكري متميز، إذ ركزوا على ضرورة استلهام أصول التراث الإسلامي واعتماد أسسه سواء في مواجهة المد الاستعماري أو في إرساء قواعد أي إصلاح. وإذا كانوا قدعوا إلى العودة إلى الماضي فإنما باعتبار مقوماته خير زاد لإصلاح الحاضر استشرافا لمستقبل لا يقتلع الأمة الإسلامية من جذورها الأصلية. وبذلك بدت السلفية بهذا المنظور منهاجا توفيقيا متفتحا مستمداً فلسفته من تعاليم الإسلام دين الانفتاح والسماحة والتعايش .

محمد بن صفدر

ارتبطت هذه السلفية باسم محمد بن صفدر الأفغاني الذي اشتهر بلقب جمال الدين الأفغاني والذي تزعم فكرة الإصلاح وقاد حركة تحرير الأمة الإسلامية، واعتمد في الإصلاح والتحرير المناهج العصرية العقلانية. ولذلك أصبح يشار إليه كرائد لليقظة والانبعاث العربيين الإسلاميين. وعليه تتلمذ بمنزله طلبة نابهون من الأزهر كان من بينهم محمد عبده. وضمت حلقات دروسه حتى من أصبحوا فيما بعد أعلاما بارزين في ثورة أحمد عرابي، ومنهم سامي البارودي، وأديب إسحق، وسليم نقاش ومن قادوا الحركة السياسية المصرية ومنهم سعد زغلول.

لقد دعا الأفغاني ضمن حركته السلفية إلى إحياء عهد الخلافة الإسلامية، ودخل في غمار السياسة فاشتغل بشؤون الثورات السياسية التي كانت تغمر العالم الإسلامي للتحرر من الاستعمار، فرعاها ودافع عنها. كان رجل سياسة وداعية دينيا في آن واحد، فأثر بالغ التأثير في صنع جيل عربي إسلامي مخضرم يوفق بين الأصالة والمعاصرة.وكسياسي رحل إلى فرنسا ونشر آراءه في الصحف الفرنسية. وبعاصمة فرنسا التقى بالمؤرخ الفرنسي إيرنيست رينان (Ernest Renan) الذي كان يدعو إلى تقويض الأديان لإقامة ديانة العلم، ولكنه كان يؤثر الإسلام بهجومه الشنيع، ويؤكد في محاضرته التي ألقاها في جامعة السوربون يوم 29 مارس (آذار) 1883 تحت عنوان «الإسلام والعلم» على أن « الحضارة الإسلامية كانت في عهد النهضة لامعة وأستاذة الغرب المسيحي» ، ولكن يضيف « إن الإسلام ليس هو سبب هذا التفوق،وإنما يرجع الفضل في ذلك إلى المدنيات الأخرى التي جاءت للإسلام» . وكتب عن الشيخ جمال الدين الأفغاني بعد أن تعرف عليه:«لاسلطة لمؤثرات الإسلام على شخص الشيخ جمال الدين الأفغاني لأنه ينتمي إلى الجنس الآري الذي ينطوي بعضه في غلالة رقيقة من الإسلام الرسمي»(هكذا) .

ويزيد رينان الأستاذ بـ «كوليج دوفرانس» وعضو الأكاديمية الفرنسية قائلا: «لقد خيل إلي بعد لقائي بالأفغاني من خلال تحرر فكره ونبالة شيمه وصراحته وأنا أتحدث اليه أنني أرى وجه واحد ممن قرأت عنهم من القدماء ، وجه ابن سينا أو ابن

رشد أو أحد أولئك اللادينيين(كذا) العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الفكر البشري من القيود ».

وقد رفض جمال الدين الأفغاني آراء هذا المنظر الاستعماري جملة وتفصيلا بعد أن اطلع عليها منشورة في « صحيفة لوجورنال دي ديبا » «Le Journal des Débats» الفرنسية، فوجه إليها نقدا ناقش فيه آراء رينان وحرره باللغة العربية ، ووجدت الجريدة في ذلك عذرا لتأخير نشره عدة أسابيع، ثم نشرت ترجمته التي لاندري هل كانت مطابقة للنص العربي.

ومع محمد عبده أسس الأفغاني مجلة« العروة الوثقى» التي تعتبر اللسان الناطق باسم الحركة السلفية الجديدة.

محمد عبده

محمد عبده هو الذي أخذ المشعل إثر نزوح الأفغاني عن مصر وخاصة بعد وفاته فاقتصر على الدعوة والعمل للإصلاحات التربوية الدينية مبتعدا عن السياسة التي قال عنها : « قبح الله ساس يسوس وما اشتق منه» ، وهو الذي أصلح نظام القضاء المصري، وأدخل تحسينات على تنظيمات الأزهر، ومارس الإفتاء، ونشط عضوا في مجلس شورى القوانين، وأحيا كتب التراث، وألف كتبا في التفسير والتوحيد استلهم منها السلفيون في كل مكان. كان كتابه « رسالة التوحيد» مرجع أساتذتنا ومعلمينا، وتقرر في جامعة القرويين في مادة فلسفة التوحيد، بعد أن كان بعض علماء فاس يتهمون مؤلفه في سلامة دينه تحت تأثير دعاية بعض الرجعيين المغاربة الذين ناهضوا دعوة السلفية في المغرب، ولفقوا حولها ترهات وأكاذيب. وباختصار لقد طبع الشيخ الإمام محمد عبده مصر الحديثة بفكرته السلفية الجديدة وتدفق فيضه على ما وراء مصر، وصنع أجيالا عربية إسلامية على شاكلته ، وصاغها صياغة جديدة في نطاق أصالة متجددة.

رشيد رضا

وقد أخذ عن الأفغاني ومحمد عبده معا تلميذهما رشيد رضا، وتفوق التلميذ على أستاذيه في علم الحديث، وأشرف على مجلة المنار التي كان يصدرها بمصر وتمتد أصداؤها عبر العالم الإسلامي. وهي التي خلفت مجلة العروة الوثقى. وحول المنار

التفت نخبة من علماء المشرق العربي وأساتذته ومفكريه حتى ليمكن القول إن رشيد رضا أصبح زعيم حزب المنار الإسلامي وإن لم يعلن عن هذا الحزب بهذا الاسم. ومع ذلك ظلت مدرسته الفكرية تدعى مدرسة الإمام عبده.

تطالعنا بين « المناريين» أسماء الشيخ النووي، والشيخ بخيت، وعبد الرحمن قراعة ، ومحمد مصطفى المراغي، وفتحي زغلول، وشكيب أرسلان، وأحمد تيمور، والمنفلوطي، والدكتور هيكل ، وفريد وجدي، وطنطاوي جوهري، ومنصور فهمي، ومصطفى عبد الرازق . وأكثر هؤلاء وغيرهم ممن لم أذكر أسهموا في إغناء الحركة السلفية بتصوراتهم وتنظيراتهم، حتى ليصح القول إنّ أدب السلفية في هذه الحقبة طغا على ألوان الأدب الأخرى وردها إلى رتبة دنيا .

كان الشيخ رشيد رضا يؤمن بأن بداية إصلاح وضع العالم الإسلامي تكمن في تغيير ذهنية المسلمين تغييرا جذريا بتغيير الصورة التي ألفوها منذ أن تردوا في الانحطاط الذي عرفوه في العصور المتأخرة، ونادى بمراجعة شاملة لفهم طبيعة الدين الإسلامي بالعودة إلى الأصول الأولى في قراءة جديدة .

لقد ناقش بصراحة نظرة بعض المسلمين إلى دينهم التي أصبحت تتمثل في الاعتقاد بأن في الدين سرا روحيا يكفي مجرد الاطمئنان إليه ليحقق المسلم به وحده غلبته، بصرف النظر عن مقتضيات العمل والخلق والسلوك، مؤكدا أن قيمة الدين ليست في أسراره الروحية أو قواه الخفية فحسب، بل أيضا في إرشاده إلى معرفة سنن الله التي تضبط تقدم الإنسان إذا تمسك بها وتخلفه إذا حاد عنها، فالله لايمنع عطاءه الجزيل حتى عن غير المسلمين الذين يعملون لنيل ذلك العطاء بالطرق الصحيحة.

إن هذا التفسير كان يعتبر صدمة للفكر في عصر ساد فيه التواكل وفصل الدين عن الدنيا ، وكان صرخة من صاحبها استهدفت إعادة حركية الإسلام بوصفه دينا يمجد العقل ويحث على العمل،ولايسمح بالاستسلام للإحباط وتبرير الواقع المفروض بتأويل معنى القضاء والقدر في وجهة الخمول والاستسلام .

ومن هذا المنطلق حارب رشيد رضا توجيهات بعض المتصوفة الذين غيروا أسلوب الدعوة الإسلامية من النهوض بالفكر ونشر الإرشاد إلى التجميد والشعوذة والتضليل، منددا في هذا الصدد ببدعة ترتيل القرآن والأدعية في ذكرى موالد الأولياء، وباستعمال آياته في الرقى للاستشفاء بها، وفي تحويل الأدعية إلى شعارات تخدير.

وفي هذا الاتجاه ألف كتابا خاصا عن المولد النبوي ليقرأ في ذكرى مولد الرسول عليه السلام، عارض به كتبا كانت تروج ولاتزال في المشرق والمغرب عن قصة المولد النبوي ، يروجها بعض المتصوفة ويقرأونها طيلة شهر الذكرى، وتختتم بالدعوة إلى الوقوف على الأقدام في حق النبي الكريم عندما ينتهي سارد قصة المولد إلى لحظة وضع آمنة للرسول عليه السلام، فلا يتخلف أحد عن القيام.

وقد ندد رشيد رضا بهذا الوقوف، وجرد« مولده» المنشور في كتاب من الإشارة إليه، وتبنت الحركة الوطنية بالمغرب في عهودها الأولى كتاب رشيد رضا هذا، وكان علماؤها يقرأونه في الدور احتفاء بالمولد الشريف بدلا من قصة المولد التي كان زعماء بعض الطرق والزوايا يعتمدونها ويجمعون الناس حولهم لقراءتها طيلة شهر ربيع الأول من كل عام .

تطور الحركة السلفية في المغرب العربي

1 - في المغرب

ترددت في المغرب أصداء التطور الذي دخلت فيه الحركة السلفية بالمشرق العربي كما تحدثنا عنه،خاصة وقد ظهر فيه - في نفس الفترة - رواد عملوا كما عمل نظراؤهم في المشرق على صوغ التنظير السلفي صياغة جديدة. وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وإلى منتصفه لمع في المغرب بين دعاة السلفية رجال فيهم من كانوا على رأس مسؤوليات علمية قيادية وحتى سياسية، فمكنهم نفوذهم الروحي أو السياسي من نشر دعوة السلفية أمثال الفقيه محمد جنون، والمؤرخ الناصري مؤلف كتاب الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، والأديب أحمد ابن المواز الذي ينسب إليه تحرير نص بيعة السلطان المولى عبد الحفيظ التي كانت في شكل عقد دستوري بين طرفي البيعة، والقاضي عبد الرحمن ابن القرشي الذي عارض فيما بعد بحماس السياسة البربرية وتخلى عن منصب وزير العدل احتجاجا عليها، ووضعته سلطات الحماية الفرنسية تحت الإقامة الإجبارية بمنزله بفاس، والشيخ المحدث المدني ابن الحسني الذي تولى على عهد السلطان سيدي محمد بن يوسف رئاسة مجلس الاستئناف وكان ضمن الهيأة الوزارية بهذه الصفة.كما ردد صدى الدعوة السلفية في تطوان الحاج عبد السلام بنو نة الذي كان منذ بسط الحماية الإسبانية على منطقة الشمال على اتصال بالمشرق العربي رابطا الاتصال

الوثيق بقادة التحرير العرب، ومتابعا تيارات النهضة الإصلاحية، ومن بينها دعوة السلفية. ويذكر أن له كتابا مخطوطا في شرح السلفية وتأييد دعوتها بعنوان « رفع الحجاب ».

أبو شعيب الدكالي

لكن أكثر الأسماء التصاقا بالسلفية ظل اسم الشيخ أبي شعيب الدكالي الذي تميز عن أقرانه بتلقي دراسته في الحجاز ومصر واتصاله المباشر برواد الوهابية والسلفية ،مما جعل منه حامل رسالة السلفية من المشرق إلى المغرب، أعني السلفية الجديدة التي انطلقت من تنظيرات جمال الدين الأفغاني فمن تلاه. وكان طبيعيا أن يضيف الدكالي إلى ما سمعه وتلقاه اجتهادات شخصية، وهو المتمكن من دراسة التفسير والحديث والمتضلع الذي لايدرك له شأو في آداب اللغة العربية ودقائقها والمكنون من أسرارها .

واعتمدت السلفية المغربية الجديدة على إشاعة علم الحديث ونشره في الأوساط العلمية واعتباره المرجع الذي يعتمد عليه، بدلا من الاعتماد على ما شاع استعماله من كتب الفروع التي أصبحت محتوياتها عند بعض العلماء المقلدين الدستور الذي يعلو على ما سواه في الفتاوي والأحكام، لكن السلفية المغربية الجديدة لم تكن سلفية سياسية من نوع سلفية الأفغاني ، بل كانت تقتصر على الدعوة للعودة للأصول الإسلامية ممثلة في الكتاب والسنة.

وإذا كان لي أن أصفها بالسياسية فإنما لمحاربتها البدع والخرافات والتضليل التي سقطت فيها بعض الطرق التي أنشأت لنفسها زوايا وأقامت على رأسها أئمة وصلحاء واستغلها الاستعمار وناهض بها أحيانا الحركة الوطنية. ونقول بعض الطرق لأن عددا من رؤساء الزوايا ظل بعيدا عن المسرح السياسي فلم يتعاون مع سلطات الحماية ولم يتنكر للحركة الوطنية.

من هذا المنظور كانت الحركة السلفية تقف على خط سياسي مناهض للأساليب الاستعمارية المستغلة للطرقية الجامدة المضلة التي وقعت في أحبولة سلطات الحماية عن وعي أو دون وعي. وهو زيغ عن مقاصدها النبيلة التي كانت الأصل في وجودها، إذ الزوايا والربط كانت في عهود الإسلام الزاهرة حصون جهاد منيعة في وجه الاحتلال والتسيب والاستلاب .

وقد شجع السلطان المولى عبد الحفيظ في الفترة القصيرة التي تولى فيها

مقاليد العرش الحركة السلفية الجديدة، ونشط في مقاومة الطرق واجتهد في حملها على العودة إلى خدمة الأهداف التي نشأت من أجلها. وبذلك أصبحت الحركة السلفية في المغرب خلال هذه الفترة قائمة على أربعة أسس :

أولها : الرجوع إلى مصادر الدين الإسلامي الأولى للاستقاء منها .

ثانيها : فتح باب الاجتهاد لتطوير التشريع بما يواكب تطور العصر. وفي هذا الباب تُسَجَّل للفقيه محمد الحجوي الثعالبي(الذي تولى في عهد الحماية وزارتي التعليم والعدل) جرأته في استخراج أحكام وفتاوي متسمة بطابع التحديث بصرف النظر عن مواقفه السياسية، فقد كان يمثل فعلا مدرسة التحديث في القصر الملكي في مواجهة المدرسة التقليدية، إذ دعا فيما جهر به من آراء إلى إدخال نظام التأمين، وتعليم المرأة، وإعطائها مكانتها في المجتمع . وهو صاحب كتاب (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي) .

وكان السلاطين المولى عبد الحفيظ والمولى عبد العزيز والمولى يوسف وسيدي محمد بن يوسف يضمون في مجالسهم التفسيرية الحديثية دعاة المدرستين، ويفسحون المجال بمحضرهم لمقارعة الرأيين المتعارضين ، في بحث عن الحقيقة العلمية الدينية التي كان الملوك العلويون يشجعون العلماء والفقهاء على ارتيادها وطرح إشكالياتها في مجالسهم .

ثالثها : مقاومة البدع والانحرافات التي اعتمدها بعض رجال الطرق والمتمثلة في الاعتقاد في نفع الأولياء، وتقديس أضرحة الصلحاء، والتوسل بدفنائها. وكان زعماء الطرقية قد خلقوا لهم أتباعا وأنشأوا لهم في الزوايا التي تحمل أسماء كبارهم مراكز تتمتع بالحصانة، وابتدعوا طقوسا وتراتيل وأدعية تميز كل طائفة عن أخرى، وأصبحوا يؤلفون جماعات ضغط سياسية وإن لم يعلنوا عن اتجاههم السياسي.

رابعها : مقاومة أسلوب دعوة الطرق خاصة التي كان الاستعمار يحاول تسخيرها للدعوة له أو استغلالها للوقوف في وجه حركة الإصلاح التي كانت تأخذ على مهل طريقها نحو الوجود .

المدني بن الحسني ومحمد السايح

وتأثر بالشيخ الدكالي تلميذاه السيدان المدني ابن الحسني ومحمد السايح، وقد اشتهرا خاصة بمجالسهما العلمية في الرباط،لكن الفقيه السايح اشتهر بمدينة فاس أيضا فيما بعد عندما أصبح قاضيا بها وأخذ يلقي دروسه بالقرويين. وإذا كنت لم

أتلق مباشرة دروسي من الشيخ السيد المدني ابن الحسني وإن كنت قرأت له واستفدت منه، وما أكثر ما كان يمتلك من معلومات في الفقه والحديث ، فإني سعيت إلى دروس السيد السايح التي كان يلقيها بفاس وأنا مازلت في السنوات الأولى من دراستي، وشدني إليها أسلوبه المبدع الذي كان ينفرد به عن علماء فاس، إذ كان يغوص في تفسير أسرار القرآن العلمية، ويردها إلى قواعد العلم الحديث، متأثرا في ذلك بمنهج تفسير الجواهر للشيخ الطنطاوي جوهري وبعمق لايقل عنه. وكان ذلك في المغرب انطلاق النهج العلمي في تفسير القرآن المعجز الذي لاتبلى عجائبه، وهو المحور الذي استغرق جهود جمهرة من العلماء والباحثين في هذه الثمانينات ، وعقدت له سلسلة من الندوات العالمية، وتمخضت عن كل ذلك حصيلة علمية أغنت تفسير القرآن بقراءة جديدة.

وإذا كانت لاتعرف للشيخ الدكالي كتب مطبوعة تضم آثاره العلمية، وإذا كان قد صدر مطبوعا للسيد المدني ابن الحسني كتب معدودات،فإن السيد السايح كان مكثراً في التأليف خاصة فيما كتبه من تحقيقات علمية اتسمت بالاتجاه العلمي الرصين، ودراسات عقلانية كان يخلص منها إلى فهم الدين الإسلامي فهما متجددا. وماتزال أكثرية مؤلفاته قابعة في مكتبته لم تنشر إلى اليوم .

وأهم ما كان يميزه بين رجال المدرسة السلفية الجديدة اقتحامه غمار جميع مشارب المعرفة وغوصه في أعماقها، ففي دروسه كان يرسل من فيضه في كل مادة علمية، منتقلا من الحديث والتفسير إلى الفلسفة والقانون، ومنهما إلى الرياضيات والفيزياء، جاهدا أن يجد لقواعد العلوم سندها من القرآن وأحيانا حتى في أحاديث الرسول، دون أن ينقطع له في ذلك الجهد نفس أو يبدو عليه عياء.

ومن ميزاته أنه ظل وهو الفقيه القاضي الشرعي على اتصال مع المستشرقين مثل ليفي بروفنصال ووليام مرسي، وساعده على ذلك سعيه إلى الإلمام باللغة الفرنسية وآدابها.وقد تأثر في منهاجيته العلمية بالأسلوب الاستشراقي،ولكنه صحح مخططه وقوم معوجه فيما كتب، أو مباشرة لدى من اتصل بهم من المستشرقين. ومن ذخائره المغمورة التي تستحق الكشف عنها مراسلاته ومساجلاته مع عالم مغربي آخر أصيل عاش ومات مجهولا هو السيد محمد الرافعي الذي كان يقطن مدينة الجديدة، والذي كانت بحوثه العلمية تواكب منهاجية السايح وربما كانا يتكاملان.ومن أبحاث الرافعي المخطوطة بقلمه كتاب ينقد فيه فلسفة هيجل بأسلوب علمي ،ولكنه لم يشتهر اسمه بين علمائنا لانعزاله في مدينة الجديدة، ولزومه بيته قاصرا جهده العلمي على من كانوا يرتادون بيته للاستفادة منه.

و تزعّم حركة السلفية في سلا عالمها أبو بكر زنيبر الذي ولي منصبي القضاء والإفتاء. وتميز بجمعه بين الدعوة إلى السلفية في مساجد المدينة وتحريره مقالات عنها نشرت له في بعض المجلات .

محمد بن العربي العلوي

إنه عَلَم آخر ذو خصوصيات مميزة هو الفقيه الأديب محمد بن العربي العلوي الذي حمل خاصة في مدينتي فاس والرباط راية السلفية في وجه الطرقية،بما كان يتميز به من جرأة وصراحة ربما بلغتا أحيانا حد الصدم النفسي الجارح. إنه ممن يقال عنهم وبحق : لاتأخذهم في الحق لومة لائم.

كان السيد محمد بن العربي العلوي الخطيب المصقع الذي تطبع خطبه فصاحة المتمكن من اللغة العربية المتضلع في دقائق أدبها. وهو أحد تلاميذ الشيخ أبي شعيب الدكالي، ولكنه انصرف في خطبه وأحاديثه إلي الدعوة السلفية المناهضة لكل زيف، المناوئة لشعوذة بعض الطرقيين من جماعة المغفلين النافعين كما كان يقول عباس محمود العقاد.

وقد بدأ دعوته هذه على عهد السلطان مولاي يوسف فابنه السلطان سيدي محمد، واتخذ هو أيضا من مجالسهما العلمية منبرا تبوأه للصدع في حماهما بآرائه الجريئة التي كانت تلتقي مع سلفية رشيد رضا في المشرق العربي في موضوع التنديد بالشعوذة والتضليل، ومع الحركة الوهابية في التركيز على إفراد الذات الإلهية بالتوحيد وتجريد من عداها رسولا أو نبيا أو وليا من إشارات التقديس، فقد كان مصرا على أن ينطق بالصلاة على محمد دون نعته بسيدنا أو مولانا، موغلا في ذلك إلى حد اعتبار من لايجاريه في ذلك زائغا عن طريق التوحيد المستقيم والنهج الإسلامي القويم .

وتضايقت من دعوته هذه المدرسة التقليدية وكادت له وتربصت به السوء لولا أن كان له من العرش عطف وحماية.وقد كان في هذه الأثناء يتقلد مناصب سامية لم يتأت له دائما الجمع بينها وبين ما اتخذه من مواقف سياسية ضد الحماية ،وخاصة عندما ساند جهارا حركة الاستقلال سنة 1944. إذ نفته سلطات الحماية خارج الرباط إلى صحراء تافيلالت .

لقد كان في مراحل رحلة عمره - انطلاقا- من دعوته للسلفية، فمساندته للحركة

الوطنية،ثم اتخاذه مواقف سياسية مناهضة - للاستعمار- رائدا من رواد تطوير الحركة السلفية إلى حركة سياسية إصلاحية. ومن هنا يعتبر في المغرب نظير الأفغاني في مصر، على حين أنه يعتبر في مجال محاربة الشعوذة والتدجيل نظير رشيد رضا.

وإذا كان انغمر في السياسة فإنه لم يتورط في العراك السياسي الحزبي تاركا هذا المجال للقادة السياسيين الذين احتفظ بصلات طيبة معهم جميعا، وإن كانت صلاته الشخصية ظلت أوثق بحزب الاستقلال منها بحزب الشورى والاستقلال. ولأنه كان فعلا محايدا فقد ارتضاه الحزبان في نهاية الأربعينات ليتولى رئاسة اجتماعات المصالحة والتوفيق بينهما بعد عودة الزعيمين علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني من منفاهما سنة 1946 .

وأثناء ذلك كنت أرتاد بيته بحي مَرْسا بالرباط لمتابعة تطور المحادثات بين الوطنيين، ثم ظلت صلتي به وثيقة إلى وفاته. وكان يشدني إليه منه جانب تأكد لي فيما بعد أنه إحدى مميزاته التي طبعت عهود حياته، إذ كان إلى جانب جرأته وصلابته وديعا باده الخاطر دافق النكتة، مما كان يحيل مجالسه إلى مجالس أدب وظرف، ويميزها عن مجالس زملائه العلماء الذين كانت أكثريتهم تلتزم التقيد بالوقار الذي كان يبلغ التزمت.

ولا أنسى له يوم التقينا بالدار البيضاء عندما بدأت حركة المقاومة في السنوات البطولية الحرجة التي سبقت عهد الاستقلال ، وكنت أتأهب في ذلك اليوم لزيارة بيت أسرة عضو من حزب الشورى والاستقلال حكمت عليه المحاكم الفرنسية بالإعدام فأبي إلا أن يرافقني في هذه الزيارة بعد أن علم بسببها ،وكان جو المأتم يخيم على البيت عند وصولنا ،والنساء والأطفال يبكون«فقيدهم» المرشح للموت، فأخذ مكانه وسط الأسرة وسأل : « لماذا تبكون؟» فكان الجواب :«لقد حكموا بالإعدام على عزيزنا » وأخذوا يذكرون مناقب الفقيد في صرخات رثائية قبل أوانها فابتسم مخاطبا أعضاء الأسرة المنكوبة واحدا واحدا وأخذ يقول: « أنصتوا إلي، أنت أيها السيد محكوم عليك بالإعدام، وأنت يا سيدتي محكوم عليك بالإعدام، أنتم محكوم عليكم بالإعدام ، أنا محكوم علي بالإعدام ،كلنا محكوم علينا بالإعدام» ،مذكرا أن الإنسان يخطو منذ بدء حياته وإلى وفاته كل لحظة خطوات نحو الموت، وأن الأحياء مرشحون لهذا الموت في كل آن، وأن لاأحد يدري متى يموت وأين يموت. وتساءل:« وما أدراكم أن عزيزكم هذا سيقتل وإن حكم عليه بالإعدام» ؟

وهدأ روع الأسرة على هذه النغمة المتفائلة ، وأشع الأمل، وبددت الفرحة ظلمة اليأس، وخرجنا من البيت مشيعين بالزغاريد وكأن لم نستقبل بالبكاء والعويل.

وصحت رؤيته، فلم ينفذ حكم الموت في أحمد ابن البشير الوطني المقاوم بل أطلق سراحه في الأيام الأولي من عودة الاستقلال والسيادة عندما انفتحت السجون. وهو إلى اليوم مايزال بيننا وبين ذويه في الدار البيضاء حيا يرزق.

2 - في تونس

منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر وإلى العقدين الأولين من القرن العشرين عرفت تونس مخاضا فكريا تولد عنه تحول اجتماعي ثقافي كان ضمن منطلقاته تأثر الشباب التونسي بالحركة السلفية التي كانت تنتشر في المشرق العربي.

وكانت جامعة الزيتونة، والمدرسة الصادقية، فالجمعية الثقافية المدعوة « الخلدونية» تردد أصداء الحركة. وربما كان طلبة الزيتونة أسبق إلى التناغم معها من علماء الزيتونة الذين كانت روح المحافظة تطغى عليهم كزملائهم علماء جامعة القرويين بالمغرب. من أجل ذلك لم يبرز لدعوة السلفية في تونس سوى أسماء معدودات ظهرت بين العلماء في فترات متقطعة خلال الحقبة المشار إليها .

من هذه الزمرة القليلة برز ضمن علماء جامع الزيتونة اسم الشيخ محمد السنوسي الذي أصدر جريدة «الرائد» وجمع حولها ثلة من زملائه، لكنه ركز على مناهضة النفوذ الفرنسي على تونس مما صبغ اتجاهه السلفي بالصبغة السياسية، ومما حمل السلطات الحاكمة على إبعاده من تونس الى قابس.

ويطالعنا فجر القرن العشرين باسم داعية سلفي آخر هو الشيخ المكي ابن عزوز، وهو أيضا من علماء الزيتونة.وقد تابع عمل الشيخ محمد السنوسي بعد نفيه، فزاوج بدوره بين الدعوة السلفية وبين المطالبة بالإصلاحات الإدارية الدستورية.

ويعتبر العالمان سالفا الذكر امتدادا للجنرال خير الدين باشا الذي تميز نشاطه في النصف الأخير من القرن التاسع عشر بالتركيز على الإصلاحات الدستورية سواء في تونس أو الأستانة.

وعلى الشيخ ابن عزوز درس الشيخ عبد العزيز الثعالبي في حلقات جامع الزيتونة، ومنه تلقى النفحات الأولى لنزعته الإصلاحية، وكما فعل السنوسي أصدر الشيخ ابن عزوز مجلة باسم «حبيب الأمة» كتب فيها أفكاره عن السلفية والإصلاح الدستوري.

وبعد سنوات تكونت بتونس حركةسلفية سياسية لم يقدها علماء الزيتونة وحدهم، وأطلق قادتها على أنفسهم اسم « جماعة الحاضرة» وأصدروا جريدة باسم «الحاضرة».

وكانت دعوتهم إصلاحية سياسية تركز على إقامة الحكم الدستوري والمطالبة بتحديث الأجهزة الإدارية أكثر مما تركز على العودة للأصول السلفية.

من هذا المنظور يمكن اعتبار "جماعة الحاضرة" موازية لنظيرتها المعاصرة لها التي تأسست في المغرب وانطلقت دعوتها من طنجة على عهد السلطان عبد العزيز للمطالبة بدخول الملكية المغربية في العهد الدستوري، أعني الجماعة التي أعدت مشروع الدستور المغربي المؤرخ ب 11 أكتوبر(تشرين الأول) سنة 1908 والذي عكست بعض تنظيماته وحتى مصطلحاته التنظيمات العثمانية، وهو المشروع الذي لم يجتز طريقه إلى التطبيق بسبب فرض الحماية على المغرب .

وقد قاد" جماعة الحاضرة " علي أبو شوشة الذي كان متأثرا بدعوة جمال الدين الأفغاني ودعا إلى إقامة جامعة إسلامية تنتظم العالم العربي الإسلامي .

يمكن تأريخ بدء التنظيم السلفي في تونس بالزيارة التي قام بها محمد عبده إلى تونس في صيف 1903 موفدا من أستاذه جمال الدين الأفغاني ربما لمحاولة تأسيس فرع لمدرسة« العروة الوثقى». وساعدت هذه الزيارة على الأقل على التعريف بفلسفة الحركة السلفية المصرية وعلى ربط حلقات الاتصال بين تونس ومقر السلفية في القاهرة، وكانت زيارة محمد عبده مثار جدل لم ينقطع بين علماء الزيتونة المحافظين في أغلبيتهم وبين طلبتها المتطلعين إلى الإصلاح والتجديد.

وعندما شن طلبة الأزهر سنة 1909 إضرابا للمطالبة بتغيير برامج الأزهر وكتب التعليم العتيقة وتقرير كتب عصرية بدلها تضامن طلبة الزيتونة مع طلبة الأزهر في إضراب مماثل أعلنوا فيه عن نفس المطالب. وكانت حركة السلفية في كل من القاهرة وتونس وراء الإضرابين .

خصوصيات سلفية تونس

نعتقد أن سلفية تونس تميزت عن التنظير السلفي في غيرها بالتركيز على الإصلاحات السياسية، حتى ليمكن القول إنها ترادفت مع مفهوم التغيير السياسي، كما نلاحظ أن دعاتها لم يقتصروا على نشر دعوتهم باللغة العربية - كما هو الشأن في المغرب ومصر مثلا - ولكن أيضا باللغة الفرنسية، وهو أمر طبيعي لسبق تونس

إلى ارتياد مناهج التعليم الفرنسي وتوفرها آنذاك على إعلام ناطق بالفرنسية يخاطب النخبة التي تكونت في مدارس الحماية ومعاهدها.

إن ترادف مفهوم السلفية التونسية مع مفهوم الإصلاح السياسي دفع بزمرة من القادة إلى العمل في آن واحد في الواجهتين الإصلاحية والسياسية، فالزعيم عبد العزيز الثعالبي قاد الحركة الوطنية السياسية كما قاد حركة السلفية منذ التقى بالشيخ محمد عبده أثناء زيارة هذا الأخير لتونس. وأحكم صلته بقادة مدرسة «العروة الوثقى» ثم بقادة «مدرسة المنار» عندما أقام بمصر سنوات..لقد كان قائدا سلفيا بجانب محمد النخلي ورشيد صفر .كتب مؤلفا عن «روح التحرر في القرآن» وآخر عن «معجز محمد»وكان زعيما سياسيا بجانب علي باش حامبة بدءا من نشره في باريس باللغة الفرنسية كتابه «تونس الشهيدة» إلى قيادته حزب الدستور. وكما كان الشأن في المغرب حيث غنيت الحركة السلفية بروافد علماء الشباب ممن درسوا بالقرويين- كما سنرى فيما بعد- فإن الحركة السلفية التونسية بدءا من الثلاثينات تجاوزت عقبة علماء الزيتونة المحافظين إلى تبنيها من لدن علماء شباب امتلكوا ناصية الدعوة لها بأسلوب مؤثر نافذ إلى العقول والضمائر، يتصدرهم الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور الذي أغنى الفكر الإسلامي بتفسيره الحافل بالمعاني والدلالات والاستنباطات«تفسيرالتحرير والتنوير» الذي قدمه بنفسه في هذه العبارات الدالة على نهجه الجامع بين السلفية والمعاصرة حيث قال:«لقدجعلت حقا علي أن أبدي في تفسيرالقرآن نكتا لم أر من سبقني إليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وآونة عليها ، فإن الاقتصار على الحديث المعاد، تعطيل لفيض القرآن الذي ما له من نفاد. ولقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين: رجل معتكف فيما شاده الأقدمون، وآخر أخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون، وفي كلتا الحالتين ضرر كثير. وهنالك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير، وهي أن نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذبه ونزيده،وحاشا أن ننقضه أو نبيده».

خير الدين باشا

ويدمج البعض ضمن الحركات السلفية في تونس حركة خير الدين باشا(1810-1890) وحركة علي باش حامبة، في حين أنهما حركتان إصلاحيتان سياسيتان لاتتمحص السلفية في دعوتيهما .

إن الجنرال خير الدين باشا الشركسي الأصل التونسي المنشأ كان سياسيا إصلاحيا وداعية لتنظيم حكم الباي على أساس الدستور. وقد توجت دعوته بقبول محمد الباي سنة 1857 إصدار«عهد الأمان» الذي يعتبر أول قانون أساسي يصدر في تونس وينقل نظام الحكم من وضعه التقليدي إلى عهد الحكم المؤسس .

وإثر صدور هذا العهدعكفت لجنة تونسية رأسها خير الدين على إعدا دستور أعلن عنه سنة 1861. وبذلك تمكن هذا الزعيم التونسي من قيادة حركة تحديث الحكم في تونس.

لكن أمام معارضة رئيس الوزراء مصطفى خازندار لتيار الإصلاح وتطبيق الدستور تخلى خير الدين عن العمل الحكومي وانقطع إلى تأليف كتابه المشهور «أقوم المسالك لمعرفة أحوال الممالك» الذي تضمن منهاجه الإصلاحي. وقد ذاع صيت هذا الكتاب وترجمت مقدمته الفلسفية إلى الفرنسية والإنجليزية والتركية .

وتطالعنا أنباء خير الدين مرة أخرى سنة 1873 وهو يتخلى عن المعارضة ليتسنم منصب خصمه خازندار إذ يعينه الباي رئيسا للوزراء فيعلن عن برنامجه في تطبيق الإصلاحات في الإدارة والتعليم ومعالجة شؤون المالية والاقتصاد وإصلاح القضاء وتنظيم الجيش. وقد نجح في كل ذلك بما جعل من عهده على رأس الحكومة عهد التغيير الشامل .

والطريف أنه تحدث عن كل ذلك فيما كتبه مقدما عرضا شاملا عن منجزاته حتى لتحس أنه ابتدع في الحقبة التي تتحدث عنها طريقة العرض التقييمي للعمل الحكومي التي أصبحت فيما بعد الطريقة المتبعة من رؤساء الحكومات في تقديم منجزاتهم ونشاطاتهم أمام البرلمانات .

هذا النجاح الذي حققه خير الدين في تونس هو الذي جعل السلطان العثماني عبد الحميد يستقدمه إلى الأستانة ليقلده مناصب سامية توجت بتقلده منصب الوزير الأكبر(رئيس الوزراء)،إلا أنه عندما عرض على السلطان برنامجه الإصلاحي الجسور رفض السلطان سياسته فاضطر إلى الاستقالة واعتزل الحياة السياسية إلى أن وافته المنون (30 يناير1890) أي بعد مرورتسع سنوات على بسط الحماية الفرنسية على تونس.

وتكريما لما أنجزه وما طبع به تاريخ تونس من أعمال حرصت الحكومة التونسية على نقل رفاته إلى تونس يوم 28 مارس(آذار) سنة 1968.

هكذا كان الجنرال خير الدين رجل دولة وزعيم إصلاح، وداعية تحديث، لاعلاقة لبرنامجه بالسلفية وأغراضها .

أما علي باش حامبة الذي نشطت حركته بعد حركة خير الدين فقد تبنى برنامجا سياسيا لمناهضة سياسة تجنيس اليهود التونسيين بالجنسية الفرنسية التي كانت السلطات الفرنسية الحاكمة اعتزمت تطبيقها لتضخيم حجم الجالية الفرنسية بتونس وفي محاولة لإبعاد الشقة بينها وبين الجالية الإيطالية التي كانت تأتي في الدرجة الثانية. وكون حزبا سياسيا باسم « تونس الفتاة» بعد نجاحه في حمل الفرنسيين على التراجع عن سياسة تجنيس اليهود. والتقى كفاحه في هذه الفترة مع نشاط الشيخ عبد العزيز الثعالبي، وأصدر جريدة «التونسي» باللغة الفرنسية، ثم باللغة العربية، وكانتا ناطقتين باسم حزبه.

وعندما حلت سلطات الحماية الفرنسية بتونس حزبه لجأ إلى الأستانة عاصمة الخلافة العثمانية وتسنم بها مناصب هامة في الدولة. وكيف لا وقد أصبح فيها داعية لبسط نفوذ الخلافة العثمانية من جديد على تونس وتخليصها من الحماية الفرنسية. ويلتقي علي باش في جملة من آرائه مع آراء مصطفى كمال، وإن لم يعش فترة إعلان هذا الأخير ثورته، إذ وافته المنية إثر نهاية الحرب العالمية الأولى.

إن رصد تطورات حركة السلفية التونسية يسمح لنا أن نؤكد أن أصداء السلفية لم تتردد في تونس على نفس المدى الذي بلغته سلفية المغرب أو سلفية الجزائر، وأن نشاطها غمرته تيارات الإصلاح والمعاصرة والتغريب. ولعل مرد ذلك إلي أن اهتمامات تونس وتوجهاتها في الحقبة التي نتحدث عنها ظلت أكثر ما تكون نزوعا إلى معالجة نظام الحكم بتحديثه وإدخال تغييرات جوهرية على أسسه مستمدة من نظم الغرب الديمقراطية، وهو نفس الاتجاه الذي كان يسود داخل الخلافة العثمانية قبيل سقوطها، وامتدت توجهاته على عهد الاتحاديين والشباب الترك وإلى قيام ثورة مصطفى كمال.

إننا نذكر أن أمبراطورية «الرجل المريض» تقسمتها قبل نهاية العقد الأول من قرننا تيارات نفذ مفعولها حتى خارج حدودها المنحسرة، أي فيما انفصل عنها من أقطار إسلامية، فتوزعت التنظيرات والمواقف بين مؤيدي الجامعة الإسلامية، ودعاة القومية العربية، بين الاتحاديين والشباب الترك الذين دعوا إلى تتريك جميع

مركبات(بكسر الكاف) النظام العثماني وصهرها في البوتقة الطورانية، وبين تيار استعراب الترك، وبين الداعين إلى الوحدة على أساس العلمانية والمنادين بشعار«الدين لله والوطن للجميع».

وقد كرست القيادة التونسية في النهاية تخطي السلفية خاصة منذ انفصال الزعيم الحبيب بورقيبة في بداية الثلاثينات عن الحزب الدستوري (القديم) الذي كان علماء زيتونيون ضمن قيادته، وتأسيسه الحزب الحر الدستوري (الجديد) الذي التحقت بقيادته عناصر تلقت دراستها في معاهد الحماية الفرنسية وجامعات فرنسا.

إن تونس دخلت بذلك عهدا جديدا أصبحت فيه الحركة السياسية الوطنية تباعد بينها المسافات وبين الخط السلفي ، بل تتأثر بحركة الشبان الأتراك وبالثورة الكمالية التي أقامت نظامها على أقانيم التتريك، والتغريب، والتحديث.

3 - في الجزائر

ظهرت بالجزائر حركة سلفية دعا لها الشيخ عبد الحميد ابن باديس (1889-1940) وقادها من مسقط رأسه (قسنطينة) واستمر يدعو لها إلى وفاته مزاوجا بين دعوتها ومساهمته في بعض أوجه النشاط السياسي.

وقد طبعت رحلته لأداء مناسك الحج سنة 1904 اتجاهه السلفي حيث استقى الدعوة الوهابية من ينابيعها ، وسنحت له فرصة اللقاء من جديد بأحد شيوخه الذي كان رحل عن قسنطينة مختارا الجوار بالمدينة.

وعن هذا اللقاء الذي كان له تأثير روحي بالغ عليه كتب سنة 1938 في جريدة الشهاب أن شيخه «قدم له نصائح أخذ عليه الالتزام بها ،هي أن لايسعى إلى نيل الوظائف والمناصب، وأن يزهد فيها إذا عرضت عليه، وأن لايتعيش من علمه بأجر يتقاضاه على تلقينه».

وتقيدا بهذه الوصايا مارس لمدة طويلة - بعد عودته من تونس ومصر- بالجامع الأخضر بقسنطينة التعليم الحر تطوعا، كعادة علماء هذا العصر الذين كانوا في المشرق والمغرب يعتبرون نشر العلم واجبا لايطمعون مقابل أدائه في أجر يتقاضونه مهما اشتدت حاجتهم أو ضاقت بهم سبل العيش، وإن اضطروا إلى أجر فإنما كانوا يأخذون منه بالمعروف .

وفي تونس التي جاءها طالبا ثم تخرج سنة 1913 من جامعتها الزيتونة صادف

ظهور الحركة السلفية، وبها اتصل بالثعالبي وشهد كطالب إضراب تضامن الطلبة التونسيين مع طلبة الأزهر، لحمل إدارة الجامعة التونسية على تغيير المناهج الدراسية في وجهة الاتجاه السلفي الإصلاحي، وتهيأ بجميع ذلك إلى استيعاب الفكرة السلفية عندما وطئت قدماه أرض الكنانة قادما من تونس، فاتصل بعلمائها خاصة بالشيخ محمد بخيت الذي أجازه، وربط الصلة بمدرسة المنار التي ساعدته على مزيد من الانفتاح على السلفية المصرية الجديدة، ثم عاد إلى قسنطينة للتدريس وليصدر سنة 1919 أول جريدة عربية يومية بالجزائر باسم النجاح. ولم يقدر للجريدة أن تعمر طويلا، إذ تضايقت منها السلطات الفرنسية. وكان عليه أن ينتظر ست سنوات ليتمكن من إصدار جريدة «المنتقد» التي جعل شعارها «الحقيقة قبل كل شى، والوطن فوق الجميع» ، وقال إن غايتها «العمل لإسعاد شعب الجزائر بمعونة فرنسا الديمقراطية».

على صفحات جريدته الثانية هذه عارض الطرقية وفضح تحالفها مع الاستعمار وندد باستغلالها سذاجة العامة.

ومرة أخرى أوقفت السلطات الفرنسية الجريدة بعد صدور 18 عددا منها فقط، فأصدر ابن باديس بدلها جريدة «الشهاب» التي عرفت انتشارا أكثر. وعلى صفحاتها تبلورت السلفية الجزائرية، وساهم نشرها في إغناء الفلسفة السلفية بمضامين جديدة. مما أصبحت معه «مدرسة الشهاب» تتجاوب مع «مدرسة المنار» في مصر .

وكانت مجلة الشهاب تصدر أعدادها بهذا الشعار: «البحث عن كل ما يرقي المسلم الجزائري. ومبدؤنا في الإصلاح الديني والدنيوي مقولة مالك بن أنس: «لايصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».

ظلت الشهاب تصدر طيلة خمس عشرة سنة أصبحت خلالها لسان جمعية العلماء المسلمين التي أسسها ابن باديس نفسه في خامس مايو(أيار) 1931 وأصبح شعارها في الثلاثينات:«الحق والعدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات»، وكأنما كان هذا الشعار يشير في هذه المرحلة إلى المطالبة بحصول الجزائريين على الحقوق المخولة في الجزائر للفرنسيين،لكن بعد أن اصطدم ابن باديس بجمود السياسة الاستعمارية الفرنسية اتخذ في الأربعينات شعاراً آخر هو «لنعتمد على أنفسنا ولنتكل على الله».

كانت جمعية العلماء المسلمين تعتبر أن تغيير واقع المسلمين إلى مصير أفضل

لايتأتى إلا باعتماد الإسلام قاعدة لهذا التغيير، وإلا بالاقتصار على الاستقاء من هدي القرآن والسنة وعمل السلف، والتخلي عن اتّباع رأي الفقهاء والعلماء الجزائريين المعاصرين. وكانت سلطات الاحتلال تستغل طائفة منهم في تخدير الشعب الجزائري وتهييئه للذوبان في شخص المستعمر وسلخه عن جلده الأصلي. وفي مواجهة هذا الرهط من العلماء أعلن ابن باديس أن مكافحتهم نوع من الجهاد، بل إنها تسبق الجهاد في سبيل الله. وقادت الشهاب حملة توعية العامة حتى لاتنساق في ظلمات التدجيل، وطبقت جمعية العلماء التي كان يرأسها برنامجا تربويا في المدارس التابعة لها يعتمد الإسلام محور منهاجيته. ومن هنا كانت الجمعية تنشر على صفحات الشهاب تفسير القرآن بنهج سلفي يثير جملة من القضايا المعارصة التي يقدم لها ذلك النهج حلولا عصرية. وبعد وفاته انتخبت جمعية العلماء الشيخ البشير الإبراهيمي رئيسا لها بالرغم من أنه كان في منفاه بالجنوب، حيث كانت السلطات الفرنسية أبعدته على إثر نشوب الحرب العالمية الثانية. وكان الشيخ البشير يشرف على جريدة «البصائر» ويكتب افتتاحياتها ويركز فيها على عروبة الجزائر وإسلامها بأسلوبه العربي الرصين، مشيدا باللغة العربية التي طردها الاستعمار الفرنسي من الجزائر قائلا « إن العربية هي لسان العروبة الناطق بأمجادها، الناشر لمفاخرها وحكمها، فكل مدع للعروبة فشاهده لسانه، وكل معتز بغير العروبة فهو ذليل، إلا أن تمده هذه المضغة اللينة بالنصر والتأييد».

وإذا ما بقيت للعروبة والإسلام جذور في الجزائر بعد أن أحكم الاستعمار الفرنسي عليها قبضة لمسخ والتشويه والتسيب والاستلاب، فإن الفضل يعود لجمعية العلماء المسلمين وإلى زعيمها الأول ابن باديس، فخلفه الإبراهيمي.فلنستمع إلى هذا الأخير ، وهو يرفع هذا الصوت النشاز في الجزائر التي كانت طائفة من زعمائها تطمح إلى الاندماج في فرنسا كحل مثالي لتمتيع الجزائريين بنفس حقوق الفرنسيين متحديا الاستعمار أقوى ما يكون التحدي : « اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية، ومن ثم فهي لغة المسلمين الدينية.ولهذه اللغة على الشعب الجزائري حقان أكيدان : حق من حيث أنها لغة دين الشعب الجزائري كله بحكم أنه مسلم، وحق بحكم أنها لغة جنسه العربي».

وفي مقال آخر يقول :« ينكر الاستعمار عروبة الشمال الإفريقي بالقول، ويمحوها بالفعل . إن الاستعمار ليعرف عروبة هذا الشمال ولكنه ممن يكتمون الحق وهم يعلمون» .

من الصدمة ...إلى ثورة ثقافية

كانت صدمة شعب المغرب باحتلال أرضه وتجزئة ترابه إلى مناطق نفوذ ثلاث من نوع الصدمات القاسية المذهلة، إذ تغيرت المعالم السياسية في المغرب فجأة، وأخذت تتبخر الآمال في كسب جولة جديدة لانتشال البلاد من الوهدة التي تردت فيها .

وأمام هول الصدمة وعلى مدى توالي سنوات العقدين الأولين من عمر الحماية، وخاصة منذ فرضها سنة 1912 وإلى سنة 1925، توزعت فصائل الشعب المغربي في أنماط من السلوك والمواقف حيال العهد الجديد في بحث عن الإنقاذ ،وتلمس المخرج من المأزق التاريخي. وعندما أخذت أوكار المقاومة تنحسر ويضيق شيئا فشيئا هامش نضالها أصيبت مدن المغرب بزلزال فكري ، ودخلت البلاد في أزمة إحباط.

وحتى بالنسبة لرواد الحركة الوطنية الذين كانوا يتأهبون لخوض كفاح سياسي منظم، كانت الطريق أمامهم تبدو صعبة الاجتياز، محفوفة بالأشواك والمخاطر، إذ كان كل شئ في وضع المجتمع المغربي ، سياسيا وفكريا، يؤذن بصعوبة مهمة الإصلاح.

استسلام

على الصعيد الفكري تحولت إلى جمود روحُ المحافظة التقليدية التي طبعت المغرب في أغلب عهوده التاريخية، وعششت في بعض الأذهان أفكار بالية نمت شعور الإحباط وروح الاستسلام للواقع الذي فرضه الأجنبي.

وتدنت على العموم الحركة الفكرية ،فأصبح التعليم في المساجد والمعاهد مقتصرا على استظهار النصوص الفقهية التي كانت تتضمنها«كتب صفراء» تجاوزها العصر، مما سد معه العلماء باب الاجتهاد، وما جعل بعضهم يحرم التعامل مع العصر بخيره وشره، ودفع بآخرين إلي أن يلوذوا بالتقية لتبرير تجنب كل مناهضة أو معارضة للحكم الأجنبي، مؤولين الآية الكريمة «ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة» في معنى الرضا بالأمر الواقع والبعد عن اقتحام المكاره لتغييره. وردد بعضهم حديث «وليسعك بيتك وابك على خطيئتك» على أنه يعني أن يقنع المؤمن في حياته – بعد

نزول المحنة وانتشار الفتنة - بأن ينفض يده من مسؤوليات الدنيا ويقبع في بيته معنيا «بخويصة نفسه» . وبذلك أخرج هؤلاء بعقليتهم الجامدة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من سياقها ووقفوا على «فويل للمصلين..».

وفي مقال طريف نشره بمجلة «المواقف» فضيلة الشيخ إبراهيم الكتاني- رحمه الله - أعطى عن هذا الاتجاه صورا عاشها في الفترة التي نتحدث عنها،وعدد أمثلة شاهدة بسريان روح الإحباط واليأس والتسليم بالواقع المفروض في فصائل من المجتمع المغربي.

ومما جاء في مقاله «أن حاشية السلطان المولى عبد الحفيظ وعلى رأسها الصدر الأعظم الحاج محمد المقري كانت تنصحه بالاستسلام لقضاء الله وقدره بالعدول عن كل مقاومة لفرنسا القوية، والتعجيل بإمضاء عقد الحماية» وأضاف الشيخ الكتاني أنه سمع بعد بسط الحماية الفرنسية أن بعض رؤساء الطوائف الضالة بطنجة كان يقول «اقتضت إرادة الله تسليط النصارى على المسلمين،فالذين يقاومون النصارى إنما يقاومون إرادة الله» وأن بعض المدرسين بفاس كان يقول «إن النصارى ما جاءوا للمغرب إلا بإذن الولي الصالح مولاي ادريس(المدفون بفاس) وأن بعض الصالحين رأى مولاي ادريس في المنام فطمأنه على أن «مدينة فاس لن يصيبها مكروه من جراء الاحتلال الفرنسي».

.. وأحكام مسبقة

وكان هناك نمط آخر من الفقهاء والعلماء أصدروا أحكاما مسبقة على اتجاه الإصلاح وأدانوه غيابيا، واجتنبوا التعامل معه باعتبار أن سلوك نهجه يفضي إلى الضلال، واستبعدوه كوسيلة لمواجهة صدمة الاحتلال .

وكان هؤلاء يفهمون أن حديث «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» يعني أن يتوقف الحاضر في ساعة الماضي، وأن لاتدور عقارب هذه الساعة إلا خلفا،وكانوا يعارضون النهج الإصلاحي دون أن يجهدوا أنفسهم في التعرف عليه لتقييمه واستبعاد«شره» والاستفادة من خيره. لقد حكم بعضهم على السلفية بأنها مروق من الدين،ونعت آخرون دعاتها بالأنبياء الجدد الذين «قطر بهم السقف» حسب التعبير المغربي العامي، وهو ما يعني أنهم «موضة» العصر وبدعته.

الفقيه محمد ابن سودة

هو عالم من أجلة علماء فاس، وصوفي زاهد ذاكر، وخطيب واعظ من أبرز خطباء الجمعة،ومدرس بجامعة القرويين قبيل الحماية وإلى الأربعينات ، كان متشددا في اعتماد الأحكام الشرعية حتى ليستبعد العمل بالرخص إن طلب منه أحد فتوى في الدين والمعاملات. وهو عم أخينا أحمد إبن سودة مستشار جلالة ملك المغرب.

أدركته على حاله هذه وتعرفت عليه عن كثب، إذ كان واحدا من أساتذتي في الطور الثاني بالقرويين في أواخر الثلاثينات .

كان صورة لهذا النمط من العلماء والفقهاء الذين يهابون تغيير الأوضاع ويتحفظون من دعاة الإصلاح، ويكفرون من لايطبق الدين على شاكلتهم، وربما كان الفقيه الصوفي هذا إمام هذه المدرسة في عصره.

كان يدين بالكفر والزندقة حركة محمد عبده وتلميذه رشيد رضا ، وكان يقذف بهما إلى النار ومعهما كل من علم عنه من طلبته أو من شباب العصر أنه يميل إلى حركتهما أو يدعو لها سرا أو علانية.

وأدرك طلبته أنه لم يسبق له أن قرأ عن السلفية أو السلفيين أي كتاب، وإنما كان يطلق حكمه الصارم دون تثبت، ولم يخامرهم شك في أنه كان في حكمه صادق الظن ولاتشوب حسن نيته شائبة.

ودبر أذكياؤهم حيلة نجحت في تحويل تفكير الفقيه وتغيير مجرى حياته، فقد اقتلعوا اسم محمد عبده من غلاف كتابه « رسالة التوحيد » وبتروا منه المقدمة التي تحمل اسمه، ونجحوا في تسريب الكتاب إلى غرفة نومه.

وعكف الفقيه ابن سودة على قراءة الكتاب وأعجب به ثم أخذه معه يوما إلى حلقات دروسه لينصح طلبته بقراءة ذلك الكتاب الجيد، ذاكرا أن مؤلفه أفاد وأجاد، وأن هذا النهج القويم هو ما يحسن بطلبته أن يتدارسوا ،لاكتب محمد عبده الملحد الكافر.

كشف الطلبة أوراقهم ، وقدموا للفقيه نسخة كاملة من الكتاب وعليها اسم مؤلفه، فاستغفر الله من إثم الرجم بالغيب، وأصبح يلتهم كتب السلفية واحدا فآخر،

وتغيرت نظرته إلى الدين والناس. ومات وهو يصدر من الفتاوي ما يطابق حديث «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه».

...وانطواء رافض

وبجانب هذا النمط الذي قاده يأسه إلى الارتماء في أحضان الاستعمار وذلك النمط الآخر الذي عارض بدون وعي كل إصلاح وتغيير،كان هناك نمط ثالث أثرت عليه الصدمة الاستعمارية فانكفأ على الذات ، وحصن نفسه وراء سياج سميك من الرفض السلبي للواقع المفروض ، ملتزما بنوع من الاعتكاف الباطني في التعامل والسلوك.

لم يخضع هذا النمط للاستعمار ولم يتهيب بأسه، وإنما قرر فيما بينه وبين نفسه رفضه في انطواء سلبي، واستعان على ذلك بحمل النفس على الالتزام بالزهد في الدنيا، معلنا في باطن ذاته جهادا في وجه الدخيل كان سلاحه الوحيد فيه إيمانه بأنه بسلوكه هذا إنما يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

ولقد عشت في فجر عمري نموذجا لهذا النمط طبع حياتي طيلة طفولتي وفترة من شبابي، في شخص جدي من والدتي الذي وجدته الحماية في مقتبل شيخوخته،فقرر بكل بساطة أن يلغي الحماية من تفكيره وحياته، وأن يعيش في بيته متحصنا من شرورها، معتزلا المجتمع والناس طيلة ما يناهز ربع قرن، معتبرا بذلك أنه رفض الاستعمار وأوصد دونه كل باب.

الحسن بوطالب

كان جدي هذا (الحسن بوطالب) معروفا في مدينة فاس بورعه وتقواه، وكان صديقا حميما للفقيه ابن سودة سابق الذكر، وكان يعيش - قبل بسط نفوذ الحماية الفرنسية على المغرب- من مورد محدود يتقاضاه على تلقي الشهادات وكتابة رسوم الإشهاد كواحد من عدول مدينة فاس الذين كانوا يمارسون مهنتهم بسماط العدول قرب جامع القرويين، ولكنه كان يغلو في التحري، فلايكتب من الشهادات إلا ما يتأكد لديه صدقه وسلامته من الزور والزيف، ولذلك كان من العدول المقلين الذين لاتدر عليهم مهنتهم إلا دخلا يسيرا تنميه القناعة، وكان يجبر كسر ذلك بمورد آخر

يسير أيضا، هو نصيبه في قسم مداخيل ما يلقي به الناس تقربا من دراهم في صندوق ضريح الولي سيدي علي بوغالب دفين فاس، ذلك الصندوق الذي يطلق عليه المغاربة إلى اليوم اسم «الربيعة» كما يطلقون على مداخيله اسم «فتوحات الأولياء» فقد كان السلطان المريني قضى بعد حدوث خلاف بين بعض أجدادنا وأبناء عمهم الأدارسة أن يسمح للأدارسة من فريق أولاد بوطالب بأن يقتسموا فيما بينهم فتوحات ضريح الولي المذكور، بدلا من مداخيل المولى ادريس، ولم يكن الموردان يكفلان لجدي سوى حد أدنى من عيش كريم كان الشظف والتقتير يطبعانه.

وعندما أخذت الحماية الفرنسية تبسط نفوذها المباشر على المرافق الإدارية المغربية، وبلغ إلى علمه أن القضاء الشرعي - ومعه مهنة العدالة - أصبح تحت رقابة إدارة الشؤون «الشريفة» (بمعنى شؤون ما كان يسمى بالإيالة المغربية الشريفة) التابعة للإقامة العامة الفرنسية بالرباط، بادر فقدم استقالته من مهنته في رسالة من مختصر القول لم تتجاوز جملة واحدة مفيدة بعث بها إلى قاضي فاس «أخبركم أني تنازلت عن مهنة العدالة لضعفي وقلة حركتي» وكان يردد لزوار بيته أنه مافعل ذلك عن ضعف أو قلة حركة، وإنما احتسابا لله حتى لايأكل - حسب تعبيره - من خبز أصبح تناوله محرما لايجوز، بعد أن أمسك الكفرة بمقاليد شؤون المسلمين وتحكموا في أرزاقهم .

وقد كان نذر الله أن لايرى وجه كافر، ودعا الله «أن يكرم وجهه بهذا النذركما كرم عليا ابن أبي طالب فلم يسجد لصنم قط».

وحتى يفي بنذره غير بيته واستأجر آخر قرب مسجد جامع الأندلس بفاس، عكف فيه على تلاوة القرآن، ودراسة كتب التفسير والحديث المتداولة، وظل لايغادر البيت إلا خمس مرات في اليوم والليلة لأداء الصلاة في المسجد مرخيا على وجهه كلما سار في طريقه إليه أطراف كسائه حتى لايرى أحدا، وحتى يتجنب رؤية الكافرين الذين بلغه أنهم أصبحوا يجوبون شوارع المدينة.

وكان إذا صلى المغرب تناول طعامه قبل أداء صلاة العشاء ليصوم بعد ذلك عن الكلام وينقطع للذكر قبل أن ينام مرددا أن « آخر ما ينام عليه المؤمن ذكر الله».

وما هي إلا ساعات ينامها حتى يستيقظ في الهزيع الأول من الليل ليبيت قائما ساجدا متهجدا،لايتوقف عن ذلك إلا ليخرج للمسجد المجاور ساعة قبل الفجر، واستمر على ذلك ما يناهز ثلاثين سنة.

وقد ثارت ثائرته وهاج غضبه عندما علم أن مدينة فاس قد أقيم بها بشارع

القطانين بنكها الأول ، فكان يستعيذ بالله أن يصيب سكانها بنقمته بعد أن تدنست المدينة« بعش الربا ».

وعاد من المسجد ذات يوم غاضبا وسأل جدتي زوجته: «أماتزالين تستقبلين زوجة جارنا فلان؟ إن كان الأمر كذلك فاحذري من أن تعودي لاستقبالها ،فقد علمت - وأنا في المسجد من ثقات لايتطرق الشك لروايتهم - أن هذه الأسرة سمحت لنفسها وللأولاد والبنات بالالتفاف حول صينية شاي ،فيا للمنكر».

وكانت عادة شرب الشاي بدأت تتسرب إلى بعض البيوت والأسر عندما قال ذلك، ولم تكن الأسر المحافظة الرافضة لأي تعامل مع الأجنبي والمعرضة عن استهلاك وارداته تقبل تلك العادة.

وكان ابنه الأكبر (عبد العزيز بوطالب) الذي أسقطه الرصاص الفرنسي صريعا خلال إحدى مظاهرات المطالبة بالاستقلال سنة 1944 لايشاطر والده أفكاره هذه، وكان يحاول أن يلطف من حدة مواقفه داخل الأسرة دون أن يجرؤ على المس بحرمة والده أو أن يعارضه مباشرة.

وقد ضبطه والده يوما وهو يلقن أخته الصغرى(والدتي) مبادئ الكتابة والقراءة فنهره قائلا« إنك يا عبد العزيز تقود ابنتي إلي الانحراف وتيسر لها بتعليمها سبيل الاتصال بالمفسدين،وتقاليدنا تفرض علينا أن تبقى بناتنا في بيت الأبوة لايخرجن منه إلا الى بيوت أزواجهن أو إلى قبورهن».

وعندما ذهب عبد العزيز إلى الحج عرج في طريق العودة على مصر التي كانت تعيش بداية عهد الاستقلال، وعلى تركيا التي أعلنت فيها جمهورية مصطفى كمال، فعاد من رحلته بأفكار منفتحة على آفاق يضيق عنها أفق البيت الذي حوله جدي إلى معتكف له ولأسرته.

ومن بلاد الكنانة حمل معه تفسير الجواهر للشيخ الطنطاوي جوهري مرغبا والده في دراسته، طامعا أن يساعد نهج الكتاب على التخفيف من صلابة سلوك والده وتشدد مواقفه.

ولما تصفح جدي التفسير لاحظ أنه يحتوي صورا فوتغرافية، فارتاب أن تكون من بينها صور كفار، وهو الذي نذر أن يكرم الله وجهه، فأخذ يقرأ بعض صفحات الكتاب ويطوي صفحاته المصورة، حتى إذا زرته في البيت عائدا من مدرستي بادرني يقول: «تعال اقعد بجانبي، إنك يا ولدي قد قرأت متن ابن عاشر رضي الله عنه، وحفظت قوله:

وكل تكليف بشرط العقل مع البلوغ بدم أو حمل

وفي الحديث النبوي «رفع القلم عن ثلاث، ومنها الصبي حتى يحتلم، وأنا أعلم أنك دون سن البلوغ فلاتكليف عليك فانظر في هذه الصور أليس بها صورة نصراني أو يهودي؟».

وكنت أجيب بعد تحديق البصر للتحري:«لا يا جدي، هنا صورة سمكة، وفي هذه الصفحة صورة أشجار ،وهذه صورة أخرى لاأرى فيها أشخاصا».

وكنت في السنة الرابعة عشرة من عمري حين حضرته الوفاة بعد مرض خفيف، وظلت وقائع وداعه لأسرتنا تلازمني طول شبابي، ولاأعود لذكراها إلا وتلفني قشعريرة التذكر والاعتبار بذلك المشهد المؤثر الذي يصور كيف ينهي المؤمنون الصادقون رحلة العمر في ثبات وسكينة، وكيف يستقبلون الحياة الأخرى وهم يتطلعون موقنين إلى انتقالهم إلى حياة أكثر رحابة.

فحين أحس بدنو أجله وهو في سن الخامسة والثمانين دعا أعضاء الأسرة وأنا من بينهم، واستقام جالسا في سريره معتمدا وسادتين، وتوجه إلينا بالخطاب: « اسمعوا، إني جمعتكم حولي لأني ذاهب في هذه الساعة إلى ربي، فلا تحزنوا ولاتبكوا، وإنكم قريبا جدا جدا لاحقون بي، حتى هذا الصبي(وأشار إلي) وليس لي في هذه الدنيا من الأحبة غيركم، أما أحبتي هناك حيث سأمضي فهم كثيرون(وأخذ يعدد الأسماء من النبي عليه السلام إلى الصحابة فالتابعين، فبعض الأولياء والصالحين، خاتما القائمة بجديه ووالديه).

ثم قال: «ليأخذ كل منكم مصحفا ولنرتل جميعا سورة يس التي تقرأ في هذه المناسبة» ثم أشار إلي: «أما عبد الهادي فلاحاجة له بالمصحف» فقد كنت أستظهر القرآن بكامله .

وامتثل الجميع وارتفعت الأصوات خاشعة بالتلاوة، وكان يردد معنا وصوته يتخافت.وقبل نهاية السورة رفع سبابة يده اليمنى، فأدركنا أنه ينطق بالشهادتين،وتمالكنا حزننا وكفكفنا دموعنا. وعندما بلغنا آخر آية في السورة ردد معنا وكأنما كان يغالب نفسه« فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون» وبنهايتها ارتخت سبابته، وانحنى رأسه نحو اليمين وساد صمت رهيب فقد رجع جدي إلى ربه، ومضى... «إلى حيث الأحبة ».

ثورة ثقافية صامتة

لم تكن المواقف السلوكية التي تحدثنا عن أنماطها فيما سلف مقصورة على أفراد يشكلون في المجتمع المغربي حالة شذوذ، وإنما كانت في مجملها تطبع فصائل شعبية عاشت مرحلة انتقالية بين عهدي فرض الحماية ونشأة الحركة الوطنية، ذلكم أن روح الإحباط واليأس، ومواقف السلبية والانكماش والتحفظ من تيار الإصلاح والتغيير طبعت جماعات من عامة الأمة المغربية وخاصتها خلال تلك المرحلة.

ولم يكن واردا تطوير أساليب التعليم أو توجيه التربية وجهة عصرية. ولم يكتب النجاح للتجربة الوحيدة التي تمت ممارستها في هذا السبيل عندما أوفد السلطان الحسن الأول البعثة التعليمية المغربية الأولى لأوربا في نفس الحقبة التي انطلقت فيها أول بعثة يابانية إلى الخارج، لأن بعثة المغرب الطلابية عادت إلى المغرب بعد فوات الأوان، أي في وقت الحصار الاستعماري الدولي للمغرب وإيذان الحماية الفرنسية ببسط نفوذها عليه، ولأنها لم تجد عندئذ في المغرب المناخ الاجتماعي السياسي الذي كان ضروريا توفره للاستفادة من خبراتها المحدودة.

ولم يكن واردا أن تسوى المرأة بالرجل في حظوة التعليم، وبالأحرى أن يقبل المجتمع منها الخروج إلى الشارع أو التبرج فيه. كل ما كان يسمح به للإناث أن يتلقين مهارات يدوية في «دار المعلمة»، وأقصى ما كان يتاح لهن من حظوظ أن يرقين إلى غشيان «دار فقيهة» لحفظ السور القصار من القرآن الكريم،يحسن بها دينهن، ليلازمن البيت منذ سن العاشرة إلى أن يغادرنه لبيت الزوجية في أحسن الحظوظ.

وكان شعور التحفظ والحذر من التعامل مع الأجنبي يسود مختلف أوساط الأمة. وقد ورث جيل ما بين العهدين هذا الشعور عن الأجيال السابقة التي عاشت فصول المؤامرة الأجنبية على المغرب من عهد السلطان مولاي الحسن الأول إلى تغلغل نفوذ فرنسا وإسبانيا بالمغرب .

...الطرق والزوايا والطوائف

وقد توزعت فصائل من عامة الشعب المغربي بين أنصار الطرق ومريدي الزوايا وأتباع الطوائف، وشكلت مجموعاتها نمطا كان على الحركة الوطنية أن تتعامل معه وتحسب له حسابه.

إن تعبير الطرق بلفظ الجمع(مفرده طريق) يوحي بوجود فرق ذات تصورات دينية مذهبية مختلفة، يدعي كل منها أنه على الطريق المستقيم السالك إلى الدين الحق.والتعبير المتداول على الألسنة هو استعمال لفظ الطريقة بدلا من الطريق كالطريقة الدرقاوية، والطريقة التيجانية، والطريقة الجيلالية، وربما كان لفظ الطريقة اقتباسا من الآية القرآنية« ولو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا».

بيد أن التعبير القرآني يستبعد الجمع بين طرق أو طرائق شتى للاهتداء الى الدين الحق، ويذكر الطريق أو الصراط أو الطريقة دائما بلفظ المفرد، مما يعني وحدة الوسيلة الموصلة إلى الحق،بدليل تنديد القرآن في آية أخرى بالتفرق إلى شيع : «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شئ».

أما الزوايا(جمع زاوية) فإن لفظها يوحي بالانزواء والانطواء، إذ الزاوية في المصطلح الهندسي نقطة التقاء بين مستقيمين متقاطعين، ونقطة التّماسّ هي رأس الزاوية. وزاوية أي مكان ركنه، وكل ذلك يؤذن بالاعتزال والاختلاء .

وفعلا فالزوايا هي خلوات للعبادة والتبتل والانقطاع لممارسة شعائر الدين، وهي ملتقى الصوفية والمتصوفة ومعتكف الزاهدين.

وفي الأصل كانت المراكز التي يأوى إليها المجاهدون تحمل اسم الربط(بضم الباء والراء) أو الأربطة، ومفردهما رباط، وكانت تعني معسكر المجاهدين. واللفظ اقتباس من تعبير «رابطوا» المذكور في قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا».

وقد كانت الربط منتشرة في صدر الإسلام، وعرفتها منطقة شمال إفريقيا في العهود الإسلامية الأولى،وكانت في تخطيطها عبارة عن مبان في شكل هندسي

مستطيل، تقام في أركانها أو زواياها أبراج منعزلة يتوسطها فناء في الداخل، تحف بها حجرات لانوافذ لها ،ويؤدي الرباط في ذات الوقت مهمة المسجد.

ويرجع تأسيس الربط في الشمال الإفريقي الى سنة 181 هـ حيث كان هرثمة بن أعين أحد ولاة العباسيين على المنطقة أقام رباطا إسلاميا هو رباط المنستير.

جاءت الزوايا لتخلف الربط بعد أن انتقلت الربط من الثغور والحصون العسكرية إلى مراكزها المدنية، و لتصبح مركزا للتعليم والتصوف. وفي عهد دولة المرينيين (669 هـ/961هـ /1270م /1553م) كانت تلقن في الزوايا الدراسات الفقهية على مذهب مالك ابن أنس الذي هو مذهب المغاربة.

وغدت الزوايا الجديدة تؤدي دورا سياسيا بتركيزها الشعور الوطني وترسيخها الهوية الثقافية، ودورا روحيا بتركيزها النزعة الصوفية. واشتهرت مذاهبها باسم الطريقة كالطريقة الشاذلية التي تفرعت عنها طرق أخرى من بينها الطريقة الجزولية، والطريقة التباعية .

وقامت الزوايا بمساعدة الدولة المركزية في الأمبراطورية المغربية عندما امتدت مساحتها على تركيز نفوذ الخلفاء السلاطين في النواحي النائية، كما عملت على تركيز المذهب المالكي الذي دافع عنه المرينيون لمقاومة بقايا الحزمية (مذهب ابن حزم) التي حاول الموحدون نشرها في المغرب.

فإذا تجاوزنا تطورات حركة الطرق والزوايا بعد ذلك إلى وضعها في العشرينات من هذا القرن ، نجد أن الزوايا أصبحت مجرد خلوات للتبتل، يقوم على رأسها صلحاء يأخذ منهم مريدوهم الأوراد والأذكار، ولكل منها تراتيله وأناشيده وأحزابه. ونلاحظ أنها أصبحت تعمل بتنظيمات دقيقة أو في تسلسل هرمي ينزل من شيخي الطريقة والزاوية إلى مريديهما مرورا بمقدم الزاوية أو الطريقة، كما يلاحظ توفرها على لغة خاصة بها غنية بالمدلولات المتصلة بتنظيماتها ومجالات حركتها، تسودها الرموز والإشارات، وتتميز مصطلحات كل فرقة منها عن مصطلحات عديلتها.

أما الطوائف فكانت تضم مجموعات من المذاهب والممارسات وتحمل تجمعاتها أسماء مؤسسيها من العيساويين ،والحمدوشيين، والصادقيين، وأولاد سيدي مليانة،إلى آخر السلسلة، وتتوالى على طول السنة مواسمها ويتبرج أنصارها أمام الجمهور في المناسبات في استعراض عضلي بالساحات والشوارع وهم يضربون رؤوسهم بالشواقير والفؤوس والمدى الحادة، حتى لينهار الدم غزيرا على جباههم ووجوههم، أو يحرقون لباسهم وأجسامهم بالنار، أو يشربون الماء الساخن بالغ أقصى

درجات الحرارة، أو يفترسون لحوم الشياه حية، أو يرقصون على ذكر الله رقصات يحسبها الجاهلون المغفلون من شعائر الدين. وكانت فصائل الشعب تتوزع بين الانتماء إلى هذه الطائفة أو تلك. وربما تقسم أعضاء الأسرة الواحدة بين انتماءات متعارضة.

وهكذا كانت المواسم تتوالى لتخليد ذكرى طائفة أو احتفاء بمناسبة لها علاقة بشيخ الزاوية أو رئيس الطائفة، وتتعاقب الذكريات والمواسم، حتى لأصبحت هذه المواسم مظاهرات ثقافية إن لم نقل أعيادا قومية.

وقد استمرأت سلطات الحماية هذا الوضع المزري وشجعت عليه وراهنت على الاستفادة منه، وخلقت لبعض الزوايا فروعا في الجبال أمدتها بالمساعدات. وسهل مهمتها أن بعض الزوايا والطرق كانت تحت إمرة متعاونين معها سنرى كيف ضلع بعضهم في المؤامرات على العرش والشعب، وخاصة في التحالف مع الإقطاع لإبعاد السلطان محمد بن يوسف عن عرشه ووطنه في بداية الخمسينات.

وكان على المغرب أن ينتظر أن يقيض الله له ملكا صالحا في شخص السلطان محمد بن يوسف ليصدر أمره سنة 1933 بمنع الطوائف العيساوية نسبة إلى الشيخ محمد بنعيسى الفهري السفياني المعروف بالشيخ الكامل دفين مدينة مكناس التي كانت المقر الرئيسي لهذه الطائفة، كما حظر نشاط الحمدوشيين المنتسبين إلى الشيخ علي حمدوش الذي يوجد قبره على مقربة من مدينة زرهون(غير بعيد عن مكناس) حيث ضريح المولى إدريس الأكبر.

تحويل مسار الفكر المغربي

ولما كانت الطوائف الضالة ذات تأثير بالغ الخطر على عقليات الجماهير الساذجة، وكانت تلتقي مع الاستعمار دون وعي في حدود مشتركة على أرضية التجهيل وتخدير العقول وتثبيط العزائم، فإن السلفية ركزت دعوتها على التنديد بها ومناهضتها أكثر مما ركزت على معارضة الزوايا والطرق، بالرغم من أن الزوايا كانت في نهاية العشرينات موزعة في المدن الكبرى على الحارات، لكل واحدة منها عدد وفير من الأنصار الذين يتقاطرون عليها زرافات ووحدانا إثر صلاة العصر، وخاصة يوم الجمعة.

وقد كانت أسر الشرفاء وبيوتات العلم في المدن والبوادي تتوفر على زوايا تنسب إليها ،وكانت في الوقت نفسه مدافن لأمواتها أو ملتقى لعلماء يدرسون بها علوم القرآن والسنة، لكن عندما أخذ الوطنيون المشعل من رواد السلفية أخذ أتباع الزوايا والطرق والطوائف يدخلون أفواجا في الخلايا الوطنية ومن بينهم فصائل الشعب من محترفي الصناعات اليدوية أو صناع المصانع التقليدية، وفقهاء الكتاتيب ،ومعلمي المدارس، والتجار والفلاحين .ونمت القطيعة هكذا بين شباب جيل العشرينات وآبائهم وأجدادهم ممن بقوا لفترة يغشون تلك الزوايا ثم انقطعوا تدريجيا عنها.

لقد تحققت بذلك وفي سرعة مذهلة ثورة ثقافية لم يعلن عنها باسمها، وكانت صامتة لم يستخدم فيها عنف، ولاأريق فيها دم، ثورة حولت تاريخ الفكر المغربي واقتلعت جيلا كاملا من جذور لم يكن يبدو اقتلاعه منها ميسورا قبل انتشار الحركة الوطنية.

وهذه وجوه - ما أكثر أمثالها - تشخص هذه الثورة الثقافية الصامتة .

وزاني يخلق زاوية الوزانيين

إنه سيدي العزيز الوزاني الذي كان يشرف بفاس على زاوية الوزانيين المعروفة بزاوية قاسم ابن رحمون، أحس بأن سلطات الحماية الفرنسية بالمدينة أخذت تشتري ضمائر بعض أعوانها من مريدي الزاوية ليرصدوا حركتها وينشروا دعوة الحماية داخلها بين الأنصار، ثم لم يلبث أن استدعاه رئيس الإدارة الفرنسية ليقدم له عرضا سخيا مباشرا بالتعاون مع نظام الحماية قدوة برؤساء بعض الزوايا المتعاونة، فكان جوابه على العرض الفرنسي هو تسريح أنصار الزاوية وإغلاقها مودعا رواد الزاوية قائلا : « لقد كنا نجتمع هنا لذكر الله، أما الآن فليذكر كل واحد منا الله في بيته»، ثم تجاهر بالعمل الوطني في تحد وإصرار، فأوذي لذلك وصبر واحتسب.

... ودرقاوي حمدوشي يصبح سلفيا وطنيا

إنه رشيد الدرقاوي أحد علماء جامعة القرويين وقاضي الدار البيضاء الشرعي على عهد الاستقلال. ضل الطريق شابا فاعتنق الطائفة الحمدوشية، وشج رأسه

بالشاقور وأدماه بضع سنوات،ثم جاءه اليقين فعزف عن الحمدوشية إلى طلب العلم، وأصبح داعية سلفيا حربا على الطوائف والطرق الضالة.

كان يلذ له أن يضع في حلقات دروسه العمامة عن رأسه ليكشف لطلبته عن آثار الرضوض وأخاديد الجروح التي تركها فعل الشاقور على رأسه أيام الجاهلية.
كنا نحن طلبته نعجب بشجاعته الفكرية عندما كان يحدثنا عن عهد ضلالته (هكذا).التحق بالحركة الوطنية ضمن الرعيل الأول وعرف السجن وعذب.

...ووزاني من قيادة الزاوية إلى زعامة حزب

هو التهامي الوزاني أحد رجالات الفكر والسياسة بالشمال المغربي، زاوج بين انتمائه للزاوية وقيادته لحزب الإصلاح الوطني رفقة عبد الخالق الطريس، ،حمل القلم والسبحة وكافح بهما، ولكنه صحح مفاهيم الزاوية وردها إلى نهجها الأصيل.

...وكتاني ولد سلفيا

هو المجاهد إبراهيم الكتاني الذي كانت لأسرته زوايا، ولكنه نشأ منذ حداثة سنه على النهج السلفي وشب وشاخ منددا بالطرق والزوايا متبرئا من زيغ بعض أقربائه، وقد لقي ربه سلفيا .

وكثيرهم الكتانيون الشباب الذين ساروا على نهجه منهم إدريس بن جعفر الكتاني الأستاذ بجامعة الرباط،وعلي بن الغالي الكتاني وهو من رجال الأعمال بالدار البيضاء ،وكلاهما أبلى البلاء الحسن في الحركة الوطنية، إلا أن الشيخ إبراهيم الكتاني كان في السلفية أستاذ أجيالها، كان لايرى طول حياته - رحمه الله - إلا متأبطا كتب السلفية، لايستغلي للحصول عليها ثمنا ولاعوضا، حتى أصبح محافظ كتب السلفية وجامع النوادر منها قبل أن يتقلد في عهد الاستقلال وظيفة محافظ المخطوطات في الخزانة العامة(المكتبة الوطنية) بالرباط.

نشأة الحركة الوطنية بالمغرب

كان من الطبيعي أن تمهد السلفية المغربية - بمفهومها الإصلاحي - الطريق للحركة الوطنية، لأنها عملت على إذكاء جذوة الإيمان و اليقين في نفوس شباب طمحوا إلى تغيير الواقع، وافتقدوا إليه الوسيلة، ولأن جماهير الطبقتين الصغيرة والمتوسطة التي ابتدأت الحركة الوطنية بتكتيلها كانت أشد تهيؤا لقبول فكرة السلفية، فتأتى للقيادة الوطنية بذلك تكوين خلايا أقنعتها بأن الخلاص السياسي لابد أن يمر بالتأسي بسلوك السلف الصالح، وأن النصر في المعركة السياسية المنتظرة يتطلب المصابرة والثبات واسترخاص التضحيات ، بل واعتبار الكفاح الوطني نوعا من الجهاد في سبيل الله.

وإذا كان رواد الإصلاح السلفي قد اختاروا في العشرينات شن حرب على الاستعمار ومنازلته في واجهة التربية والتعليم، فإن الاستعمار لحسن الحظ لم يهتم في البداية بخطر هذه الواجهة لانشغاله عنها آنذاك بواجهة المقاومةالمغربية المسلحة التي ظلت متقدة الأوار، والتي كانت تشكل مواجهتها العسكرية عنده أولوية الأولويات. وبذلك تم لحركة الإصلاح في ظل هذا الانشغال تأسيس خلاياها عبر المدارس الشعبية التي انتظمت في سلك التعليم الحر.وكان من الصعب على سلطات الحماية الفرنسية أن تواجه السلفية بعدوان سافر بحكم أنها إنما كانت تدعو إلى إحياء تعاليم الإسلام الذي التزم عقد الحماية نفسه باحترامه وعدم المس به داخل «الإيالة الشريفة» (أي الأمبراطورية المغربية) .وكان دهاقنة الحماية يقدرون حساسية الشعب المغربي المسلم إزاء كل ما يتصل بالإسلام وقيمه الروحية.

وسرعان ما وجد رواد السلفية أنفسهم وقد التقوا بدون موعد سابق مع تيار المعارضة السياسية لنظام الحماية، إذ هيأت غلطة السياسة البربرية(التي أعلن عنها في سنة 1930) للفريقين سبيل اللقاء ، وكانت معارضتها قاسمهما المشترك.

ولاشك أن العامل الأساسي لبروز حركة المعارضة السياسية في المغرب يكمن في أن الحماية لم تكن في رأي الجميع وفي مسلك التاريخ أيضا سوى حادثة سير في حياة أمة عريقة في المجد والسيادة، لم يعرف تاريخها قط انتكاسة الاحتلال منذ أن

نشأت دولتها الإسلامية على عهد الفاتح العربي المسلم ادريس الأول(788م).لذلك كان طبيعيا أن تنشأ في هذا الوضع حركة سياسية وطنية تهدف لتغيير الواقع الطارئ المرفوض.

كان من الطبيعي والحالة هذه أن يرفض جسم المغرب عنصر الحماية الغريب الذي حاول الاستعمار أن يزرعه فيه، وأن تأخذ مقاومة نظام الحماية أشكالا وضروبا متنوعة الأساليب ،وأن تشن هذه المقاومة في مختلف الواجهات وعلى كل صعيد، وبالتالي فلم يكن مستغربا قيام تلك الحركات المناوئة للوضع،بل كان المستغرب حقا هو أن يتأخر قيامها إلى ما بعد .

وكان من المتوقع أن تظهر الفكرة الوطنية في شكل حركة منظمة، وحتى خصومها كانوا ينتظرونها ، فليوطي نفسه في تقريره الذي ذكرنا فقرات منه فيما سلف يقول عند حديثه عن أفكار التطور ومبادئ التحرر التي انتشرت في العالم :

« يجب أن نحذر من الاطمئنان إلى أن المغاربة لايتأثرون أو أنهم لن يتأثروا بهذه الحركة إلا بعد زمن طويل.إن وقت عزلة المغرب قد مضى، وإن عدة آلاف من المغاربة عادوا من أوربا وتعلموا وقرأوا وسمعوا ورجعوا بأفكار جديدة».

وهو نفسه الذي عبر في أوائل العشرينات عن مخاطر نشوء الحركة الوطنية بقوله:« إن انتشار أخبار هيجان العالم الإسلامي في المغرب، وإعلان استقلال مصر، وتسرب بعض المنشورات الإسلامية التي يستحيل إيقافها ، كل هذا أخذ يحدث غليانا لابد أن تكون له عواقبه. وقد أخذت تنشأ بجانبنا وعلى غير علم منا حركة أفكار وخلايا سرية. وجميع هذا لن يلبث أن يتجسد وربما يتفجر إذا لم نبادر إلى الأخذ بالزمام».

كان الأمر يختلف بين النخبة المغربية التي تلقت تكوينها في أحضان التعليم الأصيل، وشقيقتها التي ارتادت المعرفة في معاهد الحماية الفرنسية أو الإسبانية.كانت الأولى تتابع أحداث العالم العربي الإسلامي وترتد بأنظارها إلى تجارب كفاحه باعتبارها تجارب نموذجية صالحة للتأسي والاقتباس، بينما كانت الثانية متأثرة بمبادئ التجارب الثورية التحررية في العالم الآخر التي تعرفت عليها في دراستها العصرية، ولاسيما ما حفلت به المفاهيم الثورية الفرنسية والأمريكية من قيم، وما أصدرته الثورات من إعلانات لصون كرامة الفرد والمجتمع من معوقات الخوف والجهل والعبودية.

كان المثقفون بالعربية داخل المغرب - ممن كانوا ينتمون للتعليم التراثي الأصيل

ويدعون «علماء الشباب» - يقودون حركة التوعية السلفية الشعبية بين أبهاء المدارس المغربية العربية التي أسستها حركة الإصلاح في المساجد والزوايا والدور، وبين حلقات المعاهد والكليات التقليدية خاصة جامعة القرويين التي كان يفد عليها الطلاب من جميع أنحاء المغرب، وفي معاهد الشمال والجنوب المختلفة. وكانوا يتزودون مما كان يرد على المغرب من الكتب والمنشورات الحافلة آنذاك بأنباء جهاد الحركات الوطنية في العالم العربي ولاسيمامصر،وفي القارةالآسيوية،وخاصة تركيا والهند.

وما لبث أن تعززت حركة الشباب هذه بروافد - وإن كانت محدودة - عادت إلى المغرب شماله وجنوبه بعد أن تابعت دروسها في القاهرة أو بيروت أو نابلس وبعد أن طبعها أسلوب الكفاح العربي في المشرق بطابعه.

أما المتعلمون في معاهد الحماية الفرنسية ممن كانوا قطعوا شأوا عاليا في ثانويتي فاس والرباط وظلوا بالمغرب بعد نهاية دراستهم، فقد ربطوا صلتهم بالحركة السلفية الإصلاحية ،وتم بينهم وبين قادتها تلاقح فكري، خاصة وأن أساتذة سلفيين كانوا في آن واحد يمارسون التدريس بالثانويتين المذكورتين وبالقرويين ،أو بحلقات الدروس العلمية بالرباط وسلا وطنجة وتطوان.ومنذ سنة 1919 انتظمت أسلاك الأفواج المتخرجة من ثانوية فاس في جمعية قدماء ثانوية المولى إدريس، كما تأسست بعد ذلك جمعية أخرى بالرباط تحمل اسم جمعية قدماء تلاميذ مولاي يوسف،وانحصر نشاط الجمعيتين في الميدان الثقافي بمختلف أنواعه، ولكنه ساهم في التوعية الشعبية، وخاصة عن طريق المسرح،مما ساعد على نشر الفكرة الوطنية.وتوالى تأسيس هذا النوع من الجمعيات، فتأسست جمعية قدماء تلاميذ أبناء الأعيان بالدار البيضاء، وحملت جمعية سلا اسم «النادي الأدبي الإسلامي السلاوي» الذي كان يضم أدباء ومثقفين بصرف النظر عن منشأ دراستهم.

الإتصال مع الخارج

وتمكن فوج محدود العدد من خريجي ثانويتي فاس والرباط من الالتحاق بالمعاهد العليا أو الجامعات الفرنسية، ومن التنقل عبر عواصم أوربا، فاستفاد في تكوينه مما وفر له جو باريس وجنيف من تعرف على تطورات الحركات التحريرية، بفضل تنوع مصادر الإعلام، وبحكم الاتصال المباشر بقيادة الأحزاب السياسية

الأوربية مختلفة الاتجاهات، وحتى بزعماء عرب كانوا يقيمون في العواصم الأوربية للدعوة للقضايا العربية الإسلامية.

وقد ربط الطلبة الذين كانوا يدرسون في باريس علاقات حميمة مع زملائهم التونسيين والجزائريين والتحموا جميعا في جمعية« نجم الشمال الإفريقي» وفي « جمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين بفرنسا ».وكان طلبة المغرب يؤلفون فوج الطليعة الذي التحق بمعاهد فرنسا ويعدون على رؤوس الأصابع، بينما كان طلبة الجزائر وتونس أوفر عددا لسبق بعثاتهما الطلابية إلى باريس، لأن المغرب كان آخر أقطار شمال افريقيا ابتلاء بالاستعمار الفرنسي.

كما ربط فوج الطليعة الطلابي القادم من المنطقة الجنوبية اتصالات مع الطلبة العرب داخل «جمعية الثقافة العربية» التي كان مقرها بباريس. وانضم طلبة المغرب بالقاهرة الى جمعية «الهداية الإسلامية» و «جمعية الشبان المسلمين» مثلما ربط فوج الطليعة الطلابي في شمال المغرب وخاصة مدينة تطوان علاقات مع زملائه في معهد النجاح بنابلس (فلسطين) والتحق بفرع «جمعية الشبان المسلمين» الموجودة بهذه المدينة، وكان ذلك شأن طلبة بعثة الشمال إلى القاهرة.

وكانت إسبانيا تغض الطرف عن إرسال بعثات طلابية مغربية إلى الخارج إن لم تكن شجعته، وتقدم لذلك منحا استفاد منها طلبة محدودو العدد في دراستهم بمدريد أو بقادس حيث كانت توجد كلية للطب، ولم تكن تعارض في توجه بعض الطلبة الى معاهد الشرق العربي، على العكس من سلطات الحماية الفرنسية التي كانت تتعامل مع تعليم المغاربة في الخارج من منظور الحذر .

فتحت هذه الاتصالات للبعثات الطلابية المغربية آفاقا واسعة للتعرف على تطورات الحركة الوطنية التي قطعت أشواطا في مناهضة الحماية في تونس والاحتلال في الجزائر وسمحت لها بمتابعة حركة النهضة العربية في المشرق العربي.

وسنرى كيف أن هذه الاتصالات قد يسرت فيما بعد تطوير علاقات الحركة الوطنية مع أحزاب الجزائر وتونس وكيف أثرت تلك العلاقات الحميمة التي نشأت بين طلبة المغرب العربي في العواصم الأجنبية على تطور الحركة الوطنية المغربية الناشئة، بل وكيف طبعت بعد انقسام كتلة العمل الوطني الى شطرين تحالفات الحزبين المغربيين مع الأحزاب الوطنية في كل من الجزائر وتونس.

أما رواد التعليم الذين لم يغادروا المغرب إلى الخارج فقد كانت قبلتهم التي يرتدون إليها لانتجاع المعرفة الأصيلة هي جامعة القرويين بفاس وكلية ابن يوسف

بمراكش، وكانت حلقات الأولى تتسع لاستقبال طلاب من مختلف الجهات ، لايستثنى من ذلك حتى بعثات منطقة النفوذ الاسباني أو منطقة طنجة ذات الإدارة الدولية .

فقبل نهاية الثلاثينات كانت بعثة طلابية من تطوان وطنجة تدرس بجامعة القرويين كان ضمنها عبد الخالق الطريس ، والتهامي الوزاني ، ومحمد ابن عبود ، و أحمد و محمد ابن تاويت ، ومحمد داود ، وأحمد الدليرو ، والطيب بنونة ، كما كان من طلبتها الوافدين من سوس المختار السوسي ، ومن مكناس ، محمد غازي وآخرون لا أستطيع لهم عدا .

ولم يكن توجه البعثات من أنحاء المغرب إلى القرويين يهدف فقط إلى الاستقاء من ينابيع المعرفة ، وإنما كما ذكر المرحوم عبد السلام بنونة في إحدى رسائله «أن تتغير أفكارهم ويخرجوا من ربقة الجمود والتقليد الأعمى» .

وإذا كانت هذه الأسماء وغيرها أوقفتنا عندها في العشرينات بوصف أصحابها طلابا مغتربين ، فإننا سنجد نفس الأسماء بارزة بعد الثلاثينات في سجل قادة الحركة الوطنية بجانب علماء الشباب في فاس ، أمثال علال الفاسي ، وإبراهيم الكتاني ، وعبد العزيزابن إدريس ، والهاشمي الفيلالي ، ومحمد القري ، وعبد الهادي الشرايبي ، و محمد ابن عبد الله ، إلى آخر القائمة . كما نجد طلبة باريس أمثال المرحوم محمد حسن الوزاني ، و المرحوم أحمد بلافريج ، والمرحوم عمر بن عبد الجليل ، وعبد القادر ابن جلون ، وقد احتلوا مقام الصدارة في الحركة الوطنية في الثلاثينات .

لقد أصبح هؤلاء على غير موعد سابق يشكلون كل في موقعه رواد الحركة الفكرية الوطنية قبل أن يصبحوا بعد عودة المغتربين منهم الى الوطن يشكلون قيادة الحركة الوطنية الناشئة

والذين لم يكتب لهم منهم النزوح عن الوطن لارتياد آفاق أرحب كانوا يطلعون على تطورات الحركات الوطنية العالمية عبر المطبوعات التي كانت ترد على المغرب بطرق ملتوية تصل الى حد التهريب ، لكون سلطتي الحمايتين وخاصة الفرنسية ضربتا نطاق حصار على المغرب ، وفرضتا على البريد الصادر والوارد رقابة صارمة ، وكان تهريب المطبوعات يرعب الحاكمين أكثر مما يأخذ باهتمامهم تهريب المخدرات .

ففي الوقت الذي كان فيه المغرب محروما من صحافة قومية كانت صحف عربية تتسرب إليه ، بعضها يرد من مصر ، كالاهرام ، والمقطم ، والهلال ، واللطائف المصورة ، ومجلة الفتح ، وبعضها من سوريا ، كالعرفان ، والقبس ، وبعضها الآخر من تونس ، كالزهرة ، والنهضة ، أو من الجزائر ، كالنجاح ، والشهاب، والبصائر . وكانت كتب القيادات الفكرية العربية ترد إليه في غفلة الرقيب ، فتتلقفها الأيدي، ويعيرها صديق لآخر ، ثم تتناقل مضمونها الأفواه ، فتحرك الضمائر وتنير العقول وتلهب المشاعر .

البريد الأنجليزي

وقد استفاد المغرب من احتفاظ بريطانيا العظمى فيه ببريدها الخاص الرابط بين المغرب والخارج ضمن ما تمتعت به من امتيازات ضمنتها لنفسها في عملية التسوية الفرنسية - البريطانية المعروفة بالوفاق الودي (L'Entente Cordiale) المبرم سنة 1904 . وكانت إدارة هذا البريد في جبل طارق و فروعه تمتد على مدن الربـــاط و طنجة و تطوان و فاس ، و ظل هذا البريد قائما إلى أن صفته فرنسا باتفاق مع بريطانيا العظمى سنة 1936 . وبواسطته كانت تصل إلى المغرب الكتب السياسية الجديدة والصحف المتحدث عنها . وكان شباب الحركة الوطنية يستعملون هذا البريد ضمانا لسرية المراسلات حيث كان البريد في منطقتي الشمال والجنوب خاضعا لرقابة سلطتي الحمايتين .

وعن ذلك كتب محمد بن الحسن الوزاني في مذكراته التي طبعت بعد وفاته بعنوان :«حياة وجهاد » فقال: «كان لهذا البريد فروع في فاس والرباط وطنجة وتطوان ، ولم يكن بريدا مقتصرا على المراسلات الانجليزية بل كان مفتوحا للجميع ، ويتولى توزيع المراسلات بيننا في المدن التي يوجد بها ، وكان يفيدنا كذلك في الاتصال بالخارج كالشرق العربي . وكانت صلة الوصل بينه وبين المغرب هي ادارة البريد بجبل طار ق عن طريق طنجة » .

وقد أثار اقتصار المرحوم الوزاني في كتابه «حياة وجهاد » على إبراز دور طنجة في حمل بريد الوطنيين إلى الخارج انتقادا من السيد محمد ابن عزوز حكيم جاء في كتابه الذي أصدره عن حياة الحاج عبد السلام بنونة وكفاحه بعنوان «عبد السلام بنونة أبو الحركة الوطنية ، حياته وجهاده » مشيرا إلى أن السيد الوزاني

تجاهل الدور الذي قام به بنونة في تأمين الاتصالات - عن طريق فرع البريد الانجليزي بتطوان - وكانت تجري بين قادة الحركة بفاس والرباط وسلا وبين الخارج .

والواقع أن السيد بنونة وصديقه الفقيه داود - رحمهما الله - لعبا دورا كبيرا في تأمين تلك الاتصالات من تطوان التي كانت تخضع لحكم إسباني أقل صرامة من نظيره الفرنسي في الجنوب ، فقد جاء في تقرير لنيابة الشؤون الوطنية التابعة للإقامة العامة بإسبانيا ، عثر عليه مؤلف «عبد السلام بنونة أبو الحركة الوطنية» في وثائق عبد الخالق الطريس ، ما يلي :

« يتضح من بعض الرسائل المتبادلة بين الحاج عبد السلام بنونة والامير شكيب أرسلان والتي وقع حجزها بالبريد أخيرا أن التوجيهات والتعليمات والإرشادات التي يوجهها الأمير السوري شكيب أرسلان بجنيف إلى الوطنيين بالمنطقة السلطانية (منطقة الجنوب الواقعة تحت الحماية الفرنسية) تبعث لبنونة بتطوان، وهو الذي يتولى إيصالها إلى أصحابها بفاس والرباط وسلا بواسطة البريد الأنجليزي . ونفس الطريقة يستعملها الوطنيون بالمنطقة الفرنسية للاتصال بالأمير المذكور بواسطة بنونة» .

كما تضمنت وثيقة صادرة عن مصلحة المخابرات العسكرية بتطوان سنة 1930 ونشرها المؤلف المشار إليه في كتابه «أنه ثبت لدى مصلحة المخابرات أن البريد الأنجليزي هو الوسيلة التي يستعملها الحاج عبد السلام بنونة وصديقه داود للتوصل بالجرائد العربية التي ترسل إليهما من الشرق وخصوصا من مصر، ونفس الطريقة يستعملانها لإرسال الصحف نفسها إلى المنطقة الفرنسية المجاورة».

الفصل الخامس

في فترة مخاض المشرق العربي وتفاعلات المغرب العربي

تيارات وثورات

كانت النخبة المغربية الواعية منفتحة على الخارج ، متابعة لما يجري فيه من تقلبات، راصدة بالخصوص نضال الحركات الوطنية العالمية.

وهي وإن لم تكن في حاجة إلى أن تستلهم من الخارج الفكرة الوطنية ذاتها، فقد كانت في حاجة إلى أن تقتبس منهاجية العمل السياسي الذي صقلته التجربة. وكانت أنماط التجارب الإصلاحية السياسية العالمية تقدم فعلا نماذج صالحة للتأسي بها في مرحلة التنظيم السياسي الذي كانت القيادة الوطنية المغربية تتأهب للإعلان عنه .

لكن من بين العديد من أنماط التيارات والثورات العالمية، استأثرت باهتمام رواد الحركة الوطنية في المغرب في نظرنا التيارات والانتفاضات والثورات الخمس التالية :

1 - انتفاضات العالم العربي الإسلامي في مكة، والقاهرة، ودمشق ، وبغداد، وبيروت، لمناهضة استبداد الحكم العثماني على عهد تدهور الخلافة وإلى سقوط نظامها، وما احتضنته من تيارات فكرية ، وما طرحته على ساحة النقاش السياسي من إشكاليات وخيارات حفلت بها فترة المخاض السياسي التي كان الشرق العربي يجتازها منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى أن توجت حركات الكفاح العربي باستقلال الأقطار العربية .

2- ثورات العالم العربي بعد سقوط الخلافة طيلة فترة الاستعمارين البريطاني والفرنسي، وما صاحب هذه الثورات من تصورات وتنظيرات مذهبية، وما اعتمدته من وسائل لتحقيق أهدافها .

3- وثورة «أحرار الترك»، فثورة مصطفى كمال التي استهدفت اقتلاع تركيا من جذور الإسلام .

4 - والثورة الريفية المغربية التي كانت أصداء انتصاراتها تطرق بقوة أبواب المدن المغربية إلى أن استسلم بطلها لفرنسا سنة 1926 .

5 - وحركة التحرير في شبه القارة الهندية بما ميزها من خصوصيات وإبداعات، وما جعل زعيم غاندي الهند الهندوسي يأخذ مكان الصدارة عند العرب بجانب زعماء العرب والمسلمين .

ومن المفيد أن نقوم بإطلالات سريعة على هذه المحطات الخمس التي قد تكون استوقفت الوطنيين المغاربة وهم في طريق ارتياد تنظيم مغربي سياسي ، وفي تطلع إلى الاستفادة من حركات وطنية سبقت إلى الوجود تنظيمهم الذي كان ما يزال في طور المخاض ليصبح وليدا كامل التكوين في بداية الثلاثينات .

ولا شك أن فترة المخاض السياسي في المشرق العربي كانت تقدم تيارات فكرية تصلح للاقتباس منها في طور المخاض السياسي المغربي وفي مخاض التنظير لصياغة أسس الحركة الوطنية المغربية ، وتوفر لها تجارب أعطت الدليل على جدواها ويمكن التأسي بها في طور التطبيق على الصعيد العملي .

الإنتفاضات العربية الأولى

دأب المؤرخون على استعمال لفظ الثورة العربية الكبرى لتأريخ حدث انتفاضة العرب للانسلاخ من الحكم العثماني والتحرر من النفوذ الفرنسي البريطاني، أي الانتفاضة التي قادها شريف مكة الحسين بن علي بالحجاز سنة 1916 ضد النظام العثماني ومهدت للاستقلالات العربية .

والواقع أن تعبير الثورات أو الانتفاضات العربية بالجمع أكثرالتصاقا بالواقع المعيش خلال هذه الفترة ، لأن ثورة الحسين لم تنته إلى حيث كان يريد لها قائدها من تحقيق المسيرة الموحدة أو الواحدة للنضال العربي ، وإنما كانت بداية لانتفاضات عربية إقليمية تحريرية لم تتوحد فيها للأسف وسائل النضال ، ولم تتوفر لها القيادة الواحدة. وحتى بعد سبعين عاما من قيامها إلى اليوم لم تتحقق الوحدة المنشودة .

ومنذ أن أمسك سرطان الاستبداد والتدهور فالتفكك والانحلال بجسم « الرجل المريض » في الأستانة ، والشرق العربي يغلي ويفور ولما تهدأ ثائرته ، ويمضي في مسلسل نشدان تغيير الأوضاع دون أن يحدد بالضبط ما يريده .

في هذه الفترة التاريخية التي امتدت في المشرق من أواخر القرن التاسع عشر إلى نهاية العشرينات من هذا القرن ، حفلت المنطقة العربية بأطروحات سياسية ألقى بها الفكر العربي في ساحات النقاش ، سواء قبيل سقوط الخلافة العثمانية أو بعده . لقد كان العالم أثناء هذه الحقبة في فترة مخاض كان خلالها يتساءل عن مصيـــــره ، و كان يوجد فعلا في مفترق الطرق بين ماض تداعت أسسه و حاضر لم يستقر له قرار، مما يؤذن بصعوبة ارتياد مسالك المستقبل المجهول . ولقد ألقيت على الضمير العربي إشكاليات لتبني خيارات سياسية لم تتوحد إجاباته عليها ، وتوزع عالمنا العربي عندئذ حيالها بين تنظيرات الدعاة على تنوع خلفياتهم الدينية و السياسية ، و لم يكن الطامعون في الهيمنة على المنطقة العربية و تقسيم أطرافها بمنأى عن أي تأثير على تلك التيارات و التوجهات .

و ربما غني الفكر العربي باختلاف توجهاته حسب مقولة بول فالـــيري (Paul Valéry): «لنُغنِ أنفسنا باختلافاتنا»، و لكن ذلك الاختلاف سبّب من جهة أخرى للعرب توزعا في المواقف السياسية، ساعد على وقوع المنطقة العربية تحت نفوذ الاستعمار الأجنبي ، ورسّخ فيما بعد تفتيت الكيانات العربية .

إشكالية الخلافة

في مسلسل تصحيح الأوضاع و استكشاف معالم المستقبل العربي الإسلامي طُرحت إشكالية كبرى هي : أتكون الخلافة الإسلامية أولا تكون ؟ و ربما كانت الصيغة التاريخية الحق هي : أما يزال نظام الخلافة العثمانية صالحا رغم هرمه واستشراء الداء فيه، أم أنه أصبح يتطلب البحث عن بديل له ؟

اختلف الجواب على هذا السؤال الخطير بين قادة الفكر في مصر التي كانت انفصلت عن الخلافة العثمانية ووقعت تحت النفوذ البريطاني منذ سنة 1882، و بين نظرائهم في الأقاليم العربية التي كانت ما تزال مرتبطة بنفوذ الأستانة كالحجاز والعراق و الشام.و بينما أجاب الحجاز على الإشكالية باختيار الانفصال و الاستقلال عن الخلافة دعت حركات فكرية مصرية إلى التشبث بالخلافة العثمانية على علاتها منطلقة من شعور ديني إسلامي، ومن منظور سياسي كان ما زال يعلق الأمل على الخلافة و يتطلع إلى تدخلها لإنقاذ مصر من الاحتلال البريطاني .

إشكالية ثنائية الولاءين

و تفرعت عن هذا الاتجاه دعوة من زاوجوا في مصر بين الولاء القومي لمصر والولاء السياسي الديني للخلافة و رفض فك ارتباطهما .
هذا الاتجاه هو الذي عبر عنه أيضا أمير الشعراء ، بقوله:

وشيجةٍ و حواها الشرق في سبب ممالكٌ ضمها الإسلام في رحم

و أكده في قصيد آخر مما جاء فيه :

ناهيك بالنَّسب الشرقي من نَسَب وحبذا سَبَبُ الإسلام من رَحم

و ظلت نزعة الولاء المزدوج متمكنة من مشاعر رجالات مصر حتي في سنوات التراجع التي انتهت إليها الخلافة ، ورغم المؤشرات المؤذنة بدنو أجلها المحتوم .

إشكالية استعراب الترك أو تتريك العرب

وطُرحت داخل الخلافة العثمانية في فترة تساقط أشلائها بانفصال أجزائها الأوروبية و في عهد تدهورها المتسارع إشكالية دعم بنياتها و لَحْم مركّباتها (بكسر الكاف و تشديدها) بتبنى أحد الاختيارين "استعراب الترك" أو "تتريك العرب " أي أن الإشكالية طُرحت في الحقيقة مسألة الانتماء الأصلي لكل من الترك و العرب (وهما العنصران الرئيسيان في هيكل الخلافة) و تحديد مصيرهما ، في سعي لدعم نظام الخلافة المتداعي للسقوط: أيذوب في ظل نظامها الترك في العرب أم العكس؟ و بتعبير آخر: أيطرح الترك أرومتهم الطورانية و قوميتهم جانبا لينصهروا في العرب ما دامت العروبة مرتبطة بالإسلام بما لا يقبل الانفصام ؟ أم ينسلخ العرب من ماضيهم ليندمجوا في الترك بما يوحّد بنيات الخلافة التي تصبح بهذا التركيب الخلافة الإسلامية التركية ؟ .
و توالدت إشكاليات فرعية عن هذه الإشكاليات الأساسية من بينها: أثمة

حدود فاصلة بين التاريخ الإسلامي و التاريخ العربي ، أم هي حدود جامعة ؟ و في أي قاسم مشترك يلتقي مفهوم الدين مع مفهوم الوطن ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة الأكاديمية التي طبعت هذه الحقبة بأدبيات أثرت مضامينُها ـ لامحالة ـ الفكر العربي الإسلامي الذي كان يبحث عن الخروج من المأزق التاريخي بإعداد بدائل سياسية لم يتم الإجماع على أي واحد منهـا .

إشكالية ضرورة استمرار الخلافة

و مع توالي المؤشرات بانحدار الخلافة إلى الانقراض ظلت تيارات فكرية تعمل لإنقاذ الخلافة ، من بينها ما ظل و فيا للنظام العثماني مؤملا إصلاحه و ترميمه، وما أكثر حركات الإصلاح التي ظهرت في هذا التيار !

و في هذا النطاق انعقد مؤتمر باريس سنة 1913 الذي دعا إلى إقامة نظام اللامركزية و تخويل الأقاليم سلطات تسمح ممارستها ببلورة خصوصياتها داخل النظام العثماني . كما انعقدت مؤتمرات إسلامية حثت توصياتها المسلمين على التشبث بالخلافة العثمانية ، اجتمع بعضها تلقائيا بدافع القلق على تعطيل نظام الخلافة الإسلامية ، و التقى بعضها بإيعاز أو تشجيع من نظام الأستانة نفسه. وظهر اتجاه آخر جد للبحث عن بديل يُبقي على نظام الخلافة الإسلامية و لكن لا في ظل الحكم العثماني .

و إذا كان التيار الأول قد تخافتت أصواته بتعاقب السنين في مرحلة العد العكسي لعمر الخلافة العثمانية ، فإنه لم يفقد قط أنصاره حتى بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني (1909) و نفيه من لدن الضباط الأتراك إثر الانقلاب .

و قبل سقوط الخلافة و خلال الحرب العالمية الإولى التي تورطت فيها الخلافة العثمانية ـ حين اختارت كما يقال المراهنة علي الجواد الخاسر لتحالفها مع الدول الأوربية المركزية المضادة للحلفاء ـ ظهرت في اسطنبول نفسها حركة تزعّمها بعض الفقهاء دعت إلى الإسراع بإقامة خلافة عثمانية بمجرد سقوط عاصمة الأستانة سدا للفراغ ، لأن " الحكم الإسلامي لا يقوم إلا في نطاق نظام الخلافة " .

و بعد دخول تركيا في عهد النظم الثورية العسكرية ، وحتى بعد إلغاء نظام الخلافة من لدن الثورة الكمالية سنة 1924 استمر التيار المتشبث بالولاء للخليفة يعتبر النظام العثماني الزائل صاحب الشرعية دون أن تكون له وسائل سياسته هذه .

إشكالية بدائل الخلافة

أما التيار الفكري الثاني فقد تشعبت مسالكه في البحث عن بدائل لنظام الحكم العثماني بصيغ دستورية مختلفة.

و قد كان البديل عند البعض إقامة أحد نظامين : الجامعة الإسلامية أو المؤتمر الإسلامي .

كان جمال الدين الأفغاني يدعو إلى قيام الجامعة الإسلامية ضمن تنظيراته السلفية الإصلاحية ، و طالب بأن تنصب على رأسها هيأة إسلامية تقوم بدور الحكم (بفتح الحاء و الكاف) بين المسلمين ، للفصل في خلافاتهم ، و التقرير في شؤونهم، و تصدر من القرارات ما تطبقه الجماعات الإسلامية للحفاظ على تضامن العالم الإسلامي .

و راج الحديث في أوساط أخرى عن قيام جامعة إسلامية على غرار نظام الفاتيكان أي في شكل دولة إسلامية تقتصر سلطتها على نفوذ روحي تخضع له الأقطار الإسلامية بدون اندماج سياسي بُنْيوي .

أما الدعوة للمؤتمر الإسلامي فيرجع عهدها لأواخر القرن التاسع عشر و لكن تبناها في هذا القرن العالمان المصريان السلفيان محمد عبده و تلميذه رشيد رضا .

ثم خفت الحديث عن المؤتمر الإسلامي ما يقرب من نصف قرن ليظهر في شكل تصور جديد سنة 1970 بقيام منظمة المؤتمر الإسلامي الدولية التي اتخذت من جدة مقرا لها بعد أن كان القادة المسلمون اجتمعوا بالرباط في مؤتمر قمة سنة 1969 تحت رئاسة ملك المغرب الحسن الثاني، على إثر حادث إحراق المسجد الأقصى .

و قبل أن يحدد الفكر السياسي خطوط الخلافة الإسلامية الجديدة ، كانت الخلافات التنظيرية تبرز حول هُوية الخليفة أيكون عربيا قرشيا أم لا ضرورة لهذا التحديد، و حول عاصمة الخلافة أتكون مكة أو القاهرة أو عواصم عربية أخرى، وعن طريقة اختيار الخلافة أيتم بالانتخاب أو بالتعيين . وواكب هذا النقاش تطلعات العواصم العربية الإسلامية إلي منصب الخليفة الذي أصبحت الترشيحات لمثله تتوالى، و كان أبرزها تحدث المحافل المصرية عن ترشيح الملك فؤاد خليفة للمسلمين في القاهرة التي قدّم اسمها كمقر للخلافة الإسلامية .

إشكالية إلغاء نظام الخلافة

أثناء فترة المخاض التي مر بها المشرق العربي كما أسلفنا القول و خاصة في أواسط العشرينات طُرحت إشكالية إلغاء نظام الخلافة ، وثارت ضجة كبيرة حول هذا الاتجاه إثر نشر عالم أزهري مصري هو الشيخ علي عبد الرّازق كتابه " الإسلام وأصول الحكم ". و جاء في هذا الكتاب تحليل نقدي لتصور نظام الخلافة ساند فيه صاحبُه دعوتَه إلي إلغاء هذا النظام انطلاقا من أن " لا أحد من البشر يمكن أن يكون خليفة للرسول " ، وأضاف : " إن يكن الفقهاء أرادوا بالخلافة ذلك الذي يريده علماء السياسة من الحكومة فكلامهم صحيح ، إذ لا بد من حكومة تتولى أمور الجماعة الإسلامية ، و لكن نظام الخلافة كما طُبِّقَ لا يوجد له سند من القرآن والسنة. و اعتماد نظام الخلافة على أن من يتولاها يقوم مقام النبي تَصَوُّر غير صحيح لوظيفة النبي و طبيعة الرسالة." و ذهب في نقده إلى القول إن النبي عليه السلام "لم يسْعَ إلى إقامة دولة، و لم يكن هذا جزءا من رسالته " و أن " ليست هناك ضرورة لزعيم ديني يخلف النبي ، إذ النبي نفسه لم تكن له زعامة ليستخلف عليها من بعده ".

و انتهي في نقده إلى هذا الاستنتاج :" لا شيء في الدين يمنع المسلمين أن يسابقوا الأمم الأخرى في علوم الاجتماع و السياسة كلها ، و أن يهدموا نظام الخلافة العتيق الذي ذلوا له و استكانوا ، و أن يبنوا نظام حكومتهم على أحدث ما أنتجته العقول البشرية ، و أمتن ما دلت تجارب الأمم على أنه خير أصول الحكم " .

و تضمن كتاب " الإسلام و أصول الحكم " أطروحات فكرية (و منها فصل الدين عن الدولة) اعتُبرت جريئة في ذلك التاريخ (1925م) و اعتُبر صدورها من أحد شيوخ الأزهر العاملين في سلك القضاء مُروقا من الدين ، فدعا الأزهر إلى محاكمة صاحب الكتاب من لدن هيأة مؤلفة من أربعة و عشرين عالما من شيوخ الأزهر ، أصدروا بالإجماع حكمهم بأن ما جاء في الكتاب "مخالف للدين ، و لا يصدر عن مسلم، فضلا عن عالم، و لا يناسب وصف العالمية" . و بالتالي فقد فصلوه من هيأة العلماء .

ولما كان هذا الأزهري الثائر يمارس القضاء الشرعي ، فقد انعقد بمصر مجلس تأديبي من هيأة القضاة للنظر في التهم الموجهة إليه، وقرر عزله عن منصبه "لأن مجلس العلماء الأزهريين لما جرده من وصف العالم، جرده حُكما من وظيفة القاضي التي لا يمارسها إلا عالم ديني" .

و كان الشيخ علي عبد الرازق في مطالبته بإلغاء نظام الخلافة يقف على خط معارض لخط الشيخ رشيد رضا و مدرسة المنار التي كانت تؤيد استمرار الخلافة بشروط حددها رشيد رضا في كتابه « الخلافة أو الإمامة العظمى»، و من بينها اختيار الخليفة بالبيعة و إجماع الأمة الإسلامية على اختياره .

وإشكالية القومية العربية ...

في مقابل اتجاه استمرار نظام الخلافة كانت تنبعث من الأقاليم العربية المشمولة بالنفوذ العثماني (العراق ، وسوريا، و فلسطين، ولبنان) حركة قوية تناهض الخلافة العثمانية بالدعوة للقومية العربية بديلا سياسيا، خاصة بعد أن اكتوت أقاليم أو ولايات عربية بطغيان تركي لا يرحم ، وأقيمت مشانق في ساحة المرجة بدمشق أو في ساحة البرج في بيروت لإعدام المعارضين للنظام التركي ، و ذلك بعدما استولى حزب الاتحاد و الترقي على الحكم و أخذ يمارس على العناصر المتساكنة داخل النظام العثماني سياسة طورانية (نسبة إلى طوران و هو أصل عرقي يلتقي فيه التـــــرك و المغول) عنصرية مضادةً للعرب و ساعيةً لتغليب العنصر التركي على سائر العناصر.

و قد نشأت جمعيات وطنية سياسية و أخرى دينية داخل هذه الأقاليم مارست نشاطا سياسيا سريا أو علنيا لمناهضة النظام العثماني و لإقامة نظام قومي عربي واحد، و كان مقرها الرئيسي دمشق أو بيروت ، من بينها الجمعية العلمية السورية (ببيروت) و الجمعية الخيرية (بدمشق) و جمعية بيروت السرية .

و لم تكن فكرة القومية من ابتداع الفكر العربي ، فقد ظهرت في أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر خاصة في ألمانيا التي انهزمت في الحرب أمام فرنسا. وكان دعاة القومية الأوروبيون يهدفون إلى كسر الأمبراطوريات الاستعمارية القديمة على صخرة القوميـة ، و فعلا توحدت على أساسها ألمانيا و إيطاليـــا و دول البلقـــان. و كانت الدعوة إلى القومية في أوروبا حركة ثورية رافضة للحدود

الأوروبية التي كانت قد خططت بمقتضى دواع إقطاعية ، و لكن لم تنتشر فكرة القومية في آسيا وإفريقيا إلا في القرن العشرين الذي أصبح يُدعَى قرن القوميات، خاصة بعد اعتماد مبدأ حق تقرير المصير سنة 1919 من لدن مؤتمر السلام العالمي .

و قد حدد منظرو القومية العربية لها أهدافا نبيلة هي دعم استقلال الشعب العربي، و إقامة دولة العرب الواحدة، وبعث الحضارة العربية، وربط النضال القومي للتحرر السياسي بالنضال الاجتماعي لتحقيق التقدم و النماء .

و بذلك انطلقت من مفاهيم بسيطة قوامها إنشاء كيان عربي متميز عن النظام العثماني و منفصل عن نفوذه، ولكن الفكر العربي نشط بعد قيام الجامعة العربية، وخاصة في عهد الرئيس جمال عبد الناصر في إغناء فكرة القومية العربية بمضامين فلسفية تكميلية سعيا لتطويرها في شكل تصور مذهبي جديد يختلف عن القومية الأوروبية، نظرا لاختلاف الخصوصيات بين المجتمع الأوروبي و المجتمع العربي .

و يلفت النظر في حركات الدعوة للقومية العربية قيادتها من مفكرين عرب ينتمون للأقليات الدينية، و لا سيما بعض المسيحيين الذين تحمسوا لها و عبأوا الرأي العام حولها . و يبدو أنهم تطلعوا إلى قيام نظام سياسي قومي عربي يخلُف النظام الإسلامي العثماني على أساس عَلْمانية الدولة، أي أنهم استهدفوا تقويض الأمبراطورية الإسلامية بنفس الفكرة التي انتهت بها الأمبراطوريات الأوروبية، وذلك رغم أنهم عاشوا في ظل النظام الإسلامي متمتعين بحقوقهم الوطنية الكاملة. و كانت قيادات فكرية إسلامية تناصر دعوة القومية العربية لكن لا بنفس الحماس .

البديل ... و لكن

وبعد نهاية الخلافة و إلغائها نشط البحث عن البديل، و لم يكن غيرَ القومية العربية في رأي دعاتها .

كان من بين دعاة القومية المسيحيين سليم سركيس مدير جريدتي "رجع الصدى" و "المشير" و "مجلة سركيس"، و كان يعارض بشدة سياسة السلطان عبد الحميد، ويعتبر النظام العثماني منتهيا و غير قابل للتجديد، و لا يرجى له صلاح .

و قد تطول قائمة المسيحيين الذين تحمسوا للقومية العربية، فقد كان من بينهم خليل مطران، ومارون عبود، و الشاعر القروي رشيد الخوري، و يوسف إبراهيم يزبك، وأمين نخلة . ولكن اشتهر من بين دعاة القومية العربية العالم السوري اللبناني

ابراهيم بن الشيخ نصيف اليازجي، الذي نزح إلى مصر و أنشأ بها "مجلة الضياء"، و هو الذي دعا العرب إلى اليقظة والالتفاف صفا واحدا لدعم كيانهم القومي في قصيدة كانت في زمنها تتردد على كل لسان ، كانت أشبه بنشيد يردده القوميون العرب في الاجتماعات و المهرجانات، و جاء في مطلعها :

تنبهوا و استفيقوا أيها العرب فقد طما الخطب حتى غاصت الرُكَب

و من بينهم كذلك عبد الرحمن الكواكبي صاحب كتابي "أم القرى" و "طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد" و مدير جريدة "الشهباء" التي صادرتها السلطة التركية الحاكمة في الشام ، فعوضها بجريدة "الاعتدال" التي مُنعت بدورها عند صدورها ، لأنها كانت أبعد ما تكون عن الاعتدال في نظر جميل باشا والي حلب.

و من أسلوبه ـ سواء في كتابيه المشار إليهما أو في مقالاته ـ كان يبدو متشددا في أحكامه و تقييماته و إطلاقيا لا يتقيد بالنسبية . ما أزال أذكر أني كنت أسجل في دفتر خاص و أنا في طور الشباب ما أعجَب به في مطالعاتي لأرجع لاستذكاره ، وأني استوقفتني أثناء مطالعتي لكتابه "طبائع الاستبداد" هذه الفقرة العجيبة التي ظلت عالقة بذاكرتي :"لو كان الاستبداد رجلا و أراد أن ينتسب لقال: أنا الشـــــر، و أبي الظلم، و أمي الإساءة، و أخي الغدر، و أختي المسكنة، و عمي الضر، و خالي الذل، و ابني الفقر، و بنتي البطالة، و عشيرتي الجهالة، ووطني الخراب" .

لقد كافح الكواكبي بقلمه و أعطى من ذات نفسه لإلغاء نظام الخلافة العثماني بدءا من نشر كتابه "أم القرى"، الذي ذكر فيه أن الخلفاء العثمانيين لا يتوفرون على شروط شرعية الخلافة لأنهم ليسوا قرشيين، و دعا إلى ثورة عربية لمناهضة النظام العثماني، و جاء كتابه هذا في شكل تسجيل محاضر لوقائع اجتماعات "جمعية أم القرى" التي أثارت التساؤل عنها أكانت حقا موجودة فعلا أو أن المؤلف تخيلها لينسب إليها أفكاره التي جاءت في تلك المحاضر، و ذلك اقتباسا من منهجية كتاب "محاورات أفلاطون" .

و قد تضمن "كتاب أم القرى" ـ بصرف النظر عن منشأ محتوياته ـ وصفا لوضع الشرق العربي الإسلامي سياسيا و اجتماعيا في نهاية القرن التاسع عشر، و أهاب بالعرب أن يأخذوا مسؤوليتهم لقيادة العالم الإسلامي . و تضمن كتابه الثاني "طبائع الاستبداد" التنديد بالحكم المطلق و الدعوة إلى إقامة نظام جديد في مجتمع يسوده العدل و الحرية . و من مناهضة النظام العثماني في بادئ الأمر خطا الكواكبي خطوات سريعة نحو التجاهر بالدعوة للقومية العربية .

وإشكالية تآخي الديانات أو تحييدها

و كانت الدعوة إلي القومية العربية في نظر البعض في حاجة إلى لَحْمها من الداخل لتصبح الرابطة الأساسية الموحِّدة للشعب العربي، لذلك مزج البعض بين الولاء لها و الدعوة لتآخي الديانتين المسيحية و الإسلامية، و التنويه في آن واحد برسالتي محمد و عيسى بهدف اجتناب تعارض الديانتين، و السعي إلى صهرهما في بوتقة القومية العربية .

كان الرسول حجازيا بمولده فشرَّف الشام لما زار غسّانا
و كان عيسى شآميا فما وطئت رجلاه أرباض يونان و رومانا

هكذا قال إلياس طعمة (من المسيحيين)(1)، لكن شاعراً آخر من نفس الانتماء الديني دعا إلى تحييد الديانتين معا لفائدة الولاء القومي فقط ، هو اسكندر الخوري القائل :

قبل المسيح و أحمدٍ كنا و ما زلنا عرب
كانت و مازالت لنا أوطانَنا أمّا و أب
لادينَ يجمعنا سوى دينِ المحبة و النسب

و في هذا الاتجاه سار صديقي ميشيل عفلق في عهد حزب البعث العربي الموحد عندما ألف في دمشق كتابه "نفسية الرسول العربي" و أقر لمحمد بالزعامة العربية بصرف النظر عن الرسالة السماوية التي جاء بها ، و ذلك في محاولة لجمع كلمة المسلمين و المسيحيين تحت راية حزب البعث الذي كان يلوح و كأنه حزب المسيحيين .

لقد قدم إلي هذا الصديق كتابه هذا في زيارة قام بها إلى سفارة المغرب بدمشق و أنا على رأسها سنة 1962 و ما أزال محتفظا به بإهدائه لكني أذكر أنني ناقشته أطروحته عن محمد الزعيم العربي، و أن صلتي توثقت به رغم اختلافنا .(2)

---

(1) عقب الأستاذ أكرم زعيتر على هذا ذاكرا أنه أنهى حياته مسلما .
(2) أذيع رسميا من بغداد بعد وفاته أنه أسلم في أخريات أيامه و صلي عليه و دفن في مقابر المسلمين .

بعث اللغة العربية

و إذا كانت فكرة القومية العربية وراء خلق الأوطان العربية المستقلة و تأرجحت في مسيرتها بين عهدي صعود و نزول، و لم تحقق حتى اليوم الوحدة العربية التي ظلت هدفها ، فإنها - و هي تضع اللغة العربية أساس وحدتها - قد نجحت في بعث اللغة العربية من مرقدها و في تطويرها عن طريق العطاء الفكري الذي ميز القوميين العرب، و من بينهم مسيحيون و حتى رهبان يسوعيون ألفوا الطليعة القيادية في هذا المجال ، و أصبح تعصبهم للعربية يواكب حماسهم للقومية العربية التي اعتمدت رابطة اللغة العربية أساسا لتصورها .

و عندما ضاق رواد القومية العربية نطاق لبنان المحكوم بولاة عثمانيين مستبدين يرفضون أفكارهم و يضطهدونهم هاجروا إلى مصر حيث وجدوا مجالا أرحب، و حظوا بعناية المسؤولين و تشجيعهم . و جمع النزوح إلى مصر بين المسلمين -ومنهم عبد الرحمن الكواكبي كما أشرنا إليه قبل - و بين المسيحيين و ما أكثرهم : إن أسرة تقلا اللبنانية هي مؤسسة جريدة الأهرام بمصر، و أسرة صروف هي مؤسسة جريدة المقتطف، و فارس نمر هو الذي أصدر في مصر جريدة المقطم، و جرجي زيدان هو الذي أسس دار الهلال وجميع هؤلاء مسيحيون . وقد ظلت دار الهلال و لاتزال تصدر من المنشورات ما يؤلف حجمه مكتبة خاصة .

الوطنيون المغاربة وإشكاليات المشرق

إن إشكاليات المشرق العربي التي تحدثنا عنها والتي استأثرت باهتمام الفكر السياسي تسربت في إبانها أو بعد حين إلى ساحات الفكر في المغرب مخترقة حصار الرقابة المفروضة عليه . وتابع باهتمام السلفيون الإصلاحيون المغاربة ومن بعدهم رواد الحركة الوطنية تطورات النقاش المشرقي الذي دار حول تلك الإشكاليات ، لأنها كانت تضع أسس الدولة الإسلامية وعلاقات أجزائها بعضها ببعض ، وتطرح بدائل سياسية ما كان لرواد الإصلاح في المغرب تجاهلها، لكنها اختلفت أهميتها في منظورهم الفكري عن منظورها العربي في المشرق ، إذ لم تكن تلك الإشكاليات

جميعها تهم المغرب مباشرة ولا تأخذ موقع الصدارة في اهتمامات الحركة الوطنية، وخاصة إشكالية الخلافة ، لأن المغرب لم يرتبط بالتبعية لنظام الخلافة الإسلامية في المشرق ، وظل محافظا على استقلاله إلى بسط نفوذ الحمايتين الفرنسية والإسبانية على منطقتيه الجنوبية والشمالية.

المغرب والخلافة

في ظل هذا الاستقلال اختلفت مواقف المغرب السياسية عبر العصور عن نظام الخلافة الإسلامية سواء أكان مقرها بغداد على عهد العباسيين السنيين، أو مصر أيام الفاطميين الشيعيين ، أو الأستانة التي كانت عاصمة الخلفاء العثمانيين .

لقد مرت علاقة المغرب بنظم الخلافة أحيانا بفترات تجاهل فيها المغرب وجودها، وساعده على ذلك وقوعه في أبعد نقطة جغرافية عن العالم العربي، ولذلك عرف باسم «المغرب الأقصى» أو بفترات تقارب ودي معها، أو أحيانا بفترات تنافس حذر، وخاصة عندما أصبح النظام العثماني مستوليا على الجزائر، وبصفة أخص عندما استقل الجيش التركي بالجزائر في ظل حكومات «الدايات» الذين لم يكونوا مرتبطين بالخلافة العثمانية إلا بولاء شكلي .

الخلافة في عهد المرابطين

وفي بداية العهود التاريخية للدولة الإسلامية المغربية عرفت علاقات المغرب بالخلافة فترة احترام متبادل على عهد المرابطين الذين كانوا دعاة المذهب المالكي السني، فاعتبروا أنفسهم امتدادا للخلافة السنية القائمة في بغداد. ولذلك اقتصروا في بداية عهدهم على تسمية رئيس الدولة باسم الأمير بدلا من الخليفة . وحرصا على إعطاء النظام هالة الخلافة بدون حمل اسمها، وتأدبا في نفس الوقت مع خلفاء بني العباس خطا يوسف بن تاشفين خطوة رفع بها مقامه إلى رتبة «أمير المسلمين» متجنبا لقب «أمير المؤمنين » الذي كان يحمله الخلفاء وناسجا في ذلك على منوال الرؤساء الأمويين بالأندلس الذين كانوا يلقبون أنفسهم بالخلائف بدلا من الخلفاء التي كان يتميز بها قبلهم الخلفاء الراشدون ومن تلاهم مباشرة .

الخلافة في عهد الموحدين

وعندما ابتدأ عهد الموحدين في المغرب كانت أمامهم في المشرق خلافتان : إحداهما سنية في بغداد ، وأخرى شيعية في مصر .

ومن المعروف أن مذهب زعيمهم محمد بن تومرت الذي تلقب بالمهدي كان يمزج بين نظامي الخلافة والإمامة . وبمقتضاه أخذ الزعماء الموحدون يخططون لخلافة جديدة، تقوم فلسفتها على توحيد العالم الإسلامي بإنقاذه من الصراع المذهبي . وقد شرعوا فعلا في عملية التوحيد فانضوت تحت لواء امبراطوريتهم أقطار شمال افريقيا وتابعوا جهاد المرابطين لتطهير الأندلس من حركة الاسترجاع المسيحي ، وكانوا يطمحون إلى أن يستولوا على مصر حيث كانت الدولة الفاطمية في فترة انهيارها.

أمير المؤمنين

ونقرأ في مصادر تاريخية مغربية أن المهدي بن تومرت نصب على جيش الموحدين عبد المومن بن علي وقال لأتباعه : «أنتم المؤمنون وهذا أميركم » ، ومنذ ذلك لقب أول أمراء الموحدين في هذه الدولة بلقب الخليفة أمير المؤمنين ، وتوجه الشاعر التيفاشي إلى عبد المومن بلقب الخليفة في قصيدة له قائلا :

ما هز عطفيه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المومن بن علي

وفي عهد المرينيين والعلويين

اختلف لقب رئيس الدولة في عهد بني مرين بين «أمير المسلمين » الذي حمله السلطان المريني بعد تقويض النظام الحفصي واستيلاء المرينيين على عاصمته تونس، وبين «أمير المؤمنين» ، وكان يحمله أبو عنان فارس المريني ، بالإضافة إلى لقبي الخليفة والإمام .

أما السلاطين العلويون فقد تلقبوا بأمير المؤمنين إلى عهدنا الحاضر، وترسخ هذا اللقب التاريخي بالتنصيص عليه في الدستور المغربي الذي قدمه عاهل المغرب الحسن الثاني للاستفتاء وتبناه الشعب بأغلبية ساحقة ، وجاء فصله التاسع عشر يقول : «الملك هو أمير المؤمنين » .

ترشيح سلطان المغرب للخلافة

وما دمنا نتحدث عن الخلافة في المشرق والمغرب فلا بد أن نشير إلى أن سلطان المغرب مولاي يوسف جد العاهل المغربي الحسن الثاني رشح للخلافة الإسلامية في أواسط العشرينات من هذا القرن، أي في الوقت الذي رشح فيه لنفس المنصب ملك مصر فؤاد الأول الذي كان يعاصر سلطان المغرب المذكور . ولنذكر كذلك أن طنجة المغربية رشحت لتكون مقر اجتماع «المؤتمر الإسلامي» الذي كانت تعلو دعوات لعقده للنظر في إشكالية الخلافة وبدائلها كما أسلفنا القول .

ومشروع « خليفة مغربي بالمشرق »

ومن الطرائف أن ننقل عن كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي قصة مغربي أصيل عرض عليه منصب الخليفة بالمشرق، وذلك في ترجمة مؤلف هذا الكتاب لبدر الدين الحسني المغربي الذي قال عنه : «وكان صواما ورعا بعيدا عن الدنيا، ارتفعت مكانته عند أهل دمشق . وعندما اشتد بغي الأتراك على أهل الشام في الحرب العالمية الأولى عرضوا عليه بيعته بالخلافة ، فزجرهم وزاد في انزوائه . ولما قامت الثورة على الاحتلال الفرنسي كان الشيخ (المغربي) يطوف بالمدن السورية حاثا على الجهاد بحيث كان أبا روحيا للثورة». وقد عاش بدر الدين هذا بدمشق إلى وفاته بها سنة 1935 .

ويذكر السيد الزركلي أيضا في ترجمة أخرى لابن هذا المغربي الزاهد في الخلافة واسمه تاج الدين الحسني وهو من مواليد دمشق (1890 - 1943) أنه كان أول رئيس لسوريا تعيينا في عهد الاحتلال الفرنسي . وهكذا قبل الابن في دمشق ما رفضه أبوه من قبل .

من أجل ذلك كله لم تثر في المغرب إشكالية الخلافة ما كانت تثيره من اهتمام

في المشرق العربي الذي كان يبحث في الحقيقة من خلال طرحها عن مصيره السياسي. على العكس من ذلك وجدت أطروحة مناهضة استبداد النظام العثماني صدى واسعا بالمغرب قبل تورط الخلافة العثمانية في خوض الحرب العالمية الأولى، إذ في سنة 1908 بدا أثر الخطاب السياسي المشرقي في هذا المجال واضحا في أطروحة الحركة الدستورية المغربية التي قادها في طنجة شبان غير مسؤولين وضعوا مشروع دستور مقتبسا من الدساتير التي راجت أو أعلن عنها في الخلافة العثمانية.

وقد أبدى رواد الحركة الوطنية التي نشأت في الثلاثينات تعاطفهم مع تلك الحركة فيما كتبوه ونشروه عنها ، والتقى في ذلك الزعيمان الوطنيان علال الفاسي ومحمد حسن الوزاني رحمهما الله .

« الشيخ علي عبد الرازق المغربي »

ولقد أثرنا في حديثنا عن إشكاليات المشرق العربي (ومنها إشكالية الخلافة) محاكمة الشيخ علي عبد الرازق من لدن مشيخة الأزهر وهيأة القضاء الشرعي بمصر لإنكاره شرعية الخلافة، حيث أدين وجرد من وصف العالمية وطرد من وظيفة القضاء. ومن غريب النظائر أنه بفارق عشر سنوات إلى الأمام عاشت جامعة القرويين حدثا مشابها لما عاشته أختها الأهر، أثار ضجة لم ينتشر لها نفس الصدى خارج المغرب الذي كان سجين حصار. وكان المدان في المغرب هذه المرة هو المرحوم عبد الهادي الشرايبي خريج جامعة القرويين الذي أخذ في بداية الثلاثينات يلقي دروسا حماسية في مساجد فاس، ضمن حلقات الدروس التي كانت تلقيها المجموعة التي عرفت باسم «علماء شباب القرويين»، وكان في طليعتهم علال الفاسي . وكانت سلطات الحماية متضايقة من نشاط هذه الزمرة الرائدة من شباب العلماء الذين دشنوا في دروسهم أسلوبا جديدا للدعوة الدينية والتربية الاسلامية عماده الأفكار السلفية المناهضة للشعوذة والتدجيل، ومعارضة الطرقية التي ضلع بعض أقطابها مع سلطات الحماية في تعاون سافر. وخطر للسيد عبد الهادي الشرايبي أن ينشر في مجلة «السلام» التي كان يصدرها بتطوان المرحوم محمد داود مقالا تحت عنوان «جاذبية الوطن» جاء في شكل قطعة أدبية فريدة لم يكن نسجها على منوالها آنذاك سهلا ميسورا لكتاب ذلك العصر، باح فيه بمكنون عاطفة مشبوبة نحو وطنه . وغالى في التعبير عن حبه لبلاده حتى تحدث عنه بلفظ العبادة: ومما جاء في ذلك النثر الشاعر

قوله «أحبها (أي البلاد) كلمة قدسية طاهرة بريئة . أقدسها. لا، بل أعبدها، وهل ألام ؟ دائما أعبدها ودائما أختصها بالعبادة » .

وجعل يعدد محاسن وطنه وبلاده ، ويختم كل فقرة بهذه اللازمة : وهل ألام؟ دائما أعبدها ودائما أختصها بالعبادة » وختم قصيده المنثور بقوله : «إنني أهواها وأهوى في مناها المنايا ، وإنما مجد الشعب تبنيه الضحايا . ولعل أظهر رمز لبروري بها وعطفها علي ، أن تفسح لي صدرها الرحيب ، وتضمني إلى أحضانها في ساحة الشرف. وحينئذ أكون سعيدا حقا ، وآنئذ تكون آخر كلمة لي في الحياة هي : فلتحي وليدم أبناؤها » .

انزعجت سلطات الحماية أيما انزعاج من هذه الصيحة يقذف بها العالم في وجه الغافلين ، وخشيت أن تنفذ إلى أعماق الجماهير فتثير فيها كامن الشعور الذي كانت الحماية تسعى مع زمرة من الرجعيين المغاربة لخنقه في الصدور. والتقى الاستعمار والرجعية في مؤامرة كائدة للعالم الشاب ، فجمع عبد الحي الكتاني - الذي سنجده أمامنا مرارا فيما نستقبله من هذه الفصول - تواقيع الإدانة لكاتب المقال من علماء مغفلين أومتعاونين عن وعي ، وأقر المجلس العلمي للقرويين ما جاء في عريضة الاستنكار ورفعها إلى وزارة العدل بالرباط ، وكانت هي الجهة المختصة في شؤون التعليم الديني ، فاتخذت قرارا بتجريد صاحب المقال من وصف عالم القرويين، ويمنعه من العودة إلى إلقاء دروسه ، وعدم السماح له بممارسة أي نشاط في المعاهد والمدارس .

وهكذا أصبح للمغرب « عَلِيُّه عبد الرازق» ، وأعاد التاريخ نفسه ، وهذه المرة في المغرب ، وكلنا في البلوى بالرجعية والاستعمار شرق .

لم تكن للعالم المغربي المضطهد موارد يعيش منها ، وكانت له آنذاك صبية في مقتبل العمر، وكان عليه أن ينتقل من الفقه إلى الحجامة كما يقال ، وأن يمارس أية مهنة تدر عليه لقمة الخبز ، ولم يكن لسوء حظه قد تعاطى قبل ذلك أية مهنة .

ويقول السيد عبد الهادي الشرايبي في كتابه «ثمن الحرية » وهو كتاب ضمنه بعض ذكرياته : « وكنت من عائلة تشتغل بصناعة الحرير، فحاولت أن أزاول أسهل فروعها مما يمكنني تناوله ، وبدأت أشتغل بتدوير الحرير على جعاب من القصب بواسطة ناعورة مخصصة لذلك . وكنت أظل أشتغل اليوم كله ، وفي العشي أتقدم لصاحب العمل بمحصول ذلك اليوم ، فيعطيني على ذلك من الموارد المحدودة ما فاضت عليها ديوني ، وعندما كان صاحب الدين يقتطع دخلي اليومي ليسترجع ما

له علي كنت أعود إلى البيت بجيب فارغ ، وليس معي للأطفال ما يقيم أودهم» .

وأضاف:«ومر على هذه الحادثة عشرات السنين، وأنا ما أزال أذكرها كما لو كانت حدثت في التو واللحظة» .

ولكن ما لم يذكره العالم الضحية هو أنه وجد نفسه بعد مزاولته مهنة تدوير الحرير وفشله في كسب لقمة العيش في حاجة إلى مساعدة زملائه وأقربائه، وأنه كان في عناد وإصرار يرفض كل مساعدة ، فقد كان عف اليد واللسان أشم الأنف، لم يكسر الفقر كبرياءه، ولم يرق ماء وجهه في طلب العيش .

أخذني مرة أخي محمد وأنا أدرس في المدرسة إلى بيت كان يوجد بحي الرميلة بمدينة فاس ، وطلب مني أن أطرق الباب، وأسلم غلافا مختوما حملني إياه لزوجة صاحب البيت، وظل أخي بعيدا عن المنزل في انتظار عودتي لأطمئنه على أن الغلاف حل محله.

وعلمت فيما بعد من أخي أن الغلاف كان يحتوي مبلغا ماليا لمساعدة زميله الشرايبي الذي كان يرفض كل مساعدة . وكان الوطنيون يحتالون لتبليغ مساعدات لأسرته بطريقة أو أخرى . وما أكثر ما امتحن وعذب مع زملائه رواد الحركة الوطنية فظل صابرا لا تلين له قناة !

بهذا الإهداء قدم الشرايبي كتابه «ثمن الحرية» الذي نشره سنة 1978:«إلى والدي الذي رباني على الرجولة والإباء وتعشق الحرية والجرأة على اقتحام المسالك الصعبة، وإلى شريكة الحياة التي كانت تشجعني بإسنادها واحتمالها وتقاسمني معاناتي لما كنت أجده في السجون والمنافي طوال مدة الكفاح من المحن والآلام» .

وإشكالية القومية

وإلى حد ما كان تصور القومية الإقليمية والقومية العربية ضمن اهتمامات رواد الحركة الوطنية المغربية، ولكن لا بنفس الحدة التي كانت الإشكاليتان تكتسيانها في المشرق العربي، لاختلاف الدواعي في ذلك أيضا بين المشرق والمغرب، إذ لم تكن للمغرب مشكلة أقليات دينية تتلمس في القومية العربية البديل الذي يخولها في المجتمع السياسي وضعا أفضل ، ولأن الانتماء الديني الإسلامي ظل عبر التاريخ سائدا في المغرب بدلا من شعور الانتماء القومي . ولا يزال سواد شعب المغرب إلى اليوم لا يعرف عن هويته إلا أنه ينتمي إلى المغرب المسلم لا يضيف إلى

ذلك وصفا آخر، خاصة وأن عناصر الوحدة القومية متوفرة لشعب المغرب في ظل هذه الهوية البسيطة، فالمغاربة سنيون، مالكيون، أشعريون وحتى في تصوفهم جنيديون (نسبة إلى أبي القاسم بن محمد الجنيد الصوفي البغدادي). ومع ذلك فإن الحركة الوطنية المغربية استلهمت من مضامين فكرة القومية في تعبئتها الجماهير لبناء مغرب مستقل لا ينفصم بنيانه ولا تتفرق عناصره بين عربي وبربري كما كانت الحماية الفرنسية تخطط له .

ولقد استبعدت الحركة الوطنية في فجر نشأتها من قاموسها السياسي تعبير القومية العربية، واكتفت بالتركيز على العروبة والإسلام . ولأن الترويج لفكرة القومية العربية كان سيخدم مخطط التفرقة الفرنسي الهادف إلى تقسيم شعب المغرب إلى عرب وبربر. لم يرتفع في المغرب صوت باستعراب البربر على شاكلة استعراب الترك .

ولم يدخل تعبير القومية القاموس السياسي للحركة الوطنية المغربية إلا بعد انقسام كتلة العمل الوطني شطرين وإطلاق المرحوم محمد حسن الوزاني على حزبه سنة 1937 اسم «الحركة القومية» مما أصبح معه أنصاره يدعون بالقوميين (دون أن ينعتوا بالعرب) .

بدلا من شعار القومية ركزت الحركة الوطنية في فجر نشأتها على وحدة شعب المغرب، وتبنى شعراء الحركة الوطنية الدعوة لتآخي عناصر المغرب والتحامها في القومية المغربية ، فكان المغرب بذلك أقرب ما يكون إلى النهج المصري الذي تميز بالدعوة في هذه الحقبة أيضا إلى القومية المصرية .

كنا نتلقى في مدرسة مربينا الكبير محمد بن عبد الله نشيدا نردده نظمه الزعيم علال الفاسي في فجر شبابه ردا على سياسة التفرقة العنصرية التي خططت الحماية لها بمحاولة تقسيم المغرب إلى كيانين عربي وبربري وكنت أحفظه في سن العاشرة من عمري ومما جاء فيه :

كلنا من عربي خالص أو بربري
قد تعلقنا بعرش علوي واعتصمنا بلوائه

وكان لعلال الفاسي نشيد آخر يلقن في خلايا الحركة الوطنية السرية ، وفي معاهد التعليم الحر ويضرب على نفس النغمة :

صوت ينادي المغربي من مازغ وعرب
يحدو الشباب المغربي للموت من دون الوطن

وفعلا كان العرش وشخص السلطان لحمة هذه الوحدة ، منذ أن وفد على المغرب قادما من مكة ادريس بن عبد الله الحسني الفاتح الأول وبويع ملكا (172 هـ 788 م) وتزوج كنزة البربرية التي ولدت ادريس الثاني مزيج العنصرين ونتاج الوحدة المغربية الملحومة بهذا الرباط المتين .

وبخضوع المغرب لاستعمار ثلاثي: فرنسي في الجنوب واسباني في الشمال ودولي في طنجة أصبح التطلع إلى تحقيق الوحدة المغربية الترابية في ظل العرش العلوي الواحد يساير التطلع إلى التحرير الوطني وإلى توحد العنصر المغربي ككل لا يتجزأ في القومية المغربية . ولقد كان التمسك بهذه الوحدة مدعاة عند زعيم مغربي هو الشيخ المكي الناصري لتأسيس حزب وطني نشط خاصة في المنطقة الخليفية وطنجة كان يحمل اسم (حزب الوحدة المغربية) وكان يصدر جريدة بنفس الاسم، وعلى صفحتها الأولى هذان الشعاران : «المغرب للمغاربة أولا وأخيرا» و «الشعب بالعرش والعرش بالشعب» .

الإستلهام من الحركات الوطنية العربية

كانت مسيرات التحرير والانعتاق من الاستعمارين البريطاني والفرنسي وملاحمها البطولية التي عاشتها الجماهير في المشرق العربي مصدر إلهام للقيادة الوطنية المغربية التي كانت في نهاية العشرينات تستعد لخوض غمار كفاح سياسي منظم ، وكان المشرق العربي يغلي منذ انطلاقة الثورة العربية الاستقلالية في الحجاز على يد شريف مكة علي بن الحسين (1916 - 1917) .

لقد عرفت مصر ثورتها السلمية (1918 - 1922) التي قادها حزب الوفد بزعامة سعد زغلول للمطالبة بالاستقلال ووحدة مصر والسودان وجلاء الجيش الانجليزي ، وإبرام معاهدة مع بريطانيا العظمى (دولة الحماية) تضمن سيادة مصر الكاملة على ترابها الوطني .

وفي سوريا ولبنان قامت ثورة على فرنسا شعبية في المدن ، في شكل احتجاجات ومظاهرات وإضرابات ، ومسلحة في جبل الدروز بقيادة سلطان الأطرش (1925). وكما قصف أسطول بريطانيا العظمى الاسكندرية سنة 1882 وقضى البريطانيون على ثورة الجنرال أحمد عرابي باشا وحاكموه قصفت فرنسا العاصمة السورية دمشق وهدمت بعض أحيائها فوق سكانها . ونكأت الوحشية الفرنسية في

قلوب العرب من الخليج إلى المحيط جرحا لم يندمل بضع سنوات ، فتعاطفوا مع سوريا ، وخلد أمير الشعراء أحمد شوقي تلك الأحداث الدامية في قصيدته القافية التي وجه فيها إلى دمشق «سلاما أرق من صبا بردى»، وندد فيها بالمستعمرين المنطوين على «قلوب كالحجارة لا ترق»، وذكر «فرنسا بدم الثوار الذي تعرفه وتعلم أنه نور وحق» .

وفجر وضع العراق تحت الانتداب البريطاني بمجرد الإعلان عنه ثورة القبائل العراقية ومظاهرات الشعب بقيادة علماء الدين والمثقفين يونيه (حزيران)1920 وبالرغم من تمكن القوات البريطانية من إخماد تلك الانتفاضة بعد خمسة أشهر،فإن بريطانيا العظمى اضطرت إلى الاعتراف باستقلال العراق في السنة الموالية، حيث تُوِّج ملكا فيصل بن الحسين بن علي .

وفي فلسطين توالت الثورات العربية على الانجليز لإحباط خطط قيام الدولة اليهودية ، وحملت بدلا من اسم الثورة - وحسب التوجيه الإعلامي البريطاني القاصد اسم « اضطرابات القدس»(1920) أو « اضطرابات يافا»(1921) أو اسم «اضطرابات 1929» لتعشي سلطة الانتداب الأبصار عن اكتشاف حقيقة الثورة الفلسطينية التي اشتعلت منذ ذلك الحين ولما يخمد لها أوار. ومنذ الإعلان عن وعد بلفور(1917) والقضية الفلسطينية في قلب كل مغربي وإسنادها جزء من نضال المغاربة .

أما في المغرب العربي فقد عاشت برقة وطرابلس ثورة مسلحة ضد الاحتلال الإيطالي قادها عمر المختار المنفي (1921) واستمرت طوال العشرينات وإلى حين إعدام بطلها سنة 1931، وهذا بينما كانت تونس قد أطرت حركتها السياسية بقيادة الحزب الحر الدستوري وزعامة عبد العزيز الثعالبي ورفاقه .

أمارات النصر

واتقدت أكثر فأكثر جذوة الثورات في بلاد الشرق الأدنى والأوسط بظهور أمارات النصر الأولى لحركات التحرير مشخصة في استقلال العراق الذي أعلن سنة 1921، واستقلال مصر الجزئي الذي اعترفت به بريطانيا العظمى سنة 1922، كما تعززت المعنوية العربية بقيام المملكة العربية السعودية سنة 1925 بتنصيب عبد العزيز آل سعود ملكا للحجاز. وجميع هذه الملاحم زادت الوطنيين المغاربة تصميما على الدخول مع الاحتلال الفرنسي في مواجهة لم يكن لهم عنها محيص .

المثال المصري

وكان للحركة السياسية المصرية بالخصوص تأثير بالغ على التوجه السياسي للحركة الوطنية المغربية التي تدرجت نحو العمل السياسي المنظم بعدما مهدت له بالنضال في ميدان السلفية الإصلاحية التي هبت نسائمها من مصر . لقد كانت أسماء الزعماء المصريين على تنوع أحزابهم تتردد على الألسنة ، وكانت صورهم تزين بيوت الوطنيين ويجرؤ بعض مديري المدارس الحرة على تعليقها فوق جدران الأقسام الدراسية .

وتبنت الحركة الوطنية المغربية عند انطلاقتها بعض شعارات الأحزاب السياسية المصرية، ولقنت أنصارها حتى الأناشيد التي كانت ترددها أحزاب مصرفي مهرجاناتها السياسية ، لا يستثنى منها حتى التي تمجد الزعامات الحزبية . وكانت أناشيد سوريا الوطنية تردد بنفس الحماس في المناسبات الوطنية : ذكر محمد بن الحسن الوزاني أن أحد قادة الحركة الوطنية بسلا المرحوم سعيد حجي هو الذي كان يلقن رواد الحركة الوطنية أناشيد مصر وسوريا ، وأضاف أن من بينها نشيد سعد زغلول الذي كان الوطنيون يهتفون به كما لو كان زعيمهم صائحين :

فليحي سعد ومن معه فليحي سعد ومن معه

طونشيد المرحوم نجيب الريس الذي كان الوطنيون المغاربة يصيحون به في وجه حراسهم بسجون الحماية :

يا ظلام السجن خيم إننا نهوى الظلاما
ليس بعد الليل إلا فجر مجد يتسامى
يارنين القيد زدني نغمة تشجي فؤادي
لست والله بناس ما تقاسيه بلادي

وقد كان الوطنيون يتابعون ما ينشر في صحافة مصر التي كانت تصل مهربة إلى المغرب أو بواسطة البريد الانجليزي . وكثيرا ما كانت تصل متقطعة وتستعار كعملة نادرة ، أو تنشر بعض مقالاتها في نشرات الخلايا الوطنية السرية لتقرأ على أعضائها مصحوبة بتعاليق مسهبة .

تحرير المرأة

وتجاوز استلهام الوطنيين المغاربة من كفاح الشعوب العربية دائرة النضال السياسي إلى الميدان الاجتماعي، فقد كان لحركة تحرير المرأة التي نادى بها قاسم أمين في نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن صدى لئن تردد متأخرا إلى العشرينات فقد كان عميقا متوغلا في الأحاسيس والمشاعر، إذ اعتبرته النخبة المغربية الرائدة تخطيطا لثورة مجتمعية .

إن كتاب «تحرير المرأة» الذي ألفه قاسم أمين سنة 1899 وكتابه «المرأة الجديدة» الذي نشره سنة 1901 أصبحا مرجعين أساسيين للوطنيين المغاربة صالحين لاستلهام مضامينهما في حركة الاصلاح السياسي التي كانت في طور المخاض .

أذكر أن خالي الشهيد عبد العزيز بوطالب الذي سقط صريعا برصاص الاستعمار الفرنسي أثناء مظاهرات المطالبة بالاستقلال بمدينة فاس سنة 1944 كان يتحدث عن تحرير المرأة في اجتماعات الخلايا السرية التي كان يعقدها ببيته في بداية الثلاثينات بعد ظهر كل يوم جمعة ، ويردد بصوت مرتفع لفظ المرأة أمام مدعويه . وكنت ما أزال لم أتجاوز عتبة الثامنة من العمر حينما التقطته منه وأخذت أردده بدوري . وفهمت فيما بعد أنه كان يقرأ على أعضاء تلك الخلايا كتاب «تحرير المرأة » لقاسم أمين ويعلق عليه ويدعو إلى تمتيع المرأة المغربية بالحقوق التي دعا إليها الزعيم المصري في كتابه .

وما أزال أذكر كذلك أن جدتي من والدتي كانت تتضايق من هذه الاجتماعات التي كان يتردد فيها لفظ المرأة حتى أنه أصبح عندها مدعاة ملل ، فكانت تعلق على ذلك في دعابة لاذعة : «كفاك يا عبد العزيز حديثا عن المرقة فقد تميصت» وذلك ما يرادف في اللهجة الدارجة المغربية تعفنت (وكانت تفهم أنه يتحدث عن المرقة لا المرأة على حسب نطق سكان فاس للقاف همزة كما يفعل المصريون أيضا) .

وكانت مصر في طليعة الدول العربية التي أخذ فيها الكفاح لتطوير المجتمع وتحديثه مكانه المتميز بجانب مسلسل كفاح التحرير الوطني، وتميزت المرأة المصرية فيه بخوض غمار كفاح اجتماعي مرير لفرض حقوقها. وخلد التاريخ ذكر هدى

شعراوي كزعيمة رائدة للنهضة النسوية ، إذ في سنة 1919 قادت مظاهرة نسوية في شوارع القاهرة ضمت ثلاثمائة امرأة سافرة في عملية استفزاز وتحد للتيار المحافظ، وأسست سنة 1923 «الاتحاد النسوي المصري » وسافرت عبر أوروبا للدعوة لتحرير المرأة العربية وربط كفاحها بكفاح المرأة الغربية .

وكان على الحركة الوطنية المغربية أن تنتظر إلى سنة 1947 ليعهد بطل التحرير محمد الخامس رحمه الله إلى ابنته الأميرة عائشة بقيادة مظاهرة لا على شكل مظاهرة هدى شعراوي ، ولكن بالعهد إليها بإلقاء أول خطاب لها بطنجة في تجمع شعبي كبير وهي محتجبة الحجاب الإسلامي ، وكان ذلك بداية النهضة النسوية الوطنية بالمغرب .

دوائر الإشعاع

والواقع أن الحركة الوطنية المصرية حفلت بتنظيرات فكرية وسجلت مواقف رائعة سواء في مواجهتها للاستعمار البريطاني أو في بناء حركة النهضة الذاتية. وبتنوع مواقف أحزابها وتعدد أساليب عملها كانت مصدر إيحاء للحركات الوطنية المعاصرة سواء في افريقيا أو آسيا أو التي جاءت بعد الحركة المصرية مباشرة في القارتين، فقد كانت مدرسة تعبئة الأمة لدعم المطالب الوطنية وللضغط على المستعمر للتفاوض مشخصة في حزب الوفد بزعامة سعد زغلول ومن بعده من الزعماء. وكان الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل باشا يقدم نموذجا للكفاح أكثر راديكالية تحت شعار «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء»، سواء على ساحة العمل الوطني أو على صفحات جريدة «اللواء» الناطقة باسمه. وكان حزب الأحرار الدستوريين بزعامة محمد محمود يركز على الإصلاح الداخلي ومناهضة استبداد الحكم على صفحات جريدة «السياسة» .

وبذلك أعطت الحركة الوطنية المصرية نماذج متنوعة يمكن التأسي بها واستلهامها لاختيار أجدى مناهج العمل الوطني بدءا من نموذج ثورتها العسكرية بقيادة أحمد عرابي إلى نشاطات الأحزاب السياسية ما بين معتدل ومتطرف، سواء منها أحزاب الجماهير أو أحزاب الأطر .

وربما كان هذا التنوع من أسباب إشعاعها على الخارج: إن الزعيم الهندوسي المهاتما غاندي يعترف بتأثيرها على حركته التحريرية عندما يقول :

« تأكدوا أن الحركة الهندية سارت على أثر الحركة المصرية ، وأني قد اقتبست من

سعد زغلول بعض تنظيماته عندما جمعت أنصار حركة تحرير الهند فوجا فوجا، مما مكنني من أن أعوض في الحين كل فوج يعتقله الانجليز بفوج آخر. وقد تَبَنَّيْتُ وسائل سعد زغلول للَحْمِ الوحدة بين عناصر الهند مختلفة الطوائف والمعتقدات، ولكني فشلت في هذا الميدان بينما نجح سعد». وأضاف مخاطبا المصريين :«إن سعدا لا ينتمي إليكم وحدكم ، إنه لنا جميعا». والقائد المغربي الحسن الثاني وهو الذي خاض بجانب والده كفاحا مريرا ضد الاستعمار تحدث من منطلق تجربته عن مصر فقال في حديث لمجلة «المصور» و جريدة «الجمهورية» أفضى به في فبراير (شباط) 1988: «أظن من الواجب أن أقول للشعب المصري: إن المغرب كانت له أثناء الاحتلال الفرنسي عاصمتان: الرباط والقاهرة ، وكلما اشتد الخناق والأزمة على المغرب وعلى عاصمته الرباط وجد المغاربة في القاهرة الآذان الصاغية والأقلام الكاتبة ، والقلوب المتضامنة، لأن القاهرة كانت أيام استعمار المغرب العاصمة الفكرية والوطنية لبلادنا».ولقد انعكس أثر المثال العربي عامة والمثال المصري خاصة على تنظيمات الحركة الوطنية المغربية وشعاراتها أيضا، فالوطنيون المغاربة استلهموا سنة 1934 من سوريا اسم تنظيمهم الشعبي الأول الذي دعوه «كتلة العمل الوطني»، حيث كان الزعماء السوريون قد أسسوا سنة 1927 تنظيما سياسيا دعي باسم «الكتلة الوطنية» كان على رأسه هاشم الأتاسي وإبراهيم هنانو ، وضم قيادات فكرية وسياسية لبنانية، وبرزت فيه فيما بعد أسماء تاريخية أمثال فارس الخوري ، وجميل مردم ، وسعد الله الجابري . وقبل عام من تأسيس كتلة العمل الوطني بالمغرب تأسس تنظيم شعبي آخر في سوريا باسم «عصبة العمل القومي» وكان من زعمائه صبري العسلي، وعبد الرزاق الدندشي، وفهمي المحايري، والدكتور زكي جابر. وهذا التعبير يرادف بتصرف اسم «كتلة العمل الوطني» .

وعندما أصدرت «كتلة العمل الوطني» جريدة «عمل الشعب» (l'action du peuple) باللغة الفرنسية ، اختار مديرها محمد بن الحسن الوزاني شعارا لها صدَّر به أعدادها كان ترجمة فرنسية لمقولتين شهيرتين لسعد زغلول تقول إحداهما: «الصحافة حرة تقول في حدود القانون ما تشاء ، وتنتقد ما تريد، فليس من الرأي أن نسألها لم تنتقدنا ، بل الواجب أن نسأل أنفسنا لم نفعل ما تنتقدنا عليه». وتقول الثانية: «إن كل تقييد للحرية يجب أن يكون له مبرر من الحرية نفسها وإلا كان ظلما».

شاعر الشباب

وعندما أقامت مصر حكومة وشعبا لشوقي في ذكراه الأربعين حفل تأبين أقام الوطنيون المغاربة بعد أشهر28 نونبر (تشرين الثاني 1932) بسينما السراجين بفاس حفلا تأبينيا مماثلا لشوقي سمي بذكرى الأربعين أشرف عليه المرحوم علال الفاسي وشباب علماء القرويين وأطلق على ذلك اليوم اسم «يوم شوقي بفاس».

وكانت العادة الفرعونية تقضي في مصر بتعهد الموتى بعد مرور أربعين يوما على تحنيط جثثهم قبل مواراتها التراب، وتجددت في شكل. إقامة ذكرى الأربعين لكبار الشخصيات من الموتى . ومنذ يوم شوقي بفاس أصبح المغاربة يحتفلون بذكرى الأربعين لأمواتهم .

وفي بداية الثلاثينات لُقِّب الشاعر علال الفاسي باسم شاعر الشباب ، وهو لقب اشتهر به في مصر قبل ذلك الشاعر أحمد رامي الذي حمل هذا اللقب في الأصل لأنه كان ينشر أشعاره في مجلة «الشباب» التي كان يصدرها في مصر عبد العزيز الصدر، ولكنه ظل يحمل اللقب حتى بعد توقف المجلة وتجاوزه سن الشباب .

وعندما احتفلت الحركة الوطنية سنة 1936 بالذكرى الألفية للمتنبي كان من بين المقالات والبحوث التي ألقيت في احتفالي تطوان وفاس كلمة لمحمد بن اليمني الناصري (أخ الشيخ المكي الناصري) كان عنوانها «المتنبي شاعر الشباب» استهلها بقوله: «شاعر الشباب في نظري هو الذي يعبر شعوره عن شعورهم، ويفصح عما يجول بضمائرهم، ويستخرج من بحر الحياة ما يتصل مباشرة بأعماق نفوسهم ، ويثير نشوة النخوة في رؤوسهم». و سار على هذا المنوال في كلمته (التي صدرت في أول عدد من مجلة «المغرب الجديد» التي كان يصدرها ويرأس تحريرها أخوه الشيخ المكي الناصري) مركزا على الشروط التي يرى ضرورة توفرها في شاعر الشباب، فنسب إليه البعض أنه كان بذلك ينازع في أهلية السيد علال الفاسي لحمل اللقب المذكور الذي أثار حمله في المغرب حساسية الشعراء المتنافسين .

وبعد أن انشطرت كتلة العمل الوطني سنة 1937 إلى جماعتين أسمى المرحوم علال الفاسي حزبه «الحزب الوطني» متبنيا بذلك اسم الحزب الذي أسسه مصطفى كامل باشا سنة 1907 وخلفه على رأسه بعد وفاته محمد فريد ومن بعده محمد حافظ

رمضان ، بينما أسمى المرحوم الوزاني حزبه «الحركة القومية» مقتبسا من اسم «الحزب القومي العربي» الذي اسسه بسوريا سنة 1904 نجيب عازوري، ومن اسم «الحزب القومي السوري» الذي أنشأه ببيروت سنة 1933 أنطوان سعادة، أي في نفس السنة التي تأسست فيها بدمشق «عصبة العمل القومي» التي اقتبس الوطنيون المغاربة من اسمها اسم «كتلة العمل الوطني» .

الوطنيون المغاربة والحركة التحريرية في تركيا والهند

المثال التركي

لقد كان من الطبيعي أن يعكس المشرق العربي أصداء الانتفاضات التي كانت تثور ضد الخلافة العثمانية عندما كان جزءا منها لارتباط مصيره بها . وكان من الطبيعي بعد انفصاله عنها وتوزعه بين الحماية والانتداب أن يظل يتابع ما يجري في تركيا من تطورات ويتحسب انعكاساتها عليه ، بحكم ما ظل يربطه بتركيا من علاقات جوار وروابط تاريخية . وفعلا اهتزت أركان المشرق العربي للثورة التركية العسكرية التي عرفت بالانقلاب العثماني ونجحت سنة 1909 في الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني . ومنذ ذلك انقسم الفكر السياسي العربي بين من تطلعوا إلى عهد إصلاح جديد يقوم فيه العدل على أنقاض الاستبداد العثماني الذي طبع عهد تدهور الخلافة مؤملين تجديد شبابها على أيدي الضباط الأحرار والشباب الترك ، وبين من سبب لهم هذا الانقلاب صدمة وأثار في نفوسهم شعور الإحباط والقلق على مصير الجامعة الإسلامية بصرف النظر عن شكل حكومتها .

الضباط الأحرار

وكانت جمعية الاتحاد والترقي كما كان حزب تركيا الفتاة يدعيان أن حركتهما حركة تصحيحية تستهدف إقامة عهد جديد لصالح جميع العناصر المتساكنة في ظل الخلافة . وفي البداية انبهر بعض العرب بهذا البرق الخلب ، وانساقوا مرة أخرى في

الدعوة إلى تآخي العرب والترك ، إلا أن حكام العهد الجديد من الضباط الأحرار لم يلبثوا أن كشفوا القناع عن وجوههم ، فبدت حركتهم عنصرية طورانية ساعية لفرض سيادة العنصر التركي وإخضاع سائر العناصر الأخرى لهيمنته ونفوذه . وقد اكتوت سوريا ولبنان خاصة بسياسة القمع والإرهاب التي سلطتها الطغمة العسكرية الحاكمة على المعارضين العرب ممن قتلوا شنقا في الساحات العمومية بدمشق وبيروت على عهد الطاغية جمال باشا .

ومن بين الكتب التي كان يقرأها بإعجاب شباب الحركات الوطنية في المشرق والمغرب رواية جرجي زيدان المعنونة بالانقلاب العثماني ، وهو الكتاب الذي أرخ لحادث الانقلاب بعد مرور سنوات عليه ، وظل مع ذلك يتصدر واجهات المكاتب في المشرق، ويتسرب إلى المغرب بين الكتب النادرة الواردة عليه يستعيره شاب من آخر، ويغذي بمحتواه رواد الحركة الوطنية دعوتهم إلى الاصلاح في الخلايا السرية الوطنية. ولقد كنا في الثلاثينات نحن تلاميذ مدرسة الفقيه ابن عبد الله نلتهم هذه الرواية التهاما ونتابع بنهم مسلسلها ، ويسعى كل منا لإغناء مكتبته المفضلة المحدودة بها، فقد كانت في ذلك الحين من روائع الروايات ونوادر القصص البطولية .

الصدى في المغرب

وعلى ضوء تقييم المشرق العربي وأوروبا للحركة الكمالية سار الوطنيون الرواد المغاربة في نظرتهم إلى الغازي التركي ، سواء في ذلك علماء شباب القرويين الذين كانوا يقرأون ما يرد من الشرق العربي عن الثورة التركية، أو شباب المدارس الفرنسية الذين كانوا يطالعون أنباءها في صحافة فرنسا ، لدرجة أن سنتي 1923 و1924 سجلتا ظاهرة تسابق الآباء إلى تسمية مواليدهم الذكور باسم مصطفى. وذلك على غرار إطلاق اسم «فيصل» و «جمال» على بعض مواليد المغرب تخليدا لهما وتيمنا ، وهي أسماء لم يكن من المعتاد التسمية بها في المغرب .

إننا نلاحظ كذلك تطابق فترة الثورة الكمالية مع فترة الثورة الريفية بقيادة محمد عبد الكريم الخطابي، وهما يلتقيان على الأقل في اعتماد الخيار العسكري وسيلة لتحرير الأرض ، وفي تأسيسهما حكومة ناطقة باسمهما منفصلة عن سلطة الحكومة المركزية . وقد نجح مصطفى في إقامة جمهورية تركيا على رقعة ترابية محدودة أقل حجما من التراب العثماني ، واستسلم محمد عبد الكريم الخطابي

لفرنسا قبل أن تتجلى بوضوح أهدافه السياسية فيما بعد التحرير. كتب محمد بن الحسن الوزاني في الجزء الخاص من مذكراته بحرب الريف يقول : «كانت انطلاقة الحركة الريفية انطلاقة وطنية كبرى تجاوبت وقتئذ في المغرب مع انطلاقات وطنية معاصرة في المشرق بقيادة الغازي مصطفى كمال في تركيا الجديدة ، وسلطان الأطرش في جبل الدروز بسوريا» .

وجاء في رسالة كتبها الجنرال ليوطي مؤرخة ب 13 يناير (كانون الثاني) 1925 إلى وزير الحربية الفرنسية :

«من المقطوع به أن الزعيم الريفي تتوفر لديه خصال الرئيس وأنه أخذ ينظم قواته في شكل جيش عصري منظم، ويبدو أنه يرغب في تمثيل دور مصطفى كمال. ومن المؤكد أنه ما زال بعيدا جدا عن أن يصل مستوى جيشه إلى مستوى جيش تركيا الجديدة ، ولكنه يحلم بأن يكون على رأس جيش من مستوى جيش أتاتورك»

.... والوجه الآخر

لكن البطل الأسطوري لم ينتظر طويلا ليكشف القناع عن وجهه الآخر، فما أن استبد بالحكم عند إلغائه الخلافة حتى استصدر من الجمعية الوطنية سلسلة من التشريعات كشفت سياسته الحقيقية المتمثلة في سلخ تركيا من جلدها واجتثاثها من جذورها الإسلامية : ألغى «مصطفى» المحاكم الشرعية والمعاهد الدينية ، وحذف من الحكومة وزارة الأوقاف ، وعدل الدستور بحذف النص على أن الإسلام دين الدولة التي أصبحت علمانية بمقتضى نص دستوري جديد، وألغى العمل بالتشريع الإسلامي الذي أطلق عليه أنصار الثورة اسم (شريعت عتيقت) أي التشريع القديم أو البالي، واستبدل بعطلة الجمعة الأسبوعية عطلة الأحد، وألغى التاريخ الهجري ، وغير نظام الإرث الإسلامي، وحول «جامع أيا صوفيا» إلى متحف، و «مسجد الفاتح» إلى مستودع ، ومنع لبس الجبة وفرض بدلها الزي الأوروبي، كما حرم حمل العمامة والطربوش لتحل القبعة محلهما ، وألغى الحرف العربي في كتابة اللغة التركية لفائدة الحرف اللاتيني .

وبذلك أصبحت تركيا تسير في خط مناهض للتيار الإسلامي الذي سادها منذ الفتح ، بعد أن كانت على مر التاريخ إحدى قلاع الإسلام الراسخة . وكان

مصطفى كمال يعاكس الشعور الإسلامي وهو يعلم أنه يمارس ضغطا على ضمير شعبه المتمسك بقيمه الروحية ، وأنه ما كان له أن يبلغ ما يريد لو لم تأت به إلى الحكم ثورة عسكرية لا قبل لشعبه بمناهضتها ، وبذلك حكم بالرعب والإرهاب .

ولئن غُلب الشعب التركي على أمره فقد ظل صابرا متشبثا بإسلامه وهويته، مسجلا بذلك إخفاق الثورة الكمالية وعجزها عن تحقيق أهداف الاستلاب والمسخ التي راهنت عليها .

.. وقراءة جديدة

لقد تبين أن أسطورة انتصارات البطل التركي على الدول العظمى إنما ساعد على صنعها الحلفاء أنفسهم لإحاطته بهالة يعشي نورها الأبصار عن اكتشاف حقيقة الصفقة الدولية التي أبرمها «الغازي» مع مستعمري العالم الثالث، وبدا أن هؤلاء كانوا يعملون لمساعدته مقابل تحطيم الكيان الإسلامي وتفتيت أجزائه إلى قطع بيدقية كانت تركية حلقة من حلقاتها المقضومة ، ضمن مسلسل التفتيت الذي شمل الشرق العربي عندما جزئ إلى كيانات هشة قابلة للعدوان ، وحاملة في طياتها أسباب تمزقها وضعفها .

إن تركيا أدت الثمن غاليا لتضع على وجهها قناع هوية أوروبية مستعارة لم يعترف لها بها حتى من أعاروها ذلك القناع ، وظلت بذلك «زيتونة لا شرقية ولا غربية» . وعلى ضوء ذلك أعاد الفكر السياسي قراءة تاريخ الثورة فتبين له بهاته القراءة الجديدة أن معاهدة لوزان التي قيل عنها إنها نسخت معاهدة سيفر لم تكن معاهدة انتصار الثورة على الاستعمار، بل كانت غطاء قانونيا لصفقة غبن أعطى بها الحلفاء لتركيا الجديدة تنازلات مقابل الثمن الذي استخلصوه مقدما منها .

كانت الثورة الكمالية نكسة عانى منها الشعب التركي والعالم الإسلامي، بما اختصر المثال التركي للتحرير في خيار عسكري مشبوه لم تعد الحركات الوطنية ومنها الحركة الوطنية المغربية تطمئن إلى الاقتباس منه .

لحسن الحظ، فإن ساسة تركيا وهم واعون بعمق هوية شعبهم الحضارية التاريخية وبخطر التحول الاستلابي الذي اندفعت الثورة الكمالية في متاهاته، أخذوا منذ ربع قرن يصححون مسيرة الثورة ببطء ، ولكن بكل تأكيد ويقين .

حركة التحرير الهندية

كان كل شيء في كفاح الشعب الهندي الذي انطلق قبل نهاية القرن التاسع عشر يثير ويغري الحركات الوطنية في العالم الثالث بالتأسي به والاقتباس من نهجه ، فقد نوع شعب القارة الهندية أساليب كفاحه بقيادة زعمائه بما جعل من الكفاح الهندي ملحمة بطولات من نوع خاص ، راهن فيها القادة الهنود على النصر على الاستعمار البريطاني انطلاقا من تصور فلسفي متكامل كان أساسه مبدأين اثنين :

أولهما : أن بلاد الهند التي تملك الرقعة الترابية الشاسعة والحجم السكاني المتزايد قادرة بما حبتها به الطبيعة من مقدرات على تطويع تصلب الخصم البريطاني الدخيل البعيد عن مواقعه الأصيلة، الحاكم ب «الراجوات»، أي بأقلية بيروقراطية، يستحيل عليها توطيد نفوذها في شبه القارة ما لم تستعن بخضوع شعب الهند نفسه لإرادتها .

وثانيهما : أن شعبا كبير الحجم مؤطرا ومعبأ في تنظيم سياسي يستطيع بإيمانه بعدالة قضيته وبابتداع أساليب مثيرة لنصرتها أن يلحق هزيمة نفسية معنوية بالخصم أشد وقعا على المهزوم من الهزيمة المادية. وعلى هذين المبدأين قامت حركة الكفاح الهندي التي عرفت باسم «اللاتعاون بوسيلة اللاعنف». وهو ما سماه غاندي «سانيا غـرة» أي الإصـرار على الحق .

ولقد كنا نعتبر غاندي الرجل الذي لبس لباس الإحرام على طريقته ، ونذر أن يظل يذرع الأرض إلى أن تتحرر بلاده . ومن كان يستطيع أن يجزم عندما كنا نقرأ عنه في الخلايا الوطنية السرية المغربية أثناء الثلاثينات أن ذلك الرجل عاري الصدر والساقين سيكشف سوأة انجلترا العجوز ، الدولة العظمى التي لم تكن الشمس تغيب على رايتها كما كان يقال عنها ، وأنها ستضيق بلا عنفه ولا تعاونه ، لتسلم للهند بالاستقلال ، وللزعماء المسلمين بإقامة دولة الباكستان ؟

مقاطعة البضائع الأجنبية

تأثرت الحركة الوطنية المغربية كما تأثرت حركات التحرير الأخرى في العالم الثالث بالحركة الهندية التي زخرت بالعبر، وكانت صور غاندي في الثلاثينات تملأ البيوت وتزين الجدران بجانب صور زعماء العرب والمسلمين .

على غرار الهند طبقت الحركة الوطنية مبدأ مقاطعة البضائع الأجنبية وهي ما تزال في فجر نشأتها الأولى. وعن ذلك يحدثنا المرحوم علال الفاسي في كتابه «الحركات الاستقلالية»:«وقد وقعت دعوة عظيمة لمقاطعة سائر البضائع الفرنسية والاستعاضة عنها بالبضائع المغربية والعربية أو الأجنبية إذا لم يوجد غيرها. ونجحت هذه الدعوة نجاحا كبيرا، فكنت لا ترى إلا الملابس المنسوجة في المعامل المغربية والأقمشة الشعبية القديمة التي مضى عهدها ولم يكن يبالي بها أحد أصبحت تحل محل التقدير والإعجاب من الجميع، وأمسك الكثيرون عن شرب الشاي وأكل السكر لأنه فرنسي، وسرت في الأجواء الشعبية صوفية ضحت بكثير من الشهوات، وحتى بالحاجات العادية في سبيل المثل القومي العظيم، وشاركت النساء في هذه التضحية بإيثارهن المنسوج الوطني- برغم ما فيه من تقشف- على فساتين الموضة و ألوانها، وامتدت مظاهر المقاطعة للبضائع الأجنبية إلى دعوة شاملة لمنع التدخين».

صحافة الإستعمار تندد بتأثير مصر والهند

بعد قيام حركة معارضة الظهير البربري من لدن الحركة الوطنية سنة 1930 ومقابلتها بقمع شرس من سلطات الحماية كتبت جريدة افريقيا الفرنسية الناطقة باسم الاستعمار الفرنسي (l'Afrique française) مشيرة تأثير الحركتين الوطنيتين المصرية والهندية على الوطنيين بعبارات الهجاء التالية:«إن هؤلاء الوطنيين ماهم إلا شرذمة من الأوباش المحرزين على شهادات ابتدائية باهتة حسبوا أنها تكفيهم ليقوموا في المغرب بالدور الذي قام به غاندي وزغلول، ناسين أن هذين كانا يشكلان بالنسبة لأنجلترا خطرا لأنهما على جانب كبير من الوعي، في حين لا يعدو هؤلاء الذين لفظتهم المدرسة الابتدائية بالمغرب أن يكونوا جعبا فارغة جوفاء» .

الفصل السادس

التنظيم السياسي المبكر للحركة الوطنية المغربية

مرحلة البحث عن التنظيم

لقد ساعدتنا الدراسات التي قدمناها في الفصول السالفة من هذا الكتاب عن تأثير الحركات الوطنية العالمية في الحركة الوطنية المغربية على تصور المحيط الذي اختمرت فيه هذه الأخيرة كفكرة أولا فتيارا معارضا للحماية داخل المدن .

وكان هذا التيار يستدعي في تنظير النخبة المغربية بلورته في حركة منظمة، بعد أن أخذ يظهر متفرقا عبر المدن في تلقائية ينقصها التنسيق .

من مرحلة الرفض السلبي أو الانطواء الذاتي اجتاز التيار الوطني مرحلة أساسية تجلت في مظاهر انتفاضات جزئية ، فهي تارة احتجاجات فلاحين على نزع الحماية الفرنسية ملكيات أراضيهم أو تحويل مجرى مياهها لفائدة الاستعمار والمعمرين ، أو إضراب تلاميذ في المدارس والمعاهد احتجاجا على تصرفات الأساتذة الفرنسيين الذين كان بعضهم يجرؤ في أحاديثه على جرح كبرياء تلاميذه بالمس بسمعة البلاد والاستهزاء بقيمها وتزوير التاريخ ومسخ معطياته لزرع مركب النقص وترسيخ شعور الهزيمة في النفوس . وتجلى التيار الوطني تارات أخرى في شكل مظاهرات محلية ضد سن سلطات الحماية بعض الضرائب والرسوم ، أو في مظهر مقاطعة الشعب للعناصر المغربية العاملة في مراكز السلطة بجانب رجال الحماية ، او تلك التي كانت يشك في حسن تعاونها بصفة غير مباشرة مع سلطات الحماية كبعض رجال الطرق والزوايا من المغفلين النافعين .

كل ذلك أصبح يلح على النخبة المغربية للبحث عن قاعدة لتأطير ذلك التيار وتوجيهه في وجهة الإصلاح ، وقد كان التيار السلفي نقطة اللقاء بين عناصر هذه النخبة .

وإذا كان طبيعيا بالنسبة لطلبة شباب جامعة القرويين أن تشدهم السلفية إليها بحكم تكوينهم العربي الأصيل ، فقد كان غريبا حقا أن تشد رابطة السلفية فوج الطلبة الذين كانوا تلقوا أو يتلقون دراستهم في المعاهد الفرنسية لو لم يكن من بين

أساتذتهم علماء مغاربة سلفيون ربوا في نفوسهم نفس التيار السلفي التحرري الذي شق طريقه بيسر إلى صفوف شباب القرويين ، وبذلك أحكم هؤلاء الرواد السلفيون الصلة بين عناصر الطلبة ويسروا التقاءهم على أرضية الحركة الوطنية . من هنا يمكن القول إن بعض شباب المعاهد التي أنشأتها الحماية الفرنسية قام في العشرينات بثورة ذاتية صامتة عندما تلقى التعليم الفرنسي وتفتح عليه ، واعتبره مشربا معرفيا لاغنى عنه لمواجهة تطورات العصر وتحدياته ، وفي نفس الوقت رفض النظرة الغربية التي كانت تشع من ذلك التعليم . أو بعبارة أخرى إنه انفتح على التعليم الغربي ولكنه انغلق على تربيته .

لقد كان محمد حسن الوزاني ، وأحمد بلافريج ، ومحمد اليزيدي، وعمر بن عبد الجليل، ومحمد الزغاري، وأحمد باحنيني، وأمثالهم من الذين سيصبحون فيما بعد زعماء قياديين للحركة الوطنية، طلبة روادا للنهج الفرنسي، وفي الوقت نفسه مغاربة أصيلين رافضين الاندماج في هوية المستعمر أو نمط تفكيره، بل أصبح بعضهم كالوزاني والزغاري أكثر التصاقا بالأصالة من بعض شباب القرويين الذين أخذوا ينفتحون شيئا فشيئا على المحيط الخارجي مثل علال الفاسي . كما يجوز لنا القول إن «الغاندية» طبعت هذه النخبة، فقد كان الزعيم الهندي ورفاقه مشبعين بالإنسية الانجليزية وفي نفس الوقت رافضين الذوبان فيها متمسكين بالأصالة . وما من شك في أن خط اللقاء السلفي هو الذي جعل عناصر مختلفة في نشأتها الفكرية، متنوعة في انتماءاتها الاجتماعية، متباعدة أحيانا في مستوياتها الاقتصادية، تلتقي كلها في التنظيم النواتي (الذي سنتحدث عنه) وتنصهر فيه، إذ كان جامعها هو رفض الوضع الاستعماري، والتطلع إلى بناء مغرب جديد يقوم في ظل الإصلاح والتجديد، ولكن دون انسلاخ من الجذور وابتعاد عن الأصالة .

تنظيم وبرنامج

وفي البداية آمن الرعيل الثاني من شباب رواد السلفية الإصلاحية بضرورة إيجاد حركة تقود عملا سياسيا يبلور التيار الفكري السائد، وهداهم منطق الأشياء إلي الاقتناع بأن الحركة - أية حركة - تتطلب حتما شيئين : هما التنظيم، وبلورة الهدف والوسيلة ، إذ منهما يتألف برنامج العمل .

وفي مرحلة التفكير في السبيل المؤدي إلى إيجاد تنظيم يستوعب الأنصار

الوطنيين يبدو أن شبه تنظيمات محدودة الحجم والمدى أخذت تنشأ في كبريات المدن بين ذوي الصلات الشخصية التي يتحكم فيها الانسجام بين الأفكار وتدعمها الثقة المتبادلة . ونقول الثقة، لأن جوا من عدم الثقة أخذ يسود المدن المعنية بهذه التنظيمات المصغرة ، ببث الحماية الفرنسية داخلها شبكة أرصاد وعيون استعملت فيها بعض المغاربة الذين باعوا أنفسهم رخيصة للشيطان، لتصيد الأنباء عما أصبح يروج في أوساط الحماية عن اقتراب ظهور حركة وطنية منظمة .

ومن هنا نفهم كيف تنوعت إن لم نقل تضاربت الأنباء عن منشأ التنظيم الوطني في العشرينات ، ونفهم كذلك إيمان جميع من عاشوا هذه الفترة من الوطنيين بأنهم كانوا كلا أو جزءا وراء أول تنظيم للحركة الوطنية .

إن الذين كانوا وراء الحركة السلفية من دعاتها المرموقين يعتبرون أن دعوتهم للسلفية وجمع الأنصار حولها في بدايتها الأولى كانا بداية تنظيم الحركة الوطنية، وأولئك الذين كانوا قد سارعوا إلى تأسيس أوكار التعليم الحر، وجمعوا له سريا الوسائل المادية التي كانت نادرة في ذلك الحين اعتبروا أنفسهم المؤسسين الأولين لتنظيم الحركة الوطنية .

وعندما كانت تجتمع ثلة محدودة من الشباب للنظر في توجهات الحركة الوطنية المزمع إنشاؤها ، وتتطارح بعض الأفكار، ويتعاهد أفرادها أحيانا على متابعة الاتصال، ويذهبون إلى أبعد من ذلك فيقسمون اليمين على المصحف للاحتفاظ بأسرار الاجتماع والتواعد للقاء لاحق، تنشأ في نفوسهم حاسة يقين بأنهم كانوا طلائع تنظيم الحركة الوطنية . أما عندما تتفق جماعة ما على إطلاق اسم على هذه الاتصالات فإن أفرادها لا يعود يخامرهم ريب في أن تأريخ (بهمز الألف) نشأة الحركة الوطنية المنظمةبدءا من تنظيم غير تنظيمهم هو تزييف للتاريخ (بمد الألف) وغمط لجهودهم كرواد اقتحموا العقبة الأولى ، معتبرين أن حركتهم كانت المنطلق والأساس .

وهذا الاختلاف أفسح المجال لاختلاف أكبر يثير بعض الحساسيات حول أية مدينة من مدن المغرب كانت السابقة إلى التنظيم ، ولتنافس المؤرخين على إعطاء حظوة الأسبقية إلى مدنهم، مدفوعين في ذلك بنزعة الجهوية الضيقة التي ترسب لحسن حظ المغرب أكثر مما تطفو، والتي لا يطوي صفحتها إلا التعالي إلى ذروة الانتماء إلى القومية المغربية الواحدة .

ولقد استمعت أو قرأت روايات من بعض قيادات الحركة الوطنية تبارت جميعها

في تأكيد سبق تنظيمات صغرى معينة إلى عملية تأسيس الحركة الوطنية ، ولا أشك في صدق جميع تلك الروايات التي تتضافر في انسجام لتؤكد وجود لقاءات في مدن المغرب الكبرى كانت جميعها تسعى إلى بلورة تيار الوطنية في عمل جماعي .

يحدث أخونا إبراهيم الكتاني أن أول تنظيم للحركة الوطنية انطلق من فاس في بداية العشرينات في اجتماع ثلاثي ضمه إلى جانب علال الفاسي ومحمد غازي وأقسم خلاله الثلاثة على الشروع في تنظيم الحركة الوطنية واستقطاب الأنصار لها .

ويقول الأخ المكي الناصري إنه كان في بداية العشرينات أمين «الرابطة المغربية» التي كانت تضم القيادات الوطنية التي اشتهرت أسماؤها بدءا من الثلاثينات ، وأسست لها خارج الرباط فروعا ببعض مدن المغرب منها فاس وتطوان .

التنظيم بين منطقتي الحماية

أجدني ملزما بفتح قوسين وأنا أنفذ إلى افتكاك لغز منشأ التنظيم الوطني، يدفعني إلى فتحهما خطأ وقع فيه أكثر الذين أرخوا لفترة الكفاح الوطني طيلة عهد الحماية ، - ومن بينها المرحلة التي أتحدث عنها - إذ انصبت جهودهم على التركيز على المنطقة الجنوبية المغربية المشمولة آنذاك بالنفوذ الفرنسي المعروفة بالمنطقة السلطانية أكثر من اهتمامهم بالمنطقة الشمالية المغربية المشمولة بالنفوذ الإسباني المعروفة بالمنطقة الخليفية .

ولقد شكلت هذه النظرة القاصرة إجحافا بحق المنطقة الشمالية، وتركت في نفوس أهلها إلى اليوم حساسيات متجذرة، وفجرت عند بعض المؤرخين المنتمين إليها رد فعل استنكار وتنديد لمنهاجية مؤرخي الجنوب، وأحيانا دفعت بهم في تطرف مماثل لما عابوه على من جهلوا أو تجاهلوا إنصاف كفاح وطنيي منطقة الشمال. وفي محاولة لتصحيح التاريخ - وهو حقهم الطبيعي - لم ينضبطوا ولم يلتزموا بالموضوعية ، فكتبوا أيضا في غلو لم يكن له مبرر، محاولين أن يبرزوا سبق الشمال دائما على حساب الجنوب إلى مبادرات الكفاح الوطني .

وبالنسبة لكل مؤرخ موضوعي لا يمكن إنكار مساهمة القادة الوطنيين في الشمال في توطيد أسس النهضة الوطنية ، وفي الإبقاء على وحدة المغرب رغم سعي الاستعمارين الفرنسي والإسباني إلى فك عروتها. وليس لنا الآن أن نزيد على إثارة هذه النقطة المبدئية ما دمنا نقتصر هنا على معالجة منشأ تنظيم الحركة الوطنية في

المرحلة التي نتحدث عنها . وستكون لنا عودة إلى هذا الموضوع نتوقف عندها لنتعرف ظروف المنطقة الشمالية التي ساعدت كفاح وطنيي الشمال على خوض كفاح سياسي أقل ضراوة من نظيره في الجنوب الذي عانى الصعاب من الحكم الفرنسي، وسنرى كيف تعاملت القيادة الوطنية بتطوان مع الحكم الإسباني مستفيدة من اعتداله.

وحتى لا نحيد عن الموضوع علينا أن نذكر أن الحركة الوطنية بالشمال سبقت أختها بالجنوب إلى خلق تنظيمات سياسية ومؤسسات إصلاحية ساعدتها ظروف المنطقة الشمالية على السبق إليها وإلى إبرازها علنيا للوجود .

بدءا من سنة 1916 فكر قائد وطني تطواني هو الحاج عبد السلام بنونة في الإعلان عن تنظيم سياسي ببرنامج وطني يهدف بكل وضوح إلى المشاركة في حكومة خليفة السلطان ، وهو ما لم يكن في الإمكان تصوره في المنطقة الجنوبية الخاضعة للحماية الفرنسية ، حيث كان علي الحركة الوطنية أن تنتظر إلى سنة 1926 لتؤسس بالرباط تنظيما نواتيا سريا ، وإلى سنة 1931 لتؤسس تنظيما أكبر في ظل السرية كذلك .

أما في مدينة تطوان فقد ساعد اعتدال الاسبان على اندفاع بنونة ورفاقه الوطنيين قبل نهاية العشرينات إلى خلق مؤسسات تربوية، أو تأسيس هيآت علمية، أو مقاولات وطنية صناعية أو تجارية، أو إنشاء أول مطبعة عربية باسم «المطبعة المهدية» أو إصدار صحيفة يومية بالعربية باسم «النهضة »، وأخرى بالاسبانية باسم «لاكازيط دي مرويكوس» (جريدة المغرب). وسنتوقف عند تنظيم سنة 1926 الذي كان مقره الأساسي بالرباط وتنظيم سنة 1931 الذي كان مقره الاساسي بمدينة فاس لشمولهما المنطقتين ، إذ كانت ضمنهما قيادات وطنية من الجنوب والشمال معا، مما يعني أن الحركة الوطنية اعتمدت منذ البداية لم صفها في تخط للحدود الاستعمارية الوهمية التي أرادها الاستعمار حاجزا لتكريس تجزئة المغرب .

... تنظيم 1926

يسجل بزوغ سنة 1926 بوادر سقوط الثورة الريفية ، الشيء الذي دفع بالوطنيين إلى التعجيل بالدخول في طور التنظيم السياسي ، إذ قبل نهاية هذه السنة كان ابن عبد الكريم يستسلم للحكومة الفرنسية في الوقت الذي كان فيه بعض الوطنيين

يلتقون بالرباط يوم ثاني غشت ليؤسسوا النواة الأولى للتنظيم الوطني التي تحدثت عنها وثائق الحركة الوطنية مرة باسم «أنصار الحق» وتارة باسم «أنصار الحقيقة»، وأخرى باسم «حماة الحقيقة» ، وقيل عنها إن اسمها الحقيقي كان «الرابطة المغربية». ولست أدري هل إلى هذه «الرابطة» يشير الشيخ المكي الناصري في حديثه السابق ؟

ويظهر أن الجماعة المؤسسة لهذا التنظيم كانت من تلاميذ ثانوية مولاي يوسف وليسي كورو (Gouraud) بالرباط. وقد تكون وضعت اسمه بالفرنسية واختلفت ترجمته إلى العربية . إننا نجد ضمن مؤسسيه أو العاملين فيه أسماء أصبحت فيما بعد لامعة في ساحة العمل الوطني، كما نقرأ عنه أنه أصبحت له فروع بحكم تنوع الجهات التي ينتمي إليها أعضاؤه، فقد كان فيه من الرباط أحمد بلافريج ، والمكي الناصري، ومحمد حسن الوزاني (وهذا كان يقيم بالرباط تلميذا في ليسي كورو) .وعمر بن عبد الجليل من فاس ، والطيب بنونة من تطوان، وعبد الله كنون من طنجة وغيرهم .

وتشير مصادر حزب الاستقلال التي تؤرخ لهذا التنظيم - دون أن تصرح بذلك جزما - إلى أن الحاج أحمد بلافريج كان يلعب فيه دورا أساسيا، بل نعتته برائد هذه الحركة بالرباط ، وإلى أن مقر اجتماع هذه الخلية السرية كان في «عرصة» (حديقة) محمد جسوس خال أحمد بلافريج التي بنيت فيها فيما بعد مدرسة جسوس الحرة، إلا أن محمد حسن الوزاني الذي تحدث عن مشاركته في هذا التنظيم في مذكراته «حياة وجهاد» أكد أن الجمعية كانت تجتمع مساء يوم الأربعاء وعشية الجمعة من كل أسبوع في مكتبة محمد القباج بشارع القناصل بالرباط ، ولكنه أضاف أن روض القباج بأعلى شارع ضريح مولاي المكي بنفس المدينة كان مقر اجتماع الجمعة، في حين كانت حجرة علوية ملحقة ببيت الحاج محمد جسوس مقر اجتماع الأربعاء . كما أكد أنها كانت تضم في فرعها بفاس علال الفاسي (وهو ما أغفلته مصادر حزب الاستقلال) ، ثم زاد يقول : «ولم يكن للجمعية السرية هذه أي رئيس ولا مسؤول، وحتى الذين تنسب إليهم رئاستها لم يجرؤوا على ادعاء ذلك» .

وكيفما كان الحال ، فإن هذه الجمعية لم تكن سوى نواة تنظيم لا يحتوي التنظيمات السرية الأخرى التي انتشرت في بعض المدن بدون تنسيق للقيام بنشاطات محلية ، فقد كانت هناك تنظيمات في الرباط وسلا وفاس وتطوان ومراكش وغيرها من المدن متنوعة المقاصد إما لمساندة مدرسة حرة ، أو لتنوير الآراء عن خطر الطوائف

والزوايا ، أو للإصلاح الاجتماعي والتوعية الفكرية عن طريق الحركة المسرحية ، أو لتشجيع النشاط الرياضي ، وحتى للتضامن مع فلسطين .وكان بعض الشباب يخط بيده نشرات يضمنها مقالات منقولة عن صحف المشرق العربي تساعد في عملية التوعية . وقد كان علال الفاسي يشرف في فاس في البداية على نشرة محدودة التوزيع من هذا النوع ، وسعيد حجي على مثيلة لها بسلا. وربما عرفت نشرة علال الفاسي تطورا جعل منها نواة مجلة شهرية باسم «أم البنين» كانت كما قال هو عنها في كتابه «الحركات الاستقلالية» ، «تكرر على آلة بولي كوبي» وظلت مع ذلك سرية محدودة الرواج .

الطائفة والزاوية

ومن سنة 1928 وإلى سنة 1932 سنة التفكير في إعداد برنامج وطني باسم «المطالب المغربية» تجمعت حلقات هذه التنظيمات في وحدة كبرى تألفت من قاعدة موسعة أطلق عليها اسم «الطائفة» وقيادة على رأسها باسم «الزاوية» لا يتجاوز أفرادها العشرين ، وفي أسفل القاعدة أنشئت الخلايا الوطنية السرية التي كان يشرف عليها «المسيرون» والتي كانت تعرف باسم الجمعيات .

وكانت الاجتماعات العامة تجري على مستوى الطائفة، بينما كانت الزاوية تمارس القيادة بدون علم الطائفة . وبذلك كانت هذه الجمعية تعمل كما لو كانت حركة جماعية، واحتفظت قيادتها لنفسها بالسرية حتى عن أعضاء الطائفة . أما الجمعيات فقد كانت تحتضن أفواج التلاميذ والطلاب والحرفيين والصناع والعمال ويعمل مسيروها على تحسيس هذه الفئات بخطر الاستعمار وضرورة مناهضته والتهييء لمواجهته، وكانت هذه الجمعيات سرية وتختصر أسماؤها في حروف ورموز. يحدث الأخ أحمد ابن سودة أنه انتمى في أوائل الثلاثينات مع بعض قرنائه إلى جمعية كانت تدعى ج.ج. عبد الكريم أي الجمعية الثالثة لعبد الكريم الخطابي .

والمستغرب أن يختار مؤسسو هذا التنظيم له اسم الطائفة والزاوية . وقد كنا شرحنا فيما سلف ما تعنيه الكلمتان ، وما تهدف إليه الفئتان . وكان الوطنيون يستنكرون وجود الفريقين ويعيبون - كما تفعل السلفية - الرأي العام ضدهما . قد تكون الغاية من وراء انتحال الاسم هو التَقيَّة وتضليل السلطات الحاكمة حتى لا تكتشف حقيقة ذلك التنظيم السياسي ، إذ كانت بعض طبقات الشعب عند تأسيسه

ما تزال موزعة بين أتباع الطوائف وأنصار الزوايا، وكانت الحماية مطمئنة إلى هذه التجمعات، مرتاحة إلى مساعدة بعض رؤسائها وحسن تعاونهم معها، وقد يكون السبب في ذلك هو سعي الوطنيين إلى امتصاص ما بقي من أعضاء الزوايا والطوائف وجلبهم إلى حظيرة التنظيم الوطني الذي يحمل نفس الاسم ترسيخا للثورة الثقافية الصامتة المضادة للزوايا والطوائف التي تحدثنا عنها في ما سبق .

وكيفما كان الحال، فإن الطائفة والزاوية احتضنتا الرعيل الأول للحركة الوطنية ممن ظلوا في القيادات السياسية طيلة وجود كتلة العمل الوطني (التي ستنشأ فيما بعد) وإلى ما بعد انقسامها الى حزبين (الحركة القومية والحزب الوطني).

وكانت «الطائفة» بحكم اتساعها تضم مجموعات ممن تلقوا في المغرب التعليم الأصلي وممن تعلموا في مدارس الحماية، وحتى ممن لم يسبق لهم أن ارتادوا المدرسة من طبقات صغار التجار والصناع والعمال والحرفيين والفلاحين ، بينما كانت الزاوية لا تضم إلا النخبة ، ونعني بها النخبة الفكرية التي أنهت دراستها أو كادت، سواء منها المنتمية إلى التعليم الأصلي في القرويين أو في معاهد عربية أخرى، أو التي تلقت دراستها في معاهد الحماية بالمغرب ، أو درست في المعاهد العليا بباريس، والنخبة المجتمعية التي كان لها رصيد معنوي أو مالي أو شفوف شعبي تسهم به في توطيد الحركة وجلب الانصار وهم بعض كبار التجار والملاكين .

ومن بين الجماعة الأولى كان تيار الأصالة العربية ممثلا بعلال الفاسي، والهاشمي الفيلالي، وعبد العزيز بن إدريس، وبوشتى الجامعي وآخرين من فاس والحاج عبد السلام بنونة ، ومحمد داوود (وهما من تطوان) وآخرين . أما الجماعة الثانية التي تمثل تيار التعليم العصري فكان من بينها محمد حسن الوزاني ، وأحمد بلافريج ، ومحمد اليزيدي ، وعمر بن عبد الجليل، وعبد القادر التازي. وأما الثالثة (وجهاء البلاد) فكان يمثلها بفاس أحمد مكوار الذي تقلد مهمة أمين صندوق كتلة العمل الوطني فالحزب الوطني برئاسة علال الفاسي، كما كان يمثلها محمد السبتي ، وحمزة الطاهري وآخرون . ويظهر أن الوزاني لم يوافق لا على مصطلحي الطائفة والزاوية ولا على تركيب هذا التنظيم وإن كان عضوا فيه ، فقد انتقد اسمه نقدا حارا فيما نشر له من مذكرات ، بل تجاوز ذلك إلى الحديث عنه بازدراء ، واصفا أكثرية أعضاء الطائفة بالأميين وأشباه الأميين، والزاوية التي كان ينتمي هو نفسه إليها بأنها «خليط بشري، وكشكول من العناصر المتفاوتة الاعمار شيوخا وكهولا تجمع بينهم صلات شخصية أو تجارية أو عائلية» .ويضيف : «كانت

تجمع بينهم وبيننا - نحن الشباب - ضرورات العمل الوطني لا غير».

ولا شك أن هذا التقييم إنما طرأ مؤخرا في ذهن المرحوم الوزاني لأنه كان عضوا نشيطا في قيادة الزاوية .

ورغم نقده اللاذع ، فلا ينكر أنه كان لهذا التنظيم نشاط حافل، إذ كان وراء حركات إحياء المدارس، وتنظيم دروس التوعية في المساجد، ومظاهرات الاحتجاج، وتأطير الشباب في النشاطات الاجتماعية ، بل إنه ظل التنظيم الوحيد القار إلى حين إعلان الحركة الوطنية عن تنظيمها السياسي سنة 1934 باسم كتلة العمل الوطني.

ويرى السيد الهاشمي الفيلالي الذي تحدث إلي في هذا الموضوع أن أساس تنظيم العمل الوطني لم يكن يشمل في فترة 1928 - 1932 إلا الزاوية والخلايا السرية، وأن الطائفة لم تنطلق إلا بعد إعلان المرحوم علال الفاسي الحزب الوطني إثر انقسام الكتلة وهو ما يخالف رواية المرحوم محمد الوزاني في كتابه «حياة وجهاد» . كما يخالف ما جاء في صفحة 18 في كتاب الأخ أبو بكر القادري الذي أفرده لسيرة الحاج عمر بن عبد الجليل من أن « الطائفة هي التي أسست جريدة مغرب بباريز » مضيفا أنها « هي الجماعة الوطنية الأولى التي انبثقت عنها الحركات السياسية بالمغرب» .وقد صدر أول عدد من مجلة مغرب في شهر يوليوز (تموز) سنة 1932 . وبصرف النظر عن هذا الاختلاف في موضوع انطلاقة الطائفة فقد اكتمل بهذا التنظيم للحركة الوطنية شق تنظيرها الأول ، وكان عليها أن تنتظر إلى سنة 1933 لتعد الشق الثاني أي برنامج العمل الوطني الذي تمثل في المطالب .

الفصل السابع

المؤامرات الإستعمارية لتمزيق المغرب

تكسير وحدة المغرب

"فرق تسد": هذا المبدأ الذي ارتبط بالاستعمار و اشتهر اشتهار الاستعمار نفسه لم ينج من ويلاته المغرب الذي ظل إلى قبيل الحرب العالمية الأولى القلعة العاتية الوحيدة المواجهة في غرب شمال إفريقيا للاستعمار الدولي .

و كان منطقيا في نطاق سياسة دك المعاقل القائمة عبر العالم في وجه انتشار الاستعمار أن لا يدخر هذا أي جهد في سبيل تكسير وحدة المغرب في جميع المجالات السياسية، و الترابية، و العقدية، و العرقية.

و قد استغرقت محاولة تحطيم هذه الوحدة أزيد من قرن، و تضافرت فيها جهود الدول الاستعمارية الغربية، وجميعها كانت تطمع إما في الاستئثار بالفريسة المغربية و ووراثة تركتها بالفرض و التعصيب، أو في تقاسمها فيما بينها على الأقل إن لم يكن من ذلك بد.

و حقق الاستعمار الدولي بعض ما أراده و خطط له، فقسم ما كان يدعى بالإيالة الشريفة (المغرب) ترابيا إلى مناطق ثلاث : فرنسية، و إسبانية، و دولية، و اختلف التشريع تبعا لذلك بين المنطقة الخاضعة للسلطان، و المنطقة المدمجة تحت نفوذ خليفة السلطان الذي أصبح منفصلا واقعيا عن سلطة السلطان المستقر بعاصمة البلاد، و منطقة طنجة التي كانت تدار بتشريع دولي متعدد الأطراف.

و حتى داخل المنطقة المشمولة بالحماية الفرنسية أقامت هذه حزاما فاصلا بين المدن و الجبال (أو المنطقة المدنية و المنطقة العسكرية)، حيث كان المواطن المغربي في المدن ممنوعا من تجاوز المناطق الحضرية إلى مناطق جبال الأطلس التي أطلق عليها اسم " مناطق عدم الأمن " فخضعت حرية التجول و الانتقال بين المدن و الجبال إلى رخصة سلطات الحماية.

تقسيم المغرب على غرار تقسيم المشرق

و استفاد الاستعمار الفرنسي من تجربة تقسيم المشرق العربي بعد عملية دك معقل الخلافة العثمانية، حيث ظهرت هناك كيانات صغيرة، و من تجربة ممارسات التفرقة العنصرية التي طبقها في الجزائر منذ دخوله إليها سنة 1830 . و استلهم من التجربتين منهاجية تقسيم المغرب الذي كان يتميز بشمولية الوحدة عموديا و أفقيا : شعب واحد لا يشوب وحدته تفرق في العقيدة، و لا يشل تماسك صفه لا تعدد الأقليات الدينية و لا تنوع المذاهب و لا اختلاف الولاء، يخضع في المدن و الجبال لحكومة أحادية السلطة على رأسها سلطان تتم شرعيته بالبيعة، و يحتضن النفوذين الروحي و الزمني.

و هذه ميزة آثر الله بها المغرب في عالمنا العربي، حيث أنقذه من صراع اختلاف المذاهب و تبادل شعور الريبة بين الأقليات الدينية و العرقية، و بالطبع كان الرهان الاستعماري هو شل هذه الوحدة المتراصة.

و بفرض الحماية الفرنسية على وسط المغرب و شرقه و النفوذ الإسباني على شماله و تمزيق صحرائه تم الشوط الأول من مسيرة الاستعمار نحو هدفه بفك عروة الوحدة السياسية الترابية، و كان المخطط يقضي باجتياز شوط آخر بتقسيم المغرب عرقيا و لغويا و حضاريا تمهيدا لإقامة كيان لا يدين بالإسلام و لا ينطق بالعربية داخل القبائل البربرية، بجانب الكيان المغربي العربي الإسلامي الذي يظل - حسب التنظير الاستعماري - خاضعا لحكم " المخزن " (حكومة السلطان)، بينما ينفصل عنه الكيان البربري الذي يلحم بمقومات مخالفة لمقومات الكيان المغربي باسم المحافظة على أعراف البربر و تقاليدهم، و بذلك تصبح " الإيالة الشريفة " التي أشقى فرنسا - طيلة عقود من السنين - هم الاستيلاء عليها مختصرة في كيان صغير هش مقسم إلى شعبين متعارضين حامل في طياته قابلية التبعية للامبراطورية الفرنسية العتيدة.

غـزو حضاري

كان المخطط يندمج في عملية الغزو الحضاري، اذ ان الهدف المباشر العاجل كان التقسيم، أما الهدف الآجل فكان تنحية العروبة و الإسلام من المغرب، و تنصير البربر و توطيد بربريتهم على حساب الوحدة المغربية و الدين الإسلامـــي و تماسك الكيان المغربي الواحد و زرع مشاكل سياسية مفتعلة تعوق المجتمع عن السير في طريق التقدم و النماء، وتسمح للاستعمار برسوخ قدمه و استمرار وجوده فوق الأرض.

و لم يكن ما تقرر تطبيقه في المغرب يختلف عما ظلت فرنسا تجربه على امتداد سنوات في الجزائر داخل منطقة القبائل التي اخترعت لها من الخصوصيات المفرقة ما جعلها تتعامل معها من منظور سياسة فصل عنصرية لم تصل إلى حد محاولة إقامة كيان منفصل - كما كان الشأن في المغرب - لسبب وحيد، هو مراهنة الاستعمار الفرنسي على ابتلاع الكيان الجزائري كله، و اعتباره سياسيا و قانونيا مندمجا بكامل الاختصار في فرنسا الوطن الأب في شكل ثلاث مناطق فرنسية.

و كما في الجزائر، فإن محاولة تقسيم المغرب سبقتها أو واكبتها تنظيرات استعمارية شكلت فلسفة التقسيم، و ألفت أسس ما دعي بالسياسة الفرنسية البربرية . و انطلقت هذه التنظيرات منذ أواخر القرن التاسع عشر من مبدأ مزعوم هو افتراض وجود منطقة داخل المغرب و الجزائر منفصلة متميزة بوجود شعـــب ذي سلالة و عرق و عادات و أعراف و مقومات حضارية، و أطلق الاستعمار على هذه المنطقة اسم بلاد البربر (Berbérie) و اعتبر أن شعبها ينتمي إلى الجنس الآري، و أن له وشائج متينة مع أوربا، و ليس له بالعروبة و الإسلام أية صلة، و بالتالي راهن الاستعمار على استلاب هذا المولود " اليتيم " و مسخه و تبنيه و إدماجه في الكيان الفرنسي في آخر الأمر.

و هكذا دعا بصراحة كودرفروا دومومبين (Gauderfroy Demombynes) إلى تطبيق مبدأ " فرق تسد"، "حتى لا تسمح فرنسا بأن يضيع من نفوذها الشعب البربري المتميز بلغته و مؤسساته "معتبرا" أن التساهل في تطبيق مبدأ التفرقة سيكون خطرا على فرنسا " و لكن أي خطر ؟

... الخطر العربي

لقد أوضح و فصل هذا " الخطر " منظر استعماري فرنسي آخر هو أوجين كارنيي (Eugéne Garnier) عندما تحدث عن الخطر العربي على الاستعمار الأوربي بهذا التنظير الغريب القائم على مسخ التاريخ : " إن العرب الرحل الذين جعلوا الغزو حرفتهم و ربطوا به مصيرهم ما يزال يداعبهم الأمل في غزو أوربا من جديد. و هم يريدون أن ينطلقوا من شمال إفريقيا، و لذلك يعارضون بسط النفوذ الفرنسي على هذا الجزء من إفريقيا، و يناهضون أوربا و العالم الغربي ببثهم الرعب و الإرهاب وشنهم الثورات في مختلف الأرجاء " و يزيد كارنيي قائلا :" إن هؤلاء العرب و من والاهم من أشباه العرب و أدعياء العروبة جاهروا بشعارهم القائل : إن إفريقيا الشمالية منطقة عربية، و أن العروبة تمتد من الخليج إلى المحيط، الشيء الذي يتناقض مع معطيات الجغرافية و إحصائيات السكان، و مع حقائق التاريخ، وبالتالي فهو شعار كاذب ".

و انتهى الى القول :" إذا نظرنا إلى شمال إفريقيا جيولوجيا نجدها لا تنتمي إلى إفريقيا لأنها اقتلعت من عمق البحر الأبيض المتوسط في العهد الثالث من تاريخ الأرض (حوالي سبعين مليون خلت من السنين) و ألصقت على الكتلة المتبلورة . و هذا الحدث الجيولوجي ترك أثره على بلاد البربر، إذ بمقتضاه تكون هذه المنطقة قطعة من البحر الأبيض المتوسط و من الغرب، فإلى أوربا إذن تتوجه أنظارها ".

أما الجنرال بريمون (Brémond) الذي كان ينتمي إلى أكاديمية العلوم الاستعمارية بفرنسا، فقد خصص لانتماء بلاد البربر إلى أوربا كتابا كاملا لخص في عنوانه نظريته هو:" بلاد البربر"، و أنكر في هذا الكتاب أن يكون الفتح الإسلامي العربي قد قدم لإفريقيا أي شيء، معتمدا على ارتباط المغرب خاصة و إفريقيا عامة بأوربا بحكم أن المغرب لا يفصله عن أوربا إلا مضيق جبل طارق، مرسلا العنان لخياله في إيجاد أوجه التشابه، بل الترابط العضوي بين مقومات البربر و عاداتهم و سحناتهم البشرية، و بين ما دعاه بنظيراتها أو مثيلاتها في شعب أوربا .

... استعمال نفوذ الكنيسة

و من منطلق انتماء المغرب المزعوم عامة، و" بلاد البربر"خاصة إلى أوربا كجزء منها استهدف التنظير الاستعماري محاربة العروبة و الإسلام و اجتثاث أصولهما من المغرب. و نظمت الحماية حملة تبشيرية تنصيرية "للشعب البربري" امتدادا لسنة الاستعمار الذي استعمل التبشير المسيحي في التمهيد لنفوذه أو توطيده في جهات إفريقية أو أسيوية ابتليت به قبل المغرب.

و إن كل شيء ليؤكد تاريخياً أن الكنيسة المسيحية بأنواعها الكاثوليكية والبروتيستانتية و الأنجليكانية لعبت دورا أساسيا في تثبيت قدم الاستعمار وساعدت بوسائل تبدو إنسانية في الظاهر على تطويع السكان للاستسلام لنفوذه، وذلك فعلا ما طبق في المغرب بواسطة الإرساليات المسيحية التي سبق بعضها إلى المغرب فيالق جيش الحماية، أو تلك التي استقرت باتفاق مع فرنسا بعد فرضها الحماية في "مناطق عدم الأمن" لتنصير البرابر أو تمسيحهم، و فتحت الحماية لها مراكز بالمدن فضلا عن مراكز الجبال.كما يؤكد التاريخ أن المسيحية فشلت عبر العالم في النهاية في تحقيق أهدافها الكاملة .

و اقتصر نجاحها على ترك بصماتها على أجزاء محدودة داخل بعض المناطق التي ابتليت بالاستعمار.و مرد فشلها إلى ارتباطها بالظاهرة الاستعمارية،حيث اعتبرها الأهالي ديانة طفيلية دخيلة أو مستورده استعمارية و تعاملوا معها على غرار تعاملهم مع الاستعمار نفسه،أي من منظور التحفظ و الريبة و الحذر و حتى الرفض المطلق، بالاضافة إلى أن سعيها لكبت روح التحرر و النضال في الشعوب المستعمرة و تبشيرها بمبادئ الاستسلام لواقع الاستعمار المفروض و نصحها بإدارة الخد دائما لتقبل لطمة ثانية جعل منها ديانة تواكلية و من تعاليمها تعاليم خنـــوع و تثبيط، فكان لابد أن يجرفها تيار التحرر الثوري، و لا كذلك الدين الإسلامي بدعوته التحريريةللفرد و الجماعة، و حثه على الأمر بالمعروف و النهي عن المنكـــر، و مناهضة الاستبداد و الطغيان، و استرخاص الاستشهاد في معركة المصير، مما جعل من الدين الإسلامي أداة لشحذ الثورة و دعم المصابرة ضد الاستعمار، و دافعا لحركات التحرير في البلاد الإسلامية.

و من أجل هذا التناقض الصارخ بين مفهومي الديانتين المسيحية و الإسلامية و تعارض تأثيراتهما رأى الاستعمار في الإسلام عدوه اللدود و خصمه العتيد فراهن في مسيرته على مناهضته و شل حركته و ضرب كياناته.

و كما فعل الاستعمار في الخارج عبأ فوق التراب المغربي إرساليات التبشير و التنصير و عدد مراكزها و مولها لا سيما بين القبائل البربرية و في مناطق الجبال.

و كانت انطلاقة حركة تنصير المسلمين قد ابتدأت في الجزائر المغلوبة على أمرها، حيث أسس بها سنة 1869 الكاردينال لفيجري (Lavigerie) الذي كان يحمل لقب مطران الجزائر جمعية " الآباء البيض "، و أردفها بمؤسسة " الراهبات المبشرات لسيدتنا العذراء "، و ذلك ما طبق في المغرب بدوره منذ فرض الحماية عليه.

المغرب يصرف على تنصير سكانه

و من إحصائيات صدرت عن الوكالة الإرسالية الأسقفية بالرباط بتاريخ فاتح يوليوز (تموز) 1931 يتبين أن الحماية عملت في أقل من عشرين سنة على مساعدة الإرساليات التي جاءت بها إلى المغرب و مكنتها من القيام بدورها الخطير المتمثل في ممارستها لمهمة الطابور الخامس المعبأ لخدمة الرسالة الاستعمارية عن طريق الاستلاب الحضاري، متجاهلة أن المغرب ظل منذ الفتح الإسلامي مشدودا في وحدة متماسكة إلى الإسلام و قيمه الحضارية. و تقول هذه الإحصائيات إن المغرب في التاريخ المشار إليه (1931) أصبح يتوفر على 38 كنيسة، و 17 معبدا مسيحيا و 90 مركزا فرعيا مسيحيا، و 31 مركزا " إنسانيا " ما بين أديرة للعبادة و مستشفيات وصيدليات و حضانات و منابت أيتام، و 90 مركزا أخرى لقطرات الحليب . و كانت ترصد لعمل هذه المؤسسات اعتمادات في ميزانية المغرب تستخلص من المكلفين المواطنين المسلمين (إذ لم يكن يوجد غيرهم) لتصرف على تنصيرهم أو تمسيحهم، وتقدم للسكان في مظهر إحسان منظم دافق بالخير و العطاء يعمل لوجه المسيح و لا يرجو جزاء و لا شكورا.

و ما أزال أذكر كما يذكر جيلي أن مدينة فاس و هي من معاقل الإسلام التاريخية كانت تحتضن في الثلاثينات و الأربعينات مستوصفا يعمل فيه أعوان الكنيسة و دور نقط الحليب موزعة على الأحياء السكنية، و أن الراهبات اللائي كان الاستعمار يلقن العامة التوجه إليهن باسم الاخوات أو الأمهات كن يطفن بالمدينة في

زيهن المسيحي بالزنّار و الصليب للقيام بالإسعاف الأولي، أو لتقديم خدمات طبية بالمجان، مما كان يسمح لهنّ بربط الاتصال بالاسر و البيوت، و يتيح الفرصة للتبشير بالمسيحية بين الأطفال و السذج.

و في عاصمة الرباط أقيمت كنيسة قريبا من جامع السنة على قطعة أرض أوقاف إسلامية في واحد من أهم مراكز المدينة، و بجوار بيت وزير العدل و التعليم المغربي، كانت أجراسها تطغى على أصوات أذان المسجد المجاور لها، إذ كانت منارات المساجد لا تتوفر قبل الاستقلال على مكبرات الصوت .

أما في الجبال فقد كان النشاط الإرسالي مضاعف الجهد مدعوما بسلطة الحماية التي لم يكن عليها رقيب في تلك المناطق النائية المفصولة عن باقي المغرب، و التي لا يوجد فيها كما هو في المدن مواطن مسيحي واحد.

دعوة صريحة لخلق كيان بربري

كان الهدف المصرح به هو إقامة كيان بربري يسهل إدماجه في فرنسا عن طريق فصله عن مقومات العروبة و الإسلام، و أعدت لهذا الغرض سياسة مدروسة كشفت بها سلطات الحماية القناع عن وجهها و تعرى معها مخططها الرهيب في سلسلة من التنظيرات و التطبيقات العملية، كانت بدايتها الشروع في تحوير المنهاج التربوي في قبائل البربر داخل المدرسة، لترسيخ مسخ الفكر البربري و تنشئة جيل مُفَرنَس داخل المنطقة متنكر للعروبة و الإسلام متحمس لقومية مصطنعة مستوحاة من معطيات زائفة .

و من ذلك ما نشره ربيو في كتابه :" الجماعات القضائية البربرية ": «إذا تركنا البرابرة يستعملون اللغة العربية فسيصبحون مسلمين (كذا)، و إذا ما أصبحوا مسلمين فذلك يعني توقف نشر حضارتنا و تعثر الرسالة التي نضطلع بها». و نقرأ في إحدى دوريات إدارة التعليم الموجهة إلى الأطر التربوية الفرنسية:«من الضروري استبعاد حصة التعليم الإسلامي من المدارس البربرية، كمايجب أن يصار إلى كتابة اللهجات البربرية بالحرف اللاتيني».

و كتب الكومندان بول مارتي (Paul Marty) في كتابه" مغرب الغد ": «لا غنى لنا عن استبعاد تعليم الدين الإسلامي من مدارس البربر، و من الواجب علينا تنحية اللغة العربية». و وجه في ختام كتابه هذه النصيحة :«علموا البربر كل شيء ما عدا اللغة العربية و الإسلام».

و في نطاق هذا التنظير الاستعماري الخطر نشأت مجلة فرنسية يختصر عنوانها هدفها، حيث كانت تدعى مجلة " المغرب الكاثوليـــكي".(Le Maroc Catholique) و قد حفلت في الحقبة التي نتحدث عنها بمقالات و أطروحات عن تنصير شمال إفريقيا عامة و المغرب خاصة، و فيها كتب جان كيرو (Jean Guiraud) رئيس مجلة الصليب (La croix) مؤكدا على إدماج البرابرةبتنصيرهم قائلا :

« بفضل مساعدة الإرساليات المسيحية الأخوية، و بفضل المعلمين القبائليين (البرابرة) الذين اعتنقوا المسيحية، فإن توغلنا في بلاد البربر سيتم باسم فرنسا لا باسم سلطان المغرب، إذ سنحتوي هذه البلاد بواسطة المدرسة المسيحية الدينية، لا المدرسة العلمانية»، مما يعني فرنسة البربر على غير الطريقة التربوية الفرنسية الصالحة في نظر هؤلاء المنظرين لأبناء فرنسا الحقيقيين وحدهم.

... و فرنسا الرسمية

و تبنى هذه التنظيرات الاستعمارية المقيم العام الأول للحماية الفرنسية بالمغرب الجنرال ليوطي المسؤول الأول عن تطبيق عقد الحماية الذي التزمت فيه فرنسا باحترام وحدة المغرب و إسلامه و مقومات شعبه، فكتب في إحدى نشراته الدورية التي كان يوجهها لمختلف المسؤولين الفرنسيين من مدنيين و عسكريين :

« إن مصالحنا تأمرنا بأن نطور البرابر خارج نطاق الإسلام. و إن تعريب البربر خطأ جسيم، لأنه يؤول إلى إنشاء حركة إسلامية داخل البربر، و قيام كتلة إسلامية منسجمة داخل المغرب لا تعارضها قوة أخرى . و هذا عمل جنوني، فيجب إذن العدول عن النطق بالعربية في بلاد البربر، لأن العربية أداة لنشر الإسلام، و لذا يجب إحلال الفرنسية محلها و إنشاء مدارس فرنسية بربرية».

و هكذا توالت الدعوات صريحة إلى فصل البربر عن الكيان المغربي و إلى التمهيد إلى ذلك بضرب العرب بالبربر، و تحويل مجموعة من مواطني المغرب إلى عنصر ذي هوية منفصلة عن هويته التاريخية التقليدية، وزرعه في كيان مفتعل قابل عن طريق التنصير للفرنسة فالإدماج .

اعتراف ماسينيون

كان ذلك يجري في أواخر العشرينات ضمن سياسة انكشفت تنظيراتها وتطبيقاتها مع مرور السنين، لكن أحد الفرنسيين الذين ساهموا في القيام بأدوار خفية في الحملة انتظر إلى تاسع مارس (آذار) 1951 ليكتب رسالة يفضح فيها بعض الأسرار التي اكتنفت السياسة التنصيرية الصليبية الفرنسية التي نتحدث عنها هو لويس ماسينيون (Louis Massignon) المعروف بوصفه أستاذا في كوليج دوفرانس ومستشرقا لامعا متخصصا في دراسات التصوف الإسلامي بأبحاثه عن الحلاج وبمعرفته للغة العربية و آدابها، فقد جاءت رسالته المشار إليها الموجهة إلى أحد أقطاب الكنيسة ترفع الستار بعد مرور أربعين سنة عن جانب آخر لهذه الشخصية الفرنسية باعترافه بأنه عمل إرساليا متسترا داخل المغرب و كتب يقول:

«لقد كانت مسألة دعم الفكرة البربرية بالنسبة لي حالة ضمير، سواء من الناحيتين الدينية أو العلمية، إذ أنه طيلة الأربع سنوات المتراوحة بين 1909 و 1913 كان الأب شارل دوفوكو(PERE CHARLES DEFOUCAULD)(1) يلاحقني بالمراسلة والمشافهة لأخصص حياتي بعد مماته للحركة المدعوة بالحركة البربرية التي كانت تسعى لاستبعاد اللغة العربية و تنحية الإسلام من إفريقيتنا (هكذا) الشمالية، و إقامة اللغة الفرنسية و المسيحية بدلهما، حسب مخطط يجري على مرحلتين: الأولى: هي بعث ما دفن من أصول لغة البربر و أعرافهم البدائية و تجديدها، و الثانية احتواء و إدماج العنصر البربري فينا عن طريق تنشئته على لغة فرنسية و دين وقانون مسيحيين " و أضاف في تلك الرسالة :

(1) - الأب شارل دوفوكو (1858 م - 1916) ضابط عسكري تسرب إلى الجزائر و المغرب في زي حبر يهودي ثم أعلن مسيحيته و عمل راهبا لخدمة الاستعمار و مات مقتولا بالصحراء .

"و كجميع الغزاة و المبتدئين تعاطفت جدا مع هذه الأطروحة، و آمنت بضرورة إدماج القبائل البربرية في الكيان الفرنسي المسيحي، و قضيت سنوات من عمري أعمل لما آمنت به قبل أن يتبين لي خطأي إذ أصبحت أومن بأن القبائل الناطقة بالبربرية لا يمكن أن تنسلخ بأي حال عن اللغة العربية التي تربطها بالله"

إن هذه الرسالة غنية بالدلالات تعبق تعابيرها بوخز الشعور بالذنب، و تفيض مع ذلك بالشجاعة الخلقية، و تعني من جملة ما تعنيه أن رابطة الإسلام هي التي حالت في النهاية بين «بلاد البربر» و وقوعها في شبكة الاستلاب الاستعماري، وأن الإسلام هو الذي يحمي اللغة العربية في معركة الغزو الحضاري من أسلحة الدمار الموجهة إليها من كل جانب.

الفصل الثامن

الظهير البربري ... من المقدمات إلى المواجهة

المقدمات الأولى للظهير البربري ظهير 1914

خطت فرنسا خطوتها الأولى على طريق سياسة فصل البربر عن الكيان المغربي عندما انتزع الجنرال ليوطي المقيم العام الفرنسي من سلطان المغرب المولي يوسف في 11 شتنبر (أيلول) 1914 ظهيرا (مرسوما ملكيا) ينص على احترام المغرب الرسمي لما تواضعت عليه قبائل البربر من أعراف، انطلاقا من زعم الحماية الفرنسية تميز هذه القبائل بقوانين عرفية، حرصت على أن تسود وتطبق في المناطق البربرية بدلا من القوانين والتشريعات التي كان يخضع لها البرابرة وسائر المواطنين في المناطق الأخرى . وكان المراد أن تصبح للعرف البربري قوة قانونية، وأن يحل محل القوانين المغربية ولا سيما التشريعات الإسلامية المدنية، وبصفة أخص التشريعات المنطبقة على ما يدعى بالأحوال الشخصية .

وقد مهد هذا الظهير المؤسس لتقنين العرف بمقدمة جاء فيها :

«حيث إن قبائل جديدة تنضم يوما بعد يوم إلى المملكة الشريفة بفضل استتباب الأمن، وحيث إن هذه القبائل من جنس بربري، ولها قوانينها وأعرافها منذ الزمن القديم ولها تمسك قوي بها، وحيث إنه تتعين لصالح رعايانا ولطمأنينة إيالتنا السعيدة رعاية الوضع العرفي الذي يحكم هذه القبائل أصدرنا أمرنا بما يلي» .

وبعد هذه المقدمة تضمن الظهير فصلين : الأول تشريعي يقضي بأن تُحكم وتُنظم قبائل العرف البربري بمقتضى قوانينها وأعرافها الخاصة تحت رقابة السلطات وتظل محكومة ومنظمة كذلك، والثاني تنظيمي يعهد بتطبيق الفصل الأول إلى الصدر الأعظم (الوزير الأول) الذي يصدر قرارات باتفاق مع الكاتب العام للحكومة

الشريفة (1) على أن تعين هذه القرارات شيئا فشيئا وحسب الحاجة :

أولا : القبائل التي تدخل في نطاق العرف البربري.

ثانيا : نصوص القوانين والأنظمة التي تطبق على قبائل العرف البربري .

وهذه انطلاقة كبرى في مجال فصل البربر حققها هذا الظهير «او القانون الإطار» للسياسة البربرية .

مقاومة السلطان

بيد أن حكومة المخزن وعلى رأسها السلطان تحفظت ازاء مقتضيات الظهير المذكور، وأولته على أساس أن المراد باحترام العرف الوارد في الظهير هو الإبقاء على ما لا يتنافى منه مع القوانين المغربية المدنية والجنائية عامة وتشريعات الإسلام خاصة. ولا أدل على ذلك من اصطدام الحماية بمعارضة السلطان مولاي يوسف عندما أصبحت توطد لسياستها بتقديمها لإمضائه مشاريع ظهائر تعكس نواياها . وقد استمرت معارضة السلطان مولاي يوسف هذه طيلة سنوات مهمتي الجنرال ليوطي وخلفه ستيغ، وإلى وفاة السلطان في نونبر (تشرين الثاني) سنة 1927 . وتدليلا على ذلك نثبت هنا الفقرة التالية من الرسالة التي وجهها بتاريخ 13 يونيه (حزيران) 1927 المستشار الفرنسي إلى المقيم العام ستيغ (وقد كان يقود المفاوضة مع السلطان باسم المقيم العام) «إن السلطان يعتبر في المغرب الرئيس الروحي للجماعة الإسلامية، والإمام الحامي للتشريع الإسلامي، فلا يمكنه أن يقبل أن يصدر عنه أي تشريع يهدم القانون الإسلامي، أو يمس بسلطته على مجموع البلاد. وهذه مسألة لا يقبل فيها السلطان تساهلا ولا يجيز لنا فيها معارضة» .

والمعروف أن هذا الموقف قد خلق أزمة توتر بين السلطان والمقيم العام ستيغ، إلى حد أن السلطان اعتبر المقيم العام غير مرغوب فيه ولم يعد يسمح بدخوله للقصر لمقابلته، وطلب من الحكومة الفرنسية سحبه وتعويضه، مما حمل الحكومة الفرنسية على توجيه دعوة رسمية للسلطان لزيارة فرنسا بقصد تحسين العلاقة، لم يلبث السلطان بعد عودته منها أن توفي في ظروف غامضة، إذ يقال إنه عاد من باريس مسموما .

(1) أحدثت الحماية منصب الكاتب العام للحكومة داخل حكومة المخزن وأصبح يمارس مهامه فرنسي يمثل سلطة الحماية

وقبل صدور الظهير المشار إليه أسست الحماية الفرنسية مدرسة اللهجات البربرية، ووكلت إلى أساتذتها الفرنسيين مهمة تركيز اللغة البربرية وتعليمها بوسائل عصرية تمهيدا لإقامة الكيان البربري المنفصل .

وأثناء معارضة السلطان كل تشريع أو تطبيق للسياسة الفرنسية البربرية، لم يتورع المقيم العام عن سن بعض تطبيقات تلك السياسة بمنشورات إدارية كان من بينها قراره بتاريخ 11 شتنبر (أيلول) 1924 بالسماح بتنصير المغاربة المسلمين باسم حرية العبادة .

«الحاج النصراني»

وبعد أربع سنوات من صدور هذا القرار نجحت سلطات الحماية في الحصول على قنص كبير باصطيادها طالبا مغربيا منتميا إلى أسرة مسلمة عريقة في مدينة فاس، أعلنت صحافة الاستعمار عن ارتداده عن الإسلام واعتناقه المسيحية، هو الحاج محمد بن الحاج بنسالم ابن عبد الجليل . وكان شابا لم يبلغ آنذاك الثلاثين من عمره، سبق له أن درس في المدرسة الأولى التي أقامتها فرنسا بفاس قبل فرض حمايتها بأحد أحياء المدينة (درب الهكار)، ثم تابع دراسته بثانوية مولاي إدريس التي أسستها الحماية بفاس، وكان قد حصل على الباكلوريا عندما اتصل به الضابط الفرنسي الكمندان بول مارتي (Paul Marty) المدير السابق لثانوية مولاي ادريس بفاس والذي كان يعمل في إدارة الاستعلامات (المخابرات) الفرنسية، فأغراه واستهواه، وربط الصلة بينه وبين ممثلي الإرسالية الكنسية الكاثوليكية الذين نجحوا في استمالته إليهم وتنصيره، وأسكنوه بكنيسة الرباط مع الرهبان . وسطت سلطة الحماية على هذا الارتداد فجعلت منه أجهزة إعلامها حدث الساعة الأول، وأفاضت في التعليق عليه ذاهبة إلى حد اعتباره مثال قدوة لشباب الأسر البورجوازية المغربية، كي يندمجوا أفرادا وجماعات في الكيان الفرنسي المسيحي الذي يحقق لهم الخلاص ويوفر لشعب المغرب نهضته المفتقدة .

وهكذا أصبح «الحاج المغربي» يحمل على صدره الصليب، ويشخص مكر سلطات الحماية وتجنيها في تنفيذ سياسة تنصير شباب المغرب ولو بلجوئها إلى الوسائل المكيافيلية .

« الفقيد» الحي

لقد هز هذا الحدث أرجاء مدينة فاس بالبعد السياسي الذي أعطته له سلطات الاستعمار،وهزت الصدمة النفسية أسرة ابن عبد الجليل المؤمنة . وكانت ردة فعلها في مستوى الحدث نفسه، فأعلن الوالد أنه يعتبر ولده قد غادر الحياة إلى غير رجعة. وكما كانت العادة في المغرب وضع الوالد على باب منزله «فروض الخشب» التي كان يجلس عليها بباب المنزل المُعَزُّون، (وكانت تؤدي مهمة الإعلان الخارجي عن وجود ميت بالبيت على غرار وضع شارة سوداء على باب بيت الميت عند الأوروبيين) وفتح بيته لتلقي التعازي في الفقيد الذي ظل حيا ولم يدفن .وكان الوالد ينتمي إلى الطريقة التيجانية ويمارس طقوسها بغلو، ولكنه كان أيضا من النساك والمؤمنين المصابرين، وقد خاب أمله في ولده الأكبر هذا، فقد كان إلى سنوات خلت حمله صغيرا صحبة أخيه الحاج عمر إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج، وكان ينتظر أن يُنهي دراسته العليا وهو على طريق الهدي واليقين .

وتقول بعض الشهادات إن الشاب المرتد كان كوالده يتعصب للطريقة التيجانية، وأنه قد يكون وجد تشابها بين بعض طقوسها وطقوس الكنيسة الكاثوليكية، مما يسر له العبور إلى التعاليم الكنسية . ولا يعدو أن يكون هذا التأويل مجرد تخمين، فلا يعرف أن منتسبا إلى التيجانية قد انزلق إلى ما وقع فيه هذا الشاب المتزعزع. وكيفما كان الحال فما حدث من إغراء وتضليل من سلطات الحماية لا يعفيها من مسؤوليتها في التواطؤ مع البعثة الإرسالية، ويؤكد أن نواياها قد توطدت على مواصلة عملية المسخ والاستلاب داخل التراب المغربي من خلال محاولة استغلال الحدث سياسيا وتبشيريا عن طريق الإعلام الذي كان يخضع لتوجيهها .

ردة الفعل

وقد تبرأت الأسرة كلها من فعلة الحاج محمد لما علموا أنه عدو لله. ودخلت مدينة فاس في حداد جماعي لم يتقدم له نظير ولم يتكرر قط .

وأثار هذا الحادث الخطر اهتمام المغاربة بمناورة الاستعمار وسعيه إلى مسخ ذاتية

المغرب، فمنع بعض الآباء أبناءهم من غشيان مدارس الحماية، إذ منها تخرج الشاب ابن عبد الجليل، وحرم بعض الفقهاء التعليم في تلك المدارس التي اعتبروها بؤرة فتنة، وأوقعت ردة الفعل الجماعية سلطات الحماية الفرنسية في مأزق .

وإلى أصدقاؤه مساعيهم لديه كي يعود لدينه خاصة وقد أصبح الطلبة المغاربة بباريس يخشون أن يمنع عليهم آباؤهم موارد العيش لحملهم على العودة للمغرب حتى لا يقعوا فيما وقع فيه ابن عبد الجليل . ومن هذه المساعي زيارة عبد القادر ابن جلون والمدني مكوار - وكانا من اخلص أصدقائه - له بـ «كوبلي» في ضواحي باريس حيث كانت إقامته الأولى في أسرة مسيحية. وكم كانت دهشتهما لتعصبه حيث أخذ يقنعهما بالارتداد عن الإسلام، ولاحظا أنه لم يعد محتفظا بتوازنه، بل تأكد لهما أنه فقد عقله فأبرقا بذلك لمدينة فاس عسى أن تطمئن الأسر وتعتبر الحادث فتنة عقل لافتنة دين .

و لم يتراجع ابن عبد الجليل، وانفصل عن أسرته مغادرا المغرب إلى فرنسا التي استوطنها مراهنا على الاندماج في الكنيسة، والانتماء إلى سلطة الكهنوت، مغيرا اسمه ومرتديا لباس الرهبان، وحاملا دائما على صدره الصليب، وملقبا نفسه بالأب جليل متخذا من الكنيسة بيته ومثواه .

أخذ الأب جليل يكتب ابحاثا ودراسات استفاد في توثيقها من دراسته الأصلية للعربية في مصادرها، وكان معجبا بالغزالي ومشيدا بمنهاجيته، وتعمق في البحث في دراسة الحلاج ومن يقولون بوحدة الوجود وأصبح من المراجع الحية للمقارنة بين الديانات وأبحاث علوم اللاهوت . وهذا المسلم السابق هو الذي أخذ ينطق باسم المسيحية، فقد ألف بالفرنسية كتابا بعنوان «نحن والإسلام» الذي أصدرته دار النشر «سيرف» .

.. ظل وطنيا

ومع ذلك فعندما اشتدت الأزمة المغربية الفرنسية في الخمسينات ونفي الملك محمد الخامس إلى مدغسكر تعاطف مع الحركة الوطنية وقام باتصالات مع الشخصيات الفرنسية المنتمية للكنيسة او المتعاطفة معها لصالح الدعوة للحركة الوطنية. ومن أجل ذلك ربط أخوه الحاج عمر - وهو أحد مؤسسي الحركة الوطنية - صلته به من جديد . وكان ضمن الاتصالات التي أمنها الأب جليل للحركة الوطنية إقناع الكاتب الفرنسي المسيحي المشهور فرانسوا مورياك (François Mauriac) بعدالة

القضية المغربية، وكان هذا العالم الفرنسي مؤثرا في الأوساط الرسمية الفرنسية، بوصفه عضو الأكاديمية الفرنسية، وحامل جائزة نوبل، وربما ظل يكتبه إلى وفاته من مقالات بليغة عرفت في فرنسا باسم « بلوك نوت» .

وعندما كنا ضمن وفد الجبهة المكونة من حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال نقوم في فرنسا سنة 1955 بحملة اتصالات مكثفة لإقناع المسؤولين الفرنسيين بعدالة قضية استقلال المغرب وعودة السلطان، كان رئيس وفد الجبهة المرحوم البكاي على اتصال بالأب جليل، وكان يرافقه في هذه الاتصالات أخونا المرحوم عمر ابن عبد الجليل عضو وفد الجبهة، وكانا يحيطاننا علما بتحركات الراهب المغربي لاستقطاب تأييد الكنيسة لعملنا، وتوج التحرك نحو الكنيسة باستقبالنا في صيف سنة 1955 من الكاردينال رئيس كاتدرائية مدينة ليون الذي أكد لنا تأييده لقضية المغرب وأصدر تصريحا صحفيا بذلك .

هل عاد للإسلام ؟

وبمرور السنين، وبينما استمر الأب جليل يسكن ببيته بالكنيسة في باريس، كان التفكير في الإسلام هاجسه المكنون. وانتهى به المطاف إلى أن أصبح يسر لخاصته أنه لايزال مرتبطا بالإسلام، فقد أكد لي أخونا أبو بكر القادري أمد الله في عمره ما سمعته أيضا من آخرين من أنه عندما قابله بعد استقلال المغرب في جنيف أخرج ابن عبد الجليل من جيبه مصحفا وقال إنه مازال يعود إلى تلاوة القرآن تدبرا واكتشافا لأسراره .

وقد ظل أخوه الحاج عمر - وهو المؤمن الصادق - يتطلع إلى عودته إلى حظيرة الإسلام، وكان يطمع في أن يعيش ليشهد عودة أخيه إلى الحق، وربما كانت الأسرة كلها تنتظر في السبعينات هذا الحدث السعيد، بل نشرت جريدة «العلم» المغربية في أحد أعدادها أن هذا الحدث قد تم، ولكن لم يصدر منه ما يؤكده، فمات علنيا ورسميا منتميا إلى الكنيسة، دون أن يتحقق لأخيه وأسرته ماكانا يطمعان فيه .

الخطوة الحاسمة في السياسة الفرنسية

بعد أقل من سنتين على حادثة الحاج محمد ابن عبد الجليل التي فتحت الأعين على سياسة تنصير المغاربة أخذت أنباء تتسرب في مستهل سنة 1930 إلى الوطنيين

عن إعداد سلطة الحماية الفرنسية تشريعا يرمي إلى فصل قبائل البربر عن الجامعة القومية، ثم لم يلبث أن اكتشف مواطن مغربي حقيقة الأمر . فبعد أن صاغت سلطة الحماية مشروع الظهير البربري في صيغته الفرنسية وأحاطته بسياج من الكتمان أعطته لأحد مترجمي مصالح الإقامة العامة لتعريبه .

عبد اللطيف الصبيحي

كان الشاب عبد اللطيف الصبيحي من سكان مدينة سلا هو ذلك المترجم لتوفره على مؤهلات للاضطلاع بالترجمة إلى اللغة العربية لم يكن يملكها غيره من الموظفين في مصالح الإقامة العامة .

وقد اكتشف المترجم المغربي خطر ذلك التشريع وهالته فصوله، فأثار انتباه أصدقائه الوطنيين بسلا والرباط لخطره . وثارت فيه حميته الوطنية، فأخذ يحض من يلقاه على مناهضة السياسة التي تعتزم فرنسا انتهاجها . وبذلك شاع الخبر عبر المغرب وذاع . وبعد أيام صدر الظهير الذي سبقته بوادر قلق تحولت إثر نشره في الجريدة الرسمية إلى موجات سخط شعبية عارمة واجهتها سلطات الحماية بتدابير قمع نال منها الصبيحي نصيبه بنفيه إلى الجنوب عدة أشهر . وكان أول معتقل بمدينة سلا، وآخر من أطلق سراحه من الوطنيين .

... ووالدته

وفجّر اعتقاله في نفس والدته ثورة لم تهدأ، فقد كانت تستقبل الوطنيين في بيتها لتحريضهم على التظاهر والاحتجاج .

جاء في كتاب «شذرات تاريخية» للمرحوم عبد الله الجراري الذي اعتقل هو أيضا بعد أن خطب في مظاهرة شعبية بالمسجد الأعظم بالرباط : «وذهبنا كتلة إلى بيت السيدة والدة عبد اللطيف الصبيحي فاستقبلتنا وهي متحجبة، وجعلت تتحدث معنا ناثرة كلمات وعظية مؤثرة ذرفت منها العيون قائلة : إخواني اعلموا أن ابني عبد اللطيف ما كان ليؤثر علي فراقه وإبعاده، بل ما كان حتى موته لينال من نفسي لو حدث، لاعتقادي أنكم جميعا أولادي، فينبغي أن تسيروا قدما إلى الأمام إذ ليس لكم في الإقدام إلا العز والشـــرف، ولا يردنـــكم لوم اللائمين أو تثبيط الجبناء» .

وهكذا برز اسم عبد اللطيف الصبيحي واقترن بالظهير البربري . ومنذ أن ثار على هذا الظهير لم تهدأ له ثورة، فقد ظل سائر عمره أمة وحده، يستنكر في غير تستر ولا التواء ما لا يرتضيه من السياسات والمواقف، ويجابه المجتمع بما يعتبره السلوك الأمثل وإن صدم، ولا يهمه أن يثور غدا على ما آمن به ودعا له أمس طالما كان الموقف الحاضر في رأيه أغنى وأفيد .

وبذلك كان عند الكثيرين ممن صحبوه لغزا معقدا، بينما عرفت ثلة من أصدقائه المقربين إليه ما كان يحتضنه صدره من سماحة ونبل، فغفرت له تغير المزاج، وعاملته بما كان أهلا له من تقدير، فكافأها بدوره على ذلك ودا وإخلاصا ووفاء .

وقد قدر لي أن أتصل به عن قرب في الرباط عندما قدمت إليها من فاس في أكتوبر (تشرين الأول) سنة 1943 وأصبحت ضمن أساتذة الأمير مولاي الحسن (ملك المغرب) بالمعهد الملكي فتعاطفنا، لأني كنت ممن استشفوا فيه كامن سجاياه وتفهموا طبعه . كنت ألتقي في بيته مع جماعة من الرفاق من بينهم من لبوا داعي الله كالإخوة محمد بن العباس القباج، وعبد الكريم ابن جلون، والحاج محمد باحنيني. ومنهم من لازالوا على قيد الحياة أمد الله في عمرهم، ومن بينهم الأخوان عبد الرحمن الفاسي زميلي في أكاديمية المملكة المغربية ومحمد ملين رئيس حركة الأحرار المستقلين شافاه الله .

عاش عبد اللطيف الثائر مستقلا في غير أنانية، وكان حسب اقتناعه ينسجم أحيانا مع مواقف حزب الاستقلال، وأخرى يؤيد حزب الشورى والاستقلال، وأحيانا يتعاطف مع «حركة الأحرار المستقلين» دون أن ينضم قط إلى أية حركة أو حزب. وكان تارة يندد بالاعتدال وأخرى ينتقد التطرف، ثم لا يلبث أن يميل إلى الواقعية أحيانا أخرى دون أن تبعده هاته البلهوانية عن المبدأ المقصود والهدف المنشود .

وقد أصدر باللغة الفرنسية بموارده المالية الخاصة جريدة «العمل» بالعربية والفرنسية و جريدة «الصوت الوطني» (La voix nationale) وكتب فيها لفترة طويلة - وإن كانت متقطعة - مقالاته الصريحة بأسلوبه الأكاديمي الرفيع الذي لم يكن في متناول كثير من الكتاب حتى الفرنسيين، وشن حربا بلا هوادة على الشيوعية وفضح - كما قال - «وجهها البشع» .

وآمن بعد هزيمة فرنسا في الجولة الأولى من الحرب العالمية الثانية بأن الحماية الفرنسية قد لفظت أنفاسها، وأن الولايات المتحدة الأمريكية التي أنقذت الحلفاء الغربيين من خطر النازية هي التي تمسك وحدها بمفتاح حل قضية المغرب، وأن

الرئيس روزفلت قد شق الطريق إلى تحقيق أمنية الاستقلال للشعوب المستعمرة بإعلانه الحريات الأربع، وللمغرب خاصة باجتماعه بسلطان المغرب سيدي محمد بن يوسف بأوطيل آنفا بالدار البيضاء، وظل لمدة أشهر يذرع كل يوم ممرات الشارع الرئيسي بعاصمة الرباط أو يلتقي بمقهى «باليما» بالعديد من الشباب والأطر النخبوية لإقناعها بالتكتل حول صداقة الولايات المتحدة الأمريكية داخل جمعية أسسها واستقطب لها الأعضاء ودعاها «نادي روزفلت» لم يكتب لها أن عمرت طويلا .

ولقد كان في تبشيره بهذا النادي ينطق باسمه نطقا إنجليزياً أكاديميا يصبح معه اسم كلوب منحرفا إلى كْلاب، وكان كلما قال نحن كلاب (بتسكين الكاف) روزفلت تندر به خصومه السياسيون قائلين إنه وأنصاره أصبحوا كلاب (بكسر الكاف) روزفلت (باللغة العربية) وأن دعوتهم لن تتجاوز النباح .

لكنه ظل في لجة الانتقادات والإشاعات المضادة لحركته يطوف المدينة مبشرا داعيا فاتحا ذراعيه لاحتضان معارضيه، مشيعا على شفتيه - كعادته - ابتسامة الرضى . منصتا بتقدير لكل انتقاد، متقبلا بتفتح حتى الازدراء والتهجمات، رادا عليها بقوله في سخرية تنفذ إلى القلب وتشرح الصدر وتنفس من اختناق جو الحوار: «نعم : أنا متفق معك على ما تقوله عن السيد عبد اللطيف : إنه نذل وساقط ولا يصلح . أليس كذلك ؟ لكنه يا أخي هو الذي له الحق فيما يقول، وستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا» .

كان حريصا على تقليد الأسر الأرستوقراطية الأوربية في مظاهر أناقتها يحلو له أن يرتدي «السموكينغ»، ويلبس في بعض المناسبات «الريدانكوت» وإن لم يكن له وسائل عيش الأرستوقراطيين، بل مر بحقب كان فيها بادي الأنفاض خاوي الوفاض، دون أن يعلن عن ذلك او يسر للخاصة شكواه . ورشحه لباسه الديبلوماسي الأنيق - من بين مرشحاته - لممارسة الدبلوماسية في فجر الاستقلال، فقلده محمد الخامس منصب سفير بأمريكا الجنوبية، وبالدول السكندينافية وبساحل العاج . عاش أعزب، فجعل من ابنته «فايزة» السفيرة المرافقة له، وكاتبته الخاصة، مبديا دائما إعجابه بها وعطفه الأبوي الحدوب عليها. وظل طول عمره ثورة لم تنطفئ، منذ أن أشعل فتيلتها اكتشافه الظهير البربري إلى لحظة وفاته، ومات غريبا كما عاش بصراحته وجرأته غريبا .

الظهير البربري الذي أطلق شرارة المواجهة

انكشفت سياسة فرنسا البربرية بانكشاف سر الظهير (المرسوم الملكي) البربري فنشر في العدد 919 من الجريدة الرسمية .

إنه ظهير7 ذي الحجة عام 1348 الموافق 16 مايو (آذار) سنة 1930 الذي ينسبه الفرنسيون إلى السلطان محمد بن يوسف رحمة الله عليه، في حين لاشيء يؤكد أنه أمضاه، وقد يكون انتزع منه انتزاعا بعد أن فشل المقيم العام الفرنسي في استصداره من والده المرحوم مولاي يوسف .

وعلى كل حال، فقد صدر هذا الظهير في ظروف غامضة، وفي ظل ضغوط تفسرها ظروف وفاة مولاي يوسف الغامضة كذلك .

وما من شك في أن البطانة الوزارية التي كانت بجانب السلطان هي التي تتحمل وزر هذا الظهير، فالسلطان الشاب كان عندئذ يناهز الحادية والعشرين من عمره فقط .

المقري لا السلطان

ويقول مؤرخ عاش هذه الفترة هو المرحوم عبد الله الجراري في كتابه : «شذرات تاريخية» إن الإدارة الفرنسية هي التي نظمت مواد الظهير ثم دفعته إلى رئيس الوزارة محمد المقري، وهذا بدوره جاء إلى دار المخزن (قصر السلطان حيث تعمل الحكومة) ودعا كاتب سره، وكلفه أن يسجل الظهير على عجل في دفتر الصدارة العظمى (مكاتب رئيس الوزراء)، ثم قدمه الكاتب إليه فذيله بطابع الجناب الشريف (ختم السلطان) الذي كان تحت يده لأن صاحب العرش كان تحت الوصاية منذ وفاة والده .»

وبهذا لا يعود أي التباس بشأن المناورة التي دبرتها البطانة على السلطان نفسه الذي كان بجانبه مجلس وصاية غير معلن عنه رسميا يعمل باسمه ويمارس اختصاصاته .

لقد تبين أن هذا التشريع الصادر في هذه الظروف المشبوهة بالغ الخطورة، إذ نص الفصل الأول منه على « تجريد المحاكم المغربية من اختصاص النظر في نزاعات

القبائل البربرية والعهد بها إلى مؤسسات قضائية بربرية مؤلفة من رؤساء القبائل تحكم بمقتضى الأعراف غير المدونة»، بينما جاء في الفصل السادس منه أن «المحاكم الفرنسية تختص في قضاء الجنايات المرتكبة في المناطق البربرية كيفما كانت وضعية مرتكب الجريمة» .

والفصلان يعنيان أن السياسة الفرنسية البربرية اجتازت بهذا التشريع مرحلتين خطرتين: تأسيس قضاء عرفي بربري مستقل عن القضاء المغربي وسلطة السلطان، وإخضاع جزء من التراب المغربي (المنطقة البربرية) للقضاء الفرنسي. وقد ظل الوطنيون يعتبرون أن الفصل السادس أخطر فصول هذا الظهير لأنه تحقيق لحلم فرنسا في بسط ازدواجية السيادة على المغرب، وهو ما ينأى عن نص عقد الحماية وروحها .

وجاء الفصل الأول من الظهير يحيل في عموميته على القضاء العرفي اختصاص النظر في الأحوال الشخصية للبربر من نكاح وطلاق ووصية وميراث مع أن الشرع الإسلامي حدد أحكامها التي كان العديد من البرابرة المسلمين يطبقونها باقتناع وإيمان . وبذلك يكون تطبيق الظهير شروعا في تنحية الإسلام من المناطق البربرية، ومنطلقا لزحزحة البربر عن دينهم الذي اعتنقوه عن طواعية منذ الفتح الإسلامي، وخرقا صريحا لمقتضيات عقد الحماية الذي تعهدت فيه فرنسا باحترام وحدة المغرب تحت سيادة السلطان، وبصيانة الدين الإسلامي ومقومات المغرب التاريخية على مدى التراب المغربي بسهوله وجباله .

فرنسة وتمسيح

لم يكن مبالغا فيه إذن أن يطلق الوطنيون في وجه هذه السياسة الخطرة شعار: «السياسة الفرنسية البربرية فرنسة وتمسيح»، وبخاصة لأن الكنيسة الكاثوليكية لم تتورع عن الدعوة جهارا إلى تنصير البربر على لسان ممثل البابا في الرباط، وعلى صفحات جريدة «المغرب الكاثوليكي» التي يعرب اسمها وحده عن خطتها .

وقد تبدت هذه السياسة أوضح ما تكون في تطبيقات الظهير كما مارسها أعوان الحماية، فتعمم بين القبائل نظام الجماعات البربرية بخلق وحدات جديدة، وأصبحت اللغة الفرنسية لغة المحاكم البربرية بدلا عن العربية التي حرم استعمالها في محاضر المحاكم، وأحييت أعراف قديمة انقرضت، ووضع بجانب رؤساء القبائل

فرنسيون متخصصون في الأعراف البربرية، ودونت هذه الأعراف في سجلات ومدونات باللغة الفرنسية .

وبهذه الغلطة السياسية الفادحة التي ارتكبتها الحماية توحدت صفوف الحركة الوطنية حول العمل الوطني المشترك بالأسلوب الموحد، والتقى في ذلك شباب جامعة القرويين مع طلبة المعاهد الفرنسية وخريجيها، فما دام الفرنسيون قد اختاروا محاربة الإسلام بالسياسة البربرية، فإن الوطنيين اختاروا محاربة السياسة البربرية بالإسلام جزاء وفاقا .

حركة اللطيف

قررت عناصر «الزاوية» و« الطائفة» أن تخرج من عهد السرية وأن تخوض ضد الحماية امتحانا عسيرا، وبدأت بذلك بين الطرفين تجربة المواجهة، أو اختبار القوة .

ومن مدينة سلا انطلقت المظاهرة الوطنية الأولى ضد السياسة البربرية، ربما لأنها كانت موطن عبد اللطيف الصبيحي الذي فضح سر الظهير ووعّى سكان المدينة بخطره. وتحدد أسلوب التظاهر في اللجوء إلى المساجد لقراءة اللطيف (أحد أسماء الله الحسنى) جهرا بصوت واحد يجلجل الأسماع ويهز القلوب والمشاعر، استنجادا به سبحانه أن يلطف بعباده فيما حل بهم من بلاء .

ولا يلجأ عادة إلى هذا الذكر بهذه الصفة إلا عند حلول النكبات الكبرى. وكان يتخلل ذكر اللطيف هذا الدعاء الذي خلقته المناسبة : «اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير، وأن لا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر ".

عمت الحركة مدن المغرب مدة شهر. ومن سلا شملت مدن الرباط وفاس والدار البيضاء ومراكش . وكان يوم الجمعة من كل أسبوع اليوم المشهود الذي يحتشد فيه المؤمنون للصلاة، فتهتز أرجاء المساجد لترديد آلاف المصلين اسم الله اللطيف في إيقاع مجلجل، وتتراص الصفوف إيذانا بالإستعداد للتضحية إلى الاستشهاد . ثم تجاوزت حركة اللطيف المساجد إلى سطوح الدور، حيث كان السكان يجتمعون رجالا ونساء وأطفالا للجهر بذكر اللطيف لا ينقطع لهم صوت آناء النهار وطرفا من الليل . وكان لهول الموقف أثره البالغ في توحيد مظاهرات الوطنيين بالشمال مع مظاهرات وطنيي الجنوب لأول مرة، فقد انتظم بالمسجد الأعظم بتطوان اجتماع شعبي ردد فيه اسم اللطيف مما جعل السيد التهامي الوزاني أحد زعماء الشمال يكتب «أن المنطقة الشمالية تضامنت مع أختها بقراءة اللطيف في المساجد» .

وقد أضاف زعماء الحركة الوطنية بالشمال إلى قراءة اللطيف مقاطعة البضائع الفرنسية، وبعث برقيات احتجاج إلى المقيم العام الفرنسي بالرباط، وإلى وزارة الخارجية الفرنسية بباريس. وكان ذلك أول تجاوز للحدود الوهمية القائمة بين المنطقتين على صعيد وحدة العمل الوطني المشترك .

« مدفع اللطيف »

وفي هذه الأثناء حلا لبعض المسؤولين الفرنسيين بالرباط ان ينحدروا - وهم مشدوهون - إلى منحدر الهزء والاستخفاف بما يجري، فطرحوا السؤال التالي على أعوان المخزن الذين ألفتوا نظرهم إلى هول رد الفعل الديني الذي عم الجماهير: وماهو عمل «مدفع اللطيف» الذي اخترعه الوطنيون لاستعماله ضدنا في هذه الحرب؟ وإلى «أين يبلغ مداه ؟». وظل الفرنسيون يتندرون على سيل النكتة بمدفع اللطيف فلم يلبثوا أن تبين لهم أنه مدفع من نوع خاص أقوى من المدافع المتطورة، لا تحسب قوته بمدى مكاني، ولا ينحصر مفعوله في ظرف زماني، ولا يقاوم او يعطل بمدفع مضاد، إذ منذ الطلقة الأولى لـ «مدفع اللطيف» لم تنقطع ثورة المغرب طيلة ربع قرن ولم تنته إلا بالاستقلال التام والجلاء الكامل .

وبعد ماتم احتلال باريس خلال الحرب العالمية الثانية - بعد قصفها - من المانيا النازية بعث أحد علماء فاس رسالة إلى مسؤول فرنسي سام يقول فيها ردا على سخرية رجال الحماية : «هاهي قذفات مدفع اللطيف التي انطلقت من مساجد فاس سنة 1930 قد وصلت إلى باريس فاعتبروا» .

قمح شيرس

من المساجد إلى الشوارع أخذت الحركة شكل التظاهر الجماهيري الذي سار مسيرته في فاس إلى منزل رئيس المجلس العلمي لجامعة القرويين الشيخ احمد بن الجيلالي لحمله على إعلان تضامن العلماء مع الشعب ضد باطل السياسة البربرية، قياما بواجب حماية الدين المهدد، فالأمر أصبح جدا، والواقع لم يعد يقبل التهاون به أو السكوت عنه . وإذا كان شيخ جامع القرويين لم يستجب لنداء الجماهير فإن بعض العلماء استجابوا فتضامنوا وتظاهروا، وفجروا حماس الجماهير التي ازدادت

على فرنسا سخطا وهي تشاهد علماء المدن الكبرى سائرين في المظاهرات او مقودين من أعوان الحماية إلى السجون .

لقد ردت الحماية الفرنسية بقمع شرس، فزجت بالوطنيين إلى السجون، وأبعدت البعض من مساقط رؤوسهم، وعرف سجن القطانين بفاس كما عرف سجن العلو بالرباط وسائر سجون المغرب زيارة الوطنيين له لأول مرة. وكان من بين معتقلي مدينة فاس ونزولاء سجن القطانين زعيما الحركة الوطنية علال الفاسي، ومحمد حسن الوزاني وآخرون .

أتذكر - وقد كنت في هذه الحقبة في السادسة من عمري - أن أخي الأكبر عاد إلى البيت بادي الانفعال ليعلن أن خالي عبد العزيز كان بين المعتقلين المحكوم عليهم بالسجن شهراً، لأنه كان ضمن من قرأوا اللطيف وتظاهروا، وأنه يوجد ضمن الوطنيين بسجن القطانين .و ما أزال أحتفظ في ذاكرتي بصورة مضببة عن هذا الحادث، إذ كل ما أعيه أن البيت تحول فجأة إلى جو مأتم لم تكن والدتي تتلقى فيه التعازي، ولكن كانت تُعَزّى من لدن الجميع بحثها على الصبر والتحمل .

عام اللطيف

ودخلت حركة اللطيف في التاريخ، وانضاف التأريخ بعامها - الذي يدعى عام اللطيف - إلى سلسلة الأعوام المرموقة التي تتميز بأحداث هامة، ويجري المغرب في ذلك على الطريقة العربية التقليدية التي كانت تنسب إلى بعض الأعوام ما يبرز فيها من أحداث لاتنسى، كعام الطوفان، وعام المجاعة، وعام القحط، وعام الفيل، وكان المغاربة يؤرخون بعام الثلج، أو عام الجراد . وهذه الظاهرة موجودة حتى في الصين، ولأن سنة (1988) تميزت بفيضانات وجفاف وقحط، فإنها تدعى هناك بعام التنّين .

... وجلد بدائي إقطاعي

كانت سلطات الحماية تعهد بمحاكمة الوطنيين إلى سلطة المخزن الضالعة معها أو الطيعة مسلوبة الإرادة من باشوات وخلفاء وقواد. واقترن في مدينة فاس اسم باشاها محمد بن بوشتة ابن البغدادي بالظهير البربري . فقد تولى هذا العميل إصدار الأحكام النافذة على الوطنيين وخص بعضهم بمعاملة مفضلة، حيث جلدهم

بالسياط، وكان عددهم يصل إلى الثلاثين، وكان من بينهم محمد بن الحسن الوزاني، وعبد العزيز بن إدريس، والهاشمي الفيلالي، ومحمد الصفريوي، وإبراهيم الوزاني. وكان الأول قد عاد من باريس حيث أتم دراسته وهو يحمل شهادة العلوم السياسية ودبلوم الصحافة، بينما كان الآخرون قد أنهى بعضهم دراسته بجامع القرويين، والبعض على مقربة من التخرج منها.. وكانوا ضمن علماء الشباب الذين قادوا الحركة الوطنية ونشروا دروس توعية الجماهير برسالتها. وقد وصف الزعيم الوزاني مراسيم الجلد بالسياط في مذكراته «حياة وجهاد» التي نشرت بعد وفاته، وكانت عملية الجلد تجري «بداربوعلى» مقر ادارة الباشا، واستعملت فيها الفلقة والسياط، وهو جلد مفتول مبلل بالماء توجع ضرباته أقدام المحمَّلين (أي الموثقين) المشدودة إلى العصا الخشبية المدعوة « بالفلقة»، بحيث لا يستطيع الموثق أن يتململ، ولا يخطئ السياط مطلقا مواقع الأقدام.

لقد كان الباشا- عندما يقرر إقامة هذا " الحد" - يصيح في أعوانه : «احضروا الماعون» فترتفع أصوات زبانيته " المخازنية " بالاعلان عن الامتثال و الطاعة. ويحمل الأعوان الضحية ليوثقوا رجليها داخل الفلقة، و يمسك عونان آخران بيدي المعذب حتى لا يبقى لهما حراك، فينطلق الجلاد يتبع الضربة أختها في إيقاع موزون.

و كان الباشا يشرف على سير العملية و هو يمسك بسبحته و يحرك حباتها كما لو كان يذكر الله، أو أنه كان فعلا يردد الذكر دون وعي حتى لينطبق عليه قول الشاعر القديم :

هو كالجزار فينا يذكر الله و يذبح

أو ربما كان يحسب على السبحة عدد الضربات حتى يتأكد من بلوغ النصاب المحدد.

و يستمر إيقاع الضرب الموجع، و الأعوان يصيحون في وجه المجلود قل :

«إني تائب إلى الله»، فإذا استجاب لذلك أو قرر الباشا بسلطته التقديرية إيقاف السياط أعلن للجلاد : «العفْو» و لكن إذا ما جرؤ المجلود على النبس بكلمة السخط أو الاحتجاج أمر الباشا بشده إلى الجلد مرة أخرى زجرا له و تأديبا.

لقد تجرأ ابراهيم الوزاني أحد المجلودين - و كان معروفا بالجرأة و العناد - على إطلاق صرخات الاحتجاج فضوعف له العذاب ضعفين حتى فقد القدرة على النطق. وشاء له حظه التعس فيما بعد أن يحرر يوم الذكرى الثانية للظهير البربري (16 مايو 1932) منشورا وزعه في شوارع مدينة فاس للاحتجاج على الظهير البربري، فاعتقل

في حالة التلبس، و أسلِم إلى باشا فاس الجلاد فتفنن هذه المرة في تعذيبه و إيلامه باعتباره من ذوي السوابق، إذ أبقاه تحت الجلد و الضرب المبرح مدة ساعة و نصف الساعة، و أدمى وجهه وشج رأسه، و حصر في ألف جلدة بالتمام و الكمال "حده الشرعي " بدون استناد إلى قانون مكتوب أو عرفي، و تكررت عملية جلد الضحية هذه طيلة يومين.

و مما جاء في منشور ابراهيم الوزاني :

" فلنذكر هذا اليوم و لنجعله عيدا لنا و ذكرى من أعظم الذكريات الخالدة، ولكن لا لنقيم فيه الأفراح، بل لنجعله مبدأ نهضتنا، ننطلق منه في طريقنا إلى الجهاد. إن قوتنا فوق كل قوة، لأنها قوة الحق، و الحق يعلو و لا يعلى عليه، قوة لا تعتمد على المدافع و الطيارات و الغازات، و لكن تعتمد على الواحد القهار الذي قال:« إن تنصروا الله ينصركم و يثبت أقدامكم». فالعمل العمل و النضال النضال ! فالحق يؤخذ و لا يعطى، و لا تيأسوا من روح الله».

... رد الفعل في فرنسا

و انتشر خبر مأساة إبراهيم الوزاني في فرنسا بعد أن بعث الوطنيون إلى حكومتها بباريس سيولا من البرقيات الصارخة بالاحتجاج المطالبة بإجراء تحقيق في التدابير الوحشية الفظيعة التي استهدف لها هذا الوطني الصابر. و تصدت للتعليق على الحدث و التنديد به صحافة فرنسا التقدمية، و لا سيما جريدة «مغرب» التي أسسها الوطنيون المغاربة - كما سنرى فيما بعد- باتفاق مع روبير جان لونكي(Robert Jean Longuet) و جاء في افتتاحيتها بعنوان :"حضارتنا": «إن تصرفات فظيعة يرتكبها في المغرب ممثلو فرنسا، و تستهدف لها خاصة فاس العاصمة المغربية العلمية السياسية الدينية، و تلك التصرفات التي نطلع عليها قراءنا ستمكنهم من الحكم على ما يجرى في المغرب من مصادرة للحريات في عهد المقيم السيد لوسيان سان.

...عملية الجلد

و قد كانت تجري عملية التعذيب بالجلد أيضا في مدينة مراكش التي أقيم على رأسها حكم مغربي إقطاعي لخدمة الاستعمار أفظع من حكم باشا فاس . و سواء في

فاس أو مراكش فقد كانت تباشر عملية الجلد تحت بصر ممثلي الحماية الفرنسية ومباركتهم ممن كانوا يسمون بالمراقبين المدنيين، حيث كانوا يحضرون بجانب الباشوات و القواد للتملي بهذا المشهد «الفلكلوري» البديع الذي يذكر بعهد الإقطاع البائد، مما يجعلهم بذلك مراقبين متوحشين .

و في عملية جلد الوطنيين بفاس التي نتحدث عنها كان يحضر بجانب ذلك الباشا الجلاد المراقب المدني شانكوني (Chancogne) الذي اشتهر في فاس و الدار البيضاء بروحه الاستعمارية المعادية للمغاربة عامة و كراهيته لأهل فاس خاصة. و ذكرت جريدة موند (Monde) المطلعة أن عملية الجلد و التعذيب تمت بتحريض من الكمندان الفرنسي ترانكيي (Trinquier).

أليس من المتناقضات أن يبارك هذا النوع من القمع و التعذيب ممثلو ثورة 1789 و إعلان حقوق الإنسان و المواطن ؟

و لقد أثارت تصرفات الباشا الوحشية ثائرة الشعراء المغاربة فخلد بعضهم هذا الحدث الفظيع منددا بمرتكبه. و من ذلك ما جاء على لسان شاعر الحمراء (مدينة مراكش) المغربي محمد ابن ابراهيم :

يسوس بفاس من بنيه كرامهم يقلبهم بطنا و يجلدهم ظهرا
أسِجْنٌ و ضرب مؤلم وإهانة وزجرو تعذيب وما اقترفوا وزرا ؟

و في البرنامج الذي نشرته الحركة الوطنية و قدمته سنة 1934 للسلطات المغربية و الفرنسية باسم «مطالب الشعب المغربي» جاءت الإشارة إلى عملية الجلد والتعذيب هذه في الباب الثاني المعنون بالحريات الشخصية و العامة الذي احتوى المطلب رقم 5 الداعي إلى «إبطال الضرب بالسياط و التعذيب بأية آلة من الآلات»

الوزاني و الفاسي

يذكر محمد ابن الحسن الوزاني في مذكراته «حياة و جهاد» أنه هو الذي قاد مظاهرة فاس التي قمعتها السلطة المحلية و ساقت على إثرها إلى الجلد بعض القادة الوطنيين و هو في طليعتهم. و يلح على القول إن علال الفاسي لم يكن بين المجلودين و لا من المتظاهرين و إن كان ضمن معتقلي سجن القطانين . و يعطى لهذه الجزئية اهتماما كبيرا، حيث كان شائعا أن الزعيمين قد جلدا. و يحيل الوزاني قراء على

كتاب «الحركات الاستقلالية» لعلال الفاسي الذي جاء فيه في الصفحة 145:«ولما وصل المتظاهرون لدار شيخ المدينة عمدت إليهم السلطة فاعتقلت منهم خمسة وعشرين شابا جلدتهم بالسياط، من بينهم أصدقائي عبد العزيز ابن ادريس، والهاشمي الفيلالي، و محمد الوزاني. و في مساء اليوم بعثت السلطة فاعتقلتني».

ويعلق الوزاني على علال الفاسي بقوله : «و هذا كلام واضح في الموضوع، وغني عن التعليق».

و عبد الله الجراري يصحح

و في نطاق تصحيح الحقائق فإن وطنيا آخر هو المرحوم عبد الله الجراري الذي لم يلمع اسمه بين كبار الوطنيين مع انه ابتلي بالسجن بعد أن خطب في مظاهرة الرباط في حركة اللطيف، حرص على أن يكتب في كتابه " شذرات تاريخية " ما يلي: «لابد لي من أن أقول كلمة لا يسمح التاريخ بإغفالها، ذلك أن أخانا المرحوم الأستاذ علال الفاسي عندما تعرض في كتابه للقضية البربرية وأورد عدة أسماء (من الذين عملوا في حركة المظاهرات) لم يعرج على ذكر الجراري (يعني نفسه الذي كان في حركة الظهير البربري خطيبا و سجينا"، و أضاف :

«و لست أريد أن يسجل اسمي أو يذكر كتبجح و ظهور في ميدان العمل الذي يجب أن يكون صامتا، بل الغاية المتوخاة من ذلك أولا و قبل كل شيء خدمة التاريخ و تقديمه للأجيال الصاعدة صادقا خاليا من التعثرات و الالتباس و غمط العاملين.و إني لا أتهم الأستاذ علال بتعمد الإغفال، مادام الإنسان معرضا للغفلة و النسيان، و الكمال لله».

المغرب في أعقاب صدور الظهير البربري

إنه لغريب أن يقيم ممثلو فرنسا بالمغرب حكم طاغية أمي على مدينة فاس عاصمة المغرب العلمية، و أن يأمروه بالتحكم في رقاب علمائها و مثقفيها و طلائع نخبتها التي تخرجت من معاهد باريس بشدهم إلى الفلقة و جلدهم بالسياط، و أن يجري كل ذلك و فرنسا تعلن أن مهمتها في المغرب حضارية تمدينية.

فأي منطق هذا الذي صدرت عنه فرنسا حقوق الإنسان و المواطن ؟

الباشا الجلاد

و الباشا في اصطلاح النظام الإداري المغربي القديم هو محافظ مدينة كبرى، ويقابله القائد محافظ القرية، و بذلك فهو لا يرادف ما كان يراد منه في مصر وداخل النظام العثماني ضمن التصنيفات المجتمعية الطبقية. و قد احتفظ المغرب إلى اليوم بمنصبي الباشا و القائد.

و الباشا ابن البغدادي لا علاقة له ببغداد و لا بالعراق، بل هو مغربي بدوي ينتمي إلى قبيلة أولاد جامع القريبة من فاس، لكنه كان ينتسب لمدرسة الحجاج بن يوسف الثقفي الذي تسلط على أهل العراق فأذاقهم النكال و المكر.

و قد كان المغرب ملجأ لكثير من الجاليات العربية التي وفدت عليه في ظروف مختلفة فاستقرت به و حملت أسرها أسماء مواطنها الأصلية، كآل العراقي، والشامي، و اليمني. و بعض الأسر انتسبت إلى المدن التي جاءت منها، و خاصة اللاجئين إلى المغرب من الأندلس، كأسرة القرطبي، و الغرناطي، و الزهراوي، والمالقي.

كان " الباشا الجلاد" أميا احترف في بداية شبابه قطع الطرقات، ثم رأس عصابة مسلحة أقلقت صفو الأمن و عانى منها سكان فاس و ما وراءها، فتفتقت حيلة رجال الإقامة العامة الفرنسية في بداية عهد الحماية عن فكرة التحالف مع هذا الشاطر الغريب، فأهدته التسلط على مدينة فاس و المكر بأهلها. و كان جلد الوطنيين الذين كانوا ينتمون إلى بيوت معروفة بالأمجاد و البطولات أحد مظاهر المأساة التي ابتليت بها مدينة فاس التاريخية بلوى بغداد التاريخية بالحجاج الثقفي.

و قد استفاد الباشا من خبرته في النصب و الإرهاب فقطع دابر اللصوص زملائه الذين كان يعرفهم واحدا واحدا ، فنزحوا عن فاس و هربوا من ناحيتها، مستأثرا هو بحكم المدينة. و أوهم سلطات الحماية بأن إخضاع أهل فاس لحكم الاستعمار وحماية أرواح الفرنسيين مرهونان ببقائه على رأس السلطة بفاس،فاعتقدت ذلك وأطلقت له اليد بالعيث و الفساد، و وسمت صدره بوسام جوقة الشرف الفرنسي.

و لقد أصبح هذا الحاكم الأمي موضوع أساطير شعبية متعارضة الروايات عن ذكائه و غباوته، ونجاحاته و إخفاقاته، و ضروب أساليب حكمه، كانت المجالس في

فاس تتندر بها معجبة أو ساخرة، و كانت الأقاصيص تقرن اسمه باسم عونه ابن عتروس (ابن الماعز) و تظهر هذا الأخير أذكى من سيده و ولي أمره .

بكى عليه الفرنسيون يوم موته، و أبّنته الصحافة الفرنسية الاستعمارية خالعة عليه هذه النعوت : القائد الكبير، صديق فرنسا الممتاز، أحد كبار وجوه التاريخ الفرنسي المغربي، خديم المخزن الوفي. و كان من بين النعوت حتى نعت قاهر مدينةفاس المجرمة (و هذا النعت أطلقه على فاس الجنرال موانيي على إثر انتفاضة المدينة الدامية في شهر أبريل (نيسان) 1912 احتجاجا على فرض الحماية حيث قتل فيها فرنسيون.)

ووفاء للعهد، أسندت سلطات الحماية الفرنسية بعد وفاته إلى ابنه منصب "خليفة باشا " فشابه أباه و ما ظلم،(و المشبه لا يقوى قوة المشبه به)، و تعاون مع الاستعمار بإخلاص. و لسوء حظه جاء للرباط ضمن وفود " أعوان المخزن " من كبار الحاكمين المغاربة الذين حضروا للقصر الملكي لتجديد الولاء للسلطان سيدي محمد بن يوسف بعد عودته ظافرا من منفاه، فرصدته الجماهير التي كانت تحيط بالقصر و هي في فورة انتشائها بالانتصار على الاستعمار و فرحتها بالعودة الميمونة الظافرة، فانهالت على ابن الباشا ابن البغدادي ضربا و لكما و أعدمته تحت رفس الأقدام، لأن ذاكرة الشعوب لا تنسى . و لم يكن هو الوحيد الذي انتقمت منه الجماهير التي أطلقتها استعادة الاستقلال من سلاسلها و أغلالها في فترة هيجان شعبي عارم لم تطل إلا أياما معدودات عادت معها الحياة في المغرب إلى طبيعة الهدوء و الاستقرار..

لا غرابة إذن أن يمارس الباشا صاحب هذا الوجه الغريب الذي جلينا صورته في هذه الأسطر المعدودات عملية جلد شباب ينتمون إلى بيوتات و أسر أصيلة في "مدينة العلم و العرفان " كما كانت تدعى مدينة فاس، و أن تتحدى فرنسا الأسر الأصيلة التي كان لها على مدينة فاس تأثير سياسي في محاولة لكسر كبريائها وتحطيم معنوية أبنائها بتشجيع تعسف هذا الأمي الجاهل. إلا أن فاس لم تكن بين مدن المغرب و قراه المحظية الوحيدة المشمولة بحكم الإقطاع المعزز من الاستعمار، بل أقامت سلطة الحماية في كل منطقة باشا أو قائدا مكنته من الرقاب، و فوضت له كسر عناد الأهالي، لا يختلف في ذلك شمال عن جنوب و لا شرق عن غرب، فلكل مدينة أو قرية باشاها أو قائدها أي حجاجها. و قد شكل الاستعمار من مجموعة هؤلاء الحكام الإقطاعيين قوة أطلق لها عنان النهب و الارتشاء و الإثراء غير

المشروع، و سلطها على محكوميها، و عزز بأسلحته نفوذها و متعها بالحصانات، و أغدق عليها واسع الامتيازات، و داعب طموحها بمنحها الأوسمة و النياشين، ومناها بالترقيات ، و حرص على أن يختارها خلقة من بين الذين زادهم الله بسطة في الجسم و الجهل ممن يلوحون لطول قاماتهم و عراضة أجسامهم كأنهم خشب مسندة.

وفي منطق الاستعمار، فإن المرء ليس بأصغريه : قلبه و لسانه، و لكن بأضخميه : بطنه و جثمانه..

من هذه المجموعة من الباشوات و القواد الذين استرخصوا أنفسهم في الانقياد للحماية أقام الاستعمار على طول المغرب حزاما لأمنه و جدارا محصنا لمصالحه. وقد اختار أن تكون هذه الطبقة «المنقادة» لسلطته هي «القائدة» للبلاد و أهلها، تدين له بالطاعة، و إن ارتبطت بالولاء من بعيد للسلطان.

و سنرى كيف أن هذه الطغمة الأهلية الحاكمة عُبِّئت من الاقامة العامة الفرنسية ضد السلطان محمد بن يوسف عندما بارز استعمار فرنسا بالمقاومة، ناكثة بيعة الولاء، و كيف نصبها المقيم العام الفرنسي على مسرح الاحداث السياسية دمى متحركة في مسرحية أسابيع غشت (آب) 1953 التي دعاها الاستعمار الفرنسي باسم حركة تصحيح كبار القواد و التي فجرت كردة فعل على لعبتها ثورة الملك و الشعب التي عجلت بالاستقلال .

وفد وطني إلى القصر

تنوع رد فعل الشعب على اعتقال الوطنيين و برز في تحرير عرائض الاحتجاج التي كانت توجه للإقامة العامة الفرنسية و السلطات المخزنية، معلنة تضامن الشعب مع المعتقلين و مطالبة بإطلاق سراحهم. كما ظهر في توزيع مناشير التوعية الوطنية، و في دعوة الوطنيين إلى الصيام الجماعي و في الاعتصام بالمساجد التي تجرأت سلطات الحماية على إغلاق بعضها و تطويق بعضها الآخر بفرقة اللفيف الأجنبي.

و أمام مقاومة الشعب اضطرت السلطات الفرنسية إلى تسريح المعتقلين مقابل إيقاف الحركة الوطنية مظاهرات الاحتجاج، على أن يتوجه وفد من ممثلي سكان فاس لمقابلة السلطان بالرباط. و قد رأس الوفد الشيخ عبد الرحمان ابن القرشي الذي سبق أن استقال من منصب وزير العدل على عهد السلطان مولاي يوسف احتجاجا على

سياسة الحماية الفرنسية الهادفة لفصل قبائل البربر عن الكيان المغربي، بعد أن أصدرت ظهير1914 الذي تحدثنا عنه فيما سلف و أخذت تهيئ لاستصدار الظهير البربري. وكانت فاس كلها تتحدث عن وقائع استقالة الشيخ ابن القرشي من منصب وزير العدل التي تمت في ظروف مأساوية مثيرة عندما انحنى على قدم السلطان مولاي يوسف و قبل بَلْغَته (حذاءه) ضارعا إليه أن يعفيه من منصبه، حتى لا يتورط كوزير للعدل في تزكية سياسة فرنسا البربرية التي كان السلطان يرفضها ومات قبل أن تنجح سلطات الحماية في انتزاع تشريعها منه .

و كان الوفد يضم عشرة أعضاء لم يكن من بينهم علال الفاسي و محمد بن الحسن الوزاني، لأن سلطات الحماية رفضت أن يكونا ضمن الوفد. و تضامنا معهما قرر وطني آخر هو الحاج عمر ابن عبد الجليل أن لا يرافق الوفد إلى الرباط.

منذ هذا التاريخ تكرست زعامة الحركة الوطنية في شخصين اثنين : الوزاني والفاسي، و أصبحت على الأقل بفاس ذات رأسين متكاملين يلتقيان على العمل الوطني المشترك و تستبعدهما معا سلطات الحماية في تعاملها، و تجهد نفسها على إنكار قيادتهما للحركة الوطنية التي أصبحت تتبلور كل يوم أكثر حول شخصيهما. فهما معا سواء في سجن القطانين بفاس أو في سجن تازة عندما سيقا إليها من فاس في حركة الاحتجاج الثانية التي أعقبت حركة اللطيف. لقد كان كلاهما في زنزانة سجن تازة ثاني اثنين يقول كل منهما لصاحبه لا تحزن إن الله معنا.

الشيخ عبد الرحمان ابن القرشي

و جرت مقابلة السلطان محمد ابن يوسف للوفد في جو مؤثر تجاوب فيه السلطان مع الوفد الوطني و لم يكتم تعاطفه مع القضية الوطنية .و يقال إن الشيخ ابن القرشي رئيس الوفد استهل خطابه أمام السلطان قائلا :« لقد جئت بكفني على رأسي لأقول الحق كلفني ذلك ما كلفني.» و هو تقديم جامع مؤثر كبراعة استهلال لما تلاه في صلب الخطاب من تنديد بسياسة فرنسا البربرية و استعداد الشعب المغربي لتحمل التضحيات - حتى الموت - لمناهضتها.

و يمكن لمن يعرف السلطان محمد بن يوسف و مخاطبه ابن القرشي أن يتخيل - دون أن يخطئ - مشهد هذه المقابلة المثيرة و إن لم يحضر وقائعها، فأنا شخصيا عاشرت السلطان ما يقرب من عشرين سنة جعلتني أعرف الكثير عن شفافية روحه

و دماثة خلقه .و إذا كنت إنما أدركت ابن القرشي في آخر عمره و لم تربطني به أية صلة فما تزال ظلال سحنه محياه مرتسمة في ذاكرتي .

كان ابن القرشي يجسد أنصع صورة للعالم الأصيل الذي يتوهج محياه بنورانية الإيمان و التقوى .و كان - عندما أبصرته من قرب - أبيض يصارع دمه القاني تجاعيد السن التي كانت تنتشر على قسمات وجهه اللامعة رغم الكبر. و كانت تنطلق من عينيه المتقدتين شرارات ذكاء لا تستفز و لا تثير، بل توحي بالاطمئنان و تفرض الاحترام و تعشي عين ناظره هيبة و وقارا. و يكتمل وقار محياه بلحية كثيفة بيضاء متناسقة الشعرات مسدلة إلى الصدر. و كانت تتوج رأسه عمامة بيضاء من الحجم الكبير الذي قد يوحي بفهم عبارة " جئت بكفني على رأسي " لا بمعناها المجازي فحسب.

و أتخيله و قد اجتاز عتبة قبة العرش بالقصر الملكي بالرباط، و انحنى في إجلال أمام السلطان المستقر فوق عرشه، و جلالته آنذاك شاب في زهرة العمر لم يتجاوز عتبة الحادية و العشرين، يغمر قلبه الإيمان بالله و التهيب من عاقبة الحكم إذا لم يكن في رضاه، وطني يفيض حبا لبلاده أشد ما يكون الحب، محترم أجّل ما يكون الاحترام للعلماء و ذوي الفضل، معظّم لهم في المجالس - رغم مقام الملك - أسمى ما يكون التعظيم، خصوصا و الوفد قادم من مدينة فاس مسقط رأس السلطان و مسرح ذكريات طفولته و مرتع غض شبابه، فلا عجب أن تتعطل لغة الكلام بين الطرفين و يتجاوبا في تأثر حول القضية التي لم يكن الوفد في حاجة إلى الدفاع عنها أمام السلطان المقتنع بعدالتها.

فإذا ما استهل الشيخ الوقور حديثه بذلك التمهيد البليغ أمام الملك الوطني الذي لا يملك تفجير حماسه من موقع مسؤوليته كما يفعل الشيخ، و إذا ما أجهش الشيخ بالبكاء في حضرة السلطان الشاب فهمنا بيسر ما نشر عن هذه المقابلة من أن السلطان تأثر فيها بحديث الشيخ و انفعل لبكائه حتى لم يتمالك أن يكفكف عبراته كما رددت ذلك في حينه صحافة الحماية نفسها.

كتبت جريدة " الصيحة المغربية " (Le Cri Marocain)، (و هي جريدة يسارية فرنسية كانت تصدر بالدار البيضاء) عن هذه المقابلة مقالا مما جاء فيه : " كان لقاء الوفد المغربي بالسلطان بقاعة العرش بالرباط يكتسي مظهر جلال و روعة، قدم خلاله للسلطان رئيس الوفد الشيخ ابن القرشي عرضا عن نوايا الحماية في موضوع السياسة البربرية التي كان يعرفها حق المعرفة عندما كان وزير العدل في حكومة

والده مولاي يوسف، و ذكر للسلطان الشاب أن والده كان يعارض تلك السياسة وأنه (أي ابن القرشي) استقال من حكومة المخزن احتجاجا عليها و تهربا من مسؤوليتها. و تكلم الشيخ الوقور المهيب بما يفتت القلوب ألما، و لم يملك السلطان أن يحبس دموعه تأثرا بحديث الشيخ الذي كان يبدو عليه الانفعال».

و عندما عاد الشيخ عبد الرحمن ابن القرشي إلى فاس وضعته الحماية الفرنسية تحت الإقامة المحروسة في بيته، و أصبح الزعيم الروحي لحركة الاحتجاج على الظهير البربري . و ظلت سيرته تعطر المجالس، و موقفه الشجاع مضرب المثل لإذكاء حماس الشباب.

شيخ في الثمانين صبي لم يبلغ الحلم

و ردا على قمع سلطات الحماية تنوعت أساليب نضال الحركة الوطنية، فمن حركة الاحتجاج بالإمضاء على عرائض شعبية، إلى الخروج إلى الشوارع للتظاهر، إلى دعوة الشعب لمقاطعة البضائع الفرنسية، و الإمساك عن شرب الشاي الذي يطبخ بالسكر الفرنسي، و ارتداء الوطنيين جلاليب الصوف المصنوعة باليد، و امتناع النساء عن ارتداء الثياب المستوردة من فرنسا، إلى الالتزام بالصيام، و حمل العمامة البيضاء التي أصبحت تاج الوطنيين فالعمائم تيجان العرب،و لست أدري أكان لاختيار الوطنيين حمل العمامة صلة بعمامة الشيخ ابن القرشي الذي جعل منها كفنا يحمله فوق رأسه ؟

و للرد على الوطنيين استصدرت سلطة الحماية من رجال المخزن بالرباط رسالة تنديد بالوطنيين و تبرير لمقتضيات الظهير، و أمرت الباشوات و القواد بجمع الناس في المساجد للاستماع إليها. و تقول الرسالة :

« و قد قامت شرذمة من صبيانكم الذين يكادون لم يبلغوا الحلم، و أشاعوا - و لبئس ما صنعوا - أن البرابرة بموجب الظهير الشريف تنصروا، و ما دروا عاقبة أمرهم الذميم و ما تبصروا، و موهوا بذلك على العامة، و صاروا يدعونهم لعقد الاجتماعات بالمساجد عقب الصلوات لذكر اسم الله اللطيف . و خرجت المسألة من دور التضرع و التعبد، إلى دور التحزب و التمرد، و سرى ذلك بتحريضهم إلى مدينة فاس و غيرها، و أصبحت المساجد التي قال الله في حقها : «في بيوت أذن الله أن ترفع و يذكر فيها اسمه» محلات اجتماعات سياسية تروج فيها الأغراض و الشهوات».

تعرب هذه الرسالة التي أجهد محرروها أنفسهم في انتقاء كلماتها و تنميق مقاطعها عن الورطة التي انزلقت إليها السياسة الاستعمارية، و عن فعالية حركة الاحتجاجات الشعبية التي زعزعت سلطات الحماية، فلجأت إلى التبريرات و توسلت بالذرائع للدفاع عن نفسها. و تفصح عباراتها عن تراجع الحماية عن الخطة الجهنمية التي كانت أعدتها لتنصير البربر : «و أشاعوا - و لبئس ما صنعوا - أن البرابرة بموجب الظهير الشريف تنصروا، و مادروا عاقبة أمرهم الذميم وما تبصروا. "

ومع ذلك سمحت الحماية المتسترة خلف الرسالة لنفسها بالتجرؤ على تحديد دور المسجد و التنديد بعقد الاجتماعات فيه، و حاولت أن تقلل من أهمية حركة الاحتجاج الشعبية بنسبتها إلى صبيان لم يبلغوا الحلم.

فمن هم هؤلاء الصبيان ؟ أيكون الشيخ ابن القرشي قائد وفد الحركة الوطنية إلى القصر الملكي صبيا لم يبلغ الحلم، و إن بلغ الثمانين ؟ أم يكون صبية لم يبلغوا الحلم علماء القرويين و خطباء مساجد الجمعة في المغرب ؟ أم يكون ضمن الصبيان الفوج الرائد من الوطنيين الذي أنهى دراسته العليا في معاهد باريس ؟

ابن القرشي النموذج

و في الخلية السرية لكتلة العمل الوطني التي انتميت إليها سنة 1935 (و كنت قد بلغت الحادية عشرة من عمري) كان مسيراها الهاشمي الفيلالي و إبراهيم الوزاني يضربان من موقف الشيخ ابن القرشي مثلا لتوعيتنا نحن الأطفال بالروح الوطنية، و يقدمانه لنا كواحد من نماذج البطولة، و يرسمان لنا عنه صورة مثيرة تحتذى فيما ينتظرنا من الكفاح الذي انشئت الخلايا السرية لإعداد جيل الغد لخوضه و اقتحام غماره.

من أجل ذلك أقمنا له فيما بعد نحن شباب " الحركة القومية " حفل تأبين سنة 1938 بمناسبة ذكراه الأربعين انطلق فيها لساني - في بداية عهدي بنظم الشعر - بقصيدة رثاء من أربعين بيتا كنت أمليها و أنا انتقل عبر دروب فاس لتوزيع رسائل دعوة التأبين صحبة أخي أحمد ابن سودة الذي كان يردد على مسمعي ما أمليه. ولحد الان ما يزال يذكر القصيدة بنصها بفضل حافظته العجيبة التي قل أن يضيع منها ما يودعه فيها.

و مما جاء في القصيدة هذه الأبيات التي تحضرني الآن بدون ترتيب :

عُطّل الناي واستلدّ السكونا حين قالوا لقد قضى الاربعينا
أذهل الناي أنهم حسبوها بالليالي وعددهن سنينا

و منها :

إيه عبد الرحمن و اسمك يذكي في فؤادي ذاك الشعور الدفينا

و منها :

لم يكن يدعي التقى أو ينادي أنه القطب قدوة الصالحينا

و هذه إشارة إلى سلوك بعض شيوخ الزوايا المعاصرين له الضالعين آنذاك في تعاونهم مع الحماية ضد وطنهم (و كان عبد الحي الكتاني بفاس واحدا منهم) - ممن كانوا يسرّون الفسوق و يراؤون بالإيمان و التقوى.

و منها :

قولة الحق بالصراحة لم تبق له صاحبا وفيا أمينا

و هي قولة الحق التي صدع بها أمام السلطان فتنكر له بعدها من أصدقائه من تهيبوا عاقبتها، و انفضوا من حوله عندما أجبر على الإقامة المحروسة في بيته.

الوحدة في مواجهة المؤامرات

عندما دخل الوطنيون إثر صدور الظهير البربري في تجربة القوة مع سلطات الحماية الفرنسية لم يكن أي طرف منهما يتوقع النتائج التي أسفرت عنها التجربة.

كان كل شيء يرشح الجانب الفرنسي للانتصار و التحكم في الموقف، و كانت جميع التخمينات تظهر الوطنيين كما لو كانوا يخوضون مغامرة لا أمل في كسب رهانها.

كانت السلطات الفرنسية الحاكمة مطمئنة إلى مؤسستها العسكرية بعد أن أصبحت المقاومة المسلحة المغربية في الجبال تأخذ شكل فلول منحسرة الظلال يوما بعد يوم، وكانت مرتاحة إلى حسن تدبيرها السياسي بعد انتزاعها التشريع البربري. كان كل شيء يؤذن بأن الحماية الفرنسية على مقربة من عهد جديد يتميز بالهدوء والاستقرار لصالح نظامها المفروض، أما التحرك الذي شهدته بعض المدن احتجاجا على سياستها فلم يكن ليثير مخاوفها طالما أن " مدفع اللطيف كان فارغا، وأنه لم يكن يمسك به إلا صبيان لم يبلغوا الحلم ."

أما الوطنيون فكانوا يدركون أنهم يخوضون مواجهة مع السلطة لأول مرة، وأنهم لم يتهيأوا لها بإعداد تنظيمات شعبية سابقة، ولم يرصدوا لها الوسائل الكفيلة بالثبات والصمود والاستمرار. وكان كل شيء يؤذن في الظاهر بفشل المغامرة الوطنية العزلاء أمام نظام عسكري فرنسي مدجج بالسلاح يعتبر نفسه في أرض محتلة تخضع للأحكام العرفية التي أعلنها في المغرب منذ فرض الحماية.

إلا أن رياح الاستعمار جاءت بما لم تشتهه سفنه. وبتقييم للنتائج بعد مرور نصف قرن على الأحداث يبدو أن نجاح الوطنيين غير المرتقب لم يكن يعادله إلا إخفاق سلطات الحماية الذي لم يكن أحد يتوقعه.

كثيرا ما يحفل التاريخ بأحداث تبدو عند بزوغها هينة فلا تلبث أن تحول مجراه وتصحح مسيرته. وعندما لا ينطلق هذا النوع من الأحداث عفوا يصبح من الضروري صنعه وابتداعه. وما كانت السياسة الفرنسية البربرية إلا من نوع هذه الأحداث التي يجود بها القدر لتحويل مجرى التاريخ وتغيير مصائر الشعوب. وكان الحدث من صنع فرنسا قدمته هدية على صحن من ذهب للوطنيين المغاربة .

إن الإخفاق الذي منيت به هذه السياسة على الصعيد الداخلي في كل من المغرب وفرنسا وعلى الصعيد الخارجي الذي ندد بها، هو الذي حمل المحللين السياسيين في فرنسا وخارجها على وصفها بالسياسة الغلط، أو التحدث عنها بتعبير " أخطاء السياسة البربرية ". وقد انبرت أقلام داخل فرنسا خاصة لتحليل هذه الاخطاء والحكم على تلك السياسة بأنها بداية سيئة للنفوذ الفرنسي في المغرب منذرة بأخطر العواقب على مستقبله .

وحتى لا نكرر هنا ما حفلت به كتب فرنسية من أدبيات عن أخطاء السياسة البربرية، لنقتصر بالمقابل على استعراض ما تساقط على الحركة الوطنية الفتية ثمرا جنيا نضج قبل الأوان بفضل تلك السياسة الفرنسية الغلط.

وحدة الصف

ربما كانت الحركة الوطنية - لو لم ترتكب فرنسا غلطتها - في حاجة إلى عدة سنوات قبل أن تتوحد فصائلها على العمل المشترك، وقبل أن تتفق على منهاجية هذا العمل وأسلوب ممارسته، فوحدت الغلطة الفرنسية بين الوطنيين من مختلف المستويات الفكرية، والانتماءات المجتمعية. وكان هذا هو المكتسب الأول.

واندمجت الوطنية اندماجا عضويا في السلفية مادامت الحماية من جهتها قد أدمجت استعمارها في التنصير والتمسيح. وسجلت الإرساليات الكنسية بعد فضح مكنون الظهير البربري إخفاقا ذريعا لأن الاستعمار زج بمهمتها الإنسانية - كما كانت تقول عنها - في حمأة سياسة التسخير لنفوذه فتحفظ السكان منها وكشفوا عن وجهها القناع وقاطعوها في النهاية، وكان هذا المكتسب الثاني .

ولولا السياسة الفرنسية لاختلفت الحركة الوطنية في المغرب طرائق بين السلفيين المتعصبين والعلمانيين المتفتحين، ولبدأت انطلاقتها في مسالك ودروب تجتازها الصراعات المذهبية عادة في مسيرة الحركات الوطنية الموازية مما لانحتاج معه إلى ضرب الأمثلة . وهذا هو المكتسب الثالث .

وحدة البرنامج

وبفضل السياسة الفرنسية أصبح للحركة الوطنية مشروع برنامج متفق عليه دون سابق نقاش، هو محو عار السياسة البربرية بجميع أنواع الاحتجاج، والتماس المعونة من الداخل والخارج للضغط على فرنسا للتراجع فيما تورطت فيه. وهذا البرنامج البسيط كان في مستوى التنظيم الوطني الشعبي البسيط - أيضا - الذي كان في شكل نواة مختصرة في الطائفة والزاوية والجماعة، وذلك هو المكتسب الرابع .

تعاطف السلطان والشعب

أما المكتسب الخامس فكان تتويج وحدة الشعب في مواجهة السياسة البربرية بتعاطف المغرب الرسمي مشخصا في السلطان مع التيار الوطني. فبفضل الغلطة أصبح السلطان أكثر من كل وقت مضى حذرا في التعامل مع ما يقدم لإمضائه من ظهائر(مراسيم) متأكدا من سوء نية الإقامة العامة، مصمما أشد ما يكون التصميم على التقليص من نفوذها وحملها على احترام نص الحماية وروحها، وتحصين بلاده من حكم الاستعمار المباشر، والعمل على أن يظل شعبه بجميع فصائله خاضعا لسلطته في ظل عرشه .

التضامن الخارجي

وتحقق للحركة الوطنية مكتسب سادس بما ظفرت به من تأييد خارجي، وما توفر لها من تضامن عربي إسلامي، وهو ما جعلها تأخذ - وهي ماتزال وليدة - بعدا عالميا لم تظفر به حركات وطنية موازية .

لقد تفجرت من مختلف أرجاء العالم الإسلامي حركة تضامن واسعة: ففي مصر تعبأت فصائل الرأي العام للتنديد بسياسة فرنسا في شكل مظاهرات احتجاج شعبية أمام السفارة الفرنسية بالقاهرة، ومن خلال إجماع الصحافة على استنكارها، ولاسيما جريدة " المنار " التي كان يصدرها رشيد رضا، وجريدة " الفتح " التي كان يديرها محب الدين الخطيب، ومجلة " الشبان المسلمين " ومجلة " الهداية الإسلامية «وجريدة» «الشورى» التي كان على رأسها المرحوم محمد علي الطاهر المجاهد الفلسطيني الذي تعرفت عليه في بداية الخمسينات بالقاهرة، وامتدت صداقتي معه إلى وفاته. وكان قد لجأ إلى مصر بعد اغتصاب فلسطين.

وأصدرت جامعة الأزهر بيانات الاستنكار والتنديد مهيبة بالعالم الإسلامي أن يأخذ الحذر من الاستعمار الفرنسي الساعي إلى تنصير شعب المغرب المسلم، وترددت النداءات من مختلف انحاء العالم الإسلامي لممارسة الضغوط على فرنسا لتتراجع عن سياستها في المغرب، وكان من بين النداءات نداء " جمعية الشبان المسلمين " التي تعبأت فروعها عبر العالم الإسلامي لإظهار تضامن المسلمين مع المغرب، وتأسست برئاسة الأمير عمر طوسون " لجنة الدفاع عن المسلمين المغاربة".

ولقد أصبح للحركة الوطنية الناشئة ممثلون في بعض العواصم العربية يشرحون قضيتها ويرفعون صوتها، ففي القاهرة أخذ الحسن بوعياد الذي كان يدرس بها يحاضر عن القضية المغربية ويشرح أبعاد خطر السياسة الفرنسية البربرية . وقد أصدر فيما بعد " كتاب الحركة الوطنية والظهير البربري " .

أما في أوروبا فقد تجمعت الجالية الإسلامية في برلين في هيأة أطلق عليها اسم «لجنة الدفاع عن المسلمين المغاربة» كما فضح الطلبة المسلمون في فرنسا حقيقة ما يجري بالمغرب، وصدر بفرنسا عن الحركة الوطنية المغربية كتاب بالفرنسية بعنوان "عاصفة في المغرب أو أخطاء سياسة بربرية " بإمضاء " مسلم بربري " وقد نشرت اللجنة الشرقية للدفاع عن المغرب بالقاهرة ترجمته إلى العربية.

وعمت حركة الاحتجاج والتضامن أقطار آسيا سواء في الهند أو أندونسيا أو ماليزيا أو تركيا، وتدفقت سيول برقيات الاحتجاج من مختلف أقطار العالم على حكومة فرنسا وعصبة الأمم بجنيف التي عممت أمانتها العامة على الدول الأعضاء ماكان يرد عليها من وثائق التنديد بفرنسا واستنكار سياستها بالمغرب، وهكذا اشتبكت الديبلوماسية بالإعلام في عملية فضح النظام الاستعماري الفرنسي وإسقاط القناع عن وجهه عبر العالم .

وفد المغرب في المؤتمر الإسلامي

وقد اغتنم الوطنيون فرصة انعقاد المؤتمر الإسلامي بالقدس في الفترة المتراوحة بين سابع عشر دجنبر (كانون الأول) سنة 1931 فبعثوا إليه وفدا مركبا من المكي الناصري ممثلا للمنطقة الواقعة تحت النفوذ الفرنسي، والحاج محمد بنونة ممثلا للمنطقة الواقعة تحت النفوذ الإسباني، للتعريف بالقضية الوطنية عامة والمشكل البربري خاصة . وكان رئيس المؤتمر هو الحاج محمد أمين الحسيني، وكان يوجد ضمن المشاركين في المؤتمر الشيخ المكي الكتاني الذي قدم من دمشق، وهو مغربي اختار الهجرة إلى سوريا وابتعد عن بلاده بمجرد ما بسطت عليها فرنسا حمايتها، وظل مستوطنا بدار هجرته بدمشق حتى وافاه أجله بها. وقد كان في سوريا يقود حركة دينية سياسية على رأس «رابطة علماء سوريا» وكان أحد الكتانيين الوطنيين الأعلام الذين ناهضوا الاستعمار الفرنسي. وهو وإن لم يكن ضمن وفد الحركة الوطنية المغربية إلى المؤتمر الإسلامي فإنه أسهم بجانب الوفد في الدفاع أمام المؤتمر عن المسألة المغربية .

ويقول السيد علال الفاسي في كتابه " الحركات الاستقلالية :" إن عضوي الوفد المغربي رفعا إلى مؤتمر القدس تقريرا عن حالة الاستعمار بالمغرب كان هو أصل كتاب «فرنسا وسياستها البربرية» .

وبالرجوع إلى عضو الوفد الشيخ المكي الناصري علمت أنه هو الذي أعد التقرير المشار إليه ثم حوله إلى كتاب يحمل إمضاءه وكان عنوانه : " مراكش أمام حرب صليبية جديدة : بيان مختصر من الأمة المراكشية إلى المؤتمر الإسلامي العام بالقدس الشريف ". ويضيف الناصري أن المرحوم الحاج محمد بنونة جاء إلى المؤتمر بقصد التحدث عن انتهاج النظام الإسباني الجمهوري (الذي نشأ في الفترة التي نتحدث عنها) سياسة تفاهم مع المسلمين (أي مع المنطقة الخليفية) مخالفة لسياسة النظام الملكي المنهار، وأنه (المكي الناصري) لم يستسغ أن يتحدث عضو الوفد المغربي في الموضوع الذي كلف بطرحه أمام المؤتمر، ونصحه بأن يدع له الحديث عن السياسة البربرية، وبموافقته قدم الناصري تقريره عن السياسة البربرية، ولم يتحدث بنونة في المؤتمر.

وتدليلا على ذلك أحالني الناصري على ص 279 وما بعدها من كتاب " نضالنا القومي " للمرحوم الطيب بنونة، حيث جاء في الرسالة رقم 35 التي وجهها الأمير شكيب أرسلان إلى الحاج عبد السلام بنونة جوابا على رسالته ما يلي : " أعرفك أني كتبت إلى الأخ الحاج محمد العربي (بنونة) - وكان يوجد بالقاهرة - كتابا رجوته فيه أن لا يتأخر عن حضور المؤتمر الإسلامي في القدس، وأن يكون آمنا من جهة الرجوع إلى تطوان أيان أراد. وقلت له ليتكلم في المؤتمر عن حسن معاملة إسبانيا الجمهورية للمسلمين بخلاف حكومتها السابقة " - ويعني ذلك موافقة الأمير أرسلان على الخطة التي قررتها الحركة الوطنية بالشمال التي كانت تعمل للتفاهم مع الحكم الاسباني الجديد لحمله على انتهاج سياسة لصالح القضية المغربية . والأهم في الموضوع أن المؤتمر اتخذ قرارات التنديد بفرنسا وأعلن تضامنه مع المغرب، وبعث بقراراته إلى «عصبة الأمم» بجنيف بواسطة " الوفد السوري الفلسطيني " الذي كان يرأسه بجنيف الأمير شكيب أرسلان .

وبجميع مواقف التضامن العربية الإسلامية أخذت القضية الوطنية المغربية بعدا خطيرا باندماجها في معترك الصراع الحضاري العالمي وفي خضم مواجهة الإسلام مع الاستعمار الفرنسي الذي أزيل عنه القناع وانكشفت صورته الصليبية البشعة .

وهذا الوجه الرجعي البشع هو الذي فتح أعين الأحزاب اليسارية في فرنسا على خطر السياسة البربرية، فلم تقبل هذه المنظمات السياسية أن تنحدر فرنسا اللايكية الديمقراطية إلى حضيض استعمار صليبي بائد، ووجدت الحركة الوطنية الناشئة منها

تعاطفا وسندا، وأصبح اليسار الفرنسي يجتهد لإعطاء الوطنيين المغاربة والعالم كله صورة أخرى عن فرنسا الحرة في محاولة لإنقاذ سمعة بلاده التي أدان العالم سياستها في المغرب .

كانت حصيلة هذه المكتسبات من صنع شباب كانوا ما يزالون في مقتبل العمر، استقطبوا حولهم تأييداً تزودوا به في مواصلة المسيرة التي فجرتها سياسة فرنسا العدوانية . ومنذ ذلك عُرفت الحركة الوطنية بأنها حركة شباب، لكن بالتأمل يبدو بالإضافة إلى ذلك أنها انطلقت بقيادة طلاب إن لم نقل إنها كانت حركة طلابية .

وإذا كان معروفا أن روادها كان من بينهم من ينتمون - من مختلف جهات المغرب - إلى جامعة القرويين ممن كانوا يدعون بعلماء شباب القرويين، فإن روادها من روافد التعليم الفرنسي كانوا أيضا طلبة شبابا من ثانوية مولاي إدريس بفاس أو من ثانوية مولاي يوسف بالرباط. وبين الطرفين التحم شباب من ذوي الحرف والصنائع والتجار الصغار آمنوا بحسن قيادة الشباب الطلاب والتفوا حولهم ووضعوا ثقتهم في القيادة التي اعتبروا أن تعلمها يشكل معيارأهليتها للأخذ بالزمام .

وقد تنبهت سلطات الحماية إلى هذه الظاهرة، واستخلصت نتائجها من منظورها الاستعماري فتوحد دهاقنة الحماية حول موضوع التعليم في المغرب. وكان موضوع نقاش في دوائر الحماية بين من كانوا يناصرون محدوديته ومن كانوا يدعون إلى سياسة التجهيل الكامل، كواحد من أقانيم الاستعمار الثلاثة بجانب التفقير والاستلاب.

وانتهى النقاش إلى الاتفاق على التعامل مع تعليم المغاربة بالحذر، وعلى توجيهه في الوجهة التي توطد أقدام الاستعمار على أرضية بقائه واستمراره، ومناهضة كل منهاج تربوي يسير في معاكسة الاستعمار.

ومن قبل، كانت إدارة التعليم التابعة للإقامة العامة الفرنسية لا تشجع أي طالب على ارتياد رحاب التعليم في الخارج، ولا تقدم للطلبة محدودي العدد - من باب الأحرى - ما كانوا يفتقدونه من منح وتسهيلات تاركة الحبل على الغارب للأسر لتضطلع بتعليم أبنائها في الخارج، أما بعد أن توجه الطلاب والمتخرجون المغاربة من معاهد فرنسا في وجهة التيار الوطني الجديد، فقد فرضت سلطات الحماية قيودا عقدت تأمين وصول مساعدة الآباء لأبنائهم، مما حمل بعض الطلبة على العمل بباريس خارج أوقات الدراسة لكسب ما يمكنهم من تسديد رسوم الدراسة، ولقد سمعت بعضهم يتحدث عن عمله ندلا بالمقاهي أوحارسا ليليا بالفندق .

وقد أخذت سلطات الحماية تسخر طائفة من أعوانها المغاربة ممن كانوا يحسبون في زمرة العلماء أو الفقهاء لإقناع الآباء بالامتناع عن مساعدة أولادهم المغتربين في طلب المعرفة، وتخويفهم من تحول ذريتهم من الخط الإسلامي والتربية المغربية الصميمة. وحين كانوا لايتمكنون من إقناع الآباء كانوا يحاولون على الأقل أن يقنعوا طلبة المعاهد الفرنسية أن يختاروا من شعب الدراسة أقلها خطرا في نظرهم. وفي منطقة هذا الخطر كانوا يصنفون شعب القانون والسياسة والصحافة. لقد اختير للطالب الحاج عمر ابن عبد الجليل أن يتخصص في الهندسة الزراعية بينما كان يميل إلى اتجاه اعتبر خطيرا، ولام الجنرال ليوطي محمد حسن الوزاني على اختياره لمدرسة العلوم السياسية،ومعهد الصحافة بباريس مخاطبا إياه بقوله : " لم تحسن الاختيار، وما تفعله غير صالح " .

الفصل التاسع

صوت الحركة الوطنية في المشرق العربي و أروبا

صوت الحركة الوطنية في المشرق العربي وأوروبا

بعد انتصار الحركة الوطنية في معركة الظهير البربري،أصبح صوتهامسموعا في أقطار العالم العربي الإسلامي، وصداها يتردد خاصة في عاصمة جنيف حيث تبنى الوفدُ السوري الفلسطيني الشعبي لدى عصبة الأمم القضية المغربية.

وقد سمحت الاتصالات التي أجراها الوفد المغربي إلى المؤتمر الإسلامي بالقدس مع وفود الشعوب الإسلامية بإحكام روابط وثيقة لفائدة القضية الوطنية، والتحم الكفاح من أجل تحرير سوريا ولبنان وفلسطين مع الكفاح من أجل رفع الضيم عن المغرب المهدد في عقيدته وهويته.

ويكفي أن يكون رئيس المؤتمر هو الزعيم الفلسطيني الحاج أمين الحسيني لنتصور كيف سهل تحطيم الحواجز والحدود بين مختلف القضايا الإسلامية التي اهتم بها ذلك المؤتمر التاريخي، بل كيف تم الترابط بين القضية المغربية والقضية الفلسطينية التي لم تكن تنفصل قط عن قضية التحرير العربي .

هذا الالتحام اصبح يشكل ما سيطلق عليه فيما بعد اسم " القضية العربية " قضية المغاربة والمشارقة على السواء، لأنها قضية مصير مشترك من الخليج إلى المحيط.

أول تضامن مغربي مع فلسطين

والواقع أن الحركة الوطنية بالمغرب كانت البادئة بالإعلان عن تضامنها مع القضية العربية الفلسطينية عندما شجبت منذ شتنبر (أيلول) 1926 المؤامرة البريطانية على فلسطين في عرائض شعبية بلغت إمضاءاتها الآلاف، وجهتها إلى جمس رامزك ماكدونالد رئيس الحكومة البريطانية آنذاك، وذلك في خضم الانتفاضة الشعبية الفلسطينية التي انطلقت في أرض فلسطين منذ وعد بلفور المشؤوم .

وكانت سنة 1929 قد تميزت بأحداث دامية أثارها التواطؤ الأنجليزي اليهودي، أدمت أيضا قلوب المسلمين المغاربة الذين كتبوا في رسائل الاحتجاج إلى رئيس الحكومة الأنجليزية : " إن ما يقع في فلسطين من جانب الصهيونيين بمساعدة حكومتهم يجرح عواطفنا نحن المسلمين في المغرب، ويجعل أربعمائة مليون من مسلمي العالم في سخط تام على السياسة الأنجليزية. وإن المسجد الأقصى ليس كسائر المساجد الإسلامية، ولكنه أحد المساجد الثلاثة التي يقدسها أبناء الإسلام تقديسا يضحون في سبيله بكل عزيز عليهم، ولا يخشون في الدفاع عنه أي مكروه ،ولو كان الموت الزؤام . و إنه لا يسعنا إلا أن نرفع إليكم احتجاجنا الصارم الشديد على الأعمال المرتكبة في فلسطين، ونبدي استياءنا العميق من كل ما يمس بالأماكن المقدسة في فلسطين. والسلام " .

وقد كان شاع في المغرب أن حي المغاربة بالقدس تعرض للعدوان، فتوالت عرائض الاحتجاج أقوى ما تكون لهجة، وانطلقت في المغرب حملة اكتتابات مالية لفائدة الكفاح الفلسطيني. ومنذ ذلك الحين ظل المغرب البلد العربي الملتزم بنصرة القضية الفلسطينية التي لاتفتأ تلقى سنده ملكا وحكومة وشعبا .

شكيب أرسلان

وقيض للحركة الوطنية أن تكتمل حلقات سندها في الخارج بتبنيها من لدن داعية عربي كبير وزعيم لامع هو الأمير شكيب أرسلان الذي كان يرأس بجنيف الوفد السوري الفلسطيني الشعبي لدى عصبة الأمم للمطالبة برفع الانتدابين : الفرنسي عن سوريا ولبنان، والأنجليزي عن فلسطين .

كان شكيب أرسلان مسلما سنيا انسلخ أجداده عن المذهب الدرزي، وكان مؤمنا بوحدة سوريا ولبنان وفلسطين، بل بالوحدة العربية الشاملة وبالتضامن الإسلامي، معتبرا الكفاح لتحرير العالم العربي الإسلامي وحدة لا تتجزأ، فجرد قلمه - وخاصة فيما كانت تنشره له جريدة " الفتح " المصرية - لإبراز خطر الاستعمارين : الفرنسي على شمال إفريقية والإيطالي على برقة وطرابلس .

واستفاد من رئاسته للوفد السوري الفلسطيني بجنيف حيث توجد عصبة الأمم للتعريف بقضايا العرب والمسلمين . وكان إلى جانبه زميله الفلسطيني عضو الوفد إحسان الجابري الذي كان يتعاون معه في نصرة القضايا العربية الإسلامية. وقد

أصدر الأمير بجنيف بمشاركة زميله هذا مجلة الأمة العربية (La Nation Arabe) باللغة الفرنسية. وعلى صفحاتها التقت أقلام المناضلين والمتعاطفين مع القضايا العربية الإسلامية، وأصبحت منبرا حرا استهوى إليه الكتاب، وساعد تفتح سويسرة السياسي على انتشار المجلة وإثارة اهتمام اوروبا بمقالاتها وتعاليقها .

أمير البيان

كان لشكيب أرسلان إيمان راسخ بعدالة القضايا التي كان يدافع عنها، وفي سبيل ذلك سخر قلمه السيال وما كان يملكه من موارد مالية . وربما كان قلة من معاصريه من كانوا يتوفرون على أسلوبه وبيانه. ومع ذلك فلا أعتقد أن أسلوبه الفريد كان السبب الوحيد الذي دعا صديقه رشيد رضا إلى أن يطلق عليه - حسب بعض الروايات - لقب "أمير البيان "، إذ قد يكون مرد ذلك أيضا إلى اقتحامه غمار الإفصاح عن بعض القضايا الشائكة التي كانت الأقلام المعاصرة تحجم عن اقتحامها أو تتهيب معالجتها. لقد كان أمير البيان يتميز بدور عالمي مارسه بإيمان وشجاعة وصبر، عندما أصبح يشكل ضمير الأمة العربية الإسلامية ويعالج مشاكلها بشعور المسؤولية، بحيث أصبح الناطق باسمها كما لو كانت جميع القضايا المتصلة بالإسلام والمسلمين في رعايته الخاصة وتحت عهدته المباشرة. من أجل ذلك قال عنه اخونا الأكرم أكرم زعيتر أمد الله في عمره : " إنه كان رائد العمل العربي الإسلامي، وجامعة العروبة والإسلام في اوروبا " وأنه " عمل عمل جامعة الدول العربية قبل إنشائها بسنوات ". وقد كرس لقبه هذا المجمع العلمي العربي بدمشق الذي اختاره لرئاسته سنة 1936، وهي الرئاسة التي اعتذر عن قبولها احتجاجا على خرق فرنسا للمعاهدة المبرمة مع سوريا في نفس السنة، مفضلا أن يظل في المهاجر منقطعا إلى خدمة القضايا العربيةالإسلامية وإسماع صوت شعوبها. ولم يعد لبلاده إلا بعد استقلالها الكامل بجلاء القوات الفرنسية عنها .

في المغرب

وضمن أبحاثه العلمية عن تاريخ الإسلام والتراث العربي دفع به فضوله العلمي وتطلعه إلى نشر التراث العربي إلى ارتياد رحاب الأندلس فتجمع له من زيارتها

حصيلة دراسات عن آثارها وتاريخها ضمنها كتابه : " الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ". وقد دعاه - وهو في الأندلس - لزيارة المغرب زعيم الحركة الوطنية بالشمال الحاج عبد السلام بنونة. وكان يونس بحري المعروف بالسائح العراقي هو الذي مهد للاتصال بينهما. وحتى لا تحدث زيارة الأمير للمنطقة المشمولة بالنفوذ الأسباني أية مشكلة للأمير أو الحركة الوطنية التي كان بنونة يقودها بالشمال، فقد سعى الزعيم المغربي لدى قنصل اسبانيا بتطوان ليحصل مقدما على إذن السلطات الأسبانية بهذه الزيارة. وخلال زيارة الأمير لطنجة وتطوان اتصل برجال الحركة والتقى مباشرة مع الجماهير فتعرف عن كثب على " القضية البربرية " التي كانت أزمتها عند زيارته في أوجها . ووجد الأمير في مضاعفات هذه الأزمة السياسية الحافلة بالأخطار على حاضر الإسلام ومستقبله ما دفع به لإيلاء القضية عناية خاصة ضمن اهتمامه الواسع بتطورات الصراع الحضاري بين الإسلام وخصومه، واضعا القضية في سياقها الحقيقي، ومركزا على هذا السياق عبر كتاباته واتصالاته، مما جعل من القضية البربرية قضية ساخنة بل قضية الإسلام الكبرى. وعاد الأمير من تطوان متقمصا الروح الوطنية المغربية مثلما ارتدى اللباس الوطني المغربي جلبابا وسلهاما (برنسا) وغطى طربوشه بقب الجلباب في الصورة التي اشتهر بها في المغرب، والتي اصبحت تعلق على الجدران في البيوت المغربية بجانب صور الزعماء وقادة حركات التحرير العالميين .

مع الزعماء المغاربة

وبذلك يكون المرحوم الحاج عبد السلام بنونة أول من ربط حلقة الاتصال بين الأمير ورجال الحركة الوطنية المغربية، اذ لم يجر الاتصال بين الأمير وزعمائها إلا عندما جاء وفد من المنطقة السلطانية لتحيته بتطوان . وعن ذلك يقول الزعيم الوزاني في كتابه حياة وجهاد (الجزء 3 ص 315) " وقد استطعنا أن نتصل بالأمير مدة إقامته بتطوان، لنعبر له عن مشاعرنا نحوه واعترافنا له بكل جميل ". وهذه الجملة أثارت تعليقا من أخينا حكيم عزوز الذي يبدو أن الغاية مما يكتبه هو إنصاف الحركة الوطنية بالشمال، وهو في ذلك على حق، فقد كُتب الكثير عن جهاد جنوب المغرب وأهمل الكثير عن شماله، إلا أنه تجنى على المرحوم الوزاني حين كتب عنه : "والغريب ما في السر (هكذا) هو أن الأستاذ الفاضل (يعني الوزاني) لم يأت بأية حجة تدلنا على نوع الاتصال الذي قام به مع الأمير أرسلان بتطوان، ونحن نعلم أنه

لم يكن من بين القادة الوطنيين الذين جاءوا لتطوان من الجنوب للاتصال بالأمير".

إنه تشنج عاطفي من أخينا عزوز حكيم كان يمكن تجنبه، فالأستاذ الوزاني الذي يتحدث عنه بتعبير " الأستاذ الفاضل " لم يكن يتحدث إلا باسم الحركة الوطنية التي أوفدت من يمثلها لتطوان، ولم ينسب الوزاني لنفسه أنه كان ضمن الوفد، ولا ينكر صاحب التعليق أن الوزاني كان في طليعة قيادة الحركة الوطنية آنذاك، أي وراء إرسال وفد يمكن أن يتحدث عنه الوزاني من موقعه المسؤول بالصيغة التي جاءت بالجمع لا بالمفرد. والظاهر أن الأخ عزوز حكيم توقف عند الصفحة 315 من الجزء الثالث من مذكرات المرحوم الوزاني، وكان عليه أن يعود إلى الصفحة 228 من جزء الكتاب نفسه ليقرأ ماقاله الوزاني نفسه عن اتصاله بالأمير :« ودخلنا لجنيف حيث كان الأمير شكيب في انتظارنا ببيته (صحبة المكي الناصري، ومحمد الفاسي)، وكان ذلك أول لقاء لي بالأمير أرسلان وزميله إحسان الجابري بتاريخ 27 مارس (آذار) 1932 " أي بعد مرور سنتين على زيارة تطوان . وهو ما يوضح بدون التباس أن الوزاني لم يكن يعني أنه كان ضمن وفد الحركة الوطنية لتحية الأمير بتطوان كما فهم السيد حكيم . أما الوفد الذي أوفدته الحركة الوطنية إلى الشمال للاتصال بالأمير فقد انتظم جمعا من رواد الحركة الوطنية من بينهم أحمد بلافريج، ومحمد بن العباس القباج من الرباط، والحاج عمر ابن عبد الجليل، ومحمد الفاسي من فاس .

ومنذ زيارة الأمير لتطوان ارتبط اسمه بالحركة الوطنية وتوطدت علاقاته بمؤسسيها، وفتح بيته بجنيف لاستضافة مبعوثيها، وقد توارد عليه في البداية ثلاثة من القادة الوطنيين هم الحاج أحمد بلافريج، والمكي الناصري، ومحمد ابن الحسن الوزاني، ثم زاره علال الفاسي في أول رحلة قام بها إلى الخارج .

كتّاب الأمير

وكان الأمير يستعين بمن يرد عليه من زواره ويشركهم في إعداد مقالاته وكتبه، ومن بينهم عضوا الحركة الوطنية المكي الناصري ومحمد حسن الوزاني .

وكان الأمير لايقوى على مواصلة الكتابة التي كانت تتعب بصره فيلجأ إلى المساعدة بالإملاء على كاتبه ساعات إما جالسا أو ذارعاً غرفته أو مكتبه جيئة وذهابا .

يذكر السيد المكي الناصري أنه انتقاه للكتابة تحت إملائه لأنه كان من الخط

الشرقي، وأن ما نشره الأمير ضمن تعاليق كتاب " حاضر العالم الإسلامي " عن ابن عبد الكريم الريفي كان بإملاء من الأمير عليه. ويضيف أنه منذ أن حضر نيابة عن الحركة الوطنية في المؤتمر الإسلامي بالقدس وهو مطارد من لدن السلطات الفرنسية، ولذلك اختار أن يطيل الإقامة بجنيف بقرب الأمير مما مكنه من ربط صلة وثيقة به . وهذا الاتصال هو الذي جعل المكي الناصري يكتب عن الأمير مقالا بعنوان "رجل الساعة في العالم الإسلامي " فتحت له أعمدتها الصحافة في بوسنة سراييفو عاصمة المسلمين في يوغوسلافية، ثم نشرته مجلة الفتح المصرية .

أما المرحوم الوزاني الذي اشتهر بأنه كاتب الأمير فقد كتب عن ذلك ما يلي: " ولما أقمت بجنيف كلاجئ سياسي سنة 1932 كنت على صلة مستمرة بالأمير شكيب في بيته وغدواته وروحاته، وكنت مساعدا له ولزميله إحسان الجابري في مجلة الأمة العربية (Lanation Arabe)، كما كنت أساعده في كتابة مراسلاته، حيث لم تكن وسائله تسمح له بتوظيف كاتب عربي " ويصف الوزاني كيف كان الأمير يكتب بيده بصعوبة، ويقول إنه قلما كان يفعل ذلك . ويضيف : " كان الأمير يحرر وهو جالس جاعلا رجلا فوق اخرى، فيضع الورقة مثنية في يده اليسرى فوق ركبته، ولهذا تأتي السطور غير مستقيمة . وكان خطه جميلا، وكانت تبدو عليه رعشة اليد وما رأيته مرة واحدة مدة ملازمتي له يكتب على منضدة أو يضع الورق على لوحة أو كتاب ".

ومن الطبيعي أن لا تقتصر مساعدة الوزاني للأمير على تسجيل كتاباته، فقد كان الأمير ولا شك في حاجة إلى صحفي قدير يكتب بالفرنسية يساعده في إعداد المجلة التي كانت تصدر بالفرنسية . وهذا ميدان للوزاني فيه مجال لا ينكر .

وبصرف النظر عن هذه الجزئيات والدقائق التي أسالت كثيرا من تعاليق مؤرخي الحركة الوطنية والتي تدخل في نطاق التأريخ (بالهمزة) الوقائعي أكثر مما تتصل بالتاريخ فإن أثر الأمير على شباب الحركة الوطنية كان بالغا، سواء عن طريق الاتصال المباشر أو بالمراسلة، كما أنه لاينكر أنه جعل من مجلته منبرا للتعريف بالقضية المغربية وخاصة المسألة البربرية التي عايش نشأتها وقيم تطوراتها فيما كتبه خاصة الى تلميذه أخينا الأكرم زعيتر ضمن الرسائل التي كان يبعثها اليه . ومما جاء فيها قوله :" لقد كان صدور الظهير البربري بالمغرب إيذانا بظهور الحركة الوطنية، ولولا هذا الظهير لما قامت للحركة السياسية المغربية قائمة ."

وفي رسالة أخرى من عشر صفحات كتب يقول له : " كانت فرنسا مستعدة للتراجع عن الظهير، ولكن خوفها من الضعف أمام ضغوط الوطنيين أحجم بها

عن ذلك . كانت تخشى لو أنها تراجعت وألغت الظهير أن يفهم ذلك منها بأنه ضعف وانهزام، ولذلك عادت وتابعت سياستها ".

مصادرة كتب الأمير

ولقد كان رد الإقامة العامة الفرنسية على حملة الأمير التي شنها على نظام الحماية هو منع ترويج بعض كتبه داخل المغرب، فبتاريخ 24 أكتوبر (تشرين الأول) 1934 أصدرت سلطات الحماية قرارا يمنع دخول كتابي : " لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم " و "حاضر العالم الإسلامي" الى منطقة نفوذها، بينما طبقت السلطات الإسبانية على منطقة نفوذها نفس التدبير بدون إصدار قرار .

وعندما تسربت نسخة وحيدة من كتاب " حاضر العالم الإسلامي " الى فاس تداولها شباب المدينة كما يذكر الهاشمي الفيلالي مسير الخلية الوطنية السرية التي انتميت اليها سنة 1936، وأقاموا حفلا أدبيا بعد انتهاء دورة الكتاب ثم بعثوا به سرا إلى الوطنيين بسلا والرباط كهدية ثمينة نادرة .

وكتاب حاضر العالم الإسلامي الذي كان يتبوأ هذه المكانة في المغرب الذي حرم من الاستفادة منه يتميز في الحقيقة بالتعاليق الضافية التي حررها الأمير أرسلان والتي جاءت أكبر من الكتاب نفسه، هذا الكتاب الذي كتبه بالإنجليزية الكاتب الأمريكي ستوداردلوطروب (LOTHROPE STOUDDARD) وعربه الكاتب الفلسطيني عجاج نويهض، وترجم الى الفرنسية بعنوان :" عالم الإسلام الجديد": أما كتاب "لماذا تأخرالمسلمون و تقدم غيرهم "، فهو كتاب مثير عالج هذه الإشكالية بمقدرة الخبير المطلع على أوضاع المسلمين، ونفذ في تحليله إلى الأعماق بطرح مضاعفات الإشكالية والتقدم بحلول لها، وحصر أسباب تأخر المسلمين في خمسة عوامل :

(1) الجهل أو نقص المعرفة (2) فساد التربية والأخلاق (3) تحكم الخوف في النفوس (4) تسرب اليأس والقنوط (5) ضياع الإسلام بين طائفة من الحاقدين عليه من غير أهله، وطائفة من الجاحدين المنتسبين إليه .

ولعمري فإننا لن نستطيع أن نحذف من هذه الأسباب واحدا أو أن نضيف إليها سببا سادسا حتى بعد أن مر على صدور هذا الكتاب ما يناهز نصف قرن،

ظلت خلاله وإلى اليوم دار لقمان على حالها . إن عالم الإسلام بكل أسف ما يزال مشدوداً إلى نفس الأسباب الخمسة التي تكمن وراء تأخره .

وفوق ذلك جاء كتاب الأمير هذا يحتوي الكثير من المعلومات عن المغرب عامة وقضية الظهير البربري خاصة، وهو ما يفسر قرار مصادرته ومنع ترويجه بالمغرب .

ورسائله

وتبقى ناقصة صورة هذا الوجه العربي الكبير الذي تزدان به سلسلة الوجوه التي يتضمنها هذا الكتاب إن لم نشر إلى رسائله التي كان يوجهها للرؤساء والوزراء والزعماء والأصدقاء ودعاة العروبة والإسلام في كل مكان، والتي يؤلف حجمها وحده أكواما من الوثائق النادرة لو جمعت في كتاب لانتظم في مجلدات ضخمة. ففي هذه الرسائل تحليلات وتوجيهات وتعاليق عن قضايا الإسلام الساخنة عالجها أمير البيان بقلمه النابع بما كان يزخر به قلبه الكبير من هموم العرب والمسلمين .

وما أكبرحجم الرسائل التي تلقاها جوابا على مراسلاته التي احتفظت بها أسرته بعد وفاته إلى أن بعثت بها ابنته زوجة كمال جنبلاط الزعيم اللبناني الدرزي ووالدة وليد جنبلاط هدية لملك المغرب الحسن الثاني ردا على جميل صنعه عندما تحمل نفقات علاج أخيها غالب (إبن الأمير) وواسى الأسرة بالمعهود من مبراته. وقد نقل هذه الهدية الثمينة إلى الملك سفيره بلبنان أحمد ابن سودة ، فوضعها جلالته بالمكتبة الملكية بالرباط جريا على عادته، رهن إشارة الباحثين والمهتمين تعميما لفائدتها .

لاتنسوا فلسطين

وظل الأمير يحمل هموم العرب والمسلمين إلى اللحظة الأخيرة من حياته عندما قال لعبد الله المشنوق ساعة لقاء ربه : " إن وصيتي الأخيرة للمسلمين أن لاينسوا فلسطين وأن لايغفلوا عن إسرائيل."

=بين جنيف وباريس

وكذلك كسبت الحركة الوطنية الناشئة لها سفارة بجنيف في بيت الأمير، ومكتبا وصحيفة ناطقة باسمها، واستفاد رواد الحركة الوطنية ببلدان المغرب العربي الذين سعدوا بالعمل معه من تجربته الواسعة وخبرته الطويلة، وتأثر نشاطهم في الشمال والجنوب بتوجيهاته ونصائحه.

وبينما كان الوطنيون يستثمرون فوائد واجهة جنيف انفتحت لهم نافذه أخرى من باريس وفرها لهم سند اليسار الفرنسي خاصة الحزب الاشتراكي، وذلك عندما كسب رواد الطلبة المغاربة بباريس إلى صفهم شخصية فرنسية مرموقة : الأستاذ روبير جان لونكي (Robert Jean Longuet) المحامي بباريس، أحد نواب الاشتراكيين في البرلمان الفرنسي، ابن الزعيم الاشتراكي جان لونكي، حفيد كارل ماركس .

وبتأييده هو وزملاؤه للحركة الوطنية الناشئة عرفت مجلة " مغرب " الفرنسية طريقها للوجود، وأصبحت ناطقة في فرنسا باسم الحركة الوطنية المغربية، معززة نضال مجلة " الأمة العربية " بجنيف، مما أصبحت معه قضية المغرب في واجهة الإعلام العالمي .

الفصل العاشر

ذكريات دراستي في المدرسة الخضراء

عودة إلى الذات

والآن وخطواتي تمتد على صعيد فصول هذا الكتاب أود أن أعترف أني عندما صممت على إصداره كنت أتهيب اختراق مسالكه الضيقة التي كان علي أن أضع أقدامي عليها، لأني من جهة قررت أن أحتوي في كتاب - مهما امتدت أجزاؤه - مسيرتي عبر أحداث اتصلت بحياتي مدة نصف قرن ، ولأني من جهة ثانية التزمت أن أقدم مع الأحداث ارتسامات عنها وتقييمات لها ليست صياغة قوالبها من السهل الميسور، ولأني ثالثا أردت منذ البداية أن أوفق بين الصعبين : أن لاأكون مجرد سارد للوقائع، وأن لا أطمح إلى التوغل في تحليلها والتعمق في إبراز خلفياتها ، وأخيرا فلأن ذاكرتي هي زادي الوحيد في استعادة شريط الأحداث التي يتضمنها هذا الكتاب، دون استبعاد الاستعانة عند الاقتضاء بمن يتاح لي الاتصال بهم بيسر ودون جهد للتأكد من تفاصيل قد تكون ضرورية لاستصدار شهادة عيان بحق حادث، أو لوضعه بكل اطمئنان في سياقه التاريخي الحق .

وبالنسبة لمن سعدوا مثلي باكتناز حصيلة أحداث يطبعها التنوع في المدى والزمن امتدت طوال حياتهم على رقعة تاريخية مساحتها نصف قرن، أعتقد أنهم يعيشون سعادة غامرة حينما تتاح لهم استعادة مشاهدة شبه شريط سينمائي جرى تسجيله منذ بضع عقود من السنين واستدبروه مغمورين عبر الزمن في محيطات صاخبة متجددة، فإذا بهم يعودون إلى مشاهدته، وإذا هم يكتشفون أنهم ما يزالون مشدودين إلى صوره ومشاهده، وأنهم متفاعلون مع مقاطع حواره، متجاوبون مع مقاصده وعبره .

وكذلك أجدني ما أزال مشدودا إلى اليوم إلى شريط حلقات دراستي الأولى، وإلى مغاني ذكريات الطفولة والصبا أجترها في نهم، وأستحضرها في شوق وحنين.

فإذا ظفرت بأن أشد معي قرائي إلى شريط ماأقصه من أحداث، وأن أستجلي

وإياهم صوره من جديد فسأكون أكثر سعادة، لأني سأكون قد أدركت مبتغاي في تذكير من عاشوا الأحداث نفسها بصور الماضي، وفي فتح أبصار الجيل الصاعد ممن لم يعشها على معالمها بما تجليه من عبر، وبما تحتضنه من إيجابيات وسلبيات.

فلنترك أحداث الثلاثينات تجري في المغرب مجراها، ولنتوقف عند مغاني الصبا التي ارتدتها بمدينة فاس وعند ذكريات الطفولة بها، ولأتحدث عن فترة تمدرسي بـ " المدرسة الخضراء" التي تغير اسمها حسب المراحل التي مرت بها .

من الكتاب إلى المدرسة

همت بالمدرسة الخضراء قبل أن أغشاها، ولم أنتظر الحصول على إذن والدي لمغادرة الكتاب القرآني والتحاقي بها، وكان ذلك أول قرار اتخذته في حياتي .

وما أن اقتحمت بابها وأخذت مكاني بين تلاميذها حتى أحسست أني قطعت خطوة عملاقة حققت بها في حياتي نقلة نوعية من مرحلة الكتاب القرآني العتيق إلى مرحلة المدرسة العصرية المنظمة .

ألست أصبحت أقتعد المقعدالخشبي مرتاحا بدلا من الجلوس المتعب على الحصير ؟ ألست أنقل في الدفاتر بقلم الحبر أو الرصاص ما يخطه المعلمون بالطباشير على السبورة ؟ وقد كنت بالكتاب إنما أكتب على اللوحة الخشبية بقلم القصب، بعد أن أغمسه في دواة الصمغ، ثم لا ألبث أن أمحو من اللوحة في آخر المساء بالماء والصلصال ما أجهدت نفسي على كتابته في الصباح . في الكتاب كنت صبيا مغمورا في زمرة الصبيان الآخرين، ولم يكن أي منا ليحظى باهتمام " الفقيه " الذي كان يحيط نفسه بسياج من التقطيب والعبوس يفرض علينا أن نهابه ونخشاه أكثر مما يستحثنا أن نوقره ونعظمه .

كان الكتاب تطبعه الرتابة وتتعاقب فيه الأيام وتتشابه : كتابة سور من القرآن على الألواح واستظهارها، ومحو الألواح، وترديد بعض المتون ترديدا آليا تختزنه الحافظة دون وعي . كانت حياتنا تمضي هكذا في حركة آلية معادة، أو على وتيرة متناسقة النغمة لاتحتضن جديدا ولا تدخر مفاجأة . ولم يكن الكتاب القرآني المنقح الذي كان مرحلتي الثانية في التعليم يختلف إلا قليلا عن صورة الكتاب التقليدي .

أما في " المدرسة الخضراء " فقد تغيرت حولي فجأة معالم الصورة عندما

أصبحت بدون تدرج ضمن تلاميذ " الطبقة الأولى" التي كان اسمها هذا وحده يزرع في نفوسنا - نحن تلاميذها - شعور الكبرياء المشروع .

وكان تلاميذ الطبقة الأولى لا يتجاوزون أصابع اليدين ، مما جعلني أشعر أني أصبحت في هذه المدرسة معرفة بعد أن كنت في الكتاب نكرة، خاصة وقد كنت أتميز عن رفقائي بأني :«أخو الفقيه بوطالب» أحد معلمي القسم الأربعة الذين اقتسموا فيما بينهم تلقين موّاد الدراسة .

البداية

بيد أني وجدتني منذ البدء كما لو كنت أتجشم عقبة كأداء يحجب عني علوها معالم الطريق .

لقد تسلقت قطار " الطبقة الأولى " وهويغذ السير، إذ سبقني إليها رفاقي الجدد ومارسوا بها لفترة حياة المدرسة، وكانوا قد انتقوا بعناية من بين النجباء، وكان علي أن أدخل معهم في منافسة لاتتكافأ أسلحتها، فقد كنت بالإضافة إلى ذلك أصغرهم سنا ولكن سرعان ما اشتدت آصرتي بهم جميعا، فأصبحوا لي رفقاء دراسة، ومنهم ثلة سعدت برفقتها طول العمر، وكان من بينها الإخوة : أحمد ابن سودة، رفيق مسيرة النضال، مستشار جلالة الملك، وعبد الوهاب بنمنصور، مؤرخ المملكة المغربية، والمرحوم حماد العراقي الذي لمع اسمه بين قضاة المغرب الذين انتخبوه في الستينات لرئاسة " رابطة القضاة" عندما كنت وزير العدل في حكومة المغرب .

وقد صنفت الطبقة التي انتميت إليها في أعلى مستوى بالمدرسة التي كانت تلقن تعليما يختلف في مناهجه التربوي عن تعليم اليوم، إذ كان تعليما ابتدائيا، ولكنه لم يكن يتقيد بتنظيمات الطور الابتدائي ومستواه،فكثيرا ما كان المعلمون يتجاوزون نطاقه لينقلونا إلى مواد التعليم الثانوي بدون تدرج، وهي منهاجية تربوية تبدو فوضوية، أو على الأقل غير منطقية، إلا أنها كانت تجربة فريدة من نوعها. وما كنت لأحظى بتسجيلي في " الطبقة الأولى" لولا تدخل أخي محمد (أو الفقيه بوطالب) وتعهده أمام هيأة المدرسة بمساعدتي بالبيت ومتابعتي بنفسه بإعطائي دروسا إضافية للتدارك، إذ كانت مؤهلاتي الوحيدة جمعي - في مرحلة الكتاب - للقرآن حفظا، وإلمامي بما تيسر من المتون .

وكذلك التحقت بهذا القسم تحت التجربة، وبكفالة أخي الذي كان يعمل أيضا في إدارة المدرسة، وكان ذلك رهانا راهن عليه كان عليّ أن أكسبه ما وسعني الجهد.

ولم أخيب الظن، فبعد ثلاثة أشهر من معاناة تحصيل ممتد طول اليوم بالمدرسة وجزءا من المساء بالبيت، اجتزت أول امتحان، وأسفرت النتيجة عن ترتيبي في الدرجة الثانية بعد الرفيق أحمد ابن سودة.

وكان الترتيب يجري طبقا للمعدل الذي يحصل عليه التلميذ من مجموع نقط المواد الدراسية موضوع الامتحان. وهذه كانت تحتوي حفظ القرآن،ودروس علوم الدين وعلوم اللغة العربية وعلم الأدب وما ينبثق عنه من محفوظات وإنشاء. ثم انضاف إلى هذه المواد في مرحلة لاحقة مبادئ الحساب والجغرافيا والتاريخ ودروس الأشياء .

وكانت الواجبات المدرسية التي نقوم بها تحت إشراف المعلمين على كثرتها لاتعفينا من تكليفنا بواجبات نقوم بها بالبيت ، وهنا كانت تكمن الصعوبة، لأن ظروف العمل بالبيت كانت قاسية في غيبة حد أدنى من الوسائل المعينة التي لم يكن واردا إذ ذاك أن توضع في البيوت .

لقد كان علي أن أراجع دروسي وأعدّ واجباتي تحت سمع الأسرة وبصرها في أبهاء غرفة واسعة كانت - كما هي العادة آنذاك - تستعمل في آن واحد قاعة العيش اليومي للأسرة، وغرفة طعام توضع بها المائدة لتناول الوجبات الثلاث، وتتحول إلى مسجد لإقامة الصلاة تنتظم الأسرة فيه خلف إمامها الذي كان إما رب الأسرة أوأحد الأبناء عندما تتوفر في أحدهما شروط الإمامة، وربما وضعت فيها " مرمة " (طاولة خشبية) تتمرن فيها بنت أو أكثر على الطرز، ثم يتغير "ديكورها " بالليل لتستخدم غرفة نوم للصغار والعزب من أعضاء الأسرة، ولم يكن متصورا مطلقا أن يتوفر بيت ما على مكتب أو سبورة أو حتى كرسي لمساعدة الأبناء على إعداد واجباتهم المدرسية .

بدلا من ذلك كنت أستعمل الوسادة للاستناد عليها عند الكتابة إما جالسا على الفراش أو مقتعدا على الأرض، وفي أحسن الظروف كنت أسطو على مائدة الطعام أحيانا لأكتب فوقها في الفترات السابقة أو اللاحقة لميعاد وجبات الأكل .

و في الثلاثينات لم تكن جميع أحياء مدينة فاس قد جهزت بالكهرباء التي كانت تعتبر حسنة من حسنات الحماية الفرنسية و أفضالها، ولكن لم تخترق أسلاكها جميع البيوت .

من حسن حظي أني ازددت في بيت بدرب مشماشة بمدينة فاس كان يحظى

بنور الكهرباء، لكني أذكر أنا انتقلنا منه وأنا في سن مبكرة إلى بيت آخر في نفس الدرب قبل أن يتم تجهيزه هو الآخر «بالنور العصري»، فظللنا بين الفترتين نستضئ بالشمع . ولم يحل هذا التغيير بيني و بين مواصلة حفظ القرآن وقراءة المتون تحت ضوء الشمعة الصغيرة التي كنت أسابقها لأتخلص من واجباتي المدرسية قبل أن تسبقني إلى حجب نورها عني . ولم تطل هذه الفترة، فما زلت أذكر أن والدي اصطحبني معه إلى حي "باب السلسلة " بمدينة فاس،حيث اقتنى فانوسا يعمل بالغاز من دكان متخصص في بيع الفوانيس الغازية. وكان غلاء هذا النوع من أدوات الإضاءة العصرية لايساعد على تعميم استعمال هذه الفوانيس" المتطورة " بالبيوت .

أذكر أيضا أن والدي قال لي : " إن صانع هذه الفوانيس صاحب الدكان تعلم هذا الاختراع العظيم في الخارج. ثم علمت أن هذا " المخترع " كان ينتمي إلى أسرة سوسان، وأنه كان ضمن البعثة الطلابية التي وجهها في أواخر القرن التاسع عشر إلى الخارج السلطان الحسن الأول لتتلقى تعليما عصريا يساعدها على استعمالها أطر إصلاح وتجديد عند عودتها من أوروبا، وكانت البعثة الطلابية المغربية توجهت إلى أوربا في نفس السنة التي توجهت فيها من اليابان إلى أوروبا بعثة طلابية شكلت بعد عودتها طليعة الأطر التي كانت نواة عهد النهضة اليابانية، تلك النهضة التي أفضت إلى تطوير اليابان إلى ما هي عليه اليوم من تقدم صناعي تقني مذهل. ومن سوء حظ المغرب عادت بعثته الطلابية إلى وطنها مرتدية اللباس الأوروبي، فتبرأ منها الناس و كفرها الفقهاء واعتبروها قد ارتدت واعتنقت النصرانية، لأنها لبست لباس النصارى أو " الكسوة الرومية " و " من تشبه بقوم فهو منهم " .

علمت بعد ذلك أيضا أنه لم يبق حيا من بين " البعثة الطلابية الحسنية " إلا مخترع الفوانيس الغازية هذا، وأنه أمام سد أبواب العمل أمامه- كجميع رفقائه- وجه نفسه وجهة المهن اليدوية، وتدرج عبرها إلى صناعة الفوانيس الغازية .

إن قصة البعثة الطلابية المغربية مقارنة بأختها اليابانية تؤكد أن كل بذرة إصلاح لاتؤتي أكلها إلا في المحيط الصالح، فقد كان محيط اليابان منفتحا على التطور، فاحتضن بعثته وقدر قيمتها، وتجهم لها محيط المغرب آنذاك فهمشها وحال بينها وبين المساهمة في تطوير المغرب وتحديثه .

ومما لاشك فيه أن البيروقراطية الإدارية التي لايخلو منها مكان، ولا تنقرض

في أية حقبة أو عهد كانت أيضا وراء الاستغناء عن خدمات البعثة الطلابية العائدة من أوروبا وأنها اندفعت بدافع التشبث بمكاسبها وأوضاعها إلى استبعاد البعثة العائدة من العمل في الإدارة المغربية، واستغلت انغلاق المجتمع المغربي لتظل على رأس السلطة.

حياة بسيطة وسعيدة

لم أكن أحس مطلقا بقسوة العيش في أحضان البيت، فقد كان طبيعيا أن تجري فيه حياتنا على ذلك النسق الذي لم يكن يخطر ببالي أي تصور لبديله، على العكس من ذلك كنت أسعد ما أكون بتوفير والدي ووالدتي لي جو الحنان والرعاية، بما كانا يبذلانه بسخاء لتسهيل مهمتي ومساعدتي- بكل ماكانا يملكان- على التغلب على صعوباتها .

والآن إذ أرتد بذاكرتي إلى الوراء مستعيدا شريط حياتي بالبيت أجدني مشدودا برباط الاحترام العميق لآباء العهد الذي أتحدث عنه .

لم يكن للكثير منهم إلا القليل من الموارد المالية، لكنهم كانوا ينمونه بكنز القناعة الذي لاينفد، وكانوا - أبا وأما وهم يرعون الأبناء - يلحمون عاطفة الأبوة والأمومة بمشاعر الدين، فيقدسون مسؤولية رعايتهم الأسرة لأنها جزء من العبادة. وكان هذا الشعور المزدوج الذي ترتبط فيه السماء بالأرض والخالق بالمخلوق ينمي التعاطف بين الزوجين، وبينهما وبين الأولاد. وفي هذا الرباط الوثيق يتفاعل تقديس الأبناء لآبائهم مع عطف الأبوين بما يشيع السعادة والوئام في البيوت . حتى ليصبح البيت للآباء والأبناء معا مستقر حب وعش حنان ، ومدرسة تربية، ومرفأ عقيدة .

ولقد كان والديّ يتباريان أيهما يغدق علي من رعايته وحنانه أكثر، فأنا كنت الذكر الأول الذي أنجبه أبي من فراشه الثاني بعد أن توفيت زوجته الأولى مخلفة له أطفالا شملتهم والدتي رغم صغر سنها بعنايتها كما لو كانوا من صلبها. وكان توجهي الدراسي في وجهة التعليم الديني الأصيل ينمي عندهما شعور مسؤولية واجب العناية بي، إلى حد يلتحم فيه بالغ عطفهما عليّ بعميق احترامهما لي .

كان والدي يردد أن الله أغدق عليه من فضله فحقق له دعاء المرحوم أبيه له أن يرزقه الله من صلبه ذرية علم يسعد بها في حياته . وقد كان ولده الأكبر من زوجته

الأولى (أخي محمد معلمي بالمدرسة) يشخص استجابة ذلك الدعاء حيث أنهى دراسته بجامعة القرويين وأصبح في عداد علمائها بعد أن تلقى الإجازة العلمية من شيوخه، وكان والدي يتوقع أن توجهي نحو التعليم الأصيل وشغفي البالغ بالدرس والتحصيل سيمضيان بي في نفس المسير.كنت أستيقظ كل يوم قبيل الفجر لأداء صلاة الصبح مع والدي، ولأغتنم فضل البكور الذي كنا نوصى من مربينا بالمبادرة لاغتنام لحظات هدوئه ونقاء جوه، مما يساعد على تنشيط الجسم لمواجهة إرهاق اليوم وامتلاك ناصية الدرس والتحصيل . ولقد أقنعنا معلمونا بأن بركة البكور لاتعوضها ساعة من نهار. ولقنونا حديث: بورك لأمتي في بكورها.

كنت أستيقظ مبكرا كما لوكنت أسابق الطيور . وفي سكون السحر الموحي بالوحشة التي كانت تقطعها أو تخفف من حدتها زقزقة الطيور كنت أبدأ أردد محفوظاتي التي سيكون عليّ استظهارها في المدرسة أمام المعلمين .

ولكم كنت أشعر بسعادة غامرة عندما تنهض والدتي إلى إعداد فطور الصباح ، لاتعهد بهذه المسؤولية المحببة إليها إلى غيرها من خدم البيت، عناية بولدها الحبيب وخدمة للعلم الشريف أيضا .

وكنت إذا ما أخلدتْ والدتي ذات صباح إلى راحتها، أغادر البيت مسرعا إلى دكان " سفاج " الحي الذي كان يوزع مجانا على تلاميذ الكتاتيب والمدارس الوافدين عليه التجارب الأولى لما ينضج في مقلاته من لذائذ الاسفنجات المصنوعة من رقائق العجين والمحمرة في الزيت ، يتبرك بالتبرع بها احتسابا وأجرا وطمعا في أن يكون يومه مباركا يضاعف له فيه الله الرزق .

وكان يصنع تجاربه الأولى في شكل لقمات تكفي آحاد منها لتشكيل وجبة فطور غنية . ولا أدري إلى أي " عباس "تنسب لقمات الأسفنج هذه التي تدعى " العباسية " وإن كان البعض ينسبها إلى أبي العباس السبتي المغربي دفين مراكش المشهور بالبذل والعطاء والحث على الإنفاق في سبيل الله . وكنت كلما توفرت لي بعض القروش أسمح لنفسي بأداء ثمن وجبة فطور ، فأرتاد حانوت بائع الحريرة (الحساء المغربي المشهور) . وكانت " زلافة " منها تفوق بكثير فطور الإسفنج ، لتوفر الحريرة على حراريات مغذية غنية .

ولكم زودتني والدتي بحفنات زبيب كانت تنصحني بازراد سبع حبات منها كل صباح، كانت تقول عنها إنها تنمي الحافظة عند الطفل بما يمكنه من

خزن المحفوظات واستظهارها بدقة ويسر. وكان أكل الزبيب وصفة وقائية وعلاجية ينصح به الآباء أبناءهم دون استشارة طبيب، فالمثل المغربي السائر يقول :"اسأل المجرب ولا تسأل الطبيب "، وهو مثل صادق إذا تذكرنا أن قواعد الطب إنما تتأصل بالتجارب .

وكانت ملكة الحافظة في الفترة التي أتحدث عنها مفتاح باب الدرس والتحصيل، ولم تكن لدى المعلمين والأساتذة وسائل إيضاحية تعليمية، وإنما كانوا يعتمدون طريقة إملاء الدروس على تلاميذهم، فالذي لايمسك من التلاميذ بالخيط المرسل من معلمه يفقد اتصاله بالدرس وتشتبه عليه المسالك والدروب .

"لَفقي الجايي"

كانت " المدرسة الخضراء " تضم بين حلقات دروسها حلقة تحفيظ القرآن على الطريقة التقليدية التي كانت متبعة في الكُتاب العتيق، وكان يشرف عليها شيخ بدوي لم يدرس بجامع القرويين، ولا تدرج في مستويات التعليم ، فهو أحق بوصف" لفقي" منه بوصف الفقيه.

إنه " لفقي الجايي " الذي حصر تخصصه في حفظ القرآن وتلقينه . وكانت حلقته تنعقد غير بعيد من " طبقتنا الأولى " وتعلو أصوات تلاميذه وهم يجأرون بترديد القرآن بدون انسجام حتى لتنغّص علينا السكون المطلوب توفره لتأمين سير قسم تعليمي تجاوز مرحلة حفظ القرآن الرتيبة إلى مرحلة ارتياد آفاق أرحب على مسالك المعرفة العامة .

ولحسن حظي أني - أنا الذي جمع القرآن حفظا في مرحلة الكتاب- لم أنضم إلى حلقة القرآن هذه، لكني كنت أغشاها على غير انتظام لمعاودة استظهار القرآن حتى لا يضيع من حافظتي.

وكان " لفقي" الجايي يشخص النموذج السائد لفقهاء الكتاتيب القرآنية التقليدية الذين كان أغلبهم يكتفي بحفظ القرآن بكيفية آلية، ثم يصبح يلقنه بنفس الطريقة والمنوال .

ولم يكن هؤلاء " المؤدبون " يدرسون مبادئ اللغة العربية، وبالأحرى لم يكونوا يجهدون أنفسهم على الإلمام بما يدعى علوم القرآن، خاصة من كان منهم يقضي حياته بالأرياف (البادية)، حيث لم تكن مدارس ولا معاهد ولافروع

للتعليم الديني الأصيل الذي كانت توفره في المدن وحدها معاهد متخصصة، لكن ميزتهم الأساسية كانت امتلاك حفظ القرآن تجويدا وكتابة .

وفي غيبة امتلاكهم لناصية اللغة العربية وعلومها، كان لبعضهم فهم خاص لما يظلون يرددونه ترديد " الحاكي الفونغرافي " من آيات القرآن ، وتأويل غريب لمقاطعها وتعابيرها، مما يؤلف من تلك التفسيرات والتأويلات نوادر غنية بالفكاهة لو جمعت في كتاب لضاهى أو فاق الكتب المعروفة عن نوادر المعلمين والمؤدبين مما توقف عنده أبو عثمان الجاحظ وآخرون .

كان يخيّل للفقيه الجايي أنه ينفذ بفهمه إلى أسرار القرآن فيفسر آياته غريب التفسير الذي يتحول أحيانا إلى تحريف . فقد كان يتضايق عند خروجه من المسجد يوم الجمعة من جماعة من حفظة القرآن يَسْتَجْدُون المصلين بتلاوة القرآن طلبا للصدقات ، ومن بينهم شيوخ مسنون، فيستعيذ بالله منهم ويقول عنهم : " إن الله توعدهم بعقابه في آية القرآن القائلة :" والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم ". وكان يفهم كلمة المعاجزين على أنها جمع عجوز، والسعي في الآيات على الاستجداء بها لطلب الصدقة حسب التعبير الدارج في اللهجة المغربية التي تستعمل كلمة سعى بمعنى تسول، ولفظ الساعي مرادفا للفظ المتسول . وهو استعمال عربي صحيح، إلا أن لفظ الآيات لايعني آيات القرآن، والسعي فيها ليس التسول بقراءة القرآن كما كان يفهم شيخنا الفاضل. ولا أدري أصحيح مانسب إلى أحد المؤدبين من أنه اشتبه عليه موقع فرعون في آية : " إنا أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعونُ الرسولَ "، فكان يقول عنه سيدنا فرعون توهما منه أن الرسول جاء في آخر الاية نعتا لفرعون وليس مفعولا به لعصى.

ثلاثة وجوه

كان يتعاقب على التدريس في قسمنا بالمدرسة الخضراء ثلاثة من أطر التعليم لست أدري أأتحدث عنهم باسم المعلمين أو الأساتذة أو الفقهاء.

إنهم من منظور المنهاج التربوي الحالي معلمون، لأننا كنا في طور التعليم الابتدائي، بينما كانوا من خريجي جامعة القرويين ، فهم أحق أن يدعوا أساتذة، ومع ذلك نستبعد الوصفين ونتحدث عنهم باسم الفقهاء.

ولأن تكوينهم كان جامعيا في الوقت الذي كانوا يلقوننا تعليما ابتدائيا، فقد كانت دروسهم مزيجا من مختلف أطوار التعليم .

الفقيه بوطالب

كان أخي الأكبر قد أجازته هيأة " المجلس العلمي " بالقرويين . وكان متضلعا في علوم العهد التي اختصرت- في فترة نكسة التعليم بالمغرب - في مواد علوم القرآن، من فقه وتوحيد ونحو وصرف ولغة وتفسير وحديث، وكانت كتبها تؤلف مجموعة ماكان يسمى " الكتب الصفراء " المتضمنة للمتون وشروحها وحواشيها والتي كان حفظها واستيعابها مقياس التحصيل العلمي والتبريز فيها معيار التفوق .

وقد حذقها أخي دون أن يتجاوزها إلى ما سواها من فنون الآداب أو المواد العلمية من حساب وكيمياء وفيزياء، فلم يكن هذا النوع من المعرفة يأخذ باهتمام الأوساط العلمية في ذلك الحين . لقد كان أخي نموذجا تقليديا يمثل النموذج السائد في عهده في جامع القرويين . وقد أصبح الفقيه بوطالب أستاذاً بثانوية مولاي إدريس بفاس، وطالت فترة تدريسه بها مما جعل منه أستاذا لأفواج من التلاميذ مازالوا يذكرون له نزاهته وحرصه على توجيههم في الاتجاه الإسلامي الصحيح.

الفقيه ابن البشير

التحق بمدرستنا الفقيه الحسين ابن البشير مخضرما بين زمرة العلماء الفقهاء، والعلماء الأدباء . وربما كان أكثر ميلا إلى الأدب واللغة منه إلى الفقه والتفسير والحديث، مهتما أشد ما يكون بالشعر والشعراء وتراجم الأدب . كان نموذجا آخر مكملا لنموذج الفقيه بوطالب. وكان طبيعيا أن يكون منفتحا أكثر من أخي بحكم التطعيم الأدبي الذي تميزبه . وحتى في سلوكه اليومي كان بنا أكثر اتصالا. ومن الاثنين ائتلفت لنا صورة الأستاذ المشارك الجامع بين شعبتي العلم الفقهي والأدبي ، وستصبح الشعبتان مع إصلاح تعليم القرويين شعبتي التخصص في سنوات الطورالعالي أو التعليم النهائي كما كان يدعى.

الفقيه محمد ابن عبد الله

كان الوجه المكمل للوجهين السالفين هو وجه الأستاذ محمد ابن عبد الله، وكان ألمع الوجوه وأقواها تأثيرا علينا، لايمكن لتلاميذه الذين حظوا بتربيته أن لاتقترن صورته المشرقة في أذهانهم بمعالم ذكراهم عن عهد الصبا والطفولة.

وأعترف - رغم ابتعاد مسافة الزمن بيني وبين الحقبة التي أتحدث عنها- أني أجدني مشدودا حتى الساعة إلى شخص هذا المربي الكبير الذي لم يفارقنا مأسوفا عليه إلا منذ سبع سنوات في سن يناهز الثمانين، بعد أن قضى حياته في حقل التربية والتعليم لايتوقف له نشاط ولا يضعف له نفس، مما يصدق معه القول إنه عاش معلما ومات معلما بالمعنى الفلسفي القديم.

"بيد اغوجية" فريدة

أجدني ملزما بالتوقف عند المنهاجية التربوية التي طبقت علينا نحن تلاميذ الطبقة الأولى بالمدرسة الخضراء، وإلى التعرض إلى دقائق التجربة الفريدة التي مارسها علينا هذا المربي الماهر تماما كما يمارس الخبير تجربة كيماوية في مختبر تجربة طبعتنا وصاغتنا في قوالب متميزة، كانت في حقيقتها ثورة " بيد اغوجية " غيرت شكلا وجوهرا ماكان متداولا من المناهج التربوية التقليدية في ذلك العهد.

لقد اصطفانا هذا المربى الكبير عشرة من نجباء التلاميذ ليلقننا ضروبا من المعرفة المتكاملة في نقلة نوعية ميزت تجربته عن التجارب، وأثمرت نتائجها في أقل من ثلاث سنوات طفرنا خلالها طفرة قياسية من مستوى التعليم الابتدائي إلى مستوى الطورالثاني من التعليم الثانوي. وكان قوامها ما انتهت إليه البيداغوجية الحديثة من أن الطفل قابل في حداثة سنه أن يصنع منه المعلم القدير ما يريد، كما يحوّل صَنَاعُ اليدين قطعةً عجين إلى مختلف الأشكال والأحجام. ولم يكن هذا الاستنتاج التربوي قد اكتشف في ذلك الحين، وإنما مارسه أستاذنا بثاقب ذكائه وصاغه في تجربته علينا.

كان يأخذنا وراءه إلى " قسم متنقل متجول " لا يتقيد بمكان ، إذ كان يلقننا دروسه بالمدرسة أحيانا وببيته أخرى ، بل كان يقودنا مرارا وراءه خارج أسوار المدينة ليحاضرنا متفيئين ظل شجرة في بستان ، أو مقتعدين رابية نشرف منها على مدينة فاس فنتملى بمناظر سطوحها ومآذنها . وكنا نفترش الأرض ونقتعد التراب أحيانا في " قلعة باب الحمراء " غير بعيد عن مقابرها . وكان في جميع لحظاته دافق الفيض كأنما هو "شلالٌ" ينهمر من قمة جبل أو سحاب هاطل بالخير والنماء.

وكان " القسم " مفتوحا لاينحصر عطاؤه في مادة معينة، بل تتدفق فيه المعرفة بشتى ضروبها وألوانها، لأن صاحبه كان مشاركا يحيط بمختلف المواد العلمية ويدور في حلبتها في غير عناء . كان يدرّسنا مادة النحو أو مادة الصرف فيفيض علينا فيهما من عطائه، ثم لا يلبث في بحث عارض أن يسرح بنا في آفاق الاشتقاق أو يفك أسرارالبلاغة، قافزا منهما إلى الفقه فالمنطق فالتاريخ، ضاربا المثل - فيما يبثه فينا من قيم سلوكية - بالنماذج البشرية المثالية الرائعة التي كان ينتقيها من بطون كتب السير .

ولم نكن نشعر وهو يحلق بنا في سماء المعرفة وينقلنا من أفق إلى أفق أن بين فن وآخر مسافة، أو أن بين مختلف العلوم حدودا . كان يحملنا على أن نخوض معه استماعا وانتباها وتعليقا هذا التيار الدافق من المعارف، ولم يكن يشفق علينا أن يجرفنا التيار أو أن تصاب أدمغتنا الفتية بدوار ونحن نشق العباب وراءه في بحر المعرفة . كان همه الذي لايبرحه أن يملي علينا ما وسعه جهده . وما كان أغزر جهده ! وماكان أكثر ما كان يملي ! كان يسوقنا خلفه وهو يسبح بنا في بحر المعرفة والتحصيل ويمرننا على شق الأمواج .، لأن القائد السباح الماهر كان واثقا في نفسه وقدرته على انتشالنا من الغرق والضياع .

وكان قسمنا يعمل في حصة مستمرة طوال اليوم لاتتوقف من الفجر إلى العشاء إلا فترات لتناول طعام أو أداء صلاة . وطيلة اليوم لم يكن يبدو على أستاذنا التعب، كما لم يكن ينتابنا نحن الملل.

لم يكن لهذا القسم المتجول المفتوح لاعطلة أسبوعية ولا دورية أو سنوية، فإذا ما لاحظ علينا أستاذنا بعض الإجهاد غيّر مكان الدرس لنستمتع في العراء بأنفاس هواء طلق ينعش فينا قابلية المزيد من التحصيل والاستفادة، أو أخذنا إلى بيته لنتابع الدراسة تحت سمع زوجته وبصرها، بينما تعد لنا الطعام سعيدة

بنا كما لو كنا أبناءها أو أعضاء في أسرتها الصغيرة .

وظل الأستاذ إبن عبد الله - طيلة السنوات التي رعانا فيها كمعلم وأب - يعلم ويتعلم في آن واحد، غير مكتف باطلاعه وتبحره في الدراسات التقليدية التي تخصص فيها ، بل تجاوزها إلى تحصيل غيرها من المواد التي كان يتلقاها مساء لدى أساتذة آخرين ليلقنها لنا صباحا.

لقد كا ن يصارحنا بأنه يتلقى في مساء كل يوم دروسا إضافية عند بعض المتخصصين، وأنه اتخذ له أستاذا لدراسة الرياضيات في شخص الحسن بن جلون الذي كان درس هذه المادة في مدينة مانشيستير بانجلترا، حيث ظل يعمل تاجرا، وبذلك كان يطبق على نفسه ما يدعى اليوم بمراجعة التكوين أو تحيين المعلومات، متقدما بذلك عصرنا الذي أصبحت فيه هذه المراجعة ضرورة بحكم التطور السريع الذي يعرفه العلم، حتى لقد أعدت كتب خاصة بمراجعة تكوين الآباء بما يقوون معه على مساعدة أبنائهم في إعداد واجباتهم الدراسية .

بهذه الطريقة الفريدة لقننا أستاذنا دروس الرياضيات والهندسة والجبر موسعا دائرة معارفنا ومقويا مداركنا العلمية، لايهمه أكنا قد استوعبنا كل ما كان يفيض به علينا من معارف أم أن ضاقت عن تخزين بعضها أذهنتنا القاصرة، مادام متأكدا أنه في الحالتين قد استطاع أن يشحذ في باطن وعينا ما لانملك استيعابه بالتمام والكمال .

وكان الأستاذ في جميع ما يمليه يستثيرنا في حوار علمي غني، وحتى إذا تقاعسنا عن طرح سؤال بادر هو فطرحه طالبا منا الجواب قبل أن يتولى هو الجواب أو التصحيح.

وفعلا فعندما انتهيت إلى دراستي العالية في جامعة القرويين كان خزان المعلومات المتنوعة الذي غمر به صدري هذا المربي الكبير أقوى معين لي على اجتياز المرحلة الدراسية العليا بيسر، إذ كنت كلما أنصت إلى محاضرات أساتذتي الجامعيين إلا واسترجعت صدى أحاديث الأستاذ إبن عبد الله كما لوكنت أجترها اجترارا ، أو كما لو كنت أستخرج من وعيي الباطني شريطا ناطقا تجرني مشاهده سنوات إلى الوراء ، وتشدني إلى ذكريات الطفولة في حلقات ذلك المربي القدير .

حلقات أثينا

وعندما أمكنني أن أقرأ فيما بعد عن مجتمع أثينا العلمي القديم وحلقات دروس سقراط وطريقة تعليمه سرح بي الخاطر إلى تلمس أوجه الشبه بين مدرسة الفقيه إبن عبد الله، وتلك المدرسة اليونانية .

وقد بدا لي أن أستاذنا كان في قسمه المفتوح - الذي كان يسمح عندما يكون في العراء بأن ينضم إلينا فيه بعض العامة - أشبه ما يكون بسقراط الذي لم يكن يغشى حلقات دروسه تلاميذه أو مريدوه فحسب، بل أيضا " الفضوليون الظرفاء " - كما جاء في كتاب أفلاطون وأخوته لليون روبان "Leon Robin" وكان من بينهم أفلاطون وأخوته الذين كانوا أكبر منه سنا، كما كان يرتاد حلقاته أطفال لم يبلغوا الحلم .

ويبرز تاريخ المدارس اليونانية في العهد القديم تفضيل تلك المدارس منهاجية الحوار بين الأستاذ وتلاميذه وهي الطريقة " التوليدية " فقد ذكر أفلاطون (Platon) نفسه في كتابه فيدر (Phédre) أن طريقة سقراط (أستاذ أفلاطون) كانت تفضل إذكاء غريزة البحث العلمي عند التلميذ بما يحمله على التجاوب والتفاعل في تفكيره مع فكرة أستاذه، وهي الطريقة التي اعتمدها أفلاطون نفسه ونقلها عن أستاذه. وكانت هذه " الطريقة السقراطية " تعتمد منهج السؤال والجواب الذي كان يوفر - كما قال أفلاطون - " شروط جدلية محكمة قادرة على اكتشاف الحقيقة ". وعلى الطريقة نفسها أقام مربينا قاعدة حوارنا معه وما أظن أنه كان قد قرأ عنها .

وكارسطو (Aristote) "مؤسس الليسي " الذي كان يعلّم تلاميذه وهو يمشي أو ينتقل من مكان إلى مكان فأصبحت مدرسته تعرف بمدرسة " المشائين " (Péripatéticiens)، فإن ابن عبد الله ابتدع في " المدرسة الخضراء" القسم المتجول، وساقنا وراءه عبر شوراع فاس القديمة مرتدين زيا موحدا نبذنا معه الجلابية التقليدية إلى " الدّراعة "، وطربشنا رؤوسنا، وانتعلنا الحذاء الأوروبي بدلا من " البلغة " (الحذاء المغربي) . وكان هو يتميز عنا بعمامة الرأس التي كانت شالا مخططا بالأصفر من نوع " شارا شاكر " الهندي .

لقد كنا في مشهدنا الفلكلوري ذاك نبدو في أعين محافظي شعب مدينة فاس كما لو كنا نسوق مظاهرة استفزاز نتحدى بها شعور المحافظة التي تناهض كل جديد، فلم يكن في المستساغ عند التقليديين - وكانوا غالبية سكان المدينة التاريخية العتيقة - أن يثور عالم من جامعة القرويين على المتعارف من الأزياء والعادات ، وينشئ عشرة من تلاميذه على الثورة بذلك الأسلوب الاستفزازي الصارخ .

وفي الواقع لم يكن أستاذنا ينمي فينا هذا الشعور من خلال ذلك المشهد المظهري فحسب، بل كانت دروسه وتوجيهاته ثورية كذلك، بما كان يبثه في نفوسنا من النزوع إلى الاستقلال الفكري ، والاعتزاز بالشخصية، والتشبث بالكرامة، والمجابهة بما نعتقده الصواب والحق، كلفنا هذا السلوك ما كلفنا .

وبجانب ما أخصب به أذهاننا من ملكة النقد والجدل العلمي زرع في نفوسنا شيم الثورة البناءة عن طريق التوجيهات الوطنية والمبادئ السلفية، وما عودنا عليه من خصوبة النقاش المفضي إلى التمحيص والاستنتاج الجازم، كان يهيب بنا أن لانتقيد بالمقاييس المتعارفة ، وأن نتخذ من المواقف والمبادرات ما يترجم استقلال شخصيتنا .

ومن أجل ذلك فمنذ أن تقيدنا بتوجيهاته وسلوكه أصبحنا في حداثة سننا ثائرين على الاستعمار، متجاهرين بالعداء للطرقية، مهيئين كقنابل موقوتة للمساهمة في إصلاح الفساد وتقويم الانحراف، وأحسسنا أن لنا في مجتمعنا رسالة، وأننا نتهيأ لأدائها . وإذا كنت قد اتخذت في حياتي أحيانا مواقف ثائرة أو صمدت أمام الصعوبات والمشاكل التي اعترضتني كما اعترضت جيلي، فلأن التربية الأساسية التي لقننيها هذا المربي الكبير بذرت في نفسي منذ الطفولة النزوع إلى الاستقلال الفكري ، ونشّأتني على الاعتزاز بالكرامة، وعلمتني ورفقائي أن لا ننضبط بالمقاييس العادية المألوفة ، وأن لاننساق في مجاراة الاتجاه العام أو نسير على غير وعي مع التيار السائد ، بل طبعني هذا المعلم الكبير على أن أسلك دائما من المواقف وأتخذ من المبادرات ما أعتقد أنه حق وعدل وخير .

المدرسة الثائرة

في أحضان مدرسة الأستاذ إبن عبد الله كنا نؤلف جيل العبور الذي أراده أستاذنا أن يكون جيل الطفرة والثورة على الأوضاع البالية . وكان كل شيء في المدرسة يساعد على ذلك : لقد كانت منهاجية تعليمنا، وأساليب التلقين المبتدعة ، وطريقة النقد المفتوح التي رُبينا عليها، مثلما كانت تنشئتنا على مناهضة الاستعمار ومحاربه الطرق والزوايا وعلى السلفية التي لايشينها تدجيل ولاتحريف ، كان كل ذلك يشكل ثورة أو يساعد على إذكاء جذوتها في نفوسنا .

لقد كانت المدرسة تدربنا على أن نبتكر ولا نقلد، وعلى تنمية حاسة النقد في أذهاننا، وعلى اعتماد طريقة الجدل عندما نناقش ، وعلى أن نصرح جهرا بما يختلج في صدرنا سرا، وعلى أن نصنع من أنفسنا شخصيات مستقلة، وهي السمات التي لابد أ ن ينشأ عليها جيل الرسالة التي كنا ننتمي إليه .

تأثير الكتاب المصري

وحتى انتقاء كتبنا كان في مدرستنا ثورة على المألوف من الكتب . ففي كتب مصرية كالنحو الواضح، والقراءة الرشيدة، وبحر الأدب، وسفينة النحاة، وجواهر الأدب ، كان فوج مدرستنا يجدد طرق تلقينه ليطعّم بهذه الكتب وأمثالها ما كان يعرف ب " الكتب الصفراء " المتداولة التي كنا ندرسها أيضا و هذا بينما لم يكن جيل من قبلنا يتجاوز هذه إلى الكتب الجديدة . وضمن الكتب الصفراء كنا نقرأ تلك التي تشرح ألفية ابن مالك، أوالأجرومية، أو لامية الأفعال، أو رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ثم تدرّجنا إلى قراءة جواهر الأدب ، والمنتخب ، والوسيط، ونور اليقين، وارتقينا في نفس الوقت لدراسة كتب شروح الشيخ خليل وحواشيه، وكتب ابن عقيل، والموضّح إلى آخر السلسلة .

ولقد كانت الكتب العصرية تستهوينا لا بمحتوياتها وككتب سهلة المنال فقط، ولكن أيضا بأسمائها المغرية بالنكتة . لقد كنا نتندّر عندما يضيع من

أحدنا كتاب " سفينة النحاة " فنقول عنه إنه غرق في " بحر الأدب".

وعندما كنا نقرأ في النحو الواضح لعلي الجارم ومصطفى أمين قواعد اللغة العربية في مادتي النحو والتصريف ، قبل أن نعكف على حفظ ألفية ابن مالك، ونفك أسرار قواعدها بحفظ " الشواهد" كان يشدنا كتاب النحو الواضح إلى آثار مصر ومشاهد القاهرة والأسكندرية ودمياط وحلوان والأقصر، مما كان يندرج داخل انكتاب ضمن مثال نحوي أو نص مطالعة أو إملاء .

منذ صباي هفوت تحت تأثير الكتاب المصري إلى مشاهدة الأهرام وأبي الهول، وعشقت بالأذن قبل العين حديقة الأزبكية بالقاهرة . وما أظنني كنت أنطق باسم هذه الحديقة نطقا سليما، لأن النص الذي تضمن الحديث عنها في كتابي لم يكن مشكولا، كما همت بقاعة " الأوبرا " التي جاء ذكرها في الكتاب ضمن مشاهد القاهرة دون أن يكون لي تصور واضح عنها .

وكانت لي حتى عن الحمار المصري رؤية خاصة، إذ كان ذكر أوصافه وسماته في الكتب المصرية يوحي لي بتميزه عن فصائل حميرالمغرب والعالم .

وعندما حللت بالقاهرة لأول مرة في عنفوان شبابي عجلت بزيارة مشاهد مصر، فاستكبرت الأهرام ، وأجللت أبا الهول، وعظمت في عيني القاهرة كلها، ولكني وجدت صورة حديقة الأزبكية أكبر من حجمها الذي كنت أتخيله، فخاب فيها أملي خيبته في الحمارالمصري الذي لم أجد فرقا بينه وبين نظيره الحمار المغربي.

منذ ذلك استقر في ذهني الوعي بتأثير الكتاب - أي كتاب- على عقول الناشئة، وأدركت دور الكتاب المدرسي ، خاصة في التواصل الفكري، وفي توجيه الإنسان في وجهة ترسيخ هويته أو استلاب حضارته ، فالكتاب المصري الذي شدنا إلى مصر والعالم العربي لايعادله إلا الكتاب الفرنسي أو الإسباني الذي شد أفواجا طلابية أخرى من جيلنا إلى ثقافة المستعمر وحضارته.

أغرقت دموعي في بحر الأدب

وعلى ذكر كتاب " بحر الأدب " تحضرني ذكرى قاسية عن قصة أول خطاب ألقيته بالمدرسة بمناسبة اختتام سنتنا الدراسية الثانية أو الثالثة عندما طلب مدير المدرسة منا - نحن تلاميذ الطبقة الأولى - أن نلقي كلمات في مهرجان

توزيع الجوائز على الناجحين وكنت في طليعتهم . وعندما كنت أستعد لتحضير أول خطاب في حياتي فاجأني والدي بقراره أن يأخذني معه لإحدى الزيارات العائلية التي كان من الضروري القيام بها، فاعتذرت عن تلبية رغبته بضرورة بقائي في البيت لإعداد كلمتي، ولكن أستاذي أخي محمد قطع دابر الجدال بيني وبين الوالد بأن عليّ أن أذهب للزيارة، وأنه سيتولى هو إعداد كلمتي، على أن أتمرن على قراءتها بعد العودة في المساء، وتم ذلك طبقا لحكم أخي، فألفيت في الغد كلمة أعدها لي بعنوان " أنا والمدرسة"، استهللتها بقولي:«أحب المدرسة و أهواها». وكانت كلمتي مرصوفة السبك دونها كلمات أقراني التلاميذ. ونجحت في أدائها أمام الحاضرين خير أداء، فانتزعت تصفيقا صاخبا في ذلك المهرجان ، وعدت إلى البيت مزهوا بالانتصار الذي حققته على أقراني، وبالنجاح الذي أحرزته في أول خطاب ألقيته أمام الجمهور.

وفي اليوم الموالي دعاني رفقائي في الفصل إلى الخروج إلى نزهة في حديقة جنان السبيل (الحديقة العمومية بمدينة فاس،) حيث أخرج حماد العراقي من جيبه كتاب " بحر الأدب " وأخذ يقرأ منه كلمتي التي ألقيتها في الحفل بالتمام والكمال .

انصرفت في خجل إلى البيت ، فقد نعتني رفقائي بالمدرسة بوصف الناقل المتبجح بكلمات مسروقة من الكتب. وفي البيت وجدت كلمتي فعلا داخل الكتاب الذي قرأ منه حماد العراقي فانهارت أعصابي ، ولم أتمالك وقوع وجهي بين دفتي الكتاب، حيث انهالت دموعي غارقة في بحر الأدب .

لم يكن أخي يعتقد أن علينا أن ننشئ كلمات بأقلامنا . كان يظن أن المطلوب منا هو أن نتمرن على الخطابة أمام الجمهور بأي نص مكتوب . وكان لي ذلك درسا تعلمت فيه الاعتماد على النفس والتقيد بالمثل القائل :" ماحكّ جلدك مثلُ ظفرك ". وكان ذلك بدايتي في التمرن على الكتابة والتحرير، حيث انطلقت من هذا الحادث مرتادا رحاب كتب الأدب حريصا على أن أبزّ أقراني في حلبة التنافس الخطابي كما كنت أتفوق في الدراسة، وتم لي ذلك في أول مناسبة .

عبد العزيز ابن إدريس

اكتمل منهج مدرستنا التربوي باتساع مواد الدراسة إلى مواد الرياضيات والعلوم الانسانية ، مما طبع المنهج بالحداثة والأصالة في آن واحد، وما

جعل من دراستنا دراسة مبتدعة لا تتقيد بطورخاص من أطوار التعليم المصطلح على تقسيمها إلى ثلاثة أطوار .

وقد وقع الاختيار على الأستاذ عبد العزيز ابن إدريس لتدريس مادة الجغرافيا التي كان يعتبر متخصصا عزّ نظيره فيها، إذ كان التوجه السائد بين العلماء الاقتصار على امتلاك ناصية المواد الدراسية التقليدية ، وكان القليلون هم الذين يجرؤون على اختراق آفاق مشارب المعرفة الجديدة ، حتى لتختلف النظرة إليهم بين المحتقرين لبضاعتهم والمنبهرين بها .

عن الأستاذ ابن إدريس يتحدث زميله وزميلنا الأخ أبو بكر القادري (في كتابه : رجال عرفتهم) كواحد من المنبهرين بميوله الرياضية فيقول : " وهو يمتاز عن غيره من كثير من العلماء بأن له فكرا رياضيا وذكاء فطريا جعلاه يتعاطى لعلوم التنجيم والهيئة والرياضيات ، فيكاد يكون قريبا من أستاذه الفريد في القرويين الذي كان في عهده مضرب الأمثال في المعرفة والإدراك . لا أنسى ذات ليلة ونحن جميعا في سجن الدار البيضاء سنة 1938 وهو يحدثني عن النجوم وأبراجها، وأصول التنجيم وقواعده، ويطل من نافذة الغرفة التي كنا معتقلين فيها ليراقب سير النجوم ويدلني على بعض الحقائق والخفايا التي لايدركها إلا العالمون ."

ويشير أبو بكر القادري وهو يتحدث عن الأستاذ الفريد في القرويين مضرب المثل في المعرفة والإدراك إلى الشيخ المرحوم محمد العلمي أستاذ علم التنجيم بجامعة القرويين الذي اشتهر بوصف العالم الفلكي والذي كان يدرس هذه المادة بكتاب " المقنع " وبكتابه " حل العقدة " . وكان يتميز عن زملائه العلماء بإلمامه الواسع بالرياضيات ، وخاصة علم التنجيم . وعندما درست عليه بالقرويين كنا نحن طلبته ننبهر بتدفق علمه الذي كان يشده إلى السماء ونجومها، وإلى الأبراج والأفلاك وخفاياها، مما كان يعلو به عن مستوى الأرض في نظر المقدّرين لعلمه ، وما يجعل المتزمتين يقولون عنه إنه يرجم بالغيب فيما يلقنه من العلوم التي لا فائدة من ورائها .

ومن ميزاته الكبرى أنه كان الأستاذ الوحيد الذي لايمكن الاستفادة من حلقته الدراسية إلا بتوفر الطالب على وسائل الإيضاح التعليمية التي لايستعملها غيره من أسطرلاب ولوغاريتمات . وكان كلما لقننا حلّ معادلة رياضية ، أو رصد مطلع الشمس، أو حساب ميقات الكواكب أو بزوغ الأهلة،

يختم درسه بالقول :" والله تعالى أعلم "، مطبقا بذلك سلوك العلماء المؤمنين المتحلين بأدب القرآن الكريم القائل :" وفوق كل ذي علم عليم ".

وعندما زار المرحوم عبد الله الجراري مفتش التعليم مدينة فاس سنة 1935 وتفقد معاهدها ألف كتابا خاصا عن رحلته - على طريقة الرحلات التاريخية المشهورة - سماه " نزهة الاقتباس ، من خمسة أيام في فاس " فسجل بدوره شعورالانبهار عن تخصص الأستاذ عبد العزيز ابن إدريس في الرياضيات بهذه العبارات :" قدم لي الأخ إبراهيم الكتاني السيد عبد العزيز ابن إدريس قائلا: " إنهّ ممن لهم الباع الطويل في الفنون الرياضية : ماشئت من حساب وتوقيت وجغرافيا وتاريخ ".

وكل ذلك يوضح تدني مستوى التعليم في الفترة التي نتحدث عنها إلى حد اعتبار من يلم ولو بتواضع - كما هو الشأن في أستاذنا المتحدث عنه - بمواد العلوم فلتة من فلتات الدهر أو الاستثناء الذي يؤكد القاعدة، بل لقد كان القليلون من العلماء هم الذين يتمكنون من تحرير رسائلهم وكتبهم تحريرا عربيا جيدا لا عوج فيه، إذ كانت دروس الفقه والتوحيد وما يعرف بالمنقول طاغية على سائر مشارب المعرفة .

محمد غازي «" المسيح "»

وكان الأستاذ ابن إدريس فوق اتجاهه العلمي المتميز أحد كبار رواد الحركة الوطنية ومؤسس تنظيماتها النّواتية كما كان رفيقا في المدرسة الناصرية بفاس للمرحوم محمد غازي، وهما معا كانا ضمن العشرة الموقعين على وثيقة مطالب الشعب المغربي، ومن بين الأربعة الذين اختارهم الوطنيون لتقديم الوثيقة إلى السلطان .

وبين المرحومين محمد غازي وعبد العزيز ابن إدريس جامع آخر، هو التقاؤهما على التمرس بالتقشف و الزهد، فقد كانا يلبسان البسيط من الثياب، ويكتفيان بالقليل من الطعام ، ويبدوان في المحنة أكثر مصابرة وجلدا. وربما كانا أكثر الوطنيين تأثرا بفلسفة غاندي، أو أنهما كانا يطبقان على نفسهما سلوكا متصوفا إلى درجة أنهما كانا يلقّبان في الرباط وفاس بالمسيح، وإن كان الفقيه غازي أكثر نعتا بهذا الاسم .

وقد ذكرت لي أوساط من حزب الاستقلال أن سلطات الحماية هي التي أطلقت اسم المسيح على الفقيه غازي، إذ كانت سحنته البشرية، وعيناه الزرقاوان، ولباسه الصوفي الخشن، ونظرته التي يسرح بها في محيطات التأمل والاعتبار، وزهده الذي يثير حوله التساؤل ، وإيمانه القوي بالعمل الوطني وتحطيمه الحدود بين ما يعتبر من واجبات الدين وما يعرف على أنه من واجبات الوطن، هي التي جعلت رجال الحماية في الرباط يروجون نعته بالمسيح، خاصة وقد كان يظل طول اليوم يذرع جيئة وذهابا حيه الذي كان يسكنه ب " ديورالجامع " بالرباط ويداه مشدودتان خلف ظهره مبشرا كل من يلقاه بالوطنية ، وحاثا الناس على التكتل وراء قادتها .

عندما استرجع المغرب استقلاله لم يستهوه من وظائف الدولة إلا وظيفة سفير المغرب بالمملكة العربية السعودية ليعيش في جوار الحرمين الشريفين. وعندما بلغ الثالثة والستين من العمر كان يرى أن على المؤمن أن يعتزل في هذه السن الحياة الصاخبة لينقطع لله، إسوة بالنبي عليه السلام الذي فارق الحياة في سن الثالثة والستين.

أما أستاذنا عبد العزيز ابن إدريس فقد كان مثاليا في زهده وتقشفه. عاش قبل الاستقلال بالقناعة و الكفاف. يتابع الحديث عنه أبو بكر القادري، فيصف جانبه المتميز هذا بقوله : " زرته ذات يوم في بيته، فإذا هو مع جماعة من إخوانه البدويين يأكل وإياهم خبزا وزيتا، وحاول أن يصنع لي كأسا من الشاي، فإذا أواني الشاي منزوية في ركن من البيت لاتصل إليها الأيادي، لأن السكر مقاطع، ولأنه لا يتناول منه لا القليل ولا الكثير ".

علماء بدون شهادات

والمرحوم عبد العزيز بن إدريس هو أحد علماء القرويين الشباب الثلاثة الذين قيل عنهم إنهم سقطوا في امتحان العالمية بالقرويين سنة 1932 بجانب علال الفاسي وإبراهيم الكتاني، في حين أن المجلس العلمي لجامعة القرويين، تحت ضغط سلطات الحماية الفرنسية اشترط عليهم لنيل شهادة العالمية أن يمضوا على وثيقة التبرؤ من الحركة الوطنية، وكانوا تقدموا للامتحان إثر مظاهرات الشعب ضد السياسة الفرنسية لعزل البربر عن الكيان المغربي، وكان الثلاثة من بين زعمائها وضمن

المعتقلين في أحداثها. قدم إليهم المجلس العلمي النص التالي للإمضاء عليه :

" آسف لما صدر مني من احتجاج وتظاهر ضد الظهير الشريف الصادر بضبط الأعراف البربرية، لأن ذلك يتنافى مع مقامي . وإني أعتذر عما فعلت، وألتزم أن لا أعود، وأقسم أن أتخذ فيما يستقبل كل ما من شأنه أن يجعلني مطيعا ممتثلا للمخزن".

وبدلا من أن يمضي المرشحون الثلاثة للعالمية على هذا النص ويدفعوا بالإمضاء عليه ثمن الشهادة الباهظ فضلوا أن يظلوا بدون شهادة. واكتفوا بشهادة الشعب لهم باستحقاق وصف العالم، حيث كانوا يقومون بإلقاء دروس تطوعية بالمساجد عرفت بدروس علماء الشباب .

ولم نستفد في مدرستنا كثيرا من علم أستاذنا هذا لأنه كان يوزع وقته بين مدارس متعددة كان يلقن فيها المواد الرياضية التي تميز بإلمامه بها، وربما كان الذين سبقونا إليه أكثر منا استفادة من دروسه، ومن بينهم الزميل عبد الكريم غلاب، وزملاؤه الذين انتقلوا إلى رحمة الله، ومن بينهم أحمد بن المليح، وعبد الكريم ابن ثابت، وعبدالمجيد ابن جلون. وقد عرف الأستاذ ابن إدريس عذاب السجون والمنافي، فلم يفلت من قبضة الاستعمار كلما حلت بالوطنيين محنة أو أصيب الوطن بسوء .

وكان يشار إليه على أنه منغلق في تحزبه عنيد في خصومته السياسية، مما جعل أحد المتطرفين المناهضين لحزبه (حزب الاستقلال) يمد نحوه يد العدوان ويُرْدِيه ذبيحا بسكين سنة 1959 أثناء حملة سياسية كان يقوم بها في مدينة تحناوت بالجنوب المغربي.

الرجعية تتحرك

بعد التجربة التربوية الفريدة الناجحة التي أجراها علينا الأستاذ محمد ابن عبد الله في مدرسته التي أصبحت تحمل اسم مدرسة العدوة (تنطق بفتح العين وتسكن الدال أي الضفة) أنشأ بالمدرسة شعبة للبنات، معززا بذلك نهجه الثوري في وقت لم تكن فيه تربية البنت في المغرب موضوع اهتمام، بل كان التيار المحافظ السائد يعتبر تهميش المرأة في المجتمع من مقومات الأصالة إن لم يكن يعتقد أن شل نصف المجتمع عن التربية والعمل والإنتاج امتثال لتعاليم الدين .

وبذلك طفا كيل صبر الحماية التي كانت تنظر بعين الحذر إلى تطور تعليم الذكور في المدارس الحرة ففاجأها مربينا الكبير بمبادرة زادت طينها بلة .

وحتى لا تتورط سلطات الاستعمار الفرنسي مباشرة في قمع الحركة الرائدة التي أصبحت المدرسة الشائرة تحمل علمها بمدينة فاس، أوعزت إلى أحد أقطاب الرجعية المغربية بالمدينة بأن يتولى كبر حبك مؤامرة على المدرسة - مديرا وأساتذة وتلاميذ - بدعوى انزلاقها في منهج تربوي لايقره الإسلام ولا يرتضيه، وأن يستصدر من بعض "علماء الدين " بالمدينة ممن هم على شاكلته فتوى بتكفير مدير المدرسة وتلاميذه، والتماس إغلاقها.

عبد الحي الكتاني

كان الذي تولى كبر الدعوة إلى التكفير والإغلاق هو عبد الحي الكتاني المعروف بفاس بموالاته لسلطات الحماية وتعاونه معها على ما يخدم مشاريعها في المزيد من مد نفوذها على البلاد وأهلها .

وكان " الشيخ عبد الحي " يتزعم فرعا للزاوية الكتانية بفاس تتيح له رئاسته أن يكون ضمن زمرة أعيان المدينة ممن كان الاستعمار الفرنسي يعتبرهم ركائزه في توطيد سلطته، ويسخرهم للقيام بالنيابة عنه بما يربأ بنفسه عن التورط فيه، وخصوصا عندما يكون لبعض المواقف و السياسات صلة بالدين والشريعة .

استدعى عبد الحي الكتاني لبيته بعض الخونة المعروفين بتعاونهم مع الاستعمار ومعهم بعض المغاربة الجهلاء الذين كانوا يدعون أنهم " علماء الدين " وأملى على مدعويه " صك اتهام " أعده بعناية، اتهم فيه المدرسة بالزندقة والكفر والإلحاد والزيغ عن الطريق المستقيم، وندد بالزج بالإناث في المدارس مجاهرا بأنه حرام، مضيفا أن عقد الحماية يلقي على فرنسا - صديقة الإسلام والمسلمين - مسؤولية الحفاظ بالمغرب على الدين الإسلامي وأعراف البلاد وتقاليدها، وأنهى مرافعة اتهامه بالتقدم إلى سلطات الحماية بطلب إغلاق المدرسة .

وبذلك برز جليا القاسم المشترك بين الاستعمار والرجعية، فعلى تجهيل الشعوب وتخديرها يلتقيان، وعلى تدجيل الرجعية وشعوذتها واستغلالها للدين بتشويهه وتحريفه يقوم تحالفها مع الاستعمار المناهض لكل تطور، المتخوف من كل يقظة.

كان عبد الحي الكتاني ينفرد عن سائر قادة الطريقة الكتانيين الآخرين وعن باقي أعضاء الأسرة الكتانية بتواطؤه مع سلطات الحماية التي ارتمى في أحضانها منذ أن جلده في حداثة سنه السلطان عبد الحفيظ لمشاركته في عملية تمرد على

النظام، قتل فيها محمد بن عبد الكبير أخوه الأكبر، فظل يجتر كامن الحقد على الأسرة العلوية، وظلت الحماية تستعمله في مناهضة العرش ومعارضة الحركة الوطنية. وكان ينتصب للتدريس في حلقات جامع القرويين لينشر أفكاره المسمومة ضد الوطنيين، أو ليغرق من ينجذب إليه من العامة في لجة تضليله. لذلك كان طبيعيا أن يسند له الاستعمار مهمة تولي الدعوة إلى نسف المدرسة التي كان اتجاهها لا يجري على نسقه ومنواله، والتي أصبحت تشكل عش ثورة فكرية .

ولقد اصطدمت شخصيا بمناهضة عبد الحي الكتاني هذا عندما أخذت ألقي دروسي الأولى وأنا ابن عشرين سنة في أبهاء جامعة القرويين وسط الجماهير الغفيرة التي كانت تحلق على درسي، وكانت تعد بالمآت، فغاظه الأمر وسعى إلى استعداء سلطات الحماية علي لحملي على التوقف عن متابعة الدروس. وهي فترة تاريخية ألفت في حياتي منعطفا حاسما سأتوقف عنده أطول في حديثي عن أحداث الأربعينات .

وحتى يتأتى إقبار المؤامرة التي شنت على المدرسة لجأ الأستاذ ابن عبد الله إلى المناورة، ووجد نفسه مرغما من باب التقية على التفاوض مع إمام الرجعية، وجاءت المساومة على حساب شعبة الإناث التي قبل أستاذنا بعد مفاوضات على كره إغلاقها لإنقاذ المدرسة، كما قبل أن يحضر الكتاني لاختبار تلاميذ المدرسة للتأكد من أنهم لا يتلقون من المعلومات مايثير أو يشين . وكانت مناورة أستاذنا دغدغة لكبرياء ذلك الرجل الموتور، الذي كان يدرك في باطن نفسه حقيقة ما يلقّن في المدرسة، والذي لم يكن يعنيه أمر الزندقة والإلحاد بقدر ما كان يهتم بإحاطة نفسه بهالة من الوقار والإكبار تمكنه من مواصلة إسداء الخدمات لأولياء نعمته سدنة الاستعمار من سلطات الحماية .

ما أزال أذكر أن الأستاذ ابن عبد الله كان - وهو يضرب لنا الأمثال التاريخية للبطولة والشهامة - يشير بالمقابل مثال الشيخ الكتاني هذا، ويعطي لنا عنه صورةسوداء لدرجة أننا كنا نعتبر اسمه مرادفا للخائن أو الدجال. لذلك أفرد مربينا حصة من درسه ليُسرَّ إلينا بما يهدد مصير المدرسة ويقبوله على كره استقبال الكتاني بالمدرسة في عملية إنقاذ، وأهاب بنا أن نتهيأ لاجتياز الامتحان الذي سيجرَى علينا بمحضره، موصيا بالانضباط والتظاهر باحترام الوافد .

أول لقاء بيني وبين الكتاني

وقد حضر الكتاني إلى المدرسة في مظاهرة مازلت أذكرها محتطيا بغلة مطهمة مسرجة، ومحفوفا بثلة من أعوانه وأشياعه ومريديه .

ولأول مرة نجد أنفسنا أمام الشخص الذي ألف في أذهاننا أسطورة من نسيج ما سمعناه عنه. وكان امتحاني الأعسر هو أن أكيف نفسي مع الظرف، وأن أبذل لذلك جهدا لا يقوى عليه بيسر طفل عودته المدرسة على التقيد بالمبادئ في غير زيغ ولا تأويل .

لقد كان من الصعب علينا أن نرتدي لباس النفاق، وأن نضطر إلى التحلي بالتوقير والاحترام لشخص رُبّينا على كرهه والتنديد بسيآته. ولم يسهل مهمتنا إلا وعينا بنبل مقصدنا وحرصنا على إنقاذ مدرستنا التي أدركنا أنها أصبحت في مهب الرياح، وأن علينا أن نجنبها العاصفة .

وعندما خطا الكتاني باب المدرسة حيث وقفنا في انتظاره لاحت لي صورة شخص بدين ضخم لامع الوجه حتى ليكاد الدم يتفجر من قسماته. وما أذكر بالضبط أكان مكتحل العينين، أو كان يضع على وجهه من المساحيق ما جعله يبدو في تلك الصورة اللماعة التي تبهر العين. كان كل شيء في جسمه يسهل له ماموريةَ الشعوذة والتدجيل التي اتخذها لنفسه ناموسا لازمه إلى أن نَظَرَ ونفذ مع بعض القواد أعوان الحماية حركة إبعاد السلطان محمد بن يوسف عن عرشه، ونفيه في العشرين من غشت (آب) 1953 .

أما الامتحان الآخر الذي كان علينا أن نجتازه فلم يكن عسيرا، فقد كانت أجوبتنا على الأسئلة التي وضعها علينا الكتاني في مواد دراستنا كافية لإرضاء فضوله وكبريائه، فأعلن أمامنا " صك الغفران " للمدرسة وتزكيته لمنهاجها التربوي، مصرحا أنه سعيد بما اكتشفه من سلامة عقيدتنا وتحصينها من كل زيغ. ولأول مرة أحسست في حياتي أني كنت معبأ في معركة، وأني انتصرت فيها مع رفاقي بأسلوب اللباقة والحكمة، وأن هذا الأسلوب أثمر ثماره بمعاناة وصبر، وبنجاح في آخر الأمر . ورضي زائرنا وسيط الحماية بأن تكتفي السلطات الفرنسية بإغلاق شعبة

البنات. ولم يمض إلا شهر على إغلاق هذه الشعبة حتى لاحظ سكان فاس باستغراب إقدام سلطات الحماية نفسها على فتح مدرسة للبنات" بباب الحديد " بفاس، قبلت في أقسامها نفس الفتيات اللواتي أغلقت في وجوههن شعبة مدرسة الأستاذ ابن عبد الله، في محاولة تطويق السخط الذي عم سكان فاس بعد تدبير الإغلاق، ولتضمن الحماية مراقبتها على تكوين جيل نسوي على منهاجيتها.

داء قديم

كل شيء يؤكد أن عبد الحي الكتاني هذا شب وترعرع على بيع نفسه للشيطان، وأنه مثل غير مرة دور المدعي العام في " محاكم التحقيق " الفكرية الخلقية التي نصبها لمحاكمة خصومه والحكم عليهم بالزندقة والإلحاد .

لقد كان يمثل في الثلاثينات عندما كان يسعى لإغلاق مدرستنا نفس الدور الذي تمرن عليه في بداية العشرينات، عندما كفر تلاميذ المدارس العصرية قاطبة، إلا أنه لم يجرؤ على المطالبة بإغلاقها، لأنها كانت مدارس الحماية الفرنسية.

ففي كتاب مخطوط أتحفني به بعض الإخوة الباحثين يوجد في إحدى المكتبات الخاصة بالرباط كتبه المرحوم عبد الحفيظ الفاسي في فاتح ذي القعدة عام 1340ه (وهو ما يوافق سنة 1921) جاءت حقائق شيقة تؤكد أن مناورة الشيخ الكتاني لإغلاق مدرستنا لم تكن إلا حلقة في سلسلة مناوراته لترسيخ التجهيل، مما يبرهن على أن داءه قديم عضال.

كتاب شيق

وقد سمى عبد الحفيظ الفاسي كتابه :" تشييد الحصون والمتارس، للدفاع عن أبناء المدارس " وجاء فيه: " إن الشيخ الكتاني كان يتهم بالزندقة والإلحاد تلاميذ المدارس العصرية (التي انشأتها الحماية الفرنسية بالمغرب) ويقول في حملة كلامية دعائية عنهم :" إن الشبيبة العصرية التي دخلت للمدارس لم تتعلم إلا الزندقة والإلحاد، وأنها تمذهبت بالمذهب الوهابي، وأنها لا دين لها لأنها تحلق لحاها، وأنها تتجرأ على سب رجال الطرق والزوايا (وهذه في الحقيقة هي خلفية التهمة) وتحتقر العلماء.

ويضيف صاحب الكتاب : " إنه تم لقاء بين الشيخ الكتاني وابني عبد الكبير الذي يدرس بثانوية مولاي إدريس بفاس، فدافع ابني عن رفقائه الذين يتهمهم الكتاني، وبرأ ساحتهم من تهمته، فاعتبر الكتاني أن ولدي تجرأ على مقامه بالسب، وأخذ يطالب سلطات الحماية بالانتقام منه وطرده من المدرسة ."

وأبرز المرحوم عبد الحفيظ الفاسي مراده من تأليف كتابه فقال : " إنه يريد أن ينبه حكومة الحماية الفرنسية حتى لا تقع في التضليل " ولذلك بعث بكتابه إليها حتى تتنبه - كما قال - إلي : " أن ما قام به الكتاني في قضية الشبيبة العصرية من تشعيبها ومجاهرته بمطاردة التلاميذ هو عقبة كؤود في طريق الإصلاح ونشر المعارف الذي يسعى إليهما - بكل ما في وسعه - جلالة مولانا السلطان وسعادة المرشال ليوطي المقيم العام، فكل ما سعيا إليه منذ عشرة أعوام (كان مر على تأسيس الحماية عشر سنوات في هذا التاريخ) وأسساه قد هده الكتاني المذكور بحمله في دروسه على تلك الشبيبة المتنورة البريئة من الكفر ".

وقد جاءت في الكتاب إشارة تستحق التوقف عندها عندما قارن المؤلف بين عمل الكتاني وحركة النبهاني التي عرفتها بلاد الشام، والتي كانت تدعو إلى تحذير الناس في المشرق العربي من تلقي العلوم العصرية، فقد قال في ذلك : " ولعل الكتاني لما رأى تحذير النبهاني وغيره ممن على شاكلته من تلقي العلوم في بعض المدارس الشامية اراد ان يظهر (في المغرب) بمظهره تضليلا للعوام، متجاهلا أن تلك المدارس أسسها (في الشام) اليسوعيون من الأميريكان وغيرهم لتعليم قواعد دين النصرانية. ومن برنامجها أنه يجب على التلميذ أن يحضر كل يوم لاستماع الخطب الدينية المسيحية التي تلقى هناك ولو كان التلميذ مسلما. ومن لا يفرق بين تلك المدارس وهذه فهو ممن لا يفرق بين الضب والنون، وممن يحكم على الشيء قبل تصوره أو يعرف الحقيقة ويجحدها ".

كما اعتمد صاحب الكتاب في دفاعه أسلوب التفرقة بين الحماية الفرنسية وعونها المتآمر معها بطريقة دبلوماسية مرنة ليضمن بذلك تقبل السلطات الفرنسية لوجهة نظره وجلب تأييدها لصالحه، حيث كتب يقول : " ولو كان للكتاني شعور لما قابل حكومة جلالة السلطان وحكومة الحماية بمثل ما فعل، ولسعى غاية جهده في إعانتهما على نشر المعارف وتنوير الأفكار بإرشاد الناس إلى إدخال أبنائهم إلى المدارس، ولكن أبت نفسه أن لا تخرج من الدنيا حتى تسيئ لمن أحسن إليها (تحاشى المؤلف أن يترك هذه الحكمة المأثورة على لفظها المتداول القائل : (أبت النفس الخبيثة

أن لا تخرج من الدنيا) فلولا وجود جلالة السلطان مولانا يوسف وحكومة الحماية اللذان فتحا الزاوية الكتانية ورأساه عليها وأطلقا له الحرية في النظر في أمورها لكان اليوم صفر الكفين. ومن لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها. قال تعالى " لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد " انتهى كلام المؤلف الفاسي .

كما تضمن الكتاب رفع الستار عن فترة من حياة الكتاني لا يعرفها الكثير عندما أشارإلى فشله في حمل علماء فاس على انتخابه رئيسا لهم، وإلى امتناع المجلس العلمي للقرويين حتى عن قبوله عضوا في المجلس، وأنه بعد فشله خرج من المجلس العلمي وأدلى بتصريح سب فيه علماء فاس الذين رفضوه قائلا عنهم : إن مقدمي الحومات (حراس أحياء المدينة) أشرف من علماء فاس ومن رئيسهم، وأن هؤلاء العلماء أذناب وبهائم، استخفوا بالعلم ومرتبته، وصيروا أنفسهم ضحكة في العالم (حين لم ينتخبوه رئيسا عليهم). وقد عوضني الله آلافا من المراتب خيرا مما حسدوني عليه (رئاسته أو عضويته للمجلس العلمي أو إدارة جامعة القرويين) وهذا ما يشرح لِمَ ظل هذا الشيخ الموتور يعاني من مركبات النقص والكراهية والانفصام منذ جلده صبيا فقيادته حركة مناهضة الحركة الوطنية إلى التمرد على سلطان البلاد الشرعي .

عمر ابن عبد الجليل الشاعر

وقد ذُيّل المخطوط سالف الذكر بقصيدة لعمر ابن عبد الجليل التلميذ آنذاك بثانوية مولاي إدريس بفاس أشاد فيها بدفاع صاحب الكتاب عن الشبيبة العصرية وهنأه بحرارة على خدمته للتعليم وللنشء الصاعد .

وكانت مفاجأة لي قدمها لي هذا الكتاب وأقدمها بدوري لقراء هذا المؤلف، إذ ما أعتقد أنه قد عرف عن المرحوم ابن عبد الجليل أنه قرض النظم في شبابه ولا عرف بأنه كان من الممسكين بالثقافة العربية إلى حد إزجاء التهنئة بقصيدة كاملة اختار لها بحرا صعبا .

وقد تبدو القصيدة اليوم في مستوى شعري غير جيد، ولكنها من صاحبها في ذلك الحين جهد أدبي محترم. ومما جاء فيها :

أيا حـافظ الديـــن يـاحرزه ... ويا حـامي الدين ياذا الهـمام
عـرفـتك والله قـبل اللقـــاء ... وقـبل الكلام وقـبـل الســـلام
عـرفـتـــك لما قـرأت الـــذي ... كـتـبت وسطرت يـوم الخـصام
رفـضت بـه قـول قـوم طـغـوا ... وتـاهـوا بميلهم للـحـــرام
فـيـالهم مـــعـشر سَفَـــل ... ويـالـهـم من شيـوخ لـئـــام
يريـدون ذلتـــــنا ويلـهـم ... أمـا عـرفـوا أنـنـا لا نُـضـام

وأمضى صاحب القصيدة عليها بعد هذه الكلمات : من المقر بعملك وأفكارك، صديق ابنك، بتاريخ 13 صفر عام 1341 عمر ابن عبد الجليل.

«تارتيف» المغربي

ومنذ أن اكتوت الشبيبة العصرية في أوائل العشرينات بمؤامرة الكتاني تكون عنه في ذاكرة الشباب صورة متكاملة تتدفق بروح الشر والنفاق والشعوذة والتدجيل. ووجد الشباب العصري في رواية تارتيف (Tartuffe) للكاتب الدرامي الكوميدي موليير تشخيصا للكتاني في صورة بطلها، فاهتمت بها الحركة المسرحية الناشئة التي ظهرت في العشرينات وعرضتها على المسرح وناضلت بها في وجه الطرقية المتدجلة. وتضايق الكتاني من رواية موليير فقد أبصر في مرآتها صورته، لكن صعب على سلطات الحماية منع تمثيل رواية موليير في المغرب، إذ لم يكن منطقيا أو معقولا أن تحذف الرقابة الفرنسية بالمغرب من التداول رواية كانت ضمن القطع المختارة من روائع الأدب الفرنسي المقررة في المعاهد الثانوية بالمغرب، ولو فعلت ذلك لغدت تكرر تدابير ما قبل الثورة الفرنسية عندما منعت هذه الرواية في فرنسا وطيلة حقبة لم تطل .

وأول لقاء بعلال الفاسي

ما أن تم لمربينا بمبادرته الذكية استصدار تزكية الرجعية المتآمرة لعمله التربوي وإفساد أوراق لعبتها، وبعد مضي أربعة أشهر فقط، حتى بادر بدعوة المرحوم علال الفاسي لرئاسة حفل توزيع الجوائز إثر حصولنا على الشهادة الابتدائية، وكان يرمز

بذلك إلى تحلله مما أكره عليه من استقبال قطب الحركة الرجعية، وإلى تلاحم المدرسة مع الحركة السلفية التي كانت في حرب مع الطرقية.

وقبيل الحفل تحدث إلينا أستاذنا عن الزائر الجديد كواحد من علماء شباب القرويين وكوطني ابتلي بمحنة السجن، ولم يضف إلى ذلك دور علال الفاسي بين الوطنيين، ربما لأن الحركة الوطنية لم تكن آنذاك قد تبلورت في تنظيمات محددة، إذ أن كتلة العمل الوطني لم يعلن عنها إلا سنة 1934، أي بعد ما يقرب من سنة من تاريخ اجتيازنا امتحان الشهادة الابتدائية وزيارة علال الفاسي للمدرسة .

وكم بدا لي زائرنا وسيم الطلعة مشرق الوجه، يشع من عينيه شديدتي الزرقة بريق ترافقه ابتسامة عفوية تنتشر على قسمات وجهه لتزيده وسامة. وقد حضر إلى المدرسة مرتديا جلابة بيضاء،وتغطي رأسَه عمامة صغيرة تنزل عذبتها محاذية كتفه الأيمن، وعلى وجهه لحية سوداء لا تتجاوز خط شعر خفيف يستر عارضيه وذقنه .

وكان وهو يضع علينا الأسئلة أو يناقش أجوبتنا يشدنا إليه بفصاحته التي لم يكن يتوفر على مثلها أستاذنا ابن عبد الله ذو المعارف الواسعة. كان علال الفاسي يتميز بصوت جهوري ينساب فيه نطق سليم ملحّ على إخراج الحروف من مخارجها، وتتغرغر في ثناياه الكلمات دون إزعاج ولا تكلف، فينفذ حديثه بذلك إلى السمع والقلب بدون استئذان .

وبدا لي التناقض صارخا بين صورتي علال والكتاني تناقض الظروف التي كانت وراء الزيارتين، فوداعة الأول وعفويته وتجاوبنا معه على غير سابق معرفة لم يكن يقابلها في أقصى طرفي النقيض إلا تقطيب الثاني وتكلفه ونفورنا منه .

ربما كانت زيارة علال أول اتصال بين الحركة الوطنية ومدرسة العدوة، فقد كانت المدارس الأخرى الموزعة على بعض أحياء فاس مرتبطة بتنظيمات الحركة الوطنية ومنتظمة في خلاياها، بحكم أن المشرفين عليها كانوا أعضاء مسيرين للتنظيم الوطني الذي كان يتأهب للإعلان عن نفسه في شكل تنظيم جماهيري بينما كان يبدو حرص الأستاذ ابن عبد الله على التشبث باستقلالية مؤسسته عن الانتظام في سلك بقية مؤسسات التعليم الحر، ولكن منذ زيارة علال أصبحت المدرسة تسير ضمن التوجيه العام للمدارس الذي كان يخطط له قادة الحركة الوطنية من قريب أو بعيد.

رحلة الجراري

نجح عبد اله الجراري إلى حد بعيد في توجهه نحو تدوين وقائع تاريخ المغرب، من عصوره الأولى إلى اليوم، وفي جمعه لبعض الأحداث المغربية المعاصرة تحت عنوان "شذرات تاريخية "

وضمن بحوثه عن تفاصيل الوقائع التاريخية ساقه " التطواف " إلى مدينة فاس في أبريل سنة 1935، بعد أن أصبح مفتشا للكتاتيب القرآنية والتعليم الحر. وكانت مدرسة الفقيه ابن عبد الله من مشمولات تفتيشه. وبعد الرجوع من زيارة فاس حرص المؤلف على أن يفرد كتابا خاصا لزيارته التي استمرت خمسة أيام فقط، وأن يصوغه على شكل الكتب التاريخية المعروفة بالرحلات. وكان تدوين وقائع الرحلات من لدن مؤلفيها وتسجيل مشاهدها وبث ارتساماتهم عن رحلاتهم واحدا من مصادر التاريخ والجغرافيا قبل أن يتطور أسلوب البحث والاكتشاف، وكان يطلق على مؤلف أية رحلة اسم الرحالة ضمن الأوصاف العلمية المتداولة حتى ولو كانت الرحلة سهلة المنال لا يضرب الناس فيها أكباد الإبل لارتياد الآفاق البعيدة. ومن هذه رحلة الجراري إلى فاس التي أطلق عليها صاحبها اسم " نزهة الاقتباس، من خمسة أيام بفاس ".

وعلى سبيل المثال أذكر أني قرأت في مقتبل عمري واحدة من هذه الرحلات للمرحوم عبد القادر ابن سودة عم أخينا أحمد ابن سودة، وقد كان خرج من فاس إلى الديار المقدسة للحج وعرج على مصر، وتنقل على سفينة ركاب اخترقت البحر، فاختار عنوانا ضخما لرحلته هو : " الرحلة الكبرى في أخبار هذا العالم برا وبحرا".

ومع ذلك فإن هذه الرحلات تغني بتفاصيلها ودقائق مشاهدها البحث العلمي لرصد حقبة تاريخية معينة والتعمق في ظواهرها الاجتماعية .

أتحفني الدكتور عباس بن عبد الله الجراري زميلي في أكاديمية المملكة المغربية مشكورا بنسخة مصورة من رحلة والده المخطوطة، واستمتعت بما ورد فيها عن مدرستنا مما سجله صاحب الرحلة بأسلوب عصره، ذلك أني لم أبق أحتفظ عن زيارة المرحوم الجراري لمدرسة الفقيه ابن عبد الله إلا بظلال باهتة، فنقلتني من جديد مطالعة " نزهة الاقتباس " إلى استعادة صورتها الكاملة .

مما لا أزال أذكره عن هذه الزيارة أن المرحوم الجراري أجرى علينا نحن الطبقة الأولى الامتحان الرتيب الذي تعودنا أن يجريه علينا الوافدون من مختلف الشخصيات التي أخذ يتناهى إلى علمها نجاح المدرسة، وأذكر أن صاحب الرحلة ابتدع جديدا ميزه عن الوافدين السابقين فختم زيارته لنا بإلقاء قصيدة تنويه بمدير المدرسة ما أزال أحفظ منها مطلعها فقط :

هنيئا يا ابن عبد الله أبشر بما قد نلت من فضل عظيم

كما أذكر أنه طلب من كل تلميذ أن يدون له في سجله كلمة قال إنه سيحتفظ بها، وأني سجلت بدوري كلمة. وكان ذلك كل ما ظل عالقا بذاكرتي .

وكم سررت وأنا أقرأ بعدما يقرب من نصف قرن ما جاء في الرحلة المخطوطة عن ذكرى هذه الزيارة.

يقول المرحوم عبد الله الجراري :

" ثم انصرفنا إلى مدرسة العدوة، وسرعان ما استقبلنا مديرها العزيز الفقيه الأديب العامل سيدي محمد ابن عبد الله ذلك الشاب الذي مثل إخوانه المغاربة بمؤتمر تونس الإسلامي، والمدرس الفقيه الفاضل سيدي محمد بوطالب، وقد طلبت منه أن يطلعني على برنامج المدرسة فأخذ يفصله لي تفصيلا، وكان من جليل البرامج العالية، لا من حيث الفنون ولا من حيث اختيار الكتب الدراسية . وهذا البرنامج يعرف بدفتر التلميذ، وهو يعبر أيضا عن نظام النقط التي تستوجبها نجابة التلاميذ على اختلاف طبقاتهم. ومن جملة ما أثبت في الدفتر أوقات الدخول والخروج مع تغيير في الساعة حسب الفصول . " وكان دفتر التلميذ هذا مما أبدعته مدرسة الأستاذ ابن عبد الله وتلقفته المدارس الحرة فيما بعد .

ولقد وجدت في إضباراتي غير المرتبة هذا الدفتر متضمنا نقطي وملاحظات أساتذتي بعد امتحان اجتزته بنجاح وتفوق، ولم يتضمن الدفتر تاريخا يحدد منشأه، وإنما حمل ختما كتب عليه اسم مدير المدرسة، وظل هو أيضا بدون إمضاء، مما يصور نمط التفكير والسلوك في الفترة المتحدث عنها .

ويضيف صاحب الرحلة: " ثم اقترح علي الأستاذ محمد بوطالب أن أصعد إلى قسم من الأقسام العلوية قصد رؤية التلاميذ هناك، فإذا هو قسم من أقسام المدارس الجديدة بكراسيه الجيدة ومعداته الجهازية، الأمر الذي نما لأجله نشاطي وانشرح لنظامه ضميري وكدت أحلق فرحا ."

إن هذه المقاطع الطريفة من هذه الرحلة تقدم صورة للجيل الحاضر عن ظروف

تكويننا نحن الجيل المخضرم، ومنها يبدو كيف أن ما يعتبر في عصرنا اليوم بديهيات كدفتر التلميذ وتنظيم مواعيد الحضور بالمدرسة والخروج منها كان يعتبر في الفترة التي نتحدث عنها ابتداعا أو ثورة ينبهر بهما راصدو ظواهر المجتمع، لأن مجتمع ذلك الوقت كان ما يزال يقطع على استحياء خطواته الأولى في مسالك التطور الضيقة .

ولنتابع مع صاحب الرحلة ارتساماته وهو يكتب أيضا :

" وقد حدثني الأستاذ بوطالب قائلا : " إن هاته الطبقة هي أعلى طبقات المدرسة، فألقوا على تلاميذها ما ترونه من الأسئلة " . عند ذلك أخذت أباحثهم في مختلف الفنون توحيدا وفقها، عبادات ومعاملات، إعرابا وتصريفا، حسابا وتلاوة ومحفوظات، فكانت المعارف تنبثق من ضمائرهم".

ثم أضاف : " وهنا آمنت بما قرأته في كتاب القرطاس للمؤرخ ابن أبي زرع أثناء وصفه أهل فاس بقوله : " وسكان مدينة فاس أحدّ أهل المغرب أذهانا وأشدهم فطنة وأرجحهم عقلا وألينهم قلوبا " .

ولما كان زائرنا ينتمي إلى مدينة الرباط فقد فجرت هذه الزيارة كامن تحرقه على شباب الرباط الذي لم يبرهن - في نظره - على تطلعه للتطور كما فعل شباب فاس، مما جعله يخاطب الشباب الرباطي بقوله : " أين أنت يا شباب الرباط ؟ أما آن لك أن تحقق فيك آمالنا مبرهنا على سمعتك لدى باقي مدن المغرب ؟ آه، آه ! متى أراك تزاحم إخوانك الفاسيين وتنافسهم في أعمالهم المقرونة بشفوف الذوق وغوص الفكر وتفجيرالحكم في رزانة وثباث صادق لا يعرفان للخور معنى ؟ "

وقد يستغرب كتاب العصر من شباب اليوم من أسلوب المؤلف، وقد يجدون فيه قلقا في التعابير، ولكن أكثرهم لا يعلمون أن المرحوم الجراري كان مع ذلك في فترة الثلاثينات إماما من أئمة الأدب والشعر، حيث كان المتمكنون من الكتابة بفصيح العربية قلة محدودة كان المرحوم الجراري واحدا منها.

وأود أن آخذ معي القارئ ليستمتع بما استمتعت به حين تابعت فصول الرحلة المذكورة فإذا بي تستوقفني منها أيضا هذه الفقرة : " ومن بين تلاميذ المدرسة الحدث النجيب عبد الوهاب بنمنصور (هو اليوم زميلي بأكاديمية المملكة المغربية، ومؤرخ المملكة) قائلا : " لي حضرة الأستاذ شعر هل لك أن تسمعه ؟ فجعل يملي ما فاضت به قريحته، مما خامرني معه سرور، وأعجبت به للطافته ونبوغه النادر " .

وبطبيعة الحال لم يكن الحدث النجيب يملي إلا محفوظاته من الشعر. وإملاء

محفوظ الشعر بدون تلعثم كان مقياس النجابة بالنسبة لتلاميذ مازالوا في عهد دراستهم الأولى .

وتحدث كاتب الرحلة عني فذكر أني سجلت له في دفتره الكلمة التالية :" هب النسيم، وسرت في الأفق رائحة الطيب بقدوم الزائر الذي دب في أحشائه نصح النشء من صميم الفؤاد، والذي صريعته القعساء في نجاح هؤلاء الأطفال". ثم قال إني ذيلت الكلمة بإمضائي .

كم أضحكتني هذه الكلمة بما احتوته من غريب المفردات التي ازدحمت فيها بدون تناسق، ولكني استفدت منها أننا كنا في الفترة التي أتحدث عنها نختزن معلومات تتكدس في حافظتنا على غير انتظام، وكانت التعابير الغريبة تشدنا إليها أكثر، فقد كنت أخذت في هذه المرحلة أحفظ عيون الشعر الجاهلي بقصائده المشهورة ومعلقاته. وكنت أعجب خاصة بالشعر الذي تطفح أبياته بالمستعصي من الكلمات، وكان من أحب الشعراء إلي السموأل والشنفرى ومن على شاكلتيهما. كنت أطرب وأنا أقوى على ترديد بعض أبيات الشعر المنحول المنسوب لامرئ القيس الذي يقول:

وكم كم وكم كم ثم كم كم وكم وكم قطعت الفيافي والمهامه لم أمل

وكنت أطرب عندما أقوى على ترديد البيت الثاني الذي تتكرر فيه لو، والثالث الذي تتكرر فيه عن، كما كان يستهويني من بين الشعر الغريب بيت الأعشى القائل

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شَاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوْلُ

ثم تدرجت من طور التخزين وحشد الذاكرة بالغزير من غريب الألفاظ ونادر التعابير إلى صقل ما خزنته، وتهذيب ما جمعته، ومع ذلك ظلت مرحلة التخزين أساسية باعتبارها المعبر الذي انطلقت منه إلى تجاوز الأشكال والقوالب اللفظية للعناية بالمدلولات والتعمق في المضامين.

أول مهرجان وطني

لم أكن بلغت العاشرة من عمري عندما حضرت لأول مرة مع رفقائي تلاميذ المدرسة في مهرجان شعبي نظمته الحركة الوطنية. كان ذلك يوم 18 نونبر (تشرين الثاني) 1933، وكانت المناسبة الاحتفال لأول مرة في تاريخ المغرب بذكرى عيد العرش ضمن التجمع الكبير الذي انتظم بالحديقة العمومية الكبرى بفاس التي كانت تحمل اسم " جنان السبيل " وحضرته وفود تلاميذ المدارس الحرة، وطلاب جامعة

القرويين، وتلاميذ ثانوية فاس، وجماهير شعبية، وظهر فيه لأول مرة زعماء الحركة الوطنية الذين كانوا يعملون في السرية داخل تنظيمات لم يكشف عنها آنذاك .

وقبل حضورنا إلى الاحتفال لقننا أحد أساتذتنا بيتي شعر لمحمد القري استظهرناهما ملحنَيْن :

مليك البلاد عليك الأمل يعلقه الشعب بعد العمل
فحقق له كل ما يرتجي يحقق لك الله كل أمل

وكانت وفود المدارس الأخرى قد حفظت البيتين، فرددتهما مرارا جموع التلاميذ في ذلك الحفل بما جعل أصداء أصوات الأطفال الناعمة تسري مخترقة أرجاء الحديقة وتعلو على زقزقة طيورها التي أخْلَدَتْ إلى السكون،مؤثرة الاستمتاع بعذوبة الأصوات المرددة لذلك النشيد المختصر الجامع .

وبعد نهاية الحفل شرح لنا أساتذتنا المراد بالتورية البلاغية التي تضمنها البيت الأول في ربط العمل بالشعب، حيث أقيم ذلك الاحتفال بدعوة من جريدة " عمل الشعب" التي كان يصدرها آنذاك المرحوم محمد بن الحسن الوزاني .

محمد القري

والقرّي (بضم القاف) صاحب البيتين من مواليد قرية بني قرة بنواحي فاس، وهو أديب لغوي لمع اسمه في بداية الثلاثينات كشاعر مفلق ذي ديوان خصب، تطبع الفحولة والأصالة شعره بحكم تكوينه الأدبي الذي تحدث هو نفسه عنه في ترجمة حياته المنشورة ضمن تراجم أدباء هذه الحقبة في كتاب " الأدب العربي في المغرب الأقصى" الذي نشره صديقنا المرحوم محمد بن العباس القباج. وهي ترجمة تولى إعدادها صاحبها وجعل عنوانها " ترجمتي بقلمي". وفيها أبرز الفقيه القري كيف تدرج منذ صباه على طريق امتلاك ناصية اللغة العربية والتوسع في معرفة آدابها وعلومها، إذ حفظ القرآن وهو ابن سبع سنوات، واستظهر المتون، حتى إذا بلغ الثالثة عشرة من عمره كان يستطيع - كما قال - أن يعرب أية جملة ويذكر شاهد إعرابها من ألفية ابن مالك.

وقد نسب صاحب الترجمة الفضل في تفوق مداركه إلى جملة من أساتذته خص منهم بعظيم التنويه وفائق الإشادة " أستاذ الإصلاح وشيخ الإرشاد ومهذب الأفكار

سندي في معلوماتي ومرشدي من هوة الضلال سيدي محمد بن العربي العلوي قاضي فاس الجديد " الذي كانت دروسه - هكذا يقول القري أيضا - لا تخلو من حكم وآداب وإرشادات وتحذير من العقائد الفاسدة التي عمّت وطمّت، ومن العوائد السافلة المردية لشعبنا المسكين في مهاوي التقهقر والإنحطاط ".

ويضيف : " وكان تعليم الأستاذ العلوي ومازال ممتازا عن سائر تعاليم المدرسين ودروسهم بحسن العبارة التي تقرب للطالب الفهم ويستفيد منها لغةً وإنشاء وحسن إلقاء، فشغفت بحفظ الأشعار والقصائد الطوال كدواوين النابغة، وعلقمة، والخنساء، والمعلقات العشر، وديوان عنترة، وقسم غير نزر من ديوان امرئ القيس، حتى كنت أقدر محفوظاتي من الشعر بما ينيف على اثني عشر ألف بيت ".

وقد وضع القباج ناشر الكتاب تحت صورة القري وفي صدر ترجمته الذاتية بيتين نظمهما الشاعر عن نفسه مصورا بهما في نفس الوقت حال أدباء عصره:

تقول لي ذات حسن ... ما الشأن فيك غريب ؟
أراك بائس حظ ... فقلت إني أديب

وهي شكوى من حالة نفسية تردى فيها القري الذي ظل غريبا بفاس منحبسا في غرفة ضيقة بإحدى المدارس العتيقة القريبة من جامعة القرويين التي كانت تؤوي الطلبة النازحين إلى فاس ممن كانوا يتمتعون لمواصلة دراستهم بمنحة دراسية قوامها خبزة يومية وسكن مجاني بغرفة بالمدرسة، وكانت حياتهم بين المدرسة وجامعة القرويين تفرض عليهم عزلة يصعب تحملها ولا يخفف من وطأتها إلا شغفهم بالتحصيل والدرس.

وقد وصف الشاعر القري حياة الوحدة هذه في قصيدة اخرى بعنوان " الوحدة والكتاب "، مما جاء فيها قوله :

هي وحدتي أسلو بها عن كل ما ... يلهي فؤادي والأنيس كتابي
وكفى به خلا تباعد شرّه ... لم يبد لي منه قبيح جواب
فهو السميراذا عدمت مسامرا ... وهو الصديق إذا عدمت صحابي

والفقيه القري من رعيل الحركة الوطنية المغربية. وعندما انشقت " كتلة العمل الوطني " التحق بقيادة " الحركة القومية " التي أسسها محمد الوزاني، وكان من أبرز خطبائها وأنشط مسيري خلاياها .

وفي سنة 1937 عندما اعتقلت سلطات الحماية الوطنيين، سواء من الحزب الوطني بزعامة علال الفاسي أو من الحركة القومية بزعامة محمد بن الحسن الوزاني، كان القري بين الوطنيين المبعدين إلى كوليمة بالصحراء، ومن الذين سيموا بها سوء العذاب. فقد " تفتقت عبقرية " الكمندان الفرنسي " أيار" حاكم الناحية عن أسلوب فريد للتنكيل بالمعتقلين بحملهم على الجري تحت ملاحقة سياط الجنود عند التقاعس أو الإبطاء. ولما كان القري بدينا ضخما ولا يقوى على مسايرة أقرانه في أشواط العدو المفروض فقد ربطه الكمندان الحاكم بأمره إلى عجلة كانت تجره ممرغا على التراب الشيء الذي أنهك قواه وسبب له مضاعفات مرضية . فزج به الكمندان في زنزانة وهو في حالة احتضار. وحتى لا يطول به انتظار الموت فقد " سهل " عليه الكمندان المهمة في اليوم الثالث بوضع كومة محترقة من الجير داخل الزنزانة عجلت بخنق أنفاسه، فكان أول شهيد للحركة الوطنية السياسية المغربية.

ويذكر الوطنيون الذين كانوا في معتقل كوليمة وعاشوا مأساة القري أنه كان يردد وهو مربوط الساقين إلى العربة الآية الكريمة : " ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا " .

ودفن القري بكوليمة وأخفي قبره، إلى أن اكتشف بعد ذلك . وعندما وصل خبر موته بهذه الفظاعة إلى فاس أبرق أحمد ابن سودة والمهدي الودغيري إلى المقيم العام باسم " الحركة القومية " بالاحتجاج والاستنكار، فحكم عليهما بالسجن شهرا، وكانت المرة الأولى التي سجن فيها الأخ ابن سودة، ثم توالي اعتقاله فيما بعد مرارا لتكون حصيلة سجنه ما يربو على خمس سنوات .

الفصل الحادي عشر

نشأة الصحافة الوطنية بالمغرب

جريدة «عمل الشعب»

عندما كنت آخذ مكاني في صف تلاميذ مدرستنا وأردد وسط قرنائي نشيد "القُري"،" في الحديقة العمومية بفاس بمناسبة دعوة جريدة " عمل الشعب " للاحتفال بعيد جلوس الملك على العرش لم أكن أدرك آنذاك أني كنت أدشن أول لقاء لي بالحركة الوطنية المغربية، كما لم أكن أعي أن ذلك التجمع الشعبي كان أول مهرجان تنظمه قيادة التنظيم الوطني المغربي الذي أخذ يجتاز عهد السرية، ليبرز بعد سنة في شكل تنظيم سياسي علني .

كانت جريدة " عمل الشعب " (L'action du peuple) أول جريدة تصدرها الحركة الوطنية المغربية باللغة الفرنسية في المنطقة الجنوبية الخاضعة للحماية الفرنسية . وكان يشرف على إدارتها ويحرر افتتاحيتها محمد حسن الوزاني. وقد صدر عددها الأول في رابع غشت (آب) سنة 1933، أي أن عمرها كان لا يتجاوز أربعة أشهر عندما أقيم لأول مرة مهرجان عيد العرش بدعوة منها .

ويقول مديرها : " إنه عرض فكرة إصدارها على أعضاء الزاوية (قيادة التنظيم الوطني السري) فلم يرحبوا بفكرته، بل نصحوه بالعدول عن المشروع، ولكنه تشبث بموقفه ."

وربما كان مرد اختلاف الرأي في هذا الموضوع - داخل الزاوية - بمدينة فاس إلى اختلاف الخلفيات الثقافية التي كانت تسود القيادة، فقد كان تمثيل المثقفين بالفرنسية فيها ضعيفا أمام الأغلبية التي كانت تنتمي إلى شباب جامع القرويين المكونين في التعليم الأصيل، والذين كانوا يحظون بتقدير الشخصيات الغنية من أعضاء الزاوية ممن كانوا يضمنون تمويل سير الحركة الوطنية بما في ذلك مؤسسات التعليم الحر التي كانت تقام تحت إدارة شباب القرويين .

وطبيعي أن لا تتفق الآراء - والحالة هذه - داخل قيادة من هذا التشكيل على تخويل الأولوية لإصدار الحركة الوطنية جريدة تنطق باسمها باللغة الفرنسية، فربما

كان المنطق يقضي أن يكون للحركة في البدء صوت عربي يخاطب الجماهير بلغتها ويوعيها بالقضية المطلوب تعبئة الشعب حولها، لكننا نفهم أن تكون للمثقفين باللغة الفرنسية وجهة نظر مخالفة، والوزاني في طليعة هؤلاء .

نفهم الدواعي التي جعلت الوزاني يتحمس لمشروع الجريدة الناطقة بالفرنسية: فقد كان قد عاد إلى المغرب حاملا شهادة العلوم السياسية من باريس وكان درس بها في معهد عال للصحافة، ويساهم مع زمرة من رفقائه في تحرير مقالات بمجلة "مغرب" (Maghreb) التي كانت الحركة الوطنية نجحت في أن تجعل منها بباريس منبرا للدفاع عن قضية المغرب منذ صدور أول عدد منها في يوليوز(تموز)سنة 1932 .

اقتنع الوزاني أن مقاومة الحركة الوطنية للحماية الفرنسية تتطلب الأساليب العصرية، وفي طليعتها أن يرتفع صوت الوطنيين ليخاطب الاستعمار بلغته، بغية زعزعة الرأي العام الفرنسي في المغرب وفرنسا عن تأييد سياسة الحماية وحمله على الاقتناع بعدالة القضية الوطنية، خاصة وقد كانت الحماية الفرنسية تصدر بالمغرب سلسلة من الصحف الفرنسية لدعم سياستها والتأثير بها على الرأي العام الفرنسي .

أول خلاف بين الوطنيين

ويعطي الوزاني تفاصيل عما يبدو في شكل أول خلاف واجهته القيادة الوطنية فيقول : " إنه فاجأ أصدقاءه بعزمه على إصدار الجريدة، وأنه وقعت بينه وبينهم مشادة كلامية في شأنها " .

ومن ثم يخلص الوزاني إلى تأكيد «أن جريدة " عمل الشعب " كانت مشروعه الخاص لا علاقة للحركة الوطنية به لممانعتها في تحقيقه».

وعندما نعود إلى ما كتبه المرحوم علال الفاسي عن منشأ هذه الجريدة في كتابه: " الحركات الاستقلالية في المغرب العربي" نجده يؤكد " أن الكتلة الوطنية هي التي قررت إصدار "عمل الشعب ". ولعله كان يعني التنظيم الذي سبق الإعلان عن الكتلة الوطنية .

وإذا كان الوزاني حرص على أن يدون للتاريخ أنه كان وحده صاحب مشروع الجريدة الفرنسية تصورا وتحقيقا، فإن علال الفاسي أوغل هو الآخر في سلوك طرف النقيض، فلم يسجل في كتابه أن الوزاني كان وراء المشروع، أو أنه كانت له فيه مساهمة تذكر، وإنما كتب : " وأهم الحملات التي قامت بها " عمل الشعب " هي

المقالات الممتعة التي كان يسجل فيها الحاج عمر ابن عبد الجليل فظائع الاستعمار الفلاحي " .

ويعلق الوزاني على هذا في مذكراته "حياة وجهاد":"إن ما ورد في بعض الكتابات المغربية من أن إصدار عمل الشعب كان من تأسيس ما سمي بكتلة العمل الوطني كذب صراح وتزوير متعمد. ويكفي تكذيبا لهذا أن صدور عمل الشعب كان في رابع غشت (آب) سنة 1933 بينما ظهر اسم الكتلة بمناسبة تقديم المطالب المغربية في الرباط وباريس في فاتح دجنبر (كانون الأول) سنة 1934، أي بعد منع " عمل الشعب " في مايو (آذار) من نفس السنة بسبعة أشهر " .

ويضيف الوزاني :" ولو أن جماعة الكتلة هي التي أسست الجريدة لما سمحت بأن أكون مديرها ورئيس تحريرها لأسباب لا تخفى . كما أن مجلة " مغرب" أعلنت في عددها بتاريخ 14 شتنبر (أيلول) 1933 أن " عمل الشعب " عنوان جريدة جديدة انشأها بفاس مساعدنا محمد حسن الوزاني " .

الوزاني الصحفي

وقد كان المرحوم الوزاني يعتبر نفسه المؤهل الوحيد بين أعضاء الزاوية لإصدار صحيفة باللغة الفرنسية بحكم دراسته المتخصصة، حيث كان أول مغربي تخصص في العلوم السياسية والصحافة كما أسلفنا، ولأنه تدرب على ممارسة الصحافة عندما كان مساعدا للأمير شكيب أرسلان في إصدار جريدة " الأمة العربية " (LaNation arabe) التي كانت تصدر بالفرنسية في جنيف وأيضا بما نشره في مجلة " مغرب " الباريسية من مقالات باللغة الفرنسية كذلك .

وظل هاجس تفوقه في ميدان الصحافة يخامره طول حياته معتبرا دائما أن امتهان الصحافة يخضع لقواعد وضوابط علمية وتقنية قل أن تتوفر للصحفيين الذين لم يدرسوا " علم الصحافة " كما كان يحلو له أن يردد، بل لقد كان يصنف قواعد هذا العلم إلى درجة التعقيد، وإلى حد أنه كان يرى أن هذا العلم أو الفن لا يرتكز محتواه على عملية تحرير الجريدة وإخراجها وإبراز المثير من عناوينها وتبويبها حسب الأصول فقط، وإنما حتى على فن إمساكها باليد وطي صفحاتها لقراءتها .

عندما عاد الوزاني من منفاه بالصحراء سنة 1946 وأطلق المقيم العام الفرنسي إيريك لابون (Erik Labonne) حرية الصحافة، أصدر حزب الشورى والاستقلال جريدة

" الرأي العام " الأسبوعية التي كان أخونا أحمد ابن سودة مديرها العام، وكنت لفترة مشرفا على تحريرها. وفيها كان ينشر الوزاني افتتاحياتها باسم "الغمرات "، وكنت أنشر مقالاتي تحت اسم حديث الأربعاء تارة و " هذه سبيلي" تارة أخرى بجانب مقالات سياسية متنوعة . بينما كان ابن سودة ينشر مقالاته النقدية بإمضاء " المفتي " تحت اسم "حديث المفتي" الذي أصدره في كتاب . وكانت الوسائل التي تتوفر عليها لإصدار هذه الجريدة من الضعف بحيث كان إصدارها معجزة لا تتحقق من المشرفين عليها إلا بمعاناة لا تطاق .

كان مقر الجريدة بالدار البيضاء حيث كان يوجد قلم التحرير، وكان المرحوم الوزاني يقيم بمدينة فاس من حيث يبعث مقالاته إلينا. وأذكر أنه كان كلما أصدرنا العدد الأسبوعي يبعث لنا بسيل مخطوط من الملاحظات في سعي منه إلى الإتقان وحرصا على أن تكون الجريدة حسب تعبيره مشرفة . وكنا نفهم من تلك الملاحظات أنه لا يرانا - الأخ ابن سودة وأنا - مؤهلين للإشراف على الجريدة، لأننا لم ندرس علم الصحافة في مصادره ومعاهده، ولم نأت بيوت الإعلام من أبوابها، ولم يكن يتصور الظروف التي كنا نعمل فيها لنخرج جريدة لم تكن أقل مستوى من مثيلاتها الصادرة في ذلك العهد، بل كانت تعتبر من أرقى جرائد ذلك العهد .

وكان بيننا وبينه نقاش عنيف حينما اعتزمنا تحويل الجريدة إلى يومية، فقد كان يرى استحالة نجاح هذه العملية ما لم تتوفر لها الشروط المطلوبة، ولكننا فاجأناه بإصدارها يومية وهو مقيم بفاس، فكان سروره بصدورها ممزوجا بشعور الندم على إطلاقه حكمه المسبق بفشلنا .

حرب القلم

لقد كان يعطي لسلاح الصحافة بعده الحقيقي، بل يعتبره أمضى سلاح في الكفاح الوطني. وتأثر في ذلك بنزعة أغلب الساسة الذين اتصل بهم أو قرأ لهم أو سمع عنهم. وساعده على ذلك خوضه تجربتين صحفيتين إحداهما بجنيف بجانب الأمير شكيب أرسلان على صفحات " الأمة العربية "، والثانية بباريس على صفحات مجلة " مغرب ". وقد طغى على الوزاني الميل إلى العمل الصحفي حتى لم تسجل له من إنتاجاته الفكرية إلا مجموعة مقالاته العديدة التي كتبها في مختلف الصحف مما لو جمعت بين دفتي الكتب لألفت مجموعة ضخمة. وكان يؤمن بأن

العمل الصحفي مشدود إلى صلب الكفاح الوطني ومرتبط ارتباطا عضويا بالتحرك لصالح نصرة الحركة الوطنية في كل عهد من عهوها . ولذلك جمع بعض مقالاته تحت اسم " حرب القلم " .

إن المقاومة السياسية عنده كالمقاومة العسكرية حرب واحدة لا تختلف فيها إلا الأسلحة، ولا انتصار فيها بدون اختيار السلاح الصالح لكل منهما .

لقد كان مما كتبه قوله : " أنا لست غريبا عن الصحافة كما لم تكن هي غريبة عني . وكيف لا تستهويني الصحافة وهي في ميدان الكفاح الوطني أمضى سلاح ؟ كما هي فضلا عن هذا أداة التعبير عن الرأي العام الذي هو - كما قال نابليون - سلطان العالم بدون منازع . إن الصحافة تفسح لي المجال لشن معركة الرأي العام وحرب القلم في سبيل الله والوطن. لذا وجدت فيها دائما ضالتي المنشودة " .

ولم تمض غير أشهر على صدور جريدة " عمل الشعب " حتى اضطر الوزاني للتوقف عن إصدارها طبقا لقرار المحكمة الفرنسية، ولكنه عجل بتعويضها مؤقتا عندما أصدر جريدة " إرادة الشعب " (LaVolonté du Peuple) وحمل عددها الأول تاريخ ثامن دجنبر (كانون الأول) 1933 .

وبعد أن حكمت محكمة الاستئناف بالإفراج عن " عمل الشعب " أعادها الوزاني للصدور موقفا جريدة " إرادة الشعب " في عددها الرابع عشر .

الوزاني الزعيم

وطيلة صدور جريدة " عمل الشعب " وإلى إيقافها بقرار من المقيم العام الفرنسي بتاريخ 11 مايو (أيار) 1934 ظلت الجريدة تستقطب حولها نشاط الحركة الوطنية المؤتلفة في تنظيم واحد. وقد صارعت الاستعمار وسياسة الحماية وتكتل المعمرين الفرنسيين بافتتاحياتها التي كان يحررها مديرها وبالمقالات التي كان يكتبها خريجو المعاهد الفرنسية، ومنهم من سيصبحون سنة 1937 منتمين إلى حزب علال الفاسي كعمر ابن عبد الجليل، ومحمد اليزيدي، ومن سيختارون حركة الوزاني كعبد القادر ابن جلون. وكانت الناطقة باسم الحركة الوطنية جمعاء والمبلورة لكفاحها الموحد، ووقفت في وجه الصحافة الفرنسية الاستعمارية الصادرة بالمغرب وواجهت أطروحاتها بأطروحات وطنية، وعارضت أباطيلها وترهاتها، وشبت بين الفريقين في هذه الفترة حرب قلم حقيقية، خاصة بين " عمل الشعب " وجريدة " الصوت الفرنسي"

(LaVoix Française) التي كانت تقول إنها تنطق باسم المصالح الفرنسية بالمغرب وتتخذ لها شعارا هو :" فرنسا قبل كل شيء". وتدخلت المحكمة الفرنسية أحيانا للبت في النزاع بين الوزاني وخصومه الفرنسيين .

وهكذا لمع في هذه الفترة اسم الوزاني كزعيم للحركة الوطنية بحكم أن جريدته حولت مجرى الكفاح الوطني في وجهة نشاطها الصحفي الإعلامي، إذ من خلال تحركه الصحفي الذي غمر الساحة السياسية بالمغرب، و الذي كانت له أصداؤه في فرنسا وأصبحت سلطات الحماية تتخوف عواقبه، اصبح الوزاني يمارس فعلا قيادته للحركة الوطنية. وكان الوافدون إلى المغرب من اليسار الفرنسي المساند للحركة الوطنية يحلون ضيوفا عليه في بيته بفاس، ومن بينهم روبير لونكي (Robert longuet) وبيير رونوديل. (Pièrre Renandel) وعندما كانت سلطات الحماية بفاس تستدعي الوطنيين للتحدث إليهم كان الوزاني هو الذي ينطق باسم زملائه أو يترجم عنهم، فقد كان أكثرهم لايحسن الفرنسية. وعلى رأس هؤلاء المرحوم علال الفاسي الذي انقطع هو وزملاؤه شباب القرويين إلى تكتيل الصفوف الشعبية حول الحركة الوطنية الناشئة وإلى مواصلة حملة التوعية بها داخل الخلايا السرية وفي رحاب جامع القرويين. وسنرى أن تميز هذه الفترة بظاهرة بروز اسم الوزاني كان له تأثير على الانشقاق الذي حصل داخل كتلة العمل الوطني وعلى حصول علال الفاسي على أصوات الأغلبية وعزلة الوزاني داخل قيادة الكتلة .

وعندما أسس الوزاني سنة 1937 هيأة سياسية باسم الحركة القومية كانت جريدة " عمل الشعب " الصحيفة الناطقة باسمها باللغة الفرنسية. وجريدة "الدفاع" صحيفتها العربية، بينما أصدر الحزب الوطني الذي أسسه علال الفاسي في نفس الفترة جريدة " الأطلس " باللغة العربية، وعارض جريدة " عمل الشعب" بصحيفة فرنسية أطلق عليها اسم " العمل الشعبي" (L'action Populaire) .

وإذ نتابع الوزاني في مسيرته الصحفية نجده محرراً أسبوعيا في جريدة "الدفاع" بالعربية ومتابعا نشر مقالاته بالفرنسية في"عمل الشعب"خلال سنة 1937، ومن هذا التاريخ دخلت الحركة الوطنية في عهد اضطهاد مريع بقي بعده الوزاني وزميله علال الفاسي مبعدين في المنفى طيلة تسع سنوات (عادا من المنفى سنة 1946 في إطار سياسة الانفتاح التي نهجها المقيم العام إريك لابون).

ومن منفى الوزاني بالصحراء نجده ينجح في تسريب مقالات خلال سنتي 1944 و 1945 لنشرها بمجلة " الثقافة المغربية " التي كان يصدرها بسلا المرحوم

سعيد حجي . فالوزاني هو الذي كتب في هذه المجلة مقال " نهضة العلم بالقرويين" بإمضاء أبي الفوارس، ومقال " المغرب والتراث الثقافي الأندلسي" بإمضاء حامي الحقيقة.

وعندما عاد من منفاه وأصدر حزب الشوري والاستقلال جريدة " الرأي العام" التي كان يديرها أخونا أحمد إبن سودة والتي صدر أول عدد منها بتاريخ فاتح أبريل (نيسان) 1947 ظل ينشر مقالاته تحت عنوان "الغمرات" ثم تابع إصدار مقالات أخرى في الستينات في جريدتيه " الرائد" و الدستور تحت عنوان " الوثبات " وفي جريدته " السياسة " تحت عنوان" العزمات " . كما نشر مقالات أخرى في " الرأي العام " تحت عنوان " فصل الخطاب "، أو " حديث جهينة."

وبينما دخل المشرق العربي في عهد الصحافة منذ أواخر القرن الثامن عشر، فإن المغرب لم يلج عهد الصحافة إلا بدءا من أواخر القرن التاسع عشر .

لقد كانت بلاد الكنانة (مصر) أول قطر عربي ظهرت فيه الصحافة العربية بصدور جريدة " التنبيه " التي أصدرتها السلطات الفرنسية في مصر بعد دخول قوات نابليون بونابرت إلى مصر في ثاني غشت (آب) 1798 وكان يشرف عليها كل من الفرنسي فوربي والمصري إسماعيل سعد الخشاب، ثم كان رزق الله حسون الحلبي أول عربي أصدر في استانبول سنة 1855 جريدة بالعربية سماها " مرآة الأحوال "، وبعد ذلك أصدر محمد علي في مصر سنة 1813 صحيفة رسمية شهرية باسم " جورنال الخديوي " ثم أصبحت أسبوعية . وفي سنة 1828 تغير اسم هذه الجريدة إلى " الوقائع المصرية ". وتوالى إصدار الصحف بعد ذلك في تدفق غامر داخل الأقطار العربية وخاصة بعد استقلالها . وفي سنة 1889 ظهرت باسم " المغرب " جريدة أشرف عليها عربيان من المشرق هما عيسى فرح وسليم كسباني ولم يمتد صدورها . وفي سنة 1905 صدرت بطنجة بمساعدة فرنسا جريدة "السعادة " باللغة العربية ثم تدرجت إلى صدور عددين فثلاثة أعداد في الأسبوع، ثم تحولت إلى يومية .

ومن طنجة انتقلت إلى الرباط حيث بقيت تصدر إلى إعلان الإستقلال . وتظل جريدة " السعادة" أحد المصادر الأساسية لتأريخ الحقبة المتراوحة في المغرب بين 1905 و 1956، فقد كانت الصحيفة الناطقة باسم الإقامة العامة الفرنسية، وكانت تحتوي تفاصيل أخبار المغرب الرسمي، وتنشر أهم القرارات

والمراسيم وتعيينات وترقيات الموظفين السامين، وتعكس النشاط الثقافي العلمي الذي لاترى الحماية الفرنسية غضاضة في نشره .

وكانت " السعادة " تصدر أعدادا ممتازة في بعض المناسبات كعيد العرش وعيد المولد وذكرى تحرير باريس، لكن الوطنيين الملتزمين بالخط الوطني أعرضوا عن الكتابة فيها لالتزامها المكشوف بخط سياسة الحماية . وبطنجة صدرت جريدة باسم " إظهار الحق " كان يديرها أبو بكر بن عبد الوهاب الذي عمل ترجمانا في مؤتمر الجزيرة (1906).

وقد صدرت بطنجة أيضا سنة 1906 مجلة " الصباح" بإدارة ابن حيون . وكان رئيس تحريرها هو وديع كرم اللبناني . وكان محمد العابد ابن سودة يصدر بفاس للرد على هذه الجريدة صحيفة دعاها " سنان القلم، للرد على وديع كرم ".

وأصدر بفاس محمد بن يحيى الصقلي في غضون سنة 1908 جريدة عنوانها " تنبيه المستبد "، كما أصدر محمد بن عبد الكبير بنفس المدينة جريدة باسم " الطاعون ". وعن ظروف عمله الشاقة بالجريدة كتب : «أنه كان ينشرها بخط يده، وأنه كان يجمع ببيته نساخها ويملي عليهم مقالاتها وهم متحلقون حوله قاعدين القرفصاء، فتصدر أعدادها على عدد ناسخيها» .

وأصدر محمد الصالح ميسة في الثلاثينات مجلة أدبية ثقافية سماها " مجلة المغرب " كانت ملتقى لأقلام الأدباء المغاربة كتابا وشعراء.

أما في الشمال المغربي الذي سبق منطقة الجنوب في إصدار الصحافة الوطنية فقد أصدر الزعيم المرحوم بنونة بتطوان جريدة " لاكازيط دي مَرْويكوس" بالأسبانية، أي جريدة المغرب، وجريدة " البيان " بالعربية . وأصدر المجمع العلمي الذي كان على رأسه بنونة هذا مجلة باسم " الإصلاح "، وجاء هذا الاسم في عنوان الحزب الوطني الذي نشأ بعد ذلك في الشمال : (حزب الإصلاح الوطني).

وفي بداية الثلاثينات أنشأ المرحوم محمد داود أول مجلة عربية ظهرت بالشمال تحت اسم " السلام " صدر العدد الاول منها في اكتوبر (تشرين أول) سنة 1933 و صدرت منها عشرة أعداد، ثم تلتها جريدة عربية وطنية أخرى اختار لها مديرها المرحوم عبد الخالق الطريس اسم " الحياة ". وصدر منها 77 عددا ثم توقفت عن الصدور لعجزها عن أداء الغرامات التي كانت تفرض عليها من السلطات الأسبانية زجرا لها عما كانت تنشره من مقالات لم تكن الإقامة العامة الأسبانية بتطوان ترتاح لها .

الإنفتاح الصحافي على أوروبا

خلال النصف الأول من عقد الثلاثينات كان الطابع المميز لكفاح الحركة الوطنية المغربية سعيها للحصول على سند تكتل سياسي فرنسي يناصر أطروحاتها السياسية ويحصنها ويحمي ظهرها ضد تعسف سلطات الحماية الفرنسية التي دخلت الحركة الوطنية معها مرحلة اختبار القوة .

ونلاحظ أن العمل الوطني الخارجي اخترق حجاب السرية في الوقت الذي ظل فيه الكفاح الداخلي يمضي أثناء هذه الفترة في ظل تنظيمات وتشكيلات سرية، كما تميز الكفاح بتسلم الوطنيين المثقفين بالفرنسية زمام القيادة بعد تبني خيار التوجه إلى مخاطبة الرأي العام بفرنسا لجلب تأييده .

في هذه الفترة لمعت من بين المثقفين بالفرنسية أسماء داخل الحركة الوطنية : الحاج أحمد بلا فريج، ومحمد بن الحسن الوزاني، وعبد القادر ابن جلون، ومحمد الفاسي، وعمر ابن عبد الجليل، ومحمد اليزيدي . وبرز وطنيون آخرون وكتاب باللغة الفرنسية اشتهروا بمقالاتهم التي كانت تصدر لهم في مجلة " مغرب " الباريسية، ثم بجريدة " عمل الشعب " التي أصبحت اللسان الناطق باسم الحركة الوطنية والمحاور للفرنسيين بلغتهم، سواء منهم المسؤولون عن الحماية، أو ممثلو الجالية الفرنسية بالمغرب، أو العاملون في الحقل السياسي بباريس من المعنيين أو المهتمين بشؤون مستعمرات فرنسا ومحمياتها، أو حتى بين المفكرين الفرنسيين المنظرين لسياسة فرنسية أكثر تفهما حيال الأقطار التابعة للأمبراطورية الفرنسية .

أحمد بلا فريج

لقد سبق الحاج أحمد بلا فريج (الذي كان أنهى دراسته بباريس واستقر بها) رفقاءه الوطنيين إلى الاتصال بجناح اليسار الفرنسي في البرلمان لتحسيسه بالقضية الوطنية المغربية التي أخذت أوساط فرنسية تتعاطف معها داخل فرنسا منذ أن وصلت أصداء السياسة " البربرية " إلى محافل باريس السياسية، بما حملته من تعسف سلطات الحماية الفرنسية ضد الوطنيين، وبما اتسمت به أحداث مصادمة

الشعب المغربي معها من عنف أبرز صمود الوطنيين وتكتل الجماهير حول دعوتهم .

سنَد اليسار الفرنسي

ومنذ اندلاع حرب الريف بقيادة المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي أخذ أقصى اليسار الفرنسي يتعاطف مع حركة الريف . وكان يتألف من شيوعيين ونقابيين ثوريين وحتى فوضويين وإنكاريين . وكان من أشهر زعماء هذا اليسار المؤيدين لحركة الخطابي الزعيم الشيوعي مارسيل كاشان (Marcel CACHIN) والنائب الشيوعي جاك دوريو (Jacques DORIOT). وكانت جماعة من هذا الجناح تطالب بوقف الحرب الفرنسية الأسبانية المضادة لحرب الريف وتنعتها بالحرب الاستعمارية، وتنادي بالتعجيل بالدخول في مفاوضات مع قيادة الحرب الريفية. وفي مجلس النواب خطب دوريو يوم 27 مايو(آذار) سنة 1925 قائلا : "إن الحزب الشيوعي يؤيد الجلاء العسكري الفرنسي عن المغرب، ويتبنى شعار المغرب للمغاربة"، لأن " للمغاربة من النضج ما يجعلهم قادرين على شق طريقهم بأنفسهم لتقرير مصيرهم ". لكن هذا التأييد ظل مقصورا على المتطرفين اليساريين من ساسة فرنسا ومن غير المسؤولين بها .

وبعد ظهور الحركة الوطنية المغربية في شكلها السياسي بدءا من سنة 1930 كان موقف أقصى اليسار الفرنسي منها يتلون حسب الظروف،فالشيوعيون - مثلا- كانوا عندما يشتركون في الحكم يرفضون كل تفاهم مع الوطنيين المغاربة، وعندما يكونون في المعا رضة يصرخون داخل البرلمان محتجين على سياسة قمع الوطنيين، ومنددين بالسياسة الاستعمارية المطبقة في المغرب .

أما اليسار المعتدل المتمثل خاصة في النزعة الاشتراكية المتحررة فقد كان من المفروض أن يتعاطف مع الحركة الوطنية المغربية التي كانت تطالب بتطبيق أكثر عقلانية لبنود الحماية، وتندد بالحكم الفرنسي المباشر، ذلك أن زعيمه جان جوريس (Jean Jaurés) كان في فترة التنظير لحكم الحماية، سنة قبل فرضها، يدعو إلى نوع من الحكم يأخذ بعين الاعتبار وضعية المغرب الخاصة . ففي إحدى خطبه سنة 1911 صرح قائلا :" إن علينا أن نعتبر الوضع المتميز للمغرب، وأن لانطبق به إلا الحد الأدنى من الحماية المكشوفة ".

ومع ذلك فإن الاشتراكيين لم يكن لهم موقف موحد من الحركة الوطنية، بل لم

ينفتح إلا بعضهم على التعاطف معها، وعارضت أكثريتهم هذا الاتجاه، مفضلة عليه تبني أطروحات امتداد الأمبراطورية الفرنسية، وإشعاع الاتحاد الفرنسي، ومنح إصلاحات جزئية للمستعمرات والمحميات، بحيث ظل السند الممنوح للحركة الوطنية من هذه الكتلة مقصورا على أفراد كانت لهم شجاعتهم الأدبية التي خسروا بها صداقات وزمالات فرنسية، ولكن أكسبتهم تخليد أسمائهم في المغرب وسائر البلدان المضطهدة كطلائع نضال، وقدمتهم كوجه آخر مشرف لفرنسا الحرة الوفية لمبادئ ثورتها .

روبير لونكي

ومن أبرز المناضلين الاشتراكيين الفرنسيين الذين ساندوا الحركة الوطنية روبير جان لونكي (Robert-Jean Longuet) المنتمي إلى سلك المحامين بباريس، وابن النائب الاشتراكي جان لونكي، حفيد كارل ماركس . وكان نائبا في مجلس النواب الفرنسي حيث كان يشغل منصب نائب رئيس لجنة الشؤون الخارجية .

وكان المحامي روبير جان يتردد على المغرب ليمارس مهمة الدفاع أمام المحكمة الفرنسية عن وطني مغربي (الدكتور أحمد الجبلي العيدوني) اعتقلته سلطات الحماية وصدر في حقه حكم قضائي بالسجن سنتين لممارسته نشاطا معاديا للحماية وتوزيعه مناشير مثيرة ضد السياسة الفرنسية المدعوة بالبربرية.

ومكنته زياراته للمغرب من معاينة شكل تطبيق الحماية من لدن المسؤولين الفرنسيين بالمغرب، فخطرت له فكرة فضح سياستهم على أعمدة مجلة يصدرها شهريا باللغة الفرنسية في باريس، وفاتح بالموضوع قيادة الحركة الوطنية التي كانت على اتصال به، ثم أخبر بمشروعه جملة من أصدقائه بباريس، وخاصة والده الذي كان - كما سبق ذكره - من ألمع النواب الاشتراكيين بمجلس النواب الفرنسي، واتفق الوطنيون على أن يضطلع برئاسة تحرير المجلة التي كانت تحمل اسم "مغرب" على أن يتولوا تمويلها وإمدادها بالأنباء والمقالات .

تأييد ومعارضة

وفي البداية عندما صدر أول عدد من هذه المجلة في يوليوز (تموز) 1932، أي بعد ستة عشر شهرا خلت على صدور الظهير " البربري "، انقسم الاشتراكيون بين

مؤيدي خطة المجلة ومعارضيها . وفي الفئة الأولى كان والد رئيس تحرير المجلة بما كان له من ثقل سياسي في الأوساط البرلمانية، بيير روناديل (Pierre Renaudel) وهو من أكبر زعماء الحزب الاشتراكي الفرنسي الذي كان يحمل اسم الفرع الفرنسي للمنظمة الأممية العمالية (S.F.I.O) . وقد انفصل عن حزبه مع طائفة من زملائه الاشتراكيين ليؤسس خلال سنتي 1932-1933 تجمعا آخر باسم الحزب الاشتراكي الفرنسي (P.S.F). و كان عضوا في لجنة الدفاع الوطني بمجلس النواب وذا تأثير قوي على نواب اليسار بالمجلس . وكان ضمن لجنة رعاية مجلة "مغرب " التي كانت تضم شخصيات يسارية مرموقة . كما كان (سنة 1934) ضمن الوفد البرلماني الفرنسي الذي اختاره الوطنيون لتقديم مطالبهم إلى وزير خارجية فرنسا .

وحظيت مجلة "مغرب " أيضا بتأييد النائب البرلماني جورج موني (Georges Monnet) الذي انضم إلى لجنة رعايتها وهيأة تحريرها خلفا لفرانسوا ألبير (Francois Albert) الذي عين وزيرا سنة 1933. وكان جورج موني يشرف على جريدة " الحياة الاشتراكية " التي كانت من أكبر جرائد اليسار الفرنسي . وقد دعا الشباب المغربي إلى الانخراط في الحزب الاشتراكي الفرنسي في خطاب ألقاه في الذكرى السنوية لصدور مجلة " مغرب " اعتقادا منه - كما قال - أن انتماءهم إلى هذا الحزب سيقضي على الحملة التي كانت توجه إلى الوطنيين المغاربة من الأوساط اليمينية الرجعية بأنهم ليسوا سوى عين موسكو، أو يد ألمانيا.

ولم يقبل محمد حسن الوزاني هذا المنطق من راعي مجلة " مغرب " ومناصر القضية الوطنية، فرفض عرضه باسم الحركة الوطنية على صفحات جريدة " عمل الشعب " بأسلوبه المباشر وماعهد في قلمه من مواجهة صريحة لما لا يؤمن به . وكان عنوان المقال :" هل من الخير للشعوب المستعبدة أن يكون لها مذهب سياسي غير مذهب تحرير نفسها و تمسكها بما يجعلها ذات كرامة تساوي كرامة الآخرين ؟ أليس الانخراط في الفرع الفرنسي للمنظمة الأممية العمالية نوعا من الاندماج في فرنسا بينما نحن نعارض ونقاوم كل نوع من أنواع الاندماج ؟"

وبذلك رفضت الحركة الوطنية أن تؤدي لليسار مقابل سنده ثمنا من انتمائها وتبعيتها له، مفضلة أن تحتفظ بشخصيتها واستقلالها، وأن تبقى بعيدة عن معترك السياسة الحزبية الفرنسية، وعن الانحياز إلى الأيدولوجيات التي تتوزع بينها الفصائل السياسية في فرنسا .

وبجانب هذا التأييد عرفت الأوساط السياسية الفرنسية ضجة معارضة لتورط أصحاب "مغرب " في " قضية أجنبية يسئ تأييدها من الفرنسيين إلى مصالح فرنسا وليس بسمعتها ". وشملت هذه الضجة صفوف النزعة الاشتراكية نفسها على تنوع فصائلها، مما يمكن القول معه إن تأييد الحركة الوطنية لم يتجاوز نطاق شخصيات فرنسية آمنت بعدالة القضية الوطنية وأعلنت عن تأييدها لها بصفة شخصية انفرادية . وقد راجت الدعوة في الحزب الاشتراكي إلى فصل روبير جان لونكي مؤسس المجلة ورئيس تحريرها من الحزب . ولم يفشل من سعوا إلى ذلك إلا لكونه ابن زعيم ا شتراكي بارز يحتل مكانة مرموقة في مجلس النواب ويمارس فيه مهام سامية على رأس لجنة الشؤون الخارجية .

لماذا التأييد ؟

عندما نعود بالدراسة والتحليل إلى الخطاب السياسي الذي طبع في هذه الفترة مقالات وتصريحات الساسة الفرنسيين الذين اختاروا تأييد الحركة الوطنية المغربية الناشئة نجده يركز على أطروحة سياسية متماسكة المنظور تهدف إلى خدمة مصالح فرنسا العليا بصفة ذكية عقلانية.

كان اليسار الفرنسي قد أدرك تورط بلاده في سياسة استعمارية جهلاء وخيمة العواقب على إثر افتضاح السياسة الفرنسية " البربرية " عبر العالم، وبخاصة بعد رد فعل العالم الإسلامي العنيف عليها، وتخوف اليسار من عواقب هذه السياسة على مستعمرات ومحميات فرنسا فيما وراء البحار، فانطلق يحاول امتصاص رد الفعل السيء بتبنيه سياسة التعاطف مع الحركة الوطنية، حتى لاتتجه نحو البحث عن سند خارجي يزيد الموقف الفرنسي إحراجا، انطلقت جماعة اليسار المتعاطفة مع الحركة الوطنية، فيما نشرته من مقالات بمجلة " مغرب " من منطلق قانوني عندما ركزت على تصحيح مفهوم الحماية الذي يقر للمغرب بوضعية قانونية دولية تميزه عن المستعمرات الفرنسية المرتبطة بفرنسا برابطة الإلحاق أو الدمج، وعندما دعت إلى عودة فرنسا إلى تطبيق مقتضيات الحماية روحا ونصا بتجنب الحكم المباشر، وتأهيل المغاربة لحكم بلادهم بأنفسهم، واقتصار مسؤولي الحماية الفرنسيين بالمغرب على تعميق أسس إصلاح الحكم ليتوفر المغاربة أصحاب الشأن على الأجهزة اللازمة لممارسة سلطتهم في أقرب الآجال.

وقد كان الوطنيون يمدون المجلة بتفاصيل تصرفات مسؤولي الحماية الفرنسيين التي تتنافى مع هذا المنطلق القانوني، كما كانت المجلة تؤكد على مخالفة سياستهم للحماية مما يعتبر خرقا صريحا لها، وتندد بتلك التصرفات، وتنادي بوضع حد لها .

وكانت " جماعة مغرب " تركز من جهة أخرى على منطلق سياسي قوامه أن نظام الحرية الذي تؤمن به فرنسا وتطبقه في أرضها يمنع على ممثليها بالمغرب أن يمارسوا سياسة استعمارية تهدم من الأساس مبادئ الحرية نفسها، أو تعتبر أن نظام الحرية الذي لا ينازع فيه أي فرنسي لا يصلح للتطبيق خارج فرنسا، مما يعني أن المبادئ الفرنسية تكال بمكيالين، فهذا النظام الاستعماري لايشكل من هذا المنظور إلا تشويها ومسخا لتلك المبادئ . وكما لا يغتفر خرق نظام الحرية في فرنسا لا يجوز أن يمس به في مستعمراتها، وخاصة في بلد كالمغرب لاتملك فيه فرنسا قاعدة قانونية تجعل المسؤولين الفرنسيين القائمين على شؤونه مطلقي الصلاحية في تطبيق ما يشاؤون من السياسات ، لأنهم مقيدون بعقد الحماية الدولي الذي يبقي على شخصية المغرب القانونية .

كتب أحدهم في مجلة مغرب يقول:" كم سيكون التناقض صارخا بين جو الحرية الذي يعيش فيه مواطنو مستعمرات فرنسا عندما يكونون مقيمين على الأرض الفرنسية، وبين جو الاضطهاد وفقد الحريات الذي ينتظرهم عند العودة لبلدانهم،" وأضاف :" إن هذا التناقض المطلق سيخلق جو الكراهية، ويثير علينا من الاضطرابات والثورات ما سيكون مقبولا ومشروعا في نظر الرأي العام الدولي ."

ولا بد أن نذكّر بأن فرنسا أخذت تحس في هذه المرحلة التي نتحدث عنها بخطر الاتجاه الألماني الذي ظهرت طلائع بوادره، وأخذ اليسار يخشى على مبادئ الديمقراطية والحرية التي سيجاهر النازيون بالتنديد بها وإشعال الحرب العالمية الثانية للقضاء عليها وفرض نظام ديكتاتوري لايرحم .

من أجل ذلك دعت " جماعة مغرب " إلى أن تغير فرنسا وجه استعمارها بتحويله من استعمار استيطاني عنصري محقّر للشعوب، وماسخ لهويتها إلى مهمة إنسانية لفائدة الشعوب التي تحتضنها فرنسا بما يحقق لهذه الشعوب التطور والتقدم بالتفاهم والتعاون مع باريس، ومما قد يتيح غدا قيام علاقات بين متساويين.

كان " لجماعة مغرب " تخوف من دخول الحركة الوطنية المغربية في تيار

العنف بما يفجر الوضع في المغرب تفجيرا لا يبقى معه مجال لإنقاذ العلاقات الفرنسية المغربية من التردي في هاوية القطيعة. وكانت الجماعة تسعى إلى الإبقاء على اعتدال الحركة الوطنية ومواصلتها النهج السياسي حتى يتحقق للمغرب استقلاله بمعونة فرنسا ويظل بشكل أو بآخر مرتبطا بها .

ولقد شكلت أطروحة " جماعة مغرب " قاسما مشتركا لما كان يدعو إليه الوطنيون في تلك الفترة، لأن حركتهم كانت حركة سياسية إصلاحية تعمل في إطار المشروعية السياسية، وتعتبر أن مرحلة المقاومة بالعنف والقوة قد أخلت السبيل للمقاومة السياسية.

وكانت مطالب الوطنيين قد أخذت تتبلور في إطار سياسة تصحيح النهج الاستعماري إلى ما يعكس تطلع المغرب إلى نوع من التفاهم مع فرنسا على أساس قيامها بمهمتها الإنسانية التي تسير بالمغرب نحو تجديد أوضاعه وتوصله في النهاية إلى استعادة سيادته وقيامه بدوره الوطني التا ريخي.

وأقلام المغاربة

في جميع أعداد مجلة "مغرب " ساهمت النخبة الوطنية المغربية التي درست اللغة الفرنسية بمقالات عميقة لم تكن تقل جودة عن المقالات التي كان يكتبها الفرنسيون . كان أحمد بلا فريج يكتب فيها ويمضي باسمه الصريح وأحيانا بألف وباء، وكان محمد حسن الوزاني يمضي باسمه أو بميم وواو، و"بفتى المغرب ". وكان عبد القادر ابن جلون يمضي باسم قدور، وزوجته نينا ابن جلون بحرفي نون وباء وأحيانا باسم الرُّمَيْكِية (لقب زوجة المعتمد ابن عباد وكان اسمها اعتماد) ومحمد اليزيدي باسمه الصريح أو باسم بوشعيب الفطواكي، وعمر ابن عبد الجليل باسم بوعزة الزموري ، أو الخبير، أو الزنبور، أو النحلة، وكتب فيها عبد اللطيف الصبيحي مقالا واحداً أمضاه باسمه الصريح .

ومما يذكر لمجلة " مغرب " إصدارها بمناسبة الذكرى الثالثة للظهير "البربري" عدداً ممتازا ساهم فيه كتاب فرنسيون ومغاربة . واتخذ الفريقان فيه نفس الموقف من السياسة " البربرية " الفرنسية المتمثل في التنديد بها والحكم عليها بالفشل والمناداة بإبطال الظهير الذي حاول تكريسها .

في ذلك العدد من" مغرب " كتب النائب جان لونكي مقاله بعنوان " يجب

إلغاء الظهير البربري ". وكتب رئيس تحرير المجلة روبير جان لونكي مقالا تحت عنوان : " لنصلح العدالة المغربية " . وعنون محمد حسن الوزاني مقاله "بالسياسة البربرية والنظام الدبلوماسي"، وكان عنوان مقال الحاج أحمد بلا فريج " والآن "! وأمضاه بالحرفين الأولين من اسمه : ألف وباء . وكتب في العدد نفسه محمد اليزيدي عن مختلف مظاهر " السياسة البربرية في المغرب ". وكان عنوان مقال عبد القادر ابن جلون " السياسة البربرية ". وأمضاه باسم قدور. وتضمن العدد أيضا مقالا لعمر ابن عبد الجليل بعنوان " السياسة البربرية في ميدان التعليم ". وكتبت فيه زوجة عبد القادر ابن جلون بعنوان "سياسة ضد العقل والمنطق " وأمضت بالحرفين الأولين من أسمها : نون وباء .

ومن أجل إضفاء الصبغة المشتركة على المجلة التي كانت تساهم فيها الأقلام المغربية والفرنسية أخذت تصدر بغلافين : أحدهما على اليسار بالفرنسية يحمل عنوان المجلة وأسماء المسؤولين عنها، والآخر على اليمين مثبتا عليه بالعربية أن المجلة تعمل للدفاع عن حقوق الأمة المغربية، وتتوجه إلى المواطن المغربي بهذا النداء:

" أيها المغربي

قد أسست هذه المجلة للدفاع عن حقوقك ورفع صوتك عاليا برغائبك ومتمنياتك ، وأنت تعلم أن بلادك تشتد حاجتها الآن إلى مشروع كهذا، إذ ضياع الحق في سكوت أهله عنه، والاستسلام للباطل موت، والمناقشة في الحق حياة، فواجبك يقضي عليك بالسعي في تفهم محتوياتها والتحلي بروحها والدعاية لمبادئها والمساعدة على نشرها، وحيث كان المال قوام الأعمال فلا بد أن تمد لها معاضدتك الفعلية الدائمة حتى تكون قادرة على بلوغ مرماها وهو مرمى الأمة المغربية بأسرها ."

هكذا كانت مجلة " مغرب "، داخل فرنسا منبراً للحركة الوطنية المغربية التي كانت في أمس الحاجة إلى إسماع صوتها هناك. وقد أدت طيلة سنوات صدورها وإلى سنة 1936 خدمات جلى في التعريف بالقضية المغربية والتصدي لخصومها ودحض تهمهم، ونفي الشبهات التي كانوا يقذفون بها للنيل من سمعة الوطنيين. كما نجحت في تعرية سياسة الحماية وفضح تصرفات المسؤولين عنها بالمغرب في الأوساط السياسية الفرنسية ذات النفوذ، مما أفسد أوراق اللعبة على الإقامة العامة الفرنسية بالرباط ومساندیها من الاستعماريين والمعمرين .

الفصل الثاني عشر

الحرش المغربي ...جهاداً و بطولة

فكرة عيد العرش

أخذ الجو ينذر بقسوة الشتاء عندما اجتمعنا بمدينة فاس نحن تلاميذ المدارس وطلبة المعاهد وأخذنا مكاننا ضمن الصفوف التي ضمتنا إلى جماهير شعبية جاءت من مختلف أنحاء المدينة .

كان اليوم 18 نونبر (تشرين الثاني) من سنة 1933، وكان المكان الحديقة العمومية الكبرى المعروفة بجنان السبيل الواقعة على مقربة من باب أبي الجنود. لم يقنا استظلالنا بأشجار الحديقة من الابتلال برشاش المطر المتهاطل، ولم أكن أعي في سن صباي وأنا أحضر هذا الاجتماع أنه كان المهرجان الوطني الشعبي الأول الذي تعقده الحركة الوطنية المغربية علنا في المدينة،كما لم أكن أدري أننا حضرنا لتلبية نداء جريدة "عمل الشعب" الناطقة باسم الحركة الوطنية للاحتفال بالذكرى السادسة لعيد جلوس السلطان محمد بن يوسف على العرش .

ينصف محمد حسن الوزاني في الجزء الثالث من كتابه رجلا مغمورا كان وراء فكرة الاحتفال بعيد العرش هو محمد الصالح ميسة صاحب" مجلة المغرب " التي كانت تصدر خلال هذه الفترة باللغةالعربية بالرباط فيقول : "إن فكرة الاحتفال بذكرى تولية سيدي محمد خلفا لوالده السلطان مولاي يوسف راجت لأول مرة بواسطة محمد الصالح ميسة فإليه يرجع التفكير في هذه المبادرة، ولكن جريدة " عمل الشعب" التي كان ميسة من كتابها السريين (أي أنه كان لا يمضي مقالاته أو يمضيها باسم مستعار) هي التي تبنت الفكرة ودعت إليها، بل ونفذتها على الصعيد الوطني وجعلت السلطة الفرنسية أمام الأمر الواقع ".

والحديث عن منطلق عيد العرش بالمغرب يعيدنا إلى إثارة الحديث عن تأثر الحركة الوطنية في هذا العهد بتنظيمات أختها في المشرق العربي : إن مصر كانت قد سبقت إلى تخليد ذكرى الجلوس على العرش منذ بداية استقلالها وإن كانت هي أيضامتأثرة في هذا بتقاليد النظام البريطاني. وكان الوطنيون المغاربة مشدودين -

كما أسلفنا القول - إلى الحركات الوطنية التحررية عامة و الحركات الوطنية العربية خاصة للتأسي بها والاستفادة من تجاربها ونجاحاتها.

عيد الوحدة

عندما دعت جريدة «عمل الشعب» إلى سن تقليد الاحتفال بعيد الجلوس الملكي لم يكن قد اكتمل على صدورها ثلاثة أشهر، إذ صدر عددها الثاني عشر المؤرخ بعشري أكتوبر (تشرين الأول) 1933 يدعو الشعب المغربي والسلطات الحاكمة إلى جعل يوم 18 نونبر من كل سنة عيدا وطنيا لتخليد الذكرى بما يستحقه الجالس على العرش من تكريم وحفاوة،وأبرزت الجريدة أن الوحدة الوطنية للمغرب المقسم إلى ثلاث مناطق نفوذ والمهدد بتقسيم عنصري بين عرب وبربرلا يجسمها ويرسيها إلا وحدة العرش والتعلق بالجالس عليه، وأن من حق الشعب وواجبه أن يتشبث بالسلطان الذي هو - كما قال كاتب المقال - لرعيته لا لسلطة الحماية.

وقد دعت الجريدة إلى تعطيل العمل يوم العيد الوطني فوضعت بذلك سلطة الحماية الفرنسية في مأزق، أو على الأقل أمام اختيار صعب .

وفي الوقت الذي لم تستجب فيه سلطة الحماية لهذا النداء وتجنبت الاحتفاء بالذكرى متعللة بأن السلطان كان تلك السنة (1933) بمدينة مراكش خارج العاصمة، فإن الحركة الوطنية دشنت الاحتفاء بها ولا سيما في فاس التي احتضنت حديقتها العمومية الحفلة الوطنية الكبرى التي أشرت إليها، حيث رفع في احتفال غير رسمي لأول مرة العلم المغربي وصور السلطان . وبعد الاحتفال وجهت إلى القصر الملكي بالرباط سيول من برقيات التهاني بالعيد بإمضاء أفراد الشعب وجماعاته.

وفي السنة الموالية (1934) لم تجد سلطات الحماية بدا من إضفاء الصبغة الرسمية على المبادرة الوطنية الشعبية، فصدر بتاريخ 31 أكتوبر (تشرين الأول) 1934 قرار من الصدر الأعظم محمد المقري أشر عليه المقيم العام هنري بونصو (Henri Ponsot) يعلن يوم 18 نونبر من كل سنة عيدا لتخليد تذكار (كذا في النص العربي) صعود جلالة السلطان على عرش أسلافه المقدسين.

عيد التحدي

وكان استعداد الوطنيين في هذه السنة لإقامة احتفال قومي على الصعيد الوطني أروع وأحفل، فعيد العرش الذي فرضوا علي الحماية الفرنسية إعلانه عيدا قوميا أصبح عيد تحدي الوطنيين للاستعمارالفرنسي الذي أخفق في محاولة عزل السلطان من شعبه مثلما فشلت تدابير قمعه خلال حركة الاحتجاج على السياسة البربرية في إقبار الحركة الوطنية في مهدها، بل عجزت حتى عن عرقلة تغلغلها في الجماهير. وخابت سياسته كذلك في تفتيت وحدة الكيان المغربي، فالسلطان الذي فرض شعبه الاحتفاء بعيد عرشه هو سلطان المغاربة عربا وبربرا، في الحواضر والبوادي، سلطان المغرب الموحد، وإن تجزأ بارادة الاستعمار إلى منطقة حماية فرنسية تحتضن عاصمة البلاد وتستقر بها حكومة السلطان الواحدة، وأخرى إسبانية لا تحمل إلا اسم المنطقة الخليفية، بحكم أن السلطة الشرعية فيها منوطة بخليفة السلطان، ومنطقة دولية ثالثة يمثل السلطان فيها مندوب مغربي تابع للسلطان وواحد من رعيته.

ومنذ بداية الاحتفال بذكرى عيد العرش لأول مرة سنة 1933 وإلى حين استقلال المغرب وحتى أثناء سنتي نفي محمد ابن يوسف وهذه الذكرى تقام من لدن الشعب المغربي تحت شعار الوحدة، أو العرش بالشعب، والشعب بالعرش.

وكانت إقامة الذكرى من لدن الحركة الوطنية تحديا آخر لسلطة الحماية الفرنسية التي كانت تحاول الدس بين الوطنيين والسلطان بقذف الحركة الوطنية المعارضة لسياستها بأنها حركة تمرد عليه. والرسالة التي أمضاها سنة 1930 الصدر الأعظم المقري للرد على المظاهرات الوطنية المناهضة للظهير البربري والتي قرئت في المساجد كان يفسرها أعوان الحماية من المغاربة بإيعاز من رجال الحماية الفرنسيين بأنها تبرؤ ملكي من عمل الطيش الذي ارتكبه " صبيان لم يبلغوا الحلم " وأن السلطان ليس بينه وبين الحماية الفرنسية خلاف.

إن سياسة الوقيعة بين السلطان وشعبه لم تبتدئ في هذه الفترة، فقبلها كانت الحماية تعلن للمخزن (الحكومة المغربية) أن ثورة الريف كانت تستهدف الإطاحة

الحماية لم يخرج من فاس لا غاضبا ولا مستاء، ولكن ليجنب أهلها عامة والوطنيين خاصة تدابير القمع.

أول استقبال للزعيمين بالقصر الملكي

وكانت هذه أول مرة يطفو فيها على السطح بارزا خلاف السلطان مع سلطات الحماية، كما أنه لأول مرة أمكن للزعيمين علال الفاسي ومحمد الوزاني المشاركة في وفد إلى القصر الملكي، إذ كانت سلطات الحماية الفرنسية رفضت أن يضمهما وفد الفقيه ابن القرشي الذي استقبله السلطان سنة 1930 في مشهد مؤثر على إثر حركة الظهير البربري .

ومحاصرة الرأي

كانت حرية الرأي والنشر الضحية التي سلطت عليها الإقامة العامة الفرنسية تدابير قمعها بعد هذه الأحداث، إذ أوقفت جريدة " عمل الشعب " التي عوضها الوزاني بجريدة باللغة الفرنسية أيضا تحمل اسم " إرادة الشعب "(La vonlonté du Peuple) أصدر منها أربعة عشر عددا ريثما صدر حكم محكمة الاستيناف بالرباط بالسماح بعودة "عمل الشعب " إلى الصدور.

كما منعت الإقامة العامة مجلة " مغرب" (Maghreb) الباريسية من الدخول للمغرب ومنعت من الرواج بالمنطقة السلطانية مجلة " السلام" وجريدة " الحياة "، وكانتا تصدران بتطوان بالمنطقة المدعوة بالأسبانية أو الخليفية، بل إن سلطة الحماية منعت حتى رواج روزنامة مغربية كان ينشرها باسم اليومية المغربية خالي عبد العزيز الذي كان يدير بفاس المطبعة الجديدة التي كانت آنذاك المطبعة العربية الوحيدة بالمدينة، ولم تكن اليومية تحتوي أكثر من حكم عربية، كما كانت تشير فقط إلى ذكريات تاريخية.

السلطان والملك

في جو هذا الصراع بين الوطنيين والإقامة العامة على كسب رهان السلطان أخذت الحركة الوطنية تعمل لترسيخ الالتحام بين العرش والشعب. وإذا كانت قد

توجهت في وجهة حركة إصلاحية هادفة إلى إعادة سيادة المغرب وتثبيت وحدته وتجذير قيمه التاريخية على أرضية المعاصرة والتجديد، فإنها -رمزا إلى جميع ذلك- فضلت أن تنعت الجالس على العرش بوصف الملك بدلا من السلطان، خاصة والقاموس الاستعماري الفرنسي تبنى في لغته بعض الكلمات العربية للدلالة بها على مقابلها بالفرنسية ممزوجا بما يفيد الاستخفاف والتحقير . فلقب سلطان (SULTAN) الذي كان الفرنسيون يفضلون استعماله في نعت رئيس دولة المغرب على كلمة ملك (Roi) كان يوازي في الاستعمال كلمة (VIZIR) التي كانوا يطلقونها بدلا من كلمة وزير (Ministre) على المسؤولين الأعلين في حكومة المغرب التي كانوا يدعونها أيضا " المخزن " بدلا من الحكومة، تماما كما يطلقون كلمة طبيب (Toubib) على من ينتحل مهنة الطب وهو لا يتجاوز مستوى ممرض أهلي.

ومن الغريب المستطرف أن رجال الإقامة العامة كانوا يحيلون على المحاكم النظر في جنحة الوطنيين الذين كانوا يهتفون عاش الملك بدلا من عاش السلطان، وهو الهتاف الذي طبع مظاهرة فاس المشار إليها، إذ كانوا يفهمون أن الحركة الوطنية ترمز من خلال لفظ الملك إلى التطلع إلى إقامة دولة عصرية مستقلة.

وفي هذا السياق نفهم مضمون نشيد علال الفاسي السالف الذكر الذي رددته الجماهير بفاس أثناء زيارة السلطان، ثم أصبح نشيدا شعبيا في الذكرى السابعة لعيد العرش سنة 1934 .

في هذه الذكرى السابعة نظم الفقيه القري نشيدا جديدا مما جاء فيه :

أيها الشبان هبوا إنكم روح الشباب
ولتحيّوا في سرور وابتهاج واغتباط

ملكا يُحيي البلاد

ملكا روح الترقي منه يسري للشباب
فيقوّي فيه عزما مُدنيا كل الصعاب
فيُرَى مندفعا في قوة الأسْد الغضاب
إنه عيد جلوس الملك الذات الأبيّة
فوق عرش الملك إرثا عن صناديد الحمية

عيد شبان البلاد

بتّ المغرب في موضوع خيار السلطان أو الملك إثر إعلان استقلاله فنص الدستور الذي قدمه الملك الحسن الثاني للاستفتاء سنة 1962 وتبناه الشعب على أن المغرب مملكة، وأن نظامه ملكية دستورية، ولم يتضمن في مقتضياته تعبير السلطان.

وأضاف دستور عاشر مارس (آذار)1972 في الفصل التاسع عشر إلى اختصاصاته المعروفة أن الملك هو الممثل الأسمى للأمة، لكن المغرب احتفظ بمصطلحاته الإدارية القديمة في جملة من تنظيماته، فالمرسوم الذي يحمل خاتم الملك يدعي بالظهير بدلا من المرسوم الملكي، والقيم على سلطة الإدارة بالمدينة ما زال يدعي بالباشا بدلا من المحافظ، كما استلهم المغرب من التنظيم الإداري الإسلامي تعبير العامل والوالي.

وقد أخذ لقب السلطان ينقرض في العالم الإسلامي، ولم يعد موجودا إلا في سلطنة عمان في عالمنا العربي، وما يزال يُحتفظ به في بعض الدول الإسلامية بآسيا كماليزيا وبرونوي.

1- أقدم عرش عربي إسلامي

عندما دعا الوطنيون المغاربة إلى تخليد عيد العرش ونجحوا في فرضه عيدا قوميا على سلطة الحماية الفرنسية، لم يكونوا يحتفون فقط بشخص السلطان محمد ابن يوسف الذي صدقوه الولاء والتفوا حوله وراهنوا على أن يلتحم به شعبه في مواجهة الاحتلال، بل كانوا يحتفون أيضا بالعرش مؤسسة المؤسسات بما يحتضنه من مثل وقيم وما حفل به تاريخه الطويل من أمجاد خالدات.

لقد كان السلطان محمد بن يوسف الثاني والعشرين في سلسلة سلاطين الدولة العلوية التي ابتدأ عهدها سنة 1631، ولكنه كان يقتعد عرشا يشارف عمره اثني عشر قرنا امتدت بدون انقطاع، إذ في سنة 788 م اختار المغرب النظام الملكي عندما بايع شعبه إدريس الأول الوافد إليه من الجزيرة العربية لا جئا بعد وقعة فخ . ومنذ ذلك التف سكان المغرب حول العرش، وانصهر العنصران البربري والعربي في كيان واحد لحمته الإسلام وسداه المصاهرة التي تمت بين البربر وبين إدريس العربي سليل الرسول الذي تزوج بكنزة البربرية وأنجب منها ابنه ولي العهد، فحمل اسم إدريس أيضا وأصبح بعد وفاة أبيه (إدريس الأكبر) يعرف باسم إدريس الأزهر،ويشخص بتمازج والده العربي ووالدته البربرية تمازج المغرب في وحدة الدم والمصير.

مع نهاية سنة 1988 دخل العرش المغربي القرن الثالث عشر من عمره، وبذلك فهو أقدم العروش العربية الإسلامية،بل إنه اليوم من أقدم العروش العالمية اذا استثنينا أمبراطورية اليابان .وتخليدا لهذه الذكرى دعت جمعيات ثقافية مغربية للاحتفال في نهاية سنة 1988 بالعرش المغربي تحت شعار " الوحدة في ظل الاستمرارية " .

إن تاريخ انجلترا - مثلا - يثبت أن عرشها إنما تأسس سنة 1066 م عندما قام النورمانديون بغزوها وفرضوا عليها ملكية أجنبية مطلقة السلطات عملت في ظل نظام إقطاعي، ولم يبتدئ تاريخ فرنسا الحقيقي إلا في أواسط القرن التاسع عندما انفصلت فرنسا سنة 843 م عن الأمبراطورية الرومانية التي أقامها شارل (Charles) ملك الافرنج المشهور باسم شارلماني، (Charlemagne) إذ تجزأت هذه الأمبراطورية على عهد ابنه إلى ثلاث ملكيات كانت فرنسا واحدة منها، وأطلق عليها اسم فرنسيا الغربية (Francia Occidentis) وكان على رأسها شارل الأصلع (Charles le chauve) .

ومنذ سنتين فقط ألفت الإعلام الفرنسي الأنظار بفخر واعتزاز إلى أن فرنسا أتمت عشرة قرون كاملة من تاريخها المعروف، وأن استقرار نظام عرشها لم يتم إلا منذ ستة قرون ابتداء مما هو معروف في تاريخ فرنسا بالنظام القديم (1223م) وخاصة بعد عهد جان دارك (Jeanne d'arc) وطرد الأنجليز،وبدءا من عهد لويس الحادي عشر (LouisXI) 1461-1483م.

من أجل ذلك كله نفهم أن يكون احتفاء المغاربة بعرش المغرب مدعاة لفخر مشروع، فقليلة هي الدول التي تملك اليوم مثل هذا الرصيد التاريخي،وتتمتع نظمها بالاستمرارية التي يسجلها تاريخ العرش المغربي الذي تعاقبت عليه ست أسر مالكة تعرف في تاريخ المغرب باسم الدول التي تترجم بلفظ .Dinastics.

وقد كان على رأس هذه الأسر أو الدول إما عرب مسلمون - من بينهم أشراف ينحدرون من سلالة الرسول -أو برابرة مسلمون،وذلك ما يعني أن الكيان المغربي قد طبعه الإسلام في كل عهد وأن المغاربة التفوا حول العرش المسلم متجاوزين كل اعتبار آخر.

وفي جميع العهود تم اختيار الجالس على العرش بإرادة شعبه عن طريق البيعة أو ولاية العهد المكرسة بقبول الأمة ورضاها، وذلك ما يشكل عقدا بين طرفي الحكم، تلتزم فيه الأمة لحاكمها بالولاء والنصرة، ويلتزم فيه السلطان الحاكم بالعمل لخير الأمة وتحقيق صلاحها.

وقد أكد الدستور المغربي أصول هذا الارتباط في تنظيماته العصرية بإقرار دخول المغرب في عهد الملكية الدستورية الديمقراطية (الفصل الأول)،وإناطة السيادة بالأمة لتمارسها مباشرة بالاستفتاء وبصفة غير مباشرة بواسطة المؤسسات الدستورية (الفصل الثاني) وثبت الدستور ضمن اختصاصات الملك هذه الاستمرارية التاريخية فهو : " أمير المؤمنين، والممثل الأسمى للأمة و رمز وحدتها، وضامن دوام الدولة واستمرارها، وحامي حمى الدين، والساهر على احترام الدستور وعلى صيانة حقوق وحريات المواطنين والجماعات والهيآت،والضامن لاستقلال وحوزة المملكة في دائرة حدودها الحقة " (الفصل التاسع عشر).

ومن سنة 788 م التي بويع فيها أول ملك مغربي (إدريس الأول) إلى سنة 1927 التي عبأ فيها الوطنيون الشعب للاحتفال بالذكرى السادسة لجلوس محمد بن يوسف على العرش لينطلق منها تخليد ذكرى العرش عيدا قوميا، نكاد نجد أنفسنا في نفس المشهد مع ابتعاد المسافة الفاصلة بين الفترتين، إذ نسمع إدريس الأول يتوجه إلى شعبه في خطاب العرش معلنا التزامه بالعمل لصالحه بقوله :" أيها الناس إنا قد ولينا هذا الأمر الذي يضاعَف للمحسن فيه الأجر، وللمسيء الوزر. ونحن ولله الحمد على قصد جميل، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا، فإن ما تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا ". ونسمع محمدا بن يوسف في أول خطاب من خطب عرشه يتحدث عن التزاماته نحو شعبه بقوله : " إن الشعب المغربي ينتظر منا - من بين ما ينتظر - أن نكفل له سعادته المادية،والانتفاع من تطور فكري يتلاءم مع احترام عقيدته، ويستمد منه الوسائل التي تجعله يرتقي درجة عليا في الحضارة بأكثر ما يكون من السرعة".

الرهان المزدوج

وبهذا التصريح الذي استهل به السلطان عهده راهن على الوفاء لشعبه والعمل لإسعاده مثلما راهن الوطنيون على الولاء له والالتحام بعرشه. إنه رهان مزدوج أو عروة بين الملك والشعب ظلت وثقى تشد الأواصر والوشائج بين طرفيها دون أن تنال الأحداث والمؤامرات من متانتها، مرورا بثورة الملك والشعب عندما امتدت يد العدوان الفرنسي إلى المس بقدسية العرش، ونفي السلطان بعيدا عن بلاده وشعبه ورد الفعل الشعبي بشن المقاومة المسلحة، إلى انتصارهما بعودة الملك الظافرة إلى الوطن

وإعلانه إثر وصوله للرباط بشرى انتهاء عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلال والحرية .

وطيلة حياة السلطان كان الرهان المزدوج يتشخص بقوة كل يوم 18 نونبر من كل سنة، يوم ذكرى عيد العرش الذي يتجذر في موعده الالتحام بين القائد وشعبه، وتكرس فيه كل سنة مسيرة جديدة تشق لنفسها الطريق في غياهب الظلمات الحالكة التي غمرت ملحمة الكفاح الوطني الذي خاضَهُ بمرارة الملكُ وشعبُه .

العرس الكبير

كنا نتطلع كل سنة إلى مشهد العرس الكبير الذي يحتفل به شعب بملكه، ويجدد فيه على نغمات الأفراح عزمه على مواجهة التحديات.

والحق أن تعبير العرس أوفق ما يكون باحتفاءات الشعب بعيد العرش : ان الشعب طيلة أربع وثلاثين سنة - هي حصيلة عهد السلطان - ظل يقيم الذكرى على شاكلة الاحتفالات التقليدية التي تقيمها الأسر للابتهاج بأعراسها ، بفارق أن عرس العرش كان عرس أسرة المغرب الكبرى التي تلتحم فيها الأسر في الحواضر والبوادي والسهول والجبال، وكان عرس الأعراس الذي تتجمع فيه من أقصى البلاد إلى أدناها جوقة شعبية متناسقة الألحان تردد نغمة التغني بالمجد الغابر، ونشيد الاعتزاز بوحدة الحاضر، وهزيج التطلع إلى إشراق الغد الزاهر.

في عرس الأسرة الواحدة تزيّن الدُّور وتفتح أبوابها مشرعة في وجوه الوافدين، ويرتدي المستقبلون والمدعوون فاخر الثياب وتمد الموائد حافلة بأصناف الطعام، ويتدفق الشاي المغربي يرطب الألسنة وينعش الأنفس، وتقدم أطباق حلويات الأعراس، وتردد الأجواق داخل الدور موسيقى الأفراح، فترقص الفتيات طول السهرة على نغماتها ، ويشع على الوجوه نور الفرحة المتدفقة من كل قلب، ولا يدخر صاحب العرس أية بادرة كرم ليجلي حاتميته في أجلى وأبهى صورها.

أما في العرس الكبير عرس العرش، فالمغرب كله يصبح بيتا مفتوحا تتحول بحلول ميعاده شوارع المغرب وساحاته وأسواقه ودكاكينه ومعاهده ومصانعه ومعامله وبيوته وأكواخه إلى مراتع أفراح يخفق فيها قلب شعب كامل خفقة واحدة، وتعلو طيلة يوم الذكرى صور السلطان تزين الجدران، ويرفرف العلم المغربي وحده على الأزقة والسطوح رمزا لاستمرار السيادة رغم قيام نظام الحماية الدخيل. إن المغرب

يصبح في هذا العرس مسرحا تستعرض الأمة على جنباته مواكب آمالها وآلامها، تتبادل التهاني مشفوعة بالقسم على مواصلة النضال حتى النصر .

ولأن العرس الكبير عرس أمة، فقد كانت الجماهير تكتتب بسخاء للاحتفاء به، ويقتطع الفقير في حملة الاكتتاب من مصروف قوته اليومي ما يساهم به في نفقات الحفل، لأن تحدي الأمة كان المراهنة على أن يكون العرس في مستوى المحتفَى به أبهة وجلالا.

أما سلطات الحماية الفرنسية فقد كانت تجتاز في كل ذكرى امتحانا عسيرا، إذ تتخذ تدابير الحيطة لاحتواء المهرجانات الشعبية حتى تظل في نطاقها المحدود، وتقف يوم الذكرى متفرجة على روعة مشاهد الاحتفال موزعة بين ما تبطنه من مضايقة وتحمل وما تتظاهر به من مجاراة لتيار شعبي عارم لا تقوى على معاكسته .

وكم كان يضيق صبرها ويغلب طبعها تطبعها فتمتد بالمتابعة والاعتقال للنخبة التي تغذي التجمعات الشعبية بخطب سياسية كانت في نظرها من النوع الذي لا يقبل ولا يستساغ ، محولة بذلك أفراح العرس إلى مآسي، ومنغصة على المحتفين به فرحة العيد والتملي بالذكرى .

ولم يتوقف العرس الكبير طيلة عهد السلطان محمد بن يوسف واستمر حتى عندما تجرأ الاستعمار على المس بالعرش خلال سنتي 1953 و 1954 . ففي غيبة السلطان المنفي بجزيرة مدغسكر استمر الاحتفال لكن اختلفت المظاهر وتغير النشيد.

خلال ذكريَيْ هاتين السنتين تحدث الشعب بلغة السلاح، وأفصحت عن مكنونه جحافل مقاومته التي توزعت على كل حي، وبارزت بسلاحها الخفيف - الذي كان إيمانها أقوى منه وأعتى - الجيش الاستعماري الذي نزل إلى الساحة والشوارع، متحدية دباباته ورشاشاته في معركة ضارية لئن سقطت فيها مواكب الشهداء فداء للوطن والملك فقد حصد سلاح المقاومة الوطنية أرواح استعماريين فرنسيين، ومغاربة عملاء سقطوا صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. ودقت بذلك ساعة نهاية الاستعمار الذي لم يعد تُرى له باقية .

ملك الشباب

كان الشعب في كل ذكرى يراهن على ملكه الذي دعاه الوطنيون ملك الشباب منذ الاحتفاء لأول مرة بعيد العرش، وكان الرهان على الشباب يعني الرهان على

تطوير الحاضر واستثمار مكتسب الالتحام بين العرش والشعب لاستشراف مستقبل تلغى فيه الحماية بوضعها بين قوسين، لاستيناف مسيرة الاستقلال الذي استمر اثني عشر قرنا منذ تأسيس العرش المغربي على يد إدريس الأول، فالشباب حركية تخترق صفيح الجمود والرضا بالأمر الواقع والاستسلام إلى ما يمكن اعتباره قدرا محتوما. إنه تطلع إلى التغيير، وعزيمة تشحذ للتحفز والتوثب واقتحام المكاره .

ولقد راهنت الحماية على الملك الشاب يوم بيعته متوهمة أن شبابه سيغريه بالاقتصار على الاستمتاع بالمنافع والاستهواء بمغريات السلطة والنفوذ، فخيب السلطان الشاب منذ سنوات عهده الأولى ظنها، وبدوره راهن على شبابه في معركة التحدي التي واجهها بعزيمة الشباب المؤمن بقضية أمته .

وإذا كان الشعب في الثلاثينات أصبح يشخص في السلطان ما يحمله لفظ الشباب من توقد العزم، واطمأن إلى ما تثيره في نفس قائده مقومات الشباب من روح النضال والمثابرة والثبات، فإن الجالس على العرش اعتبر نفسه مشدودا إلى فصيلة الشباب الذي تألفت منه الحركة الوطنية الناشئة، وكان ذلك تطلعا منه إلى المستقبل في الوقت الذي راهنت فيه الحماية على الماضي باصطفاء أعوانها من الشيوخ العاجزين، ممن يؤلفون في أغلبيتهم وزراء حكومة المخزن الطيعة الذين كان السلطان بسببهم يقاوم في واجهتين : واجهة وزرائه الضالعين في تستر مع سلطات الحماية . وواجهة الحماية نفسها المتمثلة في الإقامة العامة الفرنسية وعلى رأسها المقيم العام والمستشار المخزني والكاتب العام للحماية ومديرو الإدارات من الفرنسيين الذين كانوا يؤلفون سلطة الحكم الممسكة بمقاليد الأمور تخطيطا وتنفيذا .

أمير الأطلس

في الوقت الذي أطلقت فيه الحركة الوطنية على السلطان ملك الشباب، أطلقت على الأمير مولاي الحسن نجله الأول الذي لم يكن يتجاوز أربع سنوات لقب أمير الأطلس، وذلك قبل أن ينادى به رسميا ولي عهد المغرب .

وكان لقب أمير الأطلس ظهر لأول مرة على صفحات جريدة عمل الشعب أثناء دعوتها للاحتفال بعيد العرش اقتباسا من عادة تحلية الأمراء بألقاب ذات دلالات قومية أو تاريخية. وهي عادة ظلت متبعة في بلاطات الملوك بأوروبا، وتأست بها مصر بعد استقلالها فأطلقت على الأمير فاروق ولي عهد مصر لقب أمير

النيل الذي يشير إلى وحدة مصر والسودان ، كما يشير لقب أمير الأطلس إلى وحدة سكان المغرب عربا وبربرا .

ولأول مرة أثناء زيارة السلطان لفاس التي تحدثنا عنها سابقا ظهر الأمير الفتى بجانب والده في مظاهرة شعبية ولما يكمل خمس سنوات من عمره. وما كان أروع حماس الجماهير وهي تتطلع إلى الأمير فتقرأ في محياه ملامح المستقبل الموعود.إن العرش يبدو بالوالد وابنه في امتداد يوحي بالاطمئنان ، فإذا كان الوالد يرمز إلى مايشخصه العرش من قيم تاريخية أصيلة لا يعصف بها أو يبليها عهد الحماية الذي لا يعدو أن يكون حادث سير، فإن الأمير الفتى كان يؤشر لما تطمح إلى تحقيقه حركة وطنية فتية إن فاتها صدّ هجمة الماضي، فإنه لن يثني عزمها على تغيير الوضع الحاضر أي عائق.

ومن خلال الأمير الصغير راهنت الحركة الوطنية على جيل المستقبل لتشده إلى ماضيه وتاريخه .

إن هذه النظرة الماضوية والمستقبلية في آن واحد هي التي كانت وراء اختيار محمد بن يوسف إطلاق اسم جده الأعلى الحسن الأول على ولده البكر حينما زفت إليه بشرى ولادته يوم تاسع يوليوز سنة 1929 وهو في رحلة بفرنسا .

وعن هذا كتب جلالة الملك الحسن الثاني في كتابه (التحدي) :" ولما لم يكن في وسع والدي أن يحضر في اليوم السابع من ولادتي حفلة العقيقة، أصدر تعليماته إلى رجال القصر الملكي ليطلقوا عليّ اسم جدي الأعلى مولاي الحسن قائلا في رسالته لهم : " اجعلوا الشريف سمي جده راجين من الله الكريم الوهاب أن يجعله على أثره صالح الدين والدنيا ".

ويضيف جلالته :

" ولم أدرك إلا فيما بعد، كم كان إطلاق اسم الحسن علي يحملني من أعباء ثقيلة لم يكن بطاقتي أن أنهض بها لولا معونة أبي إياي، ولولا تجاربه وقوة روحه ومضاء عزيمته ".

الرمز للقوة

أما عندما ظهر أمير الأطلس بعد أن بلغ السابعة من عمره أمام الشعب مرتديا بذلة عسكرية بشارة كولونيل في الحرس السلطاني، والتقطت له صور وهو يستعرض الحرس في تلك السن المبكرة، فقد فك الشعب بسهولة رموز الخطاب

السياسي الذي بعث به إليه السلطان القائد، إذ كان الوالد ينشئ ابنه على خصال الشهامة والشجاعة ويسلحه بها في معترك النضال الذي كان يهيئ الأمير الصغير لخوضه، ومن خلال ذلك كان يشير إلى تمسك المغرب بعزته وسيادته وتأكيد هويته وترسيخ خصوصياته ومميزاته. وهو درس أعطاه السلطان للشباب عبر الرمز للقوة المتجلية في تلك البذلة الزاهية التي كان يرتديها الأمير، فترتد إلى صورته أنظار الشعب منبهرة مستجلية فيها صورة مستقبلها، وطامعة في أن تقهر بوحدتها وتطورها في كل مجال قوة الاستعمار الغاشمة. .

الفصل الثالث عشر

الحركة الوطنية المغربية: التنظيمات السرية الأولى

من السرية إلى العلن

من سنة 1930، سنة إعلان الحماية الفرنسية سياستها " البربرية "، إلى فاتح دجنبر1934 تاريخ إعلان الوطنيين عن تنظيم سياسي باسم " كتلة العمل الوطني" تلاحق النشاط الوطني مسجلا صمود الوطنيين في وجه الاستعمار الفرنسي بل قدرتهم على منازلته فوق أرضية صلبة تضافرت عوامل وأحداث على تقويتها .

بعد أن حدد الوطنيون للعمل الوطني مواقعه، ونزلوا إلى الشارع ملتحمين بالجماهير في مظاهرة استقبال السلطان، ومتحدين سلطات الحماية التي لم تملك سوى الضغط على السلطان لمغادرة مدينة فاس وانتحال الذرائع لإقناعه بقطع رحلته تأكدت الحركة الوطنية من قدرتها على خوض مغامرة اختبار القوة مع النظام الاستعماري ومهدت لذلك عوامل شتى، منها انتصارها الإعلامي الذي خاضته في الواجهة الداخلية بانطلاقة جريدة " عمل الشعب " التي حفلت بمواقف جريئة في معارضة الحماية ، وفي الواجهة الخارجية بالتفهم الذي ظفرت به من خلال سند اليسار الفرنسي الذي تجلى على صفحات مجلة " مغرب " الفرنسية طيلة فترة صدورها بباريس سنتي 1932 و 1933 .

لقد مهد العمل الصحفي في الداخل والخارج للتعريف بالحركة الوطنية لدى الرأي العام في المغرب وخارجه، خاصة في فرنسا، وللتعرف على مطامحها المشروعة، مما بلور حولها حركة تأييد داخلي وتيار عطف خارجي، ووفر لها بالتالي الظرف الملائم لتخطي فترة السرية إلى فترة العلن.

ثلاث واجهات

ومن العوامل التي ساعدت على بروز الحركة الوطنية في تنظيم علني التعبئة الشعبية التي حققها الوطنيون بتوعية الجماهير بالقضية الوطنية ، وتمثلت في العمل على ثلاث واجهات :

واجهة المدارس والمعاهد الحرة، وواجهة المساجد والزوايا، وواجهة الخلايا السرية التي كانت البيوت والمصانع والأسواق تشكل مراكزها .

استقطبت الحركة الوطنية المدارس والمعاهد التلاميذ والطلبة ، وتعبأ للتوعية داخلها المعلمون والأساتذة الذين كانوا ينتقون من بين الأقسام من يوجهونه من التلاميذ إلى الخلايا الوطنية السرية لتلقي دروس الوطنية .

وعلى واجهة المدارس، وداخل بعض الزوايا، التي قطع روادها اتصالهم بأقطاب الطرقية واستجابوا لنداء الحركة الوطنية، كانت زمرة من القادة الوطنيين تتعاقب على منابرها وفي أبهائها لتدريس تفسير القرآن الكريم، أو شرح الحديث النبوي، وشرح وقائع السيرة النبوية، أو تلقين تاريخ الإسلام في فترة عهد النهضة الإسلامية، وكل ما يهدف إلى تحسيس الجماهير بمسؤولياتها وواجباتها.

وكانت دروس هؤلاء العلماء تأخذ شكل الحلقات العلمية الدينية المفتوحة على الطريقة التقليدية ، لكن محاورها المتسترة غالبا أو الظاهرة حينا كانت ذات طابع سياسي، هو حفز الجماهير لمقاومة الوضع السياسي المفروض على المغرب والتأهب لمواجهة القوة التي كان الوطنيون يتوقعونها .

في الثلاثينات التي نتحدث عن ذكرياتها كانت هذه الدروس معممة في مساجد عواصم المغرب الكبرى، وفي مدينة فاس مسقط رأسي كان يقود حركتها علماء شباب جامعة القرويين أو المتفوقون من طلبة سلكها العالي .

علال الفاسي

وقد برزت من بينهم ثلة التحمت بها الجماهير وتجاوبت معها وأخذت تغشى بانتظام حلقات دروسها وتتشبع بتوجهاتها الثورية. كان على رأس المجموعة الشاب علال الفاسي الذي كان يأخذ بقلوب المتحلقين حوله وهو يلقي دروسه في "عنزة" جامع القرويين غير بعيد من صحنها الواسع .

وكان الفقيه الشاب يشد إليه مستمعيه لما أوتيه من فصاحة اللسان وسلامة المنطق، وكان يبدو في زهرة شبابه متوهج القلب متقد الشعلة مؤمنا أشد ما يكون الإيمان بما يدعو إليه .

لا أذكر بالضبط متى قُدِّرَ لي أن أستمع إليه وهو يتصدر حلقة من حلقات هذه الدروس، لكني أذكر أن ذلك شكّل لقائي الثاني به بعد أن تم الأول أثناء

زيارته مدرسة الفقيه ابن عبد الله التي تحدثت عنها ولم استمتع بالاستماع إلى دورسه إلا مرة أو مرتين اختلستهما من وقتي الحافل بالدرس والتحصيل، وعدت وأنا مشدود إلى المحاضر، متأثر بلهجته، منبهر بفصاحته .

وظللت لمدة أستعيد قوله : (هكذا كما نطقت به) الذي كان يردده في درسه كلما احتاج لتوضيح اسم أو ضبط النطق بتعبير. وكانت العادة التي ألفتها من معلمي أن يشيروا إلى شكل حروف الكلمة دون أن يكرروها منطوقة نطقا سليما كما كان يفعل علال في أماليه.

وعلمت فيما بعد أن المحاضر كان يقدم للمتحلقين عليه في تلك الدروس من الطلبة وعامة الشعب شروحا وتعاليق لكتاب الخضري المسمى "نور اليقين " في السيرة النبوية .

وكانت الجماهير تتأثر لتفاصيل وقائع الغزوات النبوية وتنفعل لتسابق الصحابة إلى الاستشهاد في سبيل الله واسترخاص الغالي والنفيس في نصرة العقيدة ، مما كان يحفز الهمم للاقتداء بهم في مواجهة الاستعمار الذي كان يبدو في أعينهم بالمقارنة موازيا لكفار قريش، ويبدو معه مناوئوه من الوطنيين في شكل الزمرة المؤمنة التي لا تخاف ولا تهاب وتسترخص مطامع الدنيا في نصرة العمل الوطني .

وهكذا امتزجت فلسفة الحركة الوطنية بالشعور الديني في التحام عضوي، فخلقا نتاجا تشخص في جيل مقاوم متأهب لخوض العراك لتغيير واقع الحماية المفروض مهما كان الثمن، جيل مقتنع بأن الإيمان بالقضية الوطنية جزء من الإيمان بعقيدته .

خلايا الدعوة الوطنية

أما الواجهة الثالثة التي كان الوطنيون يعملون فيها في سرية وتكتم، فكانت الخلايا التي تضم عناصر التلاميذ والطلبة والتجار والصناع والحرفيين (دباغين وصناع الجلد) وتقوم على تسييرها طائفة من الوطنيين تتمتع بقدرة التأثير والتكييف والكفاءة اللازمة للإقناع والتوعية.

وقد اقتصرت الخلايا في نشأتها الأولى على المدن ، بحكم أن الحركة الوطنية لم تكن قد تجاوزت في الفترة المتحدث عنها المدن العتيقة كفاس وتطوان

ومكناس والرباط وسلا ومراكش. وكانت الأوضاع السياسية لهذه المدن تختلف بين المدن التي كانت الحماية تعتبرها منطقة استراتيجية حيوية كمدينة فاس التي كانت تخضع لنظام عسكري فرض عليها منذ بسط نفوذ الحماية على المغرب، والمدن التي كانت تتعامل معها بمرونة لم تكن تخلو من حذر يقظ .وبصرف النظر عن هذا الفرق، فإن الاستعمار مد في كل مدينة شبكات استخباره لتتبع خطوات الوطنيين وضبط أنفاس الشعب .

كان أفراد الخلايا يحضرون على انفراد إلى اجتماعاتهم بالدور الموجود بعضها في أعماق الدروب المظلمة داخل حارات المدن وينصرفون على انفراد وبصفة متقطعة في غيبة عن أعين الرقباء .

وكان الدعاة الذين كان يطلق عليهم اسم " المسيرين " يعملون على توعية أعضاء الخلايا بالمبادئ الوطنية وتربيتهم على الولاء للوطن، ويدربون التلاميذ منهم على الخطابة لتمكينهم من القدرة على مخاطبة الجماهير وتعبئتها حول أهداف القضية الوطنية .

وإذا كانت أغلبية المسيرين أنهت تعليمها أو كانت تتابعه بجامعة القرويين والمعاهد الإسلامية الأخرى عبر المدن العتيقة، وإذا كانت تتوفر بالتالي على الثقافة الإسلامية الأصيلة فإن المصدر الأول الذي كانت تستقي منه في مهمتي التوعية والإرشاد كان هو المراجع التاريخية الأصيلة التي تُجلّي حقيقة الحضارة الإسلامية والأصالة العربية .

كان المسيرون ينتقون من أعلام التاريخ العربي الإسلامي النماذج المثالية والصور المثيرة، ويحثون أعضاء الخلية على التأسي بها. ومن سير عظماء العرب والمسلمين كانوا يستخلصون العبر والدروس لتربية الجيل الصاعد من أعضاء الخلايا على نهجها. ومن صمودها في معارك البطولات التاريخية كانوا يضربون الأمثال لحفز الهمم وإيقاظ الضمائر لحمل الحرفيين والتجار الصغار أعضاء الخلية على الصمود استعدادا لخوض المعركة ضد الحماية الفرنسية .

كان الانخراط في هذه الخلايا يخضع لشروط دقيقة مطلوب توفرها في الشخص المختار للالتحاق بها بدءا من التحقيق في نوع سلوكه ومعرفة صلاته وعلاقاته، ومن بينها أن لا يكون منتميا إلى أسرة مشبوهة في وطنيتها، إلى تزكية عضوين من أعضاء الخلية ، فالقبول على سبيل التجربة في خلية انتقالية كانت تقتصر على التوعية الفكرية وانتهاءً إلى الخلية السياسية التي يؤدي أمام المسير من يرقى إليها

القَسَم التالي وهو يضع يده على المصحف : " أقسم بالله العظيم أن أخلص لديني ووطني، وأكتم أسرار جمعيتي، (كان اسم الجمعيات يطلق على هذه الخلايا) وأقوم بواجبات عضويتها والله على ما أقول وكيل ."

انتمائي للجمعية السرية

ولقد انتميت وأنا في الحادية عشرة من عمري تلميذا في مدرستي إلى إحدى هذه الجمعيات. وأذكر أني عندما أديت القسم تملكني شعور بأني أصبحت قبل البلوغ رجلا ذا شأن، وأني مؤتمن على سر خطير احتفظت به وفاء لقسمي وكتمته حتى عن أخلص أصدقائي بل أخذت أسعى حتى لانتحال الذرائع ومفتعل الأسباب لأخفيه عن والديّ. وقد كنت إلى هذا السن لا أخفي عنهما شيئا فإذا ما رجعت إلى البيت في نهاية اجتماع خليتي انتحلت لتأخري عذرا حتى لا يعلم من في البيت شيئا عما اتسع له صدري الصغير من سر الخلية الكبير .

الهاشمي الفيلالي

أخذت أتردد على خلية بحي البْليدة بمدينة فاس كان يشرف عليها أحد مؤسسي الحركة الوطنية الهاشمي الفيلالي الذي سبق له أن كان من بين المعتقلين مرة أو مرتين إن لم يكن أكثر عندما أديت أمامه القسم سنة 1935. وكان مسيرنا هذا يعمل أيضا ضمن معلمي وأساتذة المدارس الحرة، وظل دائما مرشحا في أعين الجماهير وتقدير رجال الحماية ليَزجّ به في السجن كلما قررت الحماية قمع الحركة الوطنية، ولا أعلم أن هذه الظاهرة تخلفت بالنسبة لمسيرنا منذ بداية الحركة الوطنية في مرحلتها السرية إلى إعلان استقلال المغرب. وبذلك أصبح زبونا وفيا لحراس السجون الذين تعاقبوا على معتقلات الحماية ، فلم يفتقدوا قط غيابه أو تأخره عن الموعد المضروب.

ومن الصعب إحصاء عدد الوطنيين الذين يشخصون هذه الظاهرة لكثرتهم، فقد كان التسابق إلى التضحية والاستهانة بأذى السجن والنفي أكبر ما ميز رواد الحركة الوطنية، الذين ظلوا أوفياء لقسمهم إلى أن جنى بعضهم بتضحياتهم وجهادهم ثمار العمل الوطني وانتقلت طائفة منهم إلى الرفيق الأعلى وفية سعيدة دون أن تنعم وتسعد بعهد الاستقلال.

علمت من مسير خليتي هذا في حديث أفضى به إليّ أنه كان مسؤولا في التنظيمات الوطنية في مجال الدعاية والاستخبار، بل أخبرني أنه أصبح فيما بعد رئيس لجنة تحمل في الحزب الوطني هذا الاسم عندما تأسس سنة 1937، وأن بيته الذي أقسمت فيه يمين الانتماء إلى الخلية كان يعرف على أنه " دار الطالب " حيث كان مربينا يستقبل في الظاهر التلاميذ والطلاب للأخذ بيدهم على ما يعينهم علي مواصلة الدرس والتحصيل، ولم يكن ذلك إلا ستارا لعملية التعبئة الوطنية التي من أجلها نشأت الخلايا السرية .

وفعلا كانت بجانب الخلايا السياسية جمعيات ثقافية تستوعب جماعات من التلاميذ والطلاب لتسهيل احتواء جمع العناصر تحت لواء الحركة الوطنية. ومن بينها جمعية " النبوغ والعبقرية " التي كانت تضم جماعة مختارة من الطلبة والتي حدثني أخونا أحمد ابن سودة أنه كان ينتمي إليها هو والمرحوم المهدي الودغيري ومحمد ابن شقرون (الملقب بالسطاتي) والصديق السايح وشباب من مختلف المستويات . وكانت الجمعيات الثقافية تتخصص في إقامة المهرجانات الموسمية كذكرى الهجرة و ذكرى المولد النبوي أو الذكريات الأدبية كذكرى شوقي التي أطلق عليها يوم شوقي بفاس، وذكرى المتنبي .

إن والد الهاشمي الفيلالي هذا المربي الكبير كان مجرد عامل في مصنع دباغة بمدينة فاس (المعروف بدار الدبغ)، ولم يكن ينتظر أن يلمع اسم ولده متدرجا ضمن مؤسسي كتلة العمل الوطني، فأعضاء وفد تقديم المطالب المغربية إلى السلطات الرسمية ، فزعماء الحزب الوطني برئاسة علال الفاسي، فقادة حزب الاستقلال الموقعين على عريضة الاستقلال في يناير 1944، ليصبح وزيرا للأوقاف والشؤون الإسلامية في حكومة الملك الحسن الثاني، ووزيرا بالديوان الملكي وهي الوظيفة التي يشغلها اليوم .

إنه نفسه الهاشمي الفيلالي الذي تعودنا أن نراه كلما قضى وطني نحبه أن يقف على قبره إثر دفنه خطيبا في مشيعي الجنازة مشيدا بكفاح الراحل، منوها بفضائله وحسناته، باكيا مبكيا سامعيه .

ولا أدري لم ينتدب حزب الاستقلال دائما هذا الوطني الكبير لتأبين قادة الحزب وأعضائه ؟ ألأنه رجل الوفاء العارف بقدر المكافحين ؟ أم لأنه من الصفوة القلائل المخضرمين ممن عاشوا كفاح ما قبل الاستقلال وامتدت بهم الحياة بعد الاستقلال

فخبروا في المرحلتين صدق الرجال وأصبح من واجبهم أن يقوموا شهداء على الناس بالقسط ؟

الدور التربوي للخلايا السرية

كانت توجيهات الخلايا الوطنية أو الجمعيات السرية التابعة للحركة الوطنية تمضي خلال الثلاثينات مواكبة للعمل التربوي الذي كانت تؤديه المدارس الحرة المشمولة برعاية الوطنيين، بالرغم من أن المدارس الحرة لم تكن حرة في توجيهاتها، لأن مديريها ومعلميها كانوا يدركون أن عيون الحماية وأرصادها يرقبون تطورها وأنها مهددة بالإغلاق إذا هي تحولت إلى أوكار للدعوة الوطنية، لكن منهجها التربوي كان يجمع الغايتين، بتوجيه التلاميذ وجهة التشبث بالمثل العليا وجعل هذه المثل محور مناهج التعليم .

أما الخلايا الوطنية فكانت مدارس لتكوين الجيل على تربية وطنية تُعده للمقاومة والصمود وبذل التضحيات مهما غلت. وبذلك تكاملت المؤسستان : المدارس الرسمية العلنية والتشكيلات الوطنية السرية .

وكانت الجمعيات السرية تقوم بتكوين الذين لم يلتحقوا بالمدارس في سن التمدرس من الحرفيين والصناع وأرباب الدكاكين حيث يبسّط لهم المسيرون فلسفة الحركة الوطنية تبسيطا يتناسب مع مستواهم الفكري. وتأتي دروس شباب جامعة القرويين التي كانت تلقى في أوقات الفراغ، وخاصة بعد العصر أو العشاءين لتكمل توجيهات الخلايا السرية مثلما كانت هذه الأخيرة تكمل بالنسبة للتلاميذ والطلاب تعليم المدارس والمعاهد .

إبراهيم الوزاني

كان يتعاقب على الخلية الوطنية التابعة لكتلة العمل الوطني التي انتميت لها سنة 1935 مسيران : الهاشمي الفيلالي الذي رسمت له في الصفحات الماضية صورة مجلية ضمن الوجوه النيرة التي أحرص على تقديمها ضمن هذا الكتاب حتى لا يطوي بعضها رداء النسيان أو يغمط جهدها وجهادها روح التعصب أو التحزب أو الجحود. وبعد تفرق الكتلة الوطنية شطرين كان الهاشمي الفيلالي ضمن مؤسسي الحزب الوطني الذي تزعمه علال الفاسي.

وكان مسير خليتنا الآخر هو إبراهيم الوزاني الذي انضم إلى الحركة القومية بزعامة محمد حسن الوزاني . وكان يمثل نهجا سلوكيامناقضا لنهج الهاشمي الفيلالي، فقد كان إبراهيم الوزاني يبدو لنا في شكل العاصفة والثورة، بينما كان الفيلالي يمثل الهدوء والوداعة .وربما كان الأصح أن أعدل عن مقارنة الوزاني بغيره لأن إبراهيم هذا كان أمة وحده . ولا أعلم أنه كان له شبيه بين من عرفتهم ضمن القيادة الوطنية فيما تميز به من خصال وسمات . والذين عايشوه من قرناته وزملائه يجمعون على أنه نشأ وشب وترعرع على سمات التصلب والعناد واقتحام المكاره والاستهانة بالمصائب إلى حد الاستمتاع والتلذذ بها . لم يكن إبراهيم الوزاني هذا شخصا، بل أشخاصا تتكامل قدراتهم وإمكاناتهم الجسمية والفكرية لتصنع منه النموذج الفريد بين النماذج البطولية التي عرفها تاريخ الحركة الوطنية منذ نشأتها في خضم الأذى والعذاب إلى تتويجها باستقلال المغرب . لذا كان طبيعيا ومنطقيا أن يتميز عن سائر مجلودي حركة مناهضة الظهير البربري الذين أشبعوا ضربا وجلدا بأنه الوحيد الذي ضوعف له العذاب ضعفين، لأنه أبي أن يقبل شروط ابن البغدادي الجلاد وقوي على مقابلة تعسفه بالصمود والعناد والتحدي . وكان طبيعيا أن يكون زائرا منتظما للسجون طيلة الثلاثينات كلما قررت الحماية اعتقال الوطنيين.

لا أحتفظ عن علاقتي بإبراهيم الوزاني في الخلية السريةإلا بظلال ذكرى باهتة كل ما يعلق منها بخيالي اليوم أنه كان داخل الجمعية السرية يملي ما كان يمليه علينا من مقتطفات الكتب والجرائد ما كان يحمسنا،لا لأنني لا أذكر بالضبط كل ما كان يمليه، ولكن لأنه كان يجهر بانفعال وحماس لما يمليه، ولأنه كان يتوجه إلينا بالتعليق على ما يتلو وقد ارتسمت على وجهه قسمات الجد والخطورة، واقترن حاجباه في تقطيب معبّر .كان يبدو كما لو كان يصارع أشباحا لم نكن نحن الصبيان نبصرها برأي العين بينما كان يراها هو بعين البصيرة.

لغة خاصة

كانت له في الدعوة للحركة الوطنية لغة خاصة وأسلوب فريد، فبدلا من إدانة الحماية والرجعية والحث على التضحية - وهو ما كنا نسمعه من مسير خليتنا الآخر (الهاشمي الفيلالي) -كان هو يتحدث عن فرنسا وينعتها بالكلبة أو الشرموطة. وكان يصرح بأسماء المتعاونين من المغاربة وينعتهم بنعوت السفلة والخونة . وحين

يتحدث عن التضحية المطلوبة كان يختصرها في الموت من أجل الوطن.

كنا نتأثر وننفعل لهذه اللغة المكشوفة العارية من التحايلات الشكلية والتلويحات الأدبية،لأننا كنا نفهمه أكثر، خاصة وقد كان يبدو قوي الإيمان بما يقول ويدعو له.

عندما تأزم الوضع السياسي في المغرب بعد اعتقال الوطنيين سنة 1937 ونَفْي الزعيمين علال الفاسي ومحمد حسن الوزاني، الأول إلى الغابون والثاني إلى الصحراء قرر الدخول في السرية والهجرة إلى المنطقة الخليفية بالشمال لمواصلة العمل الوطني في جو أرحب حيث كان الوطنيون المغاربة يعملون في العلن في حرية نسبية تحت النفوذ الإسباني الذي كان يتعامل مع الحركة الوطنية الشمالية بأسلوب مغاير للأسلوب الفرنسي . ولم يتردد في اقتحام مغامرة اختراق الحدود الفاصلة بين المنطقتين في عملية تحدّ لمراقبة الحدود الفرنسية -الأسبانية كانت ستعرضه لأقصى العقوبات الجنائية، وكان وحده القادر على القيام بهذه العملية الجريئة.

في زي امرأة

تنكر إبراهيم الوزاني في زي امرأة محتجبة مسافرة مع ذي محرم واجتاز مراقبة الحدود الفرنسية، ومنها اجتاز مراقبة الحدود الأسبانية. ولم تكن سلطات مراقبة الحدود تجرؤ على مطالبة النساء برفع النقاب للتأكد من هويتهن، لأن فرنسا وأسبانيا التزمتا بالحفاظ على تقاليد المغرب واحترام عاداته وأعرافه.

ومن تطوان بالشمال أقام إبراهيم الوزاني شبكة اتصال بينه وبين وطنيي الجنوب، وأخذ يوفد رسلا حاملين رسائله كانوا يتسربون عبر الحدود إلى مدينة فاس خاصة، لحث الشباب على الهجرة إلى المنطقة الشمالية الخاضعة للنفوذ الأسباني كما فعل هو، بغية تكتيل العمل الوطني بالشمال والاستفادة من جو الانفراج والحرية السائد هناك لتنظيم مقاومة نظام الحماية الفرنسي.

عدو فرنسا

وتزامن ذلك مع اندلاع الحرب العالمية الثانية سنة 1939 ومع موالاة النظام الأسباني الجديد لكتلة المحور النازية الفاشية، ومع مجاهرة وطنيي الشمال بمعاداة فرنسا والتشفي بهزيمتها واحتلال عاصمتها ،مما زاد معه إبراهيم الوزاني تصميما على

المجاهرة بمعاداة فرنسا وهو الذي كان يجد نفسه دائما في تجاوب مع تعقد الأزمات،وفي تفاعل مع هول المصائب، إذ كان في تفكيره أبعد ما يكون عن التقيد بقاعدة النسبية، وفي عداوة دائمة مع أنشتاين . لقد كان إطلاقيا في تفكيره وسلوكه وتصرفاته .

وقد ضبطت الحماية الفرنسية في المنطقة الجنوبية بعض رسائله واعتقلت حامليها الذين تعرضوا لأفظع مصير، وفرضت المضايقة والمراقبة على من كان يوجه إليهم الرسائل من الوطنيين، وتبرأ من فعلاته هذه بعض رفقائه وزملائه السابقين ممن كانوا يقدرون خطر الظروف الاستثنائية التي كان يعيشها المغرب الواقع تحت الحماية الفرنسية، خاصة في ظل الأحكام العرفية العسكرية التي كانت مقررة في جميع الظروف منذ الحماية، ولكنها أصبحت أكثر تطبيقًا في فترة الحرب، كما استنكروا الأسلوب الذي كان يعتبره الأمثل وهو ينعم في تطوان بجو الانفراج.

وظل إبراهيم الوزاني لاجئا سياسيا خارج مسقط رأسه.وكان يمر في علاقاته مع السلطات الأسبانية بفترات تفاهم أو قطيعة شأنه في ذلك شأن سائر الوطنيين بالشمال .

كان مما اهتم به ابراهيم الوزاني عندما حل بتطوان إشراك بعثة طلابية من الجنوب في البعثات التي كان يوجهها الوطنيون بالشمال إلى معاهد المشرق العربي وخاصة مصر، حيث شجعت إسبانيا هذه المبادرات وأذنت بها الحكومة الخليفية، بل رصدت اعتمادات لتمويل مكتب بالقاهرة أشرف عليه لمدة المرحوم محمد بن اليمني الناصري . وكان المكتب يؤمن إيواء الطلبة الوافدين من شمال المغرب ويسهر على تسجيلهم بمعاهد مصر.

دعوة إلى المغامرة

من أجل ذلك أخذ الوزاني يوفد رسله (الذين كانوا يتسربون خفية عبر الحدود الفاصلة بين المنطقتين الشمالية والجنوبية) إلى طائفة من التلاميذ والطلبة لحثهم على الالتحاق به بتطوان قصد ضمهم إلى البعثات الطلابية التي كانت تتوجه إلى معاهد المشرق العربي، وكان رسله يغرون من يتصلون بهم من الطلبة في المنطقة الجنوبية بإقناعهم بضرورة الهجرة لطلب العلم، وبتسهيل سفرهم بعيدا عن مراقبة الحدود، وتأمين وصولهم إلى تطوان . وكعادته لم يكن يقدر عواقب هذه المغامرة على الشباب

الذين كان يدعوهم إلى سلوك طريقها الشائك المحفوف بالمخاطر . لقد أطلعني الأخ أحمد ابن سودة خلال هذه الفترة على رسالة تلقاها من إبراهيم الوزاني يدعوه فيها للالتحاق به بتطوان، ويذكر فيها أسماء طلاب كلفه بالاتصال بهم لحملهم على الهجرة كنت واحدا منهم . لكننا تداولنا أنا والأخ ابن سودة في الموضوع وقررنا أن لا نلبي هذه الدعوة مفضلين البقاء في المنطقة الجنوبية والاكتفاء بالدراسة داخلها، معتبرين أن مسؤولية الكفاح الوطني تتطلب حضورنا المستمر على الساحة الوطنية .،بناء على ذلك حرر الأخ ابن سودة جوابا سلبيا وأرسله إلى الوزاني فثارت ثائرته، وأرسل إلى ابن سودة رسالة سباب وتشنيع من عشرين صفحة واستفاد منها ابن سودة عند محاكمته بالمحكمة العسكرية أثناء الحرب العالمية الثانية بتهمة التواطؤ مع العدو والتعامل مع أعوان مغاربة يعملون لحسابه . وكانت النيابة العامة تقدمت إلى المحكمة بطلب الحكم عليه بالإعدام بتهمة التواطؤ مع الوزاني، هذا الذي كانت سلطات الحماية تعتبره متآمرا على فرنسا مع أعدائها النازيين، ومتمردا على الأحكام العرفية المعلنة في المنطقة السلطانية. ولولا أن الأمن العسكري ضبط في بيت ابن سودة رسالة إبراهيم الوزاني الذي ينعي عليه فيها عدم الانصياع إلى طلباته،وبسببه وبهجوه لما أمكن لابن سودة أن تبرئه المحكمة.

بيد أن إبراهيم الوزاني نجح في استمالة بعض الشباب إلى سلوك سبيل المغامرة فالتحق بالشمال بواسطة شبكة تهريبه عبد الوهاب بنمنصور،والمرحومان محيي الدين الكتاني،وإدريس الجاي وآخرون ممن كانت أسرهم تفتقدهم بغتة واحدا بعد الآخر،وتظل تعاني مأساة افتقادهم دون أن تعثر لهم على عين أو أثر، إلى أن يعطوا هم أنفسهم أخبار وصولهم للشمال، فتطمئن الأسر على مصائرهم،ولكن تصبح خائفة على مصيرها هي أمام مضايقات الحماية الفرنسية لأولياء الشباب النازحين.

هكذا أصبح إبراهيم الوزاني فتنة متأججة لا تخبو لها نار يصيب لهبها أو شررها كل من اتصل أو حاول أن يتصل به من الوطنيين والشباب، دون أن يخطر بباله لحظة أن يعيد النظر فيما خطط له من محاربة " فرنسا الكلية " التي خرج في تشييع جنازتها يوم هزيمتها واحتلال عاصمتها ضمن المظاهرة التي قادها وطنيو تطوان وحملوا فيها نعشا كتب عليه " نعش فرنسا" أودعوه المقبرة تحت تصفيقات الجماهير ومباركة سلطات الحماية الإسبانية.

ظل إبراهيم الوزاني ممنوعا من الدخول للمنطقة السلطانية بقرار من سلطات الحماية بالرباط ومعرضا للاعتقال إذا حاول اجتياز الحدود، واقتصر لفترة عشر

سنوات على التنقل بين منطقة الحكم الأسباني بالشمال ومنطقة طنجة الموضوعة تحت الإدارة الدولية، " يصارع فرنسا " في كل ميدان وفي أكثر من واجهة، عازفا عن كسب العيش، مكتفيا بالزهيد من المنافع، متفرغا للدعوة إلى الوطنية على طريقته وأسلوبه الخاصين، يظل يذرع الأرض طول النهار وزلفا من الليل في بحث لا ينقطع عن الأنصار، وفي حوار لا يضعف له فيه نفس.

لقاء في طنجة

انقطعت صلتي به إلى أن عرفت الحركة الوطنية انفراجها التاريخي في أواخر الأربعينات إثر رجوع الزعماء من المنفى وانطلاقة الصحافة الوطنية بعد اختناق دام تسع سنوات (1937-1946) .

وعندما ذهبنا -أنا وابن سودة - إلى طنجة سنة 1947 في جولة عبر مناطق المغرب لتأسيس خلايا حزب الشورى والاستقلال كان إبراهيم الوزاني في طليعة من استقبلنا في مدينة طنجة مشرق الوجه شامخ الأنف كما لو كان يحتفل بانتصار حققه في المعركة التي خاضها ضد فرنسا كما خاض دونكيشوت معاركه مصارعا مغالبا الناس،أوكسيف بن ذي يزن الذي كان يظل يجتاز الفيافي والقفار ويقطع الرؤوس. كنا نسمع الكثير مما كان يصلنا من أصداء عن جلده وصلابته وطول نفسه فرأيناه في طنجة أشد قوة وأمتن عودا . كان بيننا وبينه فارق عقدين من السنين، ولكنه كان أشد منا احتمالا للنشاطات اليومية التي كانت تستغرق أوقاتنا وجهدنا .

ما أزال أردد حتى الآن ما كان يقول : " بكل أسف إن اليوم الواحد لا يمتد إلا أربعا وعشرين ساعة، وحجم العمل أطول من حجمه. وللأسف الشديد إن الناس ينامون رغم ذلك " . وكنت أضحك لمقولته ولكن ذلك كان يعكس فلسفته في الحياة ومنطقه الذي طبقه على نفسه وخاب سعيه طول حياته في العثور على رفيق يطبقه معه.

قضينا في فترة رحلتنا بطنجة أياما مليئة بالاتصالات كنا (ابن سودة وأنا) نلتقي به ونستهل نشاطنا في ساعة متقدمة من الصبح ثم لا نعود للفندق إلا بعد منتصف الليل . وكان يودعنا بباب الفندق متحسرا لأنه كان يلاحظ علينا الإجهاد ويجدنا عاجزين عن مواصلة العمل فيما تبقى من ساعات الليل. أما هو فكان يتركنا ليتابع مع من يلقاه في طريقه ما يزال مستعدا للنقاش والحوار. وما أظن أنه كان ينام

من الليل إلا إغماءات كان يتزود منها أنفاسا جديدة ليقطع في اليوم الموالي نفس الأشواط بنفس الإرادة والتصميم.

ودعنا ذات ليلة بعد منتصف الليل. وقبل شروق الشمس وأنا مستسلم إلى نوم عميق بعد يوم مجهد دق التيلفون في غرفتي بالفندق، وإذا بصوت إبراهيم الوزاني يقول: " صباح الخير ماهي الاخبار؟" ولم أصدق ما سمعته. فأي أخبار يمكن أن تجدّ عندي قبل شروق الشمس منذ فراقي معه أربع ساعات من قبل، وألهمت هذا الجواب الذي جاء في شكل نكتة :" لم أحلم شيئا". وقطعت التيلفون على ضحكته لأعود إلى النوم .

ظروف مأساوية

هذه الطاقة الزاخرة بالنشاط، المتفجرة داخلها وعلى ما ومن حولها بالموفور من الجهد، كان عليها أن تؤدي في آخر المطاف الثمن من حياتها بعد أن استقطبت حولها الخصوم والأعداء، فقد اغتيل إبراهيم الوزاني مختطفا (لا يعرف له قبر) في السنة الأولى من عهد الاستقلال (1956) من خصومه السياسيين المغاربة، في ظروف مأساوية عندما قررت طائفة من الوطنيين بكامل البساطة أن تصفي جسديا طائفة وطنية أخرى، مما دخلت فيه الحركة الوطنية في منعطف خطر اجتازته لحسن حظ المغرب إلى عهد التصالح الوطني تحت قيادة العرش حامي الديار وموحد صفوف الأمة.

الفصل الرابع عشر

وجوه في الزحام

عودة إلى ذكريات فاس

أجدني-و فصول هذا الكتاب تتوالى- في حاجة إلى تعليق بالإجابة على سؤال ربما يطرحه بعض القراء الذين يلاحظون أن الذكريات والشهادات والوجوه التي أقدمها لحد الآن تكاد تقتصر على مشاهد مسرحها مدينة فاس، وآمل أن لا أتّهم ممن لا يعرفني بنعرة إقليمية شهد الله أنها لم تستهوني قط، وأني اعتبرتها دائما مظهر تخلف فكري، وأحسست حيال من تمذهبوا بها بحساسية استنكار ونفور، لأن أنصارها إذ يسيرون في مسلكها الضيق يسدون في وجوههم الآفاق الرحبة، والأبواب الواسعة، ويتجنبون الطريق السوي اللاّحب، ويظلون يدورون في حلقة مفرغة ..

ولعل الإحساس بهاجس الانتماء الإقليمي الضيق المفرِّق بديلا عن الانتماء القومي الرحب ظاهرة مميزة لعوالم الجنوب عن عالم الشمال، تؤلف مفارقة بين المفارقات العديدة الأخرى الفاصلة بين المتخلفين والمتقدمين .

والأمر بالنسبة لي بسيط، ففي الفترات التي انطلقت منها لتسجيل مشاهداتي وارتساماتي، أي في منتصف العشرينات وقد كنت من مواليدها وبداية الثلاثينات التي تحدثت عنها لحد الآن من منظار الطفولة أو الصبا، كنت محصورا في بيئة مدينة فاس ومشدودا إلى وقائعها وأحداثها. ولا ذنب لي أن نالت أحداث المدينة وذكرياتها ووجوهها النصيب الأوفى فيما أسجله من وقائع وأحداث، مع العلم أن مدينة فاس بحكم موقعها الفكري كانت في الفترات التي أتحدث عنها محط الأنظار ومهوى الأفئدة، ومع ذلك فهذا لا يعطيها في نظري أية ميزة تفضيلية، لأن ظروف المغرب أهلتها آنذاك لتكون عاصمة الفكر ومنطلق الثورةالسياسية التي لم تتخلف أية مدينة أو قرية في المغرب عن المساهمة فيها.

بعد بيان الحقيقة هذا أعود للحديث عن ذكريات فاس من سنة 1933 إلى

1936 راصدا بالخصوص تطورات العمل الوطني الذي انتميت سنة 1935 إلى إحدى خلاياه السرية .

جنود مجهولون

يبدو أن هذه الخلايا كانت تعمل في تنظيم يطبعه التدقيق. ومن خلال الاتصالات التي أجريتها مع عدد من مسيريها ممن لا يزالون على قيد الحياة أمد الله لهم في العمر(من بينهم الهاشمي الفيلالي) يظهر أنها كانت متنوعة المهام، متوزعة بين مستويات فكرية مختلفة، وأن خطابها السياسي كان يتنوع بمقتضى ذلك.

كانت جماهير الصناع والحرفيين تتلقى داخل هذه الخلايا توجيهات تربوية مستقاة من التربية الإسلامية الحافزة للهمم، المحرضة على الصمود أمام المخاطر، الحاثة على بذل التضحيات. وكان مسير الخلية يركز في مخاطبة التلاميذالحاضرين بالخلية على وقائع التاريخ الإسلامي الذي كانت الحماية الفرنسية تمنع المدارس من تدريس مادته.

وفي خليتنا كان مسيراها الوطنيان: الهاشمي الفيلالي وإبراهيم الوزاني يقرآن علينا نماذج من مقالات الصحافة العر بية وخاصة ما يهم تطور الحركة السلفية في المشرق العربي، أو ما يتصل بكفاح المسلمين في شبه القارة الهندية . وكانت أسماء غاندي ومولانا أبو الكلام في الهند تواكب أسماء الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا. وحين كان المسيّر يتلو صفحات من كتب هؤلاء، يعود ليقرأ علينا فصولا من الكتاب الهندي :" الروضة الندية في شرح الدرر البهية " للفنوجي ابن الطيب محمد صديق خان .

المهدي بنسليمان

ومن هذه الخلايا انبثقت كذلك تنظيمات الكشفية الوطنية. وكان من أبرز أعضائها المهدي بنسليمان الذي اضطلع بتنظيم الحركة الكشفية بين الشباب الوطني الصاعد. كما انبثقت عنها جمعيات المسرح الهادف الملتزم بالخط الوطني، مما عزز جهود جمعية قدماء تلاميذ مدرسة مولاي إدريس بفاس التي يرجع إليها الفضل في عطاء الإنطلاقة للمسرح الوطني بالمغرب.

وضمن هذا التنظيم تأسست "فرقة الاصطدام " التي لم تكن تحمل هذا الاسم، ولكنها أعدت لتمارس دور التصادم إن اقتضى الحال مع القوات المسخرة لقمع الوطنيين، أو لتستعمل في بعض المهام التي تتطلب الجلد والمصابرة وتقتضي التوفر على طاقة المقاومة البدنية .

وقد اختير أعضاء هذه الفرقة من ذوي الجسم الفارع والزناد المفتول، وكانوا بالإضافة إلى قوة عضلاتهم يمارسون الرياضة البدنية ويبدون لنا ونحن في سن الصبا عمالقة مهيبين .

إدريس العلمي

كان من بينهم - إن لم يكن قائدهم - المرحوم إدريس العلمي الذي كان يحترف صناعة النحاس بحي الصفارين بفاس .ومازال أذكر صورة وجهه المشرق الدامي الذي يصدق عليه التعبير المغربي : لو رشقته بحبة زرع لفاض دما .

حرص الهاشمي الفيلالي في حديث ممتع جري بيني وبينه على أن يشدني إلى قصة هذا الجندي المجهول الذي نفذ بانضباط تعاليم قيادة الحركة الوطنية القاضية بأن يدخل السجن لاستجلاء خبر سجين آخر اعتقلته سلطات الحماية الفرنسية دون أن يعلم رفقاؤه رواد الكفاح الوطني سبب اعتقاله، وربما كانوا حريصين على معرفة السبب لأن الحيطة كانت تقتضي أن تأخذ القيادة التدابير اللازمة حتى لا يكتشف العدو تنظيماتها باستنطاق الرهينة التي سقطت في يده.

وتدورهذه القصة الطريفة في نهاية سنة 1928 وقد ألقي القبض على أحد طلبة جامعة القرويين ممن كانوا يقيمون بالمدارس التي تؤوي الطلبة القادمين من خارج فاس،وكان المعتقل هو بوشتى الجامعي الذي أصبح من زعماء كتلة العمل الوطني بعد تأسيسها سنة 1934، والذي يصفه الهاشمي الفيلالي بأنه أول معتقل سياسي للحركة الوطنية.اختارت الحركة الوطنية بفاس فردين ملتزمين لاصطناع مشاجرة يقوم فيها إدريس العلمي في الطريق العمومي بدور المعتدي ويرتكب جنحة الضرب والجرح ضد رفيقه،لينقلهما أعوان الباشا ابن البغدادي إلى مكتبه بدار بو علي في حالة التلبس، ولينطق الباشا بحكم السجن في حق المعتدي حيث دخل"حبس زقاق البغل. » وبذلك تمكن من مشافهة المعتقل الوطني بوشتى الجامعي واستطلاع حقيقة التهمة التي " استحق " بها ولوج السجن .

وبعد يومين كانت تعاليم الوطنيين تقضي أن يتقدم الوطني الآخر المعتدى عليه إلى مكتب الباشا ضارعا إليه أن يطلق سراح العلمي معلنا أنه يتنازل عن حق متابعته لأنه لم يكن يعلم أنه شريف النسب من سلالة الرسول. (والعلميون أشراف معروفون في المغرب بهذا الانتماء) وقد تأثر الباشا لنبل هذا الخلق الكريم، فانهار جبروته أمام سماحة المظلوم، وأمر بالعفو عن المعتدي وإطلاق سراحه .

بعد إطلاق سراح العلمي عرف الوطنيون أن تهمة بوشتى الجامعي كانت جلب مطبوعات من المشرق العربي، وكانت سلطات الحماية توحي إلى الباشا العميل بعقاب من يرتكبون هذا الذنب الفظيع .

وربما كان الوطنيون يهتمون من خلال وقائع هذه القصة لا بالبحث عن أسباب اعتقال واحد منهم فقط، ولكن أيضا بمقدار ما يتحلى به أفراد" فرقة الاصطدام " من انضباط، لتقييم قدرتهم على اقتحام المغامرات عند الاقتضاء .

ومنذ ذلك أصبح إدريس العلمي بطلا عجمت عُوده السنون، ضمن الوطنيين المرشحين للسجن في كل أزمة، الملتحقين بمقاعدهم المحجوزة لهم سلفا داخل المعتقلات والزنزانات .

وعندما أدركت سن التعرف على الناس، كنت أرى العلمي هذا ضمن الجماعة التي كانت ترافق المرحوم علال الفاسي في غدواته وروحاته بمدينة فاس، أو تفرش "اللبود"في حلقات دروسه لحجز مقاعد الخاصة من الوطنيين الذين كانوا يرتادونها، وقد صرفه العمل الوطني عن متابعة الاحتراف بصناعة النحاس. وقد أكون صادق الظن أنه أصبح في بعض فترات حياته لا يجد ما ينفق على نفسه وأهله .

حماية الاقتصاد الوطني

في بداية سنة 1934 وأنا على عتبة دخولي العقد الثاني من العمر أخذني خالي إلى "حي الرّحيبة "على مقربة من بيتنا في درب مشماشة بفاس لأشاهد جماعة من الشباب عائدة من صلاة عيد الأضحى وهي ترتدي ثيابا من نوع خاص تتميز بها عن المارة الآخرين. كانت جلابيب أولئك الشبان البيضاء من صوف خشن، وكانوا يحملون على رؤوسهم عمامات بيضاء أطلقوا عذباتها وراء أقفائهم أو أسدلوها على أكتافهم وكانوا يلفتون الأنظار في زيهم الموحد البديع. قال لي عنهم خالي:" إنهم

الوطنيون ". ومنذ ذلك ارتسمت في ذاكرتي عن هذه الطائفة المتميزة من أهل المدينة صورة مشرقة إشراق ألوان جلابيبها وعمائمها .

كان ذلك كما علمت فيما بعد بداية الدعوة الوطنية إلى مقاطعة البضائع الأجنبية وحماية الاقتصاد الوطني . وكانت ضمن البضائع المقاطعة مواد السكر والشاي والدخان والمستوردات الخارجية بصفة عامة .

كانت الحركة الوطنية متأثرة في ذلك بأختها حركة المقاطعة الهندية، حيث كانت تصل أصداؤها إلى المغرب وتروج بين الوطنيين صورة الزعيم المهاتما غاندي وهو يقبض بيده على مغزل النسيج ويرتدي الثوب القومي . وكحركة الهند كانت دعوة الوطنيين تؤكد على تطوير الصناعة التقليدية في مجالات النسيج أو الجلد أو الحرير. ومن العاملين في هذه المهن اليدوية كانت تمتلئ الخلايا السرية التي تضم الحرفيين والتي كان من بينها " خلية حماية الاقتصاد الوطني" التي نشط فيها بالأخص وطنيان مرموقان : المرحوم مولاي الصديق العلوي، وعلال الجامعي .

بنمسعود اللفت

من بين الجنود المجهولين الذين برزت أسماؤهم في هذه الفترة واتصلت بحركة المقاطعة فتى مغمور من أسرة متواضعة بفاس لم تمكنه ظروفه من ولوج المدرسة . ولم يكن له بالتالي ما يؤهله لأن يقترن اسمه بفترة مزدهرة في تاريخ الكفاح الوطني، لكن اسمه أصبح يتردد على كل لسان بالمدينة منذ سنة 1933، حيث كان يذكر عبد السلام بنمسعود الملقب بـ " اللّفْت " ومعه كل ما يؤذن بصفات الشجاعة والإقدام واحتساب العمل الصالح لوجه الله والوطن.

ولمن لا يعرف شيئا عن الألقاب في المغرب نقول : إن المجتمع المغربي كان في غيبة الحالة المدنية يحرص على إضافة اللقب لاسم كل أسرة لتمييزها عن نظيرتها التي تحمل الاسم نفسه، بما يؤدي به اللقب وظيفة تحديد الفصائل المنبثقة عن الأسرة الواحدة .

والملاحظ أن أسر الشرفاء (المنحدرين من الرسول عليه السلام) لا تحمل في الغالب ألقابا، ربما تشريفا لها بترك العلامة، أو لأنه كان يُعتَقد أنها في غير حاجة إلى ذلك لتحقق أنسابها وتميز فصائلها . أما من كانوا يسمّون بالعوام (مقابل الشرفاء) فقد كانت ألقابهم غريبة في تنوعها، إذ كانت حيوانات أو أدوات أو نباتا

أو بقلا أو خضرة ،أو نعوتا كاشفة لأوصاف مطابقة لخلقة رب الأسرة الذي حمل اللقب لأول مرة . وقد فقدت كلمة العوام مدلولها السابق ،وأصبحت تستعمل فقط في مقابل الخواص .

هكذا كانت أسرة هذا الجندي المجهول تحمل لقب " اللفت " عندما اعتقلته السلطات الفرنسية وأدانته بجريمة محاربة البضائع الأجنبية، واعتقلت أفواج الشباب الوطني الذي تظاهر في شوارع فاس احتجاجا على اعتقاله في حركة أطلق عليها أهل فاس " عيطة اللفت " أي نداء أو دعوة هذا الزعيم المغمور .

في هذه "العيطة " التاريخية لم تستثن السلطات الفرنسية من قمعها حتى الأطفال والمراهقين . وكان من بينهم زميلي اليوم في أكاديمية المملكة المغربية محمد عزيز الحبابي، ورفيقي في دراسات القرويين المرحوم عبد الهادي العراقي المشهور بنكته اللاذعة، والذي لم يشارك بعد اعتقاله في مظاهرات وطنية لا حقة وكان يقول: " لقد تظاهرت واعتقلني الاستعمار في مظاهرة " اللفت "، ولن أعود للتظاهر والسجن إلا إذا اعتقل وطني آخر لقبه الجزر أو الفجل ."

أصبح " اللفت " هذا ملازما للمرحوم علال الفاسي ملازمة الظل، يمضي خلفه حاملا لبدته (سجادة الصلاة) في الشوارع، وممسكا بنعليه في المساجد، ومقتعدا الصف الأول في دروسه، وهاتفا باسمه في كل تظاهرة وتجمع .

ثم غمره عهد الاستقلال ولفه في طي النسيان مثلما غمر وطوى جنودا مجهولين أمثاله. وما يزال " اللفت " يقيم بمدينة طنجة معتبرا أنه لم يقم إلا بواجب لا يطمع لقاءه في استخلاص ثمن وأنه قدم لبلاده تضحيات لا يرجو من ورائها جزاء ولا شكورا .

ابن كيران «"غاندي بوشبشوب"»

إنه بطل آخر من الفصيلة الوطنية المتميزة بشجاعتها وصوفيتها وزهدها.كنا نصطف على الشارع زرافات عند خروجنا من المدرسة لنراه وهو يخترق شوارع المدينة موزعا المنشورات الوطنية في غير تستر ولا مخافة، حاملا في يده أحيانا صندوقا لجمع الاكتتابات الشعبية من أصحاب الدكاكين والمارة، طارقا أبواب دور الأغنياء لحملهم على العطاء، مرددا الشعارات الوطنية في مجاهرة مجلجلة كان المنافقون في المدينة يحسبونها صيحات عليهم . .

كان مؤثرا في زيه وشكله، خاصة بوفرة شعره الكثيف الذي كان يحاذي كتفيه، مما أصبح معه يحمل لقب " بوشبشوب "حيث كان لا يعتني بشعره قصا ومشطا، وحيث كان نادرا عندئذ من لا يحلق شعره بالموسَى تجنبا للتشبه بالأجانب والغرباء. كانت شجاعته تعرضه لتحقيقات الشرطة الفرنسية الحاكمة ولأذى الجلادين في زنزاناتها. وكانت أسرته تعد الأيام التي يقضيها معها خارج السجون، ولعله يصدق عليه القول إنه إنما كان يتمتع بترخيص لإقامته خارج السجن، أو أن بيته القار كان سجن فاس لا يغادره إلا إلى قضاء إجازة قصيرة في بيت أسرته ...

كان "بوشبشوب " ينتمي إلى أسرة نشيطة في التجارة بفاس لكنه وقد اختار التجرد للعمل الوطني بصوفيته المثالية التي أصبح معها يلقب بغاندي طلق التجارة وفتح في وجهه باب الإفلاس. وحتى عندما هبت نسائم الاستقلال على الوطنيين، وأقفلت أبواب السجون التي كانت الحماية تشرعها في وجهه لم يحظ إلا بوظيفة قيم في جمعية خيرية بفاس مات وهو يمارسها كما يموت الزهاد المجهولون .

والجنود الهتافون

وانبثق عن الخلايا الوطنية السرية أيضا " فرقة الهتافين" المحمسين للجماهير من ذوى الحناجر ذات النفس الطويل والصوت الممتد، وقد تدربوا على أسلوب إيقاد شعلة الهيجان في النفوس عند عقد أي اجتماع شعبي، منطلقين من الهتاف بالزعماء إلى إعلان الشعارات الوطنية المثيرة للحماس، مما أصبحت معه فرقة التحميس والهتاف جزءاً لا يتجزأ من التنظيم المعد لكل اجتماع. وما أكثر من برزوا داخل هذه الفرقة من المجاهدين الصامدين، ولا أقول الصامتين ،فقد كانوا لا يركنون إلى صمت أو سكون، وإنما يمتدون يمجدون القيم ويكرمون بهتافاتهم رموزها ما امتدت الاجتماعات وتوالت الخطب.

أذكر من بين هؤلاء من الأحياء والموتى على سبيل المثال لا الحصر أحمد الجباري، ومولاي هاشم الكتاني، ومولاي إدريس العلوي، ومولاي علي الإدريسي الذي أطلق عليه البعض لقب"يعيش- يعيش"، لأنه كان لا يفتأ يعقب بهما على كل هتاف بزعيم وطني.

جميع هؤلاء خفتت أصواتهم بكيفية أو أخرى ودخلوا في عداد الجنود المجهولين بعدما حقق المغرب استقلاله .

هكذا كانت مدينة فاس في هذه الفترة جمرة متقدة أو أتونا حاميا لا يخبو له أوار، لأن الحركة الوطنية كانت توقد شعلته في المساجد والمعاهد والمصانع والمعامل والبيوت بين الأسر وداخل الخلايا السرية. وفي هذا الجو الساخن وعلى هذه الأرضية الصلبة اجتازت الحركة الوطنية فترة السرية إلى عهد العلن وخرجت من التنظير الهامس إلى مرحلة التكتل الشعبي المنظم، وببرنامج سياسي يقدم هويتها إلى أنصارها وخصومها والرأي العام الدولي .

الفصل الخامس عشر

مطالب الشعب المغربي وتأسيس كتلة العمل الوطني

مسلسل التفريق بين السلطان وشعبه

أسقط في أيدي رجال الحماية الفرنسية عندما قطع السلطان محمد بن يوسف زيارته لفاس يوم 10 مايو (آذار) سنة 1934 وأعلن في بيان من عاصمة الرباط الأسباب الحقيقية التي دفعته للتعجيل بالعودة، مكذبا بذلك تلفيق سلطات الحماية قصة وجود خلاف بينه وبين رجال الحركة الوطنية. ورد الوطنيون بدورهم بإرسال برقية تعلق بالعرش إلى القصر الملكي، وفضحت جريدة " عمل الشعب " لسان الحركة الوطنية الأكذوبة الفرنسية مؤكدة أن الولاء للعرش جزء من العقيدة الوطنية .

وقد يبدو الحادث بسيطا لمن لا يعرف بواطن سياسة الحماية الفرنسية في المغرب، وللذين لم يتابعوا مسلسل المحاولات التي قام بها " الحماة " للسعي لدى السلطان بالتشكيك في كل اتجاه مغربي يناهض السياسة الفرنسية المتبعة في المغرب، بقصد فصل السلطان عن شعبه وإيهامه أن فرنسا وحدها هي حاميته والمدافعة عن استمرار ملكه وسلطته .

كان حادث ماي (1934) منطلقا لهذا المسلسل الذي مثل فيه رجال الحماية دور الواشي المفرِّق بين السلطان وشعبه، والذي قابله السلطان دائما باليقظة والوعي.
وقد استمر هذا المسلسل طيلة عهد السلطان محمد بن يوسف وإلى قرار فرنسا عزله سنة 1953. ولم تختلف في هذا المسلسل بداية أو نهاية، إذ طيلة ثلاث وعشرين سنة ظل ستار المسلسل يرفع ليقدم مشهد رجال الحماية وهم يسعون لدى السلطان بطائفة من شعبه يتهمونها مرة بالعصيان أو التمرد، وأخرى يثيرون الشكوك حول ولائها لعرشه، ويتقدمون إليه دائما ناصحين بالاحتراز منها ومعاملتها بالحذر، لكن السلطان كان بدوره لا يرفض شعبه و إنما يرفض دائما وشايتهم الكاذبة . وعندما

رفض السلطان فعلا الوشاية بعد حادث فاس وأصدر من الرباط بيان الحقيقة الذي وضع فيه الأمور في نصابها كان جواب الحماية خنق أنفاس الشعب بإيقاف صحيفة " عمل الشعب " عن الصدور يوم 16 مايو 1934 ومنع مجلة " مغرب" الصادرة بباريس من الدخول للمغرب، وبضرب الحصار على صحافة الشمال المغربي الوطنية حتى لا تخترق الحدود الفاصلة بين منطقة النفوذ الإسباني ومنطقة النفوذ الفرنسي .

مطالب الشعب المغربي

إن محاولة ضرب هذا الحصار على منطقة الحماية الفرنسية كانت أحد الأسباب التي دفعت بالحركة الوطنية إلى إعداد برنامجها السياسي في فترة التفرغ القصيرة التي امتدت منذ منع "عمل الشعب" بعد مرور أسبوع فقط على قطع رحلة السلطان، وإلى الإعلان عن ذلك البرنامج باسم " برنامج (أو مخطط) الإصلاحات الوطنية " أو باسم " مطالب الشعب المغربي" يوم فاتح دجنبر (كانون الأول) سنة 1934 .

وقد سهل إعداد ذلك البرنامج السياسي في فترة تناهز ستة أشهر فقط تبلور الخطاب السياسي للحركة الوطنية طيلة أربع سنوات خلت انطلاقا من حركة الظهير البربري سنة 1930 ومرورا برصيد أدبيات سياسية تمثلت في المحاور التي كانت تعالجها مجلة " مغرب" فجريدة " عمل الشعب ". وتكفي مطالعة برنامج الإصلاحات المغربية، وتصفح أعداد المجلة والجريدة لاستجلاء التطابق الواضح بين محتوى الوثائق الثلاث، إذا نحن استثنينا محاور فرعية لها اتصال وثيق بشؤون المغرب الداخلية التي لم تخصص لمعالجتها مقالات في المجلة والجريدة بحكم توجههما بالأصالة إلى الرأي العام الخارجي وفي درجة ثانية إلى الشباب المغربي الذي يقرأ الفرنسية .

رغبة الحوار

وكانت الحركة الوطنية في أمس الحاجة إلى تدوين برنامجها السياسي في وثيقة تقدم بها هويتها إلى الرأي العام الخارجي، وتركز كفاحها على محاورها، وتستقطب حولها الأنصار وتؤكد بها سر وجودها، خاصة وقد اختارت الحركة الوطنية في كفاحها السياسي أسلوب الحوار مع الخصم، وراهنت على إقناعه بلغته ومنطقه .

إن الحركة الوطنية في سعي منها إلى إعطاء الحوار مع الحماية قاعدة صلبة

حرصت على أن يكون الإعلان عن برنامجها في صيغة تقديم مطالبها إلى السلطات الحاكمة في كل من المغرب وفرنسا و إلى السلطان ممثل الشرعية المغربية وإلى الإقامة العامة بالرباط الموكول إليها تنفيذ الحماية، وإلى وزارة خارجية فرنسا التي أبرمت مع المغرب اتفاقية حماية بالمعنى القانوني الدولي لكلمة الحماية. وذلك يعني أن الحركة الوطنية فضلت بكل وعي العدول عن استعمال قنوات الإعلام للإعلان عن برنامجها من جانب واحد وأعطت الدليل على رغبتها في الحوار على أساس برنامجها الذي كان لا بد أن يطلع عليه أولا جانب الحوار الآخر المعني به قبل غيره، وهو ما يمد جسر التواصل بين مخاطبين ندين، يقيم البادئ منهما بالمبادرة الدليل على تشبعه بحسن النية في الدخول مع خصمه في حوار مثمر .

ومن جهة أخرى وضعت الحركة الوطنية المغربية الكرة في معسكر الخصم الذي أصبح عليه واجب الجواب على التساؤلات التي يطرحها عليه البرنامج السياسي الوطني الجديد، وخاصة لكون الوطنيين قد شخصوا في البرنامج المطروح المشكلة المغربية وتقدموا بحلول عقلانية لمعالجتها .

إصلاحات في إطار الحماية

ولم تكن المشكلة تتجاوز في نظر واضعي ذلك البرنامج السياسي عتبة تطبيق سليم لعقد الحماية الذي لم يضعوه موضع النقاش أو التساؤل، بل طالبوا بتطبيقه وسجنوا خصمهم في إشكالية خرقه أو تحريف صيغته إلى حكم مباشر لا شيء يبرره في مقتضيات عقد الحماية نفسه، وهو منطق لا يملك رجال الحماية بالمغرب الانفلات من حجيته، ولا يقبل منهم الرأي العام السياسي الواعي في فرنسا أن يتحايلوا على الانفلات منه.

وحتى يبرز هذا المنطق القانوني السليم واضحا لكل من يعنيه أمر البرنامج الوطني صَدَّرَهُ محرروه بدراسة قانونية عن نظرية الحماية وشروطها ومهمتها، تخللتها تصريحات رسمية لكبار المسؤولين الفرنسيين المنظرين للحماية، الموصين بتطبيقها في حرفيتها وروحها بما يتنافى مع الحكم المباشر الذي أخذت تطبقه الإقامة العامة بالمغرب، ومنها هذا التصريح الواضح الذي ضمنه المقيم العام ليوطي في تقريره إلى حكومته بتاريخ ثالث دجنبر 1920 حيث قال :

" إن نظرية الحماية تعني أن البلاد المحمية تظل تحتفظ بتنظيماتها وتحكم

نفسها وتدير شؤونها بنفسها، وذلك بهيآتها الخاصة تحت مجرد مراقبة دولة أجنبية. وإن الذي يتحكم في هذه النظرية ويطبعها بطابعه الخاص هو أسلوب المراقبة المتعارض تمام التعارض مع الإدارة المباشرة ."

وطبقا لهذه النظرية خاطب المرشال ليوطي نفسه السلطان محمد بن يوسف عندما قام بزيارة رسمية لفرنسا يوم سابع غشت (آب) سنة 1931 واستقبله في المأدبة التي أقيمت لجلالته بقصر المستعمرات بباريس بهذه الكلمات التي لا تقل دلالة عن تصريحه السابق:

"يمكن لي اليوم وأنا أؤدي واجب التحية لجلالتكم والترحيب بمقدمكم أن أتحدث بكامل الثقة والإخلاص عن مصير مملكتكم السعيدة التي تعتبر جلالتكم الشريفة الوارثة مجد الدولة العلوية النبوية رئيسها السياسي و رئيسها الديني. ولا يمكن لسلطتكم أن تمتد إليها اليد بسوء، وهي مبسوطة في المغرب كله من طنجة إلى أقصى حد في الجنوب، ومن المحيط إلى التخوم الجزائرية".

تغيير كيفي

حرص واضعو البرنامج السياسي على تجنب الإثارة بالاعتدال في المطالب التي عبروا عنها، وتجنبوا أن يحاكموا نظام الحماية أو يدينوه بالفشل، واعتمدوا سياسة المراحل، وتركوا الحوار مفتوحا للأخذ والعطاء، إذا قررت الحماية الفرنسية الدخول معهم في مفاوضات لوضع مطالبهم موضع التنفيذ .

وبهذه الصورة التي قدموها عن الحركة الوطنية الناشئة أظهروها في شكل حركة منتمية إلى مدرسة النهج الإصلاحي التطوري الذي يتجنب التغيير الجذري أو ما يسمى في المصطلح السياسي الدستوري بالتغيير الكمي، ويعتمد التغيير الكيفي الذي يقتصر على تطوير الأوضاع في تناسق مع الواقع الفعلي أو القانوني، وعلى تحوير متدرج للتجهيزات الاقتصادية والاجتماعية، ولعلهم كانوا يراهنون على جلب السند لمطالبهم من بعض الهيآت السياسية الفرنسية التي أخذت تتعاطف معهم فعلا منذ أن وقعت فرنسا في غلطة السياسة «البربرية» وكانوا حريصين على الاحتفاظ بذلك السند، بل الحصول على المزيد منه واستثماره لنصرة قضيتهم العادلة.

وهذا النهج الحكيم الذي تحلى به القادة الوطنيون واضعو البرنامج أربك رجال الإقامة العامة ودهاقنة الاستعمار بالرباط، فقد كانوا يبعثون بتقارير للحكومة

الفرنسية تصور الوطنيين في شكل مشاغبين على الأمن، مناهضين للوجود الفرنسي وحتى متآمرين مأجورين للنيل من سمعة فرنسا والعمل لإحباط مهمتها التمدينية في المغرب .

ومع ما يبدو في الظاهر من حرص الوطنيين على تجنب الإثارة باقتصار البرنامج على المطالبة بتغييرات أساسية ولكن في نطاق عقد الحماية بمفهومها القانوني الدولي، فإن المحلل الموضوعي لا يفوته أن يلاحظ أن رسالة تقديم المطالب إلى الحكومة الفرنسية التي قال محمد حسن الوزاني إنه هو الذي كتبها تجاوزت روح المطالب إلى إدانة ماسمي في الرسالة "بتصرفات الجهاز الإداري الاستعماري" ومحاكمته لعنصريته ومحسوبيته وسعيه لتجهيل الشعب، ومناهضته لروح الحرية وتركيزه للاستعمار التفقيري للأمة بواسطة المعمرين الأجانب الذين طبقوا -كما تقول الرسالة أيضا - سياسة الاستعمار الفلاحي كما طبق المسؤولون السياسيون عن الحماية سياسة الإدماج المستمدة من الإدارة المباشرة، القائمة على حرب منظمة، ولو كانت أحيانا مقنّعة ومعماة ضد مؤسساتنا وأنظمتنا، وثقافتنا العربية، وتقاليدنا القومية، فأصبحت بذلك هذه السياسة مفرقة عاملة باستمرار لبث الخلاف والشقاق عنصريا واجتماعيا».

أما النص العربي لوثيقة المطالب فيتصدره تقديم جاء فيه أن " المطالب المطروحة فيها ما يمكن تحقيقه عاجلا وما يمكن تأجيله، إلا أنها جميعها ضرورية " .ويمضي هذا التقديم إلى التنصيص على" أننا (الوطنيين) لم نكن في هذه المطالب حريصين على شيء حرصنا على التوفيق بين رغبات الشعب الحقيقية ومصالحه الثابتة من جهة، والأوفاق والمعاهدات التي يراعيها جلالة الملك المفدى من جهة أخرى، مع الاقتصار على ماهو في الواقع ضروري للمغرب في طوره الحالي". اشتملت وثيقة مطالب الشعب المغربي على خمسة عشر باباً أو محوراً هي : الإصلاحات السياسية، والحريات الشخصية والعامة، والجنسية المغربية، والحالة المدنية، والإصلاحات العدلية، والإصلاحات الإجتماعية، والأحباس (الأوقاف) الإسلامية، والصحة العامة، والإسعاف الإجتماعي، والعمل والإصلاحات الاقتصادية والمالية، والاستعمار والفلاحة المغربية، والضرائب والترتيب (جباية خاصة على الفلاحة مستحدثة)، وإصلاحات متفرقة، واللغة العربية لغة المغرب الرسمية، والعلم المغربي .

وما أكثر ما تضمنته الوثيقة من مطالب لا يسمح الاختصار الذي نتقيد به في

هذا الكتاب بتعدادها، لكن تستوقفنا طائفة منها نذكرها على حسب ترتيبها كمحطات أساسية لمعرفة مقاصد رجال الحركة الوطنية في بعض الشؤون التي حرصوا على إثارتها في برنامجهم السياسي لأهميتها البالغة ولتسليط الأضواء على خيارات سياسية أو اجتماعية دقيقة تبنوها. ومن ذلك التنصيص على عدم السماح بانتقاص الحدود المغربية، وبسط نفوذ السلطان على جميع أطراف مملكته، والعدول عن النظام الإداري القائم على تركيز سلطة القواد الكبار، وإلغاء الحكم العسكري، وتجديد الحكومة المغربية وتطعيمها باستحداث وزارات عصرية ضرورية وتعيين خليفة (نائب) سلطاني لمنصب القائد العام للجيش (وهو منصب يشغله فرنسي)، بل نظمت وثيقة المطالب حتى إدارة الإقامة العامة ونصت على ما ينبغي أن يكون لها من مرافق ومكاتب، وإنشاء مجالس مشتركة بين المسلمين واليهود المغاربة من بينها مجالس الغرف الاقتصادية الاستشارية. وذهبت الوثيقة إلى أكثر من ذلك حيث نصت على إحداث مجلس وطني منتخب يتألف من المسلمين واليهود المغاربة وإخضاع الحكومة المخزنية لمراقبة محدودة من هذا المجلس لا ترقى إلى حد المسؤولية الوزارية المعروفة في الدساتير.

وفي باب الحريات يستوقفنا مطلب إبطال الضرب بالسياط والتعذيب بأية آلة من الآلات، (وهو ما يذكّر بما كان يباشره كبار القواد والباشوات من جلد وتعذيب عرفهما بعض الوطنيين خاصة بعد تظاهرهم ضد السياسة البربرية سنة 1930) وتخويل المغاربة حق الامتياز في إصدار الصحف باللغات الأجنبية (حيث كان لا يسمح لمغربي بذلك. وكانت صحيفة " عمل الشعب " تصدر باسم أجنبي فرنسي)، وإسقاط جوازات السفر بين مناطق المغرب الثلاث، والاستغناء عنها ببطاقة التعريف الشخصية. كما يستوقفنا في ميدان الإصلاحات العدلية مطلب فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية مع إبقائهما خاضعين لجلالة السلطان، وتقسيم درجات المحاكم إلى ثلاث : ابتدائية، وثانوية ومحاكم استيناف على أن تتوج بمحكمة عليا للنقض والإبرام.

وأقر البرنامج السياسي الوطني للمراقب المدني الفرنسي بحق مراقبة سير المحاكم المغربية بالحضور في المرافعات والمداولات وإعطاء رأيه الاستشاري.

وفي ميدان التعليم طلب الوطنيون إحداث بكالوريا مغربية مساوية للباكلوريا الفرنسية تحتوي موادها على اللغة العربية، والثقافة الإسلامية، والتاريخ المغربي، والجغرافيا المغربية، بالإضافة إلى مواد برنامج الباكلوريا الفرنسية.

وكان البرنامج محافظا وهو يعالج شؤون المرأة فطالب للفتاة بمدارس خاصة تلقن القرآن والعربية والدين ومبادئ الحساب والصحة (كذا) وتدبير المنزل وشغل الإبرة، ووسائل رعاية الأطفال (وربما كان الوسط المغربي وقت الإعلان عن المطالب لا يسمح في المغرب بأكثر من ذلك). كما نص تعليم البنات على جلب بعض المعلمات من مسلمات الشرق للتعليم في مدارس البنات ريثما يتم إعداد معلمات مغربيات. والملاحظ أن البرنامج السياسي كان ضعيفا في مجال الشؤون الاقتصادية إذا استثنينا منه شؤون الفلاحة وتفاصيل حركة المعمرين ونزع ملكية الفلاحين المغاربة لصالح الاستعمار الفلاحي. ولعلنا لو حللنا القسم المالي الاقتصادي من البرنامج من منظورنا المعاصر لوجدنا أنه كان متسما بالبساطة، ومرد ذلك إلى أن الوطنيين لم تكن لهم عند وضع ذلك البرنامج تخصصات اقتصادية إذ استثنينا الحاج عمر ابن عبد الجليل الذي نال شهادة عليا في التخصص الفلاحي، ومع ذلك غلبت عليه السياسة وتنازعه الأدبان الفرنسي والعربي. ولعل السبب في ذلك النقص يشرحه ماجاء في مذكرات محمد حسن الوزاني عن الصعوبات التي كان يلقاها هو وزميله الحاج عمر ابن عبد الجليل في العثور على الوثائق التي كانت تتوفر عليها وحدها وتضن بها إدارات الإقامة العامة وخاصة الوثائق الاقتصادية المالية .

أما بالنسبة للعربية، التي انطلق البرنامج الوطني السياسي من مبدأ اعتبارها لغة البلاد الرسمية وبالتالي طالب بأن تكون لغة المراسلة والمرافعة وتسجيل الأحكام وتحرير العقود في سائر المحاكم فقد قصرها على المحاكم التي يترافع لديها المغاربة متجاوزا أحيانا في الجمع بينها وبين اللغة الفرنسية في طوابع الدولة وخواتمها في الإدارات الرسمية وفي الجريدة الرسمية التي تنشر الظهائر (المراسيم الملكية) والقرارت الوزارية والمنشورات الإدارية، على أن تصدر طبعة خاصة من الجريدة بالعربية. كما سوى البرنامج بين اللغتين في كتابة أسماء المدن والمحطات وإشارات الأشغال العمومية على طول الطرقات، وقبل البرنامج هذه الازدواجية أيضا في عمل البنوك (المصارف) وخصوصا البنك المخزني . والواقع أن الوطنيين كانوا يسعون إلى إحلال العربية مكانة الشريك للفرنسية التي كان الاستعمار يعمل لتركيزها على حساب لغة البلاد .

ومن منظور آخر يمكن أن نقول إن هذا البرنامج السياسي قد سفه فرية رجال الحماية عندما ركز في جميع بنوده على السلطان كرئيس للبلاد وكرمز لسيادتها ووحدتها وعندما طالب له بالمزيد من السلطة والنفوذ على مملكته، وأكدعلى جعل

عيد تتويجه العيد الرسمي للمغرب بجانب بداية العام الهجري. وقد خاب سعي رجال الحماية بوضوح هذا الاتجاه الوطني وبما عكسه البرنامج من اعتبار الوطنيين الالتحام بين السلطان وشعبه جزءا من العقيدة الوطنية، مثلما خاب ظن عدد من المتعصبين في اليمين الفرنسي وهم يقرأون في البرنامج هذه المقتضيات : منع التبشير الكنسي في المغرب وإيقاف حركة المبشرين والمبشرات على اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم ومنعهم من التجول والحضور في الأسواق والمواسم بصفتهم التبشيرية، وعدم السماح لهم بنشر أي شيء يمس بكرامة الإسلام وكرامة النبي عليه السلام، وعدم منح أية إعانة من الميزانية المغربية أو أي ملك من أملاك المخزن الشريف للجمعيات التبشيرية أو للساعين في تشييد الكنائس والمنتديات المسيحية، وعدم السماح للمبشرين والمبشرات بإحداث مدارس أو مصانع أو ملاجئ لفتيان المسلمين وفتياتهم وتسليم ما أحدث من ذلك للحكومة المغربية أو لجمعيات إسلامية، بل إن البرنامج ذهب إلى أبعد عندما طالب بعدم إطلاق اسم الصليب على بعض الأوسمة الشريفة (أوسمة السلطان) بجميع درجاتها .

وكان اليمين الفرنسي وحتى الكثيرون من أنصار اليسار يطمعون في أن يروا الحركة الوطنية تشق طريقا علمانيا على النهج التركي الكمالي، ففوجئوا بالبرنامج الوطني ينص على ما سلف من مقتضيات، ويضيف المطالبة بأن يكون القانون المغربي مستمدا من الفقه الإسلامي .

لماذا المطالب ؟

حمل البرنامج السياسي المغربي في طبعته الفرنسية اسم "برنامج (أو مخطط) الإصلاحات المغربية " .

و باختيار لفظ المطالب اختار الوطنيون أن يعارضوا سلسلة المطالب التي تقدمت بها الجالية الفرنسية في شكل عرائض إلى الإقامة العامة طالبت فيها بالامتيازات الاستعمارية التي نالت منها الكثير، و ألحت على المزيد منها، وأطمعها نيلها في مطالبة الحماية تكريسها بقوانين و تشريعات تشكل كلها اعتداء على السيادة المغربية، وتبتعد عن نص عقد الحماية و روحه .

و كان بعض دهاقنة الحماية يزعمون أنهم لم يكونوا يعرفون حقيقة ما يريده الشعب المغربي، و أن ما يصدر عن الوطنيين من نشرات و مقالات في الصحافة لا

يتجاوز النقد الهدام لعمل الحماية و التنديد المطلق بمنجزاتها، فجاءت الحركة الوطنية هي الأخري بمطالبها المحددة الهادفة للإصلاح، الساعية إلى تدشين الحوار مع الحماية لحملها على اجتياز مراحل الإصلاح بما يعيد المغرب إلى عهد السيادة والاستقلال. ولا يمت إدعاء رجال الحماية هذا إلى الحقيقة بصلة، ففي فترة اثنتين و عشرين سنة تراوحت بين سنة فرض الحماية (1912) و سنة تقديم المطالب الوطنية (1934) لم تفتأ جماعات مغربية تبعث بمطالب وطنية إلى المسؤولين تعرِّف بما تريد، و تنبههم إلى خطورة الأوضاع و العمل لتلافيها، و من ذلك العريضة التي قدمتها نخبة من المغاربة في يونيه (حزيران) 1920 إلى المقيم العام ليوطي وتضمنت مطالب سياسية كان من بينها إصلاح التعليم و تعميم الحريات بما فيها حرية الصحافة، وعريضة أخرى تقدمت بها نخبة مغربية إلى المقيم العام ستيغ بتاريخ نونبر (تشرين الثاني) سنة 1925 وتضمنت مطالب عامة، كما تميزت حركة الاحتجاج على الظهير البربري بعرائضها التي كانت تُذيَّل بمآت الإمضاءات، وتستقطب عناصر الشعب المختلفة، مما أضفى على الحركة الوطنية منذ ذلك صفة حركة جماهيرية .

و قد لعبت هذه العرائض دور استقطاب التأييد الشعبي للحركة الوطنية في فترة ما قبل التنظيم السياسي، وتسابقت أفواج شعبية إلى تذييلها بإمضاءاتها. و لقد عشت هذه الحملة عندما أصبحت أعي و أراقب ما يجري حولي عندما كان الناس يسأل بعضهم بعضا هذا السؤال : «هل أنزلت خط يدك مع الوطنيين؟» و كان ذلك يعني شيئين:أولهما الانتماء إلي النخبة التي كانت تحسن الإمضاء، و تملك الوعي بمحتويات العرائض التي كانت تمضي عليها، وثانيهما الالتزام بالخط الوطني الجديد. وكان الانتماء النخبوي و الالتزام الوطني يعطيان لأصحابه حق التباهي بأنهم ضمن حركة التجديد إن لم ينظروا إلى أنفسهم على أنهم فوج الطليعة في الحركة الجديدة .

و لماذا البرنامج أو المخطط؟

يجيب عن هذا السؤال محمد حسن الوزاني في مذكراته "حياة و جهاد" معطيا تفاصيل طريفة عن ظروف وضع البرنامج السياسي الوطني من لدن قادة كتلة العمل الوطني :"قبل تقديم المطالب إلى المسؤولين رسميا صدرت الطبعة الفرنسية بعنوان "مخطط الإصلاحات المغربية ".(Plan des Réformes marocaines) و يزيد الوزاني أنه هو الذي كان وراء إطلاق اسم المخطط أو البرنامج (Plan) على ذلك النظام

فيقول:« و قد اقترحت اسم مخطط لأن هذا اللفظ كان إذ ذاك متداولا بكثرة سواء في فرنسا أو خارجها من لدن حركات و هيآت و شخصيات مذهبية كعنوان لما أصدرته من برامج إصلاحية، وانقلابية، و إيديولوجية، فجاء عنوانا مطابقا للاتجاه الجديد ». نلاحظ من جهة أخرى أن النص العربي لمطالب الشعب المغربي طبع بالقاهرة، حيث كانت مطابع المغرب القليلة خاضعة للرقابة الفرنسية، و أنه صدر في شهر شتنبر (أيلول) 1934 عن مطبعة الإخوان المسلمين قبل صدور الطبعة الفرنسية بباريس التي لم تكن جاهزة إلا في شهر نونبر (تشرين الأول) من نفس السنة .

اسم الكتلة الوطنية

و يبدو أن الطبعة العربية كانت تحتوي مصطلحات معربة عن الفرنسية التي يظن أنها كانت اللغة التي وُضعت بها الوثيقة، وأن طبعها بالقاهرة حال دون تصحيحها و التأكد من مصطلحاتها العربية . وهكذا نقرأ مثلا في غلافها : "هذه المطالب حضّرتها الكتلة العاملة الوطنية في المغرب الأقصى باستشارة كل من يهمهم الأمر من سائر الأوساط " بينما كانت الهيأة التي وضعتها اتخذت لنفسها اسم كتلة العمل الوطني (Comité d'action Marocaine) أو ما يمكن تعريبه بأقرب تعبير بلجنة العمل المغربي .

ولمحمد بن الحسن الوزاني تأويل خاص قد يفيد في شرح ذلك، فهو يقول في مذكراته :" وبعد اختيار عنوان مخطط الإصلاحات المغربية اعترضَنا مشكل ناتج عن فراغ سياسي، وهو عدم وجود أي حزب أو هيأة سياسية تتبنى المخطط، فباسم من سيقدم إلى المراجع الرسمية و إلى الرأي العام ؟ و بعد تفكير اقترحت كذلك أن يكون الاسم بالفرنسية هو (Comité d'Action Marocaine) أي لجنة العمل المغربي. و حيث أن هذا العنوان تنقصه في العربية مسحة من الرونق و الطلاوة فقد اقترحت أن نعربه هكذا:" كتلة العمل الوطني" اقتداء بالكتلة الوطنية السورية التي كنت على صلة ببعض رجالها في أوروبا ،كما كنت وثيق الارتباط بكثر من شبابها و مناضليها الطلبة في باريس و جنيف، و بذلك سُوي المشكل بكيفية مرضية ".

و لم يتوقف عند تفاصيل نشأة الكتلة علال الفاسي في كتابه المرجع :" الحركات الإستقلالية"وسمى دائما الهيأة السياسية التي كانت وراء المطالب باسمها أعني كتلة

العمل الوطني، و تحدث عن البرنامج السياسي دائما باسم "برنامج الإصلاحات المغربية" أو "مطالب الشعب المغربي" .

و تصدرت الطبعة العربية أسماء الجماعة الوطنية التي توزعت فيما بينها حركة تقديم هذا البرنامج السياسي إلى المسؤولين بالرباط و باريس مرتبة على الحروف الأبجدية، و هو ما وقع التقيّد به أيضا في الطبعة الفرنسية. و كان عدد أعضاء الجماعة عشرة، هم : عبد العزيز بن ادريس، ومحمد الديوري، ومحمد ابن الحسن الوزاني، ومحمد اليزيدي، ومحمد المكي الناصري، وعمر ابن عبد الجليل، ومحمد علال الفاسي، و أبو بكر القادري، و محمد غازي، و أحمد الشرقاوي .

قدم وثيقة المطالب للسلطان وفد مركب من محمد غازي و أحمد الشـــــرقاوي و عبد العزيز ابن ادريس و أبي بكر القادري، وتغيب عن هذا الوفد يوم تقديم العريضة محمد المكي الناصري بينما كان المفروض أن يكون ضمنه . و علل محمد حسن الوزاني تغيب الشيخ الناصري بأنه سافر لتطوان للعمل بها في الحقل الوطني، ولم يذكره علال الفاسي ضمن الوفد دون ذكر السبب. و ضم وفد تقديم العريضة للمقيم العام علال الفاسي و محمد اليزيدي، ومحمد الديوري. و كان الوفد الذي قدم الوثيقة إلى محافل باريس الحكومية مركبا من محمد حسن الوزاني و عمر ابن عبد الجليل، و قد سافرا إلى فرنسا عبر تطوان و إسبانيا .

و كانت الخطة المتفق عليه بين زعماء كتلة العمل الوطني تقضي بتقديم الوثيقة إلى الجهات الثلاث في نفس اليوم و الساعة. و هذا كان يقتضي أن يعطي الإشارة بذلك الوفد الوطني الموجود بباريس بعد أن يتم الاتفاق على موعد التقديم للدوائر السياسية الرسمية بفرنسا. وكان على عضوي وفد باريس أن ينتظرا أن يحصل على الموعد الفرنسيون أصدقاء الحركة الوطنية من هيأة مجلة "مغرب" الذين لم يمنعهم توقف صحيفتهم عن الصدور من مواصلة دعمهم للوطنيين المغاربة .

ولقد بذل الوزاني و ابن عبد الجليل جهودا مضنية في استقطاب السند للوثيقة السياسية المغربية من أحرار فرنسا وزعمائها السياسيين قبل تقديمها رسميا للحكومة الفرنسية، وأفضت جهودهما إلى تأسيس لجنة رعاية للمطالب المغربية تكونت من بعض الزعماء الفرنسيين هم جان لونكي عضو مجلس النواب الفرنسي و نائب رئيس لجنة الشؤون الخارجية، وبيير رونوديل نائب المجلس و رئيس حزب فرنسا الاشتراكي، ودوطيسان، وهو وزير سابق، ونائب في المجلس، و جان بيير، نائب المجلس ورئيس تحرير جريدة لوفر (L'oeuvre) و عضو لجنة الشؤون الخارجية، بالإضافة

إلى طائفة من زعماء الحزب الراديكالي الاشتراكي، و الحزب الراديكالي الاشتراكي المنشق، و أساتذة جامعيين و صحفيين و كتاب.

و أفضت هذه الجهود و الاتصالات إلى تحديد يوم فاتح دجنبر (كانون الأول) 1934 موعدا لتقديم العريضة إلى وزير خارجية فرنسا بييرلافال، وتم تقديمها بمقتضى ما أسلفناه - إلى السلطان و المقيم العام بالرباط في نفس التاريخ و الساعة.

و إذا كان شائعا أن الزعيمين الوطنيين المرحومين محمد بن الحسن الوزاني و عمر ابن عبد الجليل قد توليا بأنفسهما تقديم الوثيقة السياسية إلى وزير الخارجية الفرنسية و هو ما أكده الزعيم المرحوم علال الفاسي فإن الوزاني في مذكراته أوضح تفصيلا تاريخيا ذا أهمية حيث كتب : "و قد أصبحت الإقامة العامة بالمغرب تتساءل عن أسباب إطالة مكثنا بباريس، وطلبت من وزارة الخارجية الفرنسية إعادتنا إلى المغرب. و تلفن لنا رونوديل (أحد أعضاء لجنة رعاية المطالب المغربية) يستعجلنا في تقديم الوثيقة، حتى لانفاجأ بإجراء يعرقل عملنا. و فعلا عملنا بنصيحته فكونا وفدا فرنسيا من بعض النواب البارزين ليتولى تقديم برنامج المطالب المغربية إلى وزير الخارجية نيابة عنا، حيث أن العرف والسياسة لم يسمحا بمقابلتنا رسميا لتقديم ملف المطالب إليه مباشرة . وهكذا لم يبق أمامنا من سبيل لاقتحام باب الوزير إلا اللجوء إلى وساطة الوفد البرلماني . "

إن الملاحظ أن وفد الوطنيين العشرة لا يضم شخصية و طنية مرموقة لمع اسمها في بداية السنوات الثلاث من عقد الثلاثينات هي الحاج أحمد بلافريج الذي سجل نشاطا اقترن باسمه في إعداد مجلة "مغرب" و في علاقاته مع الزعماء الفرنسيين اليساريين، وفي اتصالاته مع الأمير شكيب أرسلان بجنيف، بينما لم يسجل له أي نشاط علني في هذه المرحلة . وقد كان أجدر أن يبرز اسمه بين الوفد العشري، وأن يكون ضمن المقدمين للعريضة الوطنية إلى إحدى الجهات الرسمية الثلاث، ولا يوجد في الوثائق الوطنية للكتلة وحتى في وثائق حزب الاستقلال ما يفسر غيبته التي امتدت إلى حين تفرق الكتلة الى حزبين، واختياره في النهاية أمينا عاما للكتلة بعد أن لم يرض محمد حسن الوزاني قبول هذا المنصب كما سنرى فيما بعد.

ولا يملي علينا وضع هذا السؤال إلا الرغبة في البحث الموضوعي عسى أن يتكفل غيرنا بالجواب عليه. ويتم بذلك إكمال ما لم تتمكن هذه الحلقات من إكماله.

كيف تم وضع المطالب ؟

بالرجوع الى الوثائق الوطنية في هذا الموضوع لا نجد تفاصيل تستحق الذكر تمكن من الجواب على هذا السؤال، فعلال الفاسي ضنين بالمعلومات، مترفع عن الخوض في التفاصيل . وقد كان في الإمكان الاستفادة من معلوماته بوصفه شاهد عيان أو على الأصح أحد صانعي هذه الحقبة التاريخية من عمر الكفاح الوطني، لكن محمد حسن الوزاني وهو يميل فيما يكتب إلى تقصي الجزئيات والتوقف عند التفاصيل حتى إلى حد الإطناب أحيانا كتب في مذكراته أن النظر في إمكان وضع برنامج سياسي للحركة الوطنية اقتضى عقد سلسلة من الاجتماعات كانت تتم في بيته بدرب بوحاج رقم 15 (كذا) بفاس، وفي بيت محمد اليزيدي بالرباط، وأن أغلبية المشاركين فيها كانوا أربعة من الوطنيين الدارسين للغة الفرنسية، هم: اليزيدي وابن عبد الجليل والمكي الناصري وهو (الوزاني)، وأن علال الفاسي كان ضمن هذه اللجنة وإن كان لا يعرف غير اللغة العربية، وأن المصادر المستعملة لوضع البرنامج كانت بالفرنسية، ومنها الطبعة الفرنسية الكاملة للجريدة الرسمية المغربية، وجريدة عمل الشعب، وأن الجماعة كانت ترجع إلى المكتبة العامة بالرباط لتستفيد من وثائقها، وأن المرحوم عبد الله الرجراجي الذي كان يعمل في هذه المكتبة مكن الوطنيين من الاطلاع على بعض المستندات السرية التي تضمها المكتبة العامة، وأن المرحوم مسعود الشيكر كان من بين المساعدين في النسخ والترجمة إلى العربية. وأضاف أخونا وزميلنا عبد الكريم غلاب في كتابه «تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب» اسم المرحوم أحمد بناني كمساعد في الترجمة إلى جانب الشيكر الذي تحدث عنه الوزاني .

ويضيف الوزاني أن مهمة وفد العشرة كانت لا تتجاوز تقديم المطالب إلى الجهات الرسمية، ولم يكن الوفد قط هيأة سياسية عليا للكتلة، بل ذهب إلى حد الاعتراض على ما جاء في الطبعة العربية للوثيقة المتحدث عنها من أنها قدمت من لدن «لجنة الوفد المغربي» منطلقا من أنه لم تكن في المغرب هيأة تسمى بهذا الاسم،

ناسبا ذلك إلى كون المشرف على الطبعة العربية بالقاهرة تأثر بالجو السياسي في مصر فنسب تقديم الوثيقة إلى "لجنة الوفد المغربي" على غرار حزب الوفد المصري الذي اشتهر كحزب بمصر منذ أن انتدب وفدا عنه إلى لندن للمفاوضة.

وسنتعرف على وجهة نظر الوزاني في موضوع الكتلة وتنظيماتها وقياداتها عند ما نتعرض للخلاف الذي شق الحركة الوطنية شقين سنة 1937، وسنفهم لماذا كان في مذكراته يلح على تقديم وجهة نظره انطلاقا من مرحلة تقديم المطالب باسم الكتلة ليبني عليها ملاحظاته الأخرى، وليصل في النهاية إلى تبرير انعزاله عن رفقائه.

مصير المطالب

لم تلق المطالب المغربية أذنا صاغية لدى أوساط الإقامة العامة بالرباط، ولم يتجاوز تأييدها المجموعة الفرنسية اليسارية التي رعتها، مما يمكن معه القول إن فرنسا الرسمية على الأقل قابلت بالعناد و المكابرة الوثيقة الإصلاحية المغربية.

إن اليمين الفرنسي فضل أن يستعدي الإقامة العامة للدخول في مجابهة قوة ضد الحركة الوطنية التي قال عنها إن تطبيق إصلاحاتها لن يؤدي في النهاية إلا إلى نسف قواعد الحماية الفرنسية، وتساءل عن الصبغة التمثيلية للجماعة الوطنية التي ادعت حق تمثيل الشعب المغربي الذي لا يريد - كما قال أحد دهاقنة الاستعمار - إلا أن "يعيش في كنف فرنسا الحامية". وانطلق المستعمرون يرددون حيال الحركة الوطنية نفس مقولاتهم التي تتهم كل حركة شعبية مناهضة للنفوذ الأجنبي بخلق الهيجان والاضطراب وبذْر الفتنة، وهو ما حفلت به الصحافة الفرنسية الناطقة آنذاك باسم المصالح الاستعمارية في المغرب و فرنسا. ومع ذلك صدرت تعليمات سرية من حكومة باريس إلى المقيم العام بالرباط ليعهد إلى لجنة فرنسية إدارية بدراسة وثيقة المطالب ولرفع تقرير بنتائج هذه الدراسة إلى الحكومة الفرنسية.

وفي هذا الصدد نقرأ لعلال الفاسي في كتابه : "الحركات الاستقلالية في المغرب العربي" ما يلخص ما يمكن أن نسميه موقف الإقامة العامة غير الرسمي من المطالب الوطنية حيث كتب ما يلي :

" صرح لي جيراردان المستشار السابق لجلالة السلطان بقوله:«إن مطالبكم تشتمل على ثلاثة أقسام :قسم يمكن تنفيذه من الآن، وقسم يمكن تنفيذه ولكن بعد

حين، أما القسم الثالث فلا يمكن تنفيذه، لأننا لا نريد الجلاء عن المغرب من تلقاء أنفسنا».

إلا أن أي قسم من الأقسام الثلاثة لم يعرف طريقه إلى التنفيذ. وقد لاحظ ذلك أيضا شارل أندري جوليان (Charles-André Julien) في كتابه : "المغرب في مواجهة الأمبرياليات" (Le Maroc face aux impérialismes) مضيفا أن جمود رجال الحماية وتجاهلهم مطالب الشعب المغربي استمرا إلى أن جاء المقيم العام الجنرال نوجيس فأخبر حكومته في تقرير بعثه إلى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ 9 أكتوبر 1937 بأن مصالح الإقامة العامة حريصة على الاستلهام من وثيقة المطالب لإدخال بعض الإصلاحات الممكنة والمعقولة.

ووقف شارل أندري جوليان هنا توقف شهرزاد التي أدركها الصباح، فلم يضف أن هذا الجنرال الذي وعد باستلهام الإصلاح من الوطنيين هو الذي خلد عهده بحركة قمع شاملة للوطنيين، وبمنع الصحافة الوطنية وحل الأحزاب السياسية ونفي الزعيمين الوطنيين علال الفاسي ومحمد الوزاني تسع سنوات .

تجاهل وسكوت

لقد كان سياق أحداث سنة 1934 التي جرت بالمغرب مؤشرا لتغيير لاح في أفق الحياة السياسية، بعد أن انتصرت الحركة الوطنية في معركة إثبات الذات وفرض الوجود. وبعد أن أعلنت الكتلة عن برنامجها السياسي كان كل شيء يؤهل زعماءها ليصبحوا محاوري فرنسا ومساعديها على تطبيق قانوني سليم لعقد الحماية بما يحافظ علي روحه ونصه، ويحفظ لفرنسا والمغرب مصالحهما، ويجنب البلاد حالة التوتر السياسي الذي استمر أربع سنوات منذ انزلاق الحماية في السياسة البربرية الغلط.

ولم يكن يخامر الوطنيين شك في أن برنامج الإصلاحات المغربية الذي أصبح دستور الحركة الوطنية في الفترة التي نتحدث عنها يشكل منطلق حوار عقلاني، بل أرضية صالحة لتحقيق تغيير إصلاحي متدرج لا طرف من المتحاورين يستطيع أن ينكر ضرورة التعجيل بإحداثه، ولكن رياح الاستعمار جرت بما لا تشتهيه السفن، وبقيت دار لقمان على حالها.

و قد قابل المسؤولون بالإقامة العامة بالرباط برنامج الكتلة بتجاهل ونصحوا حكومة باريس بإقامة جدار من السكوت حوله .وكان التعليق الوحيد هوالذي فاه به المقيم العام الفرنسي هنري بونصو عندما وصف البرنامج بأنه" أطروحة دكتوراه". ألفت هؤلاء المسؤولون نظر الحكومة الفرنسية إلى أن استتباب الأمن بالمغرب واستمرار الوجود الفرنسي به مرهونان بذلك التجاهل وذلك السكوت ،حتى لا يسجل الوطنيون انتصارا يصبح انهزاما فرنسيا يفلت معه الزمام من أيدي المسؤولين بالرباط عن الحضور الفرنسي، ويصير معه المغرب بؤرة توتر لا يستفيد منه إلا أعداءفرنسا، وهي نغمة متكررة لا يجتهد المستعمرون حتى في حمل خيالهم على تجديد مقاطعها لتبدو في شكل نغمة مبتدعة .

وكان لابد أن تعزف الجوقة في باريس والرباط نفس النغمة، فانبرت أقلام المستعمرين في فرنسا والمغرب للطعن في الحركة الوطنية وقذفها على صفحات الجرائد والمجلات الفرنسية التي كان يموّلها أرباب المصالح ممن جعلوا من المغرب ضيعة لاستغلالهم البشع، على حين كانت الحركة الوطنية لا تملك أية وسيلة للتعبير والدفاع عن نفسها.

كتبت هذه الأقلام المأجورة تقذف الحركة الوطنية بأنها لا تمثل إلا نفسها، وأنها على أحسن تقدير حركة مثقفين ، وأنها كيفما كان الحال لا تعدو أن تكون حركة رجعية بورجوازية وحركة تعصب ديني. وراعهم أن ينص برنامجها السياسي على إعلان المغرب بلدا إسلاميا، وأن يندد بالتبشير الصليبي الكنسي، وأن يدعو لمناهضة تحركاته بالمغرب، وأن يطالب بأن يتوحد القانون المغربي ويستمد تشريعاته من الفقه الإسلامي.

كل ذلك كان يعكس في نظر أولئك القاذفين المغرضين رجعية لا تغتفر، في حين كانت تحركات المبشرين داخل المغرب تحت حماية سلطات الإقامة العامة وبمعونة مالية من خزينة المغرب المغلوب على أمره لا تعتبر من لدنهم رجعية، أو كانت تعتبر رجعية مرغوبا فيها.

والتنديد برجعية الكتلة الوطنية من هذا المنظور صدر كذلك حتى عن التيارات السياسية الفرنسية التي تعاطفت مع الوطنيين ونددت بسياسة فرنسا البربرية : إن الحزب الاشتراكي الفرنسي، وهو حزب يساري وقع هو الآخر في حمأة هذا التصور الغريب عندما قرر إسناد البرنامج السياسي المغربي وتحفظ عليه قائلا في أحد ملتمساته: " إن الحزب الاشتراكي الذي هو حزب الطبقة الكادحة لكي يدافع عن

الشعب المغربي لا يحتاج إلى أن يضع نفسه في وضع التبعية لأي حزب وطني بورجوازي . وإن الحزب لبعيد عن أن يكون معاديا للمطالب الوطنية المغربية التي لا يخلط بينها وبين المطالب الرجعية التي تكاد تتصف بالقسيسية الكنسية وتعكس رؤية عنصرية. وإن الدفاع عن المغرب لا يقتضي أنه يجب علينا تأييد انتماء المغرب إلى العروبة والإسلام".

وهكذا اتفقوا في فرنسا يسارا ويمينا على تحفظهم من بعض مواد البرنامج السياسي للكتلة التي نعتوها بأوصاف تعكس رؤيتهم المتحجرة.

لقد سقط في أيدي رجال الإقامة العامة بالرباط عندما بحثوا -لا محالة - بالمجهر المكبر عن أية ثغرةبالبرنامج السياسي ينفذون منها للوشاية لدى السلطان بتضمن البرنامج مامن شأنه أن يخل بالولاء للعرش. وكم خاب مسعاهم وهم يقرأون في البرنامج التزام الحركة الوطنية بالولاء لشخص السلطان وحرصها على دعم نفوذه بوصفه المؤتمن على السيادة المغربية. ومما لا شك فيه أن هذا الموقف الصريح زاد في تمتين اللحمة الواصلة بين السلطان والزعماء الوطنيين، وقطع الطريق على الوشاية المغرضة التي ظلت تتذرع بها الإقامة الفرنسية لتشكيك السلطان في نوايا بعض رعاياه من الثائرين على نفوذها.

الجبهة الاستعمارية الثلاثية

كانت الإقامة العامة بالرباط تحكم المغرب مستندة على ثلاث قوات شكلت طيلة عهد الحماية الجبهة الاستعمارية هي:

أولا: جيش الإدارة الفرنسية الذي احتل المكاتب الإدارية المغربية وحكم بدون إشراك العنصر المغربي . وقد رصدت الحماية لنفقات هؤلاء الموظفين في ميزانية سنة 1935 مبالغ مالية شكلت نسبة 57٪ من مجموع الميزانية السنوية .

ويتكون هذا الجيش المدني - الذي كان يضم مع ذلك مجموعة عسكرية - من إداريين كان أكثرهم يتلقى تكوينه وتدريبه في مدرسة المستعمرات الفرنسية، وكان بعضهم يحضر إلى المغرب متخصصا في الشؤون الأهلية (Indigènes) أي متوفرا على ثقافة متخصصة في معرفة نفسية الأهلي وملما بلغة مخاطبته ،ومطلعا على أعرافه وعاداته، لتسهل بذلك على هذه الفرقة ممارسة عملية الاستلاب الفكري بين الأهالي المسلمين . لقد كان هؤلاء المستعمرون يلمون باللهجة المغربية التي كان يستعصي عليهم النطق بها "فيكوِّرون " ألسنتهم بها كما يتيسر . وكان من بينهم

"مستشرقون". يجرؤون على استكناه أسرار العربية لكن أكثرهم كان يظل يراوح مكانه دون أن يحقق امتلاك ناصية العربية. وكانوا يلتقون جميعا في تنظير استعماري واحد هو ترسيخ الحكم المباشر الذي كانوا يطبقونه من مراكز مسؤولياتهم بدون رقيب ولا حسيب، لأن حكومات باريس كانت تطبق على مستعمراتها ومحمياتها ومنتدباتها نظام تركيز السلطة في أيدي المسؤولين المحليين مما استحال معه حكم أقطار ما وراء البحار إلى حكم إقطاع.

كان هؤلاء الموظفون يؤلفون قوة ضاغطة على حكومة باريس ويتحدَّوْن أحيانا سلطتها، ويهزون أكتافهم سخرية بقراراتها خاصة حين كانوا يعتبرونها ماسة بمصالحهم. ويكفي مثالا لذلك امتناعهم سنة 1933 عن تطبيق قانون فرنسي كان يقضي باقتطاع نسبة من أجور الموظفين لمواجهة العجز المالي، وكان المفروض أن يشملهم هذا التدبير الاستثنائي لكنهم أصروا على المطالبة بإعفائهم من تطبيقه، رغم أنهم كانوا يتقاضون أجورا باهظة، ويضيفون إليها تعويضات بنسبة 50٪ من راتبهم الأصلي بدلا عن " مشقة " النزوح عن الوطن.

وفعلا أذعنت الحكومة الفرنسية لهذا الدلال وسلمت بالواقع المفروض .

وثانية القوات كانت جماعة المعمرين الزراعيين الفرنسيين الذين سهلت لهم القوة الأولى عملية الاستيلاء بالغصب على أراضي الفلاحين المغاربة الذين انتزعت منهم لفائدة المعمرين أخصب أراضيهم. وزودت سلطات الحماية أراضي المعمرين بالتجهيز الميكانيكي العصري، مما أصبح معه الفلاح المغربي غير قادر على منافسة المعمر، وما حمل بعض الفلاحين على إلقاء المحراث، والسعي للحصول على خدمة أجير فقط عند جاره المعمر.

وكلما احتاج المعمرون إلى المزيد من مياه الري كانت القوة الأولى لا تتردد في إصدار قراراتها لتحويل مجاري المياه وجهة أراضيهم على حساب أراضي الفلاحين، وأحيانا على حساب تعطيش مدينة كاملة كما حصل لمدينة مكناس بعد تحويل مياه أبي فكران.

وعندما عمت الأزمة الاقتصادية التي عرفها العالم في الثلاثينات وامتد مفعولها إلى المغرب، وتضررت الزراعة المغربية خاصة بعد سنوات الجفاف كان هم القوة الأولى أن تغدق بسخاء التعويضات المادية على المعمرين، تاركة الفلاحين في مصيرهم الأسود، ومع ذلك فإن المعمرين لم يقنعوا وخرجوا متظاهرين في الرباط للمطالبة بالمزيد لأفتين الأنظار إليهم بمرورهم في شوارع العاصمة وهم يتوجهون إلى

" ربوة " الإقامة العامة مجزوزي الشعر، مشيرين بذلك إلى أنهم يجتازون أزمة اقتصت منهم الشعر، أو كما يقال بلغت فيها السكين الحلقوم.

وقد أثارت جريدة " عمل الشعب " ضجة حول المعمرين مجزوزي الرؤوس، وكانت مقالات محمد حسن الوزاني وعمر بن عبد الجليل من أبلغ ما سجله الوطنيون في معركة التنديد بالاستعمار الفلاحي .

أما القوة الاستعمارية الثالثة التي واجهها الوطنيون فكانت قوة الجالية الفرنسية التي تعمل خارج الإدارة والزراعة ،وتمسك بزمام الاقتصاد الوطني سواء في مجال الصناعة أو التجارة أو الخدمات .ولما كانت فرنسا تكيل في السياسة بمكيالين، فقد أذنت أن تكون لأحزابها ونقاباتها فروع في المغرب، وأن تصدر صحافة ناطقة باسم الجبهة الاستعمارية الثلاثية في الوقت الذي منعت فيه على المغاربة حريات التجمع والانتماء السياسي والنقابي وعطلت الصحافة المغربية. وبتعبير آخر، إن الحرية التي كانت متاحة في المغرب كانت هي حرية الفرنسيين الذين التحقوا بفضل هذه السياسة بأحزابهم ونقاباتهم، ومارسوا بصحافتهم الحرة الضغوط لانتزاع المزيد من المكاسب والمغانم.

وكانت الأحزاب الفرنسية اليمينية هي التي تحظى بانخراط أغلبية الجالية الفرنسية بقواتها الثلاث التي كانت توالي عقد الاجتماعات والمؤتمرات، وتوجه التقارير المضللة لحكومة باريس ،وتعطي التعليمات أحيانا لرجال الإدارة بالإقامة العامة بالرباط.

وكانت هذه الأحزاب تبعث بممثلين عنها لمجلس النواب الفرنسي لتمارس تحت قبة البرلمان ضغوطها لترسيخ قدم الاستعمار وحفظ مصالحه في أرض ما سمي بأرض الحماية.

ومنذ عهد المقيم العام الفرنسي الأول وبالضبط سنة 1923 فكر رجال الحماية في إعطاء هذه الجبهة الاستعمارية مؤسسات لتأطير نشاطها وتقوية نفوذها، فأحدثوا لها مجلسا أطلقوا عليه اسم " مجلس شورى الحكومة" ولكن أية حكومة ؟ إن الإقامة العامة الفرنسية كانت تطلق على حكومة السلطان اسم " المخزن"، ولم يكن واردا بأي حال أن يكون مجلس الجالية مجلسا استشاريا للمخزن، مما يعني أن رجال الحماية الفرنسية كانوا يتصرفون حتى في عهد ليوطي المنعوت بالمحافظ تصرف الحكومة الحقيقية للمغرب، وهم في تسميتهم هذه منطقيون مع واقعهم، لكنهم مع ذلك دافعوا عن المجلس بأنه ليست له إلا مهمة استشارية للمقيم العام وأعوانه، وأنه

كيفما كان الحال لم يخول سلطة سياسية، لأن التمثيل فيه مهني فقط، ودوره اقتصادي لاغير.

الفرنسيون ينتخبون

أما في سنة 1926 وفي عهد المقيم العام ستيغ (Steeg) الذي قدم إلي المغرب بعد أن كان حاكما بالجزائر ،فقد تطور هذا المجلس إلى مجلس منتخب، بمعنى أنه أصبح يمارس السيادة في بلد أجنبي. وما كان يمكن لحاكم قدم من الجزائر التي كانت تنعت آنذاك بالمقاطعات الفرنسية الثلاث أن يفعل غير ما فعل ،لأن الحدود بين مفهومي أقطار الحماية وأقطارالإدماج يسهل اجتيازها من لدن المستعمرين المتحجرين الذين يجهلون أو يتجاهلون فوارق الأوضاع القانونية.

هكذا تشكل هذا المجلس من ثلاث كتل، كانت الأولى من ممثلي المعمرين الذين كانوا ممثَّلين أيضا في الغرفة الفلاحية، والثانية من ممثلي التجارة والصناعة والمهن. وكان لهذه القطاعات تمثيل في الغرفة التجارية والصناعية .أما الكتلة الثالثة فكانت تضم مجموعة الفرنسيين غير الممثَّلين في الغرف . ولهذه المجموعة خول القانون حق انتخاب ممثَّليها في المجلس.

ولقد أصبح هذا المجلس يمارس بجانب مهمة التقرير أحيانا دور المعارضة عندما لا يظفر بجميع الامتيازات التي لم تعرف توقفا، ومن ذلك رفض أعضائه مشروع الميزانية المقدم إليهم في جلسة ثاني دجنبر (كانون الأول) سنة 1935، وذهبوا إلى أبعد من ذلك فقاطعوا المجلس كما لو كانوا نواب الأمة بدون جدال.

ولقد اشتطوا في مطالبهم إلى حد الجهر بتخويل مجلسهم السلطة التقريرية في الشؤون المالية والاقتصادية والقضايا ذات الصبغة الاجتماعية . وقد أوفدوا بعثة إلى فرنسا لتعزيز هذا المطلب والضغط على الحكومة الفرنسية لإصدار التعليمات لتلبيته.

سلاح الكلمة

أمام اشتطاط مطالب هذه الجبهة الثلاثية لم يكن للحركة الوطنية إلا سلاح الكلمة لفضح التصرفات الاستعمارية والتنديد بها في الداخل والخارج، وتوعية الجماهير بالخطر المحدق بالبلاد وسيادتها. وهكذا يمكن القول إن نشاط الكتلة الوطنية طيلة سنتي 1935 و1936 تميز بحركة احتجاج ممثلة في توزيع المناشير على

عامة الشعب، وجمع توقيعات الجماهير على عرائض الاستنكار، وبعثها إلى المسؤولين في الرباط وباريس واغتنام كل ذكرى وكل مناسبة للجهر بالصوت. وكانت تتوجه بعرائضها وملتمساتها إلى السلطان أولا فالمقيم العام فحكومة باريس، وإلى اللجان البرلمانية المختصة بمجلس النواب الفرنسي. وكانت تحرص على أن يكون السلطان مخاطبها الأول لتلفت الأنظارإلى وضعية المغرب القانونية الدولية حيث لا يعترف عقد الحماية إلا بسلطة السلطان واحتضانه للسيادة التي لم يتنازل المغرب عنها إلا جزئيا. وإن الوطنيين كانوا يعلمون أن السلطان لا يفتأ يناهض سياسة الحكم الفرنسي المباشر ويدافع في حواره مع الإقامة العامة عن سيادة المغرب، ويتحفظ على كل مشروع استعماري يمس بها أو يتنافى مع مقتضياتها.

إن كل شيء كان يؤكد أن رجال الحماية كانوا في الفترة التي نتحدث عنها يشعرون أن السلطان غير راض عن مخططاتهم، بل لقوا معارضته بكل صراحة ووضوح لعدد من مشاريعهم، مما جعلهم يلجأون إلى قرارات مقيمية يستغنون بها عن موافقته.

وبالرغم من مقاومة السلطان والوطنيين فإن الجبهة الاستعمارية كانت تتغلب في النهاية، وتؤثر على مجرى الأحداث بانتزاع أخطر القرارات من حكومة باريس لصالحها.

بعد أن واجه المقيم العام هنري بونصو (Henri Ponsot) حركة المعمرين المجزوزين، وقف وقفة تأمل وانتظار، ولم يسرع إلى تلبية المطالب المشتطة التي توالت عليه من مختلف أعضاء الجالية الفرنسية في حملة المطالب المسعورة، فكان القرار الفرنسي لحكومة باريس هو عزله في 21 مارس 1936 وتعويضه على رأس الإقامة العامة بمارسيل بيرطون(Marcel Peyrouton) الذي جاء من تونس بعد أن نجح في قمع الوطنيين التونسيين من رجال الحزب الحر الدستوري بزعامة بورقيبة ،وأعلن من مرسيليا أنه سيطبق بالمغرب نفس السياسة " الناجحة " التي مارسها على وطنيي تونس.

الفصل السادس عشر

تأسيس حكومة الجبهة الشعبية بفرنسا

مؤتمر طلبة شمال افريقيا

في نهاية السنة الثالثة من سنوات الدراسة الثلاث التي قضيتها بمدرسة الفقيه ابن عبد الله، وفي أحد أيام الأسبوع الأول من شهر شتنبر (أيلول) سنة 1936، قطع أستاذنا درسه واستطرد كعادته ليخبرنا أن لقاء لطلبة شمال أفريقيا سينعقد في عرصة (حديقة) شقشاق بحي الطالعة بالمدينة، وأن علينا نحن تلامذته أن نحضر هذا اللقاء . وزاد يقول - وقد بدا عليه شعور الارتياح - إن الكتلة الوطنية عهدت إليه بالإشراف على جزء من تنظيمات هذا الاجتماع، وإن علينا أن نتدرب على حفظ نشيد قرنه باسم المنجي سليم، أحد الزعماء الوطنيين التونسيين الذي قال عنه إنه سيحضر هذا اللقاء الكبير ممثلا لتونس الشقيقة.

ولاأتذكر اليوم من هذا النشيد إلا لازمته التي تقول :

حيوا افريقيا حيوا افريقيا
حيوا افريقيا يا عبـــاد
شبابها يبغي الاتحـــاد
أشبالها تأبى الاضطهـــاد

وبرجوعي فيما بعد إلى الوثائق المسجّلة لهذا الحادث التاريخي علمت أن مدينة فاس كانت تتأهب في التاريخ الموما إليه لاحتضان تجمع وفود الطلبة المنتمين إلى تونس والجزائر والمغرب المتكتلين في جمعية " طلبة شمال أفريقيا المسلمين " التي كان مقرها باريس.

وكان مقررا عقد دورة مؤتمرها في الرباط، فمنعه المقيم العام مارسيل بيروطون بعد أن رفض الوطنيون عرضيه برئاسة افتتاح المؤتمر وإقامة احتفال للمؤتمرين بمقر الإقامة العامة لأنهم رأوا في هذين العرضين -عن حق - نزوعا لفرض سياسة "الرعاية الأبوية"، من رجل مارس سياسة قمع الوطنيين في تونس عندما كان مقيما عاما بها، وهدد الوطنيين المغاربة بتدابير مماثلة بمجرد ما سمي مقيما عاما بالرباط في حديث صحفي صدر عنه في مرسيليا وهو متوجه في طريقه لتسلم مهامه بالرباط.

علمت كذلك أن لقاء فاس كان مبادرة من زعماء الكتلة الوطنية لجعله بديلا عن دورة المؤتمر التي منع عقدها المقيم العام الذي سبقته إلي المغرب سمعة الرجل الحديدي، وأن القصد كان تدشين الاتصال بين مجموعة الهيآت السياسية الوطنية : الحزب الحر الدستوري التونسي، وحزب الشعب الجزائري، وكتلة العمل الوطني بالمغرب.

ويذكر علال الفاسي أن إبراهيم الكتاني هو الذي أمضى بوصفه رئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر على الرسالة التي تضمنت رفض الوطنيين عرضي المقيم العام، وأن المنجي سليم أمضى معه علي الرسالة بالنيابة عن جمعية الطلبة ،مما يعني أن أستاذنا محمد ابن عبد الله إنما كان يترأس لجنة محدودة المهام مقتصرة على الجوانب التنظيمية للقاء فاس البديل.

الجبهة الشعبية الفرنسية

وإذا كان المؤتمر قد منع عقده فإن الإقامة العامة لم تجرؤ على منع تجمع فاس الذي كان تحديا لها وغضت عنه الطرف مكرهة لان حكومة الجبهة الشعبية المكونة من أحزاب اليساركانت قد قامت في فرنسا ثلاثة أشهر من قبل، وكان المفروض فيها أن تدشن مع الأقطار الخاضعة لنفوذ فرنسا سياسة جديدة أقل ما يمكن أن ينتظر منها أن تكون منفتحة ومستدبرة عهد القمع وكبت الحريات.

وكانت أحزاب اليسار (وهي الحزب الاشتراكي، والحزب الراديكالي الاشتراكي، والحزب الشيوعي) قد تكتلت لمواجهة الانتخابات التشريعية تحت اسم " الجبهة الشعبية "، وأسفرت الانتخابات التي جرت في مايو 1936 عن فوزها بأغلبية مقاعد مجلس النواب . وكان تأسيس هذه الجبهة تجديدا لمحاولات تاريخية استهدفت في فرنسا توحيد قوات اليسار ولم تعمر طويلا : أعني تجمع اليساريين تحت اسمين مختلفين، وهو تجمع كان يكافح في آن واحد ضد الاتحاد الوطني اليميني الذي كان يتزعمه بوان كاري (Poincaré) وضد الشيوعيين.أما الجبهة الشعبية التي نتحدث عنها فلم تستبعد الشيوعيين.

الوطنيون يبتهجون ويختلفون

كان لهذا الفوز صدى ارتياح لدى وطنيي المغرب الذين تطلعوا إلى بزوغ عهد فجر جديد، لأنهم كانوا على اتصال ببعض زعماء الجبهة وخاصة الحزب الاشتراكي الذي رشحته نتائج الانتخاب لقيادة الجبهة، والذي كان على رأسه ليون بلوم (LéonBlum) المعروف بنظرياته عن الاستعمار، ونظرته المتميزة إلى الوضع الخاص الذي يميز أقطار الحماية، إذ كان يردد " أن لا مبرر للاستعمار إلا اضطلاعه بمهمة إعداد الشعوب لمصير أفضل. " وكان يرى أن " الدولة الحامية لا تضطلع بالنسبة للدولة الموضوعة تحت حمايتها إلا بمهمة إعدادها للتحرر والاستقلال".

وعلى إثر فوز الجبهة الشعبية الفرنسية طرح الوطنيون للنقاش - حسب رواية محمد حسن الوزاني - موضوع الاتصال بالحزب الاشتراكي الذي كان كل شيء يرشحه لرئاسة الحكومة. ويقول الوزاني : إن الكتلة رفضت اقتراحه أن يسافر لباريس ليحضر بالنيابة عنها في اجتماع الحزب الاشتراكي الذي كان يمهد لتأليف حكومة الجبهة الشعبية، وليوثق علاقات الوطنيين بالزعماء اليساريين الفرنسيين المنتصرين، وأنه عندما لم يحصل على موافقة رفاقه قرر السفر على نفقته لحضور الاجتماع بوصفه مدير جريدة عمل الشعب وأحد محرري مجلة مغرب، وأن حضوره كان مفيدا للحركة الوطنية إلى حد بعيد لأنه تمكن من القيام بالدعوة داخل الاجتماع إلى تأييد برنامج الإصلاحات الذي اختصره في خمسة محاور أساسية ،ووزعه في كتيّب بعنوان: "نداء من الشعب المغربي إلى حكومة الجبهة الشعبية".

ونتوقف هنا قبل متابعة الوزاني في تفاصيله عن اجتماع الحزب الاشتراكي الفرنسي لنترك المجال لرواية علال الفاسي الذي كتب في "الحركات الاستقلالية": "ولم تنتصر الجبهة الشعبية في انتخابات مايو سنة 1936 بفرنسا حتى ظننا أننا إذ لم ننل كل ما نريد فسنحصل في الأقل على بعض الحريات، ولذلك عجلنا بتوجيه وفد متركب من الأخوين عمر ابن عبد الجليل، ومحمد الوزاني إلى باريس، حيث عملا بمساعدة إخواننا هناك على الاتصال برجال الحكومة وأصدقائنا بالأمس وتذكيرهم بالوعود المعطاة . وقد قام الوفد بدعاية مفيدة ،ورجع للبلاد دون أن يحمل معه غير الوعود والأماني ".

وحسب رواية الوزاني، فإنه انفرد بالقيام بهذه المهمة وأن سفر عمر ابن عبد الجليل برفقته إلى فرنسا كان بعد عودته إلى المغرب ورجوعه مرة أخرى للقيام بمهمة اتصالات سرية بحكومتي مدريد وباريس للتعاون على إفشال حركة تمرد الجنرال فرانكو التي انطلقت من منطقة الشمال المغربي . وقد أشار علال الفاسي إلى هذه البعثة في كتابه مقتصرا على هذه الإشارة :" وقد بعثت كتلة العمل الوطني إلى برشلونة وفدا للاتصال بالأسبانيين الجمهوريين."

وإلى أن نعود إلى هذه الاتصالات الأخيرة ونتائجها في فصل لاحق نتابع ما جاء في رواية الوزاني حيث لاحظ أنه لم ينجح في أن يدمج في مقررات الاجتماع ملتمسا خاصا بتأييد مطالب الشعب المغربي، لأن لجنة الصياغة دفعت طلبه بدعوى " أن الحزب الاشتراكي لا يمكنه مذهبيا أن يتبنى مطالب حركة سياسية جملة وتفصيلا".

إلا أن المؤتمر نفسه حسم في هذا الموضوع حين تحدث في بيانه الختامي عن هذه المطالب وعن الوطنيين المغاربة الذين أصدر عليهم حكمه المغلف في عبارات مطاطة نقرأها في هذه الفقرة الواردة في ذلك البيان:

" إن الحزب الاشتراكي الذي هو حزب الطبقة الكادحة، لكي يدافع عن الشعب المغربي لا يحتاج إلى أن يضع نفسه في وضع التبعية لأي حزب وطني بورجوازي (كذا) وهو في غنى عن أقلية من الامتيازيين (كذا) ممن يريدون إحلال استغلالهم الخاص محل الاستغلال الإمبريالي (كذا)، وإن الحزب لبعيد عن أن يعادي المطالب الوطنية التي لا يخلط بينها وبين المطالب الرجعية (كذا) التي تكاد تتصف بالقسيسية الكنسية والعنصرية (كذا) . وإننا نقول إن القضية الوطنية لكل شعب لا تنفصل عن القضية العمالية، بل نمضي إلى أبعد فنقول إن مسألة استقلال أي شعب ليست مرتبطة بمصير البورجوازية الأهلية"(كذا).

هكذا نرى أن الحزب الاشتراكي زعيم حركة اليسار تبنى بعض مواقف اليمين المتطرفة انطلاقا من أطروحات مشتركة كلها قذف للكتلة الوطنية وتشويه لأهدافها. وإذا كان ما يمكن أن يفهم منه ميل نسبي محدود إلى تأييدها، فهو ما وقع عليه الاقتصار في آخر البيان:

"إن الحزب الاشتراكي الوفي لفكرة ماركس يؤيد مبدأ أن كل شعب يضطهد شعبا لا يمكنه أن يكون حرا . وإن زعيمنا الخالد جان جوريس (JeanJaurès) قد حكم ببطلان الحرب ضد المغرب (إشارة إلى الحرب التي سبقت فرض الحماية علي المغرب) كما أدان احتلال المغرب عسكريا لأن ذلك مخالف للمعاهدات . وإن الحزب

الاشتراكي يؤيد كفاح الحركة الوطنية لتحرير المغاربة . ومع إبداء تحفظاته الصريحة حول بعض مطالب البورجوازية المغربية (كذا) فإنه يعلن حق سائر الأمم في الاستقلال، وحق الشعوب في تقرير مصيرها ".

وفي تحليل المرحوم الوزاني لما جنته الحركة الوطنية من حضور ممثل عنها في شخصه نلاحظ أنه لا يتوقف - خلافا لعادته ليرد على اتهامات الحزب الاشتراكي للحركة الوطنية - وهي تشكل جانبا سلبيا في أعمال المؤتمر - بل يتجاوز ذلك إلى مواصلة الحديث عما استفادته الحركة الوطنية في المغرب من حضوره في ذلك الاجتماع ذاكرا أنه أمكنه أن يوثق الصلات مع الزعماء الوطنيين الذين حضروه نيابة عن أحزابهم للدفاع عن قضايا شعوبهم، وذكر من بينهم الحبيب بورقيبة ممثلا للحزب الحر الدستوري التونسي،ومصالي الحاج ممثلا لحزب الشعب الجزائري ،ورياض الصلح ممثلا للكتلة الوطنية السورية اللبنانية، ولامين كي ممثلا للحركة الوطنية السينغالية.

حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية

تأسست يوم سادس يونيه (حزيران) 1936 حكومة الجبهة الشعبية برئاسة ليون بلوم، الذي أنشأ وزارة خاصة بأقطارالحماية والانتداب وضع على رأسها بييرڤيينو (Pierre Viénot) كاتب الدولة لدى وزير الخارجية . وهو مناضل اشتراكي سبق أن تعاطف مع الحركة الوطنية وكان عضوا في لجنة رعاية برنامج الإصلاحات المغربية . وكان تأسيس وزارة للأقطار المحمية والمنتدب عليها مسايرا لما اشتهر به " بلوم" من تمييزه بين هذه والمستعمرات كما بعث الأمل في انتهاج سياسة متميزة إزاء الأقطار المشمولة بالحماية والانتداب.

وقد فضل الشيوعيون أن لا يشاركوا في الحكومة وأن يقتصروا على إسنادها بأصواتهم، حرصا على تجنب إثارة قوى اليمين الذي كان - رغم هزيمته النسبية في الانتخابات - يتوفر على قوة لا يستهان بها فكرا وتنظيما ونفوذا، ولأنهم كانوا ينتظرون من الحكومة دون مشاركتهم تحقيق مكاسب اجتماعية للعمال والعاطلين والشباب ويعتقدون أنها قادرة على إنجاز إصلاح التعليم الذي كانوا يطمحون إلى تحرره من سلطة الكنيسة وتوجهاتها، أي أنهم قدروا أن يكون لهم الغنم السياسي دونما حاجة إلى تحمل غرم الحكم.

استقبال الوزاني في وزارة الخارجية

يتابع الوزاني حديثه عن مهمته الموفقة في باريس ذاكرا أنه سعى -بعد تأليف الحكومة الجديدة - إلى الاتصال بوزارة الخارجية التي كان على رأسها وزير راديكالي اشتراكي هو إيڤون ديلبوس، (Yvon Delbos) وأنه كان يتوقع أن لا يستجيب الوزير لطلب مقابلته لأن الراديكاليين لم يكونوا يتعاطفون مع الحركات الوطنية، ولكن هذا سمح مع ذلك لكاتب الدولة "بييرڤيينو " باستقباله بمكتبه، حيث تم ذلك يوم سابع يوليه (تموز) 1936 وقدم له الوزاني ملفا عن القضية الوطنية المغربية ،ووصف الوزاني استقباله رسميا "بالكي دورسي " بأنه كسب معنوي للحركة الوطنية، وأن ذلك أثار الإقامة العامة بالرباط وهيج سخط الصحافة الاستعمارية، وخاصة وأن الوزير صرح له بأنه سينكب على دراسة القضية المغربية بمجرد ما ينتهي من حل المشكل السوري الموضوع على بساط البحث .

وأضاف الوزاني في مذكراته أنه ظل أثناء مقامه بباريس يحيط رفاقه علما بنشاطه ويبعث إليهم بالنشرات والتقارير التي كان يصدرها بباريس وأنهم ظلوا يتجاهلونه ولا يردون على رسائله، إلى أن بلغهم خبر استقباله في " الكي دورسي" فبعثوا إليه بخطاب مشجع وزاد يقول :" وكم كانت مفاجأتي بهذا الخطاب سارة وارتياحي كبيرا عندما أخبروني بأنهم توصلوا مني بفحوى ماراج بيني وبين الوزير وبقصاصات الصحف الفرنسية التي تحدثت عن المقابلة، وبهذا انتهت الجفوة ظاهرا على الأقل ،وحل محلها الإذعان بالحق".

إن ما ذكره المرحوم الوزاني ونقلناه عنه باختصار كبير يسلط الأضواء على نوعية العلاقة التي قامت منذ تأسيس الكتلة الوطنية بين المرحوم الوزاني ورفاقه، فقد كان ما سماه بالجفوة امتدادا لجفوة سابقة نتيجة الخلاف على إصدار جريدة عمل الشعب مما مهد لانقسام الكتلة شطرين كما سنرى فيما بعد.

خيبة أمل

خيبت حكومة الجبهة الشعبية أمل الحركة الوطنية حيث ظل الجمود يطبعها حيال القضية المغربية، وحيث تركت المقيم العام مارسيل بيرطون(الذي عينته في منصبه حكومة اليمين السابقة) يتابع سياسة التهديد بتطبيق سياسة القمع التي مارسها على التونسيين، وحيث لم تتقدم خطوة في ميدان إطلاق الحريات ومن بينها حرية الصحافة التي ظلت ملجمة بعد تأسيسها مثلما كان عليه الحال في عهد الحكومة الفرنسية السابقة .

رجل أحمق

وعندما اقتبل المقيم العام وفد الحركة الوطنية تميز الحوار بالحدة، وتحدث المقيم بلغة التهديد واستأثر بالكلمة وحده متحدثا كما وصف ذلك المرحوم علال الفاسي " ثلاث ساعات ظل يدور فمه فيها كما يدور هو على كرسيه يمينا ويسارا، ولم يترك كلمة قذرة في شتم الدستوريين التونسيين وشتم رجال الجبهة الشعبية بفرنسا إلا نطق بها ". وأضاف علال الفاسي :" ولكنه اعترف بأننا مخلصون في حركتنا أكثر من غيرنا، ومع ذلك فهو يخاف أن نخدعه كما خدعه التونسيون. أما نحن فلم نر مجالا للكلام مع رجل أحمق يهرف بما لا يعرف، وبعد أن نطق بكل هراء لم نزد على أن سجلنا محضر الجلسة معه حرفيا وطبعناه ووزعناه على الصحفيين والنواب ورجال الجبهة الشعبية. وقد اكتشفت كتلة العمل الوطني نص البرقية التي وجهها هذا المقيم لمدير البنك المخزني بتطوان على إثر الانقلاب الفاشي في شهر يوليه (تموز) سنة 1936 يأذنه فيها بدفع خمسمائة ألف فرنك للفلانج الأسباني، فنشرتها الكتلة ونددت بمقيم الجبهة الشعبية الذي يؤيد الفاشية الفرنكية بمال الدولة المغربية".

وكانت نتيجة فضح الكتلة الوطنية للمقيم العام أن ضبطته حكومته في حالة التلبس بمعارضتها ومساعدته حركة فرنكو الفاشية التي ناهضتها فرنسا، فبادرت الحكومة إلى عزله واستبدلت به الجنرال نوجيس(Noguès) الذي تولى شؤون الإقامة العامة في 16 شتنبر (ايلول) 1936 .

لماذا مقيم عسكري ؟

بعد أن مضت أسابيع معدودات على تأسيس حكومة الجبهة الشعبية تأكد الوطنيون أن الحكومة الفرنسية الجديدة مصرة على تجاهل القضية المغربية و تركها بين يدي الإقامة العامة بالرباط .

و إذا كانوا قد تنفسوا الصعداء لعزل المقيم العام "الأحمق" فإنهم استغربوا من حكومة اليسار تعويضه بالجنرال شارل نوجيس (CHARLES NOGUES) الذي كان العسكري الثاني في سلسلة المقيمين العامين بعد الجنرال ليوطي . و كان مفهوما أن تختار حكومة اليمين الفرنسية في بداية عهد الحماية تدشين سلسلة المقيمين العامين بتعيين جنرال لمواجهة أوضاع الثورة المسلحة على الاحتلال الفرنسي و تثبيت قدم الاستعمار بالبلاد، لكن لا يفهم أن تختار حكومة اليسار مقيما عاما عسكريا في الوقت الذي توقفت فيه عن العمل المسلح آخر جيوب المقامة المغربية و نشأت في المغرب حركة وطنية سياسية تنشد الحوار و التفاهم مع مسؤولين سياسيين فرنسيين يحسنون المخاطبة بلغة الحوار . و أقل ما يقال عن هذا الاختيار إنه إن كان سليم القصد فقد خانه التوفيق .

موقف غريب

و الملاحظ أن حكومة الجبهة اتخذت من المغرب موقفا غريبا مغايرا لموقفها من سائر أقطار الانتداب و الحماية، فالمفاوضات كانت تجري بنجاح بينها و بين الزعماء السوريين و اللبنانيين، و قد دشنت في لبنان سياسة انفراج، كما ظفر الوطـــنيون و التونسيون منها ببعض الحريات، و لا سيما حرية الصحافة و الاجتماع، بينما لم يتغير شئ في المغرب .

و هل كان يعقل أن يصادق الوزير فيينو (VIENOT) (المكلف بشؤون المغـرب و تونس كقطري حماية) على تمتيع عمال تونس بالحق النقابي، و يعارض تطبيق هذا التدبير بالمغرب ؟ وهل كان معقولا أن يرفض هذا الوزير (الذي كان استقبل الوزاني في بداية عهد حكومة الجبهة الشعبية) استقبال وفد عن الكتلة الوطنية إذا لم تكن

حكومته غيرت موقفها ؟ وهل كان ينتظر من حكومة اليسار أن تأذن للإقامة العامة بالرباط بتشجيع سياسة الاستعمار الفلاحي بالمغرب بإعطاء المعمرين الفرنسيين قروضا وهبات لتعويضهم عن كساد تجارة الخمور المستوردة خارج المغرب و لتسديد ديونهم المزعومة، و خاصة التبرع عليهم بستة و أربعين مليون فرنك امتنعت حكومة اليمين الفرنسية السابقة من تقديمها لهم و ذلك في الوقت الذي يعاني فيه الفلاح المغربي ضائقة عيش ضنك؟

ثم ماذا كان وراء هذا الموقف الغريب؟ أيرجع ذلك إلى التقليد المعروف عن حكومات فرنسا التي يطبق فيها اليسار سياسة اليمين كلما تسلم الحكم ؟ ولكن حكومة الجبهة الشعبية إنما طبقت سياسة اليمين حيال المغرب . فلماذا هذا الميز؟

قد يكون من بين العوامل التي أملت هذا الموقف انفراد المغرب بوضع خاص كانت تواجهه حكومة الجبهة الشعبية و تتعامل معه بمنتهى الحذر. ويتمثل :

أولا :في النفوذ المتزايد الذي أصبحت تملكه الجالية الفرنسية بالمغرب بعد أن استولت على المرافق الاقتصادية الحيوية ووسائل الإنتاج التي تجعل - كما يقول الماركسيون - البنية التحتية تتحكم في البنية الفوقية. و بالفعل فإن الإقامة العامة كانت تنطبق عليها حقا هذه المقولة الماركسية، إذ أصبحت لا تملك إلا تطبيق السياسة التي تمليها عليها الجالية الفرنسية الطامعة في المزيد من المكاسب السياسية و الاقتصادية.

و كانت هذه الجالية تشكل قوة ضغط عتيدة على حكومات باريس المتعاقبة، ليس فقط بتحكمها في مسار المغرب اقتصاديا، ولكن لتوفرها على وسائل الضغط في فرنسا ذاتها عبر أحزاب اليمين التي كانت تدافع عن مصالحها و تتبنى أطروحاتها جملة و تفصيلا، وأيضا عبر فروع هذه الأحزاب التي نشأت في المغرب متكونة من أعضاء الجالية الذين أصبح لهم بها صوت مسموع تتجاوب أصداؤه في تناغم بين باريس و الرباط .

و الأغرب و الأدهى أن أحزاب اليسار التي أنشأت لها فروعا بالمغرب سمحت لهذه أن تتبنى سياسة يمينية و أحيانا بتطرف : إن جريدة "المغرب الاشتراكي" (LE MAROC SOCIALISTE) التي كانت تصدر بالمغرب كما يشير إليه عنوانها كانت تسمح لنفسها أن تشتم أحيانا الإسلام وتجرؤ حتى على الدعوة لتحرير المغاربة منه، و كل ذلك لكسب الزبائن داخل الجالية الفرنسية التي لم تكن تُطربها إلا هذه النغمة، وحتى الشيوعيون القاطنون في المغرب كانوا يتغيرون في مواقفهم بين تأييد الحركة

الوطنية باعتدال محسوب، وبين معارضتها ونعت الوطنيين بالمهيجين أو المتطرفين.

ثانيا: واكب عهد حكومة الجبهة الشعبية تطورٌ خطير عرفته منطقة الشمال المغربية المشمولة بالنفوذ الاسباني، حيث انطلقت منها حركة تمرد دبرها الجنرال فرنكو في شكل انقلاب علي الحكومة الجمهورية يوم 14 يوليه (تموز) 1936 و كان علي رأس الحامية الإسبانية المرابطة بالمنطقة وضمنها فرقة عسكرية مغربية، تلك الحامية التي شكلت نواة جيشه الذي واجه به حكومة مدريد الشرعية.

وقد أثار انطلاق الانقلاب من المنطقة اضطرابا سياسيا داخلها سواء بين حكامها الاسبانيين الذين فاجأهم الانقلاب ووضعهم أمام مشكل خيار صعب بين التمسك بالولاء لحكومة مدريد و الانضمام إلى الحركة الجديدة المتصاعدة، أو بالنسبة للوطنيين المغاربة الذين إن لم يكونوا مرتاحين كل الارتياح لسياسة الجمهوريين الاسبانيين حيال المغرب، فإنهم لم يكونوا ليطمئنوا بسهولة لحركة التمرد و الانقلاب التي كانوا يجهلون كل شيء عنها و عن نواياها.

و كانت فرنسا تؤيد حكومة مدريد الجمهورية فأثارت حركة التمرد الفرنكوية لديها مخاوف خاصة بعد أن قيل عنها إنها حركة فاشية تتمتع بتأييد ألمانيا التي قامت فيها حركة هيتلير منذ انتصار حزبه النازي سنة 1933.

وزاد سقوط منطقة الشمال المغربي (المنطقة الخليفية) في قبضة حكم فرنكو الموقف تأزما، وتضاعف قلق باريس بعد أن انقسمت الجالية الفرنسية في المنطقة الجنوبية (المنطقة السلطانية) بين متعاطف مع حركة فرنكو ومتحفظ منها، وبالأخص بعد أن أخذ يتبين أنه كلما اتضح اتجاه هذه الحركة في وجهة الفاشية ازداد الاستعماريون الفرنسيون بالمغرب تعاطفا وتجاوبا معها.

ولقد عكست صحف فرنسية صادرة بالمغرب هذا التجاوب بنشرها أنباء تفاصيل الثورة الفرنكوية بما يُشْتَمُّ منه تأييدها، بل سُجلت في مدينة مكناس حتى محاولتان فاشلتان للتمرد قامت بهما الحامية العسكرية الفرنسية بقيادة ضباط أغراهم نجاح ثورة فرنكو بالقيام بالمحاولتين.

إن المقيم العام مارسيل بيرطون تسارع - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - إلى الأمر بصرف معونة نقدية لحركة فرنكو من خزينة المغرب. ولئن بادرت حكومته بعزله فإنها ظلت تتخوف من تعاطف الجالية الفرنسية بالمغرب مع الحركة، وتتجنب أن تقوم بأية

مبادرة حوار مع وطنيي المغرب حتى لا تساعد بذلك على فتنة تمرد عليها. وفي هذا السياق تم تعيين جنرال على رأس الإقامة العامة بالرباط ليطبق سياسة العصا و الجزرة.

ثالثا: إن علينا أن نتذكر أن الحكومة الفرنسية التي سبقت حكومة الجبهة الشعبية كانت قد عزلت تحت ضغط الجالية الفرنسية المقيم العام هنري برنصو الذي فقد ثقة هذه الأخيرة وعوضته بالمقيم العام مارسيل بيروطون (MARCEL PEYROUTON) الذي ظفر بفضل سياسته الهوجاء بتأييدها. و لربما وجدت الحكومة الفرنسية نفسها مضطرة إلى تعويض الجالية الفرنسية عن خسارتها في المقيم العام المعزول بتعيين مقيم عام عسكري تمتص شاراتُه العسكرية القلق الذي أحدثه عزل سلفه لدى فرنسيي المغرب، وتُرعب رتبةُ جنرال من كانت تسول لهم أنفسهم الاقتداء بحركة التمرد التي قادها الجنرال الإسباني من منطقة الشمال المغربية.

وربما قصدت كذلك إعطاء تطمينات سيكولوجية للجالية الفرنسية باختيارها الجنرال نوجيس بالذات، وهو الذي سبق أن عمل سنوات بمكتب المقيم العام الجنرال ليوطي وساهم برتبة كولونيل في حرب فرنسا ضد ثورة الريف وكان مديرا عاما للشؤون الأهلية بالإقامة العامة ما بين 1928 و1930. وهو معروف في أوساط فرنسيي المغرب بانتمائه إلى مدرسة ليوطي التي تطبق السياسة الاستعمارية بالتلويح بالعصا و الجزرة، وتركز النفوذ الفرنسي بسياسة الابتسامة وكأس الشاي حسب قول ليوطي نفسه.

رابعا: كان الوطنيون المغاربة متصلين بحكومة مدريد الجمهورية، وكانوا يسعون إلي أن لا يستبد الجنرال فرنكو بحكم المنطقة الخليفية. وكانوا علي وشك إبرام اتفاق مع الجمهوريين لمناهضة النفوذ الفرنكوي بقوة السلاح، الشيء الذي لم تقبله حكومة الجبهة الشعبية عندما عُرض عليها أن تقف منه موقف الحياد. وهكذا انضاف هذا العنصر إلى الأسباب التي كانت وراء تعيين الجنرال نوكيس في منصب المقيم العام.

عمل مباشر

في سياق هذه الظروف التي جعلت الحركة الوطنية لا تطمئن إلى نوايا حكومة الجبهة الشعبية وضع الوطنيون حدا لفترة الانتظار و التربص وقرروا انتهاج ما أطلقوا

عليه العمل المباشر. وطبقوا شعار "الحرية تؤخذ ولا تعطى".

كانوا يفتقدون حرية النشر وإصدار الصحف فعوضوها بإصدار النشرات باللغتين العربية و الفرنسية و كانوا يوزعونها في شكل منشورات، وتقرأ في الجمعيات السرية، ويعلق عليها المسيرون ويحمسون بها الأعضاء. وقاموا بتحرير المذكرات السياسية المحددة لمواقفهم وبعثها في رسائل أو برقيات للحكومة الفرنسية، ولنواب البرلمان، ولجانه المتخصصة، متقيدين دائما ببعثها إلى السلطان أيضا بوصفه الأمين علي السيادة و الشرعية .

و أمام تجني الحكومة الفرنسية بمماطلتها في السماح بحرية الاجتماع تجاوز الوطنيون في هذه الفترة مرحلة الخلايا السرية إلي عقد اجتماعات مكبرة في عواصم المغرب الكبرى، لئن كانت تظل منحصرة في نطاق الدور الفسيحة، فإن أصداءها كانت تتردد في المغرب كله، ويزعج انتشارها رجال الإقامة العامة الذين كانوا يتابعون بقلق مضاعف تطوارتها و آثارها على التعبئة الشعبية.

أول مؤتمر وطني

في هذا النطاق عقدت كتلة العمل الوطني ما سمي بأول مؤتمر وطني بالرباط بتاريخ 25 أكتوبر (تشرين الأول) 1936 (أي بعد شهر من وصول الجنرال نوجيس إلى الرباط) شارك فيه مندوبون عن فروع الكتلة الوطنية وكان مقره دار المرحوم الحفيان الشرقاوي. وكان المؤتمر يهدف إلى تقييم العمل الوطني الذي أصبح عمره ست سنوات منذ انطلاقه في حركة مناهضة السياسة الفرنسية (البربرية)، وإلى تطوير أسلوبه بممارسته في مزاوجة بين الإعلان عنه مع التقيد بالقانون المطبق في المغرب آنذاك، حتى لا يُتابَع الوطنيون بجنحة عقد اجتماعات بدون رخصة، مادامت الاجتماعات تبقى في نطاق محدود وتعقد في دور موصدة الأبواب. كما كان الوطنيون يستهدفون تعبئة أنصارهم حول برنامجهم السياسي الذي اختُصر فيما أصبح يطلق عليه "المطالب المستعجلة"، وهي الإصلاحات الضرورية التي اعتبرت القيادة الوطنية أنها تشكل الحد الأدنى لما ينبغي إنجازه، أو الأسبقيات التي يجب أن تستأثر - قبل غيرها - باهتمام المسؤولين لإخراج الوضع داخل المغرب من مرحلة الجمود.

ومما كان ضمن هذا البرنامج المستعجل موضوعات الحريات، وإصلاح التعليم و القضاء، وتطوير الفلاحة، وتحسين أوضاع العمال والصناع، ومراجعة نظام الجبايات والرسوم، وإصلاح أوضاع الصحة العامة.

وقد جاء التركيز على هذه المطالب مؤكدا على انتهاج الوطنيين سياسة الواقعية والعقلانية مما يدخص ما كانت تصفهم به الإقامة العامة من أوصاف التطرف، والثورية، والديماغوجية، والتطلع إلى الحكم بدون وعي سياسي.

وتتابعت المهرجانات السياسية في فاس وسلا لتأييد المطالب المستعجلة ومواصلة الضغوط الشعبية لإنجازها. ولم تكن متلوة بقمع، كما لم يكن الوطنيون أثناءها وإثرها يخلون بالنظام أو يمسون بالقانون، لكن أعصاب الإقامة العامة ثارت عندما اعتزم الوطنيون إقامة مهرجان بالدار البيضاء يوم 14 نونبر (تشرين الثاني) 1936، ربما لأن المدينة كانت في نظرهم نقطة حساسة بحكم قوة الجالية الفرنسية التي كانت توجد بها عددا ومصالح اقتصادية ونفوذا، وربما لأن الوطنيين - وهم يدركون أهمية المدينة من هذه الوجهة - طوروا أسلوب عملهم، فاختاروا أن يسيروا في مظاهرة صامتة لافتة للأنظار تمر أمام القصر الملكي حيث صادف ذلك وجود السلطان بالمدينة لإقامة احتفال عيد العرش بها.

أسلوب تحامل المقيم العام

في هذا السياق رفع المقيم العام العصا فمنع المهرجان الخطابي وأوقف بقوة الجيش و الشرطة مسيرة المتظاهرين، وانتقى ثلاثة من قيادة الكتلة الوطنية اعتبرهم "رؤوس الفتنة" هم علال الفاسي، محمد بن الحسن الوزاني، ومحمد اليزيدي، فأودعهم السجن. ونسب إلى السلطان أنه هو الذي اتخذ هذا التدبير لتجرؤ الوطنيين على القيام باضطرابات ليلة عيد العرش في مدينة اختارها السلطان لتقام بها حفلات العيد، وهذه تَعِلّة زائفة اعتادت سلطات الحماية اللجوء إليها كلما قررت مواجهة المغاربة بتدبير سيء، بالرغم من أنها كانت تعلم أن لا أحد من المغاربة كان يطمئن إلى ادعائها ذاك.

ظل الزعيمان الوزاني و الفاسي شهرا في مكان قريب من محكمة الدار البيضاء وكانا في الحقيقة في ضيافة باشا المدينة الطيب المقري أو في إقامة محروسة. وفي هذه المرة جمعتهما دار واحدة بعد أن كانا يلتقيان في سجن واحد أو زنزانة واحدة

وكان لهما في هذه المرة رفيق في شخص محمد اليزيدي. وربما بددت هذه الرفقة الجفوة التي كانت بين الزعيمين مصدقا لقول شوقي :

إن المصائب يجمعن المصابينا

وكان منتظرا أن يحال القادة الثلاثة على المحكمة بتهمة التعاون مع الأجنبي، فأقاموا للدفاع عنهم محاميين مغربيين لم يكن المغرب كله في هذا التاريخ يتوفر على غيرهما، هما عبد القادر ابن خلدون وأحمد زروق، لأن سياسة الحماية كانت تقوم على قصر التعلم على عدد محدود من المغاربة، لذلك لم يكن للمغرب في هذه الفترة من المحامين والأطباء والمهندسين إلا النزر اليسير من الأطر.

وبعد أن عمت مظاهرات الاحتجاج على اعتقال الزعماء الثلاثة مدن المغرب الكبرى، وأصبح بعدها لكل مدينة قائمة سجنائها، لم يسع المقيم العام إلا أن يضع العصا ويلوح بالجزرة، فقد فشلت سياسة القمع في صد تيار الحركة الوطنية الجارف وهدّدت علاقات السلطان بالمقيم بالدخول في أزمة سياسة كبرى، فالسلطان لم يقبل أن يمارس المقيم تلك السياسة وألح عليه في التخلي عنها، والمقيم نفسه لاحظ بامتعاض أنه انحدر إلى متاهة لابد له من العمل على الخروج منها. وكان للمقيم العام نوجيس هذا أسلوب يميزه عن المقيمين السابقين، فقد حرص على أن يتمقص روح ليوطي و كان يفتخر بأنه تربى في مدرسته، وراهن على أن يواجه الوطنيين بالقمع ويحتفظ بود السلطان، وأن ينفذ معه سياسة «مغلّفة» لا تقفل معها أبواب الحوار. وحتى حكومة الجبهة الشعبية ضغطت من جهتها على المقيم العام حتى لا ينحدر إلى مستوى سلفه بيروطون الذي عزلته من منصبه بعد أن انتهج في المغرب سياسته الهوجاء.

بمقتضى ذلك لم يعد المقيم العام يعارض في إطلاق سراح الوطنيين وعلى رأسهم الزعماء الثلاثة، وسعى إلى السلطان أن يكون هو صاحب قرار العفو عن المعتقلين، لأنه كان يريد تأكيد نسبة الأمر بقبضهم إلى السلطان. وكان المهم في نظر السلطان أن تتمتع طائفة من شعبه بالحرية، وأن يعلم الوطنيون أنه كان وراء إطلاق سراحهم بطريقة أو أخرى، فاستقبل يوم خامس دجنبر (كانون الأول) 1936 جماعة من الوطنيين ممن ظلوا خارج السجون ليبلغهم بنفسه بشرى سراح جميع الوطنيين.

وعن هذه الأزمة التي انفرجت على هذا الشكل كتبت في يناير (كانون الثاني) 1937 صحيفة عربية مقالا مطولا بعث به إليها مراسلها بالمغرب مما جاء فيه عن مقابلة السلطان للوطنيين : "دخل الوفد الوطني علي السلطان ومثل بين يدي أمير

المؤمنين، وشرح له مطالب الأمة، وبين له ما قاسته من المصائب، فكان جلالة السلطان يتجاوب مع الوفد. وبعد أن درس معه الحالة مليًا أسمع الوطنيين من عبارات عطفه السامي ما فيه بلسم للجراح، وشفاء للنفوس وقال لهم: "إنكم لن تخرجوا من داري هذه بدون شيء، فأنا أعلن لكم العفو عن سائر الذين سجنوا بمناسبة الحوادث الأخيرة، وهم سيقضون ليلة السابع و العشرين (ليلة القدر) المعظمة من رمضان بين أهلهم وذويهم "وهنا ارتفع الهتاف بحياته و الدعاء لمقامه الرفيع".

محمد اليزيدي

هذا الوطني الذي كان ثالث ثلاثة في سجن باشا الدار البيضاء لم يكن عند اعتقاله مشهورا، ولم يبرز اسمه بروز اسمي رفيقيه في مرحلة الكفاح التي سبقت أحداث الدار البيضاء، لكنه التحق بالحركة الوطنية منذ حوادث الظهير البربري ولمع اسمه بالرباط خاصة كقائد من قواد الحركة. وكان وجوده ضمن القيادة الوطنية تكذيبا لاتهام سلطة الحماية رجال الحركة الوطنية بأنهم بورجوازيون، لأن اليزيدي ينحدر من أسرة متواضعة فقيرة، كان والده يتقاضى لإعالتها أجرة بسيطة عن عمله "شاوش" أي فراش. وبعد أن درس بالمدرسة الفرنسية واجتاز مراحل التعليم بدءا من التحاقه بمدرسة مولاي يوسف الثانوية بالرباط إلي حصوله علي الشهادة النهائية من معهد الدراسات العليا، أصبح وهو في سن الشباب مترجما بإحدى الإدارات المغربية، ثم ترك وظيفته سنة 1930 ليتمحص للعمل الوطني بعد أن اعتُقل مع الوطنيين، وليكون من بين واضعي "برنامج الإصلاحات المغربية" وأحد أعضاء وفد تقديمه إلى المقيم العام. وقد اختاره الحزب الوطني سنة 1937 ليكون مدير جريدة الأطلس الناطقة باسم الحزب. ومن بيته بديور الجامع بالرباط خرج وفد حزب الاستقلال يحمل إلي السلطان عريضة المطالبة باستقلال المغرب صباح يوم 11 يناير 1944. وعندما ألقت الإقامة العامة القبض على زعماء حركة الاستقلال وسائر الوطنيين إثر ذلك كان اليزيدي من بين زعماء الرباط المعتقلين بجانب الحاج أحمد بلافريج وآخرين، لكن الإقامة العامة أطلقت سراح اليزيدي وحده وطلبت منه أن يتولي دعوة الشعب إلى الهدوء ".

عرف السجن، كما عرف المنفي، وتميز في جميع الظروف بصوفيته الوطنية المثالية، حتى ليلاحظ عليه أصدقاؤه المبالغة في زهده و التباعد عن الظهور

وانكماشه علي نفسه، فقد عزف منذ الاستقلال عن التقلب في المناصب وكان يمكن أن يكون من بين الوزراء، أو أن يتحمل مسؤولية بارزة، فقنع بأجرة شهرية حرص محمد الخامس وبعده الحسن الثاني على أن تعطى له من ميزانية رئاسة الحكومة، فاكتفى بها ملازما بيته، إلى أن لقي ربه، رحمه الله و أثابه وأجزل له العطاء.

الفصل السابع عشر

شمال المغرب
في ظل نفوذ اسبانيا

في منطقة النفوذ الإسباني

والآن ونحن نستعرض الذكريات والشهادات والوجوه مما عرفناه أو سمعناه خلال سنتي 1935 و 1936 سيكون علينا أن نطل إطلالة قصيرة على ما كان يجري في المنطقة المغربية التي كان يشملها النفوذ الإسباني لتكتمل بذلك صورة المغرب الواحد في هذه الفترة، إذ بدون ذلك سنكون وقعنا في أخطاء الكثيرين من المؤرخين الذين اهتموا خاصة بالمنطقة المغربية المشمولة بالحماية الفرنسية وقصروا أفضال العمل الوطني على قادتها، واعتبروها نقطة الريادة متجاهلين دور المنطقة الأخرى التي كان الاستعمار ينعتها بالإسبانية، كما ينعت الجنوب بالمنطقة الفرنسية.

قرر التخطيط الاستعماري العالمي، وخاصة تخطيط الحلفاء الأوروبيين أن يمارسوا سياسة دك المعاقل التي تقف عبر العالم في وجه توسعهم، وأن ينسفوا داخل جنوب الكرة الأرضية صروح الإمبراطوريات الصامدة في طريقهم باستعبادها وتجزئتها وتفتيت كياناتها، وبلغوا قصدهم هذا في هذا المشرق بتقويض الأمبراطورية (أو الخلافة) العثمانية، كما نجحوا في شمال إفريقيا بتقويض الأمبراطورية المغربية التي كانوا يطلقون عليها اسم " الإيالة الشريفة (Empire chérifien)

وإذا كانوا قد قوضوا الخلافة العثمانية وعزّوا شعوبها عن فقدها بإقامة كيانات هشة على أنقاضها متداعية للسقوط وحاملة في طياتها قابلية التمزق، فإنهم طبقوا حيال امبراطورية المغرب سياسة تمزيق الأوصال، وتقطيع الأرحام، واقتسموا فيما بينهم تركة المغرب قيد حياته، أو أنهم أجهزوا عليه بأيدي عدوان مختلفة ضربت مقتله ضربة واحدة ليتفرق دمه هدرا بين قبائل الاستعمار، حتى لا يظفر مقابل ذلك العدوان البشع بديّة من عاقلة.

ونالت فرنسا من التركة نصيب الأسد، إذ بسطت نفوذها على أكبر وأغنى جزء من أرض المغرب عندما فرضت عليه حمايتها سنة 1912، وهو الجزء الذي كان يوجد

فيه السلطان في عاصمة المغرب الواحد، باعتباره مالك السيادة ورمز الشرعية ومصدر السلطات القانونية التي ظل يمارسها نظريا .

لكن فرنسا كانت مضطرة لتوطيد حمايتها على هذا الجزء لأن تقدم سلسلة من التنازلات للدول الأوروبية الطامعة في نشر توسعها على أجزاء من العالم الثالث ومنها المغرب. وضمن هذه المساومات كانت تبرم اتفاقات ثنائية تارة ومتعددة الأطراف أخرى، سرية احيانا وعلنية في الأغلب .

وضمن الاتفاقات التي لم يعلن عنها في إبانها اتفاقيتان أبرمتهما مع إسبانيا أولاهما بتاريخ 27 يونيه (حزيران)1900 والثانية بتاريخ أكتوبر (تشرين الأول) 1904 ونصتا على مبدأ تقسيم المغرب بينهما بدون تحديد أبعاد هذا التقسيم، إلا أن ذلك خول لأسبانيا مهمة تقاسم المسؤوليات في جزء من المغرب مع فرنسا التي التزمت لها بذلك . ومنذ البداية كان معروفا أن شمال المغرب هو الجزء المتنازل عنه من فرنسا لأسبانيا التي سبق لها أن استولت علي مدينتين مغربيتين هما مليلية سنة 1497 وسبتة سنة 1640 ثم أخذت تبسط نفوذها شيئا فشيئا على شمال المغرب.

وفي هذا النطاق استغلت اسبانيا حادثة التنكيل بعمال المنجم الحديدي الذي كان يوجد بمدينة مليلية فوجهت حملتها العسكرية بقيادة الجنرال مرنيا ضد السكان المغاربة لتنتزع من سلطان المغرب تحت الضغط التوقيع على اتفاقية 17 نونبر (تشرين الثاني) 1909 التي مكنتها من مغانم جديدة في الحسيمة ومن تعويضات حربية، ومهدت لها سبيل فرض نفوذها علي الجزء الأطلسي من شمال المغرب حيث اقتحمت مدينتي العرائش والقصر الكبير.

وانطلاقا من مقتضيات الاتفاقيات الفرنسية الأسبانية جاء الفصل الأول من اتفاقية الحماية (30 مارس/أذار 1912) ينص على «التزام الحكومة الفرنسية بالتفاوض مع الحكومة الإسبانية حول مصالح أسبانيا بالمغرب الناتجة عن وضعيتها الجغرافية وممتلكاتها الترابية الواقعة على الشاطئ المغربي» .

ويقتضى هذا الالتزام انتهت المفاضات بين الدولتين إلى إبرام اتفاقية سابع وعشري نونبر(تشرين الثاني)1912 التي أصبح بها تقسيم المغرب بين الدولتين مضبوطا ومحددا أكثر، تجاوزت معه إسبانيا نفوذها على الشمال إلى جزء آخر من الجنوب.

إن الدولة الأسبانية اكتسبت باتفاق مع فرنسا حق تسلطها علي منطقة حماية بالشمال تحت سلطة خليفة (نائب) للسلطان (وكان مقر حكومته بتطوان) وعلى

منطقة بالجنوب هي منطقة طرفاية وإفني والصحراء الغربية التي ذكرت في الوثائق الدولية باسم منطقة الساقية الحمراء . وقد وصف بعض القانونيين عملية تخويل فرنسا لأسبانيا حق التحكم في هذه المناطق المغربية بأنها عقد كراء تحت الباطن (Sous - location).

وقد نص الفصل السادس والعشرون من اتفاقية 27 نونبر (تشرين الثاني) 1912 المشار إليها على «أن الاتفاقات الدولية التي يعقدها السلطان لاتطبق على المنطقة الخاضعة لأسبانيا إلابموافقة الحكومة الأسبانية»، كما نص الفصل الثاني والعشرون على «أن حماية مصالح المغاربة المنتمين إلى منطقة الشمال المقيمين بالخارج يعهد بها إلى ديبلوماسيي الحكومة الأسبانية».

وطُبق تقسيم المغرب من الوجهة القانونية الصرف في شكل تفويض عام من السلطان لخليفته كي يمارس في المنطقة الخاضعة للنفوذ الأسباني سلطاته ما لم تتناقض مع مصالح أسبانيا، على أن يدخل في هذا التفويض أن ينيب الخليفة عنه من يمارس السلطة المفوضة من السلطان على جزء من الجهات التي تخضع لنفوذ أسبانيا.

وبمعنى آخر لم تقم في المغرب دولتان مستقلتان لأن السلطان واحد والعلم المغربي واحد، ولم يعتبر القيِّم على شؤون «المنطقة الشمالية» إلا خليفة لصاحب الحق الشرعي الأوحد الذي هو السلطان المستقر عرشه في عاصمة المغرب، وهي جزء من المنطقة المشمولة بالحماية الفرنسية .

وظل خطباء الجمعة في مساجد الشمال يدعون للسلطان على المنابر، وهو التقليد الذي يكرس في المغرب وحدة الولاء لسلطان واحد . وقد أكدت ذلك مقتضيات الفصل الأول من الاتفاقية التي نصت على «أن المناطق الخاضعة للنفوذ الأسباني تبقى تحت السلطة المدنية والدينية للسلطان».

ومع ذلك فقد انتقص مبدأ الوحدة الشرعية للبلاد في بعض تطبيقاته عندما اتفقت فرنسا واسبانيا علي أن يعين السلطان خليفته بتطوان من بين قائمة اقتراحات تتقدم بها إليه الحكومة الاسبانية، الشيء الذي ضيق عليه دائرة الاختيار الحر. ودائما نحا التطبيق الاسباني للاتفاقية المذكورة منحى تأويلها على أساس ممارسة خليفة السلطان على المناطق سلطة مستقلة كل الاستقلال عن السلطان لدرجة استحالة احتمال عزله من لدن السلطان بدون موافقة الحكومة الاسبانية.

الخليفة الوطني

وعملت السلطات الاسبانية في جميع العهود علي إعطاء الخليفة جميع مظاهر الاستقلال التام، بل إنها حرضت الخليفة على نقض ولائه للجالس على العرش في ظروف نفي السلطان وفراغ العرش بالرباط، وأغرته بإعلان الانفصال والاستقلال «بمملكته». ولولا أن وجدت اسبانيا أمامها خليفة وطنيا وفيا في شخص الأمير مولاي الحسن بن المهدي، وحركة وطنية متمسكة بوحدة المغرب الكاملة، لوقع المغرب في معضلة تقسيم كيانه، من نوع ما عرفته بيافرا الإفريقية .

وقد يكون هذا هو المجال الملائم ضمن فصلو هذا الكتاب للإشادة بوطنية هذا الخليفة الذي كان يمارس على المناطق المغربية السلطة بتفويض من السلطان، وكان يملك من النفوذ ما تجاوز أحيانا ما تركته فرنسا للسلطان من نفوذ. ومع ذلك فبمجرد إعلان استقلال بلاده عن فرنسا بادر في صوفية مثالية إلى تجديد بيعته لمحمد بن يوسف والتحق بعاصمة الرباط، وقنع بممارسة وظيفتين ساميتين سياسيتين هما على التوالي منصب سفير بلندن، ومنصب والي (محافظ) بنك المغرب بالرباط، حيث توفي وهو يمارس هذه الوظيفة الأخيرة، بعد أن ضرب طول حياته من إخلاصه ووفائه وتواضعه أروع مثال في إيثار العمل الوطني على النزوات وهمزات الشياطين، رحمه الله.

وأثناء خضوع مدينة تطوان للحكم الإسباني كان السلطان يختار خليفته من الأسرة العلوية، إذكان الخليفة الأول للسلطان هو مولاي المهدى بن إسماعيل الذي التحق بمهمته بتعيين سلطاني يوم 27 أبريل (نسيان) 1913 وخلفه ابنه الأمير مولاي الحسن بدءا من صيف سنة 1925 إلى إعلان استقلال المغرب سنة 1956. ولم يكن من الضروري أن يختار خليفة السلطان بتطوان نائبه بمناطق طرفاية وإفني والصحراء الغربية من الأسرة العلوية، وهي المناطق التي كانت تطبق فيها دائما قوانين وتنظيمات المنطقة الخليفية ولكن ظل يدعى للسلطان من أعلى منابرها كل جمعة .

نظام طنجة الدولي

وفي نطاق توزيع تركة المغرب أبرمت فرنسا وإسبانيا وبريطانيا العظمى اتفاقية باريس المؤرخة ب 18 ديسمبر (كانون الأول) سنة 1923 والتي جعلت من طنجة المغربية منطقة إدارة دولية . وقد انضمت إلى هذه الاتفاقية إيطاليا سنة 1928 .

وكانت مقتضياتها تقضي بأن يحل محل النظام البلدي الذي كان يدير شؤون المدينة نظام إدارة دولية يتمثل في قيام مجلس تشريعي دولي يتألف أعضاؤه من فرنسيين وأسبانيين (أربعة من كل صنف) وإيطاليين (ثلاثة) وأميريكي واحد، وبلجيكي واحد، وبرتغالي واحد، ونيرلاندي واحد، وستة مغاربة مسلمين، وثلاثة يهود مغاربة . ويرأسه مندوب معين من السلطان كان يحمل اسم المندوب السلطاني .

وقد كانت حكومات أسبانيا تتطلع إلى ضم طنجة للمنطقة المغربية التابعة لنفوذها أو ضمها لأسبانيا. وطرح الموضوع بصراحة للنقاش في إحدى جلسات الكورطيس (البرلمان الأسباني) خلال شهر مايو (أيار) سنة 1935، حيث طالب بعض النواب بضمها مباشرة لأسبانيا. وجاء ذلك بالخصوص علي لسان النائب كوكوشيا الذي قال : «إن طنجة مدينة لايمكن لإسبانيا أن تستغني عنها لموقعها الاستراتيجي الذي يجعل منها مركز الدفاع عن الشواطىء الإسبانية . وإنه لخطر على إسبانيا أن يصبح للسلطان نفوذ مطلق عليها».

وإذا كان صعب على إسبانيا تطبيق هذا التنظير الاستعماري في الوقت الذي كان يتحدث فيه هذا النائب، فإنها اغتنمت فرصة هزيمة فرنسا سنة 1940 أمام الجيوش الألمانية النازية الفاشية ودخول إيطاليا إلى الحرب بجانب ألمانيا وضعف بريطانيا العظمى فأعطى الجنرال فرنكو (الذي كان حليف ألمانيا وإيطاليا غير العلني) أمره للجيش باحتلال طنجة يوم 14 يونيه (حزيران) سنة 1940 بعد أن التزمت الحكومة الإسبانية لبريطانيا بالمحافظة على «حقوقها» بطنجة وأن تبقى المدينة منطقة مدنية مجردة من السلاح .

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية اضطرت أسبانيا إلى قبول الرجوع بطنجة إلى نظام الإدارة الدولية السابقة الذي فرضته على المدينة اتفاقية باريس سنة 1923،

والذي ألغاه المغرب يوم 29 أكتوبر (تشرين الأول) سنة 1956 أي في السنة الأولى من الاستقلال.

الحركة الوطنية بالشمال

عرفت منطقة الشمال أثناء خضوعها للنفوذ الإسباني أربعة أنظمة إسبانية. فقد كانت على رأس الحكم في مدريد عند إبرام الاتفاقية الفرنسية الإسبانية (27 نونبر/ تشرين الثاني 1912) حكومة ملكية مدنية هي التي عينت الجنرال فالغَارْ أول مقيم عام لإسبانيا بالمنطقة المدعوة بالخليفية .

وعرفت اسبانيا يوم 13 شتنبر (أيلول) 1923 الانقلاب العسكري الذي قام به الجنرال بريمودي ريفيرا Primo De Rivera وظل حكمه العسكري قائما إلى سنة 1930 .

وأصبح النظام جمهوريا منذ 14 أبريل (نسيان) سنة 1931 . واستمر إلى أن أعلن الجنرال فرنكو من المنطقة المغربية انقلابه يوم 14يوليه (تموز) 1936 .

وبعد أربعة أيام استقر ممثلو فرنكو بتطوان وجعلوا منها نقطة انطلاق غزو أسبانيا في الحرب الأهلية التي كلفت أسبانيا غاليا.

وخلال العهود الأربعة تمكنت الحركة الوطنية بالشمال من أن تؤمن لنفسها تعايشا مع النظم الأسبانية الحاكمة على اختلافها، ولم يكن ذلك التعايش - كما وصفه البعض - تعاونا بالمعنى التحقيري الخطير للكلمة، بل كان يستمد مفهومه من سعي الحكام الأسبانيين إلى التمكن من بسط نفوذهم على المنطقة مقابل التفاهم مع الوطنيين علي تسيير شؤونها وإدخال إصلاحات عليها بتعاون مع حكومة الخليفة، وفي جو من الحرية يستبعد كيفما كانت الظروف المس بمصالح أسبانيا ولايضع «حماية» أسبانيا موضع النقاش.

وإن استيعاب هذا المفهوم من لدن حكومات إسبانيا وحكومة الخليفة ومن الوطنيين هو الذي جعل الحركة الوطنية الشمالية لا تعرف التصادم العنيف مع أسبانيا كما عرفه المغرب (السلطاني) ملكا وشعبا طيلة فترة الحماية الفرنسية، كما أن اختلاف ظروف المنطقتين السياسية هذا حتم اختلاف أساليب العمل بين الحركتين، وفرض أحيانا عليهما ابتعاد بعضهما عن بعض في ظروف سياسية استحال معها التوفيق بين أساليب العمل.

ولا بد أن نسجل أن الحركة الوطنية في الجنوب استفادت في الظروف الحرجة من

دعم أختها بالشمال بسبب جو الانفراج والتفاهم مع أسبانيا الذي عرفته حركة الشمال . وأن المنطقة الخليفية آوت عددا كبيرا من الوطنيين الذين لجأوا إليها قادمين من الجنوب فرارا من سوط عذاب الحماية الفرنسية.

حركة إصلاحية

من مفهوم التعايش السابق يمكن القول إن الحركة الوطنية في الشمال كانت إصلاحية لم ينف زعماؤها عن أنفسهم توجهها هذا، فقد كانت تؤمن بأن قبول التعايش يمكنها من تحييد أسبانيا ليتأتى لها متابعة التنديد بالسياسة الفرنسية المطبقة في منطقة النفوذ الفرنسي. وكانت ترى أن الإطاحة بنظام الحماية الفرنسية هو الذي سيكفل تحرير المنطقة الخليفية من نفوذ الأسبان نتيجة أن الفرع يتبع الأصل.

وقد اطمأنت الحكومةالأسبانية إلى الشق الأول من هذا الاتجاه خصوصا في عهد الجنرال فرنكو وأثناء الحرب العالمية الثانية وإلى هزيمة المحور، حيث كانت للكاوديو الفاشي حفيظة مذهبية ضد الحلفاء، وحيث كانت حكومته تعتقد أن إضعاف شوكة النفوذ الفرنسي في منطقة الحماية الفرنسية يقوي من نفوذ إسبانيا على أجزاء المغرب الخاضعة لها . ولم تكن أسبانيا، وهي تبارك اتجاه وطنيي الشمال وتغازل وطنيي الجنوب أحيانا تعتقد أن قلعة الاستعمار إن تحطمت في منطقة النفوذ الفرنسي فلابد أن تسقط معها قلعتها هي، ولم تصطدم بالحقيقة إلا عندما وجدت نفسها أمام تيار التحريرالجارف، ولم يسعها إلا قبول عواقبه وتحمل آثاره مكرهة.

إرهاصات الحركة الوطنية في شمال المغرب

على عكس ما جرى في المنطقة الجنوبية التي اقتطعتها فرنسا من المغرب و بسطت عليها حمايتها فقاطعها الشعب و رفضت نخبته التفاهم معها، دشنت المنطقة الشمالية - التي خضعت للنفوذ الإسباني بمقتضى المعاهدة الفرنسية الإسبانية (27 نونبر 1912) عهدا من التقارب بين نخبتها و بين الحكام الإسبانيين تميز بالشروع في إدخال الإصلاحات و تحقيق منجزات اقتصادية و اجتماعية .

منذ البداية طبع حسن التفاهم علاقات خليفة السلطان والمقيم العام الإسباني، وأبدت إسبانيا إرادة سياسية واضحة في دعم نفوذ الخليفة والتعاون معه مقابل

الحفاظ على مصالحها بتطبيق سياسة تهدف إلى أن تعطي لنفوذها على المنطقة الصبغة الشرعية كدولة حامية بجميع ما يعطيه من اختصاصات وضع الحماية للدولة الممارسة للحماية .

وقد سارعت نخبة الشمال إلى الاستفادة من جو الانفراج الذي ساد المنطقة بالعمل على الظفر بمكاسب إصلاحية لم تتحقق نظائرها في منطقة الجنوب التي كان يسودها جو قطيعة تامة بين رجال الحماية الفرنسية وبين النخبة التي لم تكن مطمئنة إلى نوايا المسؤولين الفرنسيين، وكانت تنتظر الخلاص على يد المقاومة المسلحة التي ظلت جيوبها مؤججة النيران إلى سنة 1934 .

وبينما ظلت الإقامة العامة الإسبانية بتطوان ترقب بنوع من الحياد تقارب النخبة الوطنية مع الخليفة، كانت الإقامة العامة بالرباط تراهن على عزل السلطان في قصره، والعمل على الوشاية إليه بالوطنيين، وقذفهم بتهمة التمرد عليه، الشيء الذي زاد في توسيع الهوة بين النخبة المغربية و «الحماة» الفرنسيين .

ولئن كانت إسبانيا مهتمة أكثر ما يكون الاهتمام بأن يطبع نفوذها على المنطقة نوع من رعاية أبوية شجعته النخبة الشمالية بضربها هي أيضا على وتر «التآخي مع الدولة الإسبانية الفخيمة التي ألحمت ارتباطها بشعب المغرب وشائج تاريخية حضارية» فإن سياسة فرنسا في المنطقة التي خضعت لحمايتها تجلت منذ البداية على أنها سياسة عداء وكراهية للمغرب ساعية لتمزيق كيانه وهادفة لأن تقيم فيه حكما مباشرا يتعارض مع اتفاقية الحماية نصا وروحا .

تعاون في الشمال ومقاطعة في الجنوب

إن هذه النوعية التي ميزت الاستعمار الإسباني في الشمال المغربي عن الاستعمار الفرنسي في الجنوب هي التي جعلت الوطنيين - ولما تمض إلا سنوات معدودات على بسط النفوذ الإسباني على منطقتهم - لا يستنكفون من قبول تعاون شريف مع السلطات الإسبانية، مقابل الحصول على مكاسب إصلاحية .

في أواخر سنة 1916 أسس الحاج عبد السلام بنونة - وهو رائد وطني كبير- مؤسسة إصلاحية باسم المجمع العلمي المغربي ورضي أن يكون من بين أعضائها خمسة إسبانيين اختيروا من بين سبعة أسماء اقترحهم المقيم العام الإسباني .

وتدرج هذا القائد الوطني على درب التعاون مع السلطات الإسبانية، ولكن في

إطار المؤسسات المغربية المشمولة بنفوذ خليفة السلطان المؤتمن على الشرعية في الشمال والذي أصبح سنة بعد أخرى يبتعد عن نفوذ الرباط، ويتخذ قراراته بكامل الاستقلال تحت رقابة الحماية الإسبانية وحدها .

دخل بنونة الوظيفة العمومية ثلاث سنوات بعد وقوع المنطقة الشمالية تحت الحكم الإسباني، فأصبح أمين الأملاك المخزنية (هي وظيفة القيّم على ممتلكات الدولة، وكان يتبع وزير المالية) فمحتسب تطوان (احتفظ المغرب إلى اليوم بوظيفة الحسبة المعروفة في النظام الإسلامي) وقبل بدون تردد أن توشحه حكومة إسبانيا بوسام إيزابيلا الكاثوليكية من درجة فارس، تقديرا لنجاحه في ممارسة وظيفته، ثم تقلد منصب وزير المالية في حكومة خليفة السلطان التي كانت خاضعة للمراقبة الإسبانية .

وقد أصبح هذا النوع من التعايش الإيجابي مميزا للحركة الوطنية الشمالية ومشخّصا في تنظير فلسفي أو مذهبي وقع التنصيص عليه بصراحة في أول وثيقة وطنية سياسية مؤرخة بفاتح مايو (أيار) 1931 قدمتها الحركة الوطنية إلى أول حكومة إسبانية أنشئت في بداية العهد الجمهوري الذي جاء بعد سقوط النظام الملكي يوم 14 أبريل (نيسان) 1931، أعني وثيقة «ميثاق المطالب الوطنية» التي أمضت عليها 800 شخصية مغربية تمثيلية، وقدمتها الحركة الوطنية الشمالية يوم ثامن يونيه 1931 إلى رئيس الجمهورية الإسبانية الأول الكلاسامورا (Alcala Zamora) وجاء فيها التنصيص على «ضرورة مشاركة الحامي والمحمي المتحدين حول مصلحة واحدة مشتركة تجعل من الطرفين عائلة واحدة، الشيء الذي سجله التاريخ في جميع عهوده» .

ومن منطلق هذا التنظير شاركت قيادات وشخصيات وطنية في حكومة خليفة السلطان كان من بينها المرحوم محمد داود، والمرحوم التهامي الوزاني، والمرحوم عبد الله جنون، وحتى الزعيم المرحوم عبد الخالق الطريس الذي عين سنة 1934 مديرا للأحباس (الأوقاف) فوزيرا للأوقاف سنة 1936، ثم وزيرا للشؤون الاجتماعية سنة 1954 . ولم يكن هذا التعاون يبدو مخلا بالالتزام الوطني، و لا متعارضا معه،بينما كان مستبعدا في منطقة الحماية الفرنسية من أي وطني أن يقبل تقلد أي منصب سياسي خاضع للرقابة الفرنسية .

بل إن الزمرة الأولى المعدودة على رؤوس الأصابع التي غشيت في منطقة الجنوب قبل الثلاثينات الإدارة المغربية، أي قبل ظهور التيار الوطني، ابتعدت عن

الإدارة معتبرة أن عملها بها ولو كان غير ذي صبغة سياسية يتنافى مع الالتزام الوطني، ونذكر منها على سبيل المثال عبد اللطيف الصبيحي فاضح سر الظهير البربري، ومحمد اليزيدي، كما أن أغلبية خريجي جامعة القرويين والمعاهد الفرنسية العليا انصرفت عن العمل الإداري للانقطاع للنشاط الوطني .

ويذكر المرحوم علال الفاسي في كتابه «الحركات الاستقلالية» أنه عرض عليه في الثلاثينات منصب وزير العدل فرفضه، كما أذكر أني في الأربعينات رفضت منصب القضاء الذي عرضته علي الإدارة الشريفة التابعة للإقامة العامة بالرباط، بعد أن شطبت علي إدارة التعليم الفرنسية - وأنا أستاذ في المعهد الملكي بالرباط - من قائمة أساتذة التعليم لتورطي في أحداث المطالبة بالاستقلال مما سأتحدث عنه في إبانه.

وحين كان لا ينظر إلى وزراء الخليفة نظرة ازدراء أو تحفظ في الشمال، فإن وزراء المخزن كانوا غير مقبولين في الجنوب. وبينما كان وزراء الخليفة موضوع ثقته، كان السلطان في الرباط يتعامل مع بعض وزرائه بالحذر والتحفظ ممن كانوا يضعون رجلا في القصر الملكي ورجلا في الإقامة العامة .

ولم يكن يتصور في ذهن وطنيي الجنوب أن يقبل أي وطني وساما فرنسيا وبالأحرى وساما كاثوليكيا، فأحد شعرائنا قال آنذاك :

ما عُلِّقت في صدور القوم أوسمةٌ إلا جزاء على فتك بأوطان

كما أن مغاربة الجنوب رفضوا التعاون مع الحماية الفرنسية في مجالس مغربية فرنسية مشتركة، وقاطعوا المجالس البلدية التي كانت الحماية الفرنسية تختار أعضاءها بالتعيين، أو تعينهم بانتخاب موجه دائما ومزور أحيانا .

مبدأ المشاركة

ويقول منظرو الحركة الوطنية الشمالية إنه لا يعقل قياس وضع الشمال المتميز بالخصوصية الإسبانية على وضع الجنوب الشاذ المتميز بالتعنت الفرنسي المتطاول على السيادة المغربية، وأن الفرق بين الوضعين يكمن خاصة في سعي ساسة إسبانيا إلى بسط يد التعاون إلى الوطنيين ورفض ساسة الحماية الفرنسية مبدأ التعاون مع رجال الحركة الوطنية، وفي أن وطني الشمال كانوا يعتقدون في حسن نية الساسة الإسبانيين الذين لم تكن أعمالهم تتعارض مع التصريحات المفصحة عن نواياهم .

ويضيفون أن ذلك التعاون الشريف أنتج ثماره التي جنتها الحركة الوطنية لصالح تطور الشمال وازدهاره، وجنّب المنطقة الخليفية اصطدام العنف الذي لم يعرف انقطاعا في أختها السلطانية، والذي كلف الوطنيين فادح التضحيات .

ونحن هنا نشير بالخصوص إلى وثائق حزب الإصلاح الوطني التي حرصت على إبراز تعارض وضع الشمال مع وضع الجنوب ،وبالخصوص إلى ماجاء في كتب أخينا محمد بن عزوز حكيم المتضمنة لوثائق هامة عن منطقة الشمال .

ومما لاشك فيه أن هذا التعاون الذي أسميه بالتعايش الإيجابي أمكنه أن ينتزع من السلطات الإسبانية قرارات السماح بإقامة مؤسسات تربوية وثقافية وعلمية وإعلامية، ومنشآت اقتصادية سبق بها الشمال الجنوب، كما مكن الحركة الوطنية الشمالية من العمل في العلن، ومن إنشاء تنظيماتها على سمع الإدارة الإسبانية وتحت بصرها ، بل ساعد على أن تسبق منطقة الشمال منطقة الجنوب إلى خلق الأحزاب المعترف بها ، وعلي أن تكون لها - بدءا من أواخر العشرينات - صحافة لا تكمّم أفواهُها ولا تبيض الرقابة صفحاتها ، ولا يُلاحَق مديروها ومحرروها بالمضايقات البوليسية والمتابعات القضائية، وهو ماكان يطبع تصرفات الحماية الفرنسية في منطقة نفوذها ، كما أن قادة الحركة الوطنية في الشمال لم يدخلوا في تجربة القوة والعنف التي لم تنقطع في الجنوب والتي لم يسلم أي وطني من شرورها.

وفي إطار هذه السياسة التعايشية كانت منطقة الشمال أسبق إلى إرسال البعثات الطلابية إلى الخارج، وخاصة المشرق العربي الذي وفدت عليه أول بعثة تطوانية سنة 1928 والتحقت بمعهد النجاح بنابلس على أرض فلسطين العربية، وهو المعهد الذي كان يديره المربي الفلسطيني محمد عزة دروزه .

ومن الخصوصيات الإسبانية قبول حكومة مدريد توجه مغاربة الشمال للدراسة في المشرق العربي الذي كان الوطنيون الشماليون يفضلون تعليمه على التعليم الإسباني، لأن تعليم المشرق - كما كتب المرحوم الحاج عبد السلام بنونة - هو الذي «يحافظ على هوية المغاربة الثقافية، ويربي الناشئة على القيم الإسلامية» .

وكان بنونة يفضل توجيه الطلبة إلى فلسطين بدلا عن مصر التي قال عنها : «إنها مملوءة بالملاهي وبالأحزاب السياسية وبالجرائد الشاغلة للطلبة عن متابعة دراستهم بكامل الانقطاع إلى الدرس والتحصيل»، مصر التي كانت سبق إليها طلبة من الجنوب نذكر من بينهم الحسن بوعياد ، وأحمد بلافريج، و المكي الناصري، ولكنهم لم يوجهوا إليها كبعثة طلابية مأذون لها من سلطات الحماية .

ومفارقة أخرى سجلها تنظيم الحركتين الوطنيتين بالشمال والجنوب تظهر في سبق الأولى إلى إقامة تنظيمات انطلقت نواتها منذ سنة 1916 على يد الحاج عبد السلام بنونة، في الوقت الذي كان فيه الجنوب محاصرا عسكريا وخاضعا للأحكام العرفية، وكان فيه اهتمام الحماية الفرنسية منصرفا إلى تطويع المغرب بالتوغل العسكري الذي أطلق عليه الاصطلاح الاستعماري اسم التهدئة (pacification) المغربية .

الإتصال بين جناحي الحركة الوطنية

يمكن أن نؤرخ بداية الاتصال بين وطنيي المنطقتين بلقاء الفريقين على صعيد جامعة القرويين بفاس طيلة العشرينات، وخاصة في نهايتها عندما شرعت الحركة الوطنية بالجنوب في تنظيماتها السرية الأولى، إذ في رحاب الجامعة كان يدرس إلى جانب الطلبة المنتمين إلى الجنوب أفواج من زملائهم قدموا من الشمال، حيث كانت القرويين المنارة العلمية التي يهفو إلى حلقات دروسها المغاربة من كل جزء من أجزاء المغرب قبل أن ينكب بالتقسيم الاستعماري، وظل الأمر كذلك إلى أن تكرست القطيعة بين المنطقتين الشمالية والجنوبية بدءا بالخصوص من أواخر الثلاثينات عند قيام نظام فرنكو .

محمد داود وعبد الله جنون وأحمد بن تاويت والطيب بنونة وعبد الخالق الطريس وغيرهم، كلهم وردوا من الشمال للدراسة بالقرويين، كما ورد على فاس قبلهم للدراسة بهذه الجامعة محمد عبد الكريم الخطابي وآخرون من قرنائه وزملائه من سكان الريف وقبائل الشمال .

كتب بنونة إلى ولده الطيبو(كما ورد في كتاب محمد ابن عزوز حكيم المعنون بـ «أب الحركة الوطنية) يتحدث عن طلبة الشمال الذين كانوا يدرسون بفاس وعادوا لقضاء عطلة العيد فقال :«كل الطلبة الذين يقرأون بفاس قدموا إلى الشمال. ويسرني جدا أ ن أخبرك بوجود الحركة الفكرية فيهم واهتمامهم بالنهضة العلمية وإصلاح التعليم، وربما اتخذناهم عضدا لنا في تأسيس بعض المهمات، وإني أتمنى أن يسافر كذلك من بقي من الطلبة النجباء في تطوان لتغيير أفكارهم، وليخرجوا من ربقة الجمود والتقليد الأعمى» .

والذين وردوا على القرويين في أواخر العشرينات من طلبة الشمال عاشوا ميلاد

تنظيمات الحركة الوطنية السرية وارتبطوا مع إخوانهم بالجنوب بصلات حميمة، وتكاشفوا فيما بينهم على أن يعمل كل جناح من جناحي المغرب المهيض على تطوير العمل الوطني لخدمة المغرب الواحد، ولكن بالوسائل المتاحة لكل منهما .

ولنذكر هنا بما سبق أن أشرنا إليه من مشاركة وطنيين من الشمال في أول تنظيم وطني سياسي نشأ بالجنوب تحت اسم «حماة الحقيقة» وكان مقره بالرباط، وكان أمينه هو المكي الناصري الذي التحق فميا بعد بمنطقة الشمال واستقر بها وأسس حزب الوحدة المغربية .

وبسبب سياسة تفاهم الوطنيين بالشمال مع الحكام الإسبانيين سبقت منطقة الشمال أختها الجنوبية في ميدان الصحافة بإصدار الزعيم بنونة مجلة «الإصلاح» التي يرجع تاريخ صدورها إلى سنة 1917 أي بعد خمس سنوات فقط خلت على بسط النفوذ الإسباني . وكانت «الإصلاح» تنطق باسم مؤسسة المجمع العلمي المغربي التي أشرنا إليها، كما أصدر محمد داود سنة 1933 مجلة «السلام» وتلتها خلال سنة 1934 جريدة «الحياة» التي أصدرها عبد الخالق الطريس، و مجلة (المغرب الجديد) التي كان يشرف عليها في تطوان المكي الناصري، وهذا بينما لم تكن تصدر في هذه الفترة في الجنوب إلا جريدة «عمل الشعب» (L'action du peuple) تحت طائلة المضايقات والمتابعات التي تعرضت لها من سلطات الإقامة العامة بالرباط والتي أفضت إلى توقفها عن الصدور .

سبق الشمال أيضا إلى تأسيس تنظيم وطني سياسي في أواخر سنة 1931 باسم «الهيأة الوطنية الأولى» . ولم تكن سريته تضاهي سرية التنظيم الوطني الأول بالغ التستر الذي نشأ في الجنوب، ثم شكل الوطنيون في الشمال هيأة أخرى حملت اسم «الهيأة الوطنية الثانية» وكانت لها تنظيمات جزئية علنية وأخرى سرية، وكانت تعرف بإسم المركز أو أهل الديوان . وهي الهيأة التي رأسها المرحوم عبد الخالق الطريس وتولى أمانتها العامة المرحوم التهامي الوزاني، وأمانتها المالية عبد السلام ابن جلون وضمت ما يناهز الثلاثين قائدا من بينهم عبد السلام بنونة، والمكي الناصري، ومحمد داود .

وإذا لم يكن ميسورا أن يقوم بين الحركتين الوطنيتين تنسيق محكم بسبب الحواجز التي فصلت بين المنطقتين، والتي أصبحت بتوالي السنين صعبة الاختراق والتجاوز، فإن مواقف مشتركة جمعت بينهما في مناسبات سياسية جعلتهما إلى حين قيام عهد الجنرال فرنكو تلتقيان في خطاب سياسي موحد .

كانت الحركتان تقيمان في آن واحد ذكرى الاحتجاج على الظهير البربري في يوم 16 مايو (أيار) من كل سنة . وكانت برقيات الاحتجاج تفد من الوطنيين بتطوان على السلطان وعلى المقيم العام بالرباط وتوجه كذلك إلى وزارة الخارجية الفرنسية .

واحتجت الحركة الوطنية بالشمال لدى فرنسا على القرار الفرنسي الذي ألحق اختصاصات علاقات المغرب مع فرنسا بوزارة المستعمرات أو بلدان «ما وراء البحار»، وكانت من قبل من اختصاصات وزارة الخارجية الفرنسية أو نيابة كتابة الدولة في الخارجية المكلفة بشؤون الحماية والانتداب، أو وزارة الشؤون المغربية والتونسية.

وكان السلطان محمد بن يوسف قد احتج على هذا التدبير، كما احتج عليه الوطنيون في الجنوب . ونفس الاحتجاج جاء من وطنيي الشمال تضامنا مع احتجاج إخوانهم بالجنوب على نقل رفات المرشال ليوطي من باريس إلى الرباط .

وعندما أعلنت «كتلة العمل الوطني» بالجنوب سنة 1934 عن مطالب الشعب المغربي أو برنامج الإصلاحات المغربية بادرت «الهيأة الوطنية الثانية» بالشمال إلى تأييد الكتلة ببعث برقيات إلى السلطان والمقيم العام بالرباط ووزير خارجية فرنسا . وبعد سنتين من تأسيس الكتلة بالجنوب تبنى وطنيو الشمال نفس الاسم فدعوا حركتهم «كتلة العمل الوطني بالشمال» .

ورغم الحصار المضروب على الجنوب كان الوطنيون يعملون لتوثيق الاتصال بإخوانهم في الشمال من خلال الزيارات التي كانوا ينجحون في ظروف صعبة في القيام بها إلى تطوان . كان طلبة باريس يعرجون على تطوان في الذهاب والإياب إلى المغرب، وزار المرحوم محمد حسن الوزاني تطوان أكثر من مرة في بداية الثلاثينات، وتوقف بها المرحوم الحاج عمر ابن عبد الجليل قبل ذهابه في مهمة وطنية إلى باريس، وعاد مرة إليها صحبة الوزاني للاتصال بحكومة مدريد وباريس في مهمة بالغة الخطورة بعد أن أصبحت حكومة مدريد الجمهورية مهددة بقيام حركة الجنرال فرنكو التي أرعبت الحكومتين وزادت من تخوفهما من خطر الفاشية .

كما أن المرحوم علال الفاسي زار تطوان في صيف سنة 1933 ضمن الرحلة التي قام بها للخارج وربما - على ما أظن - كانت رحلته الأولى خارج المغرب .

وفي هذه الفترة التي نتحدث عنها ظل وطنيو الشمال يلعبون دورا هاما في اختراق الحدود المفتعلة الفاصلة بين المنطقتين ،إذ كانوا يفيضون على الجنوب من حسنات الانفراج السائد في الشمال فيوجهون إلى إخوانهم بالجنوب بواسطة البريد

الإنجليزي مجموعات من الكتب والصحف التي كانت تعترض سبيلها إلى الجنوب سلطات الحماية الفرنسية، كما كانوا يزودون الحركة الوطنية بالجنوب - داخل ظروف مختومة وبواسطة البريد الأنجليزي - بقصاصات الصحف التي كانوا يرون أن العمل الوطني في حاجة إلى متابعتها للاستفادة منها .

ومما كان يساعد الحركة الوطنية بالشمال على الحصول على الوثائق ارتباطها بعلاقات ودية مع الأحزاب السياسية والصحافة الإسبانية ومع منظمات إسبانية متنوعة النشاطات. وكانت هذه الهيآت متصلة بدورها مع الهيآت الفرنسية المماثلة، فالنظام الجمهوري في هذه الفترة كان متعاطفا مع النظام الفرنسي .

وفي وثائق الحركة الوطنية بالشمال ما يؤكد أن الحركتين قد فكرتا سنة 1935 في إضرام ثورة مسلحة على الحماية الفرنسية تنطلق من الشمال، يعبئ وطنيو الشمال رجالها المسلحين، ويمولها وطنيو الجنوب، مما يعني أن الحركتين التحمتا في عمل موحد لتقويض نظام الحماية الفرنسية الذي كان وراء تقسيم البلد، ليستعيد المغرب وحدته وسيادته .

حركة فرانكو وتأثيرها على المغرب

كان لحركة الانقلاب على النظام الجمهوري الإسباني (التي قادها الجنرال فرنكو (Franço) وأعلن عنها يوم 14 يوليه (تموز) سنة 1936) تأثير بالغ الأهمية على مجرى الأحداث العالمية، وخاصة في دول أوروبا الغربية، وأقطار الشمال الإفريقي، والمشرق العربي .

وكان المغرب في طليعة أقطار شمال إفريقيا تأثرا بالحدث، ولا سيما منطقة الشمال المغربي، بحكم أنها أصبحت منطلق زحف قوات الجنرال على إسبانيا للإطاحة بحكومة مدريد الجمهورية .

من حامية إسبانية كانت مرابطة بكتامة بالمنطقة الخليفية و كان الجنرال رئيسها كما كانت تضم إلى جانب الجنود الإسبان فرقة مغربية من سكان الريف (شمال المغرب) كون الجنرال نواة جيشه المتمرد، ومن الجنود الريفيين اختار حراسه الشخصيين، اطمئنانا منه لوفائهم حتى لقد كان يقول إنهم أكثر إخلاصا له وأشد وفاء من ذويه . وعلى بطولة هذه الفرقة واستماتتها - كما هو معهود في الجنود المغاربة - اعتمد لكسب معارك حاسمة حقق بها انتصاره الساحق على الجيش

الإسباني النظامي، مما انتهى به إلى دخول مدريد وترسيخ نظامه الذي استمر أزيد من أربعين سنة وإلى سنة 1975.

بعد مرور أربعة أيام على إعلان الانقلاب استقر ممثلوه بتطوان وفرضوا سلطتهم على الشمال المغربي، ولم يكن في وسع خليفة السلطان إلا التعامل مع العهد الجديد، بعد أن احتج على اختيار فرنكو منطقة الشمال منطلقا لزحفه على إسبانيا.

وهل كان الخليفة يقدر أن يناهض الأمر الواقع المفروض بقوة السلاح؟ وهل كان من المصلحة أن يزج بحكومته في موضوع تعارض فئتين إسبانيتين وانقسامهما في صراع دام لا شأن للمغرب فيه ؟.

ومنذ بداية التعامل الرسمي سارع ممثلو فرنكو إلى خَطْب ود الخليفة والتقرب من حكومته، ولوحوا للوطنيين باستعداد العهد الجديد لتدشين تعاون صادق معهم، لتحقيق مطالبهم التي ترددت حكومات الجمهورية الإسبانية المتعاقبة في تلبيتها .

وفعلا أتبع نظام فرنكو وعده بالتنفيذ، فأعطى للمنطقة الشمالية المزيد من الحريات، وشجع على تأسيس الأحزاب السياسية، وقدم الدعم المادي و المعنوي لصحافتها . وتعاطف وطنيو الشمال بدورهم مع النظام الجديد و استبشروا خيرا بسياسته المنفتحة و رأوا في مساندة حركة الجنرال منفذا إلى تثبيت أقدامهم على الساحة السياسية بشمال المغرب، ومنطلقا لمساعدة «كتلة العمل الوطني» التي كانت تعاني في الجنوب من ضراوة الاستعمار الفرنسي .

ومن إذاعة تطوان كانت تنطلق البرامج العربية الموجهة للجنوب المغربي مبشرة بحسنات العهد الجديد، وكان يساهم في إعدادها نخبة من شباب مغاربة الشمال، وكانت تضرب على نغمة واحدة مع إذاعة راديو اشبيلية التي كانت توجه بدورها للجنوب برامج مثيرة .

وقد كان للدعاية الموجهة من الإذاعتين تأثير على الجنوب الذي كان يتطلع إلى الخلاص، ويقارن بحسرة ومرارة بين جو الاختناق المفروض عليه، وبين جو الانفتاح السائد في الشمال .

تخوفات فرنسية

أما في منطقة الجنوب الخاضعة للحماية الفرنسية، فقد كان وضع الشمال وتقدم زحف فرنكو داخل التراب الإسباني مثيرين لقلق الحكام الفرنسيين مثلما كانا مثيرين لقلق الحكومة الفرنسية نفسها .

كان لفرنسا قبل قيام نظام فرنكو اقتناع بأن مطامع ألمانيا القديمة في المغرب التي عملت فرنسا لتسويتها في الصفقة الدولية عادت مع قيام النظام النازي الهيتليري، وأن إيطاليا حليفته تساورها هي الأخرى أطماع مماثلة .

وتأكد للحكومة الفرنسية أن وراء حركة فرنكو سنداً ألمانيا إيطاليا وأن الحركة تدين بالولاء للنظام النازي الفاشي. وكانت فرنسا في هذه الفترة تعاني - حكومة واحزابا ومنظمات - من خطر التحولات الجذرية التي عرفتها ألمانيا، وتتابع بقلق بالغ تطورات النظام النازي، وتعبئ قواتها لمواجهة كل احتمال، بل لقد ساد فرنسا نوع من الوسواس جعلها تتمثل الخطر الفاشي في كل مكان وتتوقع زحفه من كل جانب .وبلغت إلى حكومة فرنسا تقارير عن سعي النظام النازي إلى الحصول على فوائد منجمية يفتقدها، وأن حكومة الريخ الثالث متحلبة الأشداق لاحتكار النحاس المغربي بمنطقة الشمال، وظلت فرنسا تراقب بمنتهى القلق اختراق البواخر الألمانية مياه المنطقة المغربية ورسوّها بموانيها . وبلغ إلى علمها تسرب جواسيس نازيين إلى مدن الشمال المغربي وتوزيعهم منشورات مثيرة للسكان تقول التقارير عنها إنها نزلت مخبوءة في طرود بشواطئ المنطقة الشمالية تحت بصر الحراسة الإسبانية المتواطئة، وتضيف أن هذه المطبوعات تتضمن دعوات صريحة إلى التعاون مع ألمانيا لمناهضة السامية ومطاردة اليهود وأنها تحرض سكان المنطقة الشمالية على مناصرة نظام فرنكو والتعاون معه ضد تسلط الحماية الفرنسية .

وكانت وراء هذه التقارير الإقامة العامة بالرباط، وخاصة إدارة الشؤون الأهلية التي دشنت - منذ سنة 1935 (أي قبل قيام نظام فرنكو)- حملة تكييف وإثارة على حكومة باريس ببعثها تقارير عن الخطر الألماني على المغرب، ثم مكنها قيام نظام فرنكو من العناصر التي كانت تفتقدها لتأكيد توقعاتها ولربط ذلك كله باتهام «كتلة العمل الوطني» بتآمرها مع أعداء فرنسا .

وقد سار المقيم العام الجنرال نوجيس على نفس النهج فأخذ منذ وصوله للرباط يوجه إلى حكومته تقارير تؤكد تسرب الحركة الفاشية النازية إلى المنطقة السلطانية ووجود عملاء نازيين يتصلون ببعض الوطنيين . كما عاب مسؤولو الحماية على «كتلة العمل الوطني» احتفاظها بعلاقتها مع وطنيي الشمال رغم أنهم أيدوا حركة فرنكو، واستمرار اتصالاتها بالأمير شكيب أرسلان الذي نسبوا إليه هو أيضا التعامل مع الفاشية وتأييده لحركة فرنكو على صفحات مجلته «الأمة العربية» .

ضغوط على وطنيي الجنوب

وتحت ضغط التخوف من الخطر النازي وباسم تكتيل فرنسا والأقطار التابعة لها أخذت حركة اليسار في فرنسا تحث وطنيي هذه الأقطار على تضامنهم مع حركة مناهضة الخطر النازي وإعطاء هذا الهدف الأسبقية في كفاحهم الوطني . وكان اليسار يمارس هذا الضغط الودي في الوقت الذي أخذ فيه اليمين الفرنسي يتساءل عن موقف وطنيي منطقة الحماية الفرنسية من خطر النازية التي أصبحت بلادهم هدفها ويشير إليهم بأصابع الاتهام .

وحتى في أقصى اليسار وبين صفوف الحزب الشيوعي الذي كان فرعه يتحرك بالمغرب انطلقت صيحات تنبيه لخطر احتمال تحول الوطنيين إلى وجهة فرنكو بسبب سياسة التصلب التي تواجه بها الحماية مطالبهم .

هكذا توجه ديلماس (Delmas) أحد القادة الشيوعيين إلى ليون بلوم الاشتراكي رئيس حكومة الجبهة الشعبية برسالة مؤرخة ب 17 نونبر 1936 يقول فيها «أيها الرفاق، إذا لم تقوموا بأي عمل لصالح الأهالي(indigénes) المغاربة، فإنكم ستقدمونهم للفاشيين، أي لفرنكو و موسوليني و هيتلر الذين يقومون داخل هذه البلاد بحركة معادية لنا تدبر في غالب الأحيان بمباركة سلطات الحماية و حتى الجيش الفرنسي المرابط في المغرب».

و بذلك أصبحت فرنسا تحسب كل صيحة عليها، و أقبل أبناؤها بعضهم على بعض يتلاومون .

و في ضمن هذا الاتجاه نضع تدابير القمع التي قامت بها سلطات الحماية ضد الحركة الوطنية عندما قررت هذه العمل المباشر بالتظاهر في الشوارع . و كانت تلك السلطات تنوي تقديم الزعماء الثلاثة (علال الفاسي، و محمد الوزاني، و محمد اليزيدي) للمحاكمة بتهمة تحركهم بيد أجنبية ضد فرنسا.

و ضمن سياسة اليسار الفرنسي الهادفة لاستقطاب التكتل ضد النازية لبى زعماء شمال إفريقيا دعوته للحضور في تجمع شعبي بباريس. و صادف انعقاد التجمع وجود الزعماء الثلاثة سابقي الذكر في معتقل الدار البيضاء، فمثل المغرب

فيه المرحوم الحاج عمر ابن عبد الجليل، كما مُثلت فيه تونس بالهادي نـــــــويرة، و الجزائر بالمرحوم مصالي الحاج.

و كانت لافتات التجمع تحمل هذه الشعارات:«زحفت الفاشية على إسبانيـــا، و المغرب هدفها المقبل»، «الإسلام في مواجهة هيتلير و موسوليني»،«عملاء الفاشية يعملون في شمال إفريقيا و في الشرق الأوسط» . و صدرت في ختام الاجتماع توصيات من بينها نداء إلى الوطنيين في الأقطار التابعة لفرنسا لإعلان مناهضتهم للفاشية، كما تضمن البيان الختامي أن «العربي لا يمكن أن يكون فاشيا، لأنه ديمقراطي بطبعه».

الوطنيون يرفضون الالتباس

في ثاني ديسمبر 1936 نشر الحاج عمر ابن عبد الجليل وثيقة بالفرنسية بعنوان «من أجل إعادة الحقيقة إلى نصابها "(Pour rétablir la vérité) جاء فيها:

« إننا نحن الوطنيين لا ننتظر شيئا من الفاشيين، و إن حلفاءنا الطبيعيين هم أحزاب الديمقراطية، و نحن لا علاقة لنا من قريب أوبعيد مع الحركة التي قام بها فرنكو».

وأفسحت في نفس التاريخ للمرحوم عبد القادر برادة جـــ

ريدة " تلغراف فاس" (La Dépeche de Fés) منبرها الحر الذي كان يكتب فيه من لا تتفق آراؤهم مع خطة الجريدة. فكتب :

«إن حركة الجنرال فرنكو لن تستهوينا قط، و لن تخدعنا أبدا، و لن يكون لها علينا من قريب أو بعيد أي تأثير».

و من المشرق العربي في سوريا و لبنان وجه الزعيم رياض الصلح رسالة مفتوحة إلى المغاربة و إلى أبناء الريف خاصة ليتخلوا عن التأثر بسياسة فرنكو و ليمتنعوا من اللحاق بجيشه.

السلطان يتحفظ

أما سلطان المغرب محمد بن يوسف فقد بادر منذ إعلان حركة التمرد الإسبانية إلى إعلان استنكاره للزج برعاياه في جيش فرنكو، و أصدر ظهيرا (الظهير مرسوم ملكي) يمنع المغاربة من العمل فيه، و أبدى تعاطفه مع الديمقراطيين المناهضين

للفاشية، و أذن بتتبع حركتها حتى لا تتسرب إلى المغرب .

و لكن الذي لم يملك السلطان مناهضته هو واقع المنطقة الخليفية التي انعدمت سلطته عليها و التي أصبحت إسبانيا فيها بمرور السنين تتعامل مع حكومة الخليفة على أساس استقلالها عن نفوذ الرباط.

و حتى وطنيو الشمال لم يملكوا أن يغيروا هذا الاتجاه و إن احتفظوا دائما بالولاء للسلطان و للعرش العلوي، بل انهم سايروه بتورطهم في مظاهر تكرس فعليا استقلال المنطقة، و منها احتفالهم ب «عيد جلوس سمو الخليفة» الذي دشن في تطوان سنة 1935، أي قبل قيام النظام الفرنكوي بسنة، إلى جانب احتفالهم بعيد العرش الذي يخلد ذكرى جلوس السلطان.

.. و الوطنيون بالجنوب يتحركون

كانت حركة " كتلة العمل الوطني " بالجنوب مقتنعة بخطر الفاشية على المغرب و غير مطمئنة إلى نوايا الجنرال فرنكو رغم ما أبداه نظامه من حسن التفاهم و التعاون مع الحركة الوطنية الشمالية، و كانت تأمل في نفس الوقت أن تنتج السياسة الواقعية التي انتهجها الإخوة في الشمال نتائج طيبة لفائدة المغرب، فاقترح زعماء الجنوب على زعماء الشمال تنويع وسائل العمل الوطني، و أن تقوم هيأة كل منطقة بمسؤوليتها في التحرير بالطريقة المتاحة لها.

ففي رسالة «كتلة العمل الوطني» الموجهة في هذا الصدد إلى الحركة الوطنية الشمالية نقرأ ما يلي :

« لا يمكننا أن نتفق في كل الوسائل التي نستعملها، و لا أن نتضامن في كل الأحوال. و غاية ما في الإمكان هو أن نحدد أسسا عامة للوطنية المغربية، و نترك لكل منطقة الحرية التامة في اختيار أساليبها الخاصة لخدمة المبادئ الوطنية العامة على أن لا تتحمل منطقة مسؤولية ما يجرى في الأخرى.»

و كان القاسم المشترك الذي يشكل الحد الأدنى للأسس العامة للعمل الوطني كما حدده وطنيو الجنوب هو :

1) سيادة السلطان على تراب المنطقتين حتى يبقى المغرب واحدا قانونيا و إن لم يكن فعليا.

2) العمل لتوحيد المغرب.

3) العمل للتحرير من الاستعمارين الفرنسي و الإسباني.
4) التشبث بهوية المغرب العربية الإسلامية.

و بمقتضى هذه الخطة اقتصرت كتلة العمل الوطني على بعث ملاحظ (الحاج الحسن بوعياد) ليحضر مؤتمر جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين الذي احتضنه وطنيو تطوان ورعته السلطات الإسبانية بعد أن كان المقيم العام الفرنسي مارسيل بيروطون قد منع إقامته بالرباط .

التفكير في الثورة

و بعد هذه العملية التنسيقية بين جناحي العمل الوطني و عندما كانت الحرب الأهلية الإسبانية على أشدها، و قبل أن تحسم لصالح الجنرال فرنكو نضجت لدى زعماء " كتلة العمل الوطني " فكرة أيدها أصدقاؤهم في اليسار الفرنسي، و مهدوا لهم سبل الاتصال بحكومة الجمهورية الإسبانية لتشجيعها، على أن يتم تخطيط الثورة من مقر كتلة العمل الوطني بفاس، و يمارَس تنفيذُها بمنطقة الشمال. و جرى اتصال رسمي بين وفد " الكتلة الوطنية " في إسبانيا ممثلا بمحمد حسن الوزاني و عمر ابن عبد الجليل، و بين حكومة الجمهورية الإسبانية ممثلة بوزرائها في الخارجية و الحربية و المالية .

و قد انتهت مفاوضات الجانبين بتوقيع اتفاقية من بين ما نصت عليه تسليم حكومة إسبانيا لوفد الكتلة الخرائط الاستراتيجية لمنطقة الشمال للاستفادة منها في تخطيط الوطنيين بفاس للثورة التي تم الاتفاق على مبدئها.

و بباريس قام اليسار، و خاصة قادة منظمة الاتحاد العام للشغل (C. G . T) بالاتصال بحكومة الجبهة الشعبية لإطلاعها على مشروع الثورة و استصدار مباركتها لها. و كانت حكومة إسبانيا تسعى لدى فرنسا لنفس الهدف، لكن وزير مالية إسبانيا و هو زعيم اشتراكي أبلغ الوفد المغربي الذي كان يقيم ببرشلونة رفض فرنسا للفكرة.

و لم يكن ينتظر من فرنسا موقف مغاير، لأنها أدركت خطر الثورة المقترحة على مصالحها في المغرب . و فعلا فإن تخطيط الكتلة الذي لم تعلن عنه كان يستهدف انطلاقة الثورة من الشمال لتمتد تحريرية إلى الجنوب.

و إثر رفض فرنسا هذا بادرت حكومتها إلى تعيين الجنرال نوجيس على رأس

الإقامة العامة بالرباط. و ربما كان هذا سببا آخر لاختياره يضاف إلى الأسباب التي سبق أن أشرنا إليها.

وعد فرنكو

قبل أن يستتب الأمر لفرنكو استقبل باشبيلية - التي اتخذ منها عاصمة مؤقتة- وفدا حكوميا شعبيا يمثل خليفة السلطان و وطنيي الشمال و وعدهم بمنحه المنطقة حكما ذاتيا بمجرد ما يحقق الانتصار على حكومته . و كان هذا الوعد مشجعا على خلق جو من التفاهم ازداد معه الوطنيون ثقة في النظام الجديد، لكن فرنكو عندما دخل مدريد نكث وعده و أعلن أن برنامجه لا يستهدف أكثر من زراعة الأرض و تثقيف العقول، مختصرا ذلك في كلمتين : (Culturary - Cultivo).

و منذ اعتراف حكومة فرنسا بحكومة فرنكو أخذتا في تنسيق سياستيهما. و عرفت حدود المنطقتين المغربيتين سلسلة لقاءات للتشاور بين المقيم العام الفرنسي و نظيره الإسباني كان هدفها الحفاظ على مصالح كل دولة في منطقة نفوذها مع احتفاظ كل طرف بوسائل عمله. و هو تنسيق استمر إلى أن ركبت فرنسا رأسها بإبعاد السلطان عن عرشه و نفيه في غشت (آب) سنة 1953 .

ميلاد التنظيمات السياسية بالشمال

و الآن و قد تحدثنا فيما سبق عن انطلاقة حركة الجنرال فرنكو من المنطقة المغربية الشمالية و عن المخاوف التي أثارها في العالم قيام نظامه، و خاصة في أوربا الغربية التي أحست بخطر تطويقها بعد قيام النظام الفاشي في إيطاليا بزعامة بنيتو موسوليني (Benito Mussolini) و صنوه النظام النازي في ألمانيا بزعامة هيتلير، نرى من المفيد أن نتحدث بإيجاز عن هذه النظم و خاصة نظام فرنكو الذي قام - خلال الفترة الزمنية التي وصلت إليها فصول هذا الكتاب - بمساندة ألمانيا و إيطاليا .

الفاشية أو الفاشيستية

كانت الفاشية الإيطالية التي قامت بقيادة موسوليني في ميلانو سنة 1919 الإنذار الأول الذي لم يجلجل صوته في حينه ليوقظ العالم. و هو نظام إطلاقي يركز

السلطة في أعلى القمة، على مستوى الزعيم أو القائد الذي يفرض سلطته بالقوة العسكرية و الجبروت، و يؤجج نار الحماس بخطبه الجهنمية الداعية للتعصب للقومية الضيقة و لجنسها المفضل.

و قد جاءت إثرها الفاشية الألمانية التي عرفت بالنازية منذ انتصار حزب هيتلير على القوات السياسية الألمانية الاخرى سنة 1933 ثم تبعتها الفاشية الاسبانية بقيام نظام الجنرال فرنكو سنة 1936 .

و ترفض الفاشية بأنواعها النظام السياسي الاقتصادي الغربي الذي ساد العالم في القرن التاسع عشر و إلى قيامها بعد الحرب العالمية الأولى بما يتضمنه من مؤسسات تمثيلية و تعددية سياسية، كما ترفض نظام الاشتراكية الماركسية في نفس الوقت، و تقيم في مواجهة النظامين نظامها القائم على تفوق سلطة الدولة وهيمنتها و اعتبار الفرد و الجماعات في خدمتها لا العكس. و تؤكد في المجال الاجتماعي على أن نظامها هو الكفيل بتوثيق روابط الأفراد بالجماعة .وتعتبر النظام الشيوعي أسوأ الأنظمة على الإطلاق. كما تركز على تقديس " الزعيم " قائد الحركة الفاشية التي تجعل منه ضمير الأمة و روحها و تعتبره مبعوث العناية الإلهية الموكول إليه أمر إنقاذ الأمة و خلاصها.

اتخذ موسوليني لنفسه لقب " الدوتشي "، و هيتلير لقب " الفوهرر "، و فرنكو لقب " الكاوديو "، و هي ألقاب تفيد في لغات الزعماء الثلاثة معاني التقديس التي أشرنا إليها.

و قد أحدثت النظم الفاشية لنفسها تنظيمات مستجيبة في هيكلتها ووسائل عملها إلى فلسفة العنف و التسلط التي تميزها، و اقتصرت على منظمة سياسية واحدة مسلحة تسليح المليشيات المعسكرة، و أحيانا بإضافة نقابة عمالية، أو منظمة للشباب في شكل حركة عسكرية، مشخصة بذلك مذهبها المجد للقوة، المنظر للعنف كوسيلة شرعية للعمل السياسي.

و تأخذ هذه المنظمات جميع السمات العسكرية، من شارات و بذل موحدة، و طقوس و تحية عسكرية لتمجيد الزعيم القائدكان الزعيم نفسه يرددها في حركات مثيرة للضحك عندما كان يوجه التحية أو يرد عليها (كان هيتلير مثلا يحيي : هايل هيتلير، أي يعيش هيتلير) الشيء الذي يتفق مع الحكمة الصينية : " إن إعطاء الناس قوة الآلهة يجعلهم يتصرفون تصرف الحيوانات " ؟

الفاشية الفرنكوية

يعتبر بريمودي ريفييرا (Primo de Riviera) مؤسس الفاشية الاسبانية أو منظرها الاول الذي أعطاها محتواها الإيديولوجي.

و كان يرى أن الدولة الديمقراطية - كما نشأت في أوربا و الولايات المتحدة الأمريكية - عاجزة عن بلورة مصير الامم، و لذلك كان يشجب الرأسمالية الليبيرالية و يتهمها بأنها تهيئ عن غير وعي المجال لقيام الشيوعية و هيمنتها، وفي نفس الوقت شجب فكرة الصراع الطبقي كما نظرتها الشيوعية، و وصف هذه بأنها استعباد جديد للبشرية و مسخ لقيمها لاعتمادها على حتمية المادية التاريخية.

و قاوم النزعة العالمية معتبرا أنها خيال، حيث أن لكل أمة دورا تاريخيا تضطلع به من خلال «حملها» - كما قال : «لعبء المصير القومي» معتبرا أن دور الفرد يكمن في ممارسة مصيره أو قدره كجزء ضروري للأمة لا أكثر.

و في كل ذلك لم يأت هذا المنظر بجديد مبتدَع ينفرد به عن التنظير الفاشي الإيطالي أو الألماني سالف الذكر، فالفاشيون عبر العالم يركزون على"تصور الأمة" و لا يقيمون للفرد و زنا إلا من حيث استخدامه عنصرا لابد منه للأمة أو كلبنة في صرحها الكبير.

و لم يضف الجنرال فرنكو طيلة حياته جديدا يميز فاشيته عن أصليها، فقد كان الرجل عسكريا لا يفرز جديدا في عالم الفكر و ميدان التنظير، و إنما يردد شعارات مستهلكة، و يقلد الزعيمين الألماني و الإيطالي في المواقف و السلوك.

الفلانخا الفرنكوية

و في البداية تبلورت الفاشية في اسبانيا في تنظيم ميليشي أطلق عليه اسم الفلانخة (phalange) أسسه بريمو دي ريفييرا (Primo De Riviera) على غرار التنظيمات الفاشية التي قامت قبله في إيطاليا أولاً ثم في ألمانيا. و كان تأسيس الفلانخة يهدف لتطويق حركة العمال الاسبانيين التي ظهرت في اسبانيا قبل قيام

نظام فرنكو ولاستخدامها عند الاقتضاء في قمع الطبقة العاملة و القوات السياسية الخفية.

و عند انطلاق الحركة الفاشية الفرنكوية كان يبدو أنها ذات اتجاهين : كان يتزعم أولهما بريمو دي ريفيرا الذي كان لا يخفي إعجابه بموسوليني، و كان برنامجه يهدف إلى تحقيق إصلاح زراعي معتدل مرن، و يناصر مبدأ تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية، و يؤيد تأميم الأرض، بينما كان الاتجاه الثاني يميل إلى "النقابية الفوضوية " (ANARCHO-SYNDICALISME) الاسبانية التي كانت تساند إلغاء الملكية الخاصة، مما جعلها تعتبر حركة جانحة إلى اليسار.

و قد تغلب الاتجاه الأول في النهاية، فأصبحت الفلانخة أداة قمع للجمهوريين الشيوعيين و الفوضويين، و حركة منظمة معبأة خلف الجنرال فرنكو، خاصة بعد أن أدمجها في حركة يمينية سياسية ليأتلف منها حزب وحيد خاضع للنظام، و ليجعل منها قوة داخلية ضاربة عند الاقتضاء.

كان الجنرال فرنكو يتستر خلف شرعية النظام الملكي الاسباني الذي أطاح به الجمهوريون ليبرر انقلابه على هؤلاء، و كان يعتمد على مناصري الشرعية الملكية، ملاكي الأرض، و العسكريين و أتباع الكنيسة، و بعض هيآت اليمين. ومارس سلطته بصرامة كزعيم فاشي بتركيزها بين يديه، معلنا أن الأمة فوق الأفراد، و أن حكمه الأوحد لا يقبل المعارضة. و طبقا لذلك كان رئيس الدولة و رئيس الحزب و زعيم الأمة و قائدها (Caudillo).

و قام حكمه على تحالف العسكريين و الطغمة الحاكمة و على إدارة تيقنوقراطية. و أطّرت" ميليشيا الفلانخة" الناشئة و الشباب و المهن و الحرف، و راقبت حتى حياة الاسرة. و أفضى هذا الحكم المطلق المعتمد على القوات سالفة الذكر إلى وصف الفاشية الفرنكوية بالرجعية، و إلى عزل إسبانيا دوليا و تقوقعها، ذلكم أن فرنكو أفرط في التشديد على التشبث بالقومية، و على الحنين إلى عهد الامبراطورية الاسبانية و الرجوع إلى الماضي الوطني، و بذلك حبس اسبانيا في اتجاهه المنقول عن الفاشية المتعارض مع الاتجاه الليبيرالي المعاصر.

و لقد أفادت الرأسمالية من حكم فرنكو حيث أفسح لها مجالات اقتصادية واسعة، بيد أن الليبيرالية الاقتصادية التي طبقها لم تواكبها قط ليبيرالية سياسية، حيث ظل الحكم متكئا على الحزب الوحيد المعسكر، و على اتحاد نقابي مؤطر من الحزب و خاضع لرقابته.

و انتهج في الميدان الخارجي سياسة معادية للشيوعية، و مناهضة للحلفاء الغربيين، و مع ذلك لم يتورط إلى جانب قوى المحور في الحرب العالمية الثانية،لأن حربه (المدعوة بالحرب الأهلية) انهكت إسبانيا و جعلتها غير قادرة على الدخول في مغامرة عسكرية دولية.

و في منطقة الشمال المغربية كان حكم فرنكو يبدو أكثر انفتاحا من سابقه الجمهوري، و حكما متسامحا بالمقارنة مع الحكم الفرنسي في منطقة الحماية الفرنسية (الجنوب). و كان يشجع إثارة وطنيي الجنوب ضد النظام الفرنسي المفروض عليهم، و يبدو كما لو كان متعاطفا مع قضيتهم. و من هنا كان يطمئن إلى كل تطرف في مواقف وطنيي الشمال ضد فرنسا، و لكن لا يبيح أن ينتقد هؤلاء سياسته. و مقابل ذلك كان يجود بإصلاحات محدودة.

التفكير في تأسيس حزب

كان هاجس تأليف حزب سياسي منظم بمنطقة الشمال يراود وطنيي الشمال منذ بداية الثلاثينات و كانوا يتربصون بإعلانه الظرف الملائم.

إذ حتى قبل قيام نظام فرنكو لم تكن الحركة الوطنية في الشمال مجبورة على العمل في الخفاء أو على ممارسة نشاطها تحت طائلة المضايقات و المتابعات، و ذلك على خلاف وضع أختها في الجنوب حيث كانت معتقلات سلطة الحماية الفرنسية تحتضن أفواج الوطنيين في تلاحق رتيب، و حيث كانت الحماية لا تجود إلا بمقدار بالحريات، ثم لا تلبث أن تعطلها و تدوس حقوق الإنسان و المواطنين.

أما بعد قيام النظام الفرنكوي فقد هيأ جو الانفراج و الانفتاح (الذي أصبح قاعدة التعامل لدى الحكام الجدد) الملاءمة السياسية لتحقيق فكرة خلق حزب سياسي.

مهمة المكي الناصري

و حسب الوثائق الوطنية التي تتوفر عليها منطقة الشمال فإن مباركة تأسيس حزب مغربي بها جاءت من السلطات الاسبانية «المنفتحة»، و بالذات في لقاء تم بين المكي الناصري أحد أقطاب كتلة العمل الوطني بشمال المغرب (و كان قد استقر

بالشمال قادما من الرباط) و بين الكولونيل بيكبدير (Beigbeder) النائب السياسي لحكومة إسبانيا بتطوان.

خلال هذا اللقاء استطلع الوطني المغربي رأي محدثه الإسباني عن نوايا حكومته إزاء الحركة الوطنية العاملة بالشمال فذكر هذا الأخير أن أسبانيا ترى من واجبها أن تساعدها و أن تترك لها السبيل مفتوحا للعمل، اعترافا منها بالجميل على ما قدمه المغاربة لإسبانيا من خدمات، و ما تحملوه من تضحيات (في سبيل نصرة قضية فرنكو). و زاد بيكبدير يقول : " إن إسبانيا بمساعدتها الحركة الوطنية مساعدة نبيلة ستربح كثيرا لأنها لا تستفيد من وجودها في منطقة الشمال، بل تخسر خسارات مادية و غير مادية ".

و عن ذلك يقول المرحوم عبد الخالق الطريس في حديث له من إذاعة تطوان التي أصبحت خاضعة لنظام فرنكو و مفتوحة لخطب الوطنيين و أحاديثهم :«و حين أبلغني الشيخ المكي هذا الكلام و أنا شخصيا كنت أعرف بيكبدير لأنه صديق كبير، و كنت سمعت منه نفس الكلام من قبل قلت إن الجو قد تهيأ الآن، و طلبت من الأستاذ المكي أن يذهب مرة ثانية إلى النائب الإسباني، وكلفناه (رجال الكتلة بالشمال) أن يعرض عليه باسمنا قضايا كان من بينها السماح بالحزب الذي كنا نفكر في تكوينه منذ سنة 1932 ».

و يضيف الطريس : «لذا كان من المعقول أن تكون أول نقطة نتباحث فيها مع الحكومة (حكومة فرنكو) هي قضية الحزب التي كانت موقوفة قبل قيام الحركة العسكرية. و قد وجد الناصري من بيكبيدير استعدادا للقبول، و بعد ذلك اتصلت شخصيا بالنائب فوجدنا منه المساعدة».

و في كتاب " الحركات الاستقلالية " أتمّ مؤلفه المرحوم علال الفاسي تفاصيل مهمة الشيخ المكي الناصري ذاكرا أنه حضر خصيصا للرباط " ليبلغنا التطورات التي دخلت على الموقف في المنطقة الخليفية، فقررت كتلتنا بعث الحسن بوعياد ليتذاكر مع إخواننا في الشمال في الخطة التي يجب اتباعها. و بما أن الحدود أصبحت مقفلة بيننا و بين منطقة الشمال، و بما أن الرقابة اشتدت على الرسائل المتبادلة فلم يعد من الممكن أن تستمر الحركة الوطنية ذات مركز واحد مثلما كان عليه الحال قبل فرنكو، و لذلك اتفقنا على أن يتبع الوطنيون في الشمال الخطة التي يرونها صالحة و موافقة للظروف الطارئة متحملين وحدهم مسؤوليتها كما تتحمل كتلتنا نحن المسؤولية المعنوية لخطتها التي تختارها في الجنوب".

و قد كنا تحدثنا في السابق عن الاقتراح الذي بعثت به كتلة العمل الوطني بالجنوب إلى وطنيي الشمال من أجل توحيد الغاية و تنويع الوسائل على حسب ظروف كل منطقة، و هو ما يشير إليه مؤلف كتاب " الحركات الاستقلالية".

أول حزب وطني مغربي

هكذا نشأ أول حزب سياسي مغربي. و بذلك تكون منطقة الشمال سبقت أختها الجنوبية في مجال تأسيس الأحزاب الوطنية مثلما سبقتها في إقامة المؤسسات الاقتصادية و الاجتماعية و المعاهد العصرية، و إصدار الصحافة الوطنية.

في 18 ديسمبر (كانون الاول) سنة 1936 أعلن المرحوم عبد الخالق الطريس عن هذا الحزب باسم حزب الإصلاح الوطني (و كان مقره الرئيسي بتطوان) . و كانت قيادته مؤلفة من أعضاء قيادة كتلة العمل الوطني بالشمال، باستثناء المكي الناصري الذي يظهر أن الحزب قد أعلن في غيابه عن تطوان، و لأنه لم يكن منتسبا إلى " كتلة العمل الوطني بالشمال " إلا بوصفه مستشارا، و ظل عضوا في كتلة العمل الوطني بالجنوب . ولم يكن مقبولا من الأسبانيين أن يجمع بين العضويتين، لأنه لا يجوز في نظرهم أن يكون مواطن مغربي مسؤولا أمام حكومتي فرنسا وإسبانيا في نفس الوقت.

و حقق مؤسسو التنظيم الجديد بتضمين لفظ الإصلاح في اسم الحزب رغبة طالما ساورت الزعيم الوطني المرحوم الحاج عبد السلام بنونة في تأسيس حزب يحمل اسم حزب الإصلاح، لكن المنية لم تمهله ليعيش حدث ميلاده.

و إذا كان علال الفاسي قد اعتبر أن تأسيس هذا الحزب مطابق للخطة المتفق عليها بين وطنيي الجنوب و الشمال فإن محمد حسن الوزاني رأى أن خلقه حقق عمليا ابتعادا بل انفصالا عن كتلة العمل الوطني في شمال المغرب، إذ لم يعد لها وجود في هذا الجزء من المغرب كما كان الأمر من قبل. و أنحى الوزاني باللائمة على السلطة الاسبانية التي رمت - كما قال - إلى «أن لا تبقى أية تبعية سياسية ووطنية في منطقة نفوذها لكتلة العمل الوطني التي كان مركزها في المنطقة السلطانية، كماكانت هي الناطقة باسم الحركة الوطنية في الداخل و الخارج».

التأثر بالفاشيستية

و في هذا التعليق نظر، (كما يقول فقهاؤنا) فالمرحوم الوزاني يفترض تبعية كتلة الشمال لكتلة الجنوب، و ينطلق منها للحكم بالانفصال على حركة الشمال الوطنية و هو ما لا يقره وطنيو الشمال الذين يعتبرون أن وضع منطقتهم لم يكن يوفر لحركتهم شروط التبعية. و يؤيدهم في ذلك الواقع نفسه. فقد كانت لهم تنظيمات سبقوا بها تنظيمات كتلة العمل الوطني و مواقف سياسية ظرفية تعارضت أحيانا مع مواقف وطنيي منطقة الجنوب.

و قد جاء في كتاب الأخ محمد ابن عزوز حكيم بعنوان " وثائق الحركة الوطنية في شمال المغرب " انه عندما قدم الى تطوان سنة 1934 محمد بن الحسن الوزاني و عمر بن عبد الجليل في طريقهما إلى باريس لتقديم مطالب الشعب المغربي بادر محمد بنونة باصطحابهما معه إلى أحد الاجتماعات الوطنية السرية، وأن قيادة الاجتماع لامته على تصرفه حيث لم يستأذنها في دعوتهما، و لكنها أقرت في محضرها قبولهما في الاجتماع بعد إجراء القوانين المتبعة. (كذا)

و إذ ينطلق الوزاني من مسلّمته يتناقض مع ما ذكره في مذكراته في موضوع اقتراح كتلة العمل الوطني على وطنيي الشمال انفراد كل هيأة بخطتها تبعا لظروفها و حسب وسائلها.

على أن الوزاني أبدى سببا آخر يفسر انتقاده لحزب الإصلاح هو تأثر الحزب بتنظيمات حركة فرنكو الفاشية وكتب عن ذلك :"و مما أبرز الانفصال عن الكتلة بالجنوب إقدام حزب الإصلاح على إيجاد منظمة فاشيستية تقليدا لحركة الكتائب الاسبانية (فلانج) وكانت هي الحزب الوحيد في النظام الفاشيستي الاسباني. و هكذا خلق حزب الإصلاح نظيرا لمنظمة الفلانج فاتخذ له بذلة عسكرية خاصة، و حذاء عاليا، و لقبا هو " الفتيان "، و نشيدا هو :" فتيان قومي"، و تحية برفع اليد كالفاشيست هي " تحية السمو ". و توج كل هذا بتلقيب الطريس بالغازي، واتخذ الفتيان شعارهم " الله أكبر" كما لو كان الله - يضيف الوزاني - يبارك الديكتاتورية و الديكتاتوريين من فلانج و فتيان ممن يتمذهبون بالفاشية".

ويضيف الوزاني سببا ثالثا لتبرير انتقاده لحزب الإصلاح فيكتب :"وبعد نفي الوطنيين بالجنوب (يشير إلى نفيه هو و علال الفاسي في أكتوبر 1937) أرسل وطنيو الشمال برقيات احتجاج و تضامن للسلطان و المقيم العام بالربـاط و إلى فـرنكو و حتى إلى موسوليني " و تساءل :" لماذا موسوليني ؟ هذا الذي بطش بالمجاهدين في ليبيا، و ألقى بعمر المختار من الطائرة، و طالب باحتلال تونس، وأطلق على نفسه سيف الإسلام. و ما أكثر سيوفه المنتحلة إذ ذاك من رؤساء الاستعمار ! "

و نتوقف هنا عن مواصلة الاستشهاد بما كتبه المرحوم الوزاني عن حزب الإصلاح مطلقا العنان لقلمه في محاكمته بتهمة الفاشية و تقليد المستعمرين.

و كان المرحوم الوزاني معروفا باعتماد أسلوب الحدة و العنف فيما يكتب، سواء تعلق الأمر بمحاجّة المستعمرين أو خصومه الوطنيين السياسيين، ولكنه كان يؤمن بما يكتبه و يصدق مع نفسه القول، و يمضي دائما قدما على هدي طبعه و سجيته لا يلويه عن قصده شيء.

حزب الإصلاح الوطني بالشمال

«إن انقلاب الجنرال فرنكو سيكلل بالنجاح. وعلى المغاربة أن لا يحاولو عرقلته . وعندما تدق ساعة النصر سيجني المغاربة معنا أطيب الثمار . ومن الآن سيلمس الوطنيون منا معاملة مغايرة للعهد الإسباني الذي عرفوه، إذ سنسمح لهم بحرية التحرك، ونساعدهم على نشر التعليم، ونشجعهم على تكثيف علاقتهم بالمشرق العربي" .

بهذه العبارات الواعدة بعهد جديد لمنطقة الشمال المغربية توجه الكولونيل بيكبيدير ممثل الجنرال فرنكو بتطوان إلى وطنيي الشمال، في سعي منه إلى الحصول على تأييدهم وتعاونهم مع الحركة الإسبانية الجديدة، ولضمان حماية ظهر الثورة الفرنكوية الزاحفة على مدريد، وللظفر بالمزيد من المتطوعين المغاربة للعمل في جيشه الذي كان في أمس الحاجة إلى شجاعة الجندي المغربي المعروف بقدرته على خوض المعارك والانتصار فيها .

وهذا الالتزام المعنوي من لدن المسؤول الإسباني لم يلبث أن أكده في لقائه بالشيخ المكي الناصري بل تجاوزه إلى إبداء استعداده للسماح بخلق حزب سياسي

وطني، مما دفع بالمرحوم عبد الخالق الطريس إلى أن يتوجه إليه بطلب رسمي في خطاب جاء فيه :

" إن حالة المغرب الحاضر تقضي بتكوين هيأة قوية تعمل لمصلحة الأمة وتهيئ لها السبيل للرقي، وتعدها للقيام بنفسها وتحمل مسؤوليات شؤونها . وقد كانت الكتلة الوطنية (يشير إلى كتلة منطقة الشمال) تعمل بعض واجباتها في هذا الصدد، غير أن الظروف (ظروف قيام حركة فرنكو) تحتم الآن وجود هيأة أقوى من الكتلة تستطيع توحيد الرأي وجمع الأنصار ووضع خطة حازمة للنهوض بهذا القطر الكريم ،فلذلك رأت الكتلة أن تخرج للوجود ماكان منتظرا منها إخراجه، وهو حزب سياسي إصلاحي مغربي يعمل في حـــدود القانون ".

هكذا دشن الطرفان ما سميناه عهد التعايش الإ يجابي بالإعلان عن أول حزب سياسي عرفه المغرب (بجناحيه الجنوبي والشمالي، إذ أن تأسيس الأحزاب الوطنية بالمنطقة الجنوبية لم يسمح به إلا خلال سنة 1937)، وبصدور مجموعة صحف حرة كان من بينها جريدة " الريف " الناطقة باسم الحزب .

رفيقا كفاح

وإذا كان حزب الإصلاح الوطني وليد عهد فرنكو فإن التفكير في تأسيسه والتحضير للإعلان عنه بمساهمة أعضاء الهيأة الشمالية في الكتلة الوطنية استغرق سنوات خلال العهد الإسباني الجمهوري . وكان من ضمن الذين أغنوا نقاش إعداده الشيخ المكي الناصري بالرغم من أنه لم يكن مسموحا له - بحكم القانون - بالانتماء إلى الكتلة الوطنية الشمالية، لكونه من مواليد منطقة الجنوب، إلا أنه كان يحضر بوصفه مستشارا للكتلة ويشار إليه بأسماء السعدي، أوابن بطـــوطة، أو ابن جبير، أو فتى المغرب، أو حي بن يقظان، مثلما كان لرفقائه رموز يتميزون بها فيما بينهم .

وقد تركت محاضرته الأولى بتطوان أثرا بالغا في مختلف أوساطها، فالجميع أعْجِب بأسلوبه البليغ وهو يدعو إلى السلفية ويحذر من الشعوذة والتضليل، ولكنه أثار عليه ضجة فقهاء متزمتين، منهم محمد الفرطاخ الذي تنبه في النهاية لسوء ما أعلن عنه من التنديد بمحاضرة الشيخ فجاء إليه معتذرا .

وعندما عاد الناصري إلى تطوان للاستقرار بها كانت زيارته السابقة بما خلفته

من طيب الذكر تضفي عليه هالة من التقدير. وكان المرحوم الطريس في طليعة من أكبروه وعزّروه وأكرموا وفادته، وهو المعروف بأريحيته وتقديره للنابهين، وتميزت هذه الفترة بتعاون القائدين كرفيقي نضال.

ومع ذلك فقد أعلن عن حزب الإصلاح الوطني في غيبة الناصري وهوالذي فاوض الكولونيل بيكبيدير على تأسيس الحزب. وكان ذلك إشارة أخرى إلى أن وطنيي الشمال اعتمدوا شق طريقهم بعيدين عن الكتلة الوطنية القائمة في الجنوب، والتي كانت بدورها تعاني أزمة التوفيق بين استمرار وجودها الشرعي وتعاطفها مع وطنيي الشمال الذين لم يسعهم إلا التعايش مع نظام فرنكو المدان من حكومة فرنسا وممثليها بمنطقة حمايتها المغربية.

وكان البرنامج السياسي الذي أعدته لجنة تحضير حزب الإصلاح الوطني - طيلة سنوات قبل قيام نظام الجنرال فرنكو - حافلا بالاختيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عكست مبادئ الديمقراطية الغربية، وهو النظام الذي كانت حكومة إسبانيا الجمهورية تدين به وتعمل لتطبيقه، مثلما كانت تطبقه دول أوروبا التي ستتكتل وتحارب فيما بعد لمواجهة النظام الفاشي المعارض للاتجاه الديمقراطي.

إن مؤسسي حزب الإصلاح اختاروا آنذاك بناء نظام سياسي هرمي يقوم على استشارة القاعدة، ويعمم الاقتراع سواء بالنسبة للمجالس البلدية أو لقمة المؤسسات التي جاء عنها إنها هي المجلس التشريعي المنتخب الذي تسأل أمامه الحكومة وتتفرق معه السلطات الثلاث، كما اختاروا أن تكون القوانين والتربية والتعليم مستمدة من التعاليم الإسلامية، وأن تكون اللغة العربية أداة التلقين في المدارس والمعاهد ولغة الإدارة، وأن يكون المجتمع المغربي صورة للمجتمع الإسلامي الذي يحرّم البغاء وتعاطي الخمور والمخدرات ويمنع الاسترقاق.

إلا أن الملاحظ أنه عند الإعلان عن الحزب في عهد قيام النظام الإسباني الفاشي (عهد فرنكو) طوي الحديث في البرنامج السياسي عن الاتجاه الديمقراطي، أو على الأقل لم يعكس البرنامج المعلن نفس الاتجاه بنفس الوضوح والصراحة خلافا للنصوص التحضيرية التي أعدت في العهد الإسباني الجمهوري، فقد ركز البيان الأول الذي نشرته اللجنة التنفيذية للحزب على نقط أخرى وبلغة أقرب ما تكون إلى شعارات العهد الإسباني الجديد، ربما لأن زعماء الحزب كانوا يسعون إلى تطمين القادة الأسبان الجدد بوجود قاعدة للتفاهم يرتكز عليها تعايشهم الإيجابي مع النظام الجديد في ظل ثقة متبادلة.

يطالعنا في البيان بجانب التركيز على الإسلام واللغة العربية تركيز لا يقل على تمجيد الحزب (الوحيد) الذي ينعته البيان بأنه " رمز الأماني القومية والمثال الصادق للوطنية الكاملة الحقة ". ويوصي كل وطني بأن " يقدس مبادئه ويتبع خططه وينشر دعايته، وأن يكون له دائما جنديا طائعا داخل صفوفه."

وجاءت تنظيمات الحزب مغايرة في شكلها للتنظيمات الديمقراطية . فللحزب علم أبيض أسود وصفه البيان بأنه علم وطنية المواطنين، وسَوّاه بالعلم الأحمر علم الدولة المغربية، وحث الوطنيّ المغربي على تقديس العلمين، والوقوف إجلالا لتحيتهما، والهتاف من أعماق القلب بنصرتهما، والعمل لكي يبقيا خفاقين على سائر ربوع البلاد رمزا للسيادة القومية والعزة الوطنية ".

ونص البيان على أن رفع اليد مبسوطة إلى السماء هي التحية القومية، وأن نشيد" فتيان قومي" هو نشيد الحزب الرسمي . وقد نظم الحزبُ الفتيانَ في تجمع كان يضم أعضاءه وهم يرتدون بذلة موحدة خضراء.

وعلى صفحات " الريف " حدد زعيم حزب الإصلاح الوطني سياسة وطنيي الشمال إزاء العهد الجديد منطلقا من أطروحة ظلت تطبع تعامل الوطنية الشمالية مع الحكم الإسباني وتؤثر على توجهاته :" إن إسبانيا - يقول المرحوم الطريس - موجودة في المغرب بهدف حماية شاطئها، وليس للوطنيين مشكلة أساسية معها، بل المشكل الحقيقي هو مع فرنسا التي لها غرض استيطاني في المغرب . وحتى في ظل حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية فلا أمل في تغيير سياسة فرنسا الاستعمارية، ولذا فإن عليها أن تدرك أن مصلحتها في صداقة المغاربة . ونحن من جهتنا نظل مستعدين للتعاون معها إن اقتضت الأحوال تعاوننا وللمعارضة إذا تحتمت علينا".

وفي هذه الظروف أعلن حزب الإصلاح الوطني بما لا يقبل التأويل عن استهدافه تحقيق الأستقلال الوطني . ومن هنا كان وطنيو الشمال سباقين إلى حركة المطالبة بالاستقلا ل التي لم تعرفها منطقة الجنوب إلا عند نهاية الحر ب العالمية الثانية وبالضبط في يناير 1944 .

وعن ذلك قال محمد بنونة في تجمع شعبي لحزب الإصلاح :" إذا كان القادة الإسبانيون الجدد لم يعدونا إلا بتحرر محدود النطاق فإن الهدف من عملنا يظل بالنسبة إلينا هو الاستقلال . وسيأتي يوم نقول فيه لهم إنكم ساعدتمونا إلى هذا الحد، ولكننا نريد تجاوزه إلى الاستقلال التام ".

وقد خطت الإقامة العامة الإسبانية بتطوان وحزب الإصلاح الوطني خطوة كبرى على صعيد التفاهم والتعاون عندما قبل زعيم الحزب المرحوم الطريس المشاركة في حكومة خليفة السلطان على رأس وزارة الأحباس (الأوقاف) على أساس استقلالها عن الرقابة الإسبانية ولكن لفترة وجيزة استقال بعدها وعوضه على رأس الوزارة محمد بن موسى .

انفصال الحركتين

لم يكن بد من تكريس تجزئة الحركة الوطنية بين الشمال والجنوب كما تكرس قانونا وفعلا انقسام المغرب إلى منطقتين تحت نفوذين أجنبيين انفصمت علاقاتهما هما أيضا لاختلاف الاتجاه السياسي بين حكومة فرنسا وحكومة الجنرال فرنكو .

ولم يكن في الإمكان استمرار التعاون بين الوطنيين في هذا المحيط السياسي، فقد اجتهد وطنيو الشمال في اغتنام الفرصة السياسية المتاحة لهم لتعزيز نشاطهم لدعم التحرير الوطني، وليكونوا ردفا للحركة الوطنية التي لم تمهلها السياسة الفرنسية المعادية لتنمو وتعمل في العلن . أما وطنيو الجنوب فقد عانوا من الضغوط الممارسة عليهم للتنصل من حركة الشمال الوطنية التي أصبح تعايشها مع النظام الإسباني الفاشي الجديد لايساعد أختها في الجنوب على الاستمرار في التعاون معها وتنسيق المواقف، خاصة وقد كانت حركة الشمال تتخذ حيال السياسة الفرنسية في الجنوب مواقف متشددة، في الوقت الذي كانت تسالم فيه إسبانيا مقابل تفهمها وتشجيعها .

وفي فترة استفحال الخطر الفرنكوي وانتشار الحرب الأهلية الإسبانية، أصبح الاتصال بين المنطقتين متعذرا بما استحال معها ربط أية علاقة بين كتلتي الشمال والجنوب، حتى ولو ظلت إرادتهما في التفاهم والتعاون قائمة، نتيجة الحصار الذي ضربته فرنسا على المنطقة السلطانية بما استحال معه انتقال الأشخاص وتسرب أي بريد. وبلغت القطيعة أوجها خاصة بعد أن أصبح راديو إشبيلية مقر الجنرال فرنكو المؤقت يوجه نداءات الثورة والتحريض لسكان الجنوب، ويفسح المجال لزعماء الحركة الوطنية بالشمال للتحدث عبر أمواجه، ويخصص بعض برامجه لبث أقوال الصحافة الوطنية الشمالية المناهضة لفرنسا المندة بسياستها في الجنوب المغربي .

والحق أن هذا الانقسام - سواء كان اختيارا سياسيا أم أملته الضرورة - أفاد

الحركتين الوطنيتين في كلتي المنطقتين، لأن الشمالية وفرت لأختها الجنوبية دعما تمثل في احتجاجات وطنيي الشمال لدى العالم على سياسة فرنسا في منطقة حمايتها، مما فضح السياسة الفرنسية وعراها، ولأن مسالمة إسبانيا ساعدت الحركة الوطنية بالشمال على ترسيخ قاعدة عملها وكفتها مؤونة الدخول في مسلسل النضال والقمع الجهنمي الذي عاشته الحركة الوطنية في الجنوب.

وهل ينكر أن سياسة حزب الإصلاح التي جزأت معركة النضال بتحييد إسبانيا من جهة، ومهاجمة فرنسا من جهة أخرى، هي التي حولت منطقة الشمال في جميع ظروف النضال الوطني إلى مرفأ آمن لجأ إليه الوطنيون المضطهدون من الاستعمار الفرنسي، وتجمعت فيه بعض خلايا المقاومة المسلحة التي أعلنتها منطقة الجنوب على الاستعمار الفرنسي في الخمسينات، خاصة عندما غضت إسبانيا طرفها على تسرب سلاح المقاومة إلى منطقة نفوذها وهو في طريقه إلى منطقة الجنوب.

وإذا كانت مدينة طنجة قد تميزت في فترة النضال الوطني بلجوء الزعماء إليها: المكي الناصري،علال الفاسي، محمد حسن الوزاني، أحمد بلافريج، إبراهيم الوزاني، وآخرين ، فإن جو الانفراج الذي عرفته دائما منطقة الشمال هو الذي سهل لهم المقام، ومكنهم من ربط الاتصال من جديد مع الحركة الوطنية بالمنطقة الخليفية التي كانت على مرمى حجر من طنجة الدولية.

عبد الخالق الطريس

عندما أخذت أغشى بمدينة فاس خلال سنتي 1935 و 1936 خلية كتلة العمل الوطني كان مسيراها الهاشمي الفيلالي وإبراهيم الوزاني لا يتحدثان عن المنطقة الشمالية إلا مقرونة باسم عبد الخالق الطريس. كانا يقدمانه لنا كقائد وطني للكتلة الوطنية بالشمال. وكان اسمه يخترق أذني بصعوبة، إذلم أكن أفهم أن يحمل مغربي مرموق اسما غير عربي كان يبدو غريبا لأنه غير متداول على الأقل بيننا في مدينة فاس التي لم أكن في هذه الفترة أعرف غيرها من المدن، و لم يقيض آنذاك لي أن خرجت منها إلا لأتوقف - إن امتدت بي الساقان - عند مشارفها أو أرباضها. وأرضيت فضولي بعد ذلك عندما علمت أنه سليل أسرة أندلسية (إسبانية) مسلمة نزحت إلى المنطقة الشمالية المغربية ضمن الأسر المسلمة التي هاجرت من الأندلس إلى المغرب، بعد أن أخذت تبدو بوادر سقوط الحكم العربي الإسلامي الذي امتد في

إسبانيا ثمانية قرون، كما لجأ إلى المغرب يهود فروا من الحكم الإسباني الذي كان لا يستحيي من اضطهاده إلا المسيحيين .

وكان المؤرخون العرب يسمون أعضاء هذه الأسر النازحة عن الأندلس بالأندلسيين أو المهاجرين أو الغرباء، وكان الإسبانيون يطلقون على الذين ظلوا من المسلمين تحت حكمهم بعد سقوط غرناطة " الموريسكوس " . وهؤلاء حملوا أيضا أسماء إسبانية تحت ضغط الإسبانيين عليهم لتغيير أسمائهم الأصلية .

وتوجد ضمن هذه الأسر النازحة إلى المغرب أسر استقرت خاصة بتطوان والرباط تحمل أسماء إسبانية أو محرفة قليلا عن الإسبانية، كأسرة بلامينو، وبركاش، وبلافريج، وطريدانو، وهذا الاسم الأخير نسبة إلى طليطلة التي يطلق عليها طوليدو في اللغة الإسبانية، ولا يطلق إسم طريدانو إلا على المسلمين، أما اليهود النازحون من طيلطلة إلى المغرب فيتميزون عن المسلمين باسم طوليدانو .

ولم يكن اسم الطريس وحده يميز الزعيم عبد الخالق ويشده إلى إسبانيا، فقد كانت حركاته وضوابط علاقاته بالناس متأثرة بالسلوك الإسباني حتى لو تحدث بين الإسبان بالإسبانية التي كان يجيدها لما لاحظ أحدهم أنه مغربي .

وقد تأثر صحبه الذين عاشروه بحركاته وقلدوه بعامل الإعجاب به . وكان - رحمه الله - يفرض الإعجاب به من خلال كريم الخلق ولطف المعاشرة وبالغ الجود، وهي الخصال التي تحلى بها و أصبحت سجيته التي لازمته في السراء والضراء. على تعاقب الأزمان التي عرف منها حلوها ومرها .

لا أجد وصفا أضيفه إلى اسمه أكثر تشخيصا لصورته من وصف النبل، فالنبل كان جامع صفاته الطيبة التي تميز بها والتي أثرت على مواقفه واختياراته السياسية.

ولأنه نبيل حقا فإنه لم يكن حقودا في تحزبه، ولا متعصبا تعمى بصيرته عن استجلاء الحق وارتياد الحقيقة، ولا منغلقا في علاقات متحجرة تتحكم فيها أحكام مسبقة لاتقبل المراجعة .

آثر أن يعيش حياة الترف وأن يستمتع ما وسعه بالدنيا وحرص على أن لاتصرفه حياته البورجوازية عن البقاء بجانب الشعب، يتألم لألمه ويواسيه ويصارع القوى الغاصبة لحقه .

وحتى عندما كان يصرف كل ما لديه ويفتقد أحيانا وسيلة نوع الحياة الذي اختاره، كان يتظاهر بأنه هو نفسه : ذلك الغني الجواد الذي لا يعوزه شيء.

كان في تطوان وفي رحلاته إلى إسبانيا يبدو في مظاهر ترف الأرستوقراطيين من الإسبان، وعندما أقام بمصر سفيرا لبلاده كان يبدو في مظهر باشوات مصر وبهواتها قبل الثورة، وكان شعب مصر ينظر فيه بإكبار صورتهم التي لم ينسها. وإلى بيته كان ما بقي بعد الثورة من باشوات مصر السابقين يلجأون . ولم يكن الطريس النبيل يبخل عليهم بخدمة أو يسد في وجههم أي باب، لكنه كان لا يجتاز بابا يفتحها في وجهه فراش، أو يدخل مطعما، أو يقف ببابه سائل أو محروم إلا وأعطى عطاء من لا يخشى الفقر .

هذه الروح الطيبة هي التي جعلته لا يتردد ولا يقدم شروطا لضم حزب الإصلاح الوطني إثر الاستقلال إلى حزب الاستقلال، رمزا منه إلى توحيد المنطقتين وحرصا على جمع الكلمة وتوحيد الصفوف، معتبرا أن جهاد حزبه في المنطقة الخليفية استنفد أغراضه، وراضيا أن يتنازل عن وصف القائد الأوحد والزعيم الكبير ليصبح عضوا في اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال .

لا أذكر ولا يذكر أي واحد من زملائي في حزب الشورى والاستقلال (الحزب الذي قاد قبل الاستقلال وبعده حركة المعارضة لحزب الاستقلال ولحزب الإصلاح معا) أن أحدنا قابل الطريس دون أن يعانقه هذا الوطني النبيل عناقه الحار، ويضرب على كتفه على الطريقةالإسبانية، ويضع قبلة حارة على خده، سائلا عن الأحوال بوجهه البشوش وعينيه القاذفتين لجمرات الود.

وأذكر أنه في سنة 1964 وقد كنت وزيرا ناطقا باسم الحكومة المغربية أمام البرلمان، وكانت جبهة المعارضة (التي كان يقودها حزب الاستقلال ضد الجبهة الوطنية للدفاع عن المؤسسات الدستورية التي كنت أنتمي إليها) حاولت إسقاط الحكومة بتقديم ملتمس رقابة مدينة فيه سياسة الحكومة، فتوليت طيلة ما يقرب من ثلاث ساعات الجواب على انتقادات المعارضة . وكانت المداولات وأجوبتي منقولة مباشرة على أمواج الأثير وشاشة التلفزة، ثم مضى البرلمان إثر خطابي إلى التصويت لفائدة الحكومة، ففوجئت بالمرحوم الطريس يخترق صف النواب الموالين للحكومة الذين جاءوا لتهنئتي ليقول لي وهو يشد بحرارة على يدي:" دعني أهنئك ولو أنك هزمتنا، فأنا أعرف لذوي المقدرة أفضالهم . وأمنيتي أن يحقق الله أملي في توحيد الصفوف وتشكيل حكومة ائتلاف وطني تشارك فيها جميع الهيآت وتكون أنت الناطق باسمنا جميعا ."

ولم يتحقق للطريس ماتمنى، فقد توفي في سن مبكرة قبل أن يبلغ الستين من

العمر على إثر نوبة قلبية مفاجئة اعترته وهو في أحد فنادق طنجة . ووافانا خبر وفاته وأنا صحبة جلالة الملك بتلمسان في مايو 1970 حيث كان لقاء القمة المغربية الجزائرية التي حضرتها بوصفي وزير الخارجية . فتأثر جلالة الملك تأثرا بالغا لفقده وأمر بإقامة مراسيم الجنازة على نفقته، ووجه وفدا وزاريا لتشييع الفقيد إلى مرقده الأخير . وكعادة جلالته أغدق من وفير عطائه على أسرته التي لم يخلف لها فقيدها ما تعيش به رحمه الله وأثابه .

الفصل الثامن عشر

بوادر الخلاف في كتلة العمل الوطني

تحولات

كان بزوغ فجر سنة 1937 بداية تحول جذري في حياتي، فقد أصبحت فتى يافعا أحس بالمسؤولية وأتفاعل مع ما يجري حولي .وودعت سنة 1936 ومعها انتقلت من مدرسة المعلم الكبير محمد بن عبد الله لأرتاد الطور الثانوي بالقرويين بعد أن أجري عليَّ امتحان أهلني للقفز على السنتين الأوليين من هذا الطور .

هذه الطفرة الكبيرة جعلتني أختصر في أربع سنوات دراسة ثانوية تتطلب ست سنوات في برنامج التعليم المقرر لها بالقرويين .

ويعود الفضل في ذلك إلى المنهج التربوي الفريد الذي كانت تطبقه مدرستنا علينا كتجربة نموذجية تأكد أنها آتت أكلها . وقد استنفدت الحديث عن هذه التجربة في صفحات سالفة، لكن لابد من أن أتوقف قليلا عند مرحلة جامعة القرويين التي ظلت دائما مصنع شباب النهضة المغربية وكعبة القصاد من الطلبة المغاربة الذين كانوا يهفون من كل صوب إلى حلقات دروسها، والتي أتممت دراستها النهائية في صيف سنة 1943 .

وكانت سنة 1937 تحولا جذريا في حياة المغرب كله حيث ازدهر الكفاح الوطني العلني وعرفت الحريات السياسية تألقها، وأذعنت سلطة الحماية الفرنسية لقبول نشأة الأحزاب السياسية وصدور الصحافة الوطنية. إنها كانت سنة الانفراج السياسي وبداية التطلع إلى بلورة الكفاح الوطني المغربي وصبغه باللون السياسي العصري، كما كانت مؤشرا لتحول جذري في عقلية الحكام الفرنسيين الذين قبلوا مؤقتا الوضع الجديد وتعاملوا مع واقعه .

وعاش القصر الملكي هذا التحول الجذري حيث تحسنت علائق السلطان سيدي محمد بن يوسف بالمقيم العام الجنرال نوجيس، ولاحت بينهما بشائر التفاهم، بعد أن تعطلت لغة الحوار بين السلطات وبين المقيمَيْن العامين المدنيين السابقَيْن :" هنري بونصو"، و" مارسيل بيروطون ". وكل شيء كان يؤذن بأن الجنرال نوجيس لم يكن ليدشن الحوار مع السلطان أو يأذن بالانفراج السياسي لو لم تكن حكومة الجبهة

الشعبية (التي كان ما يزال إلى هذه الفترة على رأسها الزعيم الاشتراكي ليون بلوم) قد أعطته تعليماتها لنهج هذه السياسة. إن حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية عرفت هي الأخرى تحولا في سياستها التي دشنت بها عهدها والتي كانت سياسة تجاهل للمغرب ولأصدقائها الوطنيين بصفة أخص .

وعرفت الحركة الوطنية تحولا جذريا حين قررت اغتنام ريح الانفراج للانطلاق إلى تنظيم سياسي علني قادر على تأطير الجماهير .

وكانت الحركة الوطنية قد مهدت لذلك في صيف سنة 1936 عندما بدأت تعقد سلسلة مؤتمراتها الشعبية بنجاح في كبريات الدور بالمدن المغربية الكبرى وتطرح برنامجها السياسي للمصادقة الشعبية . وكانت هذه التجربة التمهيدية اختبارا لقوتها وسبرا لمقدار تفاعلها مع الجماهير . وجاءت اصطدامات الدارالبيضاء مع سلطة الحماية لتبرز أن الحركة الوطنية تملك الزمام، مادامت الحماية الفرنسية اضطرت إلى التراجع عن خطة القمع وإطلاق سراح الزعماء الثلاثة: علال الفاسي، وابن الحسن الوزاني، ومحمد اليزيدي، بعد أن غمرت المغرب موجة سخط واحتجاج .

انشقاق الكتلة

وكانت" كتلة العمل الوطني " قد اجتازت عتبة سنة 1936 موحدة الصف، لكنها عرفت منذ فبراير (شباط) 1937 تحولا جذريا خطيرا حين شرعت في الإعداد للإعلان عن تنظيم سياسي وأخذت في التخطيط لهيكلته فتفجرت وانقسمت إلى شطرين .

ولم يكن الحدث عاديا بل كان مفاجأة اعتبرت ساعة الإعلان عنها نكسة وطنية، دليل ذلك ما بذلته فصائل الحركة الوطنية في المغرب كله من جهود لضم الشمل لم تؤت ثمارها مما ضاعف من حدة النكسة .

أصبح الخلاف الذي قام بين المرحوم محمد حسن الوزاني وبين ثمانية من الوطنيين على رأسهم المرحوم علال الفاسي الحدث المستأثر بالاهتمام في مدينة فاس . وإلى هذه المدينة حج مبعوثو فروع كتلة العمل الوطني من مختلف المدن للاستخبار عن سبب الخلاف بين الرفيقين الوطنيين المتنازعين اللذين كان اسماهما لا يذكران إلا مقترنين، رمزا لكفاح بريء طاهر لا تأثير للحزازات والاعتبارات الشخصية على سيره وتوجهاته .

وكان اختصار سبب الخلاف وتبسيطه في نزاع بين القائدين حول توزيع المناصب والمهام داخل الهيأة السياسية الوطنية الجديدة المزمع إعلانها يزيدان النكسة حدة، أكان يمكن أن يقع خلاف حول هذه الجزئية البسيطة بين قائدين تحابا في الوطنية واجتمعا وافترقا عليها، وحدت بينهما زنزانة السجن في تازة، وفي معتقل فاس، ولم يمض على سجنهما في الدار البيضاء أقل من ثلاثة أشهر، وما يزال ينتظرهما طريق طويل صعب الاجتيازخاصة وبين القائدين تكامل في التكوين ما أحوج الحركة الوطنية إليه في ظروف تأسيسها العلني !

في خلية الكتلة

وإلى حلقات دروسنا بالقرويين وصلنا ذات صباح صدى غير واضح عن نشوب خلاف بين علال الفاسي ومحمد الوزاني. وفي طريقي إلى البيت أذكر أني لقيت أحد قرنائي الذي أخبرني بدعوتي إلى اجتماع طارئ لخليتنا التابعة لكتلة العمل الوطني ببيت المرحوم إبراهيم الوزاني .

وبعد الظهر توجهت إلى درب رأس التيالين بحي الطالعة بمدينة فاس، وصعدت السلم المؤدي إلى الغرفة التي كان يقيم بها إبراهيم الوزاني والتي كانت لصغرها تضيق عادة بالوافدين عليها من رواد الخلية التي كان يشرف على تسييرها، لكنها ضاقت أكثر في ذلك اليوم .

وكنت أنا وزمرة من رفقائي نحضر اجتماع الخلية تارة ببيت الهاشمي الفيلالي بحي البليدة، وأخرى ببيت الوزاني. مما حملني على القول في صفحات سابقة إن خليتنا كان يتعاقب عليها " المسيران " الوطنيان الكبيران .

وتكدسنا حلقةً متداخلةً في الغرفة . وما تزال عالقة في ذاكرتي صورة إبراهيم الوزاني كما بدت لي في هذا اللقاء : كان متجهم الوجه، بادي القلق والاضطراب. وكان عنيفا حاد اللهجة عندما استفاض في شرح أسباب الخلاف الذي سبب انفجار كتلة العمل الوطني وتفرقها . وكان يلقي بمسؤولية دخول الحركة الوطنية في هذا المنطعف الخطير على المرحوم علال الفاسي وصحبه الذين قال عنهم إنهم تآمروا على رفيقهم في النضال محمد حسن الوزاني لإبعاده وللاستبداد بمقاليد التنظيم السياسي الجديد دون أن يستشيروا بقية الوطنيين.

وأتحامل الآن على نفسي عبثا لاستعادة محتوى العرض المستفيض الذي قدمه " مسيرنا " للحاضرين والذي لم أحتفظ عنه إلا بكونه اتهاما بوجود مؤامرة بيتتها جماعة وطنية ضد وطني كبير قدمه لنا على أنه مؤسس الحركة الوطنية، وأنه وحده القادر على تطويرها والسير بها على الطريق الصحيح .

لكن فقرة واحدة من عرضه استوقفتني وأثرت علي، وأعتقد أنها أثرت على أغلبية الحاضرين، كما أنها أصبحت معيار المقارنة والتفاضل بين الزعيمين المتنازعين :" إن حاضر الحركة الوطنية ومستقبلها السياسيين يفرضان أن يكون على رأسها قائد سياسي محنّك، ومحمد حسن الوزاني درس علم السياسة في فرنسا، ويملك لغة التفاوض والحوار مع ساسة فرنسا الذين يعرفونه، فهو أحق بتولي منصب القيادة من علال الفاسي العالم الذي لا يحسن إلا العربية، والذي لم يتلق ثقافته بغير القرويين ".

وكان نُطق إبراهيم الوزاني هذا بالنسبة لي الكلمة الجامعة التي جعلتني أتجاوب مع منطقه وأرتاح إلى أطروحته، ودفعت بي في النهاية إلى الانضمام إلى الحركة القومية التي أسسها محمد حسن الوزاني انطلاقا من هذه المعطيات البسيطة. وكان ذلك هو التحول الجذري الآخر الذي عشته سنة 1937 سنة التحولات الجذرية، والذي تكيف معه سلوكي بين الناس وفي خضم الحياة، وطبع مستقبلي السياسي الذي تحكم في صنعه قرار انضمامي إلى حركة الوزاني .

لم أستمع قبل أن أتخذ قراري هذا إلى وجهة النظر الأخرى التي كان يقدمها أنصار علال الفاسي . وعرفت فيما بعد أن هؤلاء كانوا يلقون مسؤولية تفجر كتلة العمل الوطني على الوزاني الذي بعد أن شارك في الاقتراع طعن في نتائجه، حيث لم يرض أن يكون علال الفاسي رئيس الكتلة، ويكون هو أمينها العام .

ولم أكن قد عرفت الوزاني عندما قررت الانتماء إلى حركته إذا استثنيت أني سلمت عليه مرة وأنا في سن العاشرة عندما وجدته في مكتبة خالي عبد العزيز بساحة بوجلود بمدينة فاس صحبة جماعة من الوطنيين كان من بينهم علال الفاسي. ولم أحتفظ عنه في الفترة التي أتحدث عنها إلا بظلال من سحنته، بينما كان قد أتيح لي التعرف على علال الفاسي من قرب عندما زارنا بالمدرسة ووضع علينا أسئلة الامتحان، ومن خلال حضوري مرة أو مرتين في دروسه التي كان يلقيها بعنزة جامع القرويين . ومع ذلك تجاوبت بدون تردد مع أطروحة إبراهيم

الوزاني عن خلاف القائدين الوطنيين التي اختصرها في أن الوزاني بحكم دراسته للسياسة في فرنسا هو وحده المؤهل لتسيير دفة سياسة العمل الوطني في المغرب . وهكذا وجدتني مشدودا إلى منطق هذه المقولة . وأذكر أن قرنائي في الدراسة بالقرويين الذين انضموا إلى حركة الوزاني كانوا جميعا تحت تأثير هذه المقولة التي أصبح أنصارَ الوزاني يرددونها عبر المغرب كله.

وقد شدنا إلى عرض إبراهيم الوزاني بالإضافة إلى ذلك ما جاء فيه من تأكيد ضرورة صبغ العمل الوطني بالديمقراطية وصيانته من الاستبداد والرفع به إلى المستوى السياسي اللائق، حتى " لا تصبح الحركة الوطنية تحت إمرة جماعة تحتكرها وتسيرها كما يسير الطرقيون زواياهم المنغلقة على حفنة من الأنصار ".

وقد وقع منا هذا الكلام أيضا الموقع الحسن، خاصة نحن تلاميذ الفقيه ابن عبد الله الذي لقننا طيلة ما يقارب أربع سنوات مناهضة الاستبداد والتنديد بالطرقية ورجال الزوايا، وربانا على التعلق بالسلفية. وهذا ما جعلنا أيضا ننضم جماعيا إلى حركة الوزاني .

وكان لكلمة" الديمقراطية " هذا اللفظ الأجنبي الغريب وقعه في أذني، فقد تطلعت إلى أن يرقى بلدي إلى صف المتقدمين. ولأني لم أكن أدرك بتدقيق محتويات ذلك اللفظ الساحر الذي استهوتني إضافته إلى القليل مما كان لي من رصيد لغوي سياسي، خاصة ولم أكن في هذه السن أعرف غير العربية، فقد تخيلت أن الديمقراطية تشكل الدواء الترياق أو البلسم الشافي لكل أدواء بلادي المتطلعة إلى المصير الأفضل. وتعاملت مع العمل السياسي منذ ذلك من هذا المنظور.

وكنت في هذه الفترة على الفطرة، لأني لم أكن تجاوزت طور المراهقة، لكن ذاكرتي اختزنت منذ تلك اللحظة هذا الاتجاه ونماه في ضميري ووجداني على توالي السنين.

كنت أداعب مرة الأخ الهاشمي الفيلالي فقلت له:" إنك المسؤول عن انضمامي لحركة الوزاني، فلو أنك جئت لتسيير خليتنا بعد انشطار الكتلة، وشرحت لنا موقف المرحوم علال الفاسي وأثرت علينا كما أثر إبراهيم الوزاني لكنت التحقت بالحزب الوطني وأصبحت عضوا في حزب الاستقلال". فأجابني مبتسما:" ياليتني عرفت هذا في ذلك اليوم ! إذن لما ترددت في دعوتك لإقناعك بالانخراط معنا. فياللأسف".

قصة الخلاف

أجدني مضطرا إلى التوقف قليلا عند قصة الخلاف الوطني لا لأنبش بالحديث عنه ماضيا دفينا ولكن لأنه يشكل في تاريخ المغرب عامة والحركة الوطنية خاصة ما أسميه " الحدث المنعطف " فقد تدرج به نحو القمة مسلسل التحولات الجذرية التي عرفها المغرب خلال سنة 1937 .

ولا بد لي وأنا أتوخى الموضوعية فيما أسجله من ذكريات وشهادات ووجوه أن أعود إلى وثائق الحركة الوطنية عساني ألقى بها ما يلقي النور على هذا الحدث الذي شغل الناس في المغرب وأثار التعاليق وردود الفعل. ولسوء الحظ لا توجد تفاصيل فيما كتبه عنه أنصار المرحوم علال الفاسي الذي لم يخصص له هو نفسه في كتابه " الحركات الاستقلالية " إلا قوله في ص 224 : وبمجرد ما أعلنت نتيجة التصويت (داخل الكتلة لاختيار أعضاء اللجنة التنفيذية) أعلن الأستاذ الوزاني استعفاءه من الكتلة، ولا نريد أن ندخل في تفاصيل الذي حدث وما نتج عنه ".

وكان المرحوم علال الفاسي منسجما بذلك مع ما تقيدت به حركته في غالب ما سجلته وثائقها المكتوبة من الابتعاد عن التعمق في تفاصيل الخلافات التي قامت بين رجال الحركة الوطنية في جميع أطوار العمل الوطني مفضلة منازلة خصومها بوسائل أخرى، من بينها تجاهلهم بالمرة حتى عندما يتعلق الأمر بهم كمساهمين أو كصانعي أحداث وطنية كبرى.

على العكس من ذلك كان الوزاني يعتبر أن عليه واجب توضيح خفايا سياسية متصلة بالحركة الوطنية للرأي العام وتسليط الأضواء على تفاصيلها بأسلوبه المباشر. وكان يرى أن أقوى سلاح يشهره في وجه أعدائه وخصومه هو سلاح القلم، حتى لقد جعل من هذا التعبير عنوانا لما صدر عنه من مقالات وخطب وأحاديث صحفية عبر فيها بصراحة مكشوفة عن آرائه ومواقفه، مشهرا هذا السلاح في وجه المستعمرين الأجانب والمستبدين من بني قومه، معتبرا أن الاستبداد صنو الاستعمار .

أطروحة الوزاني

وفي مسلسل كتابه " مذكرات حياة وجهاد " أطنب في شرح أطروحته عن قصة خلافه مع قرينه وزميله علال الفاسي، شارحا أسبابه وموجباته، ملحا على أن خلافه مع توجهات زميله لم تبدأ من ساعة اجتماع انتخاب اللجنة التنفيذية لكتلة العمل الوطني المنعقد في يناير 1937 الذي ضمه إلى ثمانية من قادة الكتلة والذي انتهى إلى توزيع مهامها على الشكل الذي عارضه، ومركزا على ما سبق هذا الاجتماع من خلافات أخرى بينه وبين زميله الفاسي ومن والاه ممن سماهم " بالجماعة الصغرى التي دبرت ذلك التصويت تنفيذا لخطة مرسومة فيما بينها تستهدف إبعادي" كما وصف هذه الجماعة في سياق آخر بأنها كانت " حفنة أشخاص سعوا إلى احتكار الحركة الوطنية على حساب الأغلبية التي لم تكن على علم بالاجتماع ولم تستشر في موضوعه".

ويذكر الوزاني جملة من التفاصيل عن ذلك الاجتماع بهدف تجلية خلفياته فيقول: " إن تسعة أشخاص حضروه بمن فيهم من اعتادوا التخلف عن حضور اجتماعات الحركة الوطنية أو كانوا لا يحضرون إلا نادرا جدا ." ولاحظ أنه " تخلف عن الاجتماع آخرون من فاس والرباط لأسباب غير واضحة " ذاكرا أسماء الحاضرين، ومقرا بأن نتيجة التصويت أعطت لعلال الفاسي منصب الرئيس، وله منصب الأمين العام، ولأحمد مكوار منصب أمين الصندوق، وجعلت من محمد اليزيدي، وعمر ابن عبد الجليل، وعبد العزيز ابن إدريس، ومحمد غازي أعضاء" ثم أضاف :

" وكان الحاضرون القلائل حريصين أشد ما يكون الحرص على الإسراع بتنفيذ الخطة المرسومة لعملية التصويت المدبرة سلفا. فوزعت بطائق التصويت فورا، وسرعان ما جمعت لتكشف عن السر المكنون، وهو تصويت الحاضرين على أعضاء اللجنة التنفيذية، وهم سبعة من بين التسعة الحاضرين، فكأنهم صوتوا على أنفسهم.وكانت بطائق التصويت متحدة في أسماء المصوَّت عليهم والوظائف المسندة إليهم كأعضاء اللجنة التنفيذية مما دل دلالة حسية ومكشوفة على أن التصويت نظم سرا قبل الاجتماع حتى يخرج وفق الخطة المرسومة. ولهذا كنت وحدي المصوت

المخالف لما دبر بليل . ولما كشف ما سجل في بطائق التصويت ظهر كأن يدا واحدة خطته " .

أضواء على تفجر الكتلة الوطنية

توقفنا عند أسباب النزاع الذي قام سنة 1937 بين زعيمي الحركة الوطنية المغربية المرحومين علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني، ولاحظنا ندرة المعلومات عن هذا الموضوع التي ميزت وثائق أنصار الأول، بينما حفلت وثائق الثاني بالتفاصيل عن هذا النزاع الذي أسميناه " الحدث المنعطف ".

ويختصر أنصار علال الفاسي الحديث عن هذا النزاع في أن الوزاني لم يخضع لرأي أغلبية الكتلة التي انتخبت بالإجماع الفاسي رئيسا لها والوزاني أمينها العام، وأن الوزاني شارك في الاقتراع ولم يسلم بنتيجته فاستقال وأسس حركة خاصة به فجر بها الكتلة التي اعتبرته عضوا منشقا عنها .

أما الوزاني فيصر على أن الهيأة التي تولت الاقتراع ليست هي الحركة الوطنية التي كانت تضم في صفوفها العديد من الأطر التي لم تستدع للمشاركة في الاقتراع الذي كان في رأيه مؤامرة عليه لحمله على الابتعاد عن زملائه حسدا منهم لكفاءته وميزاته السياسية.

ويضيف الوزاني أن الكتلة كانت مجرد عنوان اختاره هو لأعضاء اللجنة العشرة الذين تولوا تقديم مطالب الشعب المغربي إلى السلطان بالرباط والدوائر الرسمية الفرنسية بالمغرب وباريس، وأنه كان من المفروض أن تنتهي مهمة الكتلة كلجنة بانتهاء مهمة تقديم الوثيقة، ولكن الاسم ظل متداولا كما لو كانت الحركة الوطنية قد غيرت عنوانها إلى الكتلة، وبالاستعمال أصبحت تبدو كما لو كان العشرة هم قيادة الحركة الوطنية. و هؤلاء فرضوا أنفسهم بهذه الصفة في غيبة الوطنيين الآخرين، وأن تركيب العشرة (وهو أحدهم) الذين دعوا إلى الاقتراع خضع لتعيين سري لم يتفق عليه، ولم يكن يعلم به هو إلا عندما دعي لحضور الاجتماع دون أن يعرف المراد منه .

مشروع نظام الحزب

ويتابع الوزاني الحديث عن أطروحته كاشفا الستار عن خلفية تاريخية تستحق التوقف عندها عندما ذكر أن زملاءه عهدوا إليه بإعداد مشروع نظام أساسي للحزب

المزمع إنشاؤه (يدعوه الوزاني قانون الحزب) وأنه أعد المشروع الذي جاء يعكس حزبا سياسيا عصريا ديمقراطيا على نسق الأحزاب السياسية الحرة في الأمم الراقية بأروبا والشرق العربي، لكنه فوجئ بتقديم علال الفاسي مشروعا مضادا بينما لم يكلفه أحد بذلك، وأن مشروع الفاسي كان يقتبس من تنظيمات حزب الدستور الجديد التونسي الذي أعلنه بورقيبة، وأنه رفضه لأنه جاء يحتوي على عيوب من بينها أنه يجعل من رئاسة الحزب منصب تشريف لا تكليف، ويجعل من الأمين العام للحزب المسيطر المطلق على تسيير شؤون الحزب بما يخوله من اختصاصات وسلط ومسؤوليات عامة وخاصة (سنتوقف فيما بعد عند هذه الملاحظة الأساسية عندما نناقش موقف الوزاني في هذا الخلاف). ويختم أطروحته (التي لا يسعنا إلا اختصارها لطولها) بقوله : " وهكذا نشأ الخلاف بيننا داخل اللجنة الثلاثية (لجنة النظر في مشروع نظام الحزب وكانت مركبة من الزعيمين الوطنيين والحاج عمر ابن عبد الجليل) وبدا لي أن موقفها القاضي برفض مشروعي وتبني مشروع الفاسي كان قد تقرر مع أعضاء المجموعة، وأنه كان مسبوقا باتصالات واجتماعات أخفيت عني حيث كانت تعنيني ".

واعتبارا لما سلف رفض الوزاني منصب الأمين العام، ورفض - كما قال - حتى منصب عضوية اللجنة التنفيذية التي قررت بعد ذلك تعويض الوزاني على رأس الأمانة العامة بالحاج أحمد بلافريج الذي لاحظنا في صفحات سابقة أنه تغيب لمدة عن المشاركة العلنية في نشاطات الكتلة، وأن اسمه لم يسجل بين المعتقلين في الأحداث السياسية التي عرفها المغرب قبيل مرحلة الإعلان عن التنظيم السياسي الحزبي ولم يعد للعمل الوطني البارز إلا ليتقلد مهمة الأمين العام في الحزب السياسي الجديد .

ويبدو أن الوزاني كتب مذكراته عن تفاصيل أطروحته عن الخلاف في أواخر حياته، لأننا نقرأ عتابه لزميله علال الفاسي الذي نسب إليه استعفاءه من الكتلة على الشكل التالي : " ولم يكن لي أن أستعفي منها - على حد قول علال الفاسي رحمه الله - (مات الوزاني بعد موت الفاسي بقليل)، ذلك أني كنت من مؤسسيها الأولين. وبهذه الصفة كنت عضوا فيها، ولم أفكر مطلقا في الاستعفاء (الاستقالة) منها لمن ليسوا أكثر مني حظا فيها نشأة وسيرا ومصيرا " .

جرح قديم

لندع هذه الوقائع جانبا ولنعد إلى الوراء قليلا لنتلمس الأسباب التي كانت وراء تفجير هذا الخلاف. ولنبادر إلى القول إن بين الزعيمين المرحومين أكثر من صلة ورحم شدتاهما إلى بعضهما في غمرة المحنة التي اجتازتها الحركة الوطنية على عهد السرية، وفي قسوة الامتحان التي ابتلي بها الوطنيون - وهما على رأسهم - في ساعات الحرج التي كان آخرها في الفترة التي نتحدث عنها التقاءهما بضعة أسابيع قبل هذا النزاع في المعتقل (أكتوبر - تشرين الأول) 1936 .

ولكن اختلاف التكوين أبعد أحيانا الشقة بينهما في بعض أنماط السلوك والاتجاه والتصورات والمواقف، فعلال الفاسي كان أقرب إلى الجماهير وأشد تعاطفا مع المثقفين والدارسين بالعربية الذين كان يستهويهم ذكاؤه الوقاد وفصاحته النادرة، وكان يجد فيه بعض المثقفين بغير العربية ما يشدهم إليه، بحكم أنهم يفتقدون ميزاته كمثقف عربي وداعية مسلم تتوفر له مؤهلات الإرشاد والتوجيه ووسائل شد طبقات الشعب إلى مفاهيمه وتصوراته وأطروحاته .

أما الوزاني فقد شاء له قدره أن يَتَلَقَّى معارفه بباريس، وأن يرتاد المعاهد العليا الفرنسية والسويسرية المتخصصة في الصحافة والسياسة وأن يمتلك بذلك ناصية اللغة الفرنسية التي لم يكن خصمه السياسي علال قد أخذ يدرسها. وعندما عاد من دراسته إلى فاس قبل نهاية العشرينات كان أغلب رجال الحركة الوطنية بفاس من فصيلة علال الفاسي ثقافة وتكوينا، فتميز الوزاني بينهم كصاحب مدرسة سياسية خاصة، واعتمدوا عليه في تمكينهم من الاطلاع على التيارات السياسية الفرنسية وشرح مواقف الحكومة الفرنسية من قضيتهم، وتجلية آراء الصحافة الفرنسية والأجنبية في موضوع تطور الحركة الوطنية، وإحاطتهم علما بمكنون السياسة الخارجية الفرنسية التي كانت المنشورات الفرنسية مصدر معرفتها الأساسي. والوزاني هو الذي كان يترجم عن الوطنيين إلى اللغة الفرنسية كلما وقع اتصال بينهم وبين مخاطبيهم الأجانب.لقد كان الناطق باسمهم - وبحضور علال الفاسي - في اللقاءات التي تمت - وإن كانت معدودة - بين وفد الحركة الوطنية ورجال الاستعلامات

(المخابرات) الفرنسيةبفاس، وإلى بيته كان يحج الوافدون من فرنسا من السياسيين ورجال الإعلام الفرنسيين. وقد تعزز دوره برجوع الحاج عمر ابن عبد الجليل من باريس حاملا شهادة مهندس زراعي وأصبح بعد ذلك رفيقا للوزاني ولكن مع اعتبار أقدمية الأول وبروزه بمواقفه التي طبعت ماضيه .

وكان لتخصص الوزاني في السياسة والصحافة باللغة الفرنسية أثر على توجه الحركة الوطنية في عهد نشأتها إلى إعطاء الأسبقية للإعلام بالفرنسية، حيث بهذه اللغة أصدر الوزاني جريدة " عمل الشعب " (L'action du peuple) " لسان الدفاع عن المصالح الوطنية " والتي كانت الناطقة باسم الحركة مما جعل منها نقطة لقاء الأطر الوطنية، وركز لغة الحوار بالفرنسية، الشيء الذي جعل الأطر المثقفة بالعربية مهمشة في هذا الاتجاه وصرفها إلى الاهتمام بالتوعية الشعبية .

وقد ساعد على تهميش هذه الأطر غياب صحافة عربية، لأن الحماية الفرنسية لم تكن تسمح بإصدارها . وهذا ما أضفى على الوزاني في هذه الفترة هالة من الزعامة سلطت عليه الأضواء أكثر من زملائه، الشيء الذي أثر عليه وكيف سلوكه، حيث اعتبر نفسه صاحب الفضل الأكبر في صنع توجهات الحركة الوطنية وتحديد اختياراتها وأساليب عملها .

وركز الوزاني انطلاقا مما سلف على مخاطبة الفرنسيين والضغط عليهم للاعتراف بالحركة الوطنية وعلى حمل سلطات الحماية على تلبية مطالبها، وانصرف عن الاهتمام بالقواعد الشعبية التي أصبحت تعرف علال الفاسي أكثر فأكثر، وتنقاد لزعامته التي كانت تشخص الهوية المغربية الحق بما تحتضنه من وطنية سلفية وتراث ثقافي روحي أصيل .

وهكذا عمل الزعيمان - قبل خلافهما - في اتجاهين غير متناقضين ولكن متغايرين، مما يمكن معه القول : إن الوزاني آثر العمل في ميدان السياسة الخارجية برحلاته المتوالية إلى باريس وكفاحه بسلاح القلم الفرنسي، حتى أنه فكر في أن يستقر بباريس لإصدار صحيفة أو مجلة ناطقة باللغة الفرنسية باسم الحركة الوطنية، وإن الفاسي انصرف إلى العمل في ميدان السياسة الداخلية عن طريق تعبئة الجماهير حوله . وساعده على ذلك أن أغلبية مسيري الخلايا الوطنية التابعة للكتلة كانت من مدرسته، وأن التعبئة الشعبية كانت تجري أيضا في حلقات الدروس التي كان يشرف عليها بفاس هو وصحبه من علماء شباب القرويين .

من هذا المنظور كان كل شيء - في نظر اللجنة التي تولت الاقتراع لتوزيع

المناصب - يرشح الوزاني لمنصب الأمين العام بوصفه الناطق بلسان الحزب، ويزكي للرئاسة زميله علال الفاسي .

وإذا كان الوزاني يعتبر اقتراع اللجنة على توزيع مناصب القيادة عملا مدبرا أريد به وضعه في المرتبة الثانية بعد علال الفاسي فإن الهاشمي الفيلالي الذي لم يشارك في الاقتراع صرح لي بأن " اللجنة كانت تعتبر الوزاني مؤهلا لمنصب الأمانة العامة الذي كان يخول النظام الأساسي لحزب الكتلة الجديد اختصاصات واسعة لمن يعهد به إليه، ولم تقصد مطلقا إبعاده عن العمل الوطني لسبب بسيط هو أنها أسندت إليه أهم مناصب اللجنة التنفيذية، وجعلت منه مسؤولا عن إدارة الحزب وسياسته والدعوة إلى قضيته في الخارج، بينما اعتبرت أن منصب الرئاسة يسمح لعلال الفاسي بقيادة الجماهير في الداخل، لأن جميع صفات علال الذاتية تهيئه لممارسة هذه القيادة ."

لقد كانت للوزاني مبررات وجيهة للطعن في شرعية أداة الاقتراع، وهو الذي اعتمد في أطروحته على أن اللجنة المقترعة خولت لنفسها اختصاصا لم يؤذن لها به من لدن رجال الحركة الوطنيين الغائبين، كما يبدو أنه كان على حق في تمسكه بفتح آفاق العمل واسعة في وجه كافة الوطنيين حتى لا تحتكره كتلة مختصرة في عشرة أفراد. ولكن هناك سؤالين ينبغي طرحهما هما :

- أولا : لماذا زكى هو نفسه شرعية اللجنة بمشاركته في التصويت وانتظر إلى ساعة إعلان النتيجة اتخاذ موقفه منها ؟

- وثانيا : ألم يتناقض الوزاني مع نفسه حين لم يقبل منصب الأمين العام وهو الذي رفض مشروع النظام الأساسي للحزب الذي تقدم به زميله علال الفاسي لأنه - كما قال - يجعل من رئاسة الحزب منصب تشريف لا تكليف، ويجعل من الأمين العام المسيطر المطلق على تسيير شؤون الحزب مما أشرنا إليه في صلب هذا الموضوع ؟

وقد تجلى هذا التناقض أكثر فيما نطق به الوزاني أمام اللجنة بعد أن ظهرت النتائج . وعنه ننقل - طبقا لما جاء في كتابه " مذكرات وجهاد - " قوله : " لقد أكدت رفضي للأمر الواقع بامتناعي من كل عضوية في اللجنة المصطنعة فضلا عن منصب الأمانة العامة، تاركا لهم مسؤولية كل ما دبروه في الخفاء ونفذوه بصفاقة، إذ أبوا إلا أن أكون معهم في المنصب الذي أرادوا فرضه علي، وحاولوا إقناعي بعدم التخلي عن عضوية اللجنة معلنين أنهم لا يتصورون لجنة تنفيذية بدوني، كما أن

أحدا من الشعب لا يقبل ابتعادي عنها فقلت لهم: أنتم المسؤولون عما فعلتم. أما أنا فأتولى تبرير موقفي أمام الناس كافة، وهذا ما لم يرقهم ولم يقبلوه. ولما طال الأخذ والرد عمدت إلى وسيلة لأتبين بها الأسرار والمكائد أكثر، وهي أني تظاهرت آخر الأمر بالتردد في القبول وعدمه، ثم بعد تأمل في جو الصمت كان بمثابة هدوء الزوبعة قلت لهم : إني لا أفهم كيف ستعمل اللجنة التنفيذية في شكلها الراهن، فالرئيس لا يضطلع بعمل ومسؤولية، حيث إنه مجرد رئيس له الغُنْم وليس عليه الغُرْم، فالمنصب تشريف لا تكليف، بينما الأمين العام هو "دينامو "(دافع) الحزب، حيث أن بيده كل الاختصاصات والسلط والمسؤوليات، ومع هذا يتحمل كل شيء وحده دون مساعد ولا معين، وهذا ليس في صالح الحزب. وإن تجريد أعضاء اللجنة التنفيذية الآخرين من كل مسؤولية يجعل هذه اللجنة محكوما عليها بالفشل الذريع ".

ويضيف : " وعندما أجابوا بأن ليس للأمين العام نائب ولا مساعد انكشفت أسرارهم وافتضحت مكايدهم، فقد أرادوا أن يقبروني في مكتبي مثقلا بالأعباء حتى لا يبقى لي مع هذا كله وقت للخروج والاتصال والتجول والتفقد، وحتى يتخلصوا بذلك من نشاطي الخارجي الذي كانوا يضيقون به من قبل، وهم يريدون أن أقطع الصلة به كما يرغبون في صرفي عن الاشتغال بالجريدة ".

ولقد حرصت على اقتطاف هذه الفقرات من مرافعة مطولة برر بها المرحوم الوزاني موقفه في النزاع لأخلص إلى القول إنه كان يعاني من مركب ريبة وشك من زملائه ساعدوه هم أنفسهم على تنميته في وجدانه، وذلك ما سبب له نوعا من الارتباك في بناء أطروحته على تماسك سالم من كل تناقض. وقد استهدفت من سرد الفقرات السالفة أن أبرز أنه كان يعتبر العمل الخارجي والكفاح في المجال الإعلامي عن طريق الصحافة أساسي كل تحرك سياسي لصالح القضية الوطنية، حتى أنه كان - كما رأينا - يعتبر أن خصومه يحاولون تجريده من ممارسة الأهم إلى الاضطلاع بعمل ثانوي، أو بمهمة شاقة يريدون إسنادها إليه تعجيزا من جهة، وصرفا له عن ممارسة نشاط كانوا يتضايقون من نجاحه .وإن تقييم المرحوم الوزاني هذا ليس بديهية لا تحتمل النقاش .

اختلافات سابقة

ولتسليط المزيد من الأضواء على أن جرح الوزاني هذا كان قديما نذكر موقفه من التنظيمات السرية الأولى للحركة الوطنية التي كان من بين زعمائها الأولين. إننا

نجده ينتقد تنظيم الزاوية والطائفة الذي ابتدأ قبل الثلاثينات واستمر إلى إنشاء كتلة العمل الوطني، إذ يعتبره كما قال عنه " خليطا من عناصر مختلفة المظهر والمخبر، غير متجانسة الشكل والجوهر، فيه الشبان والكهول والشيوخ والمثقفون والأميون والتجار، بل فيه حتى الآباء والبنون والإخوة " .

ويتحدث عن " الزاوية " فيقول : " إنها كشكولة عجيبة في حد ذاتها . كان جل أعضائها من فاس التي كانت مركز الحركة الوطنية، وكثيرا ما كان التفاعل بين عناصر الزاوية قائما على علاقة الجار والمجرور والتابع والمتبوع، إذ كانت تتحكم في علاقاتها صلات القرابة أو المجالسة أو المنفعة ماديا أو سياسيا " .

كما نذكر أنه لقي معارضة زملائه عندما اقترح عليهم ـ كما قال ـ إصداره جريدة " عمل الشعب " وكانت تلك أولى بوادر الخلاف بينه وبينهم. وتلا ذلك معارضتهم لاقتراحه إيفاد ممثل لكتلة العمل الوطني إلى باريس لحضور مؤتمر الحزب الاشتراكي، وتنفيذه للاقتراح بإدارته وحدها معتبرا أن معارضة اقتراحه كانت موجهة ضد شخصه، فذهب لباريس وحضر المؤتمر رغم ذلك، كما عارض زملاؤه اقتراحه إصداره باللغة الفرنسية جريدة أو مجلة بباريس عندما منعت الحماية الفرنسية جريدة " عمل الشعب " ولم يتمكن من تجاوز هذه المعارضة لأنه لم يكن يتوفر على المال اللازم لتحقيق مشروعه، مما جعله ينحي باللائمة على " أثرياء الكتلة البخلاء الذين ضنوا عليه بالمال " ـ حسب تعبيره - ثم كان الخلاف بينه وبين زملائه الذين فضلوا على مشروعه مشروع نظام الحزب السياسي المضاد الذي قدمه زميله الفاسي .

جميع هذه الرواسب ظلت عالقة بذهن الوزاني عندما كان الاقتراع يجري على مناصب اللجنة التنفيذية من لدن الجماعة التي لم يكن بينه وبينها انسجام، والتي لم يكن موجودا بها من بين فصيلته إلا المهندس عمر ابن عبد الجليل رفيقه في بعض مهماته إلى الخارج، لأن محمد اليزيدي الذي درس في المعاهد الفرنسية لم يحضر الاجتماع وفوض لزميل النيابة عنه في عملية الاقتراع .

وهكذا مر الاقتراع في هذا الجو المشحون بالحسابات المختلفة، وجاءت نتيجته مؤكدة لوساوس الوزاني الذي لم يكن يحس بوجوده في محيطه بين رفقائه الذين ساءت علاقته بهم إلى حد اعتبار كل ما يصدر عنهم خاصا به مؤامرة مدبرة بصرف النظر عن النتيجة التي كان يمكن أن ينتهي إليها الاقتراع.

نكسة

أثار انقسام كتلة العمل الوطني بالمغرب خلال شهر فبراير (شباط) سنة 1937 إشفاق الوطنيين والمتعاطفين معهم على تطور الحركة الوطنية، واعتبروه نكسة مُني بها العمل الوطني وهو مايزال لم يستكمل نموه الطبيعي، كما أسال الحدث حبر تعاليق الملاحظين السياسيين الذين أطلقوا لخيالهم العنان في تلمس أسبابه ورصد خلفياته. وفشلت الوساطات الوطنية في رأب صدع الكتلة، فقد أصبحت مسافة الخلف بين الزعيمين الوطنيين تتسع وتتباعد بما أصبحت معه وجهة نظر كل منهما تتعارض إلى حد استحالة التوفيق، خاصة بعد أن أخذ الوسطاء يعلنون انضمامهم إلى جانب أو آخر كلما تعذر عليهم التوصل إلى تحديد أرضية مشتركة لتصالح الجانبين.

وساطة الأمير شكيب

وتستوقفنا من بين الوساطات التي حفلت بها مساعي تحقيق التصالح الوطني بين الزعيمين وأنصارهما وساطة أمير البيان شكيب أرسلان، ذلكم الزعيم السوري الذي تحدثنا في صفحات سابقة عن جهاده وهو بمنفاه الاختياري في جنيف، كما ذكرنا أن الوزاني كان يساعده في إصدار جريدته باللغة الفرنسية (الأمة العربية) (La Nation arabe) حتى لقد اشتهر هذا الأخير بلقب كاتب الأمير شكيب .

«غلبوا العقل على العاطفة»

في رسائل عاطفية تطبعها نبرة أبوية، وتعبق منها مشاعر زعيم مسلم عربي يعتبر نفسه مسؤولا عن الأمة العربية الإسلامية وملتزما بقيم الإسلام كان الأمير يزجي النصح - للقائدين الوطنيين المغربيين ولأنصارهما من خلالهما - بالحفاظ على أواصر المودة، ويدعوهما للتصالح والتآخي، والابتعاد عن العاطفة وتحكيم العقل .

والرسائل الموجهة إلي الوزاني - وهي الوحيدة التي نتوفر عليها - تنمّ عن نوعية العلاقة الحميمة التي احتفظ بها الزعيم السوري العربي الكبير لكاتبه ومساعده

السابق، فهو يخاطبه ب "حضرة ولدنا الحسيب النسيب العزيز الحبيب" قبل أن ينعته بالأستاذ، وهو يستحضر في ذهنه وهو يحرر أو يملي رسالته إليه أنه من الشرفاء الوزانيين فيضيف إلى ما سلف : «سلالة دوحة الشرف والسؤدد» .

وهو يرى بعد أن أطلعه الوزاني علي أسباب الخلاف أنه لم يجد فيها عقبات غير قابلة للاجتياز إذا وُجدت نية التآخي عند الفريقين، لكنه يحسم فيما سمي مثار الخلاف الأصلي فيرى أن لا ضرورة لأن يكون علي رأس التنظيم الجديد رئيس، أو أن يرجأ البت في موضوع الرئاسة إلى حين عقد مؤتمر عام، بينما يقترح في مقابل ذلك أن يكون الوزاني سكرتير اللجنة المؤقتة الأول، وسكرتيرها الثاني عمر ابن عبد الجليل، وأمين الصندوق أحمد مكوار ومعه عبد العزيز ابن ادريس. ويلح علي أن تظل إدارة الجريدة (عمل الشعب) في يد الوزاني.

رضا السلطان و التفاهم مع المقيم

كما ينصح الوطنيين بأن يسعوا جماعة متراصة لاسترضاء السلطان عن الحزب المزمع تأسيسه، وأن يتفاهموا لتطبيق الإصلاحات مع المقيم العام، إذ بدونه - يقول الأمير شكيب - لا أمل في شيء.

ويختم إحدى رسائله إلى الوزاني بهذا النداء المؤثر : «أنا - يا ولدي الحبيب - لاناقة لي في المغرب و لا جمل، وما جاءني من التدخل في شؤون المغرب إلا التعرض لعداوات أنتم تعلمونها، ولكني كمسلم لا أقدر أن لا أفكر في أموركم، والمسلم الصادق المخلص لا يفرق في الإسلام بين مغرب ومشرق، فبحق حرمتي ومحبتي لديكم جميعا غلّبوا العقل علي العاطفة، وعودوا كما كنتم لتخدموا وطنكم».

بيان الوزانـــي

وفي ظل هذه الوساطات المختلفة مصادرها أخذ الوزاني يتحرك ليكتل حوله ويستقطب لتأييده عناصر الحركة الوطنية التي كان يشرح لها أن مرد الخلاف يعود إلى اختلافه مع أنصار زميله علال الفاسي في تمسكه هو «بوجوب فسح مجال العمل الوطني لجميع ذوي المواهب والكفاءات ومناهضة استبداد جماعة وطنية أصرت علي تضييق دائرة العمل وحصر انتخاب القيادة في إطار تسعة أفراد ما بين منتخب

(بكسر الخاء) ومنتخَب (بفتحها)، وأنه يطرح كحل لموضوع اختيار قيادة التنظيم الجديد استدعاء مجلس تأسيسي يحضره ممثلون عن فروع الحركة الوطنية بجهات المغرب لممارسة الاقتراع لاختيار أعضاء اللجنة التنفيذية وتوزيع مهامها».

وأصدر الوزاني بيانا في ذلك بعنوان : «إلي الرأي العام الوطني حقيقة الخلاف». ولما لم يكن يتوفر على صحافة ناطقة باسم حركته، فقد أفسح له محمد المكي الناصري الذي كان يدير جريدة "الوحدة المغربية" بتطوان صفحات هذه الجريدة لنشر بيانه، ومهد الناصري لبيان الوزاني إلي القراء بمقدمة جاءت منه تأييدا صريحا لموقف الوزاني. ومن هذا التاريخ أصبحت حركة الوزاني تلقى التعاطف و التأييد لدى الناصري الذي أصبح بعد فترة وجيزة زعيم حزب الوحدة المغربية، وأصبحت حركة علال الفاسي تُسنَد وتؤيَّد في الشمال من لدن حزب الإصلاح الوطني بزعامة عبد الخالق الطريس.

ولنترك الكلمة للشيخ محمد المكي الناصري في مقدمته لبيان زميله الوزاني التي جاء فيها قوله :

«كنا نظن أن الظروف لا تلزمنا أن نعرض من الآن على الرأي العام المغربي تفاصيل الخلاف الوطني القائم في المنطقة السلطانية، ولكن تخرصات المتخرصين وأكاذيب الملفقين اضطرتنا إلى أن نقدم لكافة المواطنين علي صفحات هذا العدد (31 مارس (آذار) 1937) إحدى الوثائق التي جاءت من زميلنا المجاهد الصادق الأستاذ محمد بن الحسن الوزاني، وهي كافية لإقناع كل من كان له قلب بالموقف الوطني المشرف الذي يقفه زميلنا ومن معه من الزملاء الأوفياء و الأنصار المخلصين، كما أنها تدل دلالة واضحة على أن خطة "الوحدة المغربية" (يعني الجريدة) خطة رشيدة مؤيَّدة مكتوب لها النصر والفوز، لأنها خطة الوطنية الصادقة الموحّدة التي لا تجامل ولا تداهن ولا تتملق، والتي مبدؤها الأول و الأخير : «مصلحة الوطن فوق الأشخاص و الجماعات و الهيآت». ولا يَيْئَسِ المواطنون من هذا الخلاف فليس بعد الكدر إلا الصفو» .

وهذا تأييد صريح صدر من تطوان عن الزعيم الناصري حيث اعتبر أن موقف الوزاني في المنطقة السلطانية جاء مؤكدا لسلامة نهجه الوطني في الشمال. وكان هذا أول سند تلقاه الوزاني خارج المنطقة الجنوبية، وكان الناصري وهو يصدع بهذا التأييد يُعدُّ للإعلان عن حزبه «الوحدة المغربية» الذي شغل حيزا كبيرا في الساحة السياسيةَ بمنطقتي طنجة وشمال المغرب. وقد ظلت جريدة «الوحدة المغربية» بعد

توقف الصحافة الوطنية في الجنوب صيف 1937 المنبر السياسي لأقلام رجال الحركة الوطنية، وأصبح اسم الزعيم الناصري يمثل في المنطقة السلطانية بالنسبة لأنصار الوزاني من القوميين - وأنا أحدهم - امتداداً لحركتهم التي انطلقت منـــذ سنة 1937 و التي تعثر سيرها بنفي المرحوم الوزاني إلي الصحراء في نفس السنة، مما حول أنظارنا - نحن القوميين - إلي متابعة نشاط حزب الوحدة المغربية و الاستفادة من توجهات زعيمه طيلة الفترة الممتدة من نفي الوطنيين و إلى عهد الانفراج سنة 1946، مرورا خاصة بفترة الحرب العالمية الثانية التي شدت فيها فرنسا الحصار علي المنطقة السلطانية، فجعلت بذلك من تطوان مرفأ الأمان الذي ترتد إليه الأنظار، وتهفو إليه نفوس المضطهدين.

لماذا الخلاف؟

لقد أسال تفجر كتلة العمل الوطني وانشطارها حبر تعاليق مؤرخي الحدَث الذين اختلفوا في تلمس أسبابه ورصد خلفياته. وكان لكل منهم منظور خاص ينطلق منه لتأسيس أطروحة اعتبرها الحقيقة : هكذا اختصَر البعض الخلاف في تنافس قائدين وطنيين علي منصب رئاسة اللجنة التنفيذية للتنظيم السياسي أو حَصَر البعض مسؤوليته في "كبرياء" الوزاني الذي لم يرض بالمنصب الثاني بعد اقتراع سليم نزيه لا أثر فيه للتآمر، وطعن آخرون في هذه الأطروحة وعارضوها بالطعن في طبيعة الاقتراع وإدانة "الطبيخة" التي كانت وراءه .

وتسابق المستشرقون أو مَن يُدْعون بالمتخصصين في "السياسة الأهلية" من أعوان الحماية الفرنسيين إلى كتابة تحليلات عن صراع الأسر المغربية التقليدية وإدماج خلاف «شريف وزاني» مع «عالم فاسي» في نطاق خلاف زوايا الشرفاء مع الكراسي العلمية الذين قالوا إن تاريخ المغرب قد عرفه. وقد اعتاد هذا الرهط من المحللين أن يهرف بما لا يعرف، وأن ينطلق لدعم أطروحاته من حقد دفين لتشويه كل ما يتصل ب"الأهالي" وعالم الإسلام والمسلمين، حتي لو اقتضى الأمر الاستنجاد بنسج الأخيلة.

ليس صحيحا أن المغرب عرف صراع الشرفاء و العلماء، أو أن الزاوية ناهضت الكراسي العلمية أو العكس، وذلك لأزيد من سبب، وقد يكون أبسط الأسباب أنه لم تقم داخل المغرب حواجز حصينة بين الزوايا و الكراسي العلمية، وبالتالي بين الشرفاء والعلماء، فقد كان بين الأشراف علماء نشروا أفكارهم من خلال الربط والزوايا، وكان

بين العلماء أشراف أثروا في الأحداث من منابر الكراسي العلمية بالمساجد و المعاهد وجامعة القرويين، والتقي الشرفاء و العلماء على إرادة سياسية واحدة في بيعة السلاطين وتأييد سياساتهم أو مناهضتها.

ولم يقم الصراع بين الزوايا و المساجد إلا عندما ابتلي المغرب بالاستعمار، وعندما أخذ المستعمرون يعملون لاستصفاء بعض رجال الزوايا لمضالعتهم في ترسيخ سلطتهم فأججوا صراعا مفتعلا نفخوا فيه من روحهم.

وفي موضوع خلاف الزعيمين بالذات تنهار هذه الأطروحة من نفسها، فالمرحوم الوزاني كان أبعد الوزانيين عن فكرة الزاوية، وأصحاب الأطروحة ذاتها تناقضوا مع أنفسهم حين قالوا في تحليل آخر إن خلافه يعود إلى مناهضة أسلوب الزاوية الذي كان زملاؤه مصرين على أن يتحكم في العمل الوطني، وربما كان الوزاني يشير إلى مثل ذلك في تفسيره أسباب الخلاف .

أزمة نمـــو

مما لا شك فيه أن الحركة الوطنية كانت تجتاز ساعة تصدع الكتلة أزمة نمو بعد أن تطور مجال عملها وتكاثر أنصارها وأصبحت تعمل في العلن وينزل إلي الشارع أنصارها في مظاهرات. وبذلك دخلت في مرحلة حزب جماهيري بعد أن اجتازت آخر مسافاتها علي طريق حزب الأطر. وقد وجدت نفسها وهي تعد تنظيمها الجديد وتنظم انطلاقة نشاطها العلني أمام اختيارات دقيقة حساسة، خاصة في موضوع توزيع مسؤولياتها ومهامها القيادية. وفي العالم الثالث تعطى للأشكال و المظاهر أهمية لا تحظى بها الشؤون الجوهرية. ولم يكن مناخ العلاقات الشخصية بين أعضاء القيادة مطبوعا بالسلامة والصفاء، فساعد كل ذلك علي تفجير التعارضات الذاتية.

أفكار جديـــدة

وبصرف النظر عن أسباب دواعي الخلاف نلاحظ أن الوزاني - بعد أن قُضي أمر التصدع - أعطى لموقفه فلسفة سياسية متماسكة مستمدة من أفكار تُعتبر آنذاك ثورية في المجتمع السياسي المغربي، حيث ركز علي الديمقراطية التي تتنافي مع احتكار العمل من لدن مجموعة أوليغارشية. و البيان الذي أصدره عن حقيقة الخلاف

يركز في هذه النقطة ويؤكد على ضرورة فتح المجال لجميع الوطنيين، ويعتبر أن الأوفق للخروج من الخلاف هو : «تشكيل مجلس تأسيسي للنظر في مصير الحركة الوطنية، واختيار لجنة لوضع مشروع نظام الحزب الجديد بعد الاستشارة مع القاعدة، وتعيين لجان مؤقتة يُعهد إليها بتطبيق النظام الجديد الذي يقرره المجلس التأسيسي» وكان هذا بداية ظهور قاموس سياسي متميز بلغة جديدة.

أمر غريب

وعندما نقرأ وثائق هذه المرحلة نجد أن الوزاني لم ينجح في أن يستميل إلى سنده ولا واحدا من الشخصيات المرموقة التي تتصدر قيادة الكتلة الوطنية. والذين شُكلت منهم قيادة الحركة القومية (هذا هو اسم الحزب الذي أسسه إثر الخلاف) كانوا شخصيات وطنية تتمتع بتقدير سكان فاس، ولكنهم لم يكونوا قد لمعوا لمعان القيادة التي التفت حول علال الفاسي، ونذكر من بينهم : عبد الهادي الشرايبي، وإبراهيم الوزاني، ورشيد الدرقاوي، وعلى العراقي، وعبد القادر برادة، ومحمد القري، وأحمد معنينو، وإبراهيم الكتاني، وعبد القادر العلج.

وكان غريبا أن يكون عنصر المثقفين بالعربية هو السائد داخل القيادة التي قامت على رأس حركة الوزاني. بينما كانت بجانب علال الفاسي قيادة مزدوجة التكوين، بل كانت العناصر التي درست بفرنسا أو معاهد الحماية الفرنسية هي التي توجه العمل السياسي في الحزب الوطني الذي أنشأه علال الفاسي. إن جريدتي الحزب الوطني (حزب علال الفاسي) كانتا تحت إدارة وطنيَّين مثقفين بالفرنسية : كان علي رأس جريدة "العمل الشعبي" باللغة الفرنسية الحاج عمر ابن عبد الجليل وكان يدير جريدة "الأطلس" التي كانت تصدر بالعربية محمد اليزيدي، بينما احتفظ الوزاني بإدارة «عمل الشعب» الصادرة بالفرنسية، وأقام على رأس تحرير جريدة "الدفاع" الصادرة بالعربية وطنيا من جامعة القرويين هو المرحوم عبد الهادي الشرايبي، ولعل ذلك يعني أن علال الفاسي كان يجد نفسه أحوج إلى العنصر المثقف بالفرنسية وهو ما كان يفتقده؛ وكان الوزاني يفقد التفوق في التكوين العربي فأكمله بالاستفادة من عناصر جامعة القرويين. وربما كان لترويج فكرة أحقية الوزاني بإدارة الحركة الوطنية بوصفه متخصصا في السياسة أثر علي اختيار بعض المثقفين بالعربية جانب الوزاني. كما أن حركة الوزاني انطلقت منذ نشأتها في شكل حزب أقلية، لأن الوزاني قبل

انقسام الكتلة الوطنية، كان منصرفا إلى الواجهة الخارجية، وكانت إقامته بالمغرب تنقطع برحلاته المتكررة إلي باريس بينما احتفظت أكثرية مسيري الخلايا الوطنية التي كانت تشكل قاعدة العمل الوطني بولائها لعلال الفاسي وسارعت إلى ضم هذه الخلايا إلى حزب هذا الأخير بمجرد ما حول هو وأنصاره الكتلة إلى تنظيم سياسي جديد . وهذه الانقطاعات المتكررة عن الحضور على الساحة الداخلية من جانب المرحوم الوزاني سمحت للمرحوم علال الفاسي وأنصاره بأحكام القبضة على القاعدة وبوضع تصور تنظيمي قابل لاستيعابها وإدماجها بسهولة في الحزب الذي كان يخطط للإعلان عنه.

وبصرف النظر عن هذه الاعتبارات فإن الوزاني والجماعة التي أيدته وتبنت منهجه السياسي قدموا خدمة جلى للمغرب عندما اختاروا وفرضوا التعددية السياسية الحزبية في فجر العمل الوطني وجنبوا البلاد عواقب الحزب الوحيد.

يخيل إلى أن هذا الخلاف طبع الزعيمين الكبيرين ووجههما تحت تأثير عواقبه طول حياتهما، فقد كان صعبا عليهما أن تنفصم علاقتهما التي جمعت بينهما في نشأة العمل الوطني ،وأن تنقطع بينهما الصلات تحت حدة العواطف المؤججة.

ولي من الشواهد التي عشتها بجانب الوزاني ما يؤكد لي أنه لم ينس قط ما اعتبره مؤامرة مدبرة عليه. ولا أستطيع أن أجزم بمشاعر علال نحو زميله ورفيقه لأني كنت بعيدا عن محيطه، لكني أؤمن بأن الزعيمين كان يجمعهما - على بعدهما بعضهما عن بعض - شعور تقييمي واحد متبادل : كان كل منهما قبل أن ينقلا إلى المنفى في صيف سنة 1937- يحس تجاه الآخر بمركب مزدوج يتفاعل فيه النقص والتعالي . كان علال يعاني من مركب ثقافة الوزاني بالفرنسية ومن نعته بالسياسي المتخصص، وكان الوزاني يعاني من مركب فصاحة علال الفاسي وشعبيته التي توفرت له نتيجة ذلك.

وعندما كان كل منهما بالمنفى أخذا يعملان لتدارك ما نقص كلا منهما : أقبل علال الفاسي على دراسة الفرنسية وألم بها دون أن يمتلكها ،لأنه لم يكن يملك الأساس الذي يساعده على ذلك ،ولأنه كان يتلقنها بالسماع، وإذا ما ابتسم له الحظ فمن خلال كتب كان حراسه يضنون بها عليه .وبقي ينطق بالفرنسية بصعوبة، ويتحدث بها بشجاعة وصبر، وما كان أعظم زاده من هاتين الخصلتين ! ولكن عددا ممن كان يحدثهم بها لم يكن لهم صبره ليفهموا دائما ما يريد.

وأقبل الوزاني على العربية للنهل من مصادرها الأساسية ولتلافي ما كان

ينقصه منها عسى أن يصبح ممتلكا فصاحة علال، ولكن حصيلته من ذلك كانت كشكولا من المعارف جمعه من أمهات الكتب العربية حتى لقد تأثر بلغة كتاب نهج البلاغة فابتعد بذلك عن أسلوبه المدقق الذي اعتاد عليه في الفرنسية، ليصبح من نوع بعض الكتاب المتقعرين من الذين يهيمون بالشكل والزخرفة وعجز مع كل ذلك عن أن يمتلك فصاحة علال الخطيب المحرك للجماهير، فآثر القلم وتنكب الخطابة في التجمعات الشعبية.

صورتان في قصة

نقل اليّ شاهد عيان قصة طريفة تصور كيف ظل الزعيمان في أواخر حياتهما يفكران ويتصرفان من نبع عقليتين مختلفتين توضح رواسبهما وتضفي ضوءا على شخصيتيهما.

وقد جرت وقائع القصة في بداية الستينات بعد وقوع تصدع في حزب الاستقلال (حزب المرحوم علال الفاسي) وتأسيس جزء من قيادته لحزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، وبعد أن انفصلت عن حزب الشورى والاستقلال (حزب المرحوم الوزاني) أغلبية أعضائه سواء على مستوى القيادة أو القاعدة.

في هذا الظرف السياسي الدقيق بالنسبة للزعيمين الكبيرين بلغ إلى علم المرحوم علال الفاسي أن زميله القديم متوعك في بيته، فسارع إلى عيادته متلطفا، فاستقبله الوزاني في فراشه، وسأله الفاسي عن حالته الصحية وعما إذا كان يعالج مرضه باستشارة طبيب متخصص، فأجاب الوزاني، أنه لا يرى ضرورة لاستشارة طبيب، مادام إنما يشكو من زكام ورشح خفيفين، وأنه يكتفي بشم " كموسة من فليو" أي صرة من الزعتر أعطاها له والده وهو يعتقد أنها ستبرئه من مرضه لأنه لاحظ بالفعل تحسنا، فقال علال الفاسي مخاطبا : دعك من " كموسة فليو" فلن تنفعك، وخذ بدلها (أنطي بيوطيك) (antibiotique) (أي مضادا حيويا) ،ونطق الفاسي الكلمة بالفرنسية محرفة، حيث استعمل الطاء بدلا من التاء).

أليس غريبا أن ينصح عالم القرويين بالاستشفاء بالمضاد الحيوي وينطق بلفظه باللغة الفرنسية، بينما ينازع خريج السوربون في ذلك، مفضلا التداوي بالمأثور من الأعشاب؟ إن انعكاس أدوار القصة يعني أن الرفيقين كانا في آخر عمرهما يسعيان للقيام بتنقيح ذاتي قاد الوزاني إلى المحافظة ووجه الفاسي نحو مداعبة التطور.

رحمهما الله رحمة المجاهدين الصادقين وأثابهما عما قدماه لأمتهما.

الفصل التاسع عشر

ظهور الأحزاب السياسية والاهتمامات المشتركة

تبرير حل الكتلة

أثمة علاقة حتمت تزامن انشقاق كتلة العمل الوطني واستصدار الإقامة العامة الفرنسية بالرباط قرارا وزاريا مؤرخا ب 18 مارس (آذار) يقضي بحلها ؟ وهل البلبلة التي أحدثها انشطار الصف الوطني شجعت سلطة الحماية الفرنسية على اتخاذ القرار، أم أن الأمر لا يعدو مجرد مصادفة؟

على كل حال فإن هذا القرار الذي نسب إلى الصدر الأعظم (رئيس الحكومة) جاء بعد أن انقسم الوطنيون، وإثر تسابق أنصار المرحوم علال الفاسي في 27 فبراير 1937 إلى فتح مركز رحبة القيس بمدينة فاس لتسجيل انخراطات أعضاء تنظيمهم السياسي، وذلك في الوقت الذي كان فيه المرحوم محمد بن الحسن الوزاني ما يزال يكتل أنصاره ويعد للإعلان عن تنظيمه السياسي بدوره.

وبررت الإقامة العامة قرار الحل بأن تنظيم علال الفاسي يتحدى القانون لأنه لم يرخص له بالوجود، ولأنه أخذ يوثق انخراط أنصاره فيه بالقسم على المصحف، ويستخلص منهم الحلف على كتمان الأسرار وتحمل التضحيات والولاء للكتلة ،وأنه يستخلص من المنخرطين فيه رسوما لا يعرف كيف تنفق، وأن كل ذلك يجعل منه تنظيما مشبوها وغير شرعي، ويطرح عن أهدافه وحقيقة تراكيبه أسئلة تظل بدون جواب، خاصة وأن نص اليمين لا يتضمن الولاء للسلطان، وأقحمت الإقامة العامة اسم السلطان دون أن يصدر عنه ما يؤذن بمعارضة قيام هذا التنظيم.

وأبلغ ممثلُ المقيم العام الرئيس علال الفاسي وصحبه قرار الحل . وربما قال - في جملة ما قال إن العلماء والفقهاء الذين استشارهم المخزن قبل الإقدام على حل الكتلة أفتوا بأن توثيق انخراط الأعضاء بالحلف على المصحف لا يقبله الدين، وأن اللجوء إلى القسم غير شرعي بالمعنى الديني للكلمة . ،هكذا اتخذت الإقامة العامة من كل خشب نشابا لتبرير قرارها.

واستخلص الزعيم علال وأنصاره ما عليهم القيام به، فعدلوا عن استخلاص القسَم وعن قبض الرسوم من المنخرطين وغيروا اسم " كتلة العمل الوطني " إلى "الحركة الوطنية لتحقيق المطالب' وأخذوا لفترة يمارسون نشاطهم الوطني تحت هذا الاسم . وكانت جريدة " العمل الشعبي"(L'action populaire) الصادرة بالفرنسية وجريدة "الأطلس" الصادرة بالعربية، تنطقان باسم " كتلة العمل الوطني" إلى صدور قرار حلها، ثم باسم " الحركة الوطنية لتحقيق المطالب".

لماذا الحركة؟

كان هناك اعتباران لاختيار هذا الاسم، فمن جهة لجأ علال الفاسي إلى تحايل قانوني يفلت التنظيم الجديد من ضرورة الخضوع لمقتضى القانون باعتباره حركة لا حزبا . وكانت القوانين الاستثنائية المفروضة لا تسمح للمغاربة بتأسيس الأحزاب كما لم تكن تسمح لهم بإصدار صحافة ناطقة بغير العربية. ومن جهة أخرى حـــــصرت " الحركة الوطنية" هدفها في تحقيق المطالب ،والإشارة هنا لمطالب " كتلة العمل الوطني " التي قدمها الوطنيون للجهات الرسمية في ديسمبر سنة 1934،مما يعني أن الحركة تعمل في نطاق الحماية، ولا تهدف إلى الانفصال ،ومن شأن ذلك أن يلين من صلابة موقف الإقامة العامة من هذا التنظيم، ويجعلها تغض الطرف عنه بعد أن أخذت قيادته علما بملاحظات المقيم العام.

وعلى ذلك دشن المقيم العام الجنرال نوجيس عهدا سياسيا جديدا دعي بعهد الانفراج السياسي، حيث سمح بإصدار صحافة وطنية باللغتين، وتغاضَى عن التجمعات الشعبية التي أخذت تنعقد في مراكز تنظيم الهيأتين السياسيتين بزعامة الفاسي والوزاني.

" الحركة القومية"

وكان الوزاني أعلن عن تنظيمه السياسي باسم " الحركة القومية" وأعاد إلى الصدوربالغة الفرنسية جريدة " عمل الشعب " كما أصدرت " الحركة القومية " باللغة العربية جريدة " الدفاع " التي كان على رئاسة تحريرها المرحوم عبد الهادي الشرايبي.

ويقول الوزاني في مذكراته :" إن الحركة القومية " لم تشكل صراحة باسم الحزب، وإن توفرت على جميع مقومات الحزب وخصائصه، لأن القوانين الاستثنائية المفروضة إذ ذاك من السلطة الاستعمارية كانت تمنع المغاربة من إنشاء الأحزاب. وحتى لا تجد السلطة المتربصة بنا أية حجة لتطبق علينا قوانينها الباغية أخفت " الحركة القومية" اضطرارا معالم الحزبية وشكلياتها ،وبهذا بقيت قائمة تحت مراقبة السلطة، ولم تجد الإقامة العامة مبررا للتعرض لقيامها".

" الحزب الوطني"

اجتاز تنظيم علال الفاسي في بداية صيف سنة 1937 مرحلة العمل باسم " الحركة الوطنية" إلى مرحلة العمل تحت اسم " الحزب الوطني لتحقيق المطالب" مما جعل الإقامة العامة الفرنسية تعود إلى التهديد بوضع حد لوجودالتنظيم، مثيرة شكلية قانونية هي أن الحزب هو الكتلة التي صدر قرار حلها ، وأن رئيسه هو رئيس الكتلة المنحلة، وأن تغيير الاسم - شكليا - لا يحمي التنظيم الجديد من الوقوع تحت طائلة التدبير الإداري الذي منعت بمقتضاه " الكتلة الوطنية" .وكان رد قادة الحزب بأنهم لم يكتفوا بتغيير الاسم ،وأنهم حذفوا شرط الحلف على المصحف من إجراءات الانخراط، وأنهم لم يعودوا يستخلصون رسوم الانخراط من الأعضاء، وأنهم اتخذوا للحزب الوطني مركزا جديدا بمدينة فاس، فلا علاقة بين الحزب والكتلة الوطنية المنحلة.

ولا يترك الوزاني المناسبة تمر دون أن يقارن بين توجهه السياسي القانوني السليم وبين تورط خصومه السياسيين في مشكل قانوني، فهو من جهته تجنب- كما قال- أن يفتح مركزا باسم حركته، وبالأحرى أن يحول اسمها إلى حزب ،وإنما فتح مركزا لجريدتي " عمل الشعب" و" الدفاع" وأبرز قيادة " الحركة القومية" على الواجهة باسم هيأة تحرير الجريدتين ،وإن كان المركز مجمع الأنصار وملتقاهم ،فأفلت بذلك - كما يقول- من الشكلية القانونية التي أثارتها سلطات الحماية ضد تنظيم علال الفاسي ومركزه ،خاصة وهو لم يربط قط الانخراط في حركته بأداء القسم أو بدفع رسوم،وكأنه يعطي بذلك درسا في السياسة والقانون لخصومه الذين فاتهم التقيد بهذه الشكليات فوقعوا في المحظور ،ويؤكد لنفسه وصف السياسي الخبير الذي اشتهر به.

ومنذ أن اختارت حركة الفاسي اسم الحزب أصبح أنصارها ينعتون بالحزبيين وأنصار الوزاني بالقوميين. ومن المؤكد أن هؤلاء الأخيرين كانوا وراء ترويج وترسيخ نعت الأولين بالحزبيين الذي يشير إلى ضيق الأفق مقابل اتساع الفكر عند القوميين. وكان الأولون يتضايقون من نعتهم ذاك إلى أن أعلن حزب الاستقلال سنة 1944 فكرسوا بقوة نعتهم بالاستقلاليين، هادفين من وراء ذلك إلى ترسيخ دعوى انفرادهم بالسبق إلى طلب الاستقلال، وسهل عليهم ذلك قبول أنصار الوزاني نعتهم بالشوريين بعدما أسس زعيمهم إثر عودته من منفاه سنة 1946حزب الشورى والاستقلال.

كانت تقوم على رأس تنظيم علال الفاسي - سواء باسم الحركة أو الحزب - رئاسة ذات رأسين : الرئيس علال الفاسي ،والأمين العام الحاج أحمد بلافريج . وكان الوزاني منطقيا مع نفسه ،فلم يرأس التنظيم الذي أنشأه ،ولم يحدث في نظام حركته منصب الرئيس الذي كان قد قال عنه بعد الاقتراع على أعضاء اللجنة التنفيذية للكتلة إنه لا ضرورة له لأنه منصب تشريف لا تكليف، كما أنه لم يخلق في حركته منصب الأمين العام وهو الذي سبق له أن طالب بأن يبقى توزيع المناصب والمهام في "كتلة العمل الوطني " رهنا بإدارة مجلس تأسيسي وبعد استشارة القاعدة، ومع ذلك فقد كان يشار إليه بنعت الزعيم دون معارضة منه كما كان ينعت بالوصف نفسه علال الفاسي بدون معارضته هو أيضا . ولم يأخذ الوزاني وظيفة الأمين العام إلا عند تأسيسه حزب الشورى والاستقلال سنة 1946 ،ولم يكن نظام هذا الحزب ينص على وظيفةالرئيس.

قضايا الهوية والإسلام

وكان الوزاني يبدي تضايقه من اختيار زملائه السابقين اسما لجريدتهم الفرنسية ("العمل الشعبي" L'Action Populaire) مقتبسا من اسم جريدته« عمل الشعب» (L'ACTION du Peuple)، ويعتبر أنهم بذلك قد سعوا إلى إثارة التباس يقصد منه ترويج جريدتهم على حساب جريدته " عمل الشعب" ذائعة الصيت، بحكم سبقها إلى ميدان الصحافة على عهد وحدة الصف الوطني . ورفعا لهذا الالتباس أخذ الوزاني ينشر السلسلة الجديدة من جريدة " عمل الشعب" وعلى صفحتها الأولى اسم الجريدة باللغتين الفرنسية والعربية معا.

ويمكن أن نرد سبب حرصه على إثبات اسم الجريدة باللغة العربية أيضا إلى

الاتجاه العربي الإسلامي الذي سعى إلى طبع حركته به منذ الإعلان عنها . وهو تحول طبيعي لكون القيادة التي اختارها للعمل بجانبه كانت من هذا الاتجاه بحكم انتمائها إلى جامعة القرويين ،ولأنه كان يريد أن ينافس خصمه السياسي عالم القرويين في مجاله الخاص ،ولأنه وجد من بين من يدعون من الفرنسيين بالمتخصصين في "السياسة الأهلية" من قال عن حركة الوزاني إنها حركة تجديدية لا دينية، تعارض النزعة التقليدية الطرقية التي نسبوها لعلال الفاسي . وقد أشرنا فيما سلف إلى أن منتمين آخرين إلى نفس مدرسة "خبراء" السياسة الأهلية عكسوا الأمر وهم يحللون أسباب الخلاف الوطني.

وكانت جريدة " الدفاع" الناطقة باللغة العربية باسم الحركة القومية وصنو "عمل الشعب" تنشر شعارات القومية المغربية، وتركز على مبادئها الستة وهي : الإسلام، والعروبة، والمغرب، والعرش، والشورى، والامتثال لواجب الرابطة العربية والجامعة الإسلامية.

وكان الوزاني حتى في جريدته " عمل الشعب" وهو يكتب مقالاته بلغة ڤولتير يحرص على الاقتباس من آراء سعد زغلول، ومصطفى كامل، وشكيب أرسلان، ويترجم إلى الفرنسية شعارات حركتهم، أو يستشهد بما جاء في خطبهم وأحاديثهم . ومن هذا التاريخ بدأ رحلته الطويلة لارتياد المناهج العربية فكرا وأسلوبا، والانصهار في الأصالة والتكيف بها شيئا فشيئا، حتى انتهى في آخر عمره وهو بالأصالة ألصق منه بالمعاصرة، وذلك بينما كان خصمه علال قد أحاط نفسه بالمثقفين باللغة الفرنسية وشق طريقه في رحلة طويلة معاكسة لخط سير الوزاني قادته إلى المعاصرة أكثر.

وقد تحدث الوزاني عن اتجاهه العربي الإسلامي هذا في مذكراته قائلا :" وكانت الحركة القومية لا ترتكز على العصبية القومية الضيقة التي تنحصر في وطن معين، وقوم خاصين، بل كانت تعتبر أن المغرب وشعبه جزآن لا يتجزآن من عالمي الإسلام والعروبة" ومع ذلك فلم ينعت حركته القومية بنعت العربية.

وهذا يفيد في تلمس سبب اختلاف النعتين البارز في اسم حركتي الفاسي والوزاني، إذ حملت الأولى اسم " الحركة الوطنية" والثانية اسم " الحركة القومية".

وتقول مصادر فرنسية إن دراسة مقارنة أجريت على مجموع الموضوعات والمحاور التي كانت تنشر بجريدة " عمل الشعب " (جريدة الوزاني باللغة الفرنسية) أثبتت أن القضايا العربية الإسلامية كانت تحتل نسبة 13٪ من مجموع اهتمامات

الجريدة، بينما أبرزت نفس الدراسة أن جريدة " العمل الشعبي" الناطقة باسم حزب علال الفاسي إنما كانت تخصص لها 5٪.

ولم يكن الاتجاه العربي الإسلامي يبدو على صفحات الجريدتين الناطقتين باسم "الحركة القومية " فقط وإنما تمثل أيضا في أخذ مبادرات دعت فيها " الحركة " الشعب المغربي إلى الإعراب عن انتمائه للعالم العربي الإسلامي وإعلان تضامنه مع قضاياه، ولا سيما القضية الفلسطينية التي دعا المؤتمر الإسلامي بالقدس الشعوب الإسلامية للمشاركة في يوم التضامن معها، فكانت " الحركة القومية " سباقة إلى توجيه النداء إلى الشعب المغربي للاستجابة إلى دعوة التضامن، وأبرزت فروعهافي يوم التضامن التعاطف المغربي في احتفالات وتجمعات بالمناسبة.

ومن ذلك أيضا ما كشف عنه الوزاني في مقالة نشرها في موضوع استقباله بمدينة فاس لرئيس " العصبة الدولية لمناهضة السامية " بيرنارلوكاش اليهودي الفرنسي الذي كان يصدر جريدة " حق الحياة" (Le droit de vivre) والذي زار المغرب طامعا في تحييد الوطنيين حيال مطالبة اليهود بتطبيق وعد بلفور . وذكر الوزاني أنه خلال هذا اللقاء اصطدم مع زائره في خصام سياسي محتدم لأنه كاشفه بأن " الحركة القومية " تنصر القضية الفلسطينية وتدعو إلى الرابطتين العربية والإسلامية، وأن هذا الموقف لم يرتح له محدثه، الذي قال عنه إنه وجد نفسه معه علي طرفي نقيض، لأنه صهيوني متعصب، وأضاف أن حركة علال الفاسي لم تقف من هذا الزعيم الصهيوني نفس موقفه.

ومن ذلك أيضا ما نشرته جريدة " الدفاع " من تبادل الرسائل بين الوزاني وأمين الحسيني في موضوع القضية الفلسطينية ،ورسالة التهنئة التي وجهها لرئيس الحكومة المصرية مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد بعد أن أفضت المحادثات المصرية البريطانية إلى تأكيد اعتراف حكومة لندن بالاستقلال المصري، وسلسلة المقالات عن العراق وسوريا ومصر لمقارنة أوضاعها السياسية السعيدة بوضع المغرب الشقي.

ومع ذلك لم يغفل الوزاني اهتماماته السياسية الأخرى المتصلة بالقضايا المعاصرة، خاصة بإعطاء حزبه فلسفة ديمقراطية عصرية : إنه يفخر بأن تكون حركته أول تنظيم سياسي في تاريخ الحركة الوطنية يعلن ما دعاه " ميثاق الحقوق القومية".

وبدراسة سريعة لهذا الميثاق نجده لا يعدو أن يكون تعريبا للبيان الذي أعلنته الثورة الفرنسية سنة 1789 المدعو " بيان حقوق الإنسان والمواطن".

لكن الوزاني بإعلانه اعتبار هذا البيان " دستور القومية المغربية" كان يرشق الفرنسيين بسهامهم، وكان يريد أن يضفي على حركته الصبغة الديمقراطية الغربية بنفس الفلسفة التي كانت وراء الإعلان الفرنسي . وهو بذلك قد قصد أيضا إلى تحصين حركته ضد تهمة الفاشية والتأثر بالإيديولوجيات الإطلاقية، وهي تهمة أخذت تصيخُ لها الآذان داخل المحافل السياسية الفرنسية في باريس، سواء الرسمية أو الشعبية، وتقيم جدران الريبة والشك بين الوطنيين وبين من كانوا يتعاطفون معهم حتى داخل جبهة اليسار الفرنسي . وقد نجحت إدارة الشؤون السياسية بالإقامة العامة بالرباط في جعل المسؤولين الفرنسيين بباريس يصدقون هذه التهمة بعد أن والت بعث سيول التقارير إلى باريس عن وجود يد أجنبية تحرك قادة الكتلة الوطنية السابقة، دون تمييز في اتهامها بين شقي الحركة الوطنية المنبثقين عن الكتلة.

خطاب سياسي موحد

وإذا استثنينا فارق طابع الحدة الذي اختاره الوزاني لطرح الاهتمامات الوطنية التي اعتبرها أساسية على صفحات الصحافة الناطقة باسم " الحركة القومية " ،فإن الخطاب السياسي لحركتي علال والوزاني ظل في هذه الفترة واحدا كما ظلت الاهتمامات السياسية والاجتماعية مشتركة، حتى لا يملك الملاحظ أن يرقب ما يوحى بوجود أي خلاف بين الحركتين : فكلتاهما تؤكد على برنامج الإصلاحات الذي أقرته " كتلة العمل الوطني " وتطالب بتحقيقه، وتندد بتلكؤ السلطات الاستعمارية في تطبيقه. وكلتاهما قامت بنفس النشاط الوطني الذي قامت به أختها وهما معا احتجتا بقوة على قرار حل " كتلة العمل الوطني" وواصلتا إرسال برقيات الاحتجاج على تصرفات سلطة الحماية إلى حكومة باريس وإلى الإقامة العامة بالرباط وخضعت صحافتهمامعا للتوقيف والحجب، واضطهدت الحماية أنصارهما بدون تمييز.

إلا أنه في مجال السياسة الخارجية توقف الوزاني عن الاتصال بأوساط باريس لإقناعها بتغيير سياستها في المغرب تاركا هذا المجال لقادة " الحركة الوطنية" (أو" الحزب الوطني" لتحقيق المطالب) ربما لأنه أدرك بعد الانشقاق أسبقية العمل الوطني في الداخل، أو أحس بخطئه في المراهنة على أسبقية العمل الخارجي الذي غيبه وشغله عن إعداد التنظيم في الداخل وادخر له مفاجآت غيرسارة، وربما لأنه لم يعد يملك الاختيار، فلا أحد من رفقائه في قيادة حركته وهم من ذوي الثقافة العربية

غير المزدوجة كان يمكن أن يمارس دوره السابق في التوجه بدله لباريس، ومخاطبة رجال السياسة فيها. ولم يكن في إمكانه الجمع بين توجيه صحافة حركته والسعي بنفسه إلى باريس لممارسة العمل السياسي الخارجي .

على العكس من ذلك كانت للحركة الوطنية لتحقيق المطالب أولا والحزب الوطني بعد ذلك وفرة من الاطر ساعدتهما علي تجزئة العمل في المجالين الداخلي والخارجي، فقد أخذ علال الفاسي واليزيدي زمام القيادة في الداخل، وقاد النشاط الخارجي كل من بلافريج وعمر ابن عبد الجليل وأصبحا يمارسان بباريس نفس النشاط الذي كان يمارسه على عهد " الكتلة" محمد بن الحسن الوزاني وحده أو بمساعدة عمر ابن عبد الجليل.

مرة أخرى شكيب أرسلان

وساعد عل بروز العمل الوطني - بشقيه -في مظهر الصف الموحد اتفاق القيادتين علي اعتبار الصحافة الوطنية سلاحا لمواجهة المستعمر ولتوعية الأمة، والبعد به عن إقحامه في موضوع الخلاف الذي فجر " الكتلة الوطنية " فلم تفتح صحافة الحزبين صدرها للتراشقات الحزبية، وظلت في مستوى الصحافة الملتزمة طيلة فترة صدورها إلى أن منعتها الحماية من الصدور ضمن الهجمة الشرسة التي شنتها ضد الزعيمين الوطنيين وحركتيهما في أكتوبر 1937. ومما يبرز ترفع الصحافة الوطنية عن الخوض في المهاترات ترحيب جريدتي " الأطلس" و" العمل الشعبي" الناطقتين باسم حركة المرحوم علال الفاسي بصدور جريدتي " عمـــــل الشعب " و" الدفاع " الناطقتين باسم حركة المرحوم محمد الوزاني.

ومرة أخرى نجد الأمير شكيب أرسلان وراء هذه الظاهرة الإيجابية الحميدة ،فقد كان ناشد قائدي الحركتين في رسالتين موجهتين منه إليهما أن لا يثيرا موضوع خلافهما في الصحافة الناطقة باسم حركتيهما، وأن يبقيا على الود والتواصل فيما بينهما.

وقد جاء في إحدى هذه الرسائل هذا النداء العاطفي البليغ: " إني ألاحظ بكل أسف أن الشقاق بينكم موجود ،ويأبى الله إلا ما يشاء، غير أنه ما يزال لي أمل في أن تسمعوا مني نصيحتي، وهي أن لا تدخلوا في جرائدكم مناقشات بعضكم مع بعض، إذ لو دخلتم فيها لفقدتم - أنتم الفريقين- أربعة أخماس مكانتكم السياسية والأدبية في وطنكم، ولكانت معاركم القلمية أشد ضررا بكم وبالمغرب عموما".

وأضاف أمير البيان :" إننا - نحن السوريين - ابتلينا بخلافات كخلافكم، وهو خلاف لا تخلو منه أمة ولا فرقة، وقد جرى بين الصحابة وهم أفضل منا ومنكم . وفي كل مكان وقع الخلاف يقع الضرر الشديد. وإني عندما أتصور أن أعز الناس علي وأغلاهم لدي : محمد الوزاني وعمر ابن عبد الجليل، وأحمد بلافريج، وعلال الفاسي، سيقع بعضهم في بعض يستولي علي من الغم ما لا أقدر علي وصفه ،فإن لم تستجيبوا لكلامي في قضية الصلح بينكم ،فاسمعوا بالأقل كلامي في سد كل باب للمناقشات فيما بينكم، فهذا من شأنه أن يذهب بهيبتكم جميعا ويقصم ظهرالقضية الوطنية .

يجوزلكم أن تبقوا فريقين، ولكن على أن يزور بعضكم بعضا وأن تتكلموا في المصالح العامة، ولا تثيروا موضوع الخصام في الصحف التي تديرونها من الجانبين " فما أصدق هذا البيان من أمير البيان!

بين الحزب الوطني والحركة القومية

خلال سنة 1937 أخذت أوزع يومي بين الدراسة في القرويين و الالتحاق دوريا بالخلية الوطنية التابعة «للحركة القومية» (حزب الوزاني) والحضور كل جمعة في الاجتماعات العلنية التي كانت «الحركة» تعقدها في مركز جريدتي «عمل الشعب» و «الدفاع» بحي القطانيين بفاس .

كانت دروس القرويين تكاد تستأثر بوقتي كله . لكني كنت أنتزع حصة من يومي أخصصها لما يمكن أن أسميه «المدرسة الموازية»، أعني ما كنت أتزود به من دورس السياسة والوطنية في الخلية، وفي الاجتماع الأسبوعي العلني بالمركز الذي كان يحضر إليه قادة «الحركة القومية» ويتحدثون فيه أمامنا، وما كنت أقرأه من منشورات سياسية، وما أصبحت أساهم به شخصيا في تطوير «الحركة» .

كل حزب بما لديهم فرحون

أصبحت مواظبا على قراءة الصحافة الوطنية لا يفوتني منها باب أو مقال . كنت أقرأ المقال وأعود إلى قراءته لا أذكر كم مرة مستمتعا ومستفيدا . وكنت أقارن بين ما ينشر على صفحات صحافة «الحركة القومية» التي أصبحت منتميا

إليها، وما تنشره صحافة «الحركة الوطنية لتحقيق المطالب» أي حزب المرحوم علال الفاسي الذي كان قادة «الحركة القومية» يثيرون - أمامنا عندما نجتمع في الخلية - انتقادات لخطته السياسية وأسلوب عمله، ويستخلصون من مقارنته بعمل «الحركة القومية» تفوق هذه عليه، وتوفقها في اختيار الطريقة المثلى لتوجيه العمل الوطني الوجهة الأصلح . ولم يكن الحزب الآخر يحيد عن نفس الأسلوب وهو يوجه في خلاياه الوطنية انتقادات إلى «الحركة القومية» ويبرر بدوره تفوقه عليها . وكل حزب بما لديهم فرحون .

لحسن الحظ كانت الصحافة الوطنية على اختلاف نزعتيها ممسكة عن الخوض في انتقاد الحزبين بعضهما لبعض، ومنصرفة إلى معارضة نظام الحماية الفرنسية التي كانت تلتقي على انتقاده أقلام الكتاب من الحركتين السياسيتين .

المدرسة الموازية

كنت أسجل في دفتر خاص ما أراه جديرا بالتسجيل، عند قراءتي الصحافة الوطنية، من أفكار وتعابير مصقولة وحكم وأمثال، وكنت أضع الدراسات أو الإحصائيات المتخصصة التي ألقاها في قراءاتي داخل ملف خاص، ثم أستعمل تلك القصاصات والإضبارات مراجع أعود إليها لأرسخ معطياتها في الذهن، وأستفيد منها عند الحاجة . لسوء الحظ ضاعت هذه الإضبارات أثناء حوادث المطالبة بالاستقلال في بداية سنة 1944 . وقد كنت تركتها بفاس بعد أن سكنت المدرسة الملكية بالرباط فأحرق والدي جميع وثائقي، ومنها مجموعة من قصائدي الشعرية التي كانت تشكل ديوانا، وذلك حيطة منه عندما علم أن أعوان الحماية أخذوا يفتشون بيوت الوطنيين للبحث عن وثائق لإدانتهم . ولم يكن له من الوقت ما يمكنه من النظر في محتويات وثائقي أو تهريبها إلى مأمن خارج البيت فسارع إلى إحراقها بالتمام والكمال شفقة منه على ابنه أن تناله بالسوء أيدي المستعمرين .

وكم تكررت خيبتي عندما كنت أفاجأ بأن جريدة «الدفاع» أو جريدة «الاطلس» قد حجبها الرقيب عن الصدور، أو أن الشرطة قد جمعتها من الأكشاك . وكانت الصحافة الوطنية تتعرض لهذه المضايقات من حين لآخر، مما كان يؤذن بأن عهد الانفراج السياسي الذي دشنه المقيم العام الجنرال نوجيس ليس إلا برقا خُلّبا لن يطول .

وإذا كانت الخلية الوطنية التي كنت أغشى اجتماعاتها دوريا قد سمحت لي بتبديد ظلمات خيبة حجز الصحف القومية، إذ كان مسيرو الخلية يطلعوننا سريا على الأعداد المصادرة من جريدة «الدفاع» فإن فضولي كان يبقى قائما لأن أعداد «الاطلس» المصادرة لا يطلع عليها إلا المنتمون للحزب الذي كانت الجريدة تنطق باسمه ولم أكن واحدا منهم .

وكنت أعاني من فراغ آخر لم أكن أملك له سدا، هو محتوى ما يصدر في صحيفة «عمل الشعب» الناطقة بالفرنسية باسم حركتنا القومية، وما كانت تنشره جريدة «العمل الشعبي» الناطقة بالفرنسية باسم «الحزب الوطني لتحقيق المطالب» . ففي الفترة التي أتحدث عنها لم أكن أقرأ اللغة الفرنسية، لكن كان يخامرني شعور متجذر في عمقي أن «عمل الشعب» التي كان يديرها زعيمنا محمد بن الحسن الوزاني كانت الصحيفة الوطنية الأولى التي لا يعلى في ميدانها عليها، وكانت الهالة التي كان يضفيها جميع من كانوا حولي على قلم الوزاني السيال باللغة الفرنسية توحي لي بهذا الشعور وتجذره في نفسي .

قيادة «الحركة القومية»

وكان لقاء يوم الجمعة بمركز القطانين بفاس يوفر لنا كل أسبوع الاتصال عن قرب بزعماء «الحركة القومية» الذين كانوا يتعاقبون لأخذ الكلمة أمامنا ونحن مصطفون جلوسا وهم من خلف حاجز خشبي منتصبون للحديث .

ما أزال أرى الفقيه محمد القري وهو يلقي علينا - شعرا أو نثرا - كلماته وتوجيهاته وينفعل لما يقول حتى ليتكبد الدم في وجهه المشرق الذي يسطع نوره دون أن يتزحزح هو عن مكانه، وإنما كان يظل ممسكا بالحاجز الخشبي الذي كان الخطباء يقفون وراءه شادا إليه قامته الرّبعة، وذلك على العكس من الحاج أحمد معنينو الذي جاء زائرا من سلا فتحدث إلينا وهو يرفع الصوت ويضرب على الخشبة، ويذرع جيئة وذهابا الحيز المكاني الضيق المخصص للخطباء، ويجبر الكلمات على الخروج من مخارجها، لأنه كان يشكو من صعوبة في النطق، وكانت خطبه مثار حماسنا . كما لا أزال أرى عبد الهادي الشرايبي وهو يتوجه إلينا بأحاديثه مختلفة المواضيع التي كان يزدحم فيها الأدب والتوجيه التربوي مع شؤون السياسة، لكنه لم تكن له نبرة معنينو الخطابية، فكانت نبرات صوته الهادئ تتحول إلى نغمة قارئ رتيب، لكنا كنا

نعرف كفاحه وضروب المحنة التي مر بها فكنا نتأثر لأحاديثه لما كنا نكن له من تقدير وحب.

ومن حين لأخر كان إبراهيم الكتاني يتحدث أمامنا عن الماضي والتراث والسلفية حتى أصبح في أعيننا خزانة مرجعية لهذه الشؤون، وكان حديثه ينفذ إلى قلوبنا بدون استئذان، تمهد له ابتسامة عفوية بريئة لا تكاد تفارق شفتيه، حتى ليتساءل سامعه وهو يتحدث إلينا عن «انطواء الاستعمار على المكر، وعن بيع الطرقيين أنفسهم للشيطان، وعن الأخطار المحدقة بالمغرب» - أكان يعيش حقا ما يقول، لأن ابتسامته العريضة تبدو في الظاهر متعارضة مع الصورة الجادة أو القاتمة التي كانت يعطيها عن المواضيع الخطرة التي كان يثيرها أمامنا .

وكان الزعيم الوزاني أقل رفقائه حديثا وأندرهم ظهورا في هذه الاجتماعات، وكان ذلك يعزى لاحتكار الصحافة والشؤون السياسية والقضايا الكبرى كامل وقته. لذلك لم يتيسر لي قبل منفاه أن أعرفه معرفتي لرفقائه وزملائه على رأس قيادة «الحركة القومية».

ولا أذكر أن رشيد الدرقاوي وقد كان عضوا في قيادة الحركة قد شارك في أحاديث الجمعة هذه، فقد كان عالما متضلعا وفقيها ممسكا بناصية دراسات القرويين، ولم يكن له نفَس الخطباء، كما لم يكن يشارك بمقالات في «الدفاع» وإن كان عضوا في هيأة تحريرها .

ومن بين القادة الذين كانوا بجانب الزعيم الوزاني الوطني الصادق الورع مولاي علي العراقي، والذي كان قد لقنني بمدرسة معلمي الكبير ابن عبد الله دروسا في تجويد القرآن، ولكنه لم يكن يحضر في اجتماعات التوعية يوم الجمعة بمركز القطانين، لأن هذا الوطني المجاهد نشأ وعاش متواضعا عازفا عن التظاهر بالعمل الوطني متسترا تستره بتقواه وصلاحه مخافة أن يعصي الله بالمُراآة، وطمعا في أن يتمحص عمله الوطني لوجه الله وحده .

وقد ظل هذا الوطني الكبير وفيا للوزاني منذ أن اختار الالتحاق «بالحركة القومية» وامتحن في مسيرة طويلة ضد الاستعمار بالسجن والتنكيل وضروب الأذى، وقابل أذاه بالصبر و الاحتساب معتبرا أنه «اختبار إلهي لا محيص للمؤمن عن تقبله بالرضا فلا يفعل ربك في جميع الأحوال إلا خيرا».

وعندما ظفر المغرب باستقلاله صارحنا - نحن رفقاءه في الكفاح - أنه قرر اعتزال العمل الوطني، لأنه لا يود أن ينغمر في المعترك السياسي الذي سيتخذ

له توَجُّها في عهد الاستقلال مغايرا لمعركة الجهاد ضد المستعمر التي انتهت بالتحرير وتوجت بالنصر على العدو، على حد قوله .

وقد اعتزل فعلا الحياة السياسية وكان يتتبع بحسرة ومرارة أنباء صراع الحزبين الوطنيين المغربيين الذي تميزت به فترة مؤلمة من عهد بداية الاستقلاله وكان يستعيذ بالله مما آلت إليه علاقات الوطنيين في هذه المرحلة من عداوة وكراهية . ويقول إن ذلك بَطَرٌ لنعمة الاستقلال التي حبا الله بها المؤمنين الصادقين في جهادهم طيلة عهد الحماية . وقد انصرف إلى العبادة والقنوت، ولزم بيته لا يغادره إلا إلى المسجد لأداء الصلوات الخمس، أو ليرحل إلى الحرمين الشريفين في رمضان وفترة الحج .

إنه المؤمن الصادق الذي تنطبق عليه أوصاف حديث سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله : فهو شاب نشأ في عبادة الله، وقلبه معلق بالمساجد، ولا يذكر الله أو يذكر بمحضره إلا فاضت عيناه .

ولا أحد في المغرب يملك أن يخدش عرض هذا المؤمن الصادق أو يطعن في جهاده وصلاحه وتقواه، فالكل يقر له أنه عاش طول حياته في هجرة إلى الله ورسوله، لا يفتر لسانه عن ترتيل القرآن، ولا ينقطع فؤاده عن ارتياد رحاب الإيمان في غير مراآة ولا تباه مبطلين للأعمال .

أمد الله في عمره، فما أعز في هذا الزمان نَظيره !

ومن بين خطباء مهرجان الجمعة مسير خليتنا إبراهيم الوزاني الذي قدمت صورته في صفحات سابقة، هذا الوطني الثائر الذي كان دائما على نقيض مع النسبية فيما يصدر عنه من أحكام على الاستعمار وخصومه السياسيين، وكانت خطبه - بالتالي - تقذف شرارات التحميس، وتحث على الثورة، وتحرض على سلوك سبل المغامرة في مناهضة الاستعمار مهما كانت عواقبها وأخطارها .

ويبقى عليّ لأختم قائمة الرجال الذين اختارهم الوزاني لقيادة الحركة القومية بجانبه أن أثير اسم الحاج عبد القادر العلج، الذي لم تكن له صلة فكرية بزملائه الذين أسلفت الحديث عنهم، لكنه كان وطنيا جريئا في الحق . كان في بداية الحماية الفرنسية يتمتع بحماية أمريكية كانت تقي ظهره من تعسف السلطة الفرنسية وتعطيه امتيازات الحصانة التي كان يتمتع بها المحميون المغاربة من لدن دول أجنبية، وكانت هذه الحمايات الخاصة قد مهدت لبسط حماية فرنسا على المغرب، فتخلى هذا الوطني عن هذا الامتياز ليصبح مواطنا عاديا معرضا للاضطهاد وقد قاسى منه الامرّ في سجون الحماية .

كان هو أمين صندوق الحركة القومية أو عديل المجاهد المرحوم أحمد مكوار الذي كان تقلد مهام الشؤون المالية في كتلة العمل الوطني على عهد وحدتها، ثم مارس المهام نفسها عندما حول أنصار المرحوم علال الفاسي الكتلة إلى «الحركة الوطنية لتحقيق المطالب "فالحزب الوطني "، وكنا نقول عن المرحوم العلج أنه مكوارنا.

وكانت أمانة الصندوق في الأحزاب السياسية الوطنية تسند بحكم الاختصاص الى شخصية تجارية مالية يوفر لها غناها وقناعتها شروط عفة اليد، وبجعلاتها قادرة على توفير استثمار عقلاني لمالية الحزب، وعند الاقتضاء عندما يفرغ الصندوق يصبح من واجبات الشخصية التي أسندت إليها مهمة تصريف المال أن تقدم من مالها الشخصي ما يعوض نقص الصندوق، أو أن تقرضه قرضا حسنا إلى وقت اليسر والرخاء .

وكان صندوق الحركة القومية يمر بأزمة الخصاص، فموارده لم تكن رسوم المنخرطين ولكن تبرعات المحسنين . وكان الحاج عبد القادر العلج يصمد كالجبل الراسخ في مواجهة المصاريف ويقف في خط معارض للإنفاق . وعندما تشح الموارد كان لا يبخل بماله في تفريج الأزمة المالية .

ولم أكن في الفترة التي أتحدث عنها قد اتصلت بقادة الحركة القومية خارج فاس، ولكني كنت ألتقط من بينهم أسماء إبراهيم الهلالي بمكناس، ومحمد الموقت بمراكش، وإدريس روداس بالرباط، وعبد السلام بنسعيد بسلا التي كان الحاج أحمد معنينو زعيمها« القومي» يزور لماما مدينة فاس .

في هذه المدرسة السياسية الوطنية وعلى يد هؤلاء الرجال كنت أتلقى تكوينا خاصا كان يكمل الثقافة التي كنت أتلقاها بالقرويين، ولكن يشكل امتدادا لتكوين الفقيه ابن عبد الله التي خصصت له صفحات سابقة .

وبين مدرسة الفقيه المربي هذا وبين المدرسة السياسية التي أتحدث الآن عنها نسب وصلة، فالأفكار الثورية المناهضة للاستبداد والهادفة لتحرير الشخصية والتي لقنني إياها ذلك المعلم القدير منذ طفولتي وجدتها ذاتها وأنا في مقتبل الشباب فيما كانت تدعو إليه الحركة القومية من أفكار ومواقف : ديمقراطية وشورى، وثورة على الاستبداد، واعتزاز بالشخصية، واستهانة بالتضحيات مهما غلت، وتحرير الفرد من عبادة الأصنام البشرية، وتمجيد القيم لذاتها، وإعلاء شأنها على ما سواها، وكأنما كانت أذني ترجع صدى الخطاب الذي تلقيته في مدرستي ولكن بفرق شاسع، هو أني في المدرسة كنت موضوع صياغة ذلك الخطاب، أما في مدرستي القومية، فقد

اكتشفت نفسي بوصفي مساهما في تطبيق الخطاب ذاته، وفي صنع الآخرين بمقتضاه.

ولقد زادتني الأيام اقتناعا بأن القدر أحسن حظي حيث انتميت إلى حزب سياسي لم يكن يتوفر على قاعدة أغلبية، مما جعل أطره الشابة تبرز على السطح، وتمارس من المهام في سن مبكرة مالم يكن لتمارسه نظيرتها في حزب كبير . وقد كنت بذلك محظوظا فقد طفرت إلى رتبة القيادة على رأس الحزب قبل أن أتجاوز عتبة العشرين من العمر، مما جعلني أشعر بثقل المسؤولية في تلك السن، وأرتاد مجالات مجهولة استفدت من ارتيادها، وأتحمل من المكاره ما يعادل ثمن الحظوة التي أنزلتني منزل القيادة .

دور الوزاني

كان دور الزعيم الوزاني في توجيه صحافة «الحركة القومية» واضحا ليس فقط على صفحات «عمل الشعب» الناطقة باللغة الفرنسية باسم الحركة، ولكن أيضا على صفحات جريدة «الدفاع» العربية حيث كان يكتب افتتاحيتها بدون إمضاء ويكتب مقالا رئيسيا بإمضائه . وربما كان دور عبد الهادي الشرايبي المدير رئيس التحرير إضفاء الصبغة العربية السليمة على المقالات التي كانت تترجم إلى العربية وتنقل عن جريدة «عمل الشعب» أو عن الصحافة الأجنبية مما ينشر في باب أقوال الصحف بالإضافة إلى مقاله الأسبوعي . كما كان الشهيد محمد القري يكتب بإمضاء «بدوي» تحت عنوان دائم : «صراخ المضطهَد».

وكان الوزاني يتميز عن رفقائه بالمقالات التي كان يخصصها للرد على تصريحات المقيم العام الفرنسي الجنرال نوجيس وعلى خطبه، خاصة منها التي كان يوجهها المقيم العام إلى أعضاء مجلس شورى الحكومة، وهو المجلس الذي كان قد تألف من ممثلي الجالية الفرنسية الذين كان المقيم العام يحاورهم ويشركهم في قراراته، ويستصدر منهم الموافقة على سياسة تسيير الإقامة العامة لشؤون المغرب .

وكانت مناقشات هذا «البرلمان» الفرنسي المقام على أرض أجنبية (المغرب) بدون إرادة أصحاب البلاد ورغم معارضة السلطان محمد بن يوسف تهدف لإقرار سياسة فرنسية خطرة تتعارض مع احترام سيادة المغرب التي تعهدت فرنسا كدولة حامية للمغرب باحترامها والتقيد بمقتضياتها في مجالي التشريع والتنظيم، إذ كانت تسود الإقامة العامة نزعة سياسية مكشوفة لكي تقوم داخل هذا المجلس غرفة

فرنسية تنتخب الجالية الفرنسية ممثيلها فيها لممارسة سلطات واسعة كهيأة تشريعية منتخبة من «أمتهم». وكان المقيم العام الجنرال نوجيس لا يجرؤ على تبني هذا الاتجاه لسببين : لأن حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية التي وضعته على رأس السلطة في المغرب كانت ترفض هذا الاتجاه، ولأن السلطان، الذي كان الجنرال يراهن على الاحتفاظ بمودته وثقته، كان يهيب بالمقيم العام أن لا ينتهج من السياسات ما يتنافى مع عقد الحماية نصا و روحا .

وإلى ذلك أومأ الجنرال نوجيس في تصريحه القائل :« إن الحكومة الفرنسية مجمعة على أن ليس في الإمكان أن ينال الفرنسيون في المغرب حق التقرير داخل الهيآت الخاصة بهم، وأنه لا يجوز تشريك الفرنسيين في تدبير شؤون المغرب دون أن يحسب لسلطة جلالة السلطان حسابها، تلك السلطة التي تعهدت فرنسا بصيانتها».

الخطاب المضاد

ومن يقرأ مقالات الوزاني يستوقفه عندها أسلوب النقد المباشر الذي كان يتميز به، حيث كان يبرز ما في تصريحات خصمه من ضعف أو خلل، ثم يرد عليه فقرة فقرة . وقد كان نقد خطاب واحد يأخذ منه حجم مقالين أو أكثر، مما جعله يتخصص فيما يصح أن أطلق عليه «الخطاب المضاد». وقد دشن هذا المنهج السياسي منذ أن أخذ يصدر السلسلة الأولى من «عمل الشعب» على عهد كتلة العمل الوطني، واستمر على ذلك في عهد «الحركة القومية» على صفحات «الدفاع» وأصبح ذلك عنده أسلوبا تقليديا بعد عودته من المنفى سنة 1946 وحمله سلاح القلم من جديد على صفحات «الرأي العام» بعنوان «الغمرات» لنقد خطب المقيمين العامين، ولا سيما ردوده النارية المسهبة على خطب المقيمين العامين إيريك لابون، والجنرال جوان الذي تصدى للرد على جميع خطبه طيلة وجوده على رأس الإقامة العامة بالرباط، والجنرال جيوم .

واستعمل نفس الأسلوب للرد على خطب المسؤولين الفرنسيين . فقد ساجل في ردود مسهبة رمادي (Ramadier) ولوطروكير(Le trocquer) ووزراء آخرين في حكومات فرنسية متعاقبة، دون أن ننسى انتقاداته التي كان يوجهها بصراحة لتصريحات الرئيس السابق بورقيبة لقبوله حل الحكم الذاتي لتونس بدلا من الاستقلال .

.. وحركة علال الفاسي

وإذا كنت بحكم انتمائي للحركة القومية قد شددت إلى صحافتها وخطابها السياسي فقد كنت أقرأ بتمعن واستفادة سلسلة أعداد جريدة «الأطلس» الناطقة بالعربية باسم الهيأة الوطنية التي كان على رأسها المرحوم علال الفاسي، وكانت تلتقي مع ما كانت تنشره «الدفاع» من آراء ومواقف من سياسة الحماية الفرنسية. وقد استفدت الكثير مما كتبه فيها الوطنيون القادة : علال الفاسي، والحسن بوعياد، والهاشمي الفيلالي، وعمر ابن عبد الجليل، وأحمد بلافريج، وعبد الله إبراهيم وغيرهم .

ربما كان حزب المرحوم علال الفاسي يتوقع استهداف الحركة الوطنية للمؤامرة الاستعمارية التي ستسفر عن وجهها في أكتوبر 1937 عندما ضرب المقيم العام الحزبين الوطنيين ضربته المؤلمة في هجمة شرسة شلت العمل الوطني لمدة، لذا نجد هذا الحزب في مقالاته متمسكا بالأهداف ولكن مغلِّفاً أحيانا الدفاع عنها في مرونة سياسية قصد تأخير استحقاق شل العمل الوطني، وسعيا لكسب الوقت لترسيخ قواعده الشعبية .وهكذا تابع ضغطه - بالحوار - على حكومة الجمهورية الشعبية الفرنسية حتى عندما استقال ليون بلوم (Léon Blum) وخلفه على رأس الحكومة «كامي شوطان» (Camille Chautemps).

لقد جدد قادة الحركة الوطنية لتحقيق المطالب على صفحات جريدة «العمل الشعبي» ثقتهم في حكومة الجبهة الشعبية وفي حكمة رئيسها الجديد، وذلك في الوقت الذي كتب فيه الوزاني يستنكر على حكومة الجبهة الشعبية موقفها السلبي من قضية المغرب ويكتب في حدته المعروفة على صفحات «عمل الشعب»:«قد يكون العالم كله بكى لاستقالة ليون بلوم إلا المغرب، لأن رئيس حكومة الجبهة الشعبية الراحل أغلق أذنه عن سماع مطالبه وشكاويه طيلة عهد حكومته التي رحلت غير مأسوف عليها، وإن كامي شوطان الذي يرأس الحكومة الفرنسية لن يكون أفضل من سلفه الراحل بلوم».

ويمكن القول إن قادة الحركة الذين كان على رأسهم علال الفاسي كانوا يعملون

لتقعيد حزب حقيقي له التزامات وعليه مسؤوليات في الداخل والخارج، وكان هذا يحتم عليهم سلوك نهج الاعتدال الذي كانت صحافتهم تعكسه، بينما كان رجال الحركة القومية يولون الأسبقية للعمل الداخلي لتركيز حزبهم الذي لم يكن قد ركز قواعده، لذا فضلوا مواصلة عملهم باسم «الحركة» التي قادها قائد وطني نفض يده من الاهتمامات الخارجية، وتمحص لكسب سند الرأي العام في الداخل بالتركيز على النشاط الصحفي الذي كان عنده أساس كل عمل . وتجاوب هذا الاتجاه المنكفئ مع طبيعته في اتخاذ المواقف الصريحة، بأسلوب الهجوم، والخطاب المضاد .

الفصل العشرون

المغرب
في عهد الجنرال نوجيس:
الإنحدار إلى الهاوية

ماذا يعني التغيير ؟

منذ فرض الحماية الفرنسية على المغرب في 30 مارس 1912 وإلى سنة 1937 التي تحدثنا في صفحات سابقة عن التطورات السياسية التي حفلت بها وتميزت خاصة بجو انفراج سياسي، تعاقب على رأس الإقامة العامة بالرباط ستة مقيمين عامين، كان أولهم الجنرال (الماريشال فيما بعد) ليوطي الذي غادر المغرب سنة 1925، وخلفه على التوالي ستيغ (Steeg)، ليسيان سان، (Lucien Saint) بونصو، (Ponsot) بيرطون (Peyrouton) . وكان المقيم السادس هو الجنرال نوجيس (Noguès) .

فهل كان تغيير المقيمين العامين يعني تغيير سياسة الحكومة الفرنسية حيال المغرب ؟ . وهل يمكن ربط اسم كل مقيم بسياسة مخالفة لسلفه أو خلفه ؟ .

يمكن الجواب بنعم ولا. لأن السياسة الفرنسية في جوهرها لم يحدث فيها تغيير، ولأن أساليب المقيمين العامين تغيرت ولكن دائما في خدمة السياسة الفرنسية في جوهرها وتوحدت في تطبيقها بطرائق مختلفة .

عُرف الجنرال " ليوطي" بالتظاهر بتطبيق روح عقد الحماية في العهد الذي لم يكن قد جف فيه مدادها، وبمجاملة السلطان والتودد إليه، وبأسلوب إظهار القوة حتى لا تبقى ضرورة لاستعمالها . وغادر المغرب سنة 1925 فركز بعده خلفه " ستيغ " على سياسة ترسيخ الاستعمار بتمكين المعمرين من الأراضي الزراعية الخصبة.

وتميز عهد " ليسيان سان " بالسياسة الهادفة لتقسيم المغرب إلى عربي وبربري. ولما كان " بونصو " يمتهن الديبلوماسية فقد تظاهر بالملاينة، ولكن ليطبق تحت ستارها سياسة المقيمين العامين الثلاثة الذين سبقوه، ثم لم يلبث أن أسقط عن وجهه القناع لمواجهة الحركة الوطنية بالسياسة الفرنسية الحقيقية المتنكرة لكل تغيير وإصلاح، الساعية لتجريد الحماية من محتواها واستبدال الحكم الفرنسي المباشر بها .

وعندما بدا التناقض جليا في سياسة هذا المقيم العام الديبلوماسي واستحال

عليه التوفيق بين إرضاء مطالب المستعمرين وخاصة المعمرين، وبين الاستجابة لسياسة الإصلاح التي طالب بها الوطنيون، سارعت الحكومة الفرنسية إلى تعيين " بيروطون " على رأس الإقامة العامة بالرباط، فدشن سياسة هوجاء لصالح الجالية الفرنسية المشتطة في مطالبها الاستعمارية. وبدا عليه فقد التوازن العقلي حين شتم من منصبه السامي بالرباط حكومته وأخذ يتآمر ضدها بعطفه على الفاشية الفرنكوية التي انطلقت من شمال المغرب .

نوجيس المقيم السادس

وكان المقيم العام السادس في هذه السلسلة هو الجنرال نوجيس . وقد حضر إلى الرباط تتجاذبه وتتفاعل فيه شخصيات متنوعة، فهو المقيم العام العسكري الثاني بعد الجنرال ليوطي، وشارته العسكرية مؤشر لجنوح الحكومة الفرنسية إلى استعمال القوة عند الاقتضاء لمواجهة أية قوة ضاغطة تعارض سياستها في المغرب، سواء أكانت فرنسية أم وطنية.

وهو في الوقت نفسه مقيم عام حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية اليسارية الليبرالية المتعاطفة - ظاهريا - مع الحركة الوطنية قبل تسلمها الحكم. وهو أيضا تلميذ الجنرال ليوطي الروحي وأحد معاونيه المباشرين الذين عملوا بجانبه في فترة من عهده، وهو المدير العام للديوان العسكري التابع للمقيم العام ستيغ . وبحكم اختصاصاته في هذا الديوان شارك في تنظير قمع حركة الريف وحمل قائدها على الاستسلام للجيش الفرنسي، وهو ضابط عسكري ممتاز وقائد كبير لفرقة المشاة، وقد شارك بنجاح في الحرب العظمى (أو الحرب العالمية الأولى)، وهو يحمل شهادة مؤسسة بوليتكنيك (Polytechnique) التي لم يكن يحملها في عهده إلا النخبة .

شخصيات في شخص واحد

جميع هذه الصفات والمميزات كانت تتفاعل في نفس هذا المقيم عندما عينه "ليون بلوم " (Léon Blum) على رأس الإقامة العامة بالرباط. وهذه الأوصاف التي تختزن تناقضات أثارت ردود فعل مختلفة على إثر تعيينه : عنه كتبت جريدة " المغرب الاشتراكي" (Le Maroc Socialiste) الصادرة بالمغرب والناطقة باسم

الاشتراكيين الفرنسيين القاطنين بالمغرب : " وأخيرا عين على رأس الإقامة العامة مقيم جمهوري"(كذا) ، وذلك في نفس الوقت الذي ابتهجت لتعيينه الجالية الفرنسية اليمينية وكتبت عنه في جريدتها" الرقيب المغرب" (La vigie Marocaine) : لأول مرة يصل مقيم عام جديد للمغرب وقد سبقته إلى الرباط تمنيات النجاح وتزكية إجماعية".

وهو المقيم العام الأول الذي تطلعت إليه قيادة كتلة العمل الوطني وانتظرت الحكم عليه إلى ظهور حقيقة سياسته. وكان كل شيء يؤشر إلى أنها لن تكون إلا سياسة تحريرية في عهد حكومة فرنسية يسارية اتخذت قرارا حكيما بتخليص الاقامة العامة من مقيم أخرق (بيروطون) .

وتفاعل الشخصيات في شخص هذا المقيم العام، والنظرات المختلفة في تقييم حقيقته التي أثارها هذا التفاعل فيمن تعامل معه من فصائل المجتمع التي واجهها في المغرب بسياسته دفعت براصدي سياسته إلى القول إن الانفراج الذي طبقه في المغرب إثر وصوله إلى الرباط كان من وحيه الخاص ومن منطلق إيمانه بنجاعته كسياسي ديبلوماسي متحرر لا تنافي في تنظيره وسلوكه مع أوصافه وميزاته العسكرية، مما يعني أن الرجل فريد، وأن توازنه الذاتي وتكيفه مع الظروف ساعداه على التغلب على تضارب شخصياته .

ولا أعتقد أن تكون سياسة الانفراج السياسي التي لم تطل على عهده قد جاءت من اجتهاده الشخصي، فقد زودته حكومته اليسارية - لامحالة - بتعليماتها العامة في وجهة التحرر والانفراج، وتركت له حرية التصرف في التطبيق. وقد قيل إنه كان يتمتع بثقة الرئيس " بلوم " كما كتب البعض أنه كان يملك سحر التأثير على مخاطبيه، وأنه بالتالي استهوى الرئيس " بلوم " ومر التيار بينهما بيسر، وأنه حضر إلى الرباط متمتعا بسند حكومة باريس لتطبيق أية سياسة ملائمة، ثقة منها في قدرته على مواجهة أي وضع بالأسلوب الملائم .

ثلاث واجهات ومرحلتان

وفي فترة قصيرة خطط الجنرال نوجيس لسياسة واضحة الهدف تعمل في ثلاث واجهات وتنفذ على مرحلتين. وكانت الواجهة الأولى هي واجهة السلطان. ويظهر أن الجنرال اختار للتعامل معها أسلوب والده الروحي الجنرال " ليوطي "، فتودد إلى

السلطان محمد بن يوسف وظهر أمامه بمظهر الحريص الذي لا يتساهل في الحفاظ على سلطة السلطان كمخاطب وحيد للحكومة الفرنسية، ولا يطبق معه من السياسات إلا ما يتفق مع مقتضيات عقد الحماية التي تضبط علاقات المغرب وفرنسا .

حوار مع السلطان

وللتدليل على حسن النية حرص المقيم العام على تجنب أسلوب المقيمين العامين السابقين ففتح الحوار مع السلطان، وأبدى له رغبته في تطبيق إصلاحات اجتماعية وثقافية واقتصادية في دائرة احترام الحماية بموافقته ومشاركته .

وقد وجد السلطان في الجنرال نوجيس محاورا من نوع جديد يختلف عن المقيمين الخمسة الذين سبقوه، والذين لم يكونوا يتحاورون مع المغرب بروح المودة التي تحلى بها المقيم العام في مخاطبته وسلوكه .

واستثمر السلطان هذا النوع من الحوار ليحصل لشعبه على مكاسب أصبح تحقيقها يؤكد أن دور السلطان التاريخي في المغرب يظل دورا أساسيا حتى في عهد الحماية بوصفه المؤتمن الوحيد على سيادة المغرب وحاضن شرعيته .

وراهن السلطان على أن تستفيد بلاده من حواره مع المقيم العام بما يجعل تفاهمهما مثمرا في مجال درء خطر الحكم الفرنسي المباشر الذي كانت الإقامة العامة تعمل لإقراره متجاهلة دور السلطان كمؤتمن وحيد على شؤون رعاياه .

أما " نوجيس " فقد تطلع إلى أن يحقق بحواره مع السلطان نظرية الجنرال " ليوطي" الذي كان يقول : " إن المثل الأعلى لحكم المغرب هو أن يكون على رأس الحكم قيمان على السلطة : السلطان والمقيم العام معا " .

ولا شك أن الذي جعل السلطان أيضا يطمئن إلى نجاعة حواره مع الجنرال نوجيس هو تطبيق هذا الأخير سياسة الانفراج التي تمثلت في تحرير السجناء السياسيين، والسماح بإصدار الصحافة الوطنية، وتأسيس الأحزاب السياسية. وكان هذا النهج السياسي في نظر السلطان هو الاتجاه الصحيح، وفي ظله قامت علائق حميمة بينهما لم يسبقها ولم يأت بعدها نظير في جميع عهود المقيمين العامين .

وقد ظل السلطان محمد بن يوسف مرتبطا بصداقة شخصية مع الجنرال نوجيس حتى عندما جرد هذا الأخير بعد الحرب العالمية الثانية من جميع مناصبه وأصبح مواطنا فرنسيا عاديا، وأبى إلا أن يستقبله بالمغرب كصديق عندما أصبح المغرب

مستقلا، فالسلطان كان مطبوعا على خصلة الوفاء، ومعروفا بحرصه على استثمارات الصداقة الشخصية والحفاظ عليها، وهو إن كان وجد نفسه أحيانا غير متفق مع تصرفات الجنرال نوجيس، فإنه لم ينس له أنه دشن معه عهدا جديدا انتهج فيه أسلوبا مغايرا لأسلوب المقيمين العامين الآخرين، خاصة منهم الذين اشتطوا في استعمال السلطة إلى حد الجرأة على هيبته والدخول معه في مواجهة سافرة .

وفي فترة الحوار القائم بين الطرفين استطاع السلطان أن ينتزع من الإقامة العامة بعض المكتسبات في ميدان التعليم وفي مجال الإصلاح الاجتماعي. ومن ذلك متابعة سياسة توسيع شبكة المدارس الحرة، ونشر التعليم العربي الإسلامي، وتحسين أوضاع التعليم في جامعة القرويين، ونجاح السلطان في إعطاء ابنه ولي عهده تربية مزدوجة داخل المعهد الملكي الذي أصبح يزاول التدريس فيه أساتذة مرموقون متخصصون في المواد التي كانوا يلقنونها وكان من بينهم فرنسيون ومغاربة .

وقد كان السلطان معروفا بتعطشه إلى تربية أبنائه وأبناء شعبه وفتح أبواب التعليم في وجه الجميع، معتبرا أن المغرب إنما ابتُلي بالاستعمار نتيجة تأخره الفكري وانتشار الأمية والجهل فيه، وأن التعليم وحده قادر على انتشاله من المصير الذي انتهى إليه . وقد راهن السلطان على التقليص من عمر الاستعمار بمد شبكة المدارس وخنقه بإحكام شد حبل العلم على عنقه . ولما كان يؤمن بأن الاستعمار لا يعيش إلا في محيط التخلف، وأن التخلف لا يعيش إلا داخل العقول، فقد كان يحاول غزو الأفكار بالعلم حتى لا يجد الاستعمار له ملجأ أو مأوى .

وإذا لم يكن السلطان تجاوز في تحقيق المنافع - بحواره مع المقيم - هذا المدى الذي يبدو لأول نظرة محدودا، فإنه - وهذا أهم - قد درأ عن المغرب بعض المضار التي كانت تحوم حوله وتسعى لتطويقه، ذلك أن الجنرال وجد نفسه في ظل الحوار مع السلطان مرغما على أن لا يتبنى بالجملة والتفصيل مطالب الجالية الفرنسية التي كانت تريد من المقيمين العامين السابقين أن ينتهجوا في المغرب نفس السياسة الفرنسية المنتهجة في الجزائر التي كان الاستعمار يدعوها " المقاطعات الثلاث الفرنسية " .

الواجهة الثانية

وواجهة الجالية الفرنسية هذه هي ثانية الواجهات الثلاث التي طبق حيالها " نوجيس " سياسة متميزة، فقد كان يشير دائما - كما كان يفعل الجنرال ليوطي -

إلى وضع المغرب المتميز كبلد تحت الحماية، ويؤكد على سلطة السلطان وضرورة التفاهم معه . وكان الحوار المستمر بين الطرفين يؤكد للمقيم العام أن الأرضية الوحيدة التي توفر استمرار الحوار وحتى التعاون بينه وبين السلطان هي قاعدة الحماية التي كان السلطان متشبثا بنصها وروحها، ومعارضا كل ما يتنافى معها، سواء تعلق الأمر بخيار الحكم الفرنسي المباشر، أو بخيار ازدواجية السلطة (المغربية الفرنسية).

وفعلا فإن أطماع الجالية الفرنسية في ابتلاع المغرب منيت بخيبة في ظل حوار المقيم والسلطان، حيث لم تتميز علاقتهما بالأزمة السياسية التي طبعت علاقات السلطان بالمقيمين الذين تعاقبوا بعد الجنرال نوجيس على الإقامة العامة بالرباط .

ومع ذلك تابعت مجالس الجالية الفرنسية (التي أقامها المقيمون العامون السابقون) نشاطها، وظل الموظفون السامون العاملون بالإقامة العامة والإدارات التابعة لها يمثلون أمام أعضائها ليقدموا إلى ممثلي الجالية تقاريرهم، وليأخذوا بآرائهم ولنقل بتعليماتهم، بالرغم من أن السلطان كان يعارض وجود هذه المجالس غير الشرعية. وقد كان موضوع مجالس الجالية الفرنسية من المواضيع الرئيسية التي كان يثيرها السلطان في حواره مع المقيم العام ويطالب هذا الأخير بمراجعة وجودها .

التربص بالوطنيين

وكانت واجهة الوطنيين هي الواجهة الثالثة التي كانت عند المقيم العام من الخطورة إلى درجة أنه خطط لمواجهتها بالمكر والدهاء، وهيأ لاقتحامها الظروف التي مكنته - على مراحل - من ضربها ضربته المحكمة .

وقد تدرج نحو شعور الكراهية للوطنيين والتبييت للمكر بهم عبر مراحل، ففي بداية عهده كان يريد أن يمارس على الحركة الوطنية نوعا من الرعاية الأبوية التي تسمح للأب بمعاقبة أبنائه عند الاقتضاء . ففي مقولة مشهورة تضمنها خطاب ألقاه بفاس بعد تسلمه منصب المقيم العام بتاريخ 20 أكتوبر 1936 جاء ما يلي :

" إن الوطنيين يشبهون الأطفال الذين يعصون آباءهم، لكن من حق آبائهم وواجبهم أن يفرضوا عليهم الحجر لصالحهم إلى أن يدركوا سن الرشد".

وسمح له خياله الخصب أن يتحدث مرة أخرى عن الوطنيين بقوله :" إن الوطنيين يشبهون في تصرفهم الطائش الفراخ التي لازالت لم تنبت لها أجنحة، وهي مع ذلك تريد أن تترك عشها لتطير. وهي تجهل أنها تعرض بذلك نفسها للسقوط والكسر".

ثم أخذ يسعى إلى إعطاء يساريي حكومة الجبهة الشعبية صورة عن الحركة الوطنية في عهدها الجديد مغايرة لصورتها السابقة عندما قدمت برنامج الإصلاحات سنة 1934، حتى لاتعود متمتعة بالعطف الذي ظفرت به آنذاك من بعض شخصيات اليسار، ومنهم من أصبح وزيرا في حكومة الجبهة الشعبية .

وقد كانت الجالية الفرنسية - وخاصة اليمين الذي كان يشكل أغلبيتها - تضغط عليه لوضع حد لسياسة الانفراج التي دشنها تجاه الحركة الوطنية، وتهيب به أن يشل النشاط الوطني الذي كانت تصفه بالمتمرد أو المخرب، لكن المقيم العام كان يعلم أن حكومة الجبهة الشعبية لن تعطيه من باريس النور الأخضر لانتهاج هذه السياسة. لذا عمل على التمهيد لدى الحكومة الفرنسية بإرساله إليها تقارير موجهة تلفت أنظارها إلى تورط الحركة الوطنية في سياسة معادية لفرنسا، وتبرز الفرق بين برنامجها السياسي المعلن خلال سنة 1937 وبرنامجها السابق الذي كان عبارة عن مطالب معقولة كان الوطنيون يريدون من الحكومة الفرنسية إنجازها دون أن يضعوا نظام الحماية الفرنسية موضع التساؤل أو النقاش .

ويبدو واضحا من محتوى تقارير الإقامة العامة عن الحركة الوطنية إلى هيآت باريس المسؤولة أن الفكر الاستعماري الذي طبع دائما عقلية حاشية المقيم العام وأعضاء الجالية الفرنسية اليمينية، أجهد نفسه - مدفوعا بالحقد والكراهية - في تأويل خطاب الوطنيين السياسي بما يجعل منه خطابا مثيرا للشعور الفرنسي، وحتى خطابا يحتضن شبح مؤامرة خطيرة تدبر ضد الوجود الفرنسي في المغرب .

إن الوطنيين، بمقتضى تقارير الإقامة العامة وما كانت تبعث به إلى باريس "طبقة الأعيان " التي قامت على رأس الجالية الفرنسية ليسوا سوى جماعة محدودة العدد ليست لها قاعدة تمثيلية شعبية وهمها معارضة كل إصلاح تقوم به الإقامة العامة بالمغرب، وهي تمارس نشاطا مشوشا وعملا مخربا غايته إبعاد الوجود الفرنسي عن المغرب وطرد الفرنسيين، وتوطيد الحضور الفاشي بالمغرب، أو استبدال النفوذ العربي الإسلامي بالترابط مع فرنسا التي يكن لها أولئك الوطنيون مشاعر الحقد والكراهية .

وقد ركزت تقارير الإقامة العامة حملتها النفسية في وجهة حكومة باريس على اتهام الوطنيين بتلقي توجيهات للثورة على فرنسا داخل المغرب من الحركات السياسية في مصر والشرق الأوسط، وتوجيهات مماثلة من حركة اليسار المتطرف في فرنسا، وذلك بعد أن حاول رجال الإقامة العامة اتهامهم - قبل حضور نوجيس إلى

المغرب - بالتآمر على فرنسا مع الفاشية الإسبانية، ثم مع معسكر المحور .
وتضمنت هذه التقارير والمذكرات اتهام الوطنية المغربية أيضا بمناهضة السامية وبسعيها إلى التآمر على وجود اليهود بالمغرب، واستهداف العنصر اليهودي الموجود بالمغرب لخطر مجزرة استئصالية من طرف المسلمين المتأثرين بدعوة الوطنية التي تدين بالإسلام " الحقود المتطرف "

وكل تهمة من هذه التهم كانت تستهدف أن تضع الحكومة الفرنسية في موقف التربص بالمخاطر التي يدبرها الوطنيون، وأن تؤمن بأنهم يهيئون " انتفاضة شعبية " جارفة للوجود الفرنسي . وقد انطلقت على صفحات الجرائد الفرنسية التي كانت تنطق باسم الجالية الفرنسية صيحات التحذير من أن تظل الحكومة الفرنسية ترقب هذا الوضع الخطر دون اتخاذ التدابير اللازمة لتلافيه .

وفي ذلك كتب بوزي (Bozzi) رئيس الغرفة الفلاحية بالدار البيضاء إلى رئيس الحكومة الفرنسية : " إن أقلية متمردة من المغاربة جمعت حولها أتباعا من صغار الشباب، ونشرت الحقد ضد الأوروبيين واليهود في نفوس " الأهالي " وأصبحت حركتها في غليان، وهي تتأهب للسطو على البرآء في الأحياء الأوروبية وحي اليهود بالمدن، وسيكون ضحيتها المعمرون الفرنسيون القاطنون في البوادي، ولن تستطيع أية قوة ردع هؤلاء إذا لم تتدارك الحكومة الفرنسية الوضع باستعمال القوة".

الانتفاضة الشعبية في طورها الجديد

عندما كان المقيم العام الجنرال نوجيس يطبق في المغرب سياسة متميزة حيال الواجهات الثلاث التي كان عليه أن يتعامل معها : واجهة السلطان، وواجهة الجالية الفرنسية، وواجهة الوطنيين كان المغرب يعيش أزمة اقتصادية خانقة من جراء تعاقب سنوات الجفاف التي أضرت بالمحصول الزراعي، وأشاعت المجاعة في البوادي، وأودت بحياة الآلاف من الجائعين، وساهمت في حدة ندرة المواد الغذائية وارتفاع الأسعار في المدن . وهذا الوضع الخطر ساعد على انتشار المرض بين السكان ولاسيما وباء الحمى الصفراء المعروف باسم التيفوس (Typhus) وجعل الناس يتشاءمون أكثر من كل وقت مضى من عهد الحماية الذي رددوا عنه أنه شؤم كله .

تدابير لا نتيجة لها

وكانت التدابير العلاجية والوقائية التي اتخذها المقيم العام لمواجهة هذا الوضع المنذر بانتشار الموت هزيلة وبعيدة عن أن تؤدي اغراضها . وقد وصفتها مذكرة بعث بها حزب علال الفاسي إلى الحكومة الفرنسية بتاريخ تاسع يوليو (تموز) 1937 بأنها أنصاف تدابير لا تحقق نتيجة تذكر . وهي المذكرة التي حملها إلى الوزير الفرنسي فرنسوا دوطيسان (François De Tessan) كل من الحاج أحمد بلافريج وعمر ابن عبد الجليل في نطاق سياسة الاتصال مع باريس التي حافظ عليها هذا الحزب . وكان الوزير الفرنسي من بين من تعاطفوا مع مطالب الكتلة الوطنية سنة 1934 .

بداية اليأس

وقد آمن الوطنيون - سواء من حزب علال الفاسي أو من حزب محمد الوزاني - مع مرور الأيام أن الحريات المحدودة التي سمح المقيم العام لهم بممارستها لاتكفل حل المشكل السياسي الاقتصادي الذي تضاعفت حدته بفعل الجفاف وما ترتب عليه من عواقب اجتماعية خطيرة من جهة، ولإصرار الإقامة العامة على الذهاب بعيدا في تطبيق سياسة الحكم المباشر من جهة أخرى . وكانوا يعلنون صيحات الاستنكار للوضع ممزوجة بالإعراب عن مخاوف المستقبل . وكانوا يلوّحون بأنهم سيضطرون إلى إعلان يأسهم من الوصول إلى أي تفاهم مع الحماية.

لقد كتبت " الحركة الوطنية لتحقيق المطالب " في المذكرة المشار إليها تقول - بعد أن حكمت بالعجز الشامل على عمل الحماية بالمغرب - : " نفهم أن مطالبنا التي نلح على تحقيقها قد تحتاج إلى وقت، ولكننا نريد من الحماية الفرنسية أن تتعهد علنا بتطبيقها وأن تسير قُدُما على طريق تحقيقها " .

بينما كتب محمد حسن الوزاني في جريدة " عمل الشعب " أسبوعا قبل تاريخ هذه المذكرة (فاتح يوليه (تموز) 1937) مقالا مما جاء فيه قوله : " من الضروري المستعجل وضع حد لنظام الحكم الفرنسي المباشر على المغرب، والسماح للشعب

المغربي بإدارة شؤونه العامة بواسطة مجالس تمثيلية منتخبة " (الشيء الذي كان ينم عن اتجاهه السياسي منذ هذه الحقبة في وجهة النظام الديمقراطي الذي أصبح حزبه يشير إليه إثر رجوعه من المنفى سنة 1946 : حزب الشورى والاستقلال).

وأضاف يقول : " إن الأيام تمر، ولا يظهر ما يؤشر لتغيير سياسة فرنسا في المغرب . ونحن نلاحظ أن الحماية لم تستجب لمطالبنا المشروعة بالقيام بما هو مطلوب منها عمله . وربما ليس ببعيد ذلك اليوم الذي سنلاحظ فيه إفلاس نظامها، ونكون فيه مضطرين إلى إقبار ما بقي لنا من أمل " .

تطورات خطيرة

يمكن القول إن فترة التسعة أشهر التي عرف فيها المغرب عهد الانفراج السياسي حفلت بتطورات جعلت منها فترة مخاض، فترة سارت الأحداث خلالها بسرعة أفضت إلى مجاهرة المقيم العام بسياسة المعاداة للحركة الوطنية وإنزاله بالحزبين الوطنيين ضربته التي مهد لها وأمن لها موافقة الحكومة الفرنسية عليها .

كانت الإقامة العامة خلال هذه الفترة تتبع بقلق وحذر تطور الوضع السياسي في البوادي لأكثر من سبب : لأنها لم تكن تقبل أن تنتقل عدوى الحركة الوطنية من المدن إليها، ولأنها لم تنس مقاومة البادية المسلحة التي أذاقت رجال الحماية الامرّين طيلة اثنتين وعشرين سنة امتدت منذ بسطت فرنسا حمايتها على المغرب سنة 1912 إلى سقوط آخر جيوب المقاومة المسلحة سنة 1934، ولأن الوضع الاقتصادي تردى إلى حالة مزرية صعبت مواجهتها، ولأن الوطنيين أخذوا يسجلون نجاحا مضاعفا في نشر دعوتهم خارج المدن، وأصبح للحزبين الوطنيين فروع ممتدة في القرى والجبال، وأصبحت البادية تتجمع وتتظاهر للاحتجاج على سياسة المراقبين المدنيين الفرنسيين، وسادها جو من التوتو جعل الإقامة العامة تحسب له ألف حساب .

أما الحزبان الوطني والقومي فقد كانا أمام خيارين : خيار الاقتصار على الضغط - بواسطة الصحافة - على الإقامة العامة لتحقيق " برنامج المطالب " والاكتفاء بتنظيمين سياسيين من نوع أحزاب الأطر أو النوادي السياسية، أو خيار تحويل تنظيميهما إلى حزبين جماهيريين يستهدفان تعبئة الأمة حولها وتدريب أنصارها لخوض مواجهة الإقامة العامة عند الاقتضاء .

واختار الحزبان الخيار الأخير، خاصة بعد أن وصلا إلى مفترق الطرق الذي بدا

فيه بكل وضوح أن الحماية لا تعبأ بمطالب الأمة ولا تستجيب لنداءات قيادتها، وأنها ماضية في برنامجها القائم على التجهيل والتفقير والتسويف بقصد كسب الوقت لتحقيق المزيد من المكاسب لدعم نظامها .

انتفاضات شعبية

وقد بدا واضحا أن الحركة الوطنية أصبحت حركة جماهيرية، وأنها تجاوزت في ظرف سبع سنوات الحدود التي نشأت فيها سنة 1930 عندما كانت مظاهرات الاحتجاج على الظهير البربري تنتشر بمدن فاس والرباط وسلا والدار البيضاء، ويتردد لها صدى محدود خارجها. أما في سنة 1937 التي نتحدث عما حفلت به من تطورات، فقد غدا الشعب ينزل إلى الشارع في المناطق التي تقول عنها سلطة الحماية إنها مناطق آمنة لا يتسرب إليها الاضطراب، فكانت مفاجأتها المخيبة لآمالها هي تظاهر الشعب في مكناس التي تعتبرها نقطة عسكرية تمسكهابقبضة حديدية، وفي مدينة مراكش التي يمارس عليها باشاها الكلاوي (المدني) سلطة قهرية دونها سلطة الحكم العسكري العرفي. وكان الكلاوي يدعي ويتباهى بأنه يحكم منطقة مراكش بدون شريك، وأن الحركة الوطنية التي يقودها فتانون مخربون في المدن التي لاتخضع له لن تجد لها منفذا إلى منطقة حكمه ما دام هو على رأس السلطة. وكان حكمه امتداداً لعهد الإقطاع والتسخير والتحقير والعود بالإنسان إلى عصور الحكم البدائية التي تخلصت منها البشرية بكفاح مرير، لكن رجال الإقامة العامة بالرباط اطمأنوا إلى فعالية هذا الحكم البائد وباركوا للكلاوي ممارسة سلطته المطلقة على منطقة مراكش، بالرغم من أنهم كانوا يمثلون في المغرب فرنسا ثورة حقوق الإنسان والمواطن، كما لو كانت مبادئ الثورة الفرنسية بضاعة غير قابلة للتصدير إلى مستعمرات فرنسا ومحمياتها.

وتوالى مسلسل المفاجآت عندما تظاهر سكان مدينة الخميسات وقبائل زمور، وكانت الإقامة العامة تعتبر هذه القبائل مهيأة للإدماج في المنطقة البربرية التي كانت تريد أن تقيم بها حكما بربريا منفصلا عن الكيان المغربي، وتعتبر الخميسات مؤهلة لتكون عاصمة الكيان البزبري الذي كان يداعبها خلقه ودعمه .

ثم زاد الطين بلة نزول شعب البادية هنا وهناك إلى الشارع للتظاهر ضد نزع ملكية الأرض لفائدة المعمرين الفرنسيين، أو احتجاجا على إرهاق سكان البادية

بالجبايات، أو على معاملة القهر التي كان يمارسها المراقبون الفرنسيون المعززون بالقواد المغاربة المتعاونين مع الاستعمار. وقد أبرزت هذه الحقبة أسماء قبائل وجهات في البادية مرتبطة بحركة الاحتجاج السياسي على الوضع المزري الذي خلقه الحكم الفرزنسي الشاذ . إن قبائل أزرو، وبني مكيلد، وزيان، وآيت يوسي، وبني يازغة، وبني وراين كانت منطلقات انتفاضات شعبية في وجه الاستعمار برهنت على أن المغرب كله يغلي على نار متقدة واحدة، وأن الحركة الوطنية لم تعد - كما قال عنها الجنرال نوجيس - حركة فراخ لم تنبت لها أجنحة .

وفي هذه الانتفاضة الشعبية تحطمت الحواجز بين أنصار الحزبين الوطنيين، والتقوا على أرضية واحدة لربح الرهان في معركة التحدي التي شنتها الحركة الوطنية التي أصبحت موحدة الصف على صعيد القواعد الشعبية .

تعطيش مدينة كاملة

في نطاق السياسة الاستعمارية التي اختارت لها النمط الاستيطاني لتوطيد الوجود الفرنسي على حساب المغاربة، تحلبت أشداق المعمرين للاستيلاء على الأراضي الزراعية المغربية الخصبة المحيطة بمدينة مكناس، وقد وصل المعمرون الفرنسيون إلى هذا الهدف بتمليكهم من لدن سلطات الحماية الفرنسية ضيعات زراعية حافلة بالعطاء، مما أصبح معه مالكوها الأصليون يجترون البطالة والفقر، أو يعملون أجراء عند الملاك الجدد.

وكانت الخطوة الثانية التي أقدمت عليها الحماية هي تحويل مجرى مياه وادي (نهر) بوفكران الواقع قرب المدينة إلى وجهة هذه الأراضي . وترتب على ذلك " تعطيش " المدينة بكامل مرافقها : انحبس الماء بين عشية وضحاها عن المنازل، وافتقده المؤمنون في المساجد لأداء صلاتهم، ولم تعد المدينة تتوفر على الماء الشروب لأن النهر كان مصدر شرابها الوحيد، وتوقفت المطاحن، وذبلت أغصان الزيتون في مكناسة الزيتون وزاد كل ذلك في ترسيخ آثار الأزمة الاقتصادية بالمدينة .

الماء ماؤنا

في فاتح شتنبر (أيلول) سنة 1937 دعا الوطنيون بمكناس السكان إلى التظاهر بالشوارع. وكان المتظاهرون يرفعون لافتات حملت شعارا واحدا كان يصيح به المتظاهرون فيجلجلون أرجاء مكناس، وتصل أصداء أصواتهم إلى مكاتب المسؤولين الفرنسيين بالمدينة .

كان الشعار واضحا:" الماء ماؤنا تفديه أرواحنا، ولا نسمح بقطرة منه للمعمرين".

ومن الحزب الوطني والحركة القومية تكونت " لجنة الدفاع عن ماء أبي فكران" من سبعة عشر عضوا، وهي التي أطرت حركة الاحتجاج الشعبي، وهيأت العريضة التي أمضت عليها 1486 شخصية تمثل السكان من مختلف الاتجاهات والطبقات والتي تضمنت المطالبة بإبطال القرار الذي حوّل مجرى الماء .

حجارة وعصي

كان مشهد المظاهرة رائعا، فالشعب المكناسي الأعزل مستهدف لنيران البنادق التي تصوبها إلى صدره قوات القمع، ولكن طائفة من المتظاهرين تمكنت من قذف الجيش بالحجارة ردا على الطلقات النارية، فسقط الشهداء وجرح أفراد من الجيش وعوض الدم المراق بالمدينة ماء النهر المفقود، تماما كما نعيش إلى اليوم ملحمة البطولات الخالدة التي يخوضها شعبنا في فلسطين المحتلة، بفارق واحد، هو أن ملحمة الحجارة المباركة استمرت وتنامت محققة انتصاراتها، بينما استمرت ملحمة مكناس بنفس الآثار ولكن على صعيد محدود .

كان المتظاهرون بمكناس يستعملون العصي أيضا لضرب أرجل الخيل التي تحمل الجنود، حتى إذا كبا الحصان وسقط الفارس هجموا وانتزعوا السلاح، وقد شوهد من نجحوا في هذه العملية الجريئة يتأبطون سلاحهم ويمضون معلنين " الجهاد الجهاد" وذلك في الوقت الذي كانت فيه النساء يقذفن الجيش بالحجارة من سطوح المنازل .

كان المتظاهرون يسارعون لحمل الشهداء إلى المسجد الأعظم، ثم لدفنهم بمقبرة الشهداء بلباسهم. وقد اعترف البلاغ الرسمي أن عدد القتلى من المتظاهرين بلغ ثلاثة عشر، وعدد الجرحى منهم خمسين، وأن جرحى الجيش بلغوا اثنين وخمسين، ولكن الوطنيين يؤكدون أن هذه الأرقام دون الحقيقة بكثير .

وعندما أصدرت المحكمة التي أقامتها السلطات الاستعمارية حكمها بالسجن على الوطنيين " رؤوس الفتنة " كما وصفتهم، وحدت في حكمها الجائر بين قيادة الحزبين، فضم السجن مثلا محمد برادة من الحركة القومية، وأحمد بن عبد السلام بن شقرون من الحزب الوطني مثلما وحدت طلقات النار الفريقين في الموت والشهادة .

باشا المدينة يتضامن مع المتظاهرين

تضمن سجل هذه الأحداث الدامية مفاجأة أعلن عنها باشا (محافظ) المدينة الحاج أحمد السعيدي الذي صرح للسلطة المحلية وللجنة الدفاع عن ماء بوفكران" بأنه يتعاطف مع حركة الاحتجاج الشعبي، لأنه يعتبر نفسه أحد الملاكين المتضررين من قرار تحويل مجرى النهر، فعليه أن يدافع عن حقه هو الآخر. ومن هذا الاعتبار فهو يعتبر نفسه مواطنا وليس باشا المدينة . وقد أدهش موقف الباشا سلطات الحماية وأربك مواقفها .

وقد تابعت الصحف الوطنية مسلسل انتفاضة مكناس، ووقف الحزبان الوطنيان وراءها يسندانها ويعززان مواقف شعب مكناس الباسل .

سارعت جريدة " الدفاع " الناطقة باسم الحركة القومية إلى نشر تفاصيل أحداث مكناس على صفحتها الأولى وصبغت بالمداد الأحمر المشير إلى الدم المراق عنوانها الذي جاء فيه :" فاجعة مكناس العظمى . الشعب المكناسي يناضل عن حقه في الحياة ". وكانت جريدة " الأطلس" لسان الحزب الوطني لتحقيق المطالب " قد خصصت مقالا للأحداث في عددها الثلاثين، لكن الإقامة العامة أصدرت قرارا بحجب العدد. وخصصت جريدة (L'action populaire)" العمل الشعبي" الناطقة باسم الحزب الوطني عددا للفاجعة فمنعت الإقامة العامة الجريدة من الصدور .

تهديد

وظلت جريدة " الدفاع" توالي تعاليقها على الأحداث وتتصدى للرد على التهم التي كانت الحماية الفرنسية تلصقها بقيادتي الحزبين الوطنيين، وتشير إليهما على أنهما وراء تدبير حركة الاحتجاج الشعبية العارمة وأن الوطنيين يتحركون بأيد أجنبية . وكانت الصحافة الاستعمارية تردد هذه التهم على صفحاتها وتهيب بسلطات الحماية أن تنزل ضربة قاضية على الحركة الوطنية تضع بها حدا للاضطرابات السياسية.

وعندما قطع المقيم العام الجنرال نوجيس رحلته إلى فرنسا وعاد منها مسرعا لزيارة مكناس للاطلاع عن كثب على ماجرى تبنى جهرا ماررددته الصحافة الناطقة باسم الإقامة العامة والجالية الفرنسية وقال :" إني مصمم على الضرب على أيدي المشاغبين والمهيجين الذين يسخرون أنفسهم لخدمة الأجانب أعداء فرنسا . فتصدت له جريدة " الدفاع " في عددها السادس بتاريخ خامس أكتوبر 1937 بنشرها مقالا معنونا ب "حركتنا بين القذف والوعيد " وتابعت في العدد السابع دفاعها عن الحركة الوطنية بعنوان :" لسنا بمهيجين ولكننا طلاب حق وحماة شعب."

وقد سبق للجريدة في عددها الخامس أن ردت على تهمة التهييج المنسوبة للوطنيين تحت عنوان " الحق فوق القوة ".

نائب بالبرلمان الفرنسي يحضرللتحقيق

وعلى إثر برقيات الاحتجاج التي وجهها الحزبان الوطنيان إلى باريس أوفد البرلمان الفرنسي لجنة برلمانية مركبة من ثلاثة أعضاء كان على رأسها النائب ميير موريس باز (Maurice MEyER PAZ)، واتصلت بالمرحوم الوزاني الذي استقبلها ببيته بفاس وأقام على شرفها مأدبة عشاء ببيته حضرها المرحوم علال الفاسي (هكذا يبدو أنه لم تكن بين الزعيمين قطيعة في هذه الفترة)، ثم واصل الحزبان اجتماعهما بهذه اللجنة، حيث كان الوزاني مرفوقا برشيد الدرقاوي، وكان

علال الفاسي مرفوقا بعبد العزيز ابن زاكورالذي كان يلازم الزعيم الوزاني ويساعده في إصدار "عمل الشعب" ويفتح بيته للاجتماعات، والذي عذب وسجن مرارا .

ولم تضع تضحيات شعب مكناس، فقد أذعنت السلطات الفرنسية في آخر الأمرإلى مراجعة سياسة توزيع مياه النهر، بعد أن غرقت في بحر الدماء الذي سال في مظاهرة الاحتجاج والسخط، وأعادت جزءا من تلك المياه إلى مجاريها، وظلت انتفاضة مكناس معلمة تاريخية متميزة في سجل الكفاح الوطني خلدها الكتاب وتوقف عندها المؤرخون، وأهاجت عاطفة الشعراء، ومن بينهم الشاعر الطيب العلوي الذي وصف أحداثها في قصيدة مما جاء فيها :

لله في أرض المغارب جنة ... سحرت قبيلا أنفس الشعراء
فتفننت في مائها وهوائها ... نظما ونثرا جلة الفضلاء
حتى بدت فوق البلاد حماية ... كسيت بالاستعمار شر رداء
تبتز ما للمواطنين وتعتمي ... خيراتهم وتُرْدِيهُم لفناء
ياويح قومي كيف تصبح دارهم ... إن جنبا عنهَا غير رواء
فإذا البواسق في الحدائق ذبل ... شجل الهجير بها ذيول ذكاء
زكوا مياهكم بنهرق الدما ... إن الدماء تطيب ريح الماء
إن الحياة مع المذلة موتة ... ودفاع صول خطة الأحياء
حب الحياة أقامنا في الذل مذ ... خفنا الممات فجاء من تلقاء

«التبيان لحركة ماء أبي فكران»

حرص إبرهيم الهلالي عضو "الحركة القومية" ومسؤولها الأول بمكناس وكان أحد قادة الانتفاضة - على إصدار كتاب خاص عنها تحت هذا العنوان، ضمنه تفاصيل دقيقة عن أسباب الانتفاضة وتطوراتها وأسماء شهدائها وجرحاها، وتحدث عن مشاهد بطولاتها، معززا دراسته بالصور والوثائق، غير مغفل في نهاية الكتاب إثبات بعض ما كتب أو قيل عنها .

وكان في كتابه شاهد عيان ولسان صدق، فقد كان أحد أعضاء "لجنة الدفاع عن ماء أبي فكران"، وهو الذي قاد مع زميله الأجاني المظاهرة الثالثة بساحة الهديم بالمدينة، وكان ضمن الوفد الذي حاورته السلطات الفرنسية وعلى رأسها الجنرال كايو حاكم مكناس العسكري .

أبرز الهلالي الدور التوجيهي الذي قامت به الحركة القومية وزعيمها الوزاني الذي زار المدينة واجتمع بقيادة الانتفاضة بمجرد ما صدر قرار تحويل مجرى النهر، وقال عنه إنه خطط عرائض الاحتجاج التي رفعها الوطنيون إلى السلطان والمقيم العام والحاكم العسكري بمكناس، وتحدث عن نشاط أعضاء الحزب الوطني في قيادة الانتفاضة، وعن الاتصالات التي ظلوا يجرونها مع الزعيم علال الفاسي بمقره بفاس، حيث لا تبعد مكناس عنها إلا بستين كيلومترا .

ويبرز الكتاب التحام القاعدة الشعبية المتضامنة أمام المستعمرين في جبهة متراصة تلاشت معها الحواجز الحزبية .

إبراهيم الهلالي

ومؤلف هذا الكتاب وطني صادق من الرعيل الأول الذي عمل في كتلة العمل الوطني، منذ حوادث سنة 1930، والتحق بالحركة القومية بعد انشطار الكتلة، وحوكم بالمحكمة العسكرية الفرنسية بمكناس في حوادث المطالبة بالاستقلال سنة 1944، والتحق بحزب الشوري والاستقلال (الامتداد للحركة القومية) عند تأسيسه سنة 1946، وظل منذ ذلك عضوا في مكتبه السياسي .

أشرف على فروع هذا الحزب بنواحي مكناس، وكان داعية مربيا وطنيا في قبائل الأطلس التي كان يعرف أصولها وفروعها، ويتحدث عن مداشرها وأفخاذها حديث الخبير، لأنه كان خريت طرقات، يذرع المسافات ويقتحم المداشر والخيام، متنقلا بين قبيلة وأخرى، ينفق من ماله الخاص (وكان يتعاطى التجارة) ويفتح بيته على مصراعيه للزوار الوافدين من القبائل لطلب المساعدة أو للتظلم، فلا يهدأ له بال حتى يستجيب ويساعد ويعطي. أو ذي أذى شديدا بحملات قذف شنها عليه خصومه السياسيون فقابلها بالاحتساب والصبر وبتلاوة القرآن الذي يحفظه عن ظهر قلب برواياته السبع .

سياسة القمح تبلغ الذروة

ظلت الإقامة العامة بالرباط ترسل تقاريرها عن نشاط الحركة الوطنية المغربية إلى حكومة باريس مثيرة انتباهها إلى خطره على استمرار الوجود الفرنسي

بالمغرب، ومتهمة الوطنيين بإثارة الهيجان والفوضى لشل مجهود الحماية الفرنسية، وبتواطؤهم مع النازية والفاشية، وبتبييتهم مؤامرة على السلطان والحماية معا لفرض إرهابهم .

المبررات الواهية

وعندما سقطت الحكومة الفرنسية التي كان على رأسها ليون بلوم Léon BLUM الاشتراكي يوم 21 يونيه (حزيران) 1937 وخلفتها حكومة كامي شوطان (CAMILLE CHAUTEMPS) الراديكالي تحرر الجنرال نوجيس من هاجس طالما ضايقه وعانى منه، أعني تخوفه من أن يسير في خط معاكس لنهج حكومة بلوم الذي عُرف عنه تعاطفه مع مطالب الحركة الوطنية المغربية، وأمل المقيم العام أن يلقى من الرئيس شوطان وحكومته آذانا صاغية لتقبل اتهاماته التي تضمنتها تقاريره إلى الحكومة الجديدة بأسلوب أ قل تحرزا، وعمل لتكييفها والتأثير عليها لتبني سياسة الشدة حيال الوطنيين .

وقد سطت الإقامة العامة على أحداث مكناس الدامية لتبرر بها اتهاماتها السابقة، وخاصة بعد أن عمت المغرب كله موجة سخط تجلت في المظاهرات الشعبية التي كان عدد من المدن المغربية مسرحها للمطالبة بإطلاق سراح معتقلي مكناس، وفي مظاهرات متفرقة قامت إما للدفاع عن مصالح حيوية محلية، أو لحماية شعائر مقدسة، أو ردا على استفزاز سافر من السلطة .

البؤساء يتظاهرون

في أواخر شهر شتنبر 1937 حضر إلى المغرب في زيارة رسمية نائب كاتب الدولة الفرنسي في الأشغال العمومية بول رماديي (Paul Ramadier) ونظمت الإقامة العامة له زيارة لمدينة مراكش التي كان وجود الباشا الجلاوي على رأس حكمها يؤمن لها - في رأي السلطات الفرنسية - الأمن والاستقرار، ويبعد بها عما سمي ب" التهييج الوطني". وكان المفروض أن تمر زيارة الوزير يوم 24 شتنبر في جو يسوده الهدوء، ويبرز فيه احتفاء المراكشيين بمقدم الضيف الكبير الذي كان يرافقه المقيم العام الجنرال نوجيس .

والعادة في الزيارات الرسمية التي كان يقوم بها لمختلف الجهات في المغرب المسؤولون الأعلون على عهد الحماية أن تقوم السلطات المحلية بحملة تنظيف سابقة للمدينة، وأن تأخذ الأرض زخرفها وتتزين احتفاء بالزائر، وأن يختار لاستقباله من السكان من يلوح على أجسامهم مظاهر النعمة، ومن تحمل وجوههم أمارات الرضى والارتياح، وأن تنحّى من المدينة مظاهر البؤس، حتى يأخذ الزائر فكرة زائفة عن الأوضاع، ويعود إلى فرنسا وقد اطمأن إلى نجاح السلطات المحلية في أداء مهمتها .

وقد تفنن الباشا الجلاوي وخليفته البياز في ترتيب ظروف الاستقبال للزائر الكبير بمساعدة ممثلي الإقامة العامة بمراكش. وكان الهدف إبراز حقيقة مغرب آخر، ليس هو مغرب مكناس ولا مغرب المدن المتمردة .

وكانت المفاجأة تظاهر خمسة الاف مواطن ومواطنة اعترضوا سير موكب الوزير الرسمي حفاة عراة يتخطفهم البؤس، وتلوح عليهم آثار الفاقة والجوع . وقد أفلحوا في اختراق الحواجز، وواجهوا الوزير الفرنسي بصياح : " نريد الخبز" «يسقط الاستعمار» قاذفين في وجهه شرارات غضبهم .

وقد قال المرحوم علال الفاسي في كتابه :" الحركات الإستقلالية " ." إنهم لم يتركوا الوزير الفرنسي إلا بعدما اقتطعوا منه - وهو يحاول التملص منهم - أجزاء من جبته وسراويله " مما اضطرت معه السلطات المحلية إلى تحويل اتجاه موكب الوزير وأرغمه هو على قطع زيارته الرسمية .

إثر ذلك وجه الجنرال نوجيس إلى وزير خارجية فرنسا تقريرا مما جاء فيه : "إن المظاهرة لم تكن لا تلقائية عفوية، ولا لها سبب أو مبرر، وإنما هي مدبرة من الوطنيين بقصد " بهدلة " السلطة والمس بنفوذ الحماية ".

لم تكن الإقامة العامة لتتصور أن تدخر لها مدينة مراكش الآمنة هذه المفاجأة المخيبة، وخاصة بالحجم الكبير الذي تمثلت فيه . فباشا مراكش (محافظها) كان يفرض على المدينة سلطة لا يحدها قانون، وكان يحكمها "بالكلمة" يلفظ بها فيسارع أعوانه إلى تنفيذها . وكانت السلطات تتجمّع في يده دون توزيع .

كان يحكم بالجلد المبرح على من يعصي أوامره وتعاليم أعوانه، وكان يصدر الحكم بالنفي من مراكش على من يعتبره غير مرغوب فيه . وحتى عندما أخذ المقيم العام - في بداية سنة 1937 التي نتحدث عن تطوراتها - يطبق في المغرب سياسة الانفراج، توقفت هذه السياسة عند حدود منطقة مراكش وكأنها منفصلة عن

المغرب، فقد كان الباشا يمنع الصحافة الوطنية المأذون لها بالصدور من الرواج في منطقة نفوذه، ويتهدد بالويل من تسول له نفسه فتح فرع لأي حزب وطني فوق تراب " باشويته ". وكان يؤكد للإقامة العامة الفرنسية أنه بممارسته سلطة الحاكم بأمره يوفر للوجود الفرنسي شروط الأمان، ويحصن منطقته من كل تمرد وهيجان .

وفي نطاق هذا المنطق السلطوي دخلت مراكش إثر سفر الوزير الفرنسي في مسلسل قمع مارسه الباشا واصطفى له مجموعة من الوطنيين، وربما كان الباشا يمارس لأول مرة قمعا ذا سبب بعد أن ترك الوزير الفرنسي بين يدي المتظاهرين قطعا من جبته وسراويله، ولكن الباشا كان يمارس قمعه على من لم يكونوا مسؤولين عن تلك المظاهرة .

واستفزاز لمدينة الخميسات

وقد توالى مسلسل الصيف الحار الذي عاشه المغرب خلال سنة 1937 حيث أقدمت الإقامة العامة على استفزاز سكان مدينة الخميسات وسائر قبائل زمور بإستدعاء الكاثوليكيين الفرنسيين من المغرب وفرنسا للاحتفال بالمدينة بموسم القديسة سانت طيريز(Sainte Thérèse) دون أن تكون للمدينة أية علاقة بالاحتفال، فالخميسات لم يكن يوجد بها مواطن غير مسلم، ولم يكن فيها من الأوروبيين -حسب الإحصاء الرسمي سنة 1937 - سوى 227 أوروبيا ليسوا جميعا منتمين إلى الكنيسة الكاثوليكية، وكان يمكن أن يفهم اختيار مدينة كبرى كالدار البيضاء، لكن القصد من وراء تنظيم هذا الموسم بالخميسات كان التشبث بسياسة التنصير التي كانت سلطات ا لحماية الفرنسية قد قررت تطبيقها على المنطقة البربرية بإصدار الظهير البربري سنة 1930، وهي السياسة التي لقيت معارضة الوطنيين، والتي كافح السلطان محمد بن يوسف لحمل الإقامة العامة على مراجعتها كفاحا نجح معه سنة 1934 في تغيير مقتضيات الظهير التي كانت تمهد لفصل البربر عن الكيان المغربي .

وعندما علم سكان الخميسات بدعوة السلطات المحلية إلى الاحتفاء بالقديسة استعادوا ذكرى هذه السياسة الهوجاء وأصروا على مقابلتها بمظاهرات شبيهة بتلك الّتي قابل بها الوطنيون الظهير البربري سنة 1930. مادامت "حليمة قد عادت إلى ديانتها القديمة "، خاصة وقد سبق للسلطة المحلية أن منعت بضعة أيام من قبل

إقامة احتفال إسلامي بالمدينة، وعللت ذلك بأنها لا تقبل أن يقرأ الناس القرآن جهرا في جماعة .

ولقد كانت ردة فعل مدينة الخميسات وقبائل زمور في مستوى الفعل الفرنسي الاستفزازي، فنزل الشعب للشارع حاملا اللافتات التي كان المتظاهرون يجأرون بما كانت تحمله من شعارات : يحيى الإسلام، نطالب بتطبيق الشريعة، وبإلغاء الحكم بالأعراف (التي يطلق عليها البربر لفظ أزرف)، عاش الملك، عاش المغرب .

وإنتهت المظاهرة بما كانت تنتهي به نظيراتها : اعتقالات جماعية وقتلى وجرحى، ولكن السلطة بالخميسات اضطرت إلى إلغاء موسم القديسة كما اضطرت زميلتها بمكناس إلى رد المياه إلى مجاريها .

هكذا كانت هذه الانتفاضات الشعبية تناهض تحرشات الإقامة العامة واستفزازاتها، وتتعدد منطلقاتها وتتوحد أسبابها : كانت في مكناس احتجاجا على البؤس والجوع، وفي الخميسات احتجاجا على التبشير والتنصير، وهي الأقانيم التي قامت عليها سياسة الاستعمار العالمي بمختلف ألوانه وأشكاله .

المأزق

عندما نتجاوز الأحداث إلى تحليلها واستخلاص عبرها يبدو لنا أن الحزبين الوطنيين انتهيا مع مرور الأيام إلى مأزق حبستهما فيه سياسة الحماية المتصلبة. فقد أصبح ما سمي بالانفراج السياسي مختصرا في إصدار صحافة وطنية، وحتى هذه ظلت خاضعة لرقابة تحجز بعض أعدادها أو تمنعها بالمرة من الصدور. وفي بداية أكتوبر (1937) كانت الإقامة العامة قد انتقمت من حركة المرحوم علال الفاسي التي تحولت بدون إذن إلى اسم " الحزب الوطني" فمنعت صحيفتي الحزب " الأطلس " بالعربية و " العمل الشعبي : (L'Action populaire) بالفرنسية، في الوقت الذي بقي فيه حزب المرحوم الوزاني يحمل اسم " الحركة القومية "، وكانت جريدتا " الدفاع " وعمل الشعب (L'action du peuple) تحجزان أو يمنع رواجهما في مناطق مغربية معينة .

وعندما نعود إلى وثائق العمل الوطني نجد أن مؤرخي نضال الحزب الوطني ينسبون إلى حزبهم وحده جميع هذه الانتفاضات ويؤكدون أنه كان وراءها، وأن

قيادته اختارت في هذه المرحلة المواجهة المباشرة مع الحماية الفرنسية ليأسها من تفهمها . وينكر القوميون هذا الادعاء، ويعتبرونه في عداد أسلوب الحزبيين الذين لا يعترفون بالفضل لغيرهم في صياغة الأحداث الوطنية أو المساهمة في صنعها، ويقتصرون في وثائقهم عن تاريخ الحركة الوطنية على التركيز على أعمالهم ونشاطهم .

ومن جهتي لا أستطيع أن أؤكد أو أنفي ما جاء بخصوص هذا الموضوع في وثائق الحزب الوطني، ففي هذه الفترة - كنت ما أزال في الرابعة عشرة من العمر- ولم أكن شاهد عيان متمكنا من تفاصيل نشاط " الحركة القومية " التي انتميت إليها عند تأسيسها في نفس السنة . وكان عملي فيها يقتصر على حضور اجتماعات إحدى خلاياها السفلى التي كانت تضم من هم في سني، وعلى حضور اجتماع الجمعة العمومي. ولكن كل باحث يلاحظ - موضوعيا - أن صحافة الحركة القومية كانت معبأة لتأييد هذه الانتفاضات بالمقالات والتعاليق الضافية التي كانت تنشرها، وببرقيات الاحتجاج التي كانت تبعث بها فروع الحركة إلى المسؤولين بالرباط وباريس والتي كانت تنشرها صحيفتا " الدفاع " و " عمل الشعب "، وبمذكرات فضح السياسة الاستعمارية والاحتجاج عليها التي كانت تبعث بها قيادة " الحركة القومية " للجهات الفرنسية المسؤولة، وبالاعتقالات التي كان ضحيتها في القاعدة حزبيون وقوميون، مما كانت تنشره في إبانه صحافة " الحركة " كذلك، وكل ذلك يؤكد أن العمل الوطني الذي تميزت به سنة 1937 كان مشتركا على صعيدي القمة والقاعدة .

ومع ذلك فإن بعض المواقف والتصريحات التي صدرت في هذه الفترة من قيادة الحزب الوطني أعطت للإقامة العامة الفرنسية المسوغ الذي كانت تفتقده للحصول من حكومة باريس على النور الأخضر لشل الحركة الوطنية وللتعامل مع الحزب الوطني معاملة قاسية .

فقد ركز المقيم العام في أحد تقاريره إلى باريس على موقفين انفرد بهما الحزب الوطني للتدليل على أن هذا الحزب قد انتهج خط عداوة سافرة لفرنسا .

أولهما الميثاق الوطني الذي أصدره الحزب إثر اجتماعه الاستثنائي بالرباط بتاريخ 13 أكتوبر 1937. وكان يعكس مواقف صارمة حيال الحماية بعبارات تتسم بالحدة . وقد قال عنه علال الفاسي " إنه استهدف ممارسة حق الحزب في وجهة سياسة صريحة العداء للحماية وتصرفاتها " . ولعل أخطر ما تضمنه أن الحزب

ترك للقاعدة أن تقاوم بكل الطرق المجدية المشروعة تصرفات الحماية الجائرة،كما ترك للمسؤولين في الحزب اختيار الوسائل والظروف الملائمة لممارسة هذه المقاومة، فهذا يعني في لغة السياسة تحريض القاعدة على المواجهة بأسلوب العمل المباشر، وتخلي القيادة عن مسؤوليتها في مراقبة القاعدة التي تصبح مالكة زمام المبادرات.

وثانيهما الاجتماع الشعبي الذي انتظم بضريح المولى إدريس بفاس بدعوة من الحزب الوطني وقال عنه علال الفاسي أيضا: " إن جميع الحاضرين فيه أعلنوا أن مهمة الحركة الوطنية لم تعد مقاومة الطغيان الفرنسي فقط، بل تعدت ذلك إلى مقاومة التهجمات الأجنبية على الإسلام وتجديد الدولة المغربية التي أسسها المولى إدريس الأكبر بفاس ."

الإعـــذار

قبل أن يقدم المقيم العام على توجيه ضربته التي كان يريدها قاتلة للحركة الوطنية انتدب الكومندان كوجي المندوب المخزني لدى باشا (محافظ) مدينة فاس للقيام بمهمة استفسار الزعيمين الوطنيين عن موقف حركتيهما من الاضطرابات التي عمت المغرب، وعما إذا كانت لديهما حلول لتلافي الوضع . وما من شك في أن هذه المهمة كانت تشمل أيضا إقامة الحجة عليهما بما يشبه إعذار الزعيمين قبل النطق بالحكم عليهما وتنفيذه .

وقد اختلف الزعيمان الوطنيان في أسلوب التعامل مع مبعوث المقيم العام ولم يتحدثا إليه بالتالي بصوت واحد .

كان المرحوم علال الفاسي يعكس ظروف الأزمة السياسية الخانقة التي نشبت بين الوطنيين والحماية الفرنسية، ففضل أن يشعر مخاطبه الفرنسي بأن صبر الوطنيين قد نَفَد، وأن حزبه فقد كل أمل في التفاهم مع المقيم العام وأعوانه ، وعلى العكس من ذلك تكلف المرحوم الوزاني التقيد ببرودة الأعصاب والتحدث إلى مخاطبه بلغة سياسية يتحكم فيها المنطق وتهدف إلى جعل مخاطبه يحس بإمكان تدارك الوضع إذا ما غيرت الإقامة العامة أسلوبها .

وقد يكون من الأفيد أن نستمع إلى كل منهما عبر ما كتباه عن لقائهما بالمبعوث الفرنسي :

جاء في كتاب الحركات الاستقلالية للمرحوم الفاسي :" وفي يوم العشرين

من أكتوبر اتصل بي في فاس الكومندان كوجي باسم الإقامة العامة وحاكم الناحية الفاسية للبحث عن حل أخير للمشكلة، أو بعبارة صحيحة للتهديد بقرب الفاجعة، ولكني رفضت أن أجتمع به إلا في مكتبه، فقبل ذلك . واجتمعنا فعلا بمحضر أحد أعوان الإدارة عبد الجليل الوزاني الذي كان يظن كوجي أن حضوره سيكون شاهدا عدلا على أن الحماية قد بذلت كل جهودها لإرضائنا قبل أن تأخذ قرارها النهائي للإبعاد، غير أني لم أكن في جو يسمح لي بقبول أدنى ملاطفة أو تصنع، ولذلك فإن حديثي معه كان حديث الصراحة والغضب والاتهامات للإقامة العامة وللحماية، والاستنكار لأعمالها ضد الدين وضد الوطن والإنسانية ."

وهكذا يمكن القول - بعد ما جاء في حديث الفاسي - أنه فضل أن لا يكون بينه وبين مخاطبه أي حوار، لأنه كما قال لم يكن في جو نفسي يسمح له بذلك، وانتهى بالقطيعة الاتصال الذي مر في جو التشنج والغضب .

أما الوزاني فكتب عن هذا اللقاء في الجزء الخامس من كتابه (مذكرات حياة وجهاد) الذي صدر بعد وفاته يقول :

" طلب كوجي مني أن يزورني فاستقبلته في بيتي في نفس اليوم (20 أكتوبر) وكان الحديث طويلا حيث تناول الحركة الوطنية عامة والحركة القومية (حزب الوزاني) خاصة. وعلمت أنه جاء خصيصا في مهمة استطلاع الآراء الوطنية موفدا إلى الحزبين السياسيين، كما فهمت أثناء الحديث أن مهمته كانت حاسمة في اتخاذ الموقف الذي كانت اعتزمت سلطات الحماية اتخاذه من الحركة الوطنية بشقيها بعد كل ما حدث في المغرب . ومهما يكن فقد حاولت ما استطعت أن أفهم الزائر الرسمي وجهة نظري وأن أقنعه بضرورة التعجيل بإرضاء المغاربة في الحد الأدنى من مطالبهم المشروعة، لأن هذا حق وسداد ومصلحة، ولأنه السبيل الوحيد لتهدئة النفوس وتصفية الجو وتصحيح الوضع لخير الجميع. ودار الحديث بين الجانبين في جو من الصراحة والهدوء واللياقة، لأن الرجل كان مبعوثا رسميا، وجاء لبيتي زائرا ومستطلعا، وقد كان في حديثه على جانب كبير من اللياقة والمجاملة والديبلوماسية، بحيث لم يكن أي داع لمقابلته بغلظة وفظاظة، لأن ذلك يسئ إلى القضية الوطنية ولا يجديها بتاتا ."

وأضاف الوزاني يقول :" وعلمت بعد ذلك عن اجتماع المبعوث الرسمي مع علال الفاسي ما يفيد أن المقابلة كانت عارية عن صفات السياسة وخارجة عن حدود اللياقة، وكانت صراعا ومشادة بين الطرفين، بحيث لم يكن الحديث هادئا ولم

يتناول بسط وجهة نظر الفريق الحزبي في المشاكل والقضايا العامة، وإنما تسمم الجو بمجرد اللقاء،فكان التراشق بالألسنة والتهديد والوعيد . ولا شك أن المبعوث الحكومي سجل في تقريره كل ما شاهده وسمعه من الجانبين الوطنيين مع انطباعاته الخاصة عن الزيارتين".

ورتب الوزاني على ذلك أن مقابلة علال الفاسي للمبعوث بالتشنج والغضب والهيجان كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، حيث بدأت عملية اعتقال زعماء "الحزب الوطني " ثم زعماء " الحركة القومية " الذين تضامنوا مع الأولين .

ساعة الحسم

على هذه الانتفاضات والمواقف والتصريحات التي حفل بها الجو السياسي المشحون بالتشنجات ركز المقيم العام الجنرال نوجيس ليستعجل إذن حكومة الرئيس شوطان باقتحامه قلعة الحركة الوطنية، وليقابل جو الاضطراب والهيجان باستعمال القوة . وفي العشرة أيام الأخيرة من شهر أكتوبر نجح في الحصول على تعاليم الحكومة الفرنسية لتطبيق سياسته التي أصبحت لا غنى عنها في رأي المسؤولين الفرنسيين، وحتى لدى أكثرية الأحزاب السياسية الفرنسية .

ومما ساعد المقيم العام على ذلك انشغال فرنسا - حكومة وأحزابا - باهتمامات أكثر حيوية كانت تتمثل في الخطر الذي أخذ يهددها من دولتي المحور، وفي تخوفها من تسرب النازية والفاشية إلى أمبراطوريتها التي كانت تتألف من مستعمرات وحمايات وانتدابات، وكان الموضوع يأخذ مكان الأولوية، ويفرض على كل مسؤول تأمين الاستقرار لفرنسا في ممتلكاتها فيما وراء البحار بجميع الوسائل .

لقد دقت ساعة الحسم، وأصبح المقيم العام بأمر من الحكومة الفرنسية حاكما مطلق السلطة على المغرب مرخصا له بقمع الحركة الوطنية والضرب عليها بيد من حديد . فكيف تم ذلك ؟

تحدث وزير الدولة ألبرت سارو (Aibert Sarraut) عن ذلك في حينه فقال:" إن ما وقع في المغرب (القمع) تم تحت مسؤوليتي الكاملة، إذ منذ بضعة أسابيع كان المغرب مسرحا لاضطرابات بالغة الخطورة، وبدلا من أن أبعث تعليمات غامضة يسمح غموضها للحكومة أن تقيم الدليل على تحملها مسؤوليتها، وفي الوقت

نفسه على التراجع إن اقتضى الحال، فضلت أن آخذ التلفون، وأتصل بالجنرال نوجيس الذي كان يوجد بفاس، وقلت له بالحرف: عليك أن تأمر الجيش بالتدخل، وأن تتخذ جميع التدابير اللازمة، وأطلب منك بالخصوص أن لاتنظر إلى وجهة باريس، فأنا وراءك أدافع عنك وأحميك. لتقم بواجبك، ولتقم به بدون قسوة ولا طغيان إذا لم تتبين لك جدواهما. أبرز للعيان قوة فرنسا وكن مطمئنا أنه إذا لم يرض الجميع عن عملك هذا ،فسيكون بامكانك أن تحتمي بي وتلقي المسوولية عليّ.

هذه التعليمات الواضحة هي التي جعلت المقيم العام يقول مخاطبا أهل فاس بعد أن ضرب ضربته :" من الآن فصاعداً لا أسمح بالفتنة والهيجان . وإني مؤيّد في هذه السياسة من جميع الأحزاب السياسية الفرنسية التي أجمعت على الوعي بالخطر. ومنذ يومين أو ثلاثة أيام جاءتني موافقة الحكومة بواسطة الهاتف أو البرق، وإن فرنسا كلها ورائي .

حصار فاس

أجمع من كتبوا عن المقيم العام الجنرال نوجيس على أنه كان دبلوماسيا ببذلة جنرال، وأن سمات السياسي المجامل طغت في شخصه على صفات العسكري الخشن.

وما أن وقع اختيار حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية عليه لتولي منصبه بالرباط حتى سبقه إلى المغرب وصف السياسي الكبير الذي أخطأ تخصصه .

أما عندما دشن سياسة الانفراج والانفتاح بالتفاهم مع السلطان، وبإطلاق سراح المعتقلين السياسيين، والإذن للمغاربة بإصدار الصحافة، والتغاضي عن تأسيس الحركات السياسية، فقد تأكدت له حينئذ سمعة السياسي الكبير، والدبلوماسي البارع، وغطى رغم بذلته العسكرية على من سبقه من المقيمين المدنيين حتى لصدق عليه المثل الفرنسي القائل : " إن بذلة الراهب ليست هي التي تجعل منه راهبا ."

إعلان الحرب

وقد كان الجنرال منذ بداية سنة 1937 دبلوماسيا بارعا يعرف ما يريد ويخطط له بمهارة، أخفى بالانفراج والانفتاح ما كان يبيته من كيد للحركة

الوطنية، وأثار عليها الكثير من التحرشات وضايقها بالاستفزازات ليجرها إلى لعبته، وتوجه إلى حكومته بسلسلة من التقارير المحبوكة التي تقدم صورة مقلقة عن وضع المغرب وعن خطر الوطنيين على استمرار الوجود الفرنسي ليؤلب حكومة باريس على الحركة الوطنية، وليجعلها تندفع إلى تكليفه بقمع الوطنيين، حتى بدا في حربه التي أعلنها على الوطنيين وكأنه لا يلعب إلا دور المنفذ الحازم الذي تقف فرنسا كلها منتظرة منه الخلاص .

وعندما وصل بدبلوماسيته إلى ما كان يريد كشف عن وجهه الحقيقي:عسكريا شرسا، ممجدا للقوة ومعتمدا عليها وحدها في التنكيل بخصومه . هكذا أعلن الجنرال يوم 25 أكتوبر 1937 حربا ضروسا من جهة واحدة على مدينة فاس، استعمل فيها جميع تقنيات الحرب، ولكن خاضها ضد سكان آمنين ومدنيين عزلٍ، طالبا وحده الطعن والنزال كما قال شاعر عربي في بيته المشهور . ومهد لذلك باعتقال مسيري فروع الحركة الوطنية في عدة جهات وأقاليم، ليستأصل قاعدتها من جذورها، ويترك مدينة فاس التي تحتضن مركز الحزبين الوطنيين منعزلة عن المغرب .

وتم تنفيذ هذه الإستراتيجية في فترة يومين أو ثلاثة أيام، استقر إثرها بنفسه بفاس حيث أقام معسكره، ثم أصدر تعليماته للجيش لاقتحام المدينة واحتلالها حيا فحيا، ولتطويق مساجدها التي كان يعلم أن الوطنيين سيتجمعون فيها للاحتجاج والانطلاق منها للتظاهر في الأزقة والشوارع .

وقد تحدث عن تراتيب اقتحام مدينة فاس من لدن الجنرال تقرير بعثهُ وزير خارجية فرنسا إلى زميله وزيرالمستعمرات إثر نهاية عملية اقتحام المدينة، مما جاء فيه :

" إن الجنرال نوجيس قد أحكم عمليته العسكرية على فاس ورتبها بعناية ودقة جعلتانا نتذكر عمليات غزو المغرب التي قمنا بها بنجاح في الماضي ."

وفي اليوم نفسه ألقي القبض على علال الفاسي، وعمر ابن عبد الجليل، وأحمد مكوار، وكانوا جميعا بمدينة فاس، وعلى محمد اليزيدي بالرباط، وساقتهم السلطة إلى أمكنة مجهولة . وكانت خطة الجنرال تقضي بتجزئة المعركة التي خاضها ضد الحركة الوطنية بشقيها، فلم يقدم على اعتقال المرحوم الوزاني إلا بعد مضي ثلاثة أيام. وربما كان يأمل أن تلجأ "الحركة القومية " إلى الاعتدال مستخلصة العبرة من الضربة التي وجهها إلى الحزب الوطني، ففوجئ بالموقف الصلب

المتشدد الذي برز به الوزاني، حيث اعتبر - رحمه الله - أن اعتقال زملائه السابقين وفراغ الميدان من قيادة الحزب الوطني يلقيان عليه مسؤولية توحيد الصف لمواجهة العدوان الفرنسي وأخذ زمام الحركة الوطنية في المرحلة الدقيقة التي فرضتها عليها الحماية .

وهكذا اضطلع المرحوم الوزاني بدوره كاملا، ودعا إلى بيته بدرب بوحاج بفاس عضوين من قيادة الحزب الوطني لم يكونا قد اعتقلا، هما المرحوم عبد العزيز ابن إدريس والهاشمي الفيلالي . وإليهما أعلن وسط الجموع التي حضرت لبيته عن تضامن " الحركة القومية " مع زعماء الحزب الوطني المعتقلين، وعن تعبئة أنصاره في حركة مظاهرات الاحتجاج التي خطط لها مع عضوي الحزب الوطني سالفي الذكر . وقد تم الاتفاق بين الحزبين على أن يكون تجمع الشعب في المساجد وخاصة بالقرويين، وأن ينطلق المتظاهرون منها إلى الشوارع، وأن تستمر المظاهرات أياما متوالية، وأن يخطب في المتظاهرين كل يوم أربعة خطباء : اثنان من " الحركة القومية " واثنان من " الحزب الوطني ".

وفود فاس

كنت ضمن من وفدوا على بيت الوزاني الذي دخلته لأول مرة، وكان واحدا من بيوتات فاس واسعة الأرجاء، فغص بالوافدين، وتحول إلى مركز حفل استقبال كبير. وكان الوزاني ورفقاؤه عبد الهادي الشرايبي، ورشيد الدرقاوي، وإبراهيم الكتاني، وإبراهيم الوزاني، وعلي العراقي، وعبد القادر العلج، ومحمد القري يخبرون الوافدين بأنه قد تقرر ابتداء من اليوم الموالي التظاهر بالمساجد، وأن المظاهرة الأولى ستنطلق من القرويين إثر صلاة الظهر .

نسي الوطنيون في هذا الامتحان العسير خلافاتهم وحزازاتهم، وانصهروا في وحدة متراصة كانوا في جوها يتبادلون العناق ويعلنون أنهم على العهد صامدون. وكان المشهد مؤثرا رهيبا، لقد وحد العدوان الغاشم الصفوف وجمع القلوب على الكلمة الواحدة . وكم من نقمة في طيها نعمة كما يقال.

حماس وتعبئة

لأول مرة في حياتي أمكنني أن أقترب من الزعيم الوزاني . فطيلة الأشهر التي سبقت لم أكن في " الحركة القومية " إلا مجرد عضو في خلية كان يديرها إبراهيم الوزاني، كانت تجمعني إلى ثلة من رفقائي ممن كانوا في سن المراهقة مثلي، باستثناء أفراد معدودين كانوا يتجاوزون قليلا سننا . ولم نكن بحكم صغر سننا لنرقى إلى الاتصال بالزعيم الذي كان يحيط به زملاؤه من قدامى " كتلة العمل الوطني :، ولا حتى إلى الاتصال المباشر بهؤلاء . كان الفوج الذي يأتي قبلنا يضم من تقدمونا في السن قليلا أو كثيرا . وكان من بينهم أخونا أحمد ابن سودة، وعبد الله الحبابي، والمرحومان : حماد العراقي، والمهدي الودغيري وآخرون.

وحتى عندما كنت أحضر يوم الجمعة الاجتماع الأسبوعي بمركز القطانين كان الزعيم الوزاني لا يحضر إلا نادرا. لذلك كان اتصالي بالحركة القومية لايتم إلا بواسطة ابراهيم الوزاني مسير الخلية .

ومازال أشاهد هذا الوطني الكبير (إبراهيم)، وهو لا يفتأ يذرع في هذا اليوم التاريخي بيت الزعيم الوزاني في جميع أركانه ليتصل بهذا أو ذاك، أو هذه الجماعة أو تلك، محرضا الجميع على الاستبسال في مقاومة فرنسا التي كان ينعتها بأسوأ النعوت، فإذا تغيب عن البيت لحظة فليعود إليه مصحوبا بجماعات شعبية كان يحرص على أن يأتي بها إلى البيت لتعيش فيه جو الحماس والتعبئة، وليستوثق منها العهد على الحضور بمسجد القرويين للتظاهر.

كان إبراهيم الوزاني - وهو يدور في حلقات البيت متحدثا إلى الزائرين - يشبه نحلة لا يهدأ لها طنين، ولا يستقر لها بمكان قرار، أو أنه كان القائد الذي يستعرض جنوده قبل موقعة القتال ليتأكد من معنويتها وقدرتها على المصابرة والثبات. توجه إلينا عندما وصل دورنا ليحسسنا بالموقف، ويخاطب كل واحد منا قائلا : " إننا الآن في ثورة، ولن يهدأ لنا بال إلا بالغلبة والانتصار. وسنسحق فرنسا سحقا".

ثم أشار إليّ وقد وضع وُسْطَاه على جبينه كما كان يفعل كلما استسلم إلى تأمل :

" وأنت لماذا لاتكون ضمن خطباء المظاهرة ؟".

ولم أتردد في القبول فأسرع إلى تسجيلي في لائحة الخطباء . وأحسست بالتزامي هذا أني ارتقيت فجأة إلى مصاف القيادة في حزب الزعيم الوزاني، فللخطباء دور خطير لا يسند إلا إلى النابهين القادرين على تحريك الجماهير وإثارتها . وقد سبق لي أن تدربت في مدرستي الأولى وفي خليتي الوطنية على الانتصاب خطيبا، ولكني أحسست في تلك اللحظة بأني قطعت أشواطا ابتعدت بي عن هذا المستوى المحدود، ورفعتني إلى مقام خطيب الجماهير في مسجد القرويين، وهو ما لم يرق إليه الكثيرون ممن كانوا في مستويات أعلي داخل "الحركة".

وعندما كنت أفكر فيما سيكون عليّ أن أفوه به في اليوم الموالي أمام المتظاهرين، وأستعيد بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المحرضة على الجهاد والثبات وصل إلى علمنا استدعاء الزعيم الوزاني من إدارة الاستعلامات السياسية بفاس وهي أعلى جهاز للسلطة الفرنسية بالمدينة، ثم شاهدناه يغادر بيته وقد ارتدى فوق جبته البيضاء جبة صوف " محبّبّة "، لونها أزرق سماوي، وخلع عليه سلهاما خشنا استعدادا للطوارئ . وكان المفروض أنه استدعي لاعتقاله، فغاب عنا مدة غير قصيرة ثم عاد ليتابع اتصالاته بالوفود ولضبط ترتيبات مظاهرات الاحتجاج .

علمت فيما بعد أن الوزاني كان في حديثه إلى الكمندان " دالجي " حازما في المواقف، مرنا في أسلوب عرضها، لم يغلف تضامنه مع معتقلي الحزب الوطني، ولم يخف أنه هو الذي سيقود حركة الاحتجاج الشعبي إلى حين إطلاق سراحهم. وعندما سأله الكمندان " دالجي " متعجبا" : ألستم قد انقسمتم إلى حزبين ؟ كان الجواب :" لايوجد بيننا أي خلاف، وإنما هو نقاش حول الشكليات والوسائل، ونحن متضامنون في السراء والضراء لأننا أصحاب قضية مشتركة، ولنا غاية واحدة، ونضع قضيتنا فوق كل اعتبار "ولكنه برر موقف حركته، فأكد على أنها عملت في نطاق القانون، فلم تسمّ نفسها حزبا ولم تفتح لها مركزا، وليس لها سجل انخراطات، ولم تلزم أنصارها بأداء قسم،(وكل هذا كانت تبرر به سلطة الحماية إدانتها للحزب الوطني) ولم تتحالف مع الأجانب، وليست لها علاقة بالخارج . وختم تصريحه أمام

رجال السلطة قائلا :" نحن نكتفي في هذه المرحلة بكوننا حركة، ونبث أفكارنا بالوسائل المشروعة، وفي طليعتها الصحف . ونحن نحترم القوانين ولو أن لنا عليها مآخذ، ولكننا مع ذلك نطبقها ونطالب في نفس الوقت بتعديلها وتصحيحها حتى تصبح قوانين صالحة عادلة".

وقد سمحت إدارة الاستعلامات للوزاني بالعودة إلى بيته بعد سماع حديثه المتوازن في انتظار وصول التعليمات من الإقامة العامة بالرباط للبت في مصير حركته .

ألقى والدي على القبض

وطال بي المكث في بيت الزعيم الوزاني متمليا من مشاهدة ما يجري فيه، بالرغم من أن ظلام الليل كان قد غشينا . وعندما أخذت أفواج الزائرين تغادر البيت متواعدة باللقاء بمسجد القرويين فكرت في الخروج، وخاصة أني كنت تجاوزت كثيرا ميعاد دخولي المعتاد إلى بيتنا الذي كان محددا - لي من والدي - العودة إليه على الأكثر عند أذان المغرب، إلا لسبب قاهر يبيح لي مدّه إلى أذان العشاء.

ولقد خطر لي هاجس جعلني أرجئ عودتي إلى البيت، هو ما كنت أعلمه سلفا أن والدي لن يسمح لي إن أنا عدت إليه بمشاركتي في مظاهرة الغد، فقد كان يخشى عليّ من التورط في الحركة الوطنية بما يجعلني عرضة للاضطهاد والأذى. وكان ينصحني مرارا أن أنصرف إلى تحصيل العلم، لأني - في نظره - لم أكن في سن تسمح لي بالدخول في المغامرات السياسية . وتساءلت : أين أقضي الليلة بعيدا عن رقابة الأسرة لأنتصب غدا في المظاهرة خطيبا للجماهير ؟ حتى لاتفوتني هذه الفرصة التاريخية التي ستتيح لي القيام بدور بطولي في الثورة المعلنة على فرنسا (كما قال مسير خليتنا إبراهيم الوزاني .)

وفجأة حضر والدي إلى بيت الزعيم الوزاني مرفوقا بصديقه الحاج إدريس ابن شقرون وكان أبناؤه رفقائي في المدرسة وفي القرويين وفي الخلية الوطنية، وكانوا يوجدون معي ببيت الزعيم .

وبدت على والدي عندما أبصرني بين الحاضرين مظاهر القلق والغضب والإشفاق في آن واحد، ولم يكن أحد غيري يستطيع أن يقرأ على سحنته ما استشففته فيها من مشاعر متضاربة، كانت تنطلق جميعها من إحساس أبوي غامر بالعطف عليّ . وكان المرحوم الحاج إدريس ابن شقرون معروفا في مدينة فاس

بذكائه الوقاد وبتجربته الواسعة التي استفادها عندما كان يقيم بأنجلترا ويمارس التجارة بمدينة مانشيستر، مما جعله يتمتع بعد عودته إلى المغرب بوضعيه المحمي الأنجليزي الذي لا يخضع لقوانين المغرب ومحاكمه. كما كان معروفا بقدرته على المناورة السياسية، فتوجه إلى الزعيم الوزاني سائلا عن الأوضاع الطارئة ومستفهما عن التدابير التي تعتزم " الحركة القومية " اتخاذها لمواجهة الوضع. فتولى الجواب إبراهيم الوزاني ولم يفته - وهو يشرح لوالدي ولرفيقه خطة المظاهرات في تفاصيلها - أن يقول له عني إنني وابني الحاج إدريس ابن شقرون قد سجّلنا في قائمة خطباء المظاهرات، وأنه مهما كلفتنا هذه المهمة من تضحيات وسجن وعذاب فإنها في سبيل الله تهون .

وعندما نطق بهذه الكلمة جحظت عينا والدي في نظرة نفاذة إلى قلبي أحسست معها بما يكنه صدره من قلق متزايد وغضب مضاعف، وهمّ أن ينفجر بالرد على إبراهيم الوزاني، فسبقه ابن شقرون إلى الكلام وقال وهو يبتسم هادئ الأعصاب :" بارك الله في هذا الجهاد وأنجح مسعاه، وقواكم وأمدكم بعونه . وقد بلغ السيل الزبى، ولا محيص عن مواجهة فرنسا الباغية، وإننا نحن وأولادنا معبأون وراءكم . وإنكم لتتفقون معي على أن على الخطباء أن يذهبوا إلى بيوتهم هذه الليلة ليناموا ويستريحوا حتى يكونوا غدا على أهبة كاملة للقيام بواجبهم. و من جهتنا أنا والشريف مولاي محمد بو طالب - وأشار إلى والدي - سنحضر مع الأولاد غدا بالقرويين في الموعد المحدد، وسنكون بجانبكم في شرف الجهاد، ونقوم بواجبنا كما تريدون وترضون ".

وانطلت على إبراهيم الوزاني حيلة المرحوم ابن شقرون فأمّن على قوله، وأشار إلينا أن نغادر البيت، ففعلنا . ولم أكن أتصور أني ودعت الزعيم الوزاني لمدة تسع سنوات، إذ منذ ئذ لم أره إلا عندما عاد من منفاه سنة 1946 وجاء لبيتي بالرباط الذي كان يوجد بساحة القصر الملكي (تواركة المشور) لينطلق منه لمقابلة جلالة السلطان محمد بن يوسف .

في قبضة العصابة

وعلى بعد خطوات من بيت الوزاني كانت تنتظرنا عصابة مسلحة بالحبال، قيدتني أنا وأبناء الحاج إدريس ابن شقرون وحملتنا على الأكتاف، وساقتنا لا إلى

سجن الحماية الفرنسية ولكن إلى بيوتنا . استخدم الحاج إدريس ابن شقرون عمالا فلاحيين استقدمهم من ضيعته الزراعية الموجودة في أرياض فاس، وشكل منهم عصابته التي ألقت علينا القبض.

وعندما فك عقالي من كان يحملني من أعضاء العصابة بعدما اجتاز بي عتبة باب البيت وسلمني إلى والدي في حالة لا أملك منها تملصا ولا أستطيع معها قرارا أغلق والدي وراءه الباب بالمزلاج، ووضع عليه قفلا سلم مفتاحه لأخي الأكبر المرحوم محمد، ثم خرج عن صمته المكظوم وأخذ يصيح في وجهي :" لن تشارك في المظاهرة ولن تقوم فيها خطيبا وأنت ما زلت في سن البلوغ، إذ سيعرضك ذلك بكل تأكيدللأذى. سأسجنك في هذا البيت ولن تغادره إلا عندما تنجلي هذه الغمة إلى متابعة دروسك بالقرويين ."

وانحنت عليّ والدتي وضمتني إلى صدرها وأجهشت بالبكاء : " لا ترزئنا فيك يا عبد الهادي، واتق الله في نفسك وفينا ".

وفقدت أعصابي أمام هذه المشاهد التي لم أعد أطيق عليها صبرا، وتوزعتني المشاعر بين غضب الوالد وضعف الوالدة، ولكني تحاملت على نفسي وصحت في وجه الأسرة الملتفة حولي :" إني التزمت أن أخطب غدا في المتظاهرين، وأنتم تريدون مني أن أتخلى عن واجب مقدس، وأن أفر من المعركة كما يفر الجبناء والخونة، فاتروكوني وشأني ."

عند ذلك أخذني أخي وأستاذي محمد إلى غرفة النوم التي كنت أتقاسمها معه، وحاول أن يقنعني برفق بحسن نية والديّ وإشفاقهما على مستقبلي وحرصهما على أن أتابع دراستي . ولم ينجح في مسعاه، فقد كنت مشدودا فكرا وقلبا إلى فكرة واحدة : أن أقوم بما التزمت به . ثم استسلم أخي إلى نوم عميق لم تكتحل به عيناي، فإغتنمت الفرصة وتسللت لواذا تحت الظلام باحثا عن مفتاح البيت الذي كنت لاحظت أنه كان قد أخفاه قريبا من فراشه .

وما أن عثرت عليه حتى أسرعت أجتاز السلم للنزول وجهة الباب، وماكان أكثر دهشتي وأنا أصطدم بوالدتي التي اتخذت لها فراشا في أسفل السلم، وكأنما كانت تتوقع أن أفاجئ الأسرة بشيء . لقد أدركت وأنا أراها على تلك الحال صدق المثل المغربي القائل : " قلب الوالدين خبير ".

هنا سجنك

وعلى صراخها باكية استيقظ والدي مهتاجا مهددا وردني بعنف إلى غرفة النوم وأغلقها عليّ مرددا:" إذا كنت ترغب في السجن، فهنا سجنك أيها الولد الطائش".

انقطعت عني في سجني هذا أنباء الخارج، لكن والدتي كانت تزودني ببعض الأخبار كلما فتحت الباب لتقدم لي وجبات الطعام التي كنت أضرب عنها احتجاجا: كانت تخبرني بأن يد العدوان امتدت إلى جميع أسر فاس واقتطفت منها فلذات أكبادها وزهرات شبابها: أودعتهم السجون أو نقلتهم إلى أماكن مجهولة. وكانت تعطيني أسماء بعض رفقائي في الدراسة الذين اعتقلوا وحكم عليهم بالسجن : حماد العراقي، عبد الواحد العراقي، محمد العمروي....، وسعر لكل خطيب في المظاهرات تعريفة عامين سجنا، والمواجهة المحتملة بين المتظاهرين و " الكوم " المسلحين قد تغرق المدينة في بحر من الدم .

ولكن النبأ الأكثر هولا كان مشاهدة أعضاء الأسرة من داخل البيت تحليق الطائرات فوق سماء المدينة، وسماعي أزيزها المتردد بين فترة وأخرى ،ووصول أصداء طلقات النار المتقطعة إلى آذاننا . وأفظع من ذلك كله النبأ المرعب الذي اخترق مدينة فاس عن تهديد الجنرال بلان الحاكم العسكري الفرنسي لمدينة فاس بتحطيم المدينة فوق رؤوس سكانها من منطلق برج " الباستيون " المحصن بالمدافع التي لا تخطئ أهدافها .

ولست أدري من الذي نصح والدي بجمع أعضاء الأسرة في أسفل طابق بالبيت عند تحليق الطائرات، فما أزال أذكر أنه فتح باب سجني وساقني إلى هذا المخبأ مع الأسرة التي وضعها في حالة استنفار لتوقي الطوارئ . كما أذكر أننا قضينا في هذا المخبأ ساعات ننتظر فيه - مستسلمين لقضاء الله وقدره - أن تتهاوى علينا سقوف البيت .

ولقد سمعنا في ليلة من ليالي هذه الأيام المأساوية التي عاشتها المدينة وقع خطوات دورية الجيش وهي تقوم بمراقبة حركات المدينة وتخترق الأزقة والدروب بعد فرض منع التجول .

وقد علق والدي على هذه التدابير، وربط بينها وبين مثيلاتها التي طبقها جيش الاحتلال عند دخوله فاس، وكم كان يقول لي :" لقد أجبرونا يوم فرض الحماية سنة 1912 على أن نرفع الرايات فوق سطوح البيوت، وأرغموا من لم يكونوا يتوفرون على راية أن يضعوا على جدران السطوح أغطية حمراء ." ولم يكن يفصل أحداث 1912 عن أحداث 1937 إلا ربع قرن، فجاء حصار فاس لينكئ جرحا لم يندمل عند من عاشوا أحداث فرض الحماية بالقوة والنار .

المغرب يدخل مرحلة حاسمة بعد أكتوبر الدامي

إثر اعتقال زعماء " الحزب الوطني " المغربي يوم 25 أكتوبر سنة 1937 غمرت مدينة فاس موجة سخط وتذمر استمرت طيلة ثلاثة أيام وتجلت في مظاهرات الاحتجاج بالشوارع، وقراءة اللطيف في المساجد والإضرابات التي شلت حركة المدينة. وتعرض الوطنيون في مختلف جهات المغرب للاعتقال فانتشرت عبر المغرب كله حركة الاحتجاج التي لم يوقفها لاحظر التجول المفروض من لدن سلطات الحماية، ولا تدخلات الجيش الفرنسي وفرق "الكوم"(1)،ولا الأحكام القاسية التي أصدرتها السلطات الفرنسية علي المعتقلين.

القوميون يقودون الحركة

وبإلقاء القبض على قيادة " الحزب الوطني" يومي 25 و26 أكتوبر أخذ زعماء "الحركة القومية" زمام قيادة حركة الاحتجاج ،ولعب المرحوم الوزاني دوره كزعيم للحركة الوطنية الموحدة ،إذ ظل الوحيد الذي لم يلق عليه القبض بين من كانوا يعرفون بالعشرة، أعضاء " وفد كتلة العمل الوطني لتقديم المطالب".

حول الوزاني اجتمعت بفاس قاعدة " الحزب الوطني" التي التحمت مع قيادة " الحركة القومية " وقواعدها. وخلفه انصهر الفريقان في وحدة متراصة واجهت الخطر الاستعماري بموقف واحد أكد أن عقد الحركة الوطنية لم ينفرط، وأن جسمها الواحد إنما كان يعمل بجناحين.

---

(1) فرقة مغربية تابعة للجيش كانت تختار من قبائل بربرية معروفة بشدة بأسها وصمودها في الحرب .

وظل بيت الوزاني طيلة أيام التظاهر محج وفود الوطنيين ومنطلق المظاهرات التي كان يحركها الخطباء بالجامع الأعظم (القرويين) وبمسجد الرصيف . وإلى مركز " الحزب الوطني" (خصمه السياسي السابق) بحي النواعريين نزل الوزاني بنفسه والمدينة مطوقة تحت الاحتلال العسكري ليعطي تعليماته للقيمين عليه أن يهربوا الوثائق المودعة فيه، ويغلقوه قبل أن تقتحمه قوات القمع. وقبيل ذلك طبق نفس التدبير على مركز حزبه الذي كان يوجد بحي القطانين.

تعاقب على منبر الخطابة بمساجد مدينة فاس زعماء " الحركة القومية" فسيقوا إلى السجون .وكان أن التأم جمع الحركة الوطنية بجناحيها في زنزانة السجون وفي مخابئ الشرطة التي ألقت بسياطها الجهنمية على ظهورهم فأدمتها وعلى وجوههم فشوهتها، وعلى ضلوعهم وأعقابهم فكسرتها .وفقد أعوان الشرطة وحراس السجون وعيهم فتفننوا بناء على التعليمات الصادرة إليهم في استعمال وسائل التعذيب ليكرهوا الوطنيين من الحزبين على الاعتراف بتهم لفقتها الحماية الفرنسية لإدانتهم وتبرير الأحكام التي أصدرتها بالجملة عليهم و تسويغ المعاملة القاسية التي أنزلتها بهم .

" الرأس الصلب "

وفي اليوم الثالث (29 أكتوبر) امتدت يد العدوان إلى الوزاني فألحقته برفاقه الذين سبقوه إلى السجن بيوم أو يومين، وبعضهم ببضع ساعات بعد أن تبين لسلطات الحماية صدق تصريحه أمام المسؤولين الفرنسيين بفاس :" لا خلاف بيننا، وقضيتنا واحدة نسمو بها فوق كل اعتبار، وسأقود مظاهرة الاحتجاج إلى أن يطلق سراح المعتقلين ".ولا شك أن موقف التحدي هذا قد أثار عليه نقمة رجال الحماية فقرروا الانتقام منه بعد أن أفسد ما كان بين أيديهم من أوراق اللعبة التي يظهر أنهم راهنوا على كسبها . لقد أيأسهم موقفه من استغلال تفرق " كتلة العمل الوطني " لضرب الحركة الوطنية على مرحلتين، تتمثل الأولى في شل " الحزب الوطني " و عزل " الحركة القومية " .

وتتشخص الثانية في ضرب " الحركة القومية " في الوقت الذي يختارون بعد أن يكونوا قد جزأوا الصف الوطني وأوقعوه في جو الارتياب والبلبلة .

وهكذا استهدف الزعيمان علال الفاسي ومحمد الوزاني لنفس التدبير فنفت الحماية الأول إلى مستعمرة " الكابون " ثم إلى الكونغو " بإفريقيا الاستوائية،

واحتفظت به تسع سنوات في منفاه السحيق، وأبعدت الثاني إلى أقصى نقطة في تخوم الصحراء المحرقة، واحتجزته بقلعة " أسا " العسكرية واحتفظت به تسع سنوات كذلك، وامتدت فترة نفي الزعيمين الكبيرين من نونبر 1937 إلى مايو 1946 حيث عادا في وقت واحد بعد تدشين سياسة الانفراج السياسي من لدن المقيم العام إيريك لابون (ERIK Labonne). وبذلك بلغت مدة نفي الزعيمين المغربيين رقما قياسيا لم تبلغه في علمي أية فترة من فترات النفي التي عرفها زعماء المستعمرات الفرنسية إذا استثنينا البطل الريفي محمد بن عبد الكريم الخطابي.

موقف شهامة

ربما لو كان للحركة القومية قائد غير الوزاني يمارس الانتهازية باسم السياسة الواقعية لداعبه هاجس الاحتفاظ بحزبه بعيدا عن المعترك الذي أصر الوزاني بشجاعته وشهامته على خوضه، ولربما برر ذلك القائد موقفه بحسن الاحتفاظ للحركة الوطنية بجناح واحد على الأقل. ولو أنه فعل ذلك لوقع في المناورات الفرنسية، ولتغير بذلك مسير الحركة الوطنية .

ألم تتجزأ الحركات الوطنية في معاركها مع الاستعمار كلما وقعت في خلافاتها ونزاعاتها وانشقاقاتها ؟ إن الأمثلة على ذلك كثيرة، ولنستق واحدا منها من شقيقتنا الجزائر التي تجزأ فيها العراك المطلبي السياسي في فترة معينة بين حزب الشعب الجزائري بزعامة مصالي الحاج وحزب أحباب البيان بقيادة فرحات عباس ورفقائه ممن كانوا ينعتون بالواقعيين .

لكن الوزاني لم يكن - رحمه الله - من هذه المدرسة السياسية .وأشهد له أني لم أره - منذ أن أصبحت بجانبه بعد عودته من منفاه - حاد ولو مرة واحدة عن التقيد بالمبادئ، أو ساورته أطماع شخصية أو اندفع لانتهاز مناسبات ظرفية للتخلي عنها أو تجميدها ولو مؤقتا، حتى لقد كنا نلاحظ مجمعين أنه ينطبق عليه ما اشتهر به من وصف " الرأس الصلب "، وقد كان فعلا متصلبا صريحا لا يغلف مواقفه، ولا يستعمل التورية للإشارة إلى مقاصده، بل يمضي في طريقه لا يتراجع ولا يتزحزح .

تحدث الوزاني أمامنا عن عروض كان يتلقاها - وهو في المنفى من الإقامة العامة بالرباط عن طريق السلطات التي كانت تسهر على حراسته - بأن يختصر مدة منفاه بمجرد إمضائه تصريحا يقبل فيه الإعراب عن حسن استعداده للتفاهم مع

الحماية الفرنسية لتطبيق بعض المطالب الوطنية، أو رسالة يعلن فيها تضامنه مع فرنسا، عندما أعلنت الحرب على المحور، فرفض أن يشتري حريته بهذا الثمن بالرغم من أنه كان معاديا للنازية الفاشية التي كان يعلم أن خطرها الداهم كان وراء الحرب، مفضلا البقاء حيث كان إلى أن تنتصر القضية التي من أجلها أوذي ونفي، وأصر على موقفه حتى بعدما أطلقت الإقامة العامة سراح الزعماء الوطنيين من كلا الحزبين، ورفض أن يمضي على وثيقة التضامن مع فرنسا عندما أعلن زعماء الحزب الوطني هذا التضامن .

ذكريات المنفى

كتب الوزاني في كتابه الذي طبع بعد وفاته بعنوان " مذكرات حياة وجهاد" فصلا وحيدا عن حياته بمنفاه سجل فيه مشاهد مثيرة عن الحياة الجهنمية التي عاشها تحت الحراسة العسكرية بقلعة أسا التي قضى بها سنتين و نصف سنة ثم (بأقا)، ثم بتاكونيت فإيتزر بالصحراء .

ومما يستوقف النظر فيما قصّه أن درجة الحرارة في " أسا " كانت تبلغ في فصل الصيف أطول فصول السنة 52 درجة، وأنه انفجر داخل مستوصف قلعة أسًا ذات يوم ميزان الحرارة في الظل تحت ضغط القيظ، وأن أوكسيجين الهواء كان يحترق أحيانا إلى درجة اختناق النفس، وأن الجيش الفرنسي الذي كان يرابط في القلعة ويحرسه كان يطلق على القلعة اسم قبر الدنيا .

ولست أدري ما إذا كان المرحوم علال الفاسي قد دون ذكريات منفاه، وإن كان فعل فحبذا لو سارع القيمون على إصدار تراثه إلى نشر ما يكون قد سجله، ولا شك أن ظروفه في منفاه كانت شبيهة بظروف زميله، إذ كل شيء كان يؤهله ليتعامل معه حراسه بمنتهى القسوة والفظاظة وبالغ الأذى، فقد كان يمثل في نظر الحماية الفرنسية التي أوغلت في إبعاده إلى منفاه السحيق الزعيم الديني المخيف المتعصب، الساعي إلى ربط بلاده بعجلة أعداء فرنسا من دول العروبة والإسلام .

وفي هذه الفترة التي نتحدث عنها وإلى نهاية الحرب العالمية الثانية التي سجلت بداية انتصار حركات التحرير في إفريقيا وآسيا خاصة، كان الاستعمار صنو الصليبية، وكانت عداوة الإسلام قاسمهما المشترك، وكانت النزعة الإسلامية تخيف المستعمرين وتؤرق مضاجعهم وعليها كانوا يصلتون سيف إرهابهم .

وحتى في حياتنا المعاصرة ما يزال الاستعمار المقنّع الجديد يتوجس خيفة من

الصحوة الإسلامية ويخشى كل من نبغ في بلد ما للدعوة إليها، وما زالت مصادر الإعلام العالمي الخاضعة للاستعمار الجديد والصهيونية تركز على إعلام موجه يرعب القلوب من تطبيق الشريعة الإسلامية في أي بلد مسلم، ويصور هذه الشريعة لمن لا يفهمون حقيقتها بأنها قطع الرؤوس والأيدي، والرجم إلى الموت، وتعطيل حقوق الإنسان والمواطن، والرجوع بالبشرية إلى القرون المظلمة .

إننا لا نجد ضمن ما نشر من كتب علال الفاسي سوى إشارة عابرة عن ذكريات منفاه، ففي كتابه " الحركات الإستقلالية " يطالعنا عنوان ضخم :"مجهودات المنفى" تحدث فيه عن تحركه السياسي من منفاه لفائدة العمل الوطني، ولم يتضمن عن ذكريات منفاه إلا قوله : "وبالرغم من النظام الضيق الذي وضعت فيه وبالرغم من أني ظللت مدة اعتقالي كلها في بعد عن كل اتصال بالحياة العامة وأخبارها، وفي منع كامل من الاجتماع بالناس وقراءة الصحف والاستماع للإذاعة فإن اتصالي المعنوي بروح التطور الوطني في البلاد ظل قويا " .

ابتلاء عسير

أخضعت سلطات الحماية الفرنسية المعتقلين إلى ابتلاء عسير أثناء استنطاقهم بأقسام الشرطة ومخابئها. وفي المرحلة الانتقالية التي قضوها بالسجون، ثم أثناء إقامتهم بمعسكر أقامته خصيصا في الصحراء لتعذيبهم وتصفيتهم جسديا عند الاقتضاء، وقد استخلصت سلطات الحماية الفرنسية صفوة من المعتقلين خصتهم بتعذيبها، وكان المعتقلون حسب الإحصاء الرسمي 444 منهم 45 تقرر سجنهم لمدة سنتين، و33 لمدة سنة، وستة لمدة سنة ونصف، والباقون لمدد مختلفة لا تقل عن نصف سنة وكانوا في الحقيقة أكثر من ذلك .

ومن المهازل التي تصلح للتندر الحوار السخيف الذي حصل بين باشا مدينة فاس محمد التازي والجنرال حاكم ناحية فاس في موضوع مدة سجن المعتقلين، إذ سأل الباشا (الذي مثل أمامه فوج من المعتقلين) الجنرال حاكم الناحية العسكرية : "بكم أحكم على هؤلاء ياسيدي الجنرال ؟" فكان الجواب :" وزع عليهم مائتي عام سجنا" فقسم الباشا المجموعة إلى ثلاث فرق نالت الفرقة الأولى التي حملت اسم كبار المشوشين سنتين سجنا. والثانية الحكم بسنة ،والثالثة بستة أشهر، وتبرع الجنرال بحكم إضافي - بالجملة - على مجموع الفرق الثلاث يقضي بنفي الجميع على قدم

المساواة إلى الصحراء لممارسة الأعمال الشاقة في المعسكر الذي أقيم خصيصا لهذا الغرض .

وممن ابتلوا بهذا التعذيب وطنيان مكافحان : عبد الهادي الشرايبي من "الحركة القومية " ومحمد بن هاشم العلوي من " الحزب الوطني "، فنشر الأول فصولا عن مأساة الوطنيين في كتابه " ثمن الحرية "، وأفرد الثاني لشريط العذاب كتابا بعنوان "من وراء السدود"، وقص الزعيم الوزاني من جهة أخرى في حديث عابر ما شاهده على أجسام المعتقلين - الذين جاءوا إلى السجن بعد احتجاز الشرطة لهم - من آثار العذاب عندما أودع هو السجن في اليوم الأول من اعتقاله دون أن يساق إلى الشرطة وقال : لقد كشف لي بعض المعتقلين عن ظهورهم وأرجلهم لأشاهد الجروح التي تدمي رؤيتها القلوب، وهكذا رأيت ظهري عضوي " الحركة القومية " عبد الهادي الشرايبي (مؤلف كتاب " ثمن الحرية ") وأحمد بن التهامي الوزاني مكسوين بخطوط دامية وكأنما اقتلعت جلودهما من أثر السياط، ورأيت أذن عبد العزيز بن إدريس (من الحزب الوطني) تقطر دما وهو يتوجع، وما أفظع ما رأيت وما أشنع ما سمعت من أولئك المعذبين في جحيم الشرطة ! وقد حمدوا الله على أن لم أتعرض لمثل ما أصابهم في سبيل الله ووطنهم ".

ويقول المرحوم عبد الهادي الشرايبي في كتابه "ثمن الحرية " : " عندما أودعت بقسم الشرطة بدأت معي الاستنطاقات والأسئلة المختلفة عن الحركة الوطنية ومن يحركها، والأيادي الأجنبية التي تواجهها، وعن تصرفات " الحركة القومية " وسياستها، وعن المقالات التي كانت تنشر باسمها في صحافتها، وعن المظاهرات و الخطباء وعن جريمة الدعوة إلى الثورة على فرنسا وعن مؤامرتنا على السلطان وتمردنا على سلطة القانون. وكل ذلك كان يجري تحت أنواع من التعذيب والتنكيل، ومن أبرزها الإكراه بالجلد والضرب حتى تنقطع أنفاس الإنسان ويغمى عليه، ويستمر ذلك الساعات الطويلة ليل نهار،" وأضاف : "وأذكر أن صديقنا الحاج عبد القادر العلج من " الحركة القومية " - وكان شيخا تجاوز الستين من عمره - مر هو أيضا من صراط الشرطة، وسمعناه وقد خرج من قاعة الاستنطاق والتعذيب منهوك القوى وهو يردد :" الله أقوى من كل قوي".

وكتب محمد بن هاشم العلوي في كتابه : " من وراء السدود":«كنا نرى الذين استنطقوا من البوليس وزبانية العذاب : هذا منتفخ الوجه، وهذا مرضوض الرأس، وآخر لا يستطيع الجلوس على مقعدته لما تحمله أعضاؤه التناسلية من مفعول

الكهرباء. لقد استنطقوا ولكن عن أي شيء : أين السلاح الذي أمدكم به الألمان؟ أين الإعانات التي قدمتها لكم إيطاليا ؟ أين الاتفاقيات التي لكم مع روسيا ؟ إنكم مشاغبون، هذا جزاؤكم خذوا : جلد، رفس، كهرباء، جلوس على القنانين الزجاجية المكسرة » .

في معسكر الأشغال الشاقة

كانت هذه الأحداث تجري مع بداية شهر رمضان حيث التزم المكتوون بنار الاعتقال والاضطهاد بالصيام في احتساب وصبر، ولم تنتظر سلطات الحماية حلول شوال، وإنما سارعت بنقل المعتقلين إلى معسكر أقامته في كوليمة بصحراء تافيلالت قريبا من مدينة قصر السوق التي أصبحت تحمل اسم "الرشيدية " بعد عودة استقلال المغرب . وهناك ألقت بمصير المعتقلين بين يدي طاغية عسكري فرنسي كان حاكما بأمره في المنطقة هو الكمندان" أيار". وكان المعسكر الذي أودع فيه المعتقلون مربطا للحيوانات والبهائم ومخزنا لعلف الدواب ،و لنقل إنه كان اصطبلا لم يسكنه بشر قط .

ولنترك شاهد عيان وضحيةً "حَظيتْ" بضيافة هذا الطاغية يتحدث عما عاناه هوو رفاقه، هو المرحوم عبد الهادي الشرايبي عضو " الحركة القومية " الذي كتب عن المأساة : "لقد وصلنا وكنا سبعين نفرا إلى المعسكر داخل سيارة شحن كانت معدة لنقل الأحجار والرمال فشُحنًا فيها وقوفا بما في ذلك الجيش المرافق لنا، ووضعت السيارة بحيث جعلت مؤخرتها مسامتة لمدخل الاصطبل، وبدأت عملية إفراغ الشحنة لا كما تفرغ الرمال والأحجار، حيث تفتح مؤخرة السيارة وتترك شحنات الحجارة أو الرمل تتساقط وحدها، وإنما تُرك باب الشاحنة الخلفي مشدودا إليها، وأخذ أفراد الجيش يدفعوننا من داخل الشاحنة ويلقوننا على الأرض بين يدي زملائهم الواقفين على الأرض أو بتعبير أصح بين أرجلهم، فيتقاذفوننا كرات بشرية، كل هذا والهراوات تعمل عملها فوق ظهورنا ورؤوسنا تستحثنا للوقوف، وكلما أفلتنا من هراوة عسكري واحد ترصّد لنا زميله بهراوته ليدفعنا إلى ثالث يتبع بضربته أمثالها، و لا تسأل عن اختلاط الحابل بالنابل :" عمامة تجري من هنا، ونظارات تقع هناك، وطرابيش وبرانس وأحذية تتساقط وتدوسها الأقدام ".

الطاغية يخطب في ضحاياه

كان الكمندان أيار فرنسيا من مواليد الجزائر وفي مدرسة الجزائر التي كانت مختبر تجارب المستعمرين الفرنسيين تدرب على إتقان فن التنكيل والتعذيب وكراهية أهالي مستعمرات فرنسا فيما وراء البحار. وهذا التخصص أهله ليكون على رأس المعسكر الجهنمي الذي قذف فيه الاستعمار الفرنسي الوطنيين، وقد استهل الطاغية اتصاله بالوطنيين بخطاب ألقاه أمامهم يوم وصولهم ومما جاء فيه : " لقد وقعتم بين يدي يا أولاد الحرام لأنتقم منكم ولتؤدوا ثمن المتاعب التي سببتموها لفرنسا حامية بلادكم فاستعدوا لما ينتظركم، سأجعل منكم بهائم ،سأضع السلاسل والأغلال لا في أعناقكم ولكن في أفواهكم مثل البغال والحمير. وكالبغال ستجرون عربات النقل المحملة بالأحجار والرمال، والسياط تلهب ظهوركم. وآنذاك ستعترفون بنعمة الله التي أعطاها لكم بجعل بلادكم تحت حماية فرنسا حاملة المدنية والحضارة إليكم، فكفرتم أنتم بها ولم تقدروها قدرها ».

ثم نظر إلى لباس المعتقلين وقال :" غدا ستغيرون لباسكم، وسيتغير كل شيء من حولكم " .

وأتبع الطاغية خطاب التنصيب هذا بوضع برنامجه موضع التنفيذ إلى أن أصبح المعتقلون يتساقطون منهكين لا يقوون على حراك، وإلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة تحت طائلة العذاب أول شهيد هو المرحوم محمد القري عضو " الحركة القومية " الذي فدى بروحه يوم ثامن دجنبر (كانون الأول) 1937 زملاءه ضحايا العذاب ولفظ أنفاسه وهو يردد الآية الكريمة : "ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا ."

لقد أثار استشهاده في المأساة التي تحدثنا عنها (في صفحات سابقة) ضجة لدى الرأي العام في المغرب وفرنسا ونبه المسؤولين في باريس إلى المأساة التي كانت تجري فصولها المؤلمة بصحراء كوليمة فاضطرت سلطات الحماية إلى نقل المعتقلين إلى سجون عادية بعد أن قضوا خمسين يوما خاضعين لقسوة الطاغية الذي تفنن في تعذيبهم أيما تفنن .

.. وانتقم القدر

وما أعظم حكمة القدر! فقد وقع هذا الطاغية الجبار أسيرا في يد جيش التحرير المغربي فانتقم منه شر انتقام، و ألبسه جلبابا مصنوعا من الشوك، وكال إليه بنفس مكياله هو للوطنيين، وأذاقه أمثال ما كان يستلذه من أنواع تعذيبهم وأشكال التنكيل بهم.

" ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ".وإنَّ الله يمهل على الظالم حتى يأخذه، فإذا أخذه لم يفلته".

سأسحق الوطنيين بقدمي

« أقول لأهل مدينة فاس : إننا - رفقا بهم - لم نمض حتى النهاية في استعمال قوتنا، وقد أحسنوا حين فهمونا بمجرد ما أظهرناها ولم يضطرونا إلى استعمالها، لأننا كنا على استعداد لكل شيء .»

بهذا الإنذار توجه عبر الصحافة والإذاعة المقيم العام الجنرال نوجيس إلى أهل فاس (نهاية أكتوبر (تشرين الأول) سنة 1937) بعد أن طوق المدينة عسكريا، وأنزل بها قوات الجيش، واقتحم قلعتها الوطنية، وأخضع الوطنيين لتدابير الاعتقال والتشريد التي أجملنا الحديث عنها في الصفحات السابقة .

وقد كان الجنرال مزهوا بهذا النصر " العسكري " الذي حققه على مدينة فاس الآمنة، فأبى إلا أن يدعو للاجتماع (في ساحة ميدان النجارين بالحي المركزي بالمدينة) مجموعة من السكان وعلى رأسهم السلطة المحلية ليسجل أمامهم انتصاره في خطاب صاعقي منذر مما جاء فيه : " إني سأسحق الحركة الوطنية تحت قدمي " وضغط على الأرض بإحدى قدميه وحركها بعنف متقمصا روحه العسكرية، وخالعا رداء الدبلوماسية التي كان يتظاهر بها .

لا مسؤولية للسلطان

ونسبت الإقامة العامة إلى "الحكومة الشريفة" أنها هي التي قررت اعتقال الوطنيين ونفي زعمائهم، وكانت قد نسبت إليها قبل ذلك اعتقالات الوطنيين سنة 1936 وقرار حل كتلة العمل الوطني في مارس (آذار) سنة 1937، إلا أن تقارير المقيم العام التي وجهها إلى حكومته تضاربت هي نفسها في نسبة هذه المسؤولية إلى حكومة السلطان.

فإذا كان قد سجل في تقريره المؤرخ بخامس نونبر (تشرين الثاني) 1937 (أي على إثر نفي الزعيمين الوطنيين الفاسي والوزاني) والموجه إلى وزير خارجية فرنسا أن قرار حل كتلة العمل الوطني تم بموافقة السلطان، فإن تقريرا آخر موجها منه إلى نفس الوزير شهرا من قبل نص على أنه هو الذي اتخذ القرار دون أن يشرك معه السلطان من قريب أو بعيد. وهذا ولا شك هو الصحيح، وما جاء بعده في تقريرخامس نونبر كان تداركا إثر رد فعل استنكار قرار الحل من لدن بعض المسؤولين الفرنسيين في باريس وذلك في محاولة من المقيم لإضفاء صبغة الشرعية على قراره، لإيهام حكومته بأن الأمر يتعلق بنزاع بين السلطات والوطنيين، أو بأن قمع هؤلاء كان مرغوبا فيه من سلطتي المخزن والحماية معا.

وكيفما كان الحال، فلم يصدر عن السلطان ظهير (مرسوم ملكي) يدين الوطنيين أ و تصريح يأذن باعتقالهم أو نفيهم، ومتى كانت أية سلطة شرعية تأمر أو تأذن بنفي رعاياها إلى خارج بلادها وخاصة إلى منطقة أجنبية لا تمارس عليها نفوذا؟ في حين أن المرحوم علال الفاسي نفي إلى مستعمرة فرنسية بإفريقيا (الغابون).

صحيح أن الصدر الأعظم (أو رئيس حكومة المخزن) أصدر قرارات وزيرية وأعلنت باسمه تصريحات تضمنت التنديد بالحركة الوطنية أو أقرت ضد زعمائها تدابير زجرية، ولكن لا أحد في المغرب وفرنسا يجهل كيف كان يتم حصول سلطات الحماية على القرارات التي كانت تصدر عن وزراء المخزن الطيعين. أما السلطان فلم يكن يملك إلا الامتناع عن وضع خاتمه على مشاريع الظهائر التي كانت تقدمها له الإقامة العامة مما كان يرى فيه مساسا بمصالح الدولة والشعب، وهو السلاح الذي

أخذ يستخدمه في معارضة الحماية بثبات ونجاح بالرغم من مختلف الضغوط التي تعرض لها مما سنتحدث عنه في إبانه .

إن القرارات التي اتخذها المقيم العام لاقتحام قلعة الحركة الوطنية وعاصمتها فاس كانت إذن من وحيه الخاص واجتهاده الشخصي وإن كان حصل على تفويض كامل من حكومته لتطبيقها. ولا يقتصر الأمر على الجنرال نوجيس، فالمقيمون العامون السابقون لعهده واللاحقون تميزوا بدون استثناء باجتهادات شخصية لفرض سياسة الأمر الواقع التي لم تلق قط قبولا من السلطان محمد بن يوسف والتي كانت تتجاوز أحيانا حتى إرادات بعض الحكومات الفرنسية المتعاقبة. وجميعهم بدون استثناء كذلك لم يختلفوا على الهدف الذي رسموه لسياسة الحماية المتمثلة في تركيز حكم مباشر بعيد عن نص الحماية وروحها، وظهروا جميعا - كما قال شارل أندري جليان (Charles - André Julien) في كتابه «المغرب في مواجهة الأمبرياليات" (Le Maroc face aux impérialismes) - عاجزين عن مواجهة المطالب الوطنية بسياسة بناءة، وغير قادرين على السيطرة على الثورة الوطنية التي ظلت السلاح الوحيد للشعب الرافض لسياستهم "

لقد اغتنم المقيم العام - لتنفيذ سياسة القمع - وضع البلبلة السياسية التي كانت تتخبط فيها بلاده سنة 1937 من جراء تخوفها من عواقب التطورات الدولية عليها، ذلك أن فرنسا أخذت تتوقع الخطر على ترابها الوطني وحتى على مستعمراتها ومحمياتها منذ أن انتصرت النازية الهتليرية في ألمانيا وتركز النظام الفاشي الموسوليني في إيطاليا، وكان المغرب يشكل في هواجسها نقطة خطر خاص بعد أن انطلقت منه فاشية الجنرال فرنكو الذي تمكن من بسط نفوذه كاملا على المنطقة الخليفية، مثلما كانت تخشى على تونس من الوقوع في قبضة إيطاليا الفاشية، وكان موسوليني يخطط فعلا للاستيلاء عليها .

وقد ضاعفت من حدة تخوف الحكومة الفرنسية على مصير المغرب تقارير كل من الإقامة العامة والجالية الفرنسية التي كانت تصلها من الرباط عن تبعية الحركة الوطنية لأجانب، وعن تحريكها المزعوم من النازيين والفاشيين، وعن انغمارها في تيار النهضة العربية وتطلعها إلى ربط المغرب بالعالم العربي، وعن ترسمها خطوات الكفاح العربي الذي توج بإبرام المعاهدة المصرية الأنجليزية سنة 1936، والاتفاقية السورية اللبنانية المبرمة في نفس السنة حيث " انفتحت شهية الوطنيين بعدهما لتجاوز نطاق الحماية " كما جاء في أحد التقارير.

«حكومة» علال الفاسي

وكان من بين ما اخترعه المقيم العام - لتنفيذ سياسة القمع وتبريرها - اتهامه " الحزب الوطني " وزعيمه المرحوم علال الفاسي بتدبير مؤامرة تمرد على السلطان، وقد ذهب عملاء المقيم بعيدا في ذلك إلى حد ادعاء التوفر على حجة قاطعة تثبت هذه المؤامرة، حيث أشاعت سلطات الحماية أنها عثرت في بيت محمد اليزيدي عند اعتقاله على وثيقة تتضمن قائمة الحكومة " المتمردة " التي وضعت على رأسها علال الفاسي ملكا، وقسمت الحقائب الوزارية بين اليزيدي في منصب الصدر الأعظم، وأحمد مكوار في منصب وزير المالية، وأحمد بلافريج سفيرا متنقلا، وأعضاء آخرين في مناصب ومهام أخرى. وتحدث بلافريج - الذي كان يوجد خارج المغرب أثناء هذه الأحداث - عن هذه الوثيقة ذاكرا أن المنصب الذي أسندته الوثيقة الكاذبة إلى علال الفاسي هو منصب رئيس الجمهورية وليس منصب الملك، ونفى صحة ما تضمنته الوثيقة في الحالتين نفيا باتا .

و"الوثيقة"

نَمَّت هذه الوثيقةُ عن اتهام سخيف لم يلق أذنا صاغية بل قابله السلطان بالاستخفاف، ولم يكن إلا دليلا على المستوى الخلقي الذي تدنى فيه حقد سلطات الحماية الفرنسية على زعماء " الحزب الوطني " وخاصة المرحوم علال الفاسي الذي نسب إليه أعوان المقيم العام سخافات صبيانية أخرى لم يصدقها السلطان قط، ولم تعتمد جديتها في فرنسا الحكومة الفرنسية، وإنما رددتها في المغرب - دون أن يكون لها أي صدى صحافة ماس (M A S) الاستعمارية الحاقدة التي دأبت على ترويج مثل هذه الترهات طيلة حياتها وتصيدت دائما الفرص لملء صفحاتها الصفراء بالأكاذيب والروايات المختلفة، وقد نال السلطان محمد بن يوسف نفسه النصيب الأكبر من أذاها عندما اشتدت الأزمة بينه وبين الاستعمار قبل إبعاده - رحمة الله عليه - إلى منفاه بمدغسكر سنة 1953 .

وحتى الإقامة العامة نفسها لم تتبع هذا الاتهام بأي تحقيق مع المعنيين بأمر الوثيقة ولم تنشرها للعموم، ولم تضعها في ملفات محاكمة من نسبتها إليهم، مما يؤكد أن الوثيقة لا وجود لها إلا في أذهان من أشاعوا وجودها ليجعلوا من كل خشب نشابا كما يقول المثل الفرنسي، وذلك في سعي إلى تجميع المبررات لسياسة القمع التي انتهجوها ضد الحركة الوطنية، واجتهدوا في حمل الرأي العام بفرنسا على الاقتناع بها وتبنيها بجميع الوسائل التي لم يستثنوا من بينها حتى وسيلتي الكذب على حكومتهم وتضليلها .

وبعد العاصفة

وقد هدأت العاصفة مؤقتا في فاس وساد سكون رهيب في المغرب كله بعد أن حقق نوجيس " انتصاره الساحق "فبدا وكأن حكومة فرنسا لم تكن مهتمة بأمر المغرب، وأنها اطلقت حرية التصرف في محميتها لممثلها ليتخذ من السياسات ما يراه مفيدا لتركيز الوجود الفرنسي، ولو بتسخير المعارضة المغربية لطغيان القمع الذي لا يرحم في معسكر الصحراء، وحتى ولو عطلت ممارسة هذا الطغيان القانون الفرنسي، وهمشت المبادئ الخلقية الإنسانية.

هكذا لم ترتفع في فرنسا صيحة تنديد بما جرى في المغرب، والتقت على مؤامرة الصمت أحزاب اليمين واليسار، باستثناء أقصى اليسار الذي رفع صوتا خجولا محتشما استنكر فيه فظاعة القمع لا القمع نفسه، وتخوف من أن يكون إطلاق حرية التصرف للجنرال بالمغرب بداية عهد ديكتاتورية عسكرية، وحتى عصبة حقوق الإنسان اعتبرت أن ما جرى في المغرب إنما تولد عن وضع اقتصادي مأساوي وليست له خلفيات سياسية عميقة.

ومن واجبنا مع ذلك أن لا نغفل أن صديق الوطنيين الدائم جان لونكي (Jean Longuet) الاشتراكي نجح في جمع إمضاءات من شخصيات فرنسية على عريضة احتجاج على تشريد الوطنيين ووجهها موقعوها إلى الحكومة الفرنسية، وكانت من بينهم شخصيات معروفة بمواقفها المتحررة أمثال لويس ماسينيون (Louis Massignon) وفرانسوا مورياك (François Mauriac). أما في المغرب فقد صفقت الجالية الفرنسية لانتصار الجنرال وأشادت بحنكته وتوفيقه، وكتبت صحافتها مقالات تأييد كان عنوان واحد منها " ليحي الجنرال نوجيس ".

وقد يكون من الواجب والإنصاف أيضا أن نسجل - ونحن نتحدث عن رد فعل سياسة القمع في المغرب - الشجاعة التي تحلى بها بول شينيو (Paul Chaignaud) أحد زعماء فرع الحزب الاشتراكي بالمغرب، حيث تصدى في جريدته " المغرب الاشتراكي» (Le Maroc Socialiste) للتنديد بسياسة القمع المقيمية، وتعاطف مع الزعماء المنفيين وسائر المعتقلين، وطالب بتمتيعهم بالسراح وتمكينهم من ممارسة نشاطهم السياسي .

"وشينيو" هذا اختار الإقامة الطويلة بالمغرب ووطد صلته بالوطنيين قبل هذه الأحداث طول حياته، وكا ن يكتب لتأييد الحركة الوطنية مقالات جريئة لصالح الحركة الوطنية بجريدة " عمل الشعب " (L'action du Peuple) وغيرت إحدى بناته اسمها إلى "مليكة" بعد أن تزوجت بأخينا وزميلنا في أكاديمية المملكة المغربية الأستاذ أحمد غزال المعروف ببحوثه اللغوية وجهوده المشكورة لتبسيط كتابة اللغة العربية حسب طريقة رقانة مبتدعة عرفت في المغرب وعبر العالم العربي بطريقة أحمد غزال .

ومما جاء في أحد مقالات شينيو قوله : " إن الوطنيين الذين يوجودن في المنافي ومعسكرات التعذيب هم شباب يغمرهم تطلع إلى تعاون صادق شريف مع فرنسا، وقد أعطوا لبلادنا ضمانات عن حسن استعدادهم لا يمكن الطعن فيها، لذلك فإننا نحتج على الاعتقالات الاستبدادية الجائرة التي تعرضوا لها، ونرفع صوتنا عاليا وبقوة ضد المعاملة المزرية التي عوملوا بها، حيث اختطفوا قسرا ونقلوا إلى مكان مجهول دون أن يعرف أهلهم عن مصيرهم شيئا . والأفظع من ذلك أن السلطة استولت عليهم دون أن تنعقد أية محكمة لمحاكمتهم ".

وفي الجريدة الاشتراكية نفسها كتب كاستون ديلماس (Gaston Delmas) الكاتب القدير مقالا نأخذ منه هذه الفقرة :« لا شيء يبرر هذا القمع الفظيع إلا مجرد وجود إرادة سياسية عند الإقامة العامة تهدف إلى سحق حركة وطنية بريئة همها النهوض بالجماهير المغربية وتربيتها على الوعي الوطني، وتخليصها من قبضة نظام يقوم على التسخير والجور المخزي، أو بكلمة جامعة نظام استعماري تطبعه القسوة والفظاظة، ولقد آن الأوان أن ينتهي هذا الوضع " .

وقد حجزت الإقامة العامة في الحين عدد جريدة " المغرب الاشتراكي " الذي نُشر فيه مقالا شينيو وديلماس ولكن المقالين ظهرا على أعمدة صحافة أقصى اليسار التي كانت تنشر أصداء عمليات القمع المقيمي من حين لآخر .

احتجاج الجزائر وتضامن تونس

كان لمأساة الوطنيين صداها لدى رفقائهم في الكفاح وطنيي الجزائر و تـــونس. و لئن اقتصر الجزائريون على تخصيص مقالات في الصحافة الوطنية للتنديد بعمليات القمع، (وذلك مجهود كبير بالنسبة للوضع الشاذ الذي كانوا يعيشون فيه) فإن وطنيي تونس طوروا تضامنهم إلى حركة احتجاجات جماهيرية أضرب فيها شعب تونس عن العمل وتظاهر فيها في الشوارع. وقد احتفظت الحركة الوطنية المغربية لتونس الشقيقة بهذا الجميل ورعت لها هذا العهد عندما تضامنت سنة 1952 نقابة " الاتحاد المغربي للشغل (العمل) - ومعـــها جماهير الشعب المغربي - مع أختها نقابة " الاتحاد التونسي للشغل " التي كانت دعت الشعب التونسي إلى التظاهر على إثر اغتيال الزعيم النقابي التونسي فرحات حشاد . وفي نطاق هذا التضامن قامت بالمغرب مظاهرات وشن العمال المغاربة إضرابات ضاقت بها ذرعا سلطات الحماية، فاقتحمت قواتها المسلحة مركز الاتحاد النقابي المغربي بالدارالبيضاء واعتقلت الزعماء النقابيين وتفننت في ضربهم وركلهم والتنكيل بهم وسقط الجرحى والقتلى، وكان ذلك بداية الأزمة السياسية المغربية الكبرى التي انتهت بالتحرير والاستقلال بعد أن ركبت فرنسا رأسها إذ أبعدت السلطان إلى المنفى قاطعة بذلك السبيل على إمكان التعامل مع محميتها ومعجلة بتهييء الظروف للاستقلال.

ولم " تسحق الحركة"

لم يطل ارتياح رجال الحماية إلى هدوء المغرب بعد سكون العاصفة التي أثاروها. فما أن وصل إلى فاس خبر استشهاد المرحوم محمد القري في الظروف المأساوية التي أشرنا إليها حتى عاد الوطنيون للمساجد لقراءة اللطيف، وعاد الخطباء المنتمون إلى القاعدة من صغار الشباب لتحريك الجماهير ولفات نظرهم إلى الخطر الذي يهدد الوطنيين في معسكر الاعتقال الجهنمي، مما أصبحت معه أسر المعتقلين تخشى على مصير ذويها بعد سقوط أول شهيد سياسي تحت العذاب.

ولم تكن الإقامة العامة تتوقع أن تنهض الحركة الوطنية لاستئناف كفاحها بعد شهر فقط خلا على الضربة التي أنزلتها بها، لأنها كانت أحصت بعناية وتمحيص أسماء رجال القيادة في الحزبين الوطنيين وأوقعتهم في شرك الاعتقال جملة واحدة، واطمأنت بإحكامها ضربتها السريعة إلى أنها اجتثت جذور الحركة الوطنية، أو أنها أجرت على جسم المغرب المريض عملية استئصال لسرطان الوطنية تكللت بالنجاح.

وما أشد خيبتها حينما فاجأتها جماهير مدينة فاس بتجمعها من جديد في أبهاء مسجد القرويين احتجاجا على قتل الشهيد القري عضو " الحركة القومية" وقيام الخطباء بإبراز هول الحدث وخطره، ورد الجماهير باستعدادها لركوب مخاطر التضحية إلى الموت فداء للقيادات الوطنية المسخرة للعذاب، وعندما انتشرت موجة الاحتجاجات بجهات أخرى من المغرب . فما أشبه الليلة بالبارحة !

ولقد كان غريبا حقا أن لا يطول هدوء العاصفة المثارة حول الحركة الوطنية التي لم تترك قيادتها في الحزبين خلفا لها لمواجهة التطورات، وخاصة في صف " الحركة القومية" التي لم يمتد نشاطها العلني منذ تأسيسها إلا أشهرا، والتي كانت عندما اعتقل زعيمها ورفاقه ما تزال لم تستكمل تنظيمها وكانت تتابع مرحلة تركيز فروع لها خارج مدينة فاس مما اضطر شبابا في درجة ثانية ظلوا خارج السجون أن يتخذوا مبادرات ظرفية محلية باسم " الحركة القومية " كإرسال برقيات الاحتجاج أو ترويج مناشير للدعوة للتظاهر.

هكذا أمضى على برقية احتجاج (موجهة إلى الإقامة العامة) على تعذيب الشهيد القري إلى الموت كل من أحمد ابن سودة والمرحوم المهدي الودغيري فأودعا السجن شهرا، ثم عندما زار المغرب الوزير الفرنسي فرانسوا دوطيسان (François de TESSAN) في مرحلة لاحقة خلال سنة 1938 للتحقيق في الأوضاع السياسية وجه له هؤلاء الشباب مذكرة باسم " الحركة القومية" أمضى عليها أحمد ابن سودة، والمهدي الودغيري، وحماد العراقي، وعبد الله الحبابي، وعبد القادر بنشقرون، فعاقبتهم الإقامة العامة بحبسهم ثلاثة أشهر باستثناء بنشقرون الذي كانت أسرته تتمتع بحماية أنجليزية، ثم سيق الأربعة المحكوم عليهم سيرا على الأقدام مخفورين إلى قرية شراگة التي تبعد عن مدينة فاس بثمانين كيلومترا . ومنذ ذلك انقطع أخونا أحمد ابن سودة عن دراسته الثانوية بالقرويين، وكان إلى هذا الحين أحد تلاميذها النابهين المجلين ،وتمحص للجهاد والكفاح حتى تجمعت له في السجون حصيلة أزيد من خمس سنوات وكاد ينفذ عليه حكم الإعدام لولا لطف الله به.

ولم يكن يختلف الأمر إلا قليلا بالنسبة للحزب الوطني، لأنه كان له نشاط في الخارج قاده الحاج أحمد بلافريج الذي أفلت هذه المرة أيضا من الاعتقال، كما مارس نشاطا آخر باسم الحزب شباب كانوا يدرسون في باريس والقاهرة . أما في الداخل فقد تابع النشاط السياسي حزبيون برزوا من صفوف القاعدة تحدث عنهم المرحوم علال الفاسي في كتابه " الحركات الاستقلالية " بقوله :" واستمرت بفاس أعمال الدعاية والتنظيم . وكان لكثير من شباب الحزب يد بيضاء في المحافظة على روح الحركة واتجاهها نذكر منهم محمد السعداني الذي استطاع أن يحصل على محبة سائر إخوانه ويجمعهم من حوله.»

وإذن فلم تسحق الحركة الوطنية كما توهم الجنرال وهو يرغي ويزبد مهددا بسحقها، وإنما ثبات الحزبين الوطنيين هو الذي سحق حلمه اللذيذ بحقيقته المزعجة .

ولم يطل الأمد بالجنرال، فقد جابهته منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية سلسلة حقائق بالغة الإزعاج لم تكن تخطر له بالحسبان.

الفصل الحادي و العشرون

الاستعمار الفرنسي يبحث عن البديل

ظاهرة واحدة

ينزع بعض الدارسين المحللين لظاهرة الاستعمار إلي تجزئتها أقساما وتنويعها أنماطا وتصنيفها حسب مقاييس ومعايير مضبوطة. ويتحدثون من هذا المنطلق عن ظواهر استعمارية يطلقون عليها اسم المدارس الاستعمارية أو أنماط الاستعمار، وينعتون الاستعمار طبقا للمقاييس بالاستيطاني، أو الاندماجي، أو الاقتصادي، أو الفكري، ويصنفونه علي حسب وضعية الأقطار التي ابتلى بها : هذه مستعمرة ، وتلك حماية، والأخرى تحت الانتداب ، والرابعة تحت وصاية مجموعة دول، أو تحت وصاية هيأة دولية إلى آخر السلسلة .

وبصرف النظر عن التعابير القانونية التي يتشبث بها المجتمع السياسي العالمي ويقرها القانون الدولي فإن ظاهرة الاستعمار لا تختلف في الواقع العملي بين عصر وعصر، ولا بين قطر يخضع لها وآخر، بل تبرز دائما واحدة لا تتجزأ.

إن المستعمر(بكسر الميم) تحت أي لفظ أو تعبير يظل هو الحاكم السيد، والمستعمر (بفتح الميم) بجميع الإطلاقات هو المحكوم المسود. وحتى تصورات الاستعمار ومناهجه وأساليبه لا تتغاير ولا تتمايز :

عبارتنا شتى وقبحك واحد وكل إلى الوجه البشيع يُشير

ألم يعان العالم الثالث على تباعد قاراته وسعة أرجائه واختلاف أعراقه وجنسياته وقومياته وعقائده من ظاهرة الاستعمار الواحدة حتى لقد جعلت منه وحدة متميزة وعرّفه البعض بأنه عالم الخاضعين للاستعمار؟. ألم تلتق إرادة الاستعمار الواحدة على استعباد هذا العالم وتسخيره واستغلاله رغم تضارب جنسيات مستعمريه وتباعد عقلياتهم وحتى تضارب مصالحهم ؟ ألم يقف المستعمرون جبهة متراصة لمعارضة تحرره ومناهضة انعتاقه في كل عصر وعهد؟

وحتى بعدما رحل الاستعمار مرغما من مثاباته وولى إلى غير رجعة، ظل ما بقي من ذريته مستقرا بدار لقمان الاستعمارية التي بقيت علي حالها، وإن كانت

انعزلت في دربها المظلم ، وأصبحت بالية المعالم متلاشية الأركان متداعية للسقوط. ومع ذلك ظلت هذه الذرية الوارثة لوبائه تعيش على أساليب آبائها الأولين وأجدادها البائدين .

من مدرسة الاستعمار ذات النهج الموحد اقتبس المقيم العام الجنرال نوجيس منهجه عندما حلم بتوجيه الضربة القاتلة للحركة الوطنية ، وعندما تبجح وتباهى بالقضاء عليها وسَحْقها، وعندما حرك قواته واحتل مدينة فاس وسب سكانها. ولم يبتدع شيئا حين صرخ بأن القادة الوطنيين لا يمثلون المغرب ، وأنهم فتانون متآمرون باعوا أنفسهم وضمائرهم للخارج. ولم يكن له فضل الابتكار عندما تفتقت "عبقريته" عن فكرة السعي لإيجاد أفراد أو جماعات أمَّل فيها أن تصبح البديل عن الحركة الوطنية وقادتها لملء الفراغ الذي خلقه بسياسة القمع التي طبقها وسار فيها إلى النهاية. وفي جميع ذلك كان يكرر ويعيد مواقف سبقه إليها دهاقنة استعمار آخرون كانوا ينكرون على زعماء الحركات الوطنية التحريرية في العالم الثالث تمثيليتهم لشعوبهم، ويقذفونهم بنعت الفتانين والمتآمرين أو بأوصاف مترادفة تؤول إلى نفس المعنى وتسير في نفس الوجهة. وكانوا هم أيضا يخلقون - بدلا عن القادة الحقيقيين للشعوب - دُمى متحركة بإرادتهم، ولكن لم يكونوا يملكون أن ينفخوا فيها روح الحياة ، فلم تخدع بالتالي أحدا وعجزت عن أداء دورها على خشبة المسرح السياسي ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه .

وفي المغرب ظل المقيمون العامون قبل الجنرال نوجيس وبعده يبحثون عن البديل الطيِّع ليعوضوا به تيار الحركة الوطنية ففشلوا. وجاء الجنرال جوان وبعده الجنرال جيوم في نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات فوجدا أمامهما في سلطان المغرب محمد بن يوسف خصما معارضا وبطلا مقاوما صلبا فكابرا بإنكار تمثيليته لشعبه، وسعيا إلى إيجاد بديل طيع صنعوه من كبار القواد و المشعوذين، وتجرأوا فوضعوا علي عرش المغرب دمية لا حراك بها فتعرت لعبتهم وكانت الفضيحة ، وكان النصر لمحمد الخامس بعودته الظافرة من منفاه ، وكان المجد للقيم والمبادئ التي كان يمثلها.

وعندما كان جلالته في المنفى ، وكنا من كلي الحزبين الوطنيين نصارع في منفانا بالخارج لعودته إلى أرض الوطن واسترجاع الاستقلال الوطني ونطرق أبواب الوزراء الفرنسيين لإقناعهم بقضيتنا الوطنية كانت تسبقنا إلى مكاتب الوزراء الفرنسيين بباريس تقارير الإقامة العامة التي كانت تقول : إن القيادة المغربية الوطنية لا تمثل حقيقةً شعبَ المغرب الذي كانت تزعم أنه لا يرغب إلا في إصلاحات

في ظل الحماية الفرنسية ولا يريد عودة الملك الشرعي لعرشه. وكان المقيمون العامون المتعاقبون على مناصبهم بالرباط وأعوانهم في جميع هذه الفترة يبحثون جاهدين عن البديل، ويتنافسون في محاولة صنع "الجماعات التمثيلية". وقد ساقوا من المغرب إلى فرنسا هذه البدائل المركبة من كبار القواد والمشعوذين ليعارضونا بها في مؤتمر إيكس ليبان (Aix-Les-Bains) سنة 1955، فلم تنطق في فرنسا - لسوء حظهم - هذه الدمى بما كانوا لقنوها في الرباط، بل استعاد بعض منها شجاعته فناصر الأطروحة الوطنية وقلب للإقامة العامة ظهر المِجَن، وسقطت هكذا من يدي الإقامة العامة أوراق اللعبة ، وكانت الهزيمة.

واليوم وإسرائيل معزولة في دار لقمان الاستعمارية نراها تصرخ دون أن يتردد لصراخها صدى بأن وطنيي دولة فلسطين لا يمثلون شعبهم، وأنهم ليسوا إلا إرهابيين، وهذا النعت الجديد هو التعبير العصري المرادف للفظ الفتان القديم .

ومثلما أوعد الجنرال نوجيس الوطنيين المغاربة بالسحق يهدد اليوم إسحاق شامير الانتفاضة الفلسطينية بالإنتصار عليها، وتظل إسرائيل تركب رأسها للبحث داخل فلسطين المحتلة عن بدائل لمنظمة التحرير فلا تلقى دمى متحركة تقع في لعبتها. وأنى لها ذلك وقد اشتعلت النار في بيتها ومن حولها ولا منقذ يبدو قادرا على انتشالها من الوهدة التي سقطت فيها بسبب سياستها المتعنتة التي انكشفت سوأتها أمام العالم؟.

سياسة البحث عن البديل

ونعود لنرى كيف سعى المقيم العام الجنرال نوجيس إلى إيجاد بديل مغربي لتعويض الفراغ الذي خلقه تشريد الوطنيين في معسكرات الاعتقال الجهنمية وفي المنافي السحيقة داخل المغرب وخارجه. وقد أعد الجنرال لذلك مخططا على مراحل يهدف إلى السماح للمغاربة بممارسة حريات مقيدة بالرقابة ، وبضبط عقد الاجتماعات وتأسيس الهيآت بقانون صارم ، وبأذن بالصدور لصحافة مغربية معتدلة مسموح لها بإبداء اقتراحات لا بمعارضة سياسته، تعويضا عن الصحافة الوطنية التي صادرها و كَمَّ أفواهها، ويُطعِّم مكتبه بعناصر من الشباب اختارهم من أبناء الأعيان. ويغض المخطط الطرف عن ولوج بعض المتخرجين من المدارس الفرنسية أبواب الخدمة المدنية التي يطلق عليها في المغرب الوظيفة العمومية، وكل ذلك في إطار برنامج إصلاحات ممنوحة منه يخضع اختيار مجالاتها لتقديره، لكنه حرص على أن يقوم هذا

المخطط في ظل التفاهم مع السلطان حتى لا يخسر في هذه الواجهة خسارة تعلو على خسارته واجهة الوطنيين، ولم يكن يريد أن تسقط من بين يديه جميع أوراق لعبته وهو الحريص - كما كُتب عنه - على أن يحتفظ بمنصبه وأن لا يخيِّب الثقة التي وضعتها فيه الحكومات الفرنسية المتعاقبة.

بديل الشباب المتعلم

في نطاق هذا المخطط ألحق المقيم العام بديوانه محمد التازي ومحمد عمر الحجوي، وكانا يتعاطفان مع الحركة الوطنية كما كان الأخير نشر خلال سنة 1937 كتابا عن تاريخ المغرب الدبلوماسي باللغة الفرنسية (une histoire diplomatique du Maroc) وكان أخوه حسن يساهم في تحرير جريدة "عمل الشعب" الصادرة بالفرنسية كما ألحق بديوانه العسكري الجنرال الكتاني .

وقد أخذ المقيم العام يستصفي بعض الشباب المتخرج من المدارس الثانوية أو المعاهد العليا الفرنسية قصد تقريبهم إليه. وبإلحاح من السلطان أفسح لهم المجال للعمل في بعض الوظائف فتطعم بهم الجهاز الإداري ، سواء منه التابع للإقامة العامة أو التابع للمخزن (الحكومة المغربية).ولم يكن في الجهاز الإداري المقيم قبل هذه الفترة مغاربة، كما كان جهاز المخزن في حاجة ماسة إلى أطر شابة متعلمة تعطيه نفسا جديدا وتحرك سواكنه وهو الذي ظل تحت إمرة شيوخ عجزة، في وقت لم يكن فيه الموظفون يخضعون لنظام التقاعد (نهاية الخدمة). وكان المفروض أن يعيش الموظف مستقرا طول العمر في وظيفته لا يفقدها إلا عندما يفقد الثقة والرضى أو يعتامه الموت. وحرص المقيم العام على اغتنام فرصة تخريج الأطر المغربية من المدارس الفرنسية لاستقبالها في حفل عائلي بالإقامة العامة بالرباط تكريما لها وإبرازاً لسياسة التودد للشباب .

ولا شك في أن جلالة السلطان محمد بن يوسف قد كان صاحب المبادرة إلى تجديد شباب المخزن، وأن المقيم العام لم يستطع أن يعترض على ذلك، فالسلطان كان ما يزال لم يبلغ حتى الثلاثين من عمره في الفترة التي نتحدث عنها، ولم يكن يثق في قدرة حاشيته المسنة أو يتجانس فكرا وقلبا معها، وكان طموحه إلى تجديد شباب المغرب يمر حتما بتجديد أطر النظام وتطعيمه بعناصر تساعد على التكيف بمقتضيات ظروف العصر لضمان الاستمرار. ونذكر من بين هذه الأطر الشابة الإخوة المرحوم الحاج

محمد باحنيني الذي تولى في عهد الاستقلال مناصب وزارية هامة كان آخرها منصب وزير الدولة ، والمرحوم عبد الكريم ابن جلون الذي أصبح بعد إعلان استقلال المغرب وزير العدل، وأحمد الحمياني وكان وزير الداخلية بعد الاستقلال، والمرحوم مسعود الشيكر الذي تقلد مهام المدير العام للديوان الملكي فوزير الداخلية في عهد المرحوم محمد الخامس، ومحمد ملين الذي تقلد منصب وزير الوظيفة العمومية والإصلاح الإداري. وهو مؤلف كتاب نضال ملك (محمد الخامس) .

وقد قرب السلطان سيدي محمد بن يوسف إليه نخبة من هذه الأطر واصطفاها لمساعدته في مهام مختلفة اتسم بعضها بالسريةخاصة منذ بدء الأزمة السياسية بينه وبين المقيمين العامين الفرنسيين في نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات .

بديل الصحافة المعتدلة

وكان ميدان الصحافة الوطنية المجال الثاني الذي سعى فيه المقيم العام إلى خلق بديل يعوض الصحافة الوطنية التي كمّ أفواهها وشرد مديريها ومحرريها ومراسليها وأغلق مكاتبها عبر المغرب. كان الأمر يتعلق بخلق صحافة معتدلة اللهجة لا تقلق راحة المقيم العام ولا تشهر بخبايا سياسته، تتمتع تحت الرقابة الفرنسية الصارمة بحرية نسبية مهدّدة، وتؤدي من حيث لا تشعر مهمة تغطية سياسة الحماية التي كانت تستهدف أن تجعل من المغرب بعد هجمة الجنرال الشرسة على الحريات مقبرة خامدة أو غرفة نوم هادئة لا يسمع فيها طنين ذبـــاب .

وفي نطاق إقامة هذا البديل لم يوقف المقيم العام جريدة "المغرب" المعتدلة التي كان يصدرها المرحوم سعيد حجي، كما لم يشمل الاعتقال مديرها الذي كان قد اعتقل في أحداث وطنية سابقة والذي استمر على رأسها إلى أن أجبرته ظروف مادية على إيقافها. وكانت جريدة المغرب أول جريدة يومية تصدر في المغرب بمجهود فردي.

سعيد حجي

وإلى حين مصادرة الحركة الوطنية في صيف سنة 1937 كان سعيد حجي يعكس على صفحات جريدته مواقف وطنية متفقا عليها من القيادة الوطنية في الحزبين المغربيين السياسيين، إلا أنه بعد ذلك آثر التقيد بالاعتدال .

وكان قد وضع مخططا قبل هذه الفترة لما يجب أن تكون عليه الصحافة الوطنية في المغرب تحدث عنه أخونا وزميلنا أبو بكر القادري في كتابه القيم المعنون : "سعيد حجي دراسة عن حياته " .وجاء في هذا المخطط «أن على الصحافة الوطنية أن تقسم الأدوار بين صحف متطرفة تعبر عن الفكرة الوطنية وبتحمل أفرادها ما ينشرون، وصحف إخبارية لا تختلف مع المبدأ الوطني، ولكنها تسعى دائما أن لا تنتقد أعمال السلطة، بقدرما ينبغي لها أن توضح الحالة السياسية والاقتصادية في المغرب ، وصحف أو مجلات ثقافية، لا تتعرض للسياسة، بل توجه اهتمامها للتجديد الفكري والإصلاح الاجتماعي والتطور الاقتصادي».

وبذلك أبعد سعيد حجي - بعد نكبة الوطنيين - جريدة المغرب اليومية عن نوع الصحف المتطرفة، وجعل منها صحيفة إخبارية لا تنتقد أعمال السلطة ، وأصدر لها ملحقا باسم "ملحق المغرب الثقافي" ضمن الصنف الثالث من "الصحف التي لا تتعرض للسياسة" وقد جلب هذا الملحق إليه طائفة من الكتاب والأدباء والشعراء مما جعل نشاط الجريدة و الملحق يعكس نهضة أدبية ازدهرت شيئا فشيئا واستقطبت النخبة المغربية التي أخذ عددها يزداد بمرور السنين في ظل التطور التربوي والثقافي الذي أصبح يرعاه السلطان كما سنتحدث عنه فيما بعد .

إن اسم سعيد حجي يظل مقترنا بهذه النهضة الناشئة. ولسوء الحظ عاجله القدر فلم تمتد به الحياة إلا إلى سنة 1942 ولم يعش إلا ثلاثين سنة مليئة بنشاط حافل لا يتصور كيف اتسعت حياته القصيرة لممارسته. لقد كان فعلا فلتة رائعة من فلتات الدهر، لا يدانيه في ذلك إلا زميله الصحفي المناضل محمد حصار الذي كان هو أيضا من مواطني سلا ووطنييها المرموقين، وكانت حياته هو أيضا حافلة بالعمل الصحفي و النشاط الفكري، ولكنه لم يبلغ شأو سعيد حجي ولم يمتد به العمر أكثر من ست وعشرين سنة إذ وافاه المنون سنة 1936. وهما معا يذكراننا بالسلطان الأمبراطوري أبي عنان فارس المريني الذي كان من ألمع سلاطين المغرب وترك من الآثار و المدارس بمدن فاس ومكناس و الجزائر ما يستغرب تحقيقة في عمره القصير الذي لم يمتد إلا تسعا وعشرين سنة (1329م - 1358) .وما أكثر ما يحفل به تاريخ الأمم من فلتات الدهر قصار الأعمار الذين يعطون للحياة وقيمتها مفهوما كيفيا لا يقاس بكمية السنين. وكم يكون مفيدا لو أن مؤرخا معاصرا جمع في كتاب تاريخا موجزا لمنجزات من قصر عمرهم وطال باعهم، و قد يكون في ذلك حفزا لهمة شبابنا أن يسارعوا إلى ارتياد مجالات الإبداع في مقتبل العمر قبل فوات الأوان، خاصة

وقد أخذ شباب اليوم يعانون من المفاسد الثلاث التي عمت العصر :
إن الشباب والفراغ والجـــــدة مفسدة للمرء أي مفســـــدة

وصحف محتدلة أخـرى

من بين الصحافة البديلة التي أذن المقيم العام لها بالصدور جريدة "التقدم" باللغة العربية التي كان يشرف عليها أيضا مواطن من سلا هو أحمد بن احساين النجار الذي شارك في العمل الوطني ثم اعتزل الحركة الوطنية ولازم الحياد، وكان قد حصل على الإذن بصدور جريدته ثلاثة أيام فقط قبل هجمة المقيم العام على الوطنيين، وجريدة "الصوت الوطني " التي أصدرها عبد اللطيف الصبيحي أسبوعية باللغة الفرنسية (la voix nationale) خلفا لجريدته "العمل " التي كان يصدرها باللغة العربية، وهو أيضا مواطن من مدينة ســـلا.

ومن العدد الأول تبين أن مديرها ذلك الوطني الثائر الذي كان فضح سنة 1930 سر إعداد الظهير البربري في مكاتب الإقامة العامة بالرباط وشنع بالسياسة الفرنسية المدعوة بالسياسة البربرية ونفته سلطة الحماية، تحول في سنة 1938 إلى سياسي متفهم يزن مواقفه بالقسطاس، ويعمل لكسب رهانين ما كان أصعب الجمع بينهما. فقد كتب في أول عدد : " نريد أن يعتبرنا مواطنونا المغاربة أصدقاء حقيقيين لهم، موطدين العزم على مساعدتهم من أعماق قلبنا، ونريد من أصدقائنا الفرنسيين أن يتأكدوا من عزمنا على أن نكون صلة وصل بينهم وبين المغاربة."

و من مدينة سلا نفسها ظهرت - في فترة لاحقة - جريدة "الوداد" بإدارة محمد اشماعو. وكان هو الآخر مثل زميله سعيد حجي وعبد اللطيف الصبيحي ضمن الرعيل الأول الذي قاد الحركة الوطنية بالمدينة، واحتج على السياسة البربرية، وألقي عليه القبض سنة 1936 ضمن معتقلي المدينة من قادة الوطنيين ثم اختار نهج الاعتدال بعد فراغ الساحة الوطنية من قيادتها سنة 1937.

وقد يكون اختيار اسم الوداد راجعا إلى إحياء جريدة "الوداد" الخطية التي كان يصدرها سنة 1929 المرحوم سعيد حجي بعد أن تأسست "الجمعية الودادية" في مدينة سلا خلال العشرينات وكان مبدؤها "الوداد بين سائر الطبقات والأجناس والأديان" ورفعت شعارات : "الوداد مبدؤنا، والوداد شعارنا، والوداد هدفنا". ولكن يبدو أن الهدف السياسي الذي كان وراء الاحتفاظ بهذا الاسم في فترة صدور الجريدة بإدارة

محمد اشماعو هو السعي لخلق جو المحبة والوداد بين الوطنيين ورجال الحماية، والتوفيق بين مواقفهما ،وحمل الإقامة العامة على انتهاج سياسة إصلاحية تمحو عهد القطيعة والجفاء بين الحماية وخصومها. وهو اتجاه استقطب بعض المغاربة المعتدلين. وكان من بين من روج له أحمد بنغبريط (الجزائري) الذي شغل وظيفة كاتب بإدارة الشؤون الشريفة وهي إدارة كانت تُعتبر تابعة للمخزن بالرغم من أنها كانت تحت سلطة موظف سام فرنسي أطلقت عليه الحماية اسم المستشار المخزني (مستشار حكومة السلطان).وقد قام أحمد بنغبريط بدور التقريب بين الإقامة العامة وعدد من الوطنيين وربط لهم الصلة المباشرة مع المقيم العام الجنرال نوجيس، وكان له أوثق العلائق مع مدير جريدة "الوداد".

ولقد كان شعار الوداد يروج في هذه الفترة بكثرة على ألسنة كبار المسؤولين الفرنسيين في الإقامة العامة ومن والاهم من المغاربة كلما تحدثوا عن نوعية العلاقة التي يحسن أن تسود بين المغرب والحماية الفرنسية.ولترجمة هذا الشعار إلى الواقع نشأت في المغرب برعاية سلطات الحماية مجموعة نوادي مختلطة بين الشباب المغربي والشباب الفرنسي، كان من بينها «النادي الفرنساوي المغربي» الذي أقيم بالدار البيضاء، وكان على رأس أمانته العامة الوطني المرحوم المهدي الصقلي،و النادي الفرنسي المغربي للعَدْوَتين (هو الاسم الذي يطلق في تاريخ المغرب وإلى اليوم على مدينتي الرباط وسلا الواقعتين على ضفتي نهر أبي رقراق).

وفي النادي الأدبي الإسلامي لقدماء تلاميذ مدرسة أبناء الأعيان بسلا ألقى جبرائيل جرمان (Gabriel Germain) محاضرة للدعوة لاتجاه الوداد المشار إليه وكان عنوانها:"التعاون بين الشبيبتين الفرنسية والمغربية". ولم يفت جريدة "السعادة " (التي كانت تصدرها باللغة العربية الإقامة العامة) التنويه بظاهرة تأسيس هذه النوادي التي تخدم هذا الاتجاه فقالت عنها سنة 1938:"إنها ظاهرة زاهرة ستؤدي إلى زيادة قوة الترابط بين العنصر الفرنسي و العنصر المغربي" .

سقوط البدائل

استمر المقيم العام الفرنسي الجنرال نوجيس طيلة الفترة التي امتدت من صيف سنة1937(حيث أنزل في أكتوبر ضربته على الحركة الوطنية)وإلى إعلان الحرب

العالمية الثانية يبحث عن بدائل لملء الفراغ الذي خلفته سياسته القمعية على الساحة السياسية المغربية .

البدائل المقيمية

وقد سبق أن تحدثنا في الصفحات السابقة عن نوعين من بدائله : بديل الصحافة المغربية المعتدلة التي أذن بصدورها او تغاضى عما كان موجودا منها، ولم تكن في الحالتين تتجاوز أصابع اليد الواحدة فسلط عليها سيف رقابته، ولم يمتعها إلا بحرية محدودة تضيق عن انتقاد سياسته ، وبديل التودد إلى الأطر المغربية المتعلمة الشابة التي كانت تدرس أو أنهت دراستها في المعاهد الثانوية الفرنسية التي أنشأتها الحماية بالمغرب . ولم تكن الأفواج المتخرجة منها تتجاوز في أوسع التقديرات الخمسين في المغرب كله أثناء الفترة التي نتحدث عنها. ومن هؤلاء انتقت الحماية عددا محدودا أفسحت في وجهه مجال العمل في مرافق إدارة المخزن (الحكومة المغربية) ، واصطفت منه نخبة من المحظيين لا يتجاوزون الخمسة انتدبتهم للعمل في الإدارات والمرافق التابعة مباشرة للمقيم العام .

جمعيات قدماء التلاميذ

وكان البديل الثالث في سياسة المقيم العام الهادفة لملء الفراغ تشجيع تأطير قدماء تلاميذ المدارس الثانوية الفرنسية في الجمعيات التي سبق للمقيمين العامين في العشرينات وطيلة نصف الثلاثينات أن أذنوا بتأسيسها ، فساعد هو على انتشارها في المدن والجهات المغربية ، وربط بأعضائها الصلات لإدماجهم في تطبيق سياسته الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تشكل في مخططه البديل الرابع .

وفي بداية نشأة هذه الجمعيات اقتصر نشاطها على بعض أوجه العمل الاجتماعي المأذون به مما يتصل بحاضر تلاميذها أو مستقبلهم ، أو بتطور المنهاج التربوي للمدرسة ذاتها. وهي فترة كان حوار مكاتبها الإدارية يجري خلالها مع مديري المدارس الذين كانوا جميعا فرنسيين . وكان المطلوب منهم أن يطبقوا في المدارس الثانوية المتحدث عنها السياسة التعليمية المركزة على تلقين الشباب المغربي الإنسية الفرنسية باعتبارها النمط التربوي الأصلح مع حمايته من الانزلاق في حمأة السياسة حتى لا يشكل قوة معارضة سياسية .

وراهن الجنرال نوجيس على أن يربط هؤلاء الشباب بعجلة سياسة « الإصلاح» التي جعل منها بديلا عن برنامج الحركة الوطنية الذي كانت أعلنت عنه وقدمه لفرنسا بالرباط وباريس وفد «كتلة العمل الوطني» سنة 1934 باسم برنامج الإصلاح المغربي أو المطالب المغربية .

من هذا المنظور شجع الجنرال توسيع نطاق نشاطات جمعيات قدماء التلاميذ وشبّب بعناصرها الفتية هيأة «كبار الأعيان » التي كان تمثلو الحماية الفرنسية عبر المغرب كله يشكلونها ضمن الهيآت المؤسسة ، أي بجانب كبار الباشوات والقواد والأعيان ، لتكون ضمن مخاطبيهم المغاربة فيما كانوا يطمحون إليه من حوار فرنسي مغربي غير متكافئ ، يخدم في بدئه ونهايته سياسة تعاون بين الحماية والمغاربة، لا يكون فيها الجانب المغربي إلا واجهة تزكية لسياستهم لإضفاء الشرعية على مخططاتهم .

هكذا أصبح رؤساء جمعيات قدماء التلاميذ وممثلوها على رأس قائمة المدعوين للاحتفالات الرسمية وبين المساهمين في المناسبات التذكارية والمواسم الكبرى التي كانت تعقدها سلطة الحماية أو تباركها . ومن هذه المناسبات استدعاؤهم لحضور استقبال كبار المدعوين والوافدين من الخارج عامة وفرنسا خاصة ، وتقديمهم نماذج للعمل الحضاري الذي تقوم به فرنسا في المغرب كدولة حامية تضطلع بمسؤولياتها في مساعدة الدولة المحمية على شق مسالك النهضة الحديثة وإفساح المجال لهم للتحدث باسم جمعياتهم في هذه المحافل .

ثم مرت فترة طمحت بعدها الإقامة العامة إلى إدماج أطر هذه الجمعيات في تطبيق سياستها وإلى حشرهم في عضوية مجلسها الاستشاري المصطنع الذي كان يسمى «مجلس شورى الحكومة » و كانت تطمح إلى أن تجعل منه صورة لبرلمان مغربي تعين الإقامة العامة أعضاءه .

محمد الزغاري

وعندما كنت أدرس في القرويين بفاس في هذه الفترة كنا نسمع عن جمعية قدماء تلاميذ مدرسة مولاي إدريس الثانوية التي كانت توجه لبعض طلبة جامعتنا دعوات لحضور نشاطات اجتماعية ، او للاستماع إلى محاضرات أو للمساهمة في ندوات غير سياسية .وأذكر أني ذهبت ذات يوم من سنة 1938 إلى قاعة المحاضرات

بمدرسة مولاي إدريس الثانوية ، حيث استمعت إلى محاضرة باللغة العربية كانت متلوة بحوار بين المحاضر والمستمعين . وخلالها شاهدت عن بعد لأول مرة قيادة الجمعية ، وكان على رأسها المرحوم محمد الزغاري ، كما كان من بين أعضائها البارزين المرحوم أحمد باحنيني وأحمد الحمياني . وعندما حضرت إلى القرويين في اليوم الموالي أسرّ إليّ أحد الزملاء أن هذه الجمعية تخدم أغراضا غير وطنية ، وأن الفرنسيين وراءها ، بدليل أنهم لم يسمحوا لقدماء طلبة القرويين بتأسيس جمعية مماثلة ، ونصحني أن لا أعود للمشاركة في نشاطات هذه الجمعية المشبوهة .

وأضاف زميلي في الدراسة قوله :«إنك تجهل أن الزغاري رئيس الجمعية أظهر يوم تشريد الوطنيين في السنة الماضية موقف تخاذل بعد أن استقبله الجنرال بلان (Blanc) حاكم ناحية فاس ضمن وفد سكان المدينة وهدد بضربها بالمدافع، فذهب وهو تحت الانفعال إلى بيت الزعيم محمد حسن الوزاني في الوقت الذي غص بالوطنيين ليقنعه بتوقيف حركة الإضرابات والتجمعات الاحتجاجية، فلم يسع الوزاني إلا صرفه ، ونصحه بملازمة بيته إن كان خشي على نفسه التهديد، وترجاه أن لا يجهر بأفكاره الانهزامية، وأن يترك لقيادة الحركة الوطنية أن تدبر الأمور بما تتطلبه الظروف المفروضة عليها » .

وقد ارتبط اسم محمد الزغاري هذا بقصة طريفة حدثت وقائعها أثناء زيارة الوزير الفرنسي فرانسوا دوطسيان (François de Tessan) سنة 1938 لمدينة فاس حيث جاء مكلفا من حكومته في مهمة استطلاع وتحقيق عن الوضع بالمغرب بعد استتباب « الهدوء والأمن » إثر حركة قمع الوطنيين .

ففي اجتماع كبير لاستقبال الوزير الزائر دعت له السلطة الفرنسية المسؤولة بمدينة فاس أعوان المخزن ووفود ممثلي سكان مدينة فاس من مختلف الطبقات و المهن الشعبية ، كان مقررا أن يتناول محمد الزغاري الكلمة أمام الوزير الذي كان يصحبه المقيم العام الجنرال نوجيس، وأصر الجنرال على أن يقدم بنفسه الخطيب الشاب إلى الزائر الكبير بهذه الكلمات :«سيتقدم الآن أمامكم - سيدي الوزير - شاب صنعته ثقافتنا كنموذج لإنسيتنا ومثال لعمل فرنسا الحضاري بهذه البلاد ، شاب يؤمن بالتعاون مع فرنسا ، وبناء بلاده بها ومعها ....» وكانت المفاجأة أن الشاب الذي كان يواجه الوزير والمقيم في الصف الأول الذي انتظم فيه المغاربة حاول أن ينطق فأرتج عليه. وساد التجمع سكون رهيب في انتظار أن يتمكن الشاب من استعادة حركة لسانه. وطال الانتظار ، إذ أن لسان الشاب حبسه حابس الفيل ، فلم يتمكن

من القيام بالدور الذي كان الجنرال يأمل أن يمثله أمام الوزير على مسرح المهزلة التي أعدت فصولها بعناية وتعثر إخراجها وتشخيصها بهذه المفاجأة ، فسارع الجنرال إلى القول :«إنني أعرف الشاب الزغاري حق المعرفة ، وأعرف صدق مشاعره نحو فرنسا . ولأن نار مشاعر وفائه لنا تتأجج في هذه اللحظة في صدره وحناياه ، فقد قطعت عليه سبيل القول، فليكن صمته - سيدي الوزير- أحسن تعبير عن عواطفه وعواطف الشباب أمثاله».

وهكذا أسدل الستار على هذا الفصل من الرواية التي لم يسعف حظ الجنرال السيء أن يمثل أمام الوزير الشاب المختار للمهمة مشهدها الرئيسي كما فكر الجنرال وقدر ..

ولم ينغلق لسان الزغاري إلا لأن هذا الشاب قدر خطورة اللعبة التي كان المقيم العام يريد أن يجره إليها ، فإختار أن يسلك سبيل التَّقيَّة التي تحصنه من التورط فيما لا يؤمن به ولا يرضاه ، فهو وبعض زملائه بالجمعيات التي نتحدث عنها كانوا يطمحون إلى تفاهم معقول مثمر مع سلطة الحماية يفيدون بلادهم من إيجابياته ، ولم يكونوا يقبلون أن يصبحوا جزءا من اللعبة السياسية الخطرة التي كان المقيم العام يكشف عن أوراقها تباعا في أحاديثه وتصرفاته ومواقفه . وربما لو أن المقيم العام آثر السكوت لنطق الشاب بكلام موزون يأخذ بالاعتبار المناسبة دون أن يفرط في المبادئ .

تساقط أوراق المقيم العام

من الإنصاف والموضوعية أن نؤكد على أن بعض أعضاء هذه الجمعيات التي انتشرت عبر المغرب لم يكونوا يتورطون إلا مرغمين في العمل السياسي البديل الذي كان الجنرال نوجيس يطمع في أن يمارسوه ، وأن بعضهم كان يعتبر المساهمة فيه - بما لا يتنافى مع المبادئ الوطنية - خدمة للبلاد ، اجتهادا منه في أن يثمر التعاون مع سلطة الحماية فائدة للمغرب إن لم تكن بالغة الإيجابية فإنها تسد الفراغ السياسي حتى لا يظل مصير البلاد يتقرر في غيبة أبنائها . ولم يكن هذا البعض يطمح إلى أكثر من درء المفاسد باحتواء نسبي لطغيان الحماية الممتد المهدد للبلاد بأسوأ مصير .

ولا أنطلق هنا من تحليل اجتهادي لظاهرة تعاون «قدماء التلاميذ» مع الحماية كمؤرخ يستقصي خلفيات أحداث باعدت بينه وبينها مسافة الزمن ، وإنما أصدر في

ذلك عما سمعته مباشرة من أحد قادة «جمعية قدماء تلاميذ مولاي إدريس الثانوية بمدينة فاس» أخينا المرحوم الحاج أحمد باحنيني الذي كان الوجه المرموق الثاني في هذه الجمعية، بعد رئيسها المرحوم محمد الزغاري هذا، والذي حدثني مرارا، (وقد أصبحنا زملاء في حكومة المغرب بعد الاستقلال - وتعاونا سياسيا في بعض الفترات) عن مبررات نشاط جمعية القدماء بفاس . وكانت لا تخرج عن التفسير الذي أومأت إليه .

إن بعض الشخصيات التي كانت نشطت على رأس هذه الجمعيات منذ تأسيسها وقبلت - لأسباب مختلفة - المشاركة في مجلس شورى الحكومة أي مجلس المقيم العام، حاولت أن تساهم في تقويم سياسة الحماية بتوجيهها وجهة إصلاحية حقيقية، وخاصة في الميدان الاجتماعي، وبالأخص في مجال إصلاح التعليم والقضاء وتطوير الإدارة ، وذلك بما قدمته في هذه المجالات للإقامة العامة من مذكرات مدروسة بعناية عن مناحي الإصلاح الحقيقي الذي يتطلع إليه المغرب، وبالحوار المستمر الذي أجرته مع المقيم العام وأعوانه، لكنها اصطدمت بسوء نية الإقامة العامة التي لم يكن لها من السياسات إلا ما يصب المزيد من المدد لدعم سياستها الاستعمارية. إن مذكراتها عن إصلاح التعليم والقضاء والإدارة وضعت على رفوف مكاتب الإقامة العامة أو ألقي بها في سلة المهملات .

وكانت نتيجة مؤامرة الصمت على توجهاتها وراء تطور قيادتها خلال سنة 1943، عندما نضجت في أذهانها فكرة تحويل وجهة السير، بعد أن أدركت أن لافائدة في مطالبة الحماية الفرنسية بأي إصلاح، فالتقت في نفس الاستنتاج والتقييم مع الحركة الوطنية التي أعلنت المطالبة بالاستقلال في يناير سنة 1944 (كما سنتحدث عنه في إبانه).

ولابد أن نذكر أن السلطان محمد بن يوسف قد ربط مع بعض قادة هذه الجمعيات صلات ، منها ماهو علني ومنها ماكان يجري في نطاق سرية محكمة، لتوجيه أطرها في الاتجاه الوطني السليم، وللاستفادة من خبراتها، بل إنه كوّن مع بعضهم علاقات حميمة سمحت له بأن يجعل منهم مستشاريه غير المعلنين .ومكنه كل ذلك من إبعاده هذه النخبة من الوقوع في لعبة الإقامة العامة ومن استغلالها من طرفها استغلالا سياسيا، الشيء الذي عجل بتساقط أوراق اللعبة المقيمية وخلق جو الإجماع الوطني للمطالبة بالاستقلال .

المقيم العام « المصلح »

كان الجنرال نوجيس حريصا على التشبه والتمثل بأستاذه ووالده الروحي الجنرال ليوطي (Lyautey) المقيم العام الفرنسي الأول بالمغرب فاحتفظ بعلاقاته الودية مع السلطان سيدي محمد بن يوسف وسعى إليه كمخاطب وحيد لفرنسا وفقا لنص عقد الحماية وروحها ، وظهر بمظهر المقيم العام الذي لا يطبق من السياسات إلا ما حظي بموافقة السلطان ورضاه ، ولكنه ظل كسائر المقيمين العامين الذين سبقوه أو أعقبوه يطبق في عدة مجالات ما لا يقبله السلطان من السياسات بقرارات مقيمية يصدرها ، أو بلوائح إدارية يبعث بها أعوانه إلى مختلف الإدارات والمرافق الحكومية التي لم يكن للمخزن (حكومة السلطان) عليها نفوذ ، والتي كانت توضع موضع التنفيذ من الجهاز الإداري الأجنبي القابض بيد من حديد على البلاد.

كان نوجيس حريصا على الاحتفاظ بمنصبه الذي كان يبدو لساسة باريس من حيث قوة السلطة وسعة النفوذ ووفرة المنافع أكثر أهمية من منصب رئيس حكومة فرنسا . فما أكثر وزراء فرنسا الذين كانوا يطمحون إلى أن يتوجوا مهامهم الإدارية ومسؤولياتهم السياسية بممارسة وظيفة مقيم عام في مستعمرات فرنسا ومحمياتها! وكان منصب المقيم العام بالمغرب بالخصوص يفتح الشهيات وتتحلب له الأشداق، لما تميز به المغرب من طقس جميل ، وصحة هواء ، وزرقة سماء ، ونصاعة شمس، ولأن المقيم العام بالمغرب يهيمن على الحكم ومنافعه بسلطة لا تقبل النقض ، ولأنه بعد كل ذلك معتمد لدى سلطان صاحب مملكة عريقة في القدم ظلت فرنسا تدعوها «الإيالة الإمبراطورية الشريفة » حتى بعد وقوعها في قبضتها ، وظل تاريخها الحافل بالأمجاد يتصدر تاريخ المستعمرات الأخرى .

وكان بديل الإصلاحات يشكل بالنسبة للمقيم العام الجنرال نوجيس الورقة الأولى بين أوراق لعبته السياسية ، لأنها هي الورقة القادرة على تمتيعه باستمرار ثقة حكومته فيه ، إذ هذه لم توافق على قمعه الوطنيين إلا مقابل أن يقوم ببديل الإصلاح ، ولأن الإصلاحات هي وحدها الكفيلة باستمرار حواره مع السلطان ، فما جاءت الحماية إلا لتساعد السلطان على إصلاح مملكته وتطويرها كما نص على ذلك

عقد الحماية نفسه ، ولأنه لا يريد أن تطغى عليه صفة العسكري الفظ الغليظ، وتغطي عسكريته المرعبة على دبلوماسيته « اللبقة » التي تستدعي الحوار الهادئ الرصين الذي يفرض تبادل الأخذ والعطاء، ولأن جميع ذلك في النهاية هو الذي سيجعله يبقى على رأس الإقامة العامة ملكا غير متوج لا تعلو على سلطته سلطة .

لذا لوح المقيم العام بالإصلاح أسبقية أولى في مخططه ، وسعى إلى أن يتقمص رداء المقيم العام المصلح الذي يميزه عن المقيمين العامين السابقين الذين اختاروا سياسة الجمود وإبقاء ماكان على ما كان .

ولكن ماهو الهدف السياسي الذي أعطاه الجنرال لسياسة الإصلاح إلى أن يتحقق إصلاح في المغرب من نوع ماكان يخطط له ؟ لنأخذ هذه الفقرة من تقرير بعث به إلى الحكومة الفرنسية بتاريخ 5 نونبر (تشرين الثاني) 1937 أي بعد مرور أسبوع فقط على حملته الشرسة على الوطنيين :«إن الحركة الوطنية لم تعد متمسكة بالحماية الفرنسية (كما جاء في برنامج إصلاحاتها أو مطالبها سنة 1934) بل تتطلع إلى نظام استقلال كامل للمغرب الواقع تحت حمايتنا. وهي تريده مغربا عربيا كامل العروبة، لأنها تطالب بأن تخضع القبائل البربرية إلى قانون الشريعة» ويضيف : «من أجل إيقاف نار الفتنة التي عمت المدن وحتى لا تصل للبوادي اتخذت التدابير اللازمة لوضع حد لنشاط الوطنيين ، لأن البادية المغربية ماتزال في معظمها سليمة وصحية . ولم أستعمل ضد السكان القوة ، وإنما حرصت على أن أضع سدا في وجه الشباب حتى لا يجرفهم التيار العربي الإسلامي ».

وجاء في التقرير أيضا :« وعلينا أن لا نقع في مستنقع الجمود، فالوطنيون استفادوا من عامل فقر السكان في انتشار حركتهم و علينا أن نعلن بكل شجاعة أنهم استفادوا من تأخر فرنسا عن القيام ببعض الإصلاحات الضرورية ، وأن علينا أن نعجل بإدخالها في حيز التطبيق».

لم يكن المقيم العام إذن ذلك المصلح الذي يستهدف إعانة محمية فرنسا على ولوج أبواب العصر لطي المراحل نحو استعادة الاستقلال ، وإنما كان ذلك السياسي الذي يسعى لخلق البدائل ويقيم السدود في وجه بقاء المغرب ، كما كان تاريخيا ، عربيا مسلما ، وكان يعمل لإذكاء تناقضات داخلية تستفيد منها الحماية لإطالة عمرها وتأخير مصير نهايتها المحتومة ، وهذه هي السياسة الرتيبة التي لم تعرف تغييرا بتغير المقيمين .

إصلاحات موهومة تخدم أهداف الحماية

اضطر الجنرال نوجيس إلى تغليف سياسته العدوانية بقناع إصلاحات في عدة مجالات اقتصادية واجتماعية قال عنها إنها الوجه المشرق لسياسته . واستبعد منها جميع الخيارات السياسية التي قدر أن أبناء المغرب لا حاجة لهم بها ، مطبقا بذلك سياسة رعاية أبوية كان الجنرال ليوطي يفخر قبله بتطبيقها حيال المغرب والمغاربة . وكان الجنرال نوجيس يعتبر نفسه مريدا روحيا للجنرال ليوطي وتلميذ مدرسته .

وقد أعطى الجنرال نوجيس الأسبقية في إصلاحاته لميادين التعليم والإدارة والشؤون الاقتصادية .

لماذا التعليم ؟

لم يجب الجنرال على هذا السؤال في التقرير الذي وجهه لحكومته في موضوع الإصلاحات التي خطط لها ، لكننا نفهم أن يلتفت بالخصوص إلى قطاع التعليم الذي كانت حصيلة عمل الحماية فيه هزيلة ومزرية ، بل يمكن القول إن التعليم في المغرب سجل في الفترة المتحدث عنها فراغا مشينا يدين بالفشل سياسة الحماية في هذا الميدان .

فماذا أعد المقيم العام من إصلاح لتلافي هذا الوضع المزري ؟ هذا سؤال أجاب عنه عندما قال في تصريح له عن سياسة إصلاح التعليم إنه قرر أن يرفع عدد حجرات الدراسة في المدارس والمعاهد لتستوعب السنة الدراسية الجديدة ألفا وخمسمائة تلميذ مغربي جديد . فيا للكرم الحاتمي إذا علمنا أن تعداد سكان المغرب سجل سنة 1937 ثمانية ملايين نسمة ، الشيء الذي أثار خجل نقابة المعلمين الفرنسيين العاملين بالمغرب ، فأصدرت بيانا ردا على المقيم العام تقول فيه :«إن المجهود المخصص لفائدة الأغلبية المسلمة في مجال التعليم هزيل وسخيف ، وهو يعكس سياسة رجعية تبعث على الخجل ولا تشرف سمعة فرنسا ». ومع ذلك جرؤ الجنرال على التصريح بقوله :«إن نتائج سياستي تبعث على الارتياح والتفاؤل في المستقبل ».

وهل كان من المعقول أن ينطق الجنرال نوجيس بكلمتي الارتياح والتفاؤل التي تعبر الإحصائيات الرسمية التالية الصادرة عن مكتبه عما يناقضها وهو ما يبعث على السخط والتشاؤم : ففي سنتي 1938 و 1939 لم يتجاوز عدد التلاميذ المغاربة المسلمين الموجودين بالمدارس الابتدائية 23292 ، أي بنسبة 1.8 ٪ من مجموع الأطفال الذين كانوا في سن الالتحاق بالمدرسة (أو التمدرس)، كما تقول الإحصائيات الفرنسية الرسمية نفسها .وتضيف أن نسبة الملتحقين بالمدارس الابتدائية من بين اليهود بلغت 50٪ ممن كانوا منهم آنذاك في سن التمدرس ، وأنها بلغت مائة بالمائة بالنسبة لأبناء الجالية الأجنبية « المحظوظة » سواء منهم الفرنسيون او غيرهم .

أما في التعليم الثانوي فلم يكن عدد التلاميذ المغاربة المسلمين يتجاوز في السنتين المتحدث عنهما 586 تلميذا كانوا يتوزعون بين فاس والرباط، حيث تقول الإحصائيات الرسمية إن المدرستين الثانويتين المؤسستين بهما (مدرسة مولاي إدريس بفاس، ومدرسة مولاي يوسف بالرباط) كانتا تضمان 449 تلميذة، وأن 137 تلميذا الباقين كانوا موزعين على بقية المدارس الثانوية الموجودة في سائر جهات المغرب ، فما أهزلها من حصيلة !

و المجال الإداري

كانت حصيلة عمل الحماية الفرنسية في مجال إصلاح الإدارة المغربية وتطويرها هزيلة أيضا بحكم أن نتائج التعليم كانت هزيلة ، وبحكم سياسة الميز العنصري التي كانت تحول دون دخول المغاربة للوظيفة العمومية بالإدارات والمرافق الحكومية .فقد أقامت الحماية الفرنسية لأعوانها الفرنسيين و الأجانب أجهزة تعمل على شاكلة الإدارة العاملة في فرنسا، تتميز بمرافق عصرية ، وتهيمن على جميع نشاطات الدولة. واحتفظت للمخزن (الحكومة المغربية) ببنائقه داخل ساحة القصر الملكي بالرباط. والبنيقة في الإصطلاح الإداري المغربي العتيق تعني مكتبا يقوم في حجرة ضيقة مفروشة بزربية (بساط) يجلس الموظف على مستوى أرضها، وأمامه مكتبة مستطيلة الشكل لا تتجاوز 60 سنتمترا، عليها يكتب الموظف، وفيها يودع أقلامه ومحبرته ودفاتره وملفاته ووثائقه ، ويقفلها بالمفتاح عند مغادرته البنيقة. وكانت البنيقة تضم في أغلب الأحوال الوزير ومساعديه معا، أو تفرد للوزير بنيقة خاصة به . وكان المغرب قد توارث هذه البنائق عن عهوده التاريخية الزاهرة ،

(وكانت في تلك العهود أفضل أنماط التجهيزات المكتبية) واحتفظ بها دون تجديد أو إصلاح ، وظلت تعمل بطرق بدائية ضاعفت فقدان فاعليتها.

كان المغرب يبدو بهذين النوعين من الإدارة مغربين : مغرب القرون الخالية، ومغرب العصر الحديث. وقد زاد في تباعد الهوة بينهما اقتطاع الحماية الفرنسية حيا كاملا في الرباط بنت عليه إدارتها في شكل عمارات سامقة أقامتها على هضبة مطلة على العاصمة مما أصبح معه الموظفون المتمتعون بحظوة العمل في هذه الإدارات من فرنسيين وأجانب مشرفين مراقبين على العاصمة من أعلى، بجميع ما يقتضيه المعنيان المادي والمعنوي . وقد دخل في اصطلاح الإدارة الفرنسية تعبير «الهضبة العليا» للإشارة إلى هذه الإدارات المتميزة بهيمنة مكتبيتها المعزّزة لحكمها المطلق.

وكانت الإقامة العامة الفرنسية تبرر حرمان المغاربة من العمل في إدارتها بنقصان كفاءاتهم وعدم تأهلهم لممارسة الوظائف التي كانت تعهد بها للفرنسيين والأجانب الذين ترشحهم كفاءتهم وحدها - كما كانت تقول - للاضطلاع بمسؤولياتهم .

وفي عهد الجنرال نوجيس كانت إدارته تدعم هذا التبرير بأرقام مخجلة ، ذاكرة أن المغاربة الذين حصلوا على شهادة القسم الأول من البكالوريا (شهادة نهاية الطور الثاني من التعليم الثانوي) لم يتجاوزوا ثلاثين ، وأن من اجتازوا القسم الثاني من البكالوريا كانوا اثنين وعشرين فقط . وهذه شهادة صريحة بإفلاس نظام الحماية الذي يعترف بهذه الحصيلة الهزيلة في ميدان التعليم وتكوين الأطر بالرغم من أنه كان مر على دخول الحماية للمغرب (سنة 1912) ربع قرن في سنة 1937 التي أعطيت فيها هذه الأرقام .

وكانت الحماية الفرنسية قد خططت منذ وصولها للمغرب لتلقين المغاربة تعليما فرنسيا محدود المدى يقف على عتبة التعليم العالي ولا يتجاوزها ، ويتوج بشهادة ثانوية مغربية لا تعادل البكالوريا الفرنسية ، حتى تسد على المتخرجين منه منافذ الالتحاق بالجامعات الفرنسية والأوروبية . ولم يحدث بالمغرب نظام البكالوريا إلا في أواسط الثلاثينات مما ترتبت عليه النتيجة الهزيلة سالفة الذكر .

وتتضاعف صدمة هذه المهزلة إذا علمنا أن مجموع الموظفين (فرنسيين وأجانب) الذين كانوا يعملون بهذا النوع من الإدارة بلغ سنة 1937 حوالي تسعة آلاف موظف، وأنهم لم يكونوا جميعا حاصلين على شهادة البكالوريا التي اعتبرتها الإقامة العامة

شرط وجوب لولوج المغاربة أبواب الإدارة ، مما يعني تطبيق الحماية الفرنسية سياسة الكيل بميزانين .

في ميدان القضاء

ولم تشمل إصلاحات المقيم العام ميدان القضاء الذي ظل تحت سلطة أعوان الحماية حتى فيما كان يسمى بالقضاء الأهلي (Justice Indigéne) (باستثناء القاضي الشرعي) ، حيث كان دور موظف القضاء المغربي يقتصر على النطق بالأحكام التي كان يسطرها له المراقب المدني أو العسكري الفرنسي الذي كان يجلس بجانبه لا كخبير أو مستشار ، ولكن كان يتدخل في مداولات القاضي والمتقاضين ، ويحمل في يده سجلات القوانين التي لم تكن معربة ، أي في غير متناول القاضي المغربي، ويشير إلى المادة التي ينبغي على هذا الأخير تطبيقها على النازلة . ويمضي هكذا من مثل أمام هذا « القضاء » (الذي لا يعدل ولا يلطف) إلى المصير الذي أراده له الحاكم الفرنسي .

وكانت الإدارة السياسية الفرنسية -وهي أرهب جهازفي الإقامة العامة بالرباط- تمانع في إدخال أي تغيير على تشكيل وإجراءات هذا النوع من «المحاكم» بدعوى أن المغاربة لم يرقوا بعد إلى مستوى الانفراد بتسييرالقضاء . وباسم وحدة السلطة (الفرنسية) داخل هذه المحاكم كانت تعارض أن يقتصر دور الحاكم الفرنسي على استشارته لإعطاء خبرته .

ويضاف إلى هذا الوضع المزري أن هذه المحاكم الأهلية كان يتصدر فيها للقضاء قواد وباشوات وخلفاء (نواب) مغاربة أميون ، وفي أحسن الظروف أطر أنصاف متعلمة لا علم لها بالقانون الذي يراد منها تطبيقه ولا بالمسطرة والإجراءات العدلية المطبقة ، وأن الذين كانوا يبتلون بمحنتها هم المغاربة وحدهم ، فقد كان للفرنسيين والأجانب من مختلف الجنسيات وللأشخاص المعنوية من شركات وجمعيات ومؤسسات اجتماعية واقتصادية محاكمها الخاصة التي كانت تحمل اسم المحاكم العصرية التي كانت تحت سلطة جهاز فرنسي محض .

وقد كان من مسؤولياتي الخطرة في عهد الاستقلال أن ملك المغرب الحسن الثاني عينني وزير العدل سنة 1965 بعد أن صوت البرلمان المغربي على قانون يقضي بتوحيد المحاكم ومغربتها وتعريبها وضرب لوزير العدل أجل 18 شهرا ليحقق هذا

الإنجاز العظيم . وكانت المهمة صعبة إذ كانت تتطلب إيجاد الأطر المغربية وإعدادها وتعريب القوانين ، وتوحيد المحاكم ، مع الحرص في كل ذلك على توفير قضاء مغربي من مستوى جيد. وأحمد الله على أن وفقني فأنجزت هذه المهمة الوطنية الخطرة في الأجل المضروب لي ، مطهرا المغرب - تحت توجيهات جلالة الملك - من راسبة كبرى من رواسب الاستعمار ، ومسهما بهذه اللبنة ذات الحجم الكبير في إرساء قواعد الاستقلال الشامل لبلادي .

« خدعة الإصلاحات »

لا نجد أن المقيم العام قد جرؤ على اقتحام لجان الإصلاح بروح المصلح الواعي صادق النية ، بل إن الذين حللوا حتى من الفرنسيين محتوى ما سماه المقيم العام إصلاحات أفضى بهم التحليل إلى استنتاج حقيقة فظيعة ، هي أن المقيم العام لم يكن مصلحا وإنما كان رافضاً للإصلاح .

إن «إصلاحات » الجنرال نوجيس كانت إذن أعجز ما تكون عن معالجة وضع التردي الذي انحدرت إليه البلاد حتى لو توفرت نية الإصلاح عند صاحبها ، فكيف وقد كانت الإصلاحات مجرد واجهة خادعة لذر الرماد في العيون ، وإيهام الرأى العام الفرنسي والرأي العام الخارجي أن الحماية الفرنسية جادة في الاضطلاع بمسؤولية الإصلاح التي بررت بها فرنسا هيمنتها على المغرب .

الترويج للإصلاحات

بالرغم من ذلك كله وقف الجنرال نوجيس يوم ثاني يوليوز (تموز) 1938 أمام «البرلمان» الذي صنعته الإقامة العامة ودعته مجلس شورى الحكومة ليقدم بصفاقة نادرة حصيلة إصلاحاته لمدة ستة أشهر .

ولقد بلغ به استبلاد سامعيه إلى حد القول «إن الحماية تفتح باب الوظائف في وجوه المغاربة ، وما عليهم إلا أن يلجوا الأبواب بطريق المباريات أو الامتحانات وبنفس الشروط التي تؤهل الفرنسيين للعمل بها » وأضاف: «وطبيعي أن مراكز المراقبة مقصورة على غير المغاربة لأنها تمس مهمة فرنسا في المغرب التي لا يمكن أن يقوم بها إلا أبناؤها ». وإنه لمنطق غريب ادعاء تسوية المغاربة والأجانب في فرص

التوظيف بالمغرب ولكن على نفس الشروط التي لم يكن يتوفر عليها بالفعل إلا الفرنسيون والأجانب :

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

وفي فاتح يناير سنة 1938 أي بعد مرور شهرين على تشريد رجال الحركة الوطنية واتت المقيم العام فرصة استقبال كبار الأعيان بالمغرب الذين جاءوا لتهنئته بميلاد السنة الجديدة .فأخرجت الإقامة العامة تمثيلية لعب الصدر الأعظم المغربي دورها الرئيسي ، إذ أبى إلا أن يهنئ المقيم العام على سياسة قمع الوطنيين وعلى إصلاحاته المتوالية لخير المغرب وأبنائه ، وأن يتهم الوطنيين ويحاكمهم وهم في سجونهم ومنافيهم غائبون، وأن يقول باللفظ الواحد :

«ولم تزل الإصلاحات يتلو بعضها بعضا حتى قام بعض أفراد من الشباب يعارضون أنظمة المخزن الشريف ومشروعات الحكومة الحامية ، وقدموا مطالب لا شأن لهم في التدخل فيها ، إذ المخزن الشريف أعرف بأحوال الناس ، وهو الكفيل بما فيه منفعة الرعية . وما قصدهم بذلك إلا تشويش الأفكار وإيقاد نيران الفتنة وهدم كيان الأمن (..). ومازال المخزن يعاملهم بالرفق واللين حتى نالوا مؤقتا حرية الصحافة، وبدلا من أن يصرفوا همتهم في الإرشاد بنزاهة ووقار خدمة للصالح العام اتخذوها آلة للهدم ، فأرقف (المخزن) [أي بعد حوادث مكناس والخمسينات الخ...] بعض الجرائد المهيجة ، ثم أنزل العقوبة الصارمة على رؤوس الفتنة ومؤازريهم كُلٌ بما يستحقه . (...) وبفضل هذا الموقف الحاسم استتب الأمن في نصابه وعادت المياه لمجاريها " .

هكذا تكلم الحاج محمد المقري كما لو كان رئيس حكومة ذات نفوذ حقيقي، وكما لو كان المخزن الذي كان ينطق باسمه هو صاحب مبادرة قمع الوطنيين . وكان المقري يعرف مبلغ نفوذه ، لكن كان كالهر يحكي انتفاخا صورة الأسد، وكل ذلك ليغطي على المقيم العام ويبرئه من إثم الخطيئة التي ارتكبها ضد طائفة من المغاربة ولو بوضع مسؤوليتها على عاتق حكومة المخزن في تودد رخيص للمقيم العام .

لكن سخرية القدر شاءت له أن يكون رد المقيم عليه غير متناغم مع أطروحته، فقد قال المقيم العام : «إننا عندما أقدمنا على سلوك خطتنا في قمع الشباب الذين أشرتم إليهم لم نقم إلا بواجبنا في السهر على احترام الدين الإسلامي ونفوذ السلطان».

وهكذا برأ المقيم العام بدوره السلطان وحكومته من وزر القمع الذي أراد الصدر

الأعظم أن يرمي به على نفسه وعلى الحكومة التي يترأسها، وحوّل هذا التناقض في موقفي الجانبين حوارهما إلى حوار الصم، مما أضفى على التمثيلية الملعوبة في ذلك الحفل صورة المهزلة .

ومع أن هذه الفقرة من خطاب المقيم العام كانت واضحة في الدلالة على انفراده بمسؤولية خطته ، فقد أبى إلا أن يضيف تفاصيل الأسباب التي كانت وراء سياسة القمع قائلا :

«وأريد أن أذكر هنا وينتهي الصراحة الأسباب الأساسية التي حملتنا على قمع تلك الحركة التي كانت تخلق اضطرابات في المغرب ،فما وقفنا منها موقفنا ذاك إلا لأن تلك الحركة كانت ترمي إلى هدم نفوذ المخزن الشريف وإلى المس بسلطة ممثليه في المغرب، ولأنها حاولت استغلال المساجد والقيام بأعمال الفتنة انطلاقا منها، وهذا مخالف كل المخالفة للمبدأ السامي الذي أسست له ، ولأنها مست كل المساس بنفوذ جلالة السلطان وحرمته الشريفة».

إن الجنرال نوجيس لا يطرح بهذا التصريح مسؤولية سياسته إلا على نفسه ويتذرع لتبريرها بما ألقاه عقد الحماية على فرنسا (التي يمثلها في المغرب) من مسؤولية حماية نفوذ السلطان والمحافظة على الدين الإسلامي .

وكان الاستعمار قد أدخل في قاموس لغته الجديدة عبارات حماية أمن المستعمرات وصيانة وحدتها وحفظ دينها . أليس أن موسوليني الفاشي لقب نفسه حامي الإسلام ؟

لغة مهذبة

وبعد مضي شهر ونصف على تبادل الخطب في مناسبة العام الجديد بين المقيم العام والصدر الأعظم سنحت فرصة أخرى للمسؤولين عن الحماية ليعطوا للرأي العام صورة عن نواياهم نحو المغرب بعد قيامهم بما سموه تصفية الوطنيين ، ولكن بلغة مهذبة عندما زار الوزير الفرنسي (كاتب الدولة) فرنسوا دوطيسان المغرب فتوجه إلى قدماء المحاربين الجمهوريين بهذه الكلمات التي تصور نظرة الحكومة الفرنسية إلى الوضع في المغرب خلال سنة 1938 التي نتحدث عن ذكرياتها:

«إننا نفهم شدة رغبة المغاربة في الاستفادة من كل ما يشرف شخصياتهم ومن كل ما يزيد في مميزاتهم الأصلية الخاصة . ونفهم حماس شبيبة تتمسك بمبادئنا التحريرية لإنارة مستقبلها . ونحن بعيدون كل البعد عن فكرة عتاب أي كان على

ما فيه من روح الوطنية التي هي في المغرب كما في سواه من العوامل الموقظة للشرف البشري ما دامت لم تتطور إلى مبادئ هدامة.» وزاد الوزير الفرنسي يقول:

" ولقد تجلت في فرنسا مظاهر العطف بين الأوساط الديمقراطية على ما يسمونه بالوطنية المغربية مادامت محصورة في دائرة المؤسسات القانونية، وما دامت لم تتجاهل ما عليها من واجب الطاعة لجلالة السلطان ومخزنه، وما دامت لم تتناول ما يمس بوجود الحماية نفسها . فإذا كنا تساهلنا مع الذين أضلتهم دعاية ثالبة، والذين عادوا إلى رشدهم ووقفوا مع الحقائق بعدما أغلطتهم نظريات كاذبة، فإننا عازمون على أن نقابل بصرامة لا تتزعزع كل محاولة يقوم بها متعصبون تؤدي بالبلاد إلى الاضطرابات وتطمع في أن تزيح القاعدة التي بفضلها تمكن المغرب من الانتعاش بصورة لافتة للأنظار ".

وقد اغتنم الوزير الفرنسي المناسبة للحديث عن الإصلاحات الفرنسية التي ختم بها خطابه بهذه العبارات :" إن بلادي عازمة على إدخال إصلاحات بعد استشارة المغاربة المتنورين من رجال المخزن . ومن بينهم وفي مقدمتهم دولة الصدر الأعظم السيد الحاج محمد المقري صديقنا المخلص لنا منذ عهد قديم " .

صحافة في ركاب الإستعمار

لم تكن الإصلاحات التي أعلن عنها المقيم العام الجنرال نوجيس إلا ذرا للرماد في العيون لتغطية سياسة القمع التي أسقط بها عن وجهه القناع، لكنه أثار حولها ضجة إعلامية رددت صداها أجهزة الإعلام الفرنسي، وأقام من حولها من بعض المغاربة من كان يسبّح بحمدها ويشيد باسم المقيم العام الذي جاد بها، مما انخدع معه ذوو النية الحسنة في فرنسا وخارجها، حتى أن الأمير شكيب أرسلان نفسه اشتبه عليه الأمر وهو مقيم في سويسرة إلى حد أنه كتب في جريدة «الأمة العربية» (La Nation Arabe) في صيف سنة 1938 معلقا على هذه «الإصلاحات » بقوله : «إن الإصلاحات التي أعلن عنها الجنرال نوجيس كحصيلة لستة أشهر تقدم نفعا جزيلا للمغرب، وتشكل خطوات صحيحة على طريق الإصلاحات التي طالما طالب بها الشعب المغربي، ومن أجلها ضحت نخبة الشباب الوطني المغربي بدمها وصحتها ورغد عيشها » .

هل انخدع الأمير ؟

وقد تساءل من يعرفون جهاد الأمير شكيب الحافل لخير الأمة العربية الإسلامية ونصرة قضاياها العادلة كيف أعطى الأمير هذه الشهادة المزكية لعمل المقيم العام وهو الذي ظل يناصر الحركة الوطنية المغربية ويقدم عبر صفحات جريدته مرافعات الدفاع عنها ؟ فهل وقع الأمير في أحبولة التوجيه الإعلامي المضلل الذي صدر عن المقيم العام من الرباط ؟ أم أنه كان منطقيا مع نفسه عندما نصح الوطنيين - قبل اعتقالهم ونفيهم في الرسالة التي وجهها إليهم إثر تفرق كتلة العمل الوطني- بنهج طريق الاعتدال وبالتعاون مع المقيم العام وبالتشبث بموافقة السلطان على جميع ما يأخذون ويذرون ؟ أم أنه - كما قال البعض عنه - أصبح أكثر واقعية حيال فرنسا بعد أن أمضت سنة 1936 على اتفاقية الاستقلال السوري اللبناني ؟ .

ولا أعتقد أن يكمن وراء هذه الأسئلة الثلاثة - التي احتوت ضمنيا في صياغتها محاولة تفسير موقف الأمير- الجواب المقنع على حقيقة موقفه، ففي ظني أن هناك تفسيرا آخر لموقف الرائد العربي الكبير ربما يكون أقرب إلى الحقيقة، اهتديت إليه وأنا أقرأ في كتاب أخينا وزميلنا أبي بكر القادري عن سعيد حجي ماجاء في الصفحة 128 :« ربط سعيد حجي اتصالات مع الإقامة العامة وسمح له المقيم العام بالسفر إلى سويسرة للاتصال بالحاج أحمد بلافريج ليعرض عليه برنامج الإصلاحات الذي وقعت فيه المذاكرة مع المقيم العام . وفي سويسرة التقى بالأمير شكيب وتحادث معه في موضوع الإصلاحات لمدة أربع ساعات تدارسا خلالها البرنامج بندا بندا فوافق الأمير على الخطة واستحسنها ».

إن هذه الشهادة التي جاءت على لسان من رافق واحتك بسعيد حجي تعني أن الأمير سمع من شخصية وطنية مغربية تقييما مؤيدا لخطة المقيم العام، وعلى ذلك بنى موقفه الذي عبر عنه في جريدته، معتبرا أن عليه أن لا يكون وطنيا أكثر من الوطنيين ؛ إلا أن ماغاب عن الأمير في دار غربته بجنيف هو أن المرحوم سعيد حجي كان في تلك الفترة من الوطنيين المعتدلين، وأنه لم يكن ينطق باسم الحركة الوطنية التي كان ممثلوها الحقيقيون وراء قضبان السجون أو مبعدين في المنافي

السحيقة . ولعل من بين ما جعل الأمير ينساق إلى تقييم سعيد حجي لإصلاحات المقيم العام هو أن هذا أخبره أن جاء لسويسرة للاتصال بالحاج أحمد بلا فريج الأمين العام للحزب الوطني لإطلاعه على فحوى إصلاحات المقيم العام، وأنه أضاف أنه يتعاون مع المقيم العام بهدف جعله على الإفراج عن الوطنيين . وكان الأمير لهم صديقا وفيا. لقد كان حجي - كما أسلفنا القول - مدير «المغرب » وكانت جريدة معتدلة، ونفذ في فترة اعتقال الوطنيين وإلى وفاته جانبا من خطته السياسية التي تحدثنا عنها في ما سبق والتي نصح فيها بأن يكون للحركة الوطنية جناح معتدل يجني الثمار من مواقف تطرف الجناح المتصلب، فدخل في حوار مع الإقامة العامة كوطني معتدل متفهم ليجني للمغرب ثمار إصلاحات . وكان المقيم العام يرغب فعلا في أن يحيط نفسه بكتلة من الوطنيين المتفهمين يتعاون معهم كبديل عن القادة الوطنيين الذين كان ينعتهم بالفتانين والمهيجين .

وفعلا فقد ارتبط سعيد حجي مع المقيم العام بعلاقات تعاون وتفاهم ابتدأت إثر إسكات صوت الحركة الوطنية في صيف سنة 1937 وامتدت إلى ما بعد إعلان الحرب العالمية الثانية . ولم يتقيد في خطته هذه بمقتضيات «ميثاق الحزب الوطني » الذي تمخض عن مؤتمر الحزب الاستثنائي المؤرخ ب 13 أكتوبر 1937 الذي أشرنا إليه في السابق والذي كان يمنع على الوطنيين أعضاء الحزب التفاهم والتعاون مع الحماية الفرنسية، وقد كان حجي عضوا في هذا الحزب إلى حين حله من لدن السلطات الفرنسية وقمع الحركة الوطنية .

ومن أجل ذلك فقد سعيد حجي ثقة الوطنيين الذين كانوا في السجون، وتعاملوا معه بتحفظ بعد إطلاق سراحهم .

وصحافة مأجورة

كان ضمن بدائل المقيم العام الجنرال نوجيس عن الصحافة الوطنية التي أوقفها تشجيع صحافة مغربية مأجورة تقدم عمل الحماية الفرنسية في المغرب في صورة عمل حضاري لفائدة المغرب تجود به الدولة الحامية (فرنسا) بسخاء على محميتها اليتيمة (المغرب) ، وتعطي صورة زاهية باهرة الألوان للتعاون المغربي الفرنسي، وتهتم بإبراز قيام فرنسا في المغرب بما عهد به إليها عقد الحماية من إعداد المغرب للتدرج على سبيل التطور والنهضة .

وقد كانت «مجلة المغرب » التي كان يصدرها بطنجة محمد صالح ميسة (الجزائري) ثم نقلها إلى الرباط، وإذاعة راديو المغرب التي نشطت بصفة خاصة على عهد الجنرال نوجيس، كما كانت جريدة «السعادة» التي كان يصدرها موظف فرنسي تابع لمصالح الإقامة العامة بالرباط، تشكل البديل الإعلامي الذي كان يسبّح بحمد الاستعمار ويقدم مغربا آخر غير ذلك الذي كانت تقدمه المعارضة الوطنية على صفحات جرائدها المغتالة بقرار المقيم العام، فمغرب الإذاعة والسعادة ومجلة المغرب كان مغرب الحماية الفرنسية وأعوانها من المغاربة الطيعين، ولنقل في كلمة موجزة إنه كان مغربا بدون شعب .

« أصحاب السعادة »

كانت جريدة «السعادة » تنطق فعلا باسم الإقامة العامة دون أن تحتاج إلى أن تضع تحت اسمها على رأس الصفحة الأولى تعبير « ناطقة باسم » المتعارف عليه في لغة الصحافة، إذ كانت صفحاتها تعج بأخبار نشاط أعوان الإقامة العامة ورجال المخزن .وفي هؤلاء كان ينحصر «مغرب السعادة » او «المغرب السعيد».

كانت تولي الأسبقية لتفاصيل أخبار «مجادة المقيم العام » وأركان الحماية الفرنسية الممسكين بقبضة سلطتهم الحديدية على المغرب من مراقبين فرنسيين مدنيين وعسكريين، دون أن تنسى أصحابها : أصحاب السعادة الباشوات والقواد والخلفاء والقضاة والمحتسبين والعدول، بل كانت لا تغفل في تغطيتها الإعلامية حتى حركات بعض الموظفين المغاربة الصغار الذين يقومون بأي دور لخدمة الحماية وأغراضها، بادئة بنفسها أحيانا عندما تتحدث عن نشاط مراسليها المنتشرين عبر المغرب الذين كانت تنعتهم بالفضلاء والأكارم .

وتتصدرين أخبار «اصحاب السعادة» أنباء رحلاتهم للاستمتاع بزيارة «بلاد النور والعرفان» باريس «عاصمة الدولة الحامية» أو لمشاهدة الآثار التاريخية في «فرنسا الفخيمة» والاستمتاع بزيارة مدنها «شاهقة المباني» و «الاستظلال بظلال مغانيها الوارفة».

وقد تصل درجة اهتمام جريدة «السعادة» إلى حد إخبار قرائها بزيارة شخص ما من أعوان الحماية لابن عمه المريض في طنجة وعودته على جناح السلامة إلى عاصمة الرباط، أو شخوص آخر منهم إلى ميناء الدار البيضاء لتوديع قريبه المسافر

على متن الباخرة الفرنسية (يذكر اسمها) « المتوجهة في حفظ الله ورعايته إلى الأراضي الفرنسية الزاهرة »، وحيث ستبحر «بميناء مرسيليا العظيم» .

وحينما كانت تقدم ما تنشره لمن كانوا يتعاونون معها كانت تتفنن في توزيع الأوصاف والنعوت بين طوائف أولئك المتعاونين، فإن كان المنشور نثراً استحق صاحبه أوصاف الفقيه المطلع، أو العلامة الدراكة إن كان فقيها أو من أدعياء الفقه، أو نعت الأديب الألمعي إن كان مستواه الأدبي يبلغ درجة محرر عادي أو أقل. أما إن كان المنشور نظما فإن صاحبه يوصف بالشاعر المفلق أو العبقري المبدع . وهي رتبة أقل من درجة فطاحل الشعراء الذين كانت «السعادة» تنعت قصيدة من كان من فصيلتهم بالخريدة العصماء .

السعادة «الغراء»

وردا على التحية بمثلها كان من يبعثون بمراسلاتهم إليها لا يتحدثون عنها في صلب كتاباتهم إلا بتعبير «السعادة الغراء» ثم يتفننون في وصفها، فهي كما قال عنها أحدهم «لسان الأدب والأدباء والمنبر العام لفصاحة الفصحاء وبلاغة البلغاء». ومادح نفسه يقرئك السلام .

وكلما تفضل رجال السلطة في الإقامة العامة وممثلوهم الفرنسيون عبر المغرب فاستقبلوا في مناسبات وطنية فرنسية مدعوبهم من الفرنسيين والمغاربة كان وصف «الحفل البهيج » يستغرق حيزا كبيرا من الجريدة للتنصيص على جميع من حضر(بالأسماء والألقاب السخية)، وللختم بهذه العبارة التي كانت تتردد على أقلام المراسلين :« وبعد أن شرب المغاربة من كل حلال وتناولوا أطيب المرطبات انصرفوا وألسنتهم «رطبة» بالثناء والدعاء لصاحب الدعوة الكريمة» الذي كان إما «مجادة » المقيم العام أو سعادة المدير المسيو فلان .

وأفسحت جريدة «السعادة» المجال لعدد من أشباه الشعراء والكتّاب المغاربة الذين مجدوا الاستعمار وألّهوا رموزه وتملقوا أعوانه . ومن بينهم مادحو الجنرال نوجيس والمستشار المخزني وأعوان الإقامة العامة خاصة في مناسبات الأعياد الوطنية الفرنسية . وهذا نموذج من هذا النوع من الهذيان النظمي الذي نشره أحدهم (وكان يلقب بالشاعر المطبوع) بهذه الجريدة مهنئا الجنرال نوجيس بالعيد الوطني قائلا :

فـــاهنأ به يا أيهـــا الجـــنرال يا نوجـيس يا من شبْهُه مـفـقـــود
هو شيـخك (*) السامي وأنت مريده ولكل شـــيخ في الأنام مـــريـــد
لا شـخص مـثلكمـا وهل من ثـالث للنيـّرين ضـيـــاؤه ممـــدود ؟

وهذا الشاعر المطبوع الذي كان البعض ينطق بنعته هذا بالضاد لا بالطاء كانت قريحته الفياضة تجود بنظمه البذيء في كل مناسبة لتمجيد أعوان الإقامة العامة . ومن ذلك قصيدة مدح فيها المسيو لومير نائب مستشار الحكومة الفرنسي مما ورد فيها :

لومـير يا لومير ذكرك شـــــائع في القطر والذكـر الجـمـيل بـقـاء

وكـان من بين هؤلاء الناظمين من هجا الأحزاب السيـاسيـة الوطنيـة المغربيـة وتشفى في محنة قيادتها من لدن الاستعمار وكان أحدهم يشغل وظيفة كاتب بمجلس الاستئناف الشرعي فقال :

فكل فـريق يحسب الحق عـــــنده ويعـمل للتصدير والفوز بالخيـــر
وهل شرْعـة الإسـلام تسـمح أن نرى هنا هذه الأحـزابَ جـالبـةً الخُسـْر
أعـوذ برب الناس من كل بدعـــــة ومن كل شـيطان يقـود إلى الشـر

ولم ينس هذا «الملاك الرحيم» الذي كان يهجو «شيطان الأحزاب الرجيم» أن يمدح الحماية على عملها «العظيم الحافل في ميدان التعليم» الذي أسلفنا الإشارة إلى حصيلته الهزيلة في صفحات سابقة، ويقرن تلك الحصيلة بتقدم مصرفي ميدان المعرفة مبرزا أن حالة المغرب أحسن وأرقى فيقول :

وفي كل أطراف البـلاد تـعلـــم تغـار له مـصرٌ وناهيك من مـصـر

وقد اختار هذا الكاتب (الذي جوزي فأصبح قاضيا شرعيا) قافية الراء ليعلن فيها عن نسبه وحسبه في هذا البيت الذي ختم به قصيدته :

وإني مـحب صـادق في مـحـبـتي أتتني تراثا من جـدودي بني فِهـْر

(*) يقصد الجنرال ليوطي المقيم العام الفرنسي الاول بالمغرب

استقطاب العناصر المتعلمة

وكانت الإقامة العامة في سعيها المتواصل للبحث عن البديل تستهدف استقطاب الشباب المتعلم وبعض العلماء بجامعة القرويين للمساهمة في نشاط فكري يخدم بواسطة الإذاعة والصحافة المأجورة الترويج لسياسة المقيم العام وكسب التأييد الشعبي لها، وقد وردت الإشارة إلى ذلك في هذه العبارات التي جاءت في خطاب المقيم العام أمام مجلس شورى الحكومة :« واليوم يخيل لي أنه من الواجب أن أستدعي بصفة إستثنائية هيئة تمثل العلماء لإطلاعهم على مشاريعنا الرامية إلى تحسين مصير القضاة المغاربة والمحاكم وهيئات مجالس بلديات أمهات المدن بالمغرب المحنكين ومن ذوي الخبرة بمناقشات المسائل العامة» ثم أضاف يقول :

« وفيما يخص الميدان الفكري قامت الحماية بتنظيم وتشكيل لجنة أهلية دائمة للراديو العربي. وهكذا فإن الفكرة الإسلامية مثل الفكرة الأوروبية سيفصح عنها وسيعم ذيوعها وانتشارها ليس بما يكتب فقط، بل بالكلام والقول الذي يحيي الأفكار وينعشها» .

ولسوء الحظ وقع عدد من شبابنا في الشرك الذي نصب لهم، فتورطوا بالحديث على أمواج الإذاعة وساهموا بكتاباتهم في الصحافة المأجورة، لكننا كنا في الحركة الوطنية ننظر إلى هذا النوع من المتعاونين مع هذه الجريدة نظرة شزراء، ونصنفهم في عداد المشبوه فيهم . وأذكر أنني قطعت علاقتي بصديق حميم وزميل لي في المدرسة ورفيقي في «الحركة القومية » ساهم مرة أو مرتين بمقال وقصيدة في " السعادة " ولم تكن لهما صبغة سياسية، وكانت مؤاخذتنا الوحيدة عليه مشاركته في الجريدة ولم أكن الوحيد من بين القوميين الذي قاطعه ولم نعد للاتصال به إلا بعد أن اعترف بخطأه وأقلع عن العودة إلى ما فعل .

كما أذكر أني أنا وزمرة من أصدقائي تلقينا عروضا سخية بالمشاركة في جريدة " السعادة " فأبينا، لأن حكمنا على الجريدة والمتعاونين فيها كان بعد استقراء وتتبع لنهجها الذي اعتبرناه منافيا لالتزامنا الوطني .

مرجع مهم

إن جريدة «السعادة » - بصرف النظر عن هذه المقتضيات - تظل مرجعا مهما لكل باحث أو مؤرخ لفترة الحماية، فقد استمر صدورها من بداية الحماية إلى عهد الاستقلال الوطني، وحفلت بنشر معلومات مغنية عن هذه الفترة، خاصة بالنسبة لقرارات تعيينات الموظفين، والمهرجانات الرسمية، ونشاط المخزن والإقامة العامة، مما يسجل تفاصيل مسيرة الحماية الفرنسية وتاريخ فترة مغربية جديرة بالاهتمام . ومن هنا فجريدة «السعادة » مرجع متخصص لا يستغنى عنه .

ولسوء الحظ لا تتوفر المكتبة الوطنية بالرباط التي يطلق عليها في المغرب اسم الخزانة العامة على جميع أعدادها، إما لأن بعضها قد اهترأ وتآكل بفعل السنين فلم يعد صالحا للاستفادة منه، وإما لأن بعضها الآخر قد أخفي بفعل فاعل من الأرشيف.

وعسى أن تسد إدارة الخزانة العامة هذه الثغرة بالعمل على البحث عن المفقود من الأعداد الموجودة - لا محالة - في مكتبات أخرى داخل المغرب وخارجه .

الفصل الثاني و العشرون

في رحاب القرويين

بعد هدوء العاصفة

استمرت حركة المظاهرات الاحتجاجية على اعتقال الوطنيين أياما في مدينة فاس والمدن المغربية الأخرى، ثم استتب الهدوء الذي استمرأت معه الإقامة العامة الفرنسية نشوة انتصار القوة على الحركة الوطنية العزلاء.

وهدأت العاصفة أيضا في بيتي، وأخذنا نعيش داخل الأسرة جو الانفراج، منذ أن أمتعني والدي بالسراح من " معتقلي " ومغادرة البيت مقابل تعهدي أمام الأسرة بالمسارعة إلى استئناف دراستي بجامعة القرويين .

ولم تتعطل الدروس بالقرويين في غيبتي إلا أياما معدودات خلال الفترة التي كانت تنطلق من مسجدها المظاهرات الشعبية، فلم يفتني من الدراسة إلا نزر يسير سهل علي تداركه .

وكم كانت خيبتي كبيرة عندما افتقدت بحلقات الجامعة ثلة من زملائي قيل لي إنهم أصبحوا وراء أسوار السجن . أو في عداد المفقودين في معتقل الصحراء الجهنمي . وكان من بينهم شباب خطبوا في المظاهرات فعوقبوا بالسجن سنتين حسب " التسعيرة " التي حددت سنتي سجن لكل خطيب .

لقد كان يَنْتَابُني إحساس مزدوج : فمن جهة كنت أشعر بفراغ يحاصرني لفقدي بعض من اجتزت وإياهم طريقا سياسيا مشتركا بالرغم من أن مسافته الزمنية لم تزد على بضعة أشهر، ومن جهة أخرى وعيت أن والدي لم يكن مخطئا حين مارس عليّ سلطته الأبوية واحتفظ بي في " معتقل " البيت ليقيني مصير هؤلاء الزملاء . إذ ماذا كانت ستستفيد الحركة الوطنية من اعتقالي ؟ وماذا كان سيضيف هذا الاعتقال إلى حجم المعتقلين الذين كانوا يعدون بالمـــآت ؟ وماذا كنت سأستفيد من إصراري على القيام خطيبا في المظاهرات سوى أني كنت سأتعرف على عالم السجن في سن المراهقة، قبل أن أكتشف بعض جوانب المعرفة التي تقدمها دراسات القرويين . وربما كان سجني سيشكل في حياتي مفترق طرق، أو يزج بي في طريق غير نافذ، إذ

كان سيحول بيني وبين مواصلة الدراسة طيلة سنتين على الأقل إن لم يفض بي إلى الانصراف عن الدرس والتحصيل طول العمر.

ومع ذلك لم أفتأ أحس بتنامي شعور الغربة وهاجس الفراغ في نفسي بافتقادي الصحافة الوطنية " المعتقلة " هي الأخرى، وكنت في عهد الانفراج السياسي أنهل من مقالاتها وأستفيد من توجهاتها، وأعيش في جو تظلماتها، وأثور لاحتجاجاتها، ويتوقف اجتماعات " الحركة القومية " التي تعودت طيلة أشهر خلال سنة 1937 على غشيانها والتدرب سياسيا في مدرستها .

ثم لم ألبث أن عزيت نفسي بأن المغرب كله - ولست أنا وحدي - يعاني غربة قاسية وفراغا موحشا في جو انعدام الحريات وغيبة العمل الوطني العلني، وأنه قد استحال بذلك إلى سجن كبير .

هكذا استسلمت إلى قدري بعد اجترار هذا المنطق أياما وليالي لأنتهي إلى أن أجعل من دراستي بالقرويين الرفيق المفتقَد والبديل المرجو . وما دام والدي قد وجهني لطلب العلم بين أبهاء الجامعة فلأمض على طريقها دون تردد، ولأنهل من كؤوس معارفها حتى الثمالة.

مدينة فاس وجامع القرويين

ومؤسسة " القرويين " التي انتميت في دراستي العلمية إليها قديمة قدم مدينة فاس العتيقة التي أسسها إدريس الثاني سنة 192 هـ (808م) ورفع يديه بالدعاء لها أن «يجعلها الله دار علم وفقه " وهو يضع حجرها الأساسي . وبذلك تكون أقدم من القاهرة المُعزية التي بنيت بمصر في عهد الفاطميين على يد القائد جوهر الصقلي في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي (969 م).

وكان إدريس هذا ثاني ملوك الأدارسة بعد والده إدريس الأول الشريف العربي المنحدر من علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء . وكان قدم إلى المغرب من الجزيرة العربية خلال عام 171 هـ (788م) إثر وقعة فخ، راكبا البحر الأحمر إلى مصر فطنجة. ومن هذه المدينة المغربية قصد برا مدينة وليلي أو وَليلة الواقعة في سفح جبل زرهون، الذي يبعد عن مدينة مكناس ب 28 كيلو مترا، فاستقر بين البربر في ضيافة زعيم قبيلة أوربة (بفتح الهمزة وتسكين الواو وتخفيف الباء) . وقمت بيعته ملكا للمغرب يوم رابع رمضان عام 172 هـ.(سادس فبراير (شباط) سنة 789م) .

وبهذا يكون العرش المغربي قد أكمل في سنة (1989) اثني عشر قرنا من الوجود والاستمرار، مما يجعله أقدم من عرشي فرنسا وبريطانيا العظمى، بل أقدم العروش العالمية التي بقيت مستمرة إلى عصرنا إذا استثنينا عرش اليابان.

ويشق مدينة فاس نهرٌ تقوم المدينة على ضفتيه، ويطلق المغاربة على ضفة النهر اسم العُدْوة (بضم العين وتسكين الدال)، لذا تقسمت المدينة بين العدوة الشرقية والعدوة الغربية . وأُطلق على الأولى اسم عُدْوة الأندلس لأن المدينة الجديدة جلبت إليها وافدين من الأندلس أقاموا بهذه الضفة، وأطلق على الثانية اسم عدوة القرويين لأنها آوت من نزح إليها من أهل القيروان. وما يزال يطلق على مدينتي الرباط وسلا لفظ العُدْوتين لوقوعهما على ضفتي نهر أبي رقراق . وكان المفروض أن يطلق على العدوة الشرقية اسم عدوة القيروان أو عدوة القيروانيين، لكن المغاربة وضيوفهم أطلقوا عليها اسم عدوة القرويين، ألأنهم كانوا يجهلون قواعد النحو فحرفوا صيغة النسبة ؟ أم أنهم اختصروا في النطق ففضلوا القرويين الخفيفة على القيروانيين ؟ وكيفما كان الحال فإنهم نطقوا بها وضبطوها بفتح القاء كما ينبغي أن تُنطَق وتُضبط، وليس بضم القاف كما ينطق بها بعض الكتاب أو يتوهم بعض المؤرخين خارج المغرب ممن لا يعودون إلى تاريخ المغرب في مصادره .

وكان إدريس الثاني قد بنى بعدوة الأندلس " جامع الأشياخ " وبعدوة القرويين " مسجد الشرفاء "، لكن المدينة ضاقت بسكانها وبالوافدين عليها بعد وفاته وخاصة في أيام حفيده يحيى الأول، كما ضاق المسجدان بجماهير المؤمنين، فسارعت سيدة فاضلة كانت قدمت أسرتها من القيروان واستقرت بعدوتها إلى بناء مسجد جامع في الضفة الغربية، هي السيدة فاطمة أم البنين التي شرعت في حفر الأساس في فاتح رمضان عام 245 هـ (30 نونبر (تشرين الثاني) 859 م) . واشتهر المسجد باسم جامع القرويين .

ولا نريد أن نتوقف للتأكد من نسبة بناء هذا المسجد الجامع إلى هذه السيدة الفاضلة أو إلى نسبة بنائه للإمام داود بن إدريس بعد 18 سنة من هذا التاريخ، فنحن لا نكتب في هذه الذكريات أحداث التاريخ وإنما نشير إلى أنه في الحالتين معا يظل بناء هذا المسجد حدثا تاريخيا يجعل منه أقدم مسجد جامع في تاريخ إفريقيا الشمالية أو المغرب العربي بعد مسجد القيروان الذي كان أول مسجد بني في منطقة شمال إفريقيا .

جامعة القرويين

لكن جامع القرويين خطط له من البداية ليكون مركز إشعاع إسلامي وليحتضن بين أبهائه وفي حلقاته خلاصة ما انتهى إليه الفكر الإسلامي في ميدان العلوم والمعارف، أي أن جامع القرويين لم يلبث أن تحول إلى جامعة إسلامية حجت إليها وفود رواد المعرفة من الداخل والخارج . (وذلك قبل أن يتأسس الجامع الأزهر بمصر سنة 359 هـ) مما ارتفعت معه مكانة مدينة فاس، وأصبحت تنافس عواصم الخلافة الإسلامية في المشرق العربي، بل تجاوزت بمكانتها المرموقة عواصم إسلامية عرفت حتمية النشوء والارتقاء والتراجع والنكسة، خاصة في عهود الانحطاط التي آلت إلى سقوط الخلافة الإسلامية بالمشرق العربي .

من هذا الاعتبار يمكن القول - دون أن يكذب التاريخ هذه المقولة - إن جامعة القرويين تعتبر الجامعة الأولى في تاريخ الفكر العالمي بشهادة المؤرخين الغربيين الذين اعترفوا بهذه الحقيقة . ولا عجب في ذلك مادام تاريخ نشأة الجامعات في أوروبا لا يذكر إلا أن الجامعة الأولى التي نشأت في الغرب كانت جامعة بولـــونيا (Bolog-na) الإيطالية، وذلك سنة 1158م وتلتها جامعة السوربون (La Sorbonne) الفرنسية سنة 1200م، كما يذكر أن جامعة نابولي (Napoli) التي أسسها القيصر فريديريك الثاني تأسست سنة 1224. ومعنى ذلك أن العالم الإسلامي سبق العالم الأوروبي إلى إنشاء المراكز العلمية نتيجة إقامة مساجد لتلقين العلم عرفها العرب بالمشرق والمغرب منذ تأسيس النبي عليه السلام بالمدينة أول مسجد في الإسلام . وبعض من هذه المساجد تحول إلى جامعات بالمعنى الأكاديمي .

إن تأسيس جامعة القرويين تم إذن في القرن التاسع الميلادي، وتلاه تأسيس جامعة الأزهر في القرن العاشر، وتبعت هذه في نفس القرن جامعة قرطبة، بينما لا تتحدث أوروبا عن تأسيس جامعاتها إلا بدءا من القرن الثاني عشر . وليس في هذا ما يُستغرب، فالعصر الوسيط أو عصر انحطاط أوروبا كان هو عصر النهضة العربية الإسلامية التي تدفق فيها العلم العربي الإسلامي غزيرا في الجامعات وفي مراكز البحوث الإسلامية وأفاض من خيره على العالم أجمع، بما في ذلك أوروبا التي ساهمت الثقافة الإسلامية في إعداد نهضتها .

وقد أجمعت كلمة المؤرخين الغربيين الذين تتوفر في بحوثهم حدود دنيا من شروط الموضوعية على الإشادة بدور القرويين في تبليغ رسالة العلم، وعلى الاعتراف لها بالأسبقية في هذا المجال. ومن ذلك ما كتبه أحدهم (ديلفان)(DELPHEN): " لقد كانت مدينة فاس بحق دار العلم، وكانت جامعتها (القرويين) أول جامعة في العالم". كما وضع النقط على الحروف المستشرق الروسي جوزي (José) في موضوع أقدمية جامعة القرويين فكتب ما يلي :" إن أقدم كلية في العالم لا توجد في أوروبا كما يظن البعض، بل في إ فريقيا، وبالضبط في فاس عاصمة المغرب ". وتحدث معاصرنا الأستاذ روم لاندو (Rom Landau) عن هذه الجامعة فقال : " وقد تأسس في مدينة فاس منذ أيامها الأولى جامع القرويين الذي هو أهم جامعة وأقدمها . وبها كان العلماء منذ حوالي ألف سنة يعكفون على البحوث الدينية والمناظرات الفلسفية التي قد تتجاوز دقتها إدراك فكرنا الغربي، كما كان المثقفون يدرسون بها التاريخ والعلوم والطب والرياضيات . ويشرحون أرسطو وغيره من مفكري الإغريق " .

جوهرة فاس

هذا الازدهار العلمي الذي عرفته جامعة القرويين، وهذا التطور الذي أصبحت تعيشه كمركز إشعاع عالمي هو الذي جعل بعض المؤرخين يطلقون هذه المقولة الحافلة بالدلالات :" إن القرويين جوهرة مرصعة زانت جبين مدينة فاس ". فهذه المدينة باقتران اسمها بجامعتها أصبحت أوسع عمرانا من عواصم العالم الإسلامي الأخرى وأكثرها استقبالا للوافدين عليها من مختلف الجنسيات والأقطار. فغوستاف لوبون (Gustave Lebon) يكتب عنها:" إنها كانت تزاحم بغداد في القرن العاشر الميلادي، وأن عدد سكانها بلغ نصف مليون نسمة، وأن مساجدها تجاوزت 800 مسجد، وأن مكتباتها وخزائنها كانت حافلة بالمخطوطات اليونانية واللاتينية ". وقال دلفان"." إن خزانة (مكتبة) واحدة منها كانت تحتوي على ثلاثين ألف مجلد" .

وحتى تقوم بهذا الدور العلمي العالمي طيلة عهد ازدهارها امتدت حولها وعبر مدينة فاس كلها شبكة المدارس التي كانت مأوى للطلبة وحتى لبعض أساتذتها، ممن كانوا يفدون على الجامعة من الخارج في هجرة إلى العلم، فيستفيدون من السكنى بهذه المدارس ومن ريع أوقافها ما يعينهم على الدرس أو التدريس بالجامعة .

وقد انتشر نظام المدارس خارج فاس بجوار معاهد التعليم بالمغرب، وأصبحت

تؤدي نفس الدور الذي تؤديه اليوم الأحياء الجامعية . ومن جملة مدارس فاس مدرسة الصفارين، ومدرسة العطارين، ومدرسة أبي عنان المريني، أو (المدرسة البوعنانية)، ومدرسة الواد، ومدرسة الصهريج وغيرها .

وفي فترات ازدهار الجامعة التي امتدت عبر العصور التاريخية منذ عهد الأدارسة فالمرابطين فالموحدين، وخاصة في عهد المرينيين تطور المستوى الدراسي وتنوع وأصبح شعبتين : نظرية وتطبيقية . إننا نعتقد أن دراسات الشعبة النظرية الأولى كانت تجري برحاب المسجد الجامع، أما دراسات الشعبة التطبيقية فكانت تنعقد بهذه المدارس التي أصبحت تمثل ملحقات الجامعة. ولما كان الوافدون على القرويين من الأساتذة والطلبة غير المسلمين لا يملكون الحضور بحلقات المسجد الجامع فقد كانت أبواب هذه المدارس الملحقات مفتوحة في وجوههم، وكانت أنهار المعرفة متدفقة داخلها أمامهم، مما حفظ حرمة المسجد، ووفر في آن واحد للجامعة فرص القيام بدورها الفكري حيال غير المسلمين .

إن توزيع المهام على هذا الشكل داخل الجامعة بين القرويين العتيقة (المسجد الجامع) والقرويين المتطورة (الجامعة) هو الذي يعطي في نظرنا الجواب على تساؤلات بعض الباحثين عن ماهية أسلوب التعليم ولغته بهذه الجامعة في الفترة التي كان الطلاب والعلماء الأجانب يردون عليها . إننا نعتقد أن المدارس الملحقة كانت تلقن دراسات تطبيقية بالعربية وباللغات المتداولة بين العلماء، وخاصة منهم من كانوا يعنون بالدراسات اليونانية والرومانية . ولم يكن هذا ليمنع بعض الوافدين على الجامعة ممن كانوا يحسنون اللغة العربية من الدراسة بها بهذه اللغة . وقد أصبحت اللغة العربية فعلا لغة النخبة في أوساط المسلمين في الأندلس خاصة في القرن الخامس عشر الميلادي لدرجة أن الفارو (Alvaro) كاهن قرطبة أطلق آهاته متحسرا على ذلك في هذه الكلمات :" إن أهل ديني لا تلذ لهم إلا قراءة الشعر العربي ودراسة كتب التوحيد والفلسفة الإسلامية، ليتعلموا الأسلوب العربي الفصيح . وإن النابغين من الشباب المسيحي لا يعرفون إلا لغة العرب وآدابهم، فهم يدرسون باهتمام كبير كتبها، وينفقون في جمعها الأموال، ولا يخفون إعجابهم بالفكر العربي . فإذا تحدثت لهم عما في الكتب المسيحية أجابوك : ليس فيها ما يستحق الذكر. إنه لشيء مؤلم أن ينسى المسيحيون لغتهم . فلا تجد بين ألف منهم واحدا يتقن اللغة اللاتينية في حين أن من يتكلمون العربية الفصحى لا يُحصوْن عددا".

وكما تأثر المسيحيون باللغة العربية تأثر اليهود بها وكتب بها بعضهم، ونبغ

فيها من بينهم طلبة درسوا على علمائنا، ومنهم من امتلك ناصيتها وتألق فيها كموسى بن ميمون (Maimonide) الذي أقام بفاس مدة وألف باللغة العربية كتاب دليل الحائرين، وربط صلات فكرية مع علماء القرويين .

ومما توصل إليه بحث بعض المستشرقين أن كتاب سيبويه (الكتاب) المشهور في مادة النحو كان أساس تجديد النحو العبري بمدينة فاس خلال القرن الرابع الهجري أو العاشر الميلادي. وأن اللغة العبرية عرفت تطورا بمساهمة اليهود المستعربين . وقد ألف أبو الوليد مروان ابن جناح كتابا عن تأثر اللغة العبرية باللغة العربية نتيجة استعراب اليهود .

البابا سيلفستر في القرويين

وتضافرت رواية المؤرخين على أن جامعة القرويين قد احتضنت من بين الوافدين عليها غير المسلمين طالبا من أعلى درجات الكنيسة قدم عليها من قرطبة هو جيربيرت دورياك (Gerbert d'Auriac) (ولد بين سنتي 940 و 945 م) الذي ارتقى بعد أن درس بالقرويين إلى رتبة البابوية وحمل اسم البابا سيلفستر الثاني (Sylvestre II). ومن القرويين حمل معه الأرقام العربية وأدخلها لأول مرة لأوروبا فشاع بها استعمالها إلى اليوم، وماتزال تحمل لحد اليوم في اللغات الأوروبية اسم الأرقام العربية .

ويرجع فضل اختراع هذه الأرقام العربية إلى عالم من المغرب العربي هو تميم بن خريف الذي انطلق على ما يبدو من زوايا الشكل الهندسي المربع ليستنتج وجود الأرقام من تقسيم أضلاع المربع إلى وحدات، فتبين له أن الزاوية الواحدة تشكل رقم واحد (1) والزاويتين رقم اثنين (2) وهكذا إلى رقم تسعة . أما إذا كان الرقم خاليا من الزوايا فيصبح نقطة، أو دائرة مستديرة لا زاوية فيها، وأطلق عليه هذا العالم اسما عربيا هو الصفر الذي يحتضن معنى الخلو والفراغ .

وقد أدخلت الأرقام العربية إلى أوروبا عن طريق إسبانيا ومعها اسم الصفر الذي حرفته مرة إلى سفر (cifre) أو إلى شفر (chiffre) كما تغيرت الكلمة بقلب صادها زايا وحذفت منها الفاء فأصبحت زيرو (Zéro) التي تشير جميع المعاجم إلى أنها كلمة عربية . إن ذلك هو ما جعل البعض يقول عن العرب إنهم اكتشفوا قواعد الهندسة قبل اكتشاف الحساب .

إشعاع ممتد

عندما يتحدث الفرنسي عن عامل الزمن في صيرورة الأحداث وتطويرها وعما يتصل بذلك من ضرورة الالتزام بالتأني والصبر والمصابرة بالنفَس الطويل يعزز حديثه بالمثل الفرنسي السائر القائل :" إن باريس لم تخلق في يوم واحد ".

وكذلك لم تصبح جامعة القرويين لا في يوم واحد ولا في ظرف أيام أو سنين " الجوهرة المرصعة التي تزين جبين مدينة فاس " كما تقول المقولة العربية، وإنما كان وراء هذه المقولة جهود قرون تضافرت لتحويل جامع القرويين - الذي أسس مسجدا صغيرا في بداية عهد الأدارسة - إلى تلك الجامعة العتيدة التي حج إلى حلقات دروسها وا ستفاد من مناهجها ومختبرات علومها أساتذة وطلاب من كل حدب وصوب، مما جعل منها المنارة الفكرية العالمية المشعة بأنوار معارفها على مدينة فاس أولا، وعلى سائر أطراف المغرب ثانيا، وعلى ما حوله في جنبات الأندلس والقيروان وإفريقيا ثالثا، وعلى أوروبا رابعا، وعلى ما استيقظ من أنحاء العالم في عهد الظلمات على نداء العلم والمعرفة خامسا .

وقد تفاعل هذا الإشعاع الفكري العربي الإسلامي ونما وتصاعد مده الدافق بمساهمة جميع النظم السياسية التي حكمت المغرب في ظل عرشه الممتد من عهد الأدارسة إلى عهد دولة العلويين اليوم، مرورا بدول المرابطين، والموحدين، والمرينيين، والوطاسيين، والسعديين . إن جميع هذه الدول المتعاقبة على عرش المغرب راهنت على أن تقيم نظامها السياسي على سند جامعة القرويين بعلمائها وطلابها، وبما تحتضنه هذه الجامعة من قيم ومثل، وما رمزت إليه عبر السنين من حضارة مترسخة رفعت الحكم السياسي المغربي إلى درجات النظم السياسية العالمية المتألقة .

ولا عجب في ذلك إذا تذكرنا أن العلماء كانوا يؤلفون في المغرب الطبقة الأولى بإزاء طبقة الأشراف المنحدرين من الرسول عليه السلام إذا صح أن نصنف الشعب المغربي إلى طبقات، ولكن لا غنى لنا عن هذا التصنيف الموضوعي حين نذكر أن نظام بيعة الملوك بالمغرب كان يدمج هذين الصنفين من فصائل الشعب في طليعة من كانوا يؤلفون طرف البيعة التي كانت لازمة لشرعية النظام.

وتنافس الدول الحاكمة

ويشهد تطور القرويين التاريخي أن الدول الحاكمة سالفة الذكر تنافست جميعها وعلى التوالي إما في مد مبنى مسجد القرويين وتوسعة أرجائه، وإما في طبعه بطابعها الفني، أو في تطوير مناهج جامعة القرويين العلمية وتمكينها من اقتناء تجهيزات ومختبرات علمية وإقامة مراصد فلكية مما كان يؤلف تكنولوجيا ذلك العصر، أو في إحداث مدارس ملحقة بها للدراسات التطبيقية ولاستعمالها داخليات لإيواء الطلاب، مما ضاق به حي القرويين والأحياء المجاورة، وما جعل هذه المدارس تنشأ على طول مدينة فاس ممتدة على عُدْوتيها الشرقية والغربية.

وعندما نقف مبهورين في ساحات القرويين أمام إتقان الهندسة المعمارية وروعة الزخارف المطبوعة بطابع الفن الأصيل، فإن علينا أن نعلم أن جميع النظم السياسية التي تعاقبت على حكم المغرب بقيادة سلاطين المغرب وأباطرته قد تركت بصماتها - كلٌ فيما يخصه - على ذلك البنيان الشامخ الذي يؤلف ذخيرة ثمينة في تراث المغرب. وقد سلم هذا البنيان - بفضل العناية التي أحيط بها - من أن تمتد إليه يد العدوان، أو أن يجرفه الخراب، أو أن ينساب إليه التلاشي، وهو ما لم تسلم منه بكل أسف معالم عربية إسلامية في بعض جهات العالم الإسلامي حتى إننا لا نجد مثلا في عاصمة بغداد المرموقة في التاريخ المعالم الأثرية الشامخة التي اشتهرت في العهد العباسي.

وعلماء من كل صوب

وإذا كان المغرب قد أعطى في كل عهد للقرويين المادة البشرية الخام التي أمدتها بالطلاب والعلماء، فإن مستواها العلمي الجيد الذي عرفته في عهود ازدهارها وتألقها حدا بوفرة من العلماء والطلاب إلى الحج إليها من خارج المغرب لانتجاع المعرفة التي كانت توفرها لمختلف الرواد، خاصة وقد كانت تتوفر على المناخ العلمي الذي كان يُفتقَد في غيرها والذي يتطلع إليه في كل عصر ومكان العلماء والباحثون.

هكذا وفد عليها علماء من الأندلس والقيروان وافريقيا وحتى من اوروبا

فأفادوا و استفادوا، مما لقح الدراسات العربية الإسلامية التي كانت مزدهرة بها بثقافة عالمية كانت في واقع الأمر خميرة الحضارة الغربية التي عرفتها أوربا في عصر نهضتها .

عامل وحدة

و من أفضال جامعة القرويين على المغرب أن استمرار رسالتها الإشعاعية طيلة قرون كان وراء الوحدة التي ظلت طابع المغاربة الذين هم سنيون، أشعريو العقيدة، مالكيو المذهب، وَرْشِيون في قراءة القرآن، جُنَيْديون في نهجهم الصوفي . وذلك هو ماحمى المغرب من توزعه بين الأقليات الدينية والمذهبية، وصان نظامه من التعرض للهزات . ولا تزال هذه الوحدة - والحمد لله - نعمة المغاربة التي يتحتم عليهم شكرها لتدوم أفضالها ممتدة عليهم .

و إذا كان الموحدون قد استقروا بعاصمة مراكش وبنوا حول مسجدها مدارس وملحقات شبيهة بأخواتها الممتدة عبر مدينة فاس وجلبوا إلى بلاطهم فلاسفة مرموقين مثل ابن رشد وابن طفيل ممن لم يكونوا على خط علماء القرويين، وإذا كان عهدهم قد سعى إلى إحداث اتجاه ديني وعقدي جديد معارض للاتجاه الذي التزمت به جامعة القرويين، وأقصد نشر الموحدين لمذهب ابن حزم بدلا من مذهب مالك مما كان سيؤدي إلى الفرقة المذهبية، فإن العهد المريني الذي خَلَف دولة الموحدين بادر إلى تصحيح الوضع ورد للمذهب المالكي اعتباره، معززا بذلك منهاج جامعة القرويين التي ظلت تحمل راية المذهب المالكي الوحيد منذ أن أدخل إدريس الأول إلى المغرب كتاب الموطأ ونصر المرابطون المذهب المالكي وإلى اليوم .

وقد ترك المرينيون بصماتهم واضحة على مدينة فاس بتأسيسهم بها المدارس العلمية الملحقة التي كان أهمها مدرسة أبي عنان المريني المعروفة بالمدرسة البوعنانية. وفي عهدهم كذلك توالت وفادة مختلف العلماء من الأقطار الإسلامية على القرويين ورُتبت لأساتذتها أجور مضبوطة، ورُصدت لطلبتها منح، وأصبحت لها ميزانية تستخلصها من الأوقاف التي كان مصدرها العقارات أو الأراضي الزراعية، كما ارتبط اسم أبي عنان المريني باسم الخزانة (المكتبة) الكبرى التي أسسها لتكون مرجعا لدراسات القرويين .

تقلص

ويمكن القول إن أفول عهد المرينيين بقيام حكم عهد السعديين واستقرار هؤلاء بمدينة مراكش كانا بداية تقلص إشعاع القرويين حيث انكمش علماؤها على أنفسهم في حركة جزر ضعفت معها منهجية اعتماد المعقول إلى الاقتصار على المنقول، وشاعت لذلك ظاهرة الحفظ بين العلماء، ولكن مع ذلك ظلت جامعة القرويين تحتفظ بنفس الدراسات التي عرفتها على عهد بني مرين، وبنفس الكتب التي كان اعتمدها العلماء في هذا العهد، دون أن يضيفوا إليها جديدا يذكر .

وذلك ما جعل أحد الرحالة (علي بن ميمون) يكتب في القرن العاشر الهجري عن علماء القرويين في هذا العهد بعد أن درس بها : " ما رأيت في سائر المغرب لا في مدينة تلمسان، ولا في بجاية، أو تونس ولا بإقليم الشام بأسره، ولا في بلاد الحجاز ولا مصر - على ما تقرر عندي من العلم اليقين - ما رأيت من علماء فاس من حفظ ظاهر الشرع بالقول والفعل، وحفظ نصوص إمامهم مالك، وحفظ سائر العلوم الظاهرة من الفقه والحديث والتفسير والتوحيد وعلوم النحو والبيان والفرائض والتوقيت والتعديل ،والمنطق والطب، وسائر العلوم العقلية ". وأضاف يقول :" ولابد عندهم من حفظ نص كل علم وفن، ومن لم يستحضر النص لا يلتفت إليه ولا يعبأ به، ولا يحسبونه من طلبة العلم " .

وقد توارث علماء القرويين ظاهرة الحفظ هذه خاصة في عصور التأخر العلمي إلى درجة أننا أدركنا بعض الفقهاء يرددون ما سمعوه عن شيوخهم من أن " من لا يحفظ النص، فهو لص "، أي أن الاقتصار على الاستشهاد بكلام السابقين بدون النطق بلفظه حرفيا وعدم نسبته إلى صاحبه يعد اختلاسا، إذ قد يفهم أن الكلام المستدلّ به هو من إنشاء حاكيه، وهذه لصوصية، وقد يقع التصرف فيه وهذا اختلاس

ملوك المغرب والقرويين

إن نظم الحكم التي اتخذت مدينة فاس عاصمة لها قرنت بين رد الاعتبار للمدينة التي جعل منها مؤسس الدولة المغربية إدريس عاصمة البلاد وبين العناية بالقرويين وإصلاح مناهجها التعليمية . فعلى غرار المرينيين الذين رجعوا إلى الحقيقة

التاريخيه بإعادة العاصمة إلى مدينة فاس، وأدخلوا في ذات الوقت إصلاحات جوهرية على نظام القرويين حرصت الدولة العلوية بدورها على إبقاء العاصمة بفاس، واهتمت بإصلاح القرويين خاصة بمبادرات من كان ينتمي من ملوكها إلى أسرة العلماء وهم كثير .

لقد كان من بين هؤلاء الملوك العلماء طالب داخلي من الأسرة العلوية درس بجامعة القرويين ونزل بإحدى مدارسها الملحقة بها التي يقطنها عادة الطلبة الغرباء عن مدينة فاس، فتوطدت صلته بالعلماء والطلاب . ولم ينس ما شاهده من معاناة هذا الصنف من الطلاب لمواصلة الدرس والتحصيل، فاندفع وقد اعتلى عرش البلاد باسم السلطان مولاي رشيد إلى سن نظام عطلة ربيعية للطلاب للترويح والترفيه عنهم هي " نزهة سلطان الطلبة " الذي يبايعه طلاب القرويين سلطانا لهم لمدة أسبوع، ويعترف بنظامه وسلطته على الطلاب خلالها الملك الشرعي الذي يلبي له ما يتقدم به إليه من الطلبات . وتمر العطلة في شكل كرنفال بديع وفي مظهر موسم أدبي حافل بعطاء الشعر والأدب والنكت والمستملحات. كما بنى السلطان مولاي رشيد للطلبة مدرسة جديدة بفاس رمزا إلى صلته المتوطدة بالجامعة وبرفقائه الطلاب

وأكثرية السلاطين العلويين التفتت التفاتة خاصة إلى تجديد القرويين، فالسلطان محمد بن عبد الله اهتم بوضع منهجية دراسية لها في منشوره المعروف، والسلطان سليمان شجع تأليف الكتب واهتم خاصة بتوفير كتاب المعلم والأستاذ، والسلطان محمد بن عبد الرحمن وجه بعثة طلابية ذات مستوى علمي مرموق في جامعة القرويين إلى مصر للتعمق في دراسة الطب والفلك والجغرافيا . وعلى نهجه وجه السلطان الحسن الأول بعثات إلى مختلف الأقطار الأوروبية، والسلطان يوسف (والد محمد الخامس) أنشأ لها " المجلس التحسيني "، الذي جدد شبابها ونظمها على أسس عصرية وجعل منها مؤسسة تابعة للدولة، حيث أصبحت في البداية تابعة لوزارة المعارف التي كان يشرف عليها الفقيه الكاتب محمد الحجوي، ثم ألحقت بوزارة العدل التي كان يشرف عليها عالم سلفي أصيل هو الشيخ أبو شعيب الدكالي، وأسند السلطان رئاسة المجلس التحسيني الذي أصبح يحمل اسم المجلس العلمي إلى قيدوم العلماء أحمد ابن الخياط، ثم تلاه أحمد بن الجيلالي، فعبد الله الفضيلي، فمبارك العلوي، وكلهم من جهابذة العلماء المعروفين بطول الباع وصفاء السيرة وسمو الخلق، رحمهم الله .

وانتزع السلطان محمد بن يوسف (محمد الخامس فيما بعد) من الإقامة العامة

(في جملة ما انتزعه من إصلاحات) ما عُرف بنظام القرويين الجديد الذي تضمنه ظهير (مرسوم ملكي) 1931 والذي عَهِد إلى المجلس الأعلى للتعليم - بسن ضابط - حسب نص الظهير - يحدد للجامعة مناهج التعليم بطريقة عصرية .

ومن أجل ذلك حرص السلطان سيدي محمد بن يوسف على أن يرأس بنفسه امتحانات شهادة الإجازة بجامعة القرويين صيفَ سنة 1943 حيث كان فوج الطلبة الذي دخل الجامعة سنة 1931 في ظل ظهير الإصلاح المشار إليه قد بلغ سنة 1943 نهاية الدراسة في الجامعة التي حُددت لها فترة اثنتي عشرة سنة .

وكنت قد التحقت بهذا الفوج سنة 1937 قادما من مدرسة أستاذي محمد بن عبد الله التي كنت قطعت في أحضانها مرحلتي التعليم الابتدائي والطور الأول من الثانوي خلال أربع سنوات فقط . وعند ما أجرى عليّ المجلس العلمي بالقرويين اختبار التأهيل قرر أن ألتحق بالسنة الأخيرة من الطور الأول الثانوي بالقرويين، حيث تابعت دراستي إلى نهاية طور التعليم العالي الذي حُدِّدت فترته بثلاث سنوات تُتوِّج بمنح شهادة الإجازة في أحد التخصصات .

وكانت مشاركتي في امتحان الإجازة فرصة العمر، إذ تميزت سنة 1943 بحضور السلطان امتحاني الشفوي - بعد نجاحي في الكتابي - كما حضر في امتحان ثالث ألقيت أمامه فيه بمحضر لجنة الامتحان درسا جامعيا نجحت فيه بتفوق انضاف إلى تفوقي في الامتحانين الكتابي والشفوي، مما أهلني لأكون الفائز الأول في امتحان الإجازة الذي اكتسى شكل مباراة لم يتجاوز الناجحون فيها تسعة طلاب .

وتكريما لهذا التفوق أفردني جلالة السلطان بتكريم خاص فأمضى على شهادة إجازتي باسم " أمير المؤمنين محمد بن يوسف" بجانب إمضاء رئيس الجامعة وكتب فوق إمضائه :" سلمنا هذه الشهادة بيدنا الشريفة لصاحبها مجازاة له على اجتهاده واعتناء بالعلم الشريف "، وسلمني الشهادة بيده في حفل كبير لم تشهد الجامعة مثله، فلم يسبق لسلطان المغرب أن حضر الامتحانات بنفسه، ولا أن أمضى على شهادة طالب غيري، ولم تتكررهذه السابقة الفريدة من نوعها في تاريخ الجامعات بالمغرب حتى اليوم .

وكانت هذه المناسبة بداية اتصالي بالسلطان محمد بن يوسف رحمه الله وبابنه جلالة الحسن الثاني اتصالا توثقت روابطه ممتدة إلى اليوم على مدى حقبة ثمان وأربعين سنة .

تنظيمات دراسة القرويين

تميزت جامعاتنا الإسلامية - وفي طليعتها جامعات القرويين والزيتونة والأزهر - بتوفرها في عهد تألقها على تنظيمات مادية مكملة لروعة الصورة العلمية الزاهية التي كانت تقدمها عن هذه الجامعات مناهجها العلمية ودراساتها الجيدة وبحوثها المتميزة بامتلاك مشارب المعرفة التي عرفتها عهود النهضة العربية الإسلامية.

ومن هذه التنظيمات استقلال الجامعة بميزانيتها وإدارتها ومجالسها عن الدولة، ونظام الجامعة المفتوحة، ونظام حلقات الدروس، وانتصاب الأساتذة للتدريس فوق الكراسي، ونظام الإجازة العلمية، واللباس الجامعي الموحد الذي يرتديه العلماء المحاضرون، وحمل الطلبة للبود (سجادات، جمع لبدة على خلاف القياس) مختلفة الألوان للجلوس عليها داخل الجامعة، ولوضع كتبهم بها وتأبطهم لها عند حملها .

ومن هذه التنظيمات تقارب زي الطلاب (وإن لم يُوحَّد توحيدا كاملا على غرار لباس العلماء)، وقواعد الأدب المرعية التي يتقيد بها في التعامل الأساتذة والطلبة على السواء والعلاقة الحميمة بين الأستاذ وطلبته التي يتيح جو الدراسة المستمرة توطيدها بين الجانبين، والتي تضبطها مقتضيات الاحترام والتوقير للأساتذة من جانب الطلاب . ومن ذلك أيضا أخذ الأساتذة بأسلوب الإحماض أي الترفيه والترويح عن الطلاب عندما تطول حصة الدرس أو يحسون بملل مستمعيهم.وكان الأساتذة يرددون قبل الخوض في الإحماض مقولة " إذا مللتم فأحمضوا " ثم يتبعونها بالتلويح المحتشم إلى نكتة أو مستملحة تطبعهما البراءة ولا تتنافيان مع قواعد الآداب العامة.

نظام الحلقات و الكراسي

و في العهد القديم كان طلبة الجامعة ينتظمون صفوفا متراصة في شكل حلقة دائرية حول الأستاذ صامتين كأن على رؤوسهم الطير مقتعدين الأرض فوق لبودهم، أو فارشينها فوق الحصر و الزرابي. و كان صعود الأستاذ على الكرسي واقتعاده أعلى درجاته ييسران لمن لا يقتعدون الصفوف الأولى من الطلبة داخل الحلقات أن

يستمعوا إلى صوت الأستاذ الجهوري الذي تمرنه ممارسة مهنته على أن يظل مسموعا حتى عندما تتقدم بالأستاذ السن إلا نادرا.

و لما كانت جامعة القرويين تقع في مبنى فسيح الأرجاء، فإن هذا المبنى كان يتسع لعشرات الكراسي التي تعمل في الحصة الواحدة. و كان لكل استاذ كرسيه المخصص له المستقر في جهة معينة من المبنى لا يستعمله أستاذ آخر، و لكن عندما تضيق الكراسي بوفرة العلماء يصبح الكرسي الواحد مشتركا بين عدد من الزملاء يتناوبون عليه حصة تلو أخرى في تنسيق منضبط.

و قد كانت جامعة القرويين تتسع لأكثر من مائة كرسي تظل تعمل طول النهار من طلوع الفجر إلى صلاة العشاء.

و كان انتصاب الأستاذ على الكرسي يضفي عليه هالة الإكبار و يغذي في نفوس طلبته التطلع المشروع لتحقيق طموح اقتعاد ذلك الكرسي، و مواصلة الجهد لاكتمال التخصص حتى يجيزهم أساتذتهم و يصبحوا مؤهلين لشغل الكراسي العلمية.

الطالب السارد

و يدخل في نظام الحلقات و الكراسي اختيار الأستاذ أنجب طلبته لتولي مهمة السارد، هذا الذي يساعد الأستاذ بسرده أي تلاوته جهرا للنص المدروس قبل أن يشرع الأستاذ في تقديم درسه أو محاضرته، و هو إعلان عن موضوع الدرس يقوم به الطالب السارد بتلاوة الآية القرآنية المراد تفسيرها، أو نص الحديث النبوي الذي يقوم الأستاذ بشرحه بعد أن يكون السارد قد قرأ سنده و متنه، أو سرد نص الموضوع كما جاء في الكتاب المعتمد للدرس الذي يتوفر كل طالب على نسخة منه أو يشترك أكثر من طالب في النسخة الواحدة منه.

و اختيار الأستاذ سارده يعني تزكيته للطالب المختار ليقوم بدور الملقن عندما يسهو الأستاذ عن استحضار نص من النصوص، أو حين ينفرط من ذاكرته خيط الحديث، فيساعده السارد للعودة إلى الموضوع أو لتذكيره بالنص الذي يفتقده، حتى تظل محاضرة الأستاذ موصولة الحلقات، لا يشينها التعثر الذي يعتري الأستاذ أحيانا، و الكمال لله. ولم يكن واردا و لا مقبولا أن يتحدث الأستاذ لطلبته و هو يقرأ في كتاب، و إنما كان الأستاذ الجيد المحترم هو ذلك الذي يستطيع أن يملي عن

ظهر قلب ما وسعه الإملاء، وأن تتدفق معارفه منصبة على من حوله في شكل شلال منهمر. و مازال علماؤنا و فقهاؤنا يرددون قول الشاعر القديم :

ليس بعلم ما يعي القِمَطْرُ ما العلم إلا ما وعاه الصدر

ديمقراطية التعليم

كان التعليم في الجامعات الإسلامية ديمقراطيا لا أرستقراطيا، كان مجانيا لا يؤدي عنه الطلبة ما يعرف اليوم في بعض جهات العالم بالرسوم الجامعية. أليس أن طلب العلم في الإسلام فريضة على كل مسلم و مسلمة ؟ و بالتالي فإن توفير طلبه من لدن الجميع فريضة على العلماء لا يجوز أن تقوم على طريق أدائها لعامة الناس حواجز أو حدود.

و من أجل تقريب العلم من المتعلمين - و هذه ميزة أخرى لجامعاتنا - خصصت كراسي للوعظ و الإرشاد و التعليم الأساسي، و حددت لدروس هذا النوع من التعليم مواعيد تختلف بين فترة القيلولة بين الظهر و العصر، و بين العشاءين، أو إثر صلاة الفجر، بل أفردت لها أحيانا مساجد خاصة، حتى لقد كانت دائما في مدينة فاس - مثلا - مساجد غير القرويين (كمسجد الرصيف، و مسجد الأندلس) ذات كراسي تلقن الجماهير مبادئ الدين و اللغة العربية بما يتجاوز معه روادها مستوى الأمية، و حتى بما يصبحون به أحيانا ملمين ببعض جوانب المعرفة و التحدث عنها حديث العارف و إن كانوا لا يكتبون و لا يقرأون.

و في الفترة التي أتحدث عنها كنا نشاهد تسابق جماعات أمية من عامة الشعب للتحليق حول كراسي القرويين و مساجد فاس الأخرى، و كنا نستمع إليهم و هم يفتون في بعض شؤون الدين، و يستدلون بالآيات و الأحاديث التي بنوا عليها فتواهم، و كانوا في غالبهم من جماعات التجار و الصناع الذين يشتغلون في دكاكين و مصانع قريبة من المساجد التي كانت توجد بها كراسي للعلماء فيوقفون فترة من الزمن أعمالهم اليومية ليغشوا دروس العلماء و الفقهاء و يتعلموا منهم ما وسعهم الوقت، بل إنهم كانوا يتحدثون إلينا نحن طلبة القرويين عن معلومات و حقائق في الدين و في مختلف ضروب المعرفة مما كنا نبقى معه مبهورين.

و لقد أدركت واحدا من هؤلاء الأميين المتعلمين كان يفخر بأن «لديه من الجهل المفيد » ما يحير به العلماء المتضلعين في العلم.

و لعل ذلك هو ما كان يحدو ببعض أساتذتنا في جامعة القرويين إلى ترديد هذه المقولة عن أعمدة بناية جامعة القرويين و جدرانها التي شهدت الكراسي العلمية طيلة ما ينيف على أحد عشر قرنا :

«لو أن هذه السواري (جمع سارية بمعنى العمود) و الحيطان نطقت بما سمعته من أفواه العلماء لتدفقت علما لا يحصى كما و كيفا».

و هذا ما جعل أيضا بعض أساتذة القرويين ينددون بالمتراخين أو الأغبياء من طلبتهم بترديد مقولة أخرى :

« إن هذه السواري و الحيطان تعرف من العلم ما يجهله هذا الطالب الكسول أو البليد» .

الحوار والنقاش

كان العلماء يتعاملون مع طلابهم بروح الأبوة الغامرة بالعطف. لذلك كانوا يرتاحون إلى النجباء منهم، فمع هؤلاء كانوا يطبقون المنهجية العلمية القائمة على الحوار و النقاش و التي ظلت إحدى ميزات جامعاتنا العلمية.

و كان الحوار يجري بين الطرفين بطريقة الأسئلة و الأجوبة التي يكون فيها كل طرف مرة سائلا و أخرى مجيبا. و كان يقتضي من الأستاذ التعمق في البحث سلفا لامتلاك ناصية الدرس و التحكم فيه وتوقع الأسئلة التي يمكن طرحها و إعداد الأجوبة الشافية للغليل عليها، كما كان يقتضي من الطالب جهدا علميا لا يقل معاناة عن جهد الأساتذة، ببحثهم سلفا موضوع الدرس عن طريق العودة إلى مصادر الكتاب المعتمد لسبر غور الموضوع من مختلف جوانبه.

وكان الحوار على هذه الصورة يتيح أيضا للأساتذة سبل التعرف على مستوى طلابهم العلمي و تقييم قدراتهم الفكرية.

الإجـــازة

إن نظام الإجازة واحد من تنظيمات الجامعات الإسلامية، كان العلماء بمقتضاه يجيزون لمن نبغ من طلابهم في الدرس و التحصيل أن ينتصب عالما مدرسا بإمضائهم على إجازة (أي شهادة) ترخص لمن نالها أن يمارس مهمة التدريس.

و في البداية كان علماء الحديث أول من استعملوا لفظ الإجازة للإذن بالرواية عنهم بالسند المتصل لمن سمع عنهم الحديث، لكنها تطورت إلى الشهادة العلمية التي تتوج دراسات الطلاب و ترقى بهم إلى مصاف العلماء أو الشيوخ، شيوخ العلم لا شيوخ السن.

و لم يكن العالم يجيز طالبه بسهولة، إذ لم يكن لطلب العلم حد يقف عنده طالبه، و هذا ما جعل الحصول على الإجازة في العهود القديمة من نوع اجتياز الصراط، دونه اليوم اجتياز الامتحانات التي يظفر الطلاب بالشهادات بعد النجاح فيها و هو ما يخضع لمقاييس موضوعية، و في غالب الأحيان لا يعرف الأساتذة الطالب الممتحَن.

و لقد كان من يأنسون فيهم الأهلية يحجون إلى كبار العلماء المرموقين في العواصم العلمية من مختلف أصقاع الدنيا لملازمة حلقات دروسهم رغبة في نيل إجازاتهم التي كانت تعطي من نالوها درجات علمية معترفا بها. و كما تجتاز اليوم الامتحانات بدرجات متفاوتة بين حسن جدا، و مستحسن، و متوسط، و مقبول. كان الأستاذ المجيز يزن تقييمه للمجاز بميزان دقيق تضبط فيه كلمات الشهادة بما يوضح مستوى الطالب المجاز.

و من الإجازات ما كان يعطيه العلماء لأعلام مرموقة في مجال الحكم و السياسة، بما يشبه النظام المتبع في الدكتوراه الفخرية. و قد ظلت جامعة القرويين تعمل في ظل نظام الإجازة الفردية على الطريقة التي أومأنا إليها إلى أن نظمها الإصلاح الذي أدخل فيها نظام الامتحانات في بدء الثلاثينات من هذا القرن.

الزي الجامعي

كان العلماء المخول لهم اقتعاد الكراسي العلمية يرتدون لباسا يتوحد فيه الشعار و الدثار في لون البياض. و قد اتخذ علماء القرويين لهم لباسا مكونا من قميص فضفاض تعلوه فرَجية، فوقها جلابية يغطي قبها عمامة بيضاء محكمة اللف. و يسدل العلماء على كل ذلك برنسا أبيض. أما كبار العلماء فيضيفون إلى ذلك كساء يشملون به جسمهم، و هذا الكساء لم يكن ضروريا إضافته عند الانتصاب على الكراسي. لكن لم يكن جائزا أن لا يرتديه العالم عندما يصعد المنبر يوم الجمعة و في عيدي الفطر و الأضحى للخطبة و الإمامة بالناس.

و كان لابد للسلطان أمير المؤمنين أن يرتدي هذا الزي كاملا أي بإضافة الكساء عندما يخرج بنفس المناسبة لرئاسة صلاة الجمعة و العيدين.

اقتباسات الغرب

لقد اقتبس الغرب من جامعاتنا الإسلامية منهجيتها العلمية و تنظيماتها المادية الشكلية و طبقها في مؤسساته و جامعاته العلمية عندما دخل عصر نهضته و خرج من عهد الظلمات إلى عصر الأنوار.

ولا غرابة في ذلك لأنه عندما انفتح على المعرفة وجد أمامه في الأقطار العربية الإسلامية تجربة علمية جاهزة أعطت ثمارها.

وكما ننبهر اليوم في العالم المتخلف بتجارب الغرب و مناهجه و مكتسباته العلمية انبهر الغرب بما لدى العرب و المسلمين.

و كما لا نتردد اليوم في نقل تيكنولوجيا الغرب باعتبارها النموذج الأمثل لم يتردد الغرب هو أيضا في نقل تيكنولوجيا المسلمين، حتى لا يضيع وقته في ابتداع تجارب عديمة الجدوى و الفائدة، تماما كما يقول المصرون على اقتباس كل ما لدى الغرب لأن ما عداه في نظرهم عديم الجدوى و الفائدة.

إن كلمة كوليج التي تطلق على المعاهد الكبرى أو المدارس النظامية الملحقة بالجامعات لا تختلف عن كلمة الكلية التي كانت تعني عند العرب فرعا من فروع الجامعة. و كان الكوليج عند الغرب مدرسة للدرس و لإيواء الأساتذة و الطلاب، و هو اقتباس من تنظيم المدارس الملحقة بجامعاتنا.

و إن كلمة أستاذ كرسي، الدالة في اللغات الأوربية على رتبة عليا يرقى اليها مدرس من مدرسي الجامعة، تشير إلى الكرسي العلمي المعروف في جامعاتنا.و إن الزي الفضفاض الملون الذي يرتديه أساتذة الجامعات و الأكاديميات الأوربية مقتبس لا محالة من زي علمائنا الذي سبق إلى الوجود الأزياء العلمية الغربية.

و قد سبقت جامعاتنا الإسلامية جامعات أوربا إلى نظام الإجازة، وكانت جامعاتنا مفتوحة للواردين عليها من كل جنسية و دين قبل أن يعرف الغرب نظام الجامعة المفتوحة.

دور الجامعة الإسلامية

أضفى تألق الجامعات الإسلامية على العلماء العاملين بها هالة من الإكـــبار و الشغوف خلقت منهم فصيلة متميزة بين فصائل الشعب، و أهلتهم لممارسة دور سياسي خطير داخل المجتمعات الإسلامية، حيث برزوا كأمناء على ضمائر شعوبـــهم و كمنارات مرشدة و قائدة، لكنهم في عصر تدهور الجامعة الإسلامية انحدروا عن مستواهم هذا بعد أن أخذت الآليات التي كانوا يتحركون في نطاقها تأخذ طريقها إلى الانقراض مما أدى إلى تهميش دورهم.

قلعة صامدة

ظلت جامعة القرويين مبعث فخر المغاربة حكومة و شعبا. و على امتداد أحد عشر قرنا استقطبت الحركة الفكرية حيث كانت منارة الإشعاع الفريدة و محج طلاب المعرفة من سائر أرجاء المغرب.

و لم يكن ينبغ فكر من المغرب إلا إذا استقى من ينابيعها، أو تتألق شخصية علمية دون أن تدرس بها كلا أو جزءا، و لم يكن يتصدى - إلا في النادر - للتدريس بالمغرب من لم ينل الإجازة من علمائها.

و الحق أن مدينة فاس اكتسبت بين عواصم المغرب مكانتها التاريخية بفضل احتضانها جامعة القرويين، بل ربما كان حرص الدول التي حكمت المغرب على جعل مدينة فاس عاصمة نابعاً من وجود القرويين بها حتى يتفيأ الحكم ظلال العلـــــم، و حتى يكون أقرب إلى مركز نفوذ علماء القرويين الذين كانوا يتمتعون بمصداقية شعبية كان السلاطين يخطبون سندها.

و قد وقفت جامعة القرويين - إلى حين بسط الحماية الفرنسية على المغرب - قلعة صامدة في وجه الغزو الفكري الأجنبي الذي استهدف المغرب ضمن ما استهدفه عالم العروبة و الإسلام، فحمت القيم الإسلامية مضمونا و وعاء، و نعني بالوعاء اللغة العربية التي هي لغة الحضارة الإسلامية لا لغة العرب وحدهم. و أنسأ صمودها

هذا في أجل تدهورها فكسبت في هذه المواجهة رهان الغلبة، إذ ظل المغرب و إلى اليوم البلد العربي المسلم الموحد حول العقيدة الإسلامية بفضل جامعته العتيدة.

و كانت ميزة مدينة فاس الكبرى احتضانها لجامعة القرويين، فقد أصبحت بذلك مركز ازدهار الحركة الفكرية، بينما لم تحظ إلا بازدهار مادي محدود الأثر،إذ لم تعتبر لا اليوم و لا الأمس مدينة صناعية أوتجارية بقدرما كانت بدون منازع عاصمة المغرب الفكرية.

و عندما دخلت جامعة القرويين في عهد التأخر الفكري تأثر اقتصاد مدينة فاس تبعا لذلك، فهوت المدينة شيئا فشيئا في أزمات مادية توالى إيقاعها سريعا بالخصوص عندما بسطت الحماية الفرنسية نفوذها على المغرب، و تفاحش بالأخص بعد أن نقل الفرنسيون العاصمة للرباط لترسيخ القطيعة بين ماضي المغرب و حاضره.

في مواجهة الحماية الفرنسية

و بخضوع المغرب للنفوذ الفرنسي دخلت الحماية الفرنسية مع جامعة القرويين في مواجهة استهدفت من طرف الحماية شل تأثير الجامعة الفكري والإجهاز عليها. فقد ربط الاستعمار مصير استمرار نفوذه بمصير القضاء على القرويين التي كان يسميها بؤرة الفتنة.

و صمدت الجامعة المغربية العتيدة في هذه المواجهة غير المتكافئة، فمنها انطلقت حركة المقاومة الوطنية، و في أبهائها جلجل سنة 1930 صوت «اللطيف » المنـــذر، و منها خرجت أفواج المتظاهرين للاحتجاج في الشوارع تحت قيادة علماء شباب القرويين، وظلت ترفد مواكب الانتصار الوطني على الاستعمار بالمزيد من الضحايا، و تنغص الحياة على دهاقنة الحماية الذي باءوا بالخيبة فيما خططوه لها من مكر وبيل.

لكن الاستعمار حقق بعض الإصابات عندما استمال إليه بعض العلماء منذ بداية عهد التنظيم الذي عرفته الجامعة في نفس السنة التي انطلقت منها الثورة الوطنية، فأصبح من بينهم من قبعوا في زوايا الجامعة قانعين بتقاضي رواتبهم الشهرية، مشرئبي الأعناق للترقي في سلم الدرجات الوظيفية،مما جعل شاعرا وطنيا يقول عن هذا الرهط من الموالين لأرباب النعمة الجديدة:

و كنت أرى تحت العمائم حاجـــة فما هي إلا أن يـدوم المرتـــب

رجال الدين و علماء الدين

و بذلك أخذ العلماء التقليديون يتزحزحون عن مراكز نفوذهم، إلى أن هيأ بعض منهم الضربة القاضية على مؤسسة العلماء ككل، و ذلك عندما ضغطت الحماية الفرنسية على هيأة علماء القرويين الرسمية لتنسلخ عن بيعة الملك الشرعي محمد الخامس الذي أبعده الاستعمار إلى منفاه السحيق، و لتبايع دمية لا حراك بها وضعتها الحماية على عرش المغرب باسم السلطان ابن عرفة، الذي لم يكن يوجد بالمغرب من عرفه، قبل تسخيره لأداء دوره في المهزلة المأساة التي عاشها المغرب في ملحمته البطولية سنة 1953.

و هكذا فقدت هيأة العلماء في المغرب مصداقيتها و بالتالي شرعيتها ومشروعيتها، بعد أن تنكرت للشرعية الوطنية المتمثلة في شخص الملك الشرعي.

إن المغرب الشعب و ليس الحكم هو الذي زحزح العلماء عن مراكز نفوذهم السياسي، و على عكس تونس التي زحزحت علماءها عن مراكز نفوذهم تونس الحكم، و ليست تونس الشعب. و هكذا لم يعد في المغرب رجال دين طبقا لتعاليم الإسلام الذي لا يقر مبدأ وجودهم، فليس في الإسلام مثلما هو في المسيحية سلطة كهنوت، و إنما ركز جلالة الحسن الثاني سلطة علماء الدين في بداية عهده عندما نظمهم بتوجيهه و إشرافه في سلك «المجالس العلمية» التي وزعت على الأقاليم المغربية و حددت لها اختصاصاتها التي استبعدت منها ممارسة أي دور سياسي، كما أعاد جلالته الكراسي العلمية الشعبية في مساجد المدن و القرى لتقوم بدور التربية المفتوحة ربطا للحاضر بالماضي، ولإعادة المسجد إلى دوره المتمثل في كونه عبر التاريخ الإسلامي مدرسة للتربية بجانب كونه مركزا للعبادة.

مرحلة جامعة القرويين

يمر كل إنسان في مسيرة حياته بمراحل يشكل بعضها نقلة نوعية توجه خطاه و تؤثر على مواقفه و سلوكه و اختياراته. و قد كانت مرحلة دراستي بجامعة القرويين نقلة من هذا النوع.

و لقد عمقت هذه النقلة جذورها في نفسي بالرغم من أنها انصهرت فيما بعد في غمار نقلات أخرى، ربما لأنها كانت أولى مراحل المسيرة، و خاصة لأنها تمت في فترة بداية عهد الشباب التي تطبع عادة الإنسان، هذا الذي يشيب على ماشب عليه.

و الآن و أنا أرجع الذاكرة إلى الماضي لأكتشف حقيقة هذه النقلة تبرز أمامي صورة ذات وجهين : أولهما لا يقدم من الصورة إلا ملامح أختها التي صاحبتني خلال دراستي في مدرسة معلمي الكبير محمد بن عبد الله عليه الرحمة. فمواد الدراسة لم تكن تختلف بالقرويين عن تلك التي ثقفت الكثير منها في المـــــدرسة، و لكن أضيفت إليها مواد دراسية لم يكن لدي تصور واضح عنها. كما أن المنهج التربوي الذي تعتمده الجامعة كان يعكس بصورة أجلى و أعمق التربية الأساسية نفسها التي كنت تلقيتها في العقد الأول من حياتي في أحضان البيت والأســـــرة و المدرسة، و بذلك لم يدخر لي هذا الوجه المتميز من الصورة أية مفاجأة.

أما الوجه الثاني فكان تحولا كاد يشكل قطيعة بين حياتي بالقرويين وحياتي بالمدرسة لاختلاف نظام القرويين مع نظام المدرسة . ففي هذه كنت تلميذا خاضعا لقواعد منتظمة تحت مراقبة معلمين صارمين يساعدونني و يوجهونني، و أصبحت فجأة أحس بأن القرويين تطوقني بأعباء استقلال الذات، أي أنها تشدني إلى مسؤولية قيادة النفس و الاعتماد عليها و ما أصعبها مسؤولية!

نظام التعليم

كانت جامعة القرويين تحتضن طلبة روادا للمعرفة من جميع مستويات التعليم بدءا من التعليم الابتدائي، ومرورا بالطور الثانوي فالعالي المتوج بنيل الإجازة في إحدى شعبها التخصصية، و كانوا يوجدون في وضعية «التلميذ الطالب » التي لا يمكن فهمها أو تصورها من لدن أطر التعليم لا أساتذة و لا طلابا في عصرنا هذا الذي انضبط فيه التعليم و توزع عبر المدارس والمعاهد الثانوية والعليا، والكليـــات و المؤسسات التربوية المتخصصة، وحُددت أطواره و مراحله، و ضُبطت سن الدارسين في كل طور منها.

و لقد كان مقبولا - و ليس هذا نكتة - أن يكون الأب مسجلا في الثانوي مثلا بينما ابنه قد تسلق درجات السلم إلى التعليم العالي (أو النهائي) للحصول على الإجازة. و لم يكن النظام يقضي بمراقبة حضور «التلاميذ الطلاب » في الحصص

الدراسية . و حتى عندما أحدثت هذه الرقابة ضمن إصلاح نظام التعليم لم تكن تطبق بصرامة، كما لم يكن الأستاذ خاضعا لهذه المراقبة بدوره، و إنما كانت توكل إلى الضمير المهني وحده سلطة الرقابة الذاتية. و هو نظام يبدو لنا اليوم غريبا و لكنه كان يؤتي أكله طالما أن الضمير المهني كان أقوى سلطة على النفوس من المراقبة المقننة التي تطبق اليوم.

و كانت صلة الأستاذ بالتلميذ الطالب تنحصر في امتحانات اخر السنة التي يضمن النجاح فيها حق الانتقال إلى مرحلة السنة الموالية، و عبر ملاحظات يضعها الأستاذ على دفتر التلميذ الطالب ليسلمها هذا بنفسه إلى مجلس الجامعة.

الكتب القديمة

هكذا وجدتني أتحول من تلميذ إلى طالب،و أمارس فجأة مرحلة استقلال ذاتي لا أعتمد فيها إلا على النفس. و كان علي أن أنتقي الكتب المرجعية المتخصصة في مواد الدراسة من بين المصادر التي تعترف سلطة العلماء بحجيتها، وأن أنقطع إليها ساعات لأسبر أغوار هذه الكتب الصفراء (هكذا كان اسمها لأنها كانت مطبوعة على ورق أصفر) وأفك رموزها المستعصية، وأسرارها الخفية، مستخرجا منها ما يتصل بموضوع الدرس. و بعد ذلك كان علي أن أحضر الدرس لأستمع لمحاضرة الأستاذ التي كان إعدادي لها سلفا ييسر لي سبيل متابعتها و فهم ما يستعصي فهمه منها. و كان علي في نهاية اليوم أن أعود إلى الكتاب المدروس و كتب المصادر لمراجعة ما لُقنته طول اليوم بالتنقيح و التصحيح، و بالجمع بين النظائر و الأشباه، و التوفيق بين ما يبدو مختلفا أو متعارضا، لأخلص بعد هذه العملية المضنية إلى محتوى الدرس في تحصيل و تأصيل.

و مع المراس سهل تعاملي مع هذه الكتب و أخذت أقتطف ثمارها. و إذا كنا ننتقدها اليوم، و نحكم عليها باستنفاد أغراضها في عصرنا المتميز بالدراسات المنظمة الخاضعة لأساليب التلقين الحديثة المختصرة للوقت و الميسرة للصعب، فإننا - نحن الذين مارسنا عناءها - لا نتمالك عن اليقين بأنها كانت الوسيلة التي تتيح للقادرين على تحمل معاناة امتلاك مشارب المعرفة التي كانت توفرها، وأن اجتياز صراطها العسير كان يضمن لمن أحاط بعلمها أن يصبح متمكنا لا يشق له غبار و لا تسجل عليه عثرة فيما تقدمه من دراسات و بحوث.

إن لهذه الكتب فضلا لا ينكر على امتداد تراثنا الفكري العربي الإسلامي إلى يومنا. و لقد أدت دورا خطيرا في نشر اللغة العربية و الثقافة الإسلامية عبرالعالم، و امتزج عطاؤها بفضل مساهمة مزدوجة من علماء عرب، وآخرين عجم، و جميعهم مسلمون. و لم يكن بد لمن كان يرغب في امتلاك ناصية الثقافة العربية الإسلامية من الرجوع إليها و الغرف من ينابيعها الفياضة.

و إني لعلى يقين أن من يدرس في هذه المصادر علوم اللغة العربية (على سبيل المثال) يعصم نفسه من أن يسجل عليه خطأ لغوي أو لحن نحوي في العربية من أي نوع أو حجم، و بالأحرى أن يصدر عنه ما شاع سماعه في عصرنا من زلات لغوية، و فضائح نحوية ما أكثر ما تظل تطارد آذاننا و تفتك فتكا لا يعطف ولا يرحم بلغة الضاد المسكينة مما ينجرح معه السمع وينفطر له القلب .

والمؤلم أن هذه الأخطاء الفظيعة لا يرتكبها في العالم العربي في المشرق والمغرب الأميون أو أشباههم، ولكن نسمعها في الندوات العلمية وتشيع في استعمال وسائل الإعلام المكتوب والمرئي والمسموع، وينطق بها كبار الساسة في أحاديثهم وخطبهم، وسائر من درسوا اللغة العربية دراسة سطحية على معلمين وأساتذة لا يمتلكونها كتابة وقراءة، لأنهم درسوها ضمن منهاجية قاصرة عن تمكينهم من معرفة اللغة العربية الحق .

والأخطر من ذلك أن المثقفين بالفرنسية أو الأنجليزية مثلا يعيبون على أنصار اللغة العربية تعصبهم لقواعد النحو واللغة، ولا يقبلون أن تُخدَش آذانُهم بتحريف بسيط أو نطق غير سليم للغاتهم المفضلة . ولو أن إذاعة أو تلفازاً ما ارتكبا في اللغات الأجنبية مثل ما يُجنى به على اللغة العربية لثارت ثائرتهم ولما استمر التحريف بوجه أو بآخر، لأن ارتكاب منكر اللغات غير العربية إثم مرفوض ولا يصح، ومنكر العربية مستساغ وارتكابه لا إثم فيه .

ومن بين هذه الكتب ما يدعى بكتب المتون التي يغلب عليها أسلوب نظم القواعد العلمية في رَجَز خفيف . وقد وجد ناظمو جميع القواعد العلمية في اللغة العربية مطواعية وسلاسة تمكنان من احتواء تلك القواعد شعرا يسهل حفظه . وتتحدى اللغة العربية بذلك جميع اللغات العاجزة عن أداء هذا الدور . وأيتها تملك أن تنظم قواعد التوحيد والفقه والحديث والنحو والصرف والحساب والهندسة و المنطق ومبادئ سائر العلوم النقلية والعقلية، مثلما فعلت اللغة العربية ؟

وهذه الطريقة عملية ذكية اهتدى إليها الفكر العربي الإسلامي لتقريب المعرفة

من الدارسين وتسهيل السبل لاستيعابهم قواعد العلوم بحفظها منظومة في يسر . وقد لامست هذه التجربة خلال دراستي بالمدرسة والقرويين، واستفدت منها ضمن المنهاجية العلمية التي تميز هذا النوع من الدراسات الإسلامية .

وإنصافا لجهود من سبقونا علينا أن نسجل بفخر وإكبار ما قدمته عقول مؤلفي تلك الكتب من عطاء فكرى كان - لا محالة - خلاصة ما انتهى إليه العلم في عهدهم، مما جعل هذه الكتب الأمهات لا تفقد قيمتها العلمية إلى يومنا هذا كمراجع لنوع من المعرفة والعلم ازدهر في عصورنا الزاهية . ولا يضير هذه الكتب أن ينزل بها التطور العلمي العصري عن مكانتها السابقة، فهذا التطور الجارف عفى على منهاجيات سابقة حتى عند الغرب نفسه، وسيعفي لا محالة حتى على ما نعتبره اليوم مراجع علمية ثابتة، في مسلسل التقدم البشري المذهل الذي أصبح يغزو المجتمعات بمعطيات علمية جديدة ويكيفها ويحولها بسرعة البرق تبعا لذلك .

أعلام في القرويين

في أبهاء جامعة القرويين قضيت فترة ما بين أفول نجم الصبا وبزوغ فجر الشباب منقطعا إلى دراساتها التي كانت تشرف عليها نخبة من الأساتذة المرموقين، كانوا يتميزون في غالبيتهم بطول الباع وامتلاك ناصية المواد الدراسية التي كانوا يعدونها سلفا إعدادا جيدا .

وكان سكان مدينة فاس يفخرون بأن تحتضن جامعة القرويين هؤلاء الأعلام الفطاحل المشهورين بتفقههم في الدين وبتضلعهم في العلم، المنظور إليهم بعين الاحترام والإجلال، المقتدَى بسيرتهم الصالحة وأخلاقهم الفاضلة في كل ما تأتي فيه المدينة وتذر من شؤون الدين والدنيا .

ولقد كان مستحيلا على هؤلاء الأعلام أن يخترق أحدهم المدينة دون أن يتوقف العشرات من المرات عند من يقبلون يده تبركا، أو من يتقدمون للسلام عليه " لسؤال الخاطر "أو لاستفتائه في نازلة، أو لتقديم ولد صغير لالتماس الدعاء له أن ينشئه الله تنشئة صالحة وينبته نباتا حسنا .

ومن هؤلاء العلماء الأعلام من كانت تسمح له ظروفه المادية باقتناء بغلة مطهمة يركبها داخل المدينة - كما يركب اليوم الموسرون متون السيارات الفارهة - فيقف العاملون في الدكاكين له إجلالا، ويسلم عليه المارة تقديرا وإكبارا، ويرد هو

بدوره على التحية بأحسن منها إن لم يبادر بها . لقد كان العلماء يؤدون - كما نقول اليوم - ضريبة الشهرة ولكن بارتياح بالغ . فالعالم الحقيقي - في الفترة التي نتحدث عنها - كان مطوقا برسالة التربية والتثقيف يبثها للناس في كل زمان ومكان، ولا يعفيه من أدائها تعلل أو تملص . وكان أكثر العلماء يؤدي هذه الرسالة عن طيب خاطر، ويجود بعطائه على من حوله وعلى من يلقاهم ومن يفدون على بيته ومجالسه في احتساب ودون منّ أو استعلاء .

فوج الإصلاح

وكنت أنتمي - كطالب بجامعة القرويين - إلى ماكان يعرف بفوج الإصلاح أي التنظيم الذي أقره للجامعة السلطان سيدي محمد ابن يوسف في بداية سنة 1931 وبمقتضاه انضافت إلى برامج الجامعة مواد دراسية عصرية لم تكن ضمن مناهجها في عصر التدهور العلمي الذي تردت فيه عندما اختصرت دراستها في العلوم الدينية، واكتفى علماؤها بحفظ العلوم النقلية (في مقابل العلوم العقلية) وتحفيظها . وكنا نفاجأ في مطلع كل سنة بتحسينات جديدة في المناهج والبرامج وبتقنينات ضابطة للامتحانات ونيل الشهادات، وبتغييرات للأساتذة تهدف لوضع المدرس الصالح في المكان الصالح، ولإسناد تدريس المواد الجديدة إلى من تُتَلَمّس فيه القدرة على ممارسته .

وكان السلطان سيدي محمد بن يوسف يرعى الجامعة بعناية خاصة، ويستدعي دوريا إلى الرباط مجلسها الأعلى (المجلس العلمي للقرويين) ليتعرف على حاجاتها ومشاكل سيرها وليساعدها على أن تجتاز ما يعترضها من صعوبات .

ومن ثم يصح لنا أن نقول إن السلطان نجح في رد الاعتبار العلمي للجامعة بحدبه المتواصل عليها ورعايته الشخصية لأساتذتها وطلابها، وأنها عرفت في هذه الفترة نقلة نوعية صححت بها مسيرتها وشدت بها حاضرها إلى ماضيها الزاهر المتألق، وتطلع خلالها الطلبة روادها إلى مستقبل بدا لهم مشرقا واعدا في ظل الرعاية الملكية التي شملت جامعتهم وحولتها من معهد عال مشلول إلى جامعة ذات نظام .

الجامعة الجامعة

ولقد حفلت خطب هذا السلطان المصلح بالحديث عن الآمال التي يعلقها على الجامعة وعما دعاه إلى إصلاحها . ومن ذلك خطابه بمدينة فاس الذي جاء فيه: "علمنا ما لجامعة القرويين من سالف المجد في حفظ مهجة العالم الإسلامي، وما تخرج منها من الفحول الذين كانوا تيجان فخر بمفرق الدهر في طي عهود التاريخ المغربي، فما علمنا من وسيلة ترد شبابها وعمارة دروسها وازدهار العلم بها إلا اتخذناها . ونحن نريدها جامعة جامعة للكلمة، مهذبة للأمة، حاملة راية الإصلاح، داعية إلى أسباب الفلاح . لقد علقنا عليها آمالنا، وعاهدنا الله على أن لانجد مصلحة لها إلا اتبعناها، ولا نعلم وسيلة خير نقدمها لها إلا اتخذناها " .

وقد عانت الجامعة من مشكل افتقاد الأساتذة المتخصصين في المواد الجديدة التي حفلت بها برامجها، فقد كانت أغلبية الأطر التقليدية متمكنة من العلوم النقلية التي اشتهرت بها جامعاتنا الإسلامية - ومنها جامعة القرويين - لكن العلوم الأساسية والمنضبطة وحتى علوم الدراسات الأدبية الحديثة لم يكن يلم بها إلا علماء قليلون، مما اضطر المجلس العلمي إلى أن يسند أحيانا تدريس بعض المواد العلمية والأدبية لغير المتخصصين، ومما جعل التوازن يختل بين الدراسات التقليدية التي كانت حافلة ثرية، والدراسات العصرية التي كانت تقدم للطلاب كما تيسر للأستاذ، ولم يكن في بعض الأحيان هذا المتيسر من نوع المقبول أو المفيد.

صنفان من الأساتذة

وفي الوقت الذي كنت مبهورا فيه بطول باع الأساتذة المتخصصين الذين استفدت منهم الكثير وتأثرت بمنهاجيتهم القويمة كنت آسف لأن أكون مضطرا للحضور في محاضرات بعض أساتذتنا الذين أسند لهم تدريس مواد علمية أو أدبية كانوا يعترفون لنا بأنهم لا يمتلكونها ويبدون أمامنا حنينهم للعودة إلى ما كانوا يتقنون من العلوم في عبارات تطفح بالحسرة على تكلفهم ما لا يستطيعون عليه صبرا .

ومن هؤلاء أستاذ فاضل كان معروفا بتخصصه في العلوم الدينية النقلية، فأسند إليه مجلس الجامعة مادة السيرة النبوية، فكان ينضب معين درسه في دقائق معدودات . كان يفتح كتاب نور اليقين للخضري ليطلب من الطالب السارد أن يتلو ماجاء في الكتاب جهرا أمامنا، ويقتصر هوعلى تعليق لا يتجاوز في موضوع غزوة بدر مثلا أن يدعو لكل من نطق الطالب السارد باسمه من شهداء الصحابة بقوله :" ألحقنا الله به مسلمين، ثم قال " . فيردد السارد اسم الصحابي الشهيد الموالي، ولا يغير الأستاذ دعاءه الرتيب مرددا دائما عبارة :" ثم قال " . وعند ذكر أسماء قتلى كفار قريش في غزوة بدر يذيل الأستاذ تعقيبا على اسم كل كافر سقط قتيلا بقوله :" وذهب إلى النار، وبيس القرار . ثم قال ....."

وكان هذا الأستاذ الذي اشتهر بالفضل ومعرفته بالفقه يعاني من تكلفه تدريس مادة السيرة النبوية إلى حد أنه كان يختصر في نصف ساعة حصة الدرس المحددة بساعة، ويقضم النصف الآخر بين بداية الدرس ونهايته . وعندما ينزل رذاذ مطر بالمدينة يتخلف عن الحضور، ثم لا نراه إلا أياما بعد أن تتبدد آخر غيوم السماء بصحوة إشراق لا مكان لأثر ظل فيها، فيحضر آنذاك ليقول لنا معتذرا وهو يخترق صفوفنا إلى كرسيه :" لا إله إلا الله ! حالت بيننا وبينكم السيول ...".

وكان هناك من هؤلاء الفضلاء أستاذ آخر لم يكن قد درس مادة الأدب العربي فأسند إليه المجلس العلمي تدريسها في كتابي " الوسيط " و " جواهر الأدب" كان يقرأ النص الأدبي في أعلى الصفحة ويقرأ الشروح في أسفلها، لكنه كانت تلتبس عليه أحيانا الأرقام المشيرة إلى الشروح، فيشرح الكلمة المشار إليها مثلا برقم 1 بما تشرح به الكلمة المرقمة برقم 2 .

ونموذج ثالث لهذا الصنف من المدرسين يشخصه عالم كان مشهورا بتخصصه في علم الحديث فأُسند إليه تدريس تفسير القرآن . وكم كانت دهشتنا - نحن طلبته - عندما لاحظنا بعد أنْ ضايقناه بالأسئلة أنه كان يحفظ عن ظهر قلب شروح المفسرين دون فهم . وآنذاك فقط تبين للمجلس العلمي عجز هذا الأستاذ عن تدريس مادة التفسير، فنقل إلى كرسي الحديث . ولم يكن علمه بالحديث يتجاوز مستوى حفظ الأحاديث بسندها وبدون فهم كذلك . وأعتقد أنه كان مثالا لما آل إليه التدريس في عهود التأخر الفكري من اقتصار الفقهاء على الحفظ بدون تمحيص . وهي الظاهرة التي أشرنا إليها من قبل .

ولحسن الحظ، كانت هذه الزمرة من المدرسين محدودة العدد، وكانت دراسات الجامعة موكولة في أغلبها إلى متخصصين أكفاء كان يفرضون علينا احترامهم، بما كانوا يبهروننا به من إلمام كامل واطلاع شامل على المواد الدراسية التي كنا نسعد بتلقيها منهم. وكان من بينهم من تمكنوا بسهولة ويسر من استكمال تكوينهم في المواد الدراسية الجديدة التي أسندت إليهم بما جعلهم يفيدون. وكل إصلاح جيد لا يؤتي ثماره بدون حسن اختيار وسائل تطبيقه. وفي طليعتها الوسيلة البشرية المدعوة لتطبيق الإصلاح، التي تبقى في كل مجال بداية كل إصلاح ونهايته.

تجديد الجامعة

كان إصلاح تعليم جامعة القرويين أحد المجالات التي استأثرت باهتمام السلطان محمد بن يوسف (الملك محمد الخامس فيما بعد هذه الفترة) فراهن على انتزاع إصلاحها وتجديدها من قبضة الحماية الفرنسية التي كان يطبع سياستَها في مجال الإصلاح - أي إصلاح - التردد إن لم نقل كان يغلب عليها التعصب والمعارضة.

وكانت معارضة إصلاح القرويين من لدن الحماية الفرنسية تستجيب لهاجس تخوفها المستمر من كل ما يتصل من قريب أو بعيد بالتيار العربي الإسلامي، ومن أجل ذلك كان التعبير السائد في لغة دهاقنة الحماية الفرنسية وصف القرويين ببؤرة الفتنة أو عش الاضطرابات، لكن اختيار محمد بن يوسف ميدان القرويين لمعاركة الحماية فيه بإصرار ولكن بصمت أخذ يؤتي أكله تحت عامل الزمن الذي كان يخدم سياسته ويعاكس سياسة خصومه الذين لم يكونوا قد جاهروه بالعداء في فترة ما بين سنوات 1937 و 1943 التي نتحدث عنها.

فبعد إصلاح سنة 1931 الذي ارتبط بهذا الملك العظيم فكر أن يعطي القرويين دما جديدا بإسناد رئاسة مجلسها العلمي إلى عالم من مدينة مراكش في شخص مولاي مبارك العلوي الذي قدم من كلية ابن يوسف (بمراكش) مرفوقا بمساعده الحاج أحمد بوستة (والد الأخ محمد بوستة الأمين العام الحالي لحزب الاستقلال) الذي شغل وظيفة مراقب الجامعة.

وبذلك نُحّي رئيس الجامعة المرحوم مولاي عبد الله الفضيلي، ومراقب الجامعة المرحوم العربي الحريشي عن وظيفتيهما، مما جعل طائفة من علماء فاس وجماعات

من طلابها يستنكرون زحزحة أهل فاس عن مركزي السلطة في القـرويين و يرفضون إسناد المنصبين إلى شخصيتين من مدينة مراكش .

وكان اختيار هاتين الشخصيتين لتسيير دفة القرويين تجربة جديدة لم يتقدم لها نظير،فقد كانت رئاسة مجلس الجامعة مقصورة قبلها على علماء مدينة فاس، مما جعلنا نحن الطلبة نلتقي مع أساتذتنا في التساؤل عن الأسباب التي كانت وراء هذا التغيير الذي سن في تاريخ الجامعة بدعة لم يفهم مراميها الحقيقية أحد .

وفي أبهاء الجامعة التي كانت تغلي دائما غليان المرجل بشؤون السياسة (مما يجعلنا نفهم تخوفات الحماية الفرنسية منها) التقى الأساتذة والطلاب على رد فعل واحد تجلى في موقف التحفظ من الإدارة الجديدة التي كان البعض ينظر إليها كما لو كانت عنصرا دخيلا يطرح وجوده على رأس القرويين تساؤلات كانت الأجوبة تختلف عليها بين التيارات المسيِّسة (بفتح الياء) التي كانت تحفل بها الجامعة .

أكانت الحماية الفرنسية تنشد من مباركة هذا التغيير أن توجه الإدارة الجديدة جامعة القرويين في اتجاه تغيير النزعة الثورية التي طبعت سلوك طلبة القرويين والتي كان المجلس العلمي السابق يتعامل معها ببعض التفهم، الشيء الذي جعل الحركة الطلابية تقتصر على المطالبة السلمية بإصلاح الجامعة وعلى حركة إضراب لم تتحول إلى عنف .

وكان السؤال الذي طرح هو : هل هناك صلة بين استقدام مولاي مبارك العلوي المسؤول الأعلى عن كلية ابن يوسف بمراكش إلى مدينة فاس وإسناد رئاسة جامعتها إليه، وبين ما تميزت به مدينة مراكش من هدوء سياسي نسبي تحت سلطة الباشا الجلاوي الذي كان لا يسمح أن يطن ذباب السياسة في منطقة حكمه والذي لاشك أنه بارك إسناد هذه المهمة إلى ذلك العالم المراكشي الذي كان له بحكم منصبه صلة بالباشا حاكم مراكش؟

وأعتقد أن السلطان الراحل قد اختار المرحومين مبارك العلوي وأحمد بوستة - وهما من ذوي الدراسات الأدبية المطعمة - على أمل أن تنفتح جامعة القرويين على آفاق أرحب من تلك التي كان المجلس العلمي الفاسي المحافظ يرغب في أن لا تتجاوزها بحكم تركيبه من فقهاء تقليدين . وقد كان مبارك العلوي وأحمد بوستة ينتميان فعلاً إلى المدرسة الأدبية، وكانا شاعرين أديبين أكثر مما كانا فقيهين .

حوار ومعارضة

طبقت الإدارة الجديدة في تعاملها مع الأساتذة والطلاب أسلوبا متميزا عن أسلوب سابقتها عندما فتحت الحوار معهم لاستمزاج الآراء في موضوع إصلاح الجامعة الذي كان الحديث عنه يتردد على كل لسان .

وأذكر أن مولاي مبارك العلوي سارع إثر استلامه منصبه إلى فتح أبواب منزله للأساتذة والطلاب للتحدث إليهم عن برنامج الإصلاح الذي كان ينوي تطبيقه، وأني استدعيت رفقة فوج من الطلبة للاتصال به والاستماع إلى برنامجه (وكان يقعد على يمينه مساعده بوستة) وخرجت مقتنعا بأن القوس قد أعطيت باريها، وزدت اقتناعا بعد أن أخذت الإدارة الجديدة تسن تنظيمات عصرية كان افتقادها يشكل ثغرة في نظام إصلاح الجامعة، وأصبح الطلبة موزعين في تقييمها بين تحبيذها ممن درسوا في المدارس العصرية الحرة (وكنت واحدا منهم) وبين التحفظ منها من لدن الذين تدرجوا على سلم أطوار التعليم بالقرويين منذ الابتدائي، في إطار تنظيم تقليدي قوامه حلقات الدروس والكراسي والمنهاجية التقليدية .

لكن حركة معارضة الطلاب والعلماء للإدارة الجديدة تنامت مع توالي الأسابيع والشهور، واستعملت للإطاحة برئيس الجامعة الجديد مختلف الأسلحة، ومن بينها إثارة النزعة الجهوية لتأليب أهل فاس الذين " ليسوا في حاجة إلى تدخل مراكش لتسيير جامعتهم ". ومنها اللجوء إلى أسلوب القذف والتشهير، وإطلاق ألسنة الشعراء من الطلاب بالهجو والتنديد وتوزيع مناشير محرضة على معارضة رئيس الجامعة والمراقب ،وربما لأول مرة في تاريخ الجامعة - كما قيل لي آنذاك - ظهرت في أوساط الطلبة النكتة اللاذعة المصيبة للهدف السياسي المتمثل في إبعاد الإدارة الجديدة عن ساحة القرويين .

ولم تكن المعارضة تستهدف في رأيي شخصي الرئيس والمراقب الجديدين، بقدر ما كانت احتجاجا على إقالة رئيس الجامعة والمراقب السالفين اللذين كانا يتمتعان بتقدير سكان المدينة، كما كانت عملا سياسيا لمناوأة الحماية الفرنسية ومنازلتها على أرضية صالحة . وكانت الحماية توالي في هذه الفترة سياسة إبعاد الوطنيين عن تسيير الإدارات والمرافق الحكومية فاستقطبت المعارضة السياسية داخل القرويين حركة السخط العامة للضغط عليها لإرجاع الإدارة السابقة .

السلطان يعيد رئيس الجامعة

أصدر السلطان محمد بن يوسف الأمر بإعادة رئيس الجامعة الفضيلي ومراقب الجامعة الحريشي إلى وظيفتيهما بالمجلس العلمي بالقرويين، بعد أن تبين أن استقرار الجامعة يقتضي العودة إلى قيادتها السابقة . وكان الرئيس الفضيلي يعد من أساطين العلماء التقليديين ويشكل مدرسة علمية ذات منهاجية متميزة . طبع بشخصيته العلمية أفواج العلماء الذين تتلمذوا عليه . وكان متخصصا في علوم أصول الدين والشريعة متبحرا في كتب السبكي والقرافي . وقد أحاط نفسه في المجلس العلمي بثلة من الفقهاء ذوي المقدرة على فك رموز مختصر خليل والغوص في فهم كتب شروحه وما أكثرها ! ولم يكن يمثل بالتالي نزعة التجديد والإصلاح التي أخذت ريحها تهب على الجامعة . وعلى عكسه كان رفيقه العربي الحريشي يُعرف بنزعته الإدارية الإصلاحية . وخاصة بتحرره وسعة أفقه، بحكم أنه كان من بين العلماء القلائل الذين رحلوا إلى أوروبا وتعرفوا على جوانب من نهضتها وتجسراً - في ذلك الزمان - على أخذ صورة شمسية له وهو بالخارج مرتديا اللباس الأوروبي الذي كان بعض العلماء يحرم لباسه، وبذلك يمكن القول إن الشخصيتين كانتا تتكاملان في وقت كانت فيه حاجة القرويين أمسّ إلى تمتيعها بإصلاح جذري شامل كان السلطان محمد بن يوسف مصمما على إدخاله على جهاز الجامعة . ومواليا اجتهاده في اختيار الرجال القادرين على تطبيقه .

وقد حرص السلطان على أن لا يُفهم من قراره تغيير إدارة الجامعة التراجع عن سياسة إصلاح القرويين التي كانت من ثوابت سياسته التي طبعت فترة ملكه في الثلاثينات وبداية الأربعينات .

وربما لذلك قرن بين إعادة الشخصيتين إلى وظيفتيهما وبين إحداث منصب مدير الجامعة الذي عهد به إلى شخصية ثقافية من خارج هيأة علماء القرويين، هو الأستاذ محمد الفاسي الذي يمتلك ثقافة عربية فرنسية . فجمع السلطان بهذا الاختيار بين إرضاء النزعة التقليدية التي ارتاحت لعودة الإدارة السابقة وبين إرضاء نزعة التجديد التي استبشرت بإحداث منصب مدير الجامعة وتعيين الفاسي فيه .

مدير الجامعة

وكان الأستاذ الفاسي قد تلقى دراسته في معاهد الحماية الثانوية بالمغرب ثم في كلية الآداب بباريس وحَذِقَ أصول اللغة العربية بحكم انتمائه إلى أسرة الفاسيين (النسبة هنا لأسرة الفاسي لا لمدينة فاس) المشهورة بمدينة فاس بكونها إحدى الأسر التي تحرص على تلقين أبنائها منذ الصغر مبادئ اللغة العربية والدين، وما أكثر بيوتات فاس التي لا تحصى عداً والتي كان أبناؤها يتلقون في بيوتهم من آبائهم مبادئ العربية والتربية الإسلامية ! وقد كان يطلق على هذه الأسر اسم بيوت أو بيوتات العلم .

ولم يكن أكثرنا في الوسط الطلابي بالجامعة يعرف عن الأستاذ الفاسي مدير الجامعة إلا أنه ينتمي إلى الرعيل الأول الذي قاد الحركة الوطنية في فترة نشأتها، ولكنه لم يكن ضمن الزعماء الذين ائتلفت منهم حركة كتلة العمل الوطني سنة 1934، ولم يُنكّب مع الوطنيين في أحداث سنة 1937 . وكنا نعرف أيضا أن له صلة متينة بالحزب الوطني الذي كان على رأسه علال الفاسي قبل أن يُبعَد - رحمه الله - إلى منفاه في تلك الأحداث .وربما لأنه لم يكن زعيما بارزا على منبر السياسة لم يعارض المقيم العام الجنرال نوجيس في تسميته في منصب مدير الجامعة .

وأذكر أن الطلبة الشباب المنتمين إلى حركة المرحوم الوزاني (الحركة القومية) - وكنت أحدهم - لم يُسَرّوا كثيرا بأن يتولى هذا المنصب الحساس - بعد الهيجان السياسي الذي عرفته الجامعة - عضو في حزب وطني كنا نعارضه، وكنا نرى أن هذا المنصب في حاجة إلى شخصية لا حزبية تستقطب حولها إجماع التيارات السياسية لتنطلق سياسة الإصلاح في وجهتها التربوية الصرفة، لذلك وقفنا متحفظين من المدير الجديد، وانتظرنا أن نحكم عليه من خلال أعماله ومنجزاته.

لكننا عرفنا إثر هذا أن للأستاذ الفاسي علاقة بالسلطان ابتدأت مع إنشاء المعهد المولوي بالرباط أي المدرسة الابتدائية الثانوية التي أقامها السلطان في مشور (ساحة) القصر لتعليم ابنيه ولي العهد الأمير مولاي الحسن، والأمير مولاي عبد الله ومن كان معهما من التلاميذ من أبناء الشعب الذين كان الاختيار يقع عليهم حسب

مقاييس دقيقة تؤكد تفوقهم في الدرس والتحصيل، حتى يتنافس الأميران ورفقاؤهما في طلب العلم وفي المزيد من الاجتهاد . وقد كان الأستاذ الفاسي ضمن الأساتذة الأولين الذين اختارهم السلطان للتدريس بالمعهد سالف الذكر .

ثم أخذنا نعرف عنه أنه في سلوكه الاجتماعي أقرب إلى المحافظة منه إلى التجديد، فهو لم يتخل قط عن ارتداء الجلابية والمنصورية (لباس أبيض فضفاض يلبس فوق القميص وتحت الجلابية) في جميع الظروف، وبقي يؤثر ارتداء الزي الوطني المغربي حتى أثناء رحلاته للخارج وفي إقامته بفرنسا وإلى موته، وأنه يفضل انتشاق النشوق (التنفيحة) على تدخين السيجارة مما جعله يلتقي في هذا مع محافظي علماء القرويين الذين كانوا يحرمون التدخين ويحللون النشوق . وعلمنا كذلك أن هذا التوجه المحافظ الذي غلب على طبعه وسلوكه وتصوراته هو الذي جعله ينفصل شيئا فشيئا عن مدرسة المستعربين المستشرقين من الفرنسيين الذين درس عليهم وتأثر بمنهاجية مدرستهم، وأنه أخذت تتباعد بينه وبينهم المسافات حتى اكتملت له بعدَ معاناة فكرية منهاجيةً أصولية متميزة تقف على خط معارض لخط الاستشراق والاستعراب ،الشيء الذي تطور معه - فيما بعد الفترة التي نتحدث عنها - إلى الانغمار في خط الأصالة المتحمسة للتراث العربي الإسلامي الأصيل إلى حد معارضة المس به بالتجديد أو التنقيح . وهي المنهاجية التي استقر عليها الأستاذ الفاسي في العقدين الأخيرين من عمره رحمه الله .

ولقد أخذت أتحسس آثار عمله الإصلاحي وأنا في الطور النهائي من الجامعة من خلال ما أحدثه من تنظيمات عصرية كانت الجامعة في أمس الحاجة إليها، وارتبطت به بعلاقة ودية صنتها منذ ذلك كما صانها ورعاها . وأعترف أني تخليت عن تحفظي السياسي إزاءه بعد أن تحلى في إدارته بالموضوعية والنزاهة الفكرية دون أن يكتسب الإجماع . ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ؟

ولم ينفذ مدير الجامعة برنامج إصلاحه بكامله في الفترة الأولى من عهده لأن الإقامة العامة الفرنسية بالرباط كانت تتوجس خيفة من إصلاح القرويين، ولم تكن إدارتها بفاس تجود على المجلس العلمي بموافقتها على مشاريع الإصلاح إلا بمقدار.ولأنه كان ضمن من أمضوا على عريضة الإستقلال في يناير (كانون الثاني) سنة 1944 فقد اعتقل مع الزعماء الوطنيين وبقي منصب مدير الجامعة شاغرا في غيابه، إلى أن أعاده إليه السلطان في عهد الانفراج السياسي سنة 1946. وقد عهد إليه في هذه المرة بإدخال إصلاحات جذرية على جهاز الجامعة كان من بينها تدريس

اللغة الفرنسية، وتطعيم شعبة العلوم بمواد دراسية، وإحداث فرع الجامعة لدراسة الطالبات، وغير ذلك مما يعكس اتجاها ثوريا، إذا نحن استحضرنا وضعية المغرب سياسيا واجتماعيا آنذاك .

غليان سياسي في القرويين

عشت بجامعة القرويين أحداثا تعج بها ذاكرتي، رغم قصر فترة دراستي بها. ولقد انغمرت - منذ التحاقي بها - في خضم الصراعات المذهبية والسياسية التي كانت تقسم العلماء والطلبة إلى فرق متعارضة، أو ملتقية أحيانا على معارضة اتجاه الإدارة التي كانت تشرف عليها وكانت تسمى آنذاك "المجلس العلمي للقرويين " .

وكان علي أن أتكيف مع غليان الجامعة السياسي الذي لم يكن يعرف توقفا أو ركودا، وأن أقوم بجهد غير هين لمغالبة نفسي حتى لا يطغى النشاط السياسي المغري على هدف الدرس والتثقيف وعلى مطمح الوصول سريعا إلى مرحلة الإجازة المتوِّجة لمرحلة التعليم العالي، خاصة وجميع المؤشرات كانت تتضافر - وقد أصبحت أقترب من سنة الإجازة - على أن امتحانها تحول إلى مباراة يصعب النجاح فيه . وكان القصد من ذلك رفع مستواها العلمي إلى شهادة تبريز ولا يظفر بها إلا المتفوقون .

واليوم وأنا أستحضر مخاض القرويين السياسي الذي عشت معها معاناته بضع سنين أجدني أفهم لماذا كانت سلطات الحماية الفرنسية تنظر بعين الحذر والتخوف إلى الغليان السياسي داخل الجامعة، فقد كان أغلبه يجري معاكسا لتوجهاتها .

كان ليوطي قبل أن تعرف القرويين في الثلاثينات هذا الغليان يقول عنها : إنها البيت المظلم، لأنها كانت تقف صامدة في وجه تسرب الغزو الفكري الاستعماري وتنغلق على نفسها لتحصينها من بلوائه . واقتداء به أخذ تلامذته دهاقنة الحماية الفرنسية يقولون عنها بعد أن انطلقت منها شرارة الثورة على الاستعمار سنة 1930 إنها عش الاضطراب أو بؤرة الفتنة .

كان الصراع يحتدم في القرويين بين دعاة الإصلاح والتجديد الذين كانوا يريدون لها تغييرا كيفيا ثوريا، وبين أنصار بقاء دار لقمان على حالها . ولنقل إن العراك كان مشتدا بين التطور والجمود، وهو عراك لم يضع فيه السلاح أي فريق لحد الآن لا أقصد في جامعة القرويين وحدها .، بل في جميع مرافق الحياة العامة عندنا نحن

أجيال العالم الثالث حيثما يوجد هذا العالم، وذلك منذ بزوغ فجر هذا القرن وإلى اليوم . ففي كل جهة من هذا العالم ما يزال الصراع محتدما بين التطور والتجديد وبين الجمود على الماضي . صحيح أن التطور سجل في هذا السباق - بتعبير آخر - إصاباته التي قل أن تخطئ أهدافها ضد الجمود الذي قل أن يستسلم بدوره باختياره وإرادته . ولكن إن اختلفت النتائج في هذا السباق بين قطر وآخر، فإن طبيعة السباق لا تختلف ولا تعرف التغيير في كل مكان .

كان للتجديد والإصلاح دعاته بين الطلاب والعلماء معا، وكان للجمود والتمسك برواسب الماضي أنصاره بين الطلاب والعلماء معا كذلك، لكن الطلاب في مجموعهم كانوا أقرب إلى التجديد وأكثر تحمسا له من العلماء، بينما كان أنصار الجمود من العلماء أكثر تشبثا به من أنصاره بين الطلاب .

اصطخب العراك بين المجددين والجامدين على نقطة خلاف يبدو أمرها اليوم غريبا بين من كانوا (علماء وطلابا) يرفضون إخضاع الجامعة للتنظيمات العصرية، ويريدون الإبقاء عليها في شكل مسجد جامع لا يتميز عن المساجد العظمى إلا بحلقات الدروس وكراسي العلم التي لم يكونوا يريدون لها أن تخضع لنظام أو مراقبة أو توجيه، وبين من كانوا (علماء وطلابا) يريدون تعميم النظام الإصلاحي الجديد على مرافق الجامعة وإخضاعها لمقتضياته .

وقد كان طلبة مدينة فاس والوافدون من طلاب المدن المغربية الكبرى وأكثرية العلماء تتحمس للتنظيم وترفض إبقاء الجامعة سجينة العهد البائد، بينما كان الطلبة الوافدون من البادية (ممن كان يطلق عليهم اسم الطلبة الآفاقيين، وكانوا أقل وعيا من طلبة المدن) يناهضون كل إصلاح . وكان يشاركهم في ذلك علماء منغلقون متحجرون، وبالخصوص منهم الذين جمدوا على ما تلقوه من مادتي الفقه والتوحيد، دون أن يطعّموا دراساتهم بمواد أخرى .

واندس في معسكر الجمود هذا عملاء للاستعمار بثوا في الأذهان أن الإصلاح المراد تطبيقه في القرويين يهدف إلى طرد الطلبة الآفاقيين الذين تجاوزوا سن الدراسة في الأقسام التي يوجدون بها . ولم تكن الدراسة مقيدة بسن معينة كما أومأنا إلى ذلك سابقا، كما أشاعوا أن العلماء بدورهم سيخضعون لنظام التقاعد (الإحالة على المعاش)، وأن الكتب القديمة سيستغنى عنها لفائدة كتب عصرية، وآتت هذه الإشاعات أكلها الخبيث حيث ازداد معسكر الجمود تصلبا وانغلاقا وتفرقة الصفوف اتساعا وتباعدا .

ويعود الفضل في كسر طوق هذا الجمود في النهاية وإجبار الطلاب والعلماء المتعصبين على الخضوع لمقتضيات نظام الإصلاح إلى رئيس الجامعة مبارك العلوي ومساعده المراقب العام أحمد بوستة اللذين حققا هذا الإنجاز العظيم قبل مغادرتهما إدارة الجامعة في ا لظروف التي أشرنا إليها .

جمعية للطلاب غير مرغوب فيها

وقد عشت منذ التحاقي بالقرويين هيجانا سياسيا صاخبا على إثر امتناع الإقامة العامة من تخويل طلبة الجامعة حق تأسيس جمعية باسم " جمعية أبناء القرويين" . فأسس بعض منهم بديلا عنها باسم " جمعية الرابطة القروية " اعتبرتها الإدارة الإستعمارية غير شرعية لأنها لم تخضع لإذن سابق، ولكن الجمعية عملت في العلن متحدية التعسف كما تحدى الطلبة إرادة الإستعمار بتكتلهم حول مطالب إصلاحات لجامعتهم، وعندما قوبلت بالإعراض عنها دعوا سنة 1937 إلى إضراب لتعزيزها يعتبر أول إضراب عرفته القرويين في عهد الحماية . وكانت تجمعات الطلاب الاحتجاجية تتم إما بالقرويين أو بالمدارس الملحقة بها التي كانت مسكن الطلاب الآفاقيين .

وكانت إدارة الحماية بفاس تعمل لشل حركة الإضراب وإقبار نزعة الإصلاح بتعاون مع عملائها، وفي طليعتهم عبد الحي الكتاني الذي كان يجهر بنشاطه المعادي للوطنيين والمجددين كلما رفع هؤلاء مطالب للتجديد والإصلاح . وكانت الحماية وعملاؤها تراهن على تفرقة الطلبة وترتكز على معسكر الجمود الذي أومأنا إليه، لكن معسكر الإصلاح أمكنه في النهاية أن يستميل إليه العناصر الطلابية التي تنبهت داخل المعسكر المعارض إلى اللعبة الخطرة التي حبكها الاستعمار وأعوانه لتفرقة الصفوف، وكان الحدث السياسي الكبير هو انعزال فلول معسكر الجمود بل فراغه من محتواه وتصدعه عندما التأم صف الطلاب حول مطالب الإصلاح . وعبر عن هذا الالتحام في نكتة خبيثة بعض الطلبة الآفاقيين حين قالوا إن الطلبة الآفاقيين تزوجوا بالطلبة الفاسيين فولدت من هذا الزواج مطالب الإصلاح .

ولقد لعب بعض الطلبة دورا طليعيا في قيادة حركة الإضراب والإصلاحات هذه، فتوجه إلى القصر الملكي بالرباط للدفاع عنها وفد طلابي كان ضمنه الأخوان عبد الكريم غلاب، وعبد الوهاب القباج، وكان من بين من خطبوا في صفوف المضربين

الأخ أحمد ابن سودة والشاعر المرحوم إدريس الجاي الذي اختار للمناسبة قصيدة ميمية القافية حث فيها الطلبة على الثبات والمصابرة، وما أزال أحفظ منها هذا البيت :

فإن تكن منكمو عشرون صابرة فألف ألف من الغوغاء كالعدم.

وأثار الشاعر الشاب الذي كان في سن الخامسة عشرة آنذاك حماس الطلبة مكبرين شجاعته العنترية، فاقترح بعضهم أن يخول لقب " عنترة القرويين " فأقر الطلبة هذا الاقتراح بتصفيق متواصل حاد .

وكان من بين من برز بين خطباء حركة الإضراب شاب جزائري كان وفد على القرويين للدراسة وكان من دعاة الإصلاح هو عباس بن الحسين القسطنطيني الذي اشتهر باسم الشيخ عباس، وقد فارق الحياة رحمه الله سنة 1989 وهو يمارس مهمة إمام مسجد باريس أو المعهد الإسلامي بباريس . وبحكم أنه من مواليد القسطنطنية، فقد جاء من الجزائر إلى القرويين متأثرا بمدرستها السلفية الإصلاحية، وانسجم بالتالي مع دعاة الإصلاح المغاربة وأثر على تحول بعض الطلبة الآفاقيين إلى صف التجديد .

سلطان الطلبة

ولتكتمل الصورة في أذهان القراء عن جامعة القرويين، وحتى لا تقتصر- كما فعلنا لحد الان - على ظروف الدراسة والتشقيف أختم الحديث عنها بإثارة ذكرى مهرجان عطلة الطلبة الذي كان يجري في فصل الربيع بمدينة فاس، حيث تزدان المدينة بصفاء الهواء، وانسياب المياه، وتفتح الزهور، واخضرار الحدائق وارفة الظلال، بما يحيل المدينة كلها إلى جنة غناء، تتبارى طيورها في إشاعة البهجة ومطاردة القنوط وإنعاش النفوس .

وكانت عطلة الطلبة تتميز بإقامة " مملكة " خاصة بهم ينتصب على رأسها لمدة عشرة أيام طالب يحمل لقب " سلطان الطلبة "، ويتمتع لدعم نفوذه بجميع مظاهر السلطان الشرعي حاكم المغرب . وكانت تلك المظاهر تغذي التباسا حول ازدواجية السلطة بين السلطان ولي أمر المغرب، وسلطان الطلبة الوهمي الذي يعترف له الأول بنفوذ على تراب مملكته التي لم تكن حدودها تتجاوز مداها الحيوي المحدود، أي حيث تنتصب خيمته وخيام حاشيته من الطلبة بما لا يتجاوز ضفة وادي فاس، هذا الوادي الذي يطلق عليه أيضا اسم وادي الجواهر.

و كان سلاطين المغرب يشجعون بأنفسهم هذه الازدواجية، حيث كانوا يأتون بأنفسهم في موكبهم الرسمي لتحية «سلطان الطلبة» في مملكته.

و قدر لي أن أعيش خلال سنوات دراستي بالقرويين هذا المهرجان وأذكر أني ذهبت مرة إلى وادي فاس و دخلت مملكة سلطاننا (نحن الطلبة) فبدا لي زميلي الطالب زيطان (و هو من منطقة شمال المغرب التي كانت آنذاك خاضعة للنفوذ الإسباني) يقتعد عرشه الذي كان وسادة محشوة بصوف، ارتفع بها عن مجلس وزرائه و أعوانه ممن كانوا يفترشون الأرض و تحيط بهم جمهرة من الزملاء السطلاب و عدد من الزوار.

و كان السلطان محاطا بجميع مظاهر السلطة و النفوذ، يفتعل الجدية ويلتزم الوقار لأداء دوره على أحسن وجه، يتقمص روح الحاكم بأمره الذي يخاطب من حوله فلا ترد له كلمة و لا يعصى له أمر. و كانت الحاشية تساهم في إثراء هذا المظهر الفولكلوري البديع.

و كنت لقيت هذا الطالب مرارا عندما كان مثلنا و في مستوانا الشعبي قبل أن يرفعه الزمان إلى هذه الأرستوقراطية، كما ألقى الزملاء الآخرين، لا يحجبنا عن بعضنا حاجب. و لكونه لم يكن طالبا من مدينة فاس، فقد كان يسكن حجرة صغيرة متواضعة في إحدى مدارس الجامعة الملحقة، كما يسكن عشرات الطلاب أمثاله ممن يأتون إلى فاس من مختلف جهات المغرب، لا يميزه آنذاك عن زملائه ما أصبح محاطا به من مظاهر النفوذ و الأبهة و الشفوف و الامتياز، و لا يقوم حاجزا بينه و بينهم صورة النعمة الجديدة التي تمثلت في ارتدائه فاخر الثياب، و في تغيير قسمات محياه، حيث بدا مقطب الجبين منغلق الشفتين، و قد عرفته بشوشا منطلق الأسارير.

قصة سلطان الطلبة

و لسلطان الطلبة قصة تاريخية ابتدأت منذ السلطان المولى الرشيد في بداية عهد الدولة العلوية التي تحكم المغرب اليوم و منذ أزيد من ثلاثة قرون. فقد كان

المولى الرشيد - كما أسلفنا القول عنه- طالبا بجامعة القرويين قبل أن يعتلي عرش المغرب، وتقاسم مع الطلبة ظروف العيش الصعبة في إحدى مدارس الجامعة، و زاملهم في حلقات دروسها، فقرر بعد بيعته سلطانا تمتيعهم - ترفيها عنهم - بعطلة سنوية تتميز بإقامة حفلات فولكلورية يرأسها واحد منهم و يحمل لقب «سلطان الطلبة ». و مع مرور السنين تنوعت مظاهر السلطنة الطلابية، فأصبح الطلبة يضعون في المزاد العلني شراء لقب السلطان ليحصل عليه أقدرهم على دفع ثمنه. و كان سلطان الطلبة يتقدم إلى سلطان المغرب بطلب لا يملك السلطان إلا تلبيته، كإطلاق سراح سجين من أسرته أو قبيلته، أو الحصول على وظيفة، ويعوض بقضاء طلبه ما صرفه على شراء السلطنة، في الوقت الذي يصبح ثمنها المدفوع ملكا للطلبة، به يسددون نفقات النزهة على ضفاف وادي فاس طيلة العشرة أيام.

و لكل يوم من أيام السلطنة الطلابية العشرة برنامج خاص : فالسلطان يصلي صلاة الجمعة الموالية لاختياره سلطانا للطلبة في أحد مساجد فاس الكبرى في موكب مهيب له حرسه و موسيقاه و علمه و مظلته التي تعلو رأسه، و كلها مظاهر لا تختلف عن مظاهر شخوص سلطان المغرب إلى الصلاة. و يخصص يوم لزيارة ضريح السلطان المولى الرشيد (دفين فاس) اعترافا بالمنونية للذي دشن هذه التظاهرة و تفضل بها على الطلاب، و يوم مشهود يستقبل فيه سلطان الطلبة سلطان المغرب الذي يخترق الحدود إلى تراب سلطان الطلبة الوهمي فتتبادل الخطب، و يقدم فيه سلطان البلاد الهدايا إلى سلطان الطلبة و مواد التموين المساعدة على توفير عيش رفيه للطلبة في أيام العطلة. و يرتفع الغموض بين السلطانين في هذه اللحظة التاريخية إذ ينزل سلطان الطلبة عن فرسه ليقبل في ممنونية يد السلطان و يجدد له مشاعر التعلق و الولاء باسمه و اسم «سلطنته».

و تتميز هذه التظاهرة العجيبة بخطب حافلة بالنكت التي تطلق الفكر من عقاله و تنشر جو المرح - لا جو العبث - بين الطلاب و تسمح لهم بالعودة إلى حياة الدرس و قد أنعشت نفوسهم.

أما في اليوم العاشر الذي ينهي عهد السلطنة الوهمية فإن سلطان الطلبة يجبر على القيام من نومه قبل طلوع الفجر ليغادر عاصمته متسللا تحت ستار الظلام

و يصبح مواطنا عاديا، فإن لم يفعل ذلك جاز للطلبة أن يقذفوه بثيابه في نهر المدينة، حتى لا يجرؤ على التمتع بمظاهر السلطان بعد نهاية عدة ملكه.

و أذكر أنه عندما عينني الملك الحسن الثاني وزيرا للتربية الوطنية سنة 1967 فكر جلالته في إحياء هذه السنة التي كانت انقطعت لمدة سنوات خلت، و عهد إلي بتنظيمها من جديد. فحظيت التظاهرة الطلابية من جلالته برعايته، وحضر بنفسه إلى مملكة الطلبة بوادي فاس، و أغدق على « السلطان » من جزيل هداياه، و أضاف إلى مظاهرها الجديد، حيث عين لدى سلطان الطلبة سفيراً و أوفد إليه مبعوثين خاصين و «تبادل معه علائق تفضيلية» جريا منه على عادته في عنايته بمظاهر الأصالة المغربية التقليدية التي أحياها في جميع مظاهر الحياة بالمغرب، بعد أن دخل الكثير منها في طي النسيان، و كاد يجرفه الاندثار .

الفصل الثالث و العشرون

أثر المشرق في النهضة المغربية

تقييم ذاتي

بعد أن كدت أنهي الطور الثانوي من دراستي، وأصبحت على مشارف التعليم الجامعي أو النهائي كما كان يعبر عنه قمت بتقييم للمرحلة التي اجتزتها ولحصيلة المعارف التي وفرتها لنفسي في سنوات الدرس والتحصيل السابقة، وانتهيت إلى استنتاج حاسم غير مجرى حياتي .

أدركت أنني سأظل محدود الأفق قاصر المعرفة إذا ما اكتفيت بالدراسة التي أتيحت لي، وأني لن أكون في خاتمة المطاف إلا من نوع من يتخرجون من جامعة القرويين من أفواج الطلاب الذين سبقوني وأصبحوا يعرفون بالعلماء ولم يكن يرضيني مستواهم العلمي . وربأت بنفسي أن أقصر جهدي وأحصر تطلعي في نيل أعلى شهادة من جامعة القرويين مهما كان مستواها فإني لن أطمئن إلى أن تكون منتهى ما أطمح إلى تحصيله من علوم ومعارف . وفي عمقي قررت أن لا أقنع بأن أكون " عالما قرويا " من فصيلة العلماء الشيوخ الذين ينعتون في مصر مثلا بالأزهريين أو في تونس بالزيتونيين .

مع الحركة الفكرية

وكنت أتابع في هذه المرحلة مخاض الحركة الفكرية بالعالم العربي وتطور الأزهر بمصر، وأعجب بالأزهريين الذين سعدوا بتطوير ثقافتهم العربية الأصيلة وامتلكوا معارف جديدة اخترقوا حصونها، نافذين إليها من تعلم اللغات المساعدة على صقل الأذهان وتلقيح المدارك وفتح آفق متنوعة . وكنت أوثر بعظيم إعجابي المدرسة التحررية النقدية بمصر، وأتابع إنتاج أعلامها وخاصة الدكتور طه حسين الذي أخذت أقرأ بعضا من كتبه، فوجدت فيها نفسا آخر لم يكن يملكه من علماء الأزهر

آنذاك من لم يطعموا دراستهم بالجديد كما فعل هو . وكنت مشدودا إلى هذا الأعمى البصير الذي أثارت جرأته الفكرية حوله - إثر تأليفه كتاب " في الشعر الجاهلي " - زوبعة لم يغمره غبارها، بل رفعته إلى قمة الشهرة عالما ناقدا عالميا نجح هو في أن يغمر في خضم شهرته من حاولوا تعتيم شخصيته وتقزيمها . كما شدني إليه الدكتور زكي مبارك الذي كان يذكر باسم الدكاترة لأنه لم يكتف بدكتوراه واحدة بعد أن نوع تخصصاته وآفاق معرفته .

وكانت لي ردود فعل متعددة عن المعارك الأدبية والمساجلات الفكرية الصاخبة التي احتدمت بين رجالات الفكر شعرا وأدبا في مصر، وكانت تعكس تقارع الأطروحات وتنوع الأدلة بين دعاة النقد الأدبي المتحرر وأنصار المحافظة، تلك المعارك التي ابتدأت في أول هذا القرن قبل أن أرى النور، فعدت إلى ارتيادها في مصادرها . وتابعت ما جد منها في فترة ما بين نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينات التي وصلت إليها هذه الصفحات، وأفدت من جميع ذلك ما ساهم إيجابيا في إعادة تكويني وتطعيم دراستي بالجديد الممتع، وإن لم أكن مسلحا آنذاك بما يمكنني من أن أختار دائما موقفي بين تلك الأفكار والمواقف المتعارضة .

ظروف ومبادرات

وساعدتني ظروف لم يكن لي فضل في تيسيرها ومبادرات ذكية اتخذتها على الاستفادة من استنتاج تقييمي لدراستي بالقرويين . فقد أصبحت فجأة أعيش منعزلا عن زملائي الذين رافقوني في مدرسة معلمنا محمد ابن عبد الله ممن تابعوا معي الدراسة بالقرويين، وذلك بعد أن بيتوا عليّ مؤامرة صبيانية كدت أفقد فيها حياتي تحت ضرباتهم الحاقدة ولكماتهم الموتورة التي أسالت دمي وتمزقت معها ثيابي،حسدا منهم أن تفوقت عليهم في الدرس وقد كنت أصغرهم سنا.

و تحت تأثير هذه الصدمة قررت أن أشق لنفسي طريقا منفردا نوعتُ مسالكه ودروبه، ومشيت عليها جميعا في آن واحد، واستعنت على ذلك بإلغائي من استعمال الوقت اليومي الوقت الثالث أو حصة الفراغ التي كنت أزجيها هباء في هذيان لاجدوى له مع أولئك الزملاء المتآمرين علي .

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

بدلا من أن أصرف وقتي الثالث في هذا اللغو وظفت في الدرس المفيد والعمل

الجاد الوقت الثالث الذي توفر لي متخذا من قوة الشباب ما أعانني على تحمل آثار هذا التحول الجذري الذي انضبطت بقواعده منذ ذلك الآن، وانسجمت معه دون أن أحس بعياء أو إجهاد . وكأنما أحسست أني عدت إلى عهد مدرستي الأولى التي تربيت فيها على الدرس بدون انقطاع ولا إجازة موسمية أو سنوية .

في رفقة الكتاب

انصرفت إلي رفقة الكتاب انصراف الملهوف، وشُددت إليه في نهم، أقتني منه ما أملك اقتناءه وأنهل من كل مشرب عبر صفحاته ما يتوفر لي منه، لا هم لي إلا أن أفرغ من كتاب إلى آخر في حرص دائم على ختم الكتاب في أيام معدودات، كأنما كنت أحس أن لي مع كل كتاب في مكتبتي موعدا لا أملك عذرا لتأخيره .

وكنت أسجل في دفتر خاص كل ما كان يستوقفني الاستمتاع به أثناء مطالعاتي من فقرات كاملة، أو تعبيرات عربية متألقة، أو فكرة يجليها الصقل ويطبعها الإبداع .

ولما كنت قد حفظت الكثير من ديوان المتنبي، فقد عشت في خلوتي بالكتاب واحدة من حكمه، (وما أكثر حكم أبي الطيب وأغناها !) تلك التي ضمنها بيته القائل:

أعز مكان في الدُّنا سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

إلا أني خالفت أبا الطيب في مزاوجته وتسويته بين الكتاب والفرس، فالكتاب كان عندي الجليس الوحيد الذي لا يمل، والصديق الوفي الحميم الذي ليس لي عنه بديل، وكان كل أملي فيه أن يقعدني سروج المعرفة بين فوارس المثقفين .

وكنت أمر بأزقة مدينة فاس وأنا متأبط كتب القرويين في طريقي إليها، أو عائدا منها، وبيدي كتابي المفضل أقرأه منشغلا به عما حولي، حتى أني أذكر أني اصطدمت ذات يوم ببغلة محملة بأثقال حطب فشجت جبيني، وخرجت من هذا الحادث سليما أردد في نفسي "دفع الله ماكان أعظم ".

معلم طالب

وبفضل مورد جديد أمنه لي أستاذي محمد ابن عبد الله لقاء عملي معلما بمدرسته التي درست بها في مقتبل صباي تمكنت من اقتناء أصناف من الكتب ازدانت بها مكتبتي وأصبحت بين يدي عملة أتداولها بين الزملاء لتبادل استعارة الكتب .

ولقد فرضت علي المهنة الجديدة واجبات انضافت إلي واجباتي الأخرى، وحتى لقد أصبح نشاطي يستغرق من يومي ست عشرة ساعة موزعة بين دراستي النظامية في القرويين، والتعليم في المدرسة، واستكمال التثقيف الذاتي الذي تتيحه لي مطالعة الكتب والصحف والمجلات دون أن يتخلل ذلك فترة استجمام.

كان عليّ أن أتوجه في الساعة الأولى من الصباح الباكر وقبل أن تبدأ الدراسة بالقرويين لأزاول مهنة المعلم .وقد اختصرت من دراسة الجامعة حصص المواد الدراسية التي لم يكن أساتذتها يقدمون فيها ما يرضي تطلعي إلى المعرفة، إما لقصورهم عن احتواء المادة، وإما لأنهم لم يكونوا يضيفون جديدا إلى ماكانت تعج به الكتب من شروح وتعاليق .

وكم كنت سعيدا بالجمع في سني (السابعة عشرة من العمر) بين وضعيتي الطالب والمعلم . وكنت أعتقد أن فكرة الجمع بينهما إحدى خصوصيات أستاذي المعروف بإبداعاته في فن التربية والتعليم، تلكم الخصوصيات التي سبق لي أن تحدثت عن بعضها، ثم عرفت أن طلبة آخرين كانوا يعلّمون في مدارس مغربية أخرى، وقرأت في مطالعة تراجم بعض أساتذة المشرق العربي أنهم علّموا وهم في مستوى التعليم الجامعي تلاميذ الابتدائي والثانوي . وقد كان علاّمة الجزيرة حَمَد الجاسر - أطال الله عمره - من بين هؤلاء حسبما جاء فيما قرأته له أو عنه .

تجربة تربوية

وما أزال أذكر أن القسم الذي عهد إليّ أستاذي مدير المدرسة بالتدريس فيه كان يتألف ممن يناهزون عشرين تلميذا كان بعضهم في سني، بل كان أحدهم - رحمة الله عليه - أكبر مني، وأني أجريت عليهم تجربة نموذجية في حكم أنفسهم بأنفسهم .

وكنت قرأت أفكارا مبعثرة عن النزعة الديمقراطية عند فلاسفة اليونان، وخاصة عند أرسطو الذي عرفت عنه أنه كان يناصر الديمقراطية ويرفض الاستبدادبجميع أنواعه، حتى ما أطلق عليه البعض الاستبداد المستنير. وارتحت إلى توجه أرسطو هذا، فالجمع بين الاستبداد والاستنارة جمع بين متناقضين لا يقبله المنطق ويرفضه الذهن السليم، وزدت إكبارا لهذا الفيلسوف عندما قرأت عنه أنه كان جريئا في الحق إلى درجة أنه جاهر بأنه لايتعصب لأستاذه أفلاطون إلا في الحق.وأعجبت بمقولته الجريئة :" أحب الحق وأحب أفلاطون ما اتفقا، فإن اختلفا كان الحق أولى منه".

كما كنت قرأت ملخصا لكتاب الفارابي :" آراء أهل المدينة الفاضلة ". وسجلت في دفتر مطالعاتي الشروط التي قال في كتابه إن على رئيس أي مجتمع سياسي أن يتوفر عليها . ومنها أن يكون جيد الفهم والحفظ، متطلعا إلى المزيد من العلم، متمسكا بالعدل والإنصاف، عزوفا عن الظلم، فقررت أن أكون المعلم المتحلي بهذه الصفات، وأن أرتبط بصلات المحبة مع تلاميذي وأستبعد منهم شعور الخوف والتهيب مني .

وانضافت إلى ذلك الآثار التي تركتها في نفسي مطالعة كتاب " العقد الاجتماعي" لجان جاك روسو، وما قرأته من حلمه بتطبيق نظام الديمقراطية المباشرة التي تلغي النيابة عن الشعب في المجالس، إذ فيها يحكم الشعب نفسه بنفسه دون وصاية أو نيابة أو تمثيل .

اختمرت هذه الأفكار كلها في نفسي وأنا أغدو كل صباح إلى القسم لأقتعد مقعد المعلم أي الرئيس، فاهتديت إلى أن أدخل على عملي وعلاقتي بتلاميذي

تحويرا يدشن نوعا جديدا من التعامل بين الطرفين . ووضعت تلاميذي في الصورة . وكان أن اتخذنا قرارا جماعيا بتحويل الفصل الدراسي إلى مجتمع تسود فيه سلطة مشاعة يقتصر فيها دور المعلم على التوجيه القابل للنقاش، وبذلك تخليت طائعا عن سلطتي لفائدة الجميع الذي أصبح يراقب الجميع .

كنت أبرر أسباب تنقيط كل تلميذ بما يتفق عليه المجموع، وأتراجع عن تقييم أي تلميذ وترتيبه في درجات الاستحقاق إذا أقر المجموع أنه يستحق أكثر أو أقل، وكانت عقوبات المتكاسلين تُختار وتُتَخذ بقرار جماعي يذعن له المعاقب راضيا . وكان هذا المجلس الحاكم نفسه بنفسه أنشط أقسام المدرسة وأشد تعلقا بمعلمه وأكثر مواظبة من كل قسم آخر .

ويبدو لي أني - وقد بلغت أوج التدريس المبكر - كنت أقرب إلى وضعية الطالب مني إلى وضعية المعلم ،وأني كنت أتحرك في تجاوب مع التلاميذ أكثر من أي معلم آخر، وأني كنت شغوفا بالميل إلى تطبيق ما كانت تكدسه المطالعات في ذهني من آراء ونظريات أتاحت لي تلك المدرسة المتفتحة التي كان على رأسها ذلك المربي المتفتح أن أطبق بعضها بتلك التجربة الفريدة . وقد وجدت منه - رحمه الله - تشجيعا ساهم في إيتائها أكلها .

لقد كانت فعلا تجربة رائدة على تواضعها وضيق محيطها، يبدو لي وأنا أرتد بالذكرى لنتائجها أنها خليقة بأن تجرَّب في مدارسنا، فهي كفيلة بتحبيب الدرس والتحصيل لأبنائنا، إذ تثير فيهم الإحساس بأنهم يبنون شخصيتهم بكل حرية واستقلال، وأنهم يؤلفون مع معلمهم أسرة فكرية غامرة بالحب والعطف لا تقل رابطتها عن رابطة الأسرة التي أنشأتهم وتشملهم برعايتها . وهو ما يغير نظرتهم إلى المدرسة التي يعتبرها بعض الأباء والأبناء سجنا تتحكم فيه سلطة المدير والمعلمين لتسخير التلاميذ، نيابة عن الآباء الذين يفوضون ممارسة سلطاتهم على الأبناء إلى " حراس" ذلك " السجن " المسمى بالمدرسة .

ولعل تطبيقي تلك التجربة كان يعكس امتدادا لما شببت عليه من تعلق بالتغيير منذ أن تلقيت على الفطرة توجيهات معلمي الأول (محمد ابن عبد الله) الذي رباني في مدرسته على البحث عن الإبداع، وأذكى في قريحتي روح النقد، بل زرع في بذور الثورة على كل قديم . وهذا ماجعلني - كما أسلفت القول في هذا الكتاب - أندفع إلى الانخراط في " الحركة القومية " التي جاهرت بالمطالبة بالديمقراطية وتغيير أوضاع الحكم، وجعلت من الآية الكريمة "وأمرهم شوري بينهم "

شعار عملها، وهو ما جعلني كذلك أنغمر منذ التحاقي بالقرويين في صف المجددين من الطلبة المنددين بالجمود، وما قربني إلى العلماء المتفتحين على الإصلاح الذين لازمت دروسهم الغنية بالعطاء، وما باعد بيني وبين الجامدين من أساتذتنا الذين ترددت مكرها على دروسهم بعد أن سمعتهم يرددون وأبصرتهم يطبقون مقولة " ليس في الإمكان أبدع مما كان ."

جيلان متعارضان

لعل الجيل الحاضر في عالمنا الثالث لا يقدر أنعم الله عليه وهو يعيش في ظل استقلال الأوطان واستقرارها وسعيها إلى تحسين مصائر شعوبها .

ولأنه يعيش في دوامة التطور الذي يغير باستمرار بيئته ونمط عيشه، ولأنه ليس له تصور واضح عن المسافة الذهنية والاجتماعية التي تفصله عن الجيل الذي سبقه، فهو لايملك أن يقارن موضوعيا بين حياته اليوم وحياة ذلك الجيل، هذا الذي عانى من الصعوبات ماتنوء به الكواهل .

إن الجيل الحاضر هو جيل السهولة بالمقارنة مع الجيل السابق . وإن كانت للأول صعوبات يواجهها فهي لاتصل إلى تلك التي عانى منها سلفه الذي لم يكن يملك من الوسائل ما يتيح له التغلب على صعوباته . ولأن الجيل السابق كافح بضراوة لتذليل صعوبات حاضره ومستقبله، فقد أمكنه أن يهيئ ظروف السهولة لجيل الحاضر .

الجيل الحاضر هو جيل الكهرباء ووسائل النقل المتطورة، والإعلام السريع الرابط بين القارات، وحتى بين السماء والأرض، جيل الكتاب المتنوع الذي يشق الحدود إلى متناول الأيدي، جيل الحاسب الإلكتروني المذهل الذي ينوب عن الطاقة البشرية في بذل الجهد، جيل الوظائف الميسورة، وإن أصبحت تقل أمام تكاثر الأطر وتضخمها. أما الجيل السابق فهو جيل الشمعة التي لاتضيئ إلا بمقدار، والأقدام التي تسير على طريق لايمتد ولايطول، جيل ليس له وقت ثالث يصرفه للترفيه في المقاهي وقاعات السينما ومشاهدة مسجلات الفيديو التي لم يكن لها وجود . ولنقل في كلمة جامعة إنه الجيل الذي كان يمشي حافي الأقدام منكشف الرأس على طريق لاتتبين له معالمها أو خط نهايتها، الجيل الذي كان يقتحم بدون زاد ولا معين عقبة المستقبل، ويسلك إليها دروباً ملتوية ملغمة محفوفة بالمخاطر، ومن ثم

فقد كان جيل الحرمان، وكان عليه أن يتكيف مع هذا الوضع ويقنع به في رضى، وكان الجيل الماضي يشكو- بتعبير آخر - من شدة الجوع الفكري، بينما الجيل الحاضر يتألم من أضرار التخمة .

أصغر عالم

إلى جيل الصعوبة هذا انتميت منذ نعومة أظفاري، وعانيت من صعوبته سعيدا بها في بداية التعلم وأناَ في الخامسة من العمر، وعاركت صعوبات العيش في البيت والمدرسة ولما تشتد ساعداي في طور المراهقة، وانغمرت في مشاكله الاجتماعية والسياسية وأنا في طورالبلوغ والشباب . وبدون زاد أو سلاح إلا إيماني بوجوب السير على خط البداية دون توقف، بلغت نهاية الشوط الأول من حياتي بحصولي على إجازة القرويين وأنا في تمام العشرين، فاشتهرت لذلك بلقب أصغر خريجي جامعة القرويين أو أصغر عالم كما كان يقال، إذ كانت إجازة القرويين تحمل قبل تنظيم القرويين اسم شهادة العالمية (بكسر اللام).

في عالم اليوم تتحمل الدولة في أغلب منطقة العالم الثالث نفقات التعليم المجاني في جميع أطواره، وتقر التعليم الإلزامي على الأقل في الطور الابتدائي. أما نحن الجيل الذي عاش في ظل استعمار معاد عنيد فلم نكن نحظى بمنح دراسية، وكان علينا أن نقتني الكتب التي لم يكن في وسع الطلاب الفقراء اقتناؤها بسهولة . وأكثرية الطلاب كانوا فقراء حتى لقد استمرت إلى عهدنا المقولة التاريخية :" لولا أبناء الفقراء لضاع العلم ."

وقد كنت وأنا بالقرويين أنتمي إلى أسرة تجهمت لها ظروف العيش قبل أن أولد بقليل، فقد كان والدي من البورجوازية المتوسطة بحكم أنه كان في مقتبل عمره يتعاطى تجارة الثياب بسوق القيسارية، ثم فتح دكانا بسوق العطارين بفاس، واستفاد من ذلك ما جعله وإخوتي الذين سبقوني إلى الحياة يعيشون في بحبوحة العَيش. وعندما شب بفاس حريق القيسارية والعطارين المشهور - قبل أن أرى النور- أتت النار على السوقين ملتهمة دكاكينهما ومعهما كل ما كان يملكه والدي، في وقت لم يكن قد دخل فيه للمغرب نظام التأمين المعوض للخسارات المطبق اليوم في بعض الأقطار، فحول هذا الحريق فجأة الأوضاع المادية لكثير من الأسر، وأصبح يؤرخ به كما يؤرخ بعام الثلج أو عام المجاعة على غرار عام الفيل .

القرآن موردي

ظل والدي يوفر لي الضروريات، وكان علي أن أبحث عن مورد لتوفير الكماليات التي كان في طليعتها اقتناء كتب الدراسة ووسائل الإيضاح التعليمية ومراجع الكتب الأمهات التي أصبحت في أمس الحاجة إليها في مرحلة التعليم العالي، وكان موردي الأول انتمائي إلى سلك " قراء الحزب " بعد صلاة المغرب بأحد مساجد فاس الموجود على بضع خطوات من سكناي. وقد تمكن والدي من أن يحصل لي من ناظر الأحباس (الأوقاف) الذي كان يحب والدي ويقدر ظروفه الجديدة على هذه الوظيفة التي أخذت تدر علي شهريا عشرة فرنكات (أو سنتيمات بتعبير اليوم) في وقت كان فيه سعر كيلو اللحم ثلاثة فرنكات .

هكذا وجدتني وأنا في سن الرابعة عشرة أحمد مغبة حفظي للقرآن كله في سن الثامنة . ولم أكن أتصور عند ختمي للقرآن آني قد أمنت لنفسي بذلك رزقا حلالا مباركا ذا مردودية مادية مضافة إلى أجر التعبد بتلاوة القرآن .

قراءة الحزب والمتون

وقد كان المغرب ولا يزال حريصا على أن يظل القرآن محفوظا في الصدور، وتنافس المغاربة الموسرون في جميع العهود في إيقاف موارد تصرف في حياتهم أو بعد مماتهم على حفظة القرآن. ومن هذه الموارد ما يصرف على الجماعات التي تجتمع بالمساجد لتتلو جهرا حزبا أو حزبين من القرآن كل يوم إثر الصلوات الخمس . وكان المحسنون أحيانا يضيفون إلى التبرع ببناء مسجد تخصيص موارد لصيانته ولأجور العاملين فيه من إمام ومؤذن وقارئي الحزب .

وتجاوز المغاربة ذلك إلى حد إيقاف موارد على من يقرأون القرآن بالقراءات السبع أو العشر، وأدركت جماعات من هذا الفريق من القراء كانوا يقضون أكثر من ساعتين في دكة القرويين المشرفة على صحنها بجانب الباب المؤدي إلى مأذنتها

ليقرأوا حزبا واحدا من القرآن، وكنا ننظر إليهم معجبين بقوة حافظتهم . وما يزال هذا النوع من القراء موجودا وإن أخذ عددهم يتضاءل .

وعندما طفا الحفظ بالمغرب في الظروف المتأخرة التي أومأنا إليها فيما سبق أضيفت تلاوة المتون وأمهات الكتب إلى تلاوة القرآن بقصد الحفاظ عليها أيضا مصدرا للتربية الدينية والثقافة الإسلامية . ولقد أدركت جماعة من حفاظ المتون كانت تتلو إزاء محراب القرويين جهرا كتاب مختصر الشيخ خليل (المصري) جزءا جزءا كما يتلو قراء القرآن المصحف حزبا حزبا . وكان أكثرهم - لامحالة- يحفظ دون فهم ما كان يتلوه، فمختصر خليل يكاد يكون من نوع الرموز التي لايخرق حجابها إلا الفقهاء الحاذقون الذي يستعينون على فكها بالشروح الضافية التي تخصصت في تفسير ذلك الكتاب وفك أسراره، ولكنه عندما كان يتلى جماعة بالسرعة الفائقة كان يبدو من نوع الطلاسم المعمّاة .

نواة المكتبة

تمكنت بعد الحصول على مورد العشر فرنكات أن أحظى بثقة بائع كتب كان يوجد دكانه بحي السبيطريين بمدينة فاس الواقع في مواجهة أحد أبواب جامعة القرويين الذي يدعى أيضا حي الكتبيين، وهو ما يقابل في المشرق العربي حي الوراقين، فأمكنني أن أتفق معه على أن يفتح لي حسابا أغذيه شهريا بجزء من راتبي مقابل كتب يبيعها لي " بالطلق " (حسب التعبير المغربي)، أي أني أخذت أقتني كل شهر كتابا أو كتابين تبرأ ذمتي من ثمنهما على أجل . ولم يكن التعامل بالطلق إلا استثناء كان الضامن فيه والدي الذي تعهد أمام الشريف القادري الكتبي بتسديد ما قد أعجز عن أدائه، فالتعامل نقدا كان القاعدة الجارية في التعامل إلى حد أنه فكر أحد المستثمرين الأذكياء في الاستفاذة من طبع عدد من اللافتات راجت في الأسواق المغربية ووضعت على واجهة الدكاكين كانت تحمل هذه العبارات المختصرة الجامعة : (الطلق ممنوع، والعتاب مرفوع، والرزق على الله .) أو الرزق مضمون، سلعتي معي إذا أطلقتها (أي بعتها إلى أجل) صرت ساعيا (أي سائلا مستجديا) أو مدعيا (لدى المحاكم).

وما أزال أذكر أن شراء كتاب المنجد في طبعته الأولى قد ازدرد مني نصف أجرتي أعني (خمس فرنكات)، وأني لم أتمكن من متابعة اقتناء نواة خزانتي

(مكتبتي) إلا بعد أن أصبحت متوفرا على موارد أخرى في مرحلة لاحقة . وقد كنت أتمم خصاص المكتبة بنسخ بعض الكتب مما يصغر حجمه، أو بنسخ فصول من كتب مطولة اعتبرتها مهمة لاتصالها بمواد الدراسة . وكان الطلبة يتعاونون فيما بينهم بتبادل إعارة الكتب، ويحدد الطرفان المستعيران مدة استضافة الكتاب بفترة لاتطول . وكنت أستعين في البيت بمكتبة أخي الأكبر (وهو من خريجي القرويين في العهد السابق لتنظيمها العصري) التي لم تكن تتوفر على كتب كافية لإرضاء تطلعي إلى الكرع من مختلف مشارب المعرفة، بحكم أنه كان - رحمه الله - من فصيلة الفقهاء.

وكانت خزانة القرويين تتيح لي التعرف على ذخائرها من نوادر الكتب وعزيز المخطوطات، ولكن كنا نتزاحم فيها بالمناكب مع علمائنا متهافتين على ذخائرها التي كان لا يسمح باستعارتها .

وكان للكتاب ذي الحرف العربي في عهدنا قدسية روحية خاصة يتميز بها عن الكتب " النصرانية " لم تعد له في زمننا اليوم، فقد كان العلماء يحرمون أن يلقي في الأزبال أو يداس بالأقدام أو ينزل المنزلة غير اللائقة كلّ ماهو مكتوب بالعربية التي شرف الله حرفها بأن أنزل به القرآن . وربما كانت ندرة الكتاب في ذلك العهد واحدا من أسباب الحرص على تحصينه من الابتذال والضياع .

وكان العلماء إن توفرت لهم موارد إضافية يستثمرون أموالهم خاصة في اقتناء الكتب وإقامة جناح خاص بها ببيوتهم . وكانت هذه المكتبات الخاصة هي أكثر ما يرثه عنهم أبناؤهم وذووهم . وما أكثر ماكانت تحفل به البيوت في مدن المغرب الكبرى من مكتبات خاصة حافلة بذخائر التراث قد لاتتوفر عليها المكتبة الوطنية العامة .

وتبقى خزانة القرويين مع ذلك أهم مكتبات المغرب وواحدة من نفائس مكتبات العالم الإسلامي . وكان قد ساهم في إغنائها وأمدها بالكتب قادة الحكم الذين تعاقبوا على المغرب . ويذكر المؤرخون أن السلطان إسماعيل العلوي طلب من الدول المعاصرة له التي وقع في يد المغرب أسرى من رعاياها أن تفدي كل أسير بتقديم مائة كتاب من ذخائر التراث الإسلامي الموجودة لديها، وأنه تجمع له بذلك خمسة آلاف كتاب نادرة جاء معظمها من خزائن الأندلس التي كانت

تحتضنها منذ العهد الإسلامي، وهذا مجرد مثال لاجتهاد المغرب في إثراء مكتباته بالغني من التراث .

مع الدكتور حميد الله

وعندما كنت طالبا بالجامعة في بداية الأربعينات كنت أغشى هذه المكتبة. وكنت ألاحظ باندهاش توافد باحثين عليها من مختلف أقطار العالم للتنقيب عن ذخائرها . وكان زوارها من العالم الإسلامي نادرين، فالحماية الفرنسية كانت قد ضربت حصارا سميكا على المغرب لتحصينه من تسرب العرب والمسلمين إليه، لكني حظيت مرة بالتعرف داخل المكتبة على عالم باحث استوقفني عنده زيه الوطني الهندي، وجسمه النحيل الذي كان يصل إلى شكل جهاز عظمي، لاحظته مدة يومين منصرفا إلى تنقيبه عن الكتب الساعات الطوال، فتقدمت إليه لأعرف منه أنه من شبه القارة الهندية، وأن اسمه محمد حميد الله . وعلمت أنه كان على موعد مع عبد الحي الكتاني ببيت هذا الأخير ليتعرف على نوادر كتبه بمكتبته في حي سيدي بوجيدة بفاس وكانت تحتوي نوادر الكتب والمخطوطات .

وقد وجدتني مشدودا إلى هذا العالم المسلم الهندي الذي أعجبت بسلامة لغته العربية وبتأثره بتراث العرب والمسلمين، وكنت آنذاك أتابع كفاح حركة التحرير الهندية بإعجاب، وأنظر إلى زعيمها غاندي نظرة الإكبار، فواتتني الفرصة للتعرف على واحد من مسلمي الهند في وقت لم تكن تبلورت فيه على الصعيد العملي فكرة إنشاء دولة الباكستان .

وقد رافقت الزائر الهندي من مكتبة القرويين إلى باب منزل عبد الحي الكتاني . وفي بداية طريقنا عرض علي مرافقته للتطلع على خزانة الكتاني التي قلت له إني لا أعرفها، فاعتذرت عن تلبية رغبته واغتنمت الفرصة لأعطيه ورقة تعريف عن الكتاني ولأفتح عينيه على حقيقة هذا الشخص حتى لايقع ذلك الزائر المفضال في أحبولة أباطيله . وقد ابتسم محمد حميد الله لحماسي وقال لي إنه حج للمغرب من أجل الوقوف على الكتب والمخطوطات حيثما وجدها، وأنه يفهمني، لكنه حريص على زيارة مكتبة الكتاني التي كانت جزءا من برنامج زيارته للمغرب.

وقد أنسيت ذكرى هذا الزائر الهندي بفعل السنين، إلى أن أصبح علما معروفا باسم الدكتور محمد حميد الدين وبكتبه وبحوثه القيمة التي ترجمت إلى

مختلف اللغات، وما أظن أنه يتذكر ذلك الطالب الشاب الذي تعرف عليه بمكتبة القرويين واتصل به خلال يومين .

ثم عندما أصبحت على رأس المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة منذ سنة 1982 تراسلنا، وعملت على أن يساهم في نشاطات المنظمة دون أن نثير إلى حد اليوم ذكريات قصة لقائنا الأول الذي لم يتكرر لحد اليوم . ولعله لو قدر له قراءة هذا الكتاب - أطال الله عمره - من مقامه بباريس لتذكر ما أذكره .

"بورصة الكتب"

ومما كان يشد طلبة القرويين إلى الكتاب إقامة سوق لبيع الكتب بالمزاد العلني في فناء جامع الجنائز الذي يعني المبنى الملحق بمسجد القرويين القائم خلف المحراب، والذي كانت توضع فيه نعوش الموتى للصلاة عليهم صلاة الجنازة .

وكان المزاد العلني على الكتب المعروضة للبيع يتم بعد نهاية صلاة الجمعة، ويزدحم عليه الأساتذة والطلاب من ذوي القدرة الشرائية أو من المتفرجين الذين يكتفون بالتعرف على عناوين الكتب وتتحلب أشداقهم لاقتنائها وتضيق بهم اليد عن الوصول إليها. وقد اشتريت في هذه السوق الثقافية بضعة كتب عندما أصبحت لي موارد أخرى .

والمهم في هذه السوق لم يكن فقط اقتناء الكتب بتقريبها من مشتريها، وإنما كان أيضا خلق حركة فكرية حول الكتب للاطلاع على نادرها وغريبها. وكانت ميزتها الخاصة وضعها الكتاب كبضاعة ثمينة وعملة نادرة في سوق القيم (البورصة) التي تتصل اليوم بالأسهم والسندات في تجارة القيم، فقد كانت قيمة الكتاب تتغير من أسبوع لأسبوع ومن شهر لشهر، مما أصبحت معه تجارة الكتب مغدقة أرباحا على المتربصين ببيعها في الآجال التي يرتفع فيها أسهم الكتب وعلى المستفيدين من رخصها عند نزول أسعارها . وقد كان تداول الكتب على هذه الوتيرة يساعد الطلاب على مواجهة صعوبات العيش والدراسة فيبيعون كتبهم بأسعار منخفضة عند الحاجة ثم يعودون لاقتنائها بأغلى عند اليسر .

تطلع نحو خرق الحصار

كان مغرب ما بين صيف 1937 سنة حظر الأحزاب الوطنية ونفي الزعماء، وصيف 1939 سنة اندلاع الحرب العالمية الثانية يعيش في حصار أحكم الاستعمار ضربه عليه . كان مغرب الأحكام العرفية التي فرضتها فرنسا منذ سنة 1912 حتى جاءت الحرب العالمية الثانية فأصبحت وطأتها على المغاربة أشد وأقسى. كانت الإقامة العامة الفرنسية تتوجس خيفة من هبوب رياح التحرر والانعتاق على المغرب العربي قادمة إليه من المشرق العربي بعد أن أعلن استقلال مصر والعراق وسوريا ولبنان .

وفي ظل الحصار الخانق، وبمقتضى سياسة إحكام القطيعة بين جناحي العروبة كان يندر اجتياز الكتاب العربي حدود المغرب المقفلة في وجه كل ماهو عربي إنسانا وإنتاجا . وكان النادر الذي يخترق ذلك الستار الحديدي هي الكتب والصحف والمجلات الأدبية التي كانت الحماية الفرنسية تخضعها مع ذلك لرقابة دقيقة قبل الإفراج عنها، وكان الإنتاج الأدبي المصري يتصدر قائمتها .

كتب وصحف عربية

ومن معين هذه الكتب والصحف محدودة العدد كان المثقفون أو من يسعون لإكمال ثقافتهم من المغاربة يرتوون وينهلون .

وفي فترة ما، احتلت " مجلة الرسالة " المصرية التي كان يديرها أحمد حسن الزيات مقام الصدارة في الصحافة العربية . وقد كانت تستقطب على صفحاتها أقلام أعلام النهضة الفكرية في مصر، وبعض الكتاب المرموقين القليلين من خارج مصر . وكنا في الفترة التي نتحدث عنها نتزاحم زرافات ووحدانا على مكتبة توزيعها بمدينة فاس فلا يظفر منا باقتناء أعدادها المحدودة إلا المحظوظون، لأن الطلب كان أكبر من العرض، مما كان يدفع بعض المحظوظين الكرماء إلى إعارتها

ككنز ثمين. ثم تلتها مجلة " الثقافة " لأحمد أمين في نفس الظروف التي جعلت منها في المغرب أيضا عملة نادرة .

كنت واحدا من " أصدقاء مجلة الرسالة" المواظبين على متابعة أعدادها ودراسة مقالاتها وبحوثها القيمة، وقد أطلقنا على أنفسنا اسم " أعضاء نادي الرسالة " وعلى نادينا إسم " نادي أصدقاء الرسالة ". ولم يكن لهذا النادي مقر أو بطاقة عضوية، وإنما كنا نلتقي حيثما تيسر لنتدارس ما جدّ من بحوث " الرسالة " في طي كل عدد يصل منها إلى المغرب، ولنتحاور هادئين أو صاخبين حول ما كان يقسم رجال الفكر في مصر من اجتهادات أدبية أصبحنا نحس أننا طرف أصيل فيها . وكان الطالب المرحوم " أحمد لحلو " أنشط أعضاء النادي وأشدنا تكيفا بما يقرأه على صفحات " الرسالة"؛ حتى أنه أصبح لا يرى في شوارع مدينة فاس إلا وهو متأبط أعدادها، مسترسل في حوار يثيره حول مواضيعها مع من يلقاه من قرائها من ذواقي الأدب وعشاق الكلمة، بل إنه كان - رحمه الله - لا يفتأ يدعو لبيته من يقوى على حواره في مواضيع " الرسالة "، شافعا طول نَفَسه في الحوار والمجادلة بإكرام الوفادة وإحسان الضيافة .

وقد كان مفتتنا (ولا أقول معجبا) بالمرحوم مصطفى صادق الرافعي : يحفظ مقالاته بيسير من الجهد، ويفاجئنا كل مرة باستظهاره أمامنا عن ظهر قلب ما جد له على صفحات الرسالة، مرتلا على مسامعنا ثلاثياته المبدعة، منفعلا بها هائجا متململا في تأثر تطفح به سرائره، مترنحا صائحا بعد كل مقطع : الله الله ! كما لو كان يهيج لصوت مطرب لذيذ النغمات، من أجل ذلك أصبحنا ندعوه " أحمد لحلو الرسالة " وكم كان سعيدا ومعتزا بهذا اللقب .

المعارك الأدبية

كنا في هذا النادي نتحاور حول ما عُرف في دنيا الأدب العربي بالمساجلات والمعارك الأدبية التي احتدمت بين طائفة من الكتاب والنقاد العرب، ووزعت صفوفهم بين أنصار مدرسة البحث الحر والتجديد إلى حد الثورة على المتعارف والمسلّمات التي لم تكن موضوع التساؤل أو مثار الجدل، وبين أنصار المحافظة المتعصبة للقديم، أو المتشبثة بالأصالة .

هكذا احتدم الخلاف بين من أطلق عليهم اسم أنصار العلم ومن أطلق عليهم

اسم أنصار الدين .وكان الدكتور طه حسين قد تجرأ فكتب في مجلة " السياسة الأسبوعية" في منتصف العشرينات " أن الدين في نظر العلم الحديث ظاهرة كغيره من الظواهر الاجتماعية، لم ينزل من السماء ولا هبط به الوحي، وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها". وهذه كانت إحدى شطحاته التي تراجع عنها فيما بعد، لكن بعد أن تصدى له بالنقد علماء دحضوا شبهه، وكان من بينهم دكتور في علم الكيمياء ناقشه باسم العلم هو محمد أحمد الغمراوي، كما رد عليه الشيخ مصطفى عبد الرازق، ومحب الدين الخطيب الذي استشهد بكلام أقطاب العلم في أوروبا الذين انتهوا إلى أن الدين والعلم صنوان لا يفترقان، وذكر من بينهم " ماتينيون" أستاذ الكيمياء المعدنية في كوليج دوفرانس، و"بول إميل " العالم الرياضي الفرنسي، و" بوفيه " رئيس أكاديمية العلوم الفرنسية .

وكنت أتابع تطورات ما كان يشكل فضيحة الدكتور زكي مبارك على إثر نشره رسالته للدكتوراه " الأخلاق عند الغزالي " التي نعى فيها على هذا الإمام انعزاله عن المجتمع السياسي وتقوقعه وابتعاده عن الضجيج الذي كانت تثيره الحرب الصليبية في عهده، وانتهى إلى وصفه بالجبن . ثم تراجع عن ذلك كله سنة 1940 حيث كتب معتذرا عن ظلمه للغزالي في مقال قرأته له في حينه في "مجلة الرسالة " بعنوان :" أعتذر إليك أيها الغزالي" ختمه بأن الغزالي ليس من الجبناء ولكن من الحكماء. وكما بهرني بجسارته وتطاوله على مقام الغزالي وكما استغربت اقتحامه قلعة إسلامية عظمى بالنقد والتجريح أكبرت فيه بعد قراءة " مقال التوبة " شجاعته التي أملت عليه التوقف عن التمادي في الباطل والرجوع إلى الحق .

وكنت أتابع معركة أخرى تجاسر على إثارتها " زكي مبارك " نفسه في كتابه "النثر الفني "واعتبرتها آنذاك أخطر من سابقتها، لأنها كانت تمس القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، خاصة وقد أتى الباطل على لسان عالم سبق أن انتسب للأزهر، مفروض فيه أن تحصنه تربيته الأساسية من الوقوع في زلات الفكر الملحد، ولم يشف غليلي إلا عندما قرأت رد الدكتور محمد الغمراوي الذي أدانه بثلاث تهم هي دعوته لنقد القرآن، وإنكاره إعجازه، وتلويحه إلى ما قد يفيد أن القرآن من كلام البشر. وقد دحض الغمراوي بحججه الدامغة الترهات التي جاءت في كتاب " النثر الفني "وسفه صاحبها. ومنذ ذلك تألق اسمه وذاع صيته بين الكتاب والنقاد، بعد أن توفق في مبارزة طه حسين وزكي مبارك وتفوق فيها.

وفي مجال تطوير اللغة العربية كنت أتابع المعركة التي احتدمت بين سلامة موسى ومعارضيه، حيث كان يدعو الكتاب العرب إلى التخلي عن الأسلوب البياني إلى الأسلوب التلغرافي، وإلى تبني اللغة العربية كلمات أعجمية كما هي في لغاتها بدون تحريف ،و دون أن يتقيد هذا التبني بأي شرط أو قيد، بل دعا حتى إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية على غرارما فعله أتاتورك بلغة الترك التي استبعد كتابتها بالحرف العربي، سعيا منه لا جتثاث حاضر الأتراك من جذور الماضي .

وكان سلامة موسى قد نشر في جريدة " البلاغ " سنة 1934 مقالا تحت عنوان "اللغة لخدمتنا، ولسنا نحن لخدمتها "، مما جاء فيه :" إن الفاظ اللغة ليست مجموعة من الجواهر التي تحفظ في علبة يقال لها المعجم، ولا يمسها أحد إلا بعد أن يتطهر . فلتكن غايتنا هي أن نستعملها للتخاطب المجرد . ومن هذا المنطلق فإن كثيرا من قواعد اللغة يمكن تنقيحه والاستغناء عنه من الآن ".

وهذا يعني دعوة إلى مسخ اللغة العربية وسلخها عن جلدها لتصبح غير نفسها، وإلى إغراقها في خضم استلاب ثقافي، لم تندفع في مجراه أية لغة ذات جذور و أبعاد تاريخية .

وفي هذا المجال فاجأني الدكتور زكي مبارك بتشبثه بأصالة اللغة العربية. ولم أكن أتوقع ذلك من صاحب كتاب " النثر الفني ". وجاء ذلك مؤكدا اتجاهه التصحيحي لما انزلق فيه من قبل، إذ سل سيف قلمه على رأس سلامة موسى ومن لفوا لفّه معارضا ومدللا على تفاهة اتجاههم، وناعتا أفكار سلامة موسى "بالتقاليع " قائلا : "إنه يستعمل هذا التعبير من اللغة المصرية العامية العزيزة على سلامة موسى الذي كان يدعو إلى استعمالها " بدلا عن الفصيحة. وقد تلقف عبد العزيز فهمي من سلامة موسى فكرة كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية وقدم بذلك اقتراحا إلى مؤتمر مجمع فؤاد الأول للغة العربية في اجتماعه في يناير (كانون الثاني) سنة 1944 . ولسوء حظه فشل اقتراحه الذي لم يثر في المجمع إلا زوبعة في فنجان كما يقال .

وتابعت أيضا المعركة الحامية التي قامت بين طه حسين ونقاده بعد نشره كتاب "في الأدب الجاهلي " رغم تصحيحه في هذا الكتاب بعض الأفكار التي ظهرت في كتابه الأول" في الشعر الجاهلي " الذي أصدره في العشرينات . وبالرغم من إعجابي بصاحب كتابي " الأيام " و " حديث الأربعاء " فإني استمتعت بردود

مصطفى صادق الرافعي عليه في كتابه " على السفود ". وكان يلذ لي ترديد بيتيه الساخرين اللاذعين :

إسفنجةٌ أتت لشرب البحـر وشمعة ضاءت في وسْط الظهرِ
والشيخ طه في انتقاد الشعر ثلاثة مُضحكة لَعَمْـــــــري

استشراق واستغراب

ولا أود أن أسترسل في ذكر هذه المساجلات التي اتسعت لعدة مواضيع ومحاور، وتعارضت فيها شخصيات عربية مرموقة كان من بينها بالإضافة إلى كتاب النثر شعراء مثل الزهاوي، وساهم فيها العنصر النسوي أمثال عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ووداد السكاكيني، ومسيحيون : أمثال لويس شيخو، ونقولا حداد.

ولقد كان علي أن أراجع نفسي وأعيد النظر في تقييماتي لهذه المعارك والمساجلات بعدما أخذت أتعرف في فترة لاحقة على النزعات الاستشراقية التي استهدف بعضها بالتحريف والتشويه والتشكيك تراثنا العربي الإسلامي . عند ذلك أدركت أن تلك الأفكار الجريئة التي تقدم بها طه حسين، وزكي مبارك، وسلامة موسى، وأمثالهم وكان يستغوون بها شبابا غفلا مثلي إنما كانت ترديدا لجسارة بعض المستشرقين وتطاولهم على تراثنا بالتشويه والتشكيك .

الحركة الأدبية بالمغرب

كما تأثرت الحركة الوطنية المغربية في بدء نشأتها بالسلفية التي ازدهرت بالمشرق العربي وخاصة بمصر، تأثرت الحركة الأدبية المغربية بأختها المشرقية، ولاسيما بالتيار النقدي الذي طبع إنتاج كتاب المشرق العربي في حركة المعارك والمساجلات الأدبية التي أشرنا إليها .

وكنت أتابع مجرى هذه الحركة الأدبية الناشئة التي انطلقت بالمغرب مع انطلاقة الحركة السياسية، ولكنها لم تخفُت بخُفوتها سنة 1937، بل إن المقالة الأدبية خلفت المقالة السياسية التي اغتالها الاستعمار وهي ماتزال في بداية تألقها.

كانت المقالة الأدبية تملأ صفحات " مجلة المغرب " التي كان يصدرها صالح ميسة، و" المغرب " اليومية التي كان يصدرها سعيد حجي، و" مجلة الثقافة " التي

كان يشرف عليها علال الجامعي، ومجلة «رسالة المغرب» التي كان يشرف عليها الفقيه محمد غازي، وصحف أخرى كانت تُصدِر ملاحق ثقافية غنية ببحوث ودراسات أدبية، وتُبرز ظهور حركة نقدية ناشئة.

على صفحات " مجلة المغرب " كان يلذ لي أن أقرأ من بين أبوابها الأدبية زاوية النقد التي كان يكتب فيها صديقنا المرحوم محمد بن العباس القباج مستعيرا لإمضائه اسم ابن عباد، وكان يضع على مشرحة التجريح إنتاج الشعراء المغاربة المعاصرين، ويتبع منهاجية النقاد المصريين محتذيا حذو الرافعي - مثلا - في كتابه "على السفود "، كما كنت أقرأ له ما كان يكتبه في صحـــيفة " المغرب " اليومية في زاوية " حديث المجالس " وتحت عنوان " لذعات بريئة "، وهي لذعات لم يسلم منها أي شاعر معاصر مرموق . ومن بين من تطاولت عليهم لذعاته المرحوم علال الفاسي الذي كان يعرف بشاعر الشباب فكتب يقـــول عنه :" ولقد يسرف بك علال في قصائده تطويلا حتى تجف القافية لديه، ويضطر لاستعمال الغريب،مما نضطر معه لوضع المعجم بجانبنا لحل ما استغلق وفك ما استشكل ".

وهذا الاتجاه النقدي سلط الأضواء على المرحوم القباج فأصبح بذلك رائد حركة النقد الأدبي، لأنه أبدع فيه، ولأنه صمد في وجه الردود التي كان يرشقه بها من مسّتهم لذعاته أو من دافعوا عنهم، فتجاوز بذلك مستوى الكاتب العادي الذي ظهر به لأول مرة عندما جمع الإنتاج الأدبي المعاصر في كتاب أطلق عليه اسم " تاريخ الأدب العربي بالمغرب الأقصى "، ولم يتناول فيه بالنقد والتقييم ما صنفه فيه من مقالات وأشعار لم يكن له فيها إلا فضل جمعها، ولكنه - مع ذلك- سد بجمعها ثغرة في تاريخ الأدب المغربي المعاصر .

كنت أتابع مقالات هذه الصحف وأمثالها مما حفلت به صحافة مغربية أخرى. وكانت الأقلام تتبارى على صفحاتها بين الكتاب المغاربة الذين كانوا لايحسنون إلا العربية ممن درسوا بالقرويين أو بكليات ومعاهد عربية، وبين مزدوجي اللغة الذين اقتحموا مجال الكتابة العربية بعد أن تخرجوا من معاهد الحماية الثانوية .

ويمكن القول إن الفترة المتراوحة بين سنتي 1937 و 1944 سجلت ظهور حركة أدبية مغربية تميزت بطابع قومي أصيل، وأفرزت تطور المقالة الأدبية في اتجاه المعاصرة والتجديد، بينما كان الإنتاج الأدبي قبل ذلك سجين الفكر التقليدي القائم على التقليد والاقتباس من الإنتاج الأدبي الذي انقرض في المشرق العربي سنوات من قبل .

وكانت جريدة " السعادة " التي تحدثنا عن دورها السياسي في فصول سابقة "ومجلة المغرب "(في بداية تأسيسها وقبل أن تتطور إلى منبر أدبي يعكس الحركة الأدبية الجديدة) تفتحان صفحاتهما لنشر ذلك النوع التقليدي من الأدب الذي كان في أغلبه أدب مناسبات، وكانت أشعاره لاتحرك ساكنا ،ولا تثير كامنا مما يبعدها عن الشعر الذي قال عنه الزهاوي :

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه فليس خليقا أن يقال له الشعر

وبذلك تصبح مجرد ألفاظ وأوزان كما قال هو أيضا :

والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة أو فكرة فهو ألفـــاظ وأوزان

أي مجرد نظم وتلفيق .

وتميزت هذه الفترة أيضا بظهور كتابة تاريخ أقاليم المغرب، فقد ظهركتاب تاريخ مكناس لعبد الرحمن ابن زيدان، وتاريخ الرباط لأبني جندار، وتاريخ سلا للدكالي، وتاريخ مراكش (الإعلام) للتعارجي، وتاريخ أسفي (أسفي وما إليه) للكانوني، وتاريخ الصويرة للرجراجي .

إذاعة الرباط

وعلينا أن نسجل ونحن نرصد تطور الحركة الأدبية الجديدة في المغرب أن إذاعة الرباط ساهمت في بث ما حفل به النشاط الأدبي في هذه الفترة على أمواج الأثير، وأفسحت المجال لعدد من الأدباء المغاربة الذين ذكرت أسماء بعضهم للتحدث يوميا أو موسميا في الشؤون الأدبية .

ونشاط سياسي

و بجانب ما كنت أبذله من جهد دراسي تعلما وتعليما كنت أمارس نشاطا سياسيا بمشاركتي في التجمعات التي كانت تقيمها في بعض المناسبات خـــلايا " حزب الحركة القومية " هذا الحزب الذي كنت انتميت إليه سنة 1937، أي عندما كنت في سن الرابعة عشرة من العمر، لذلك لم أحتك بزعمائه آنذاك ولم أكن بين صفوف قيادته الأولى، لكني ظللت وفيا له بعد أن أنزل الجنرال نوجيس ضربته على الحزبين الوطنيين، وأبعد زعيميهما واستصدر أحكام السجن على قادتهما .

ونتيجة لهذا القمع لم يعد مجال للعمل الوطني السياسي العلني الذي أصبح محظورا وخاضعا لطائلة الأحكام العرفية، لكن أنصار الحركة الوطنية الذين كانوا يوجدون خارج السجون - سواء منهم من لم يعتقل في حوادث سنة 1937، أو من أتم عدة السجن وأطلق سراحه - كانوا يغتنمون أية مناسبة تاريخية غير سياسية للدعوة إلى التجمعات الشعبية للاحتفاء بها أو لتخليد ذكرى الأربعين لشخصيات علمية .

وأذكر أني شاركت زملائي القوميين في إحياء ذكرى الهجرة وذكرى المولد، وفي الاحتفاء بذكرى الشيخ عبد الرحمن ابن القرشي سنة 1938، وكان قصدنا تنشيط حزبنا المحظور، والإبقاء على الاتصال بالجماهير، وتحسيسها بعبر المناسبات التاريخية التي كنا نحتفي بها، وإظهار مدى تعلقنا نحن الشباب الصاعد بقيمنا الروحية، وإبراز معالم شخصية بلادنا التي كان المستعمر يعمل لمحوها وإذابتها في ذاتيته . وكنا نغطي ذلك بستار التظاهرات الأدبية والعلمية التي لم تكن الإقامة العامة الفرنسية بالرباط تسمح بغيرها .

أسلوب الرموز

وفي هذه التظاهرات كنا نخاطب الجماهير بلغة الرموز، أو كنا نبعث إليها خطابا سياسيا مغلفا بالإشارة التي كانت تعيها وتجيب عليها بالتصفيقات والهتافات حتى لقد كان الاجتماع يتحول إلى تظاهرة سياسية لا تُبين عن نفسها، ولا يظفر فيها أرصاد الحماية وعيونها - الذين كانوا لامحالة يندسون بين الجماهير - بتصيد ما ينفع تبليغه لأربابهم عنا مما قد يدخل العقاب عليه في طائلة قوانينهم الجائرة .

هكذا اخترت الحديث في تجمع ذكرى الهجرة عن " مغزى الهجرة وعلاقتها بالتضحية والفداء " . وكانت الجماهير تفهم أن تضحية النبي عليه السلام وفداء صحابته يستلزمان من جميع المسلمين أن يضحوا ويفدوا، وأن مقاومة الطليعة الإسلامية الأولى بقيادة الرسول درس يملي عليهم التأسي بها في مواجهة الاستعمار. وحين كنا نشير إلى تعسف قريش وكيدها كانت الصورة تكتمل في أذهان الجماهير عن كيد الاستعمار وأساليب قمعه واضطهاده، وعن وجوب مقاومته والصمود في وجهه . وعندما كنا نثير تسابق الصحابة للاستشهاد كانت

تجهر بالتكبير وتسر العزم على السير على نهجهم القويم في فداء الدين والوطن .

وكان التيار يمر بيننا وبين الجماهير عبر هذا الخطاب المرموز وبهذا الأسلوب. ولم يختلف قط تجاوب الجماهير مع الخطباء ولم يتخلف قط . وعشت نفس المشهد عندما ساهمت في ذكريات أخرى، معالجا موضوع "عظمة محمد الرسول" أو متحدثا عن الصحابة في حديث كان عنوانه :" النماذج البشرية المثلى"، أو في خطابي المعنون " الإسلام دين سلام لا دين حرب ".

كانت الجماهير تصيخ السمع النافذ إلى القلوب لقصائد الشعراء كذلك. عشت ذلك عندما ساهمت بقصيدة من أربعين بيتا نظمتها في ذكرى الأربعين للمرحوم الشيخ عبد الرحمن إبن القرشي الذي كانت الجماهير تعي تاريخه وقصة بطولة كفاحه . فقد كان استقال من منصب وزير العدل احتجاجا على السياسة الفرنسية المعروفة بالسياسة البربرية، ونزل إلى مستوى الجماهير للاحتجاج والتظاهر ضدها . ونال الأذى من موقفه الشجاع فأجبر على الإقامة المحروسة في بيته، واعتزله بعض أصدقائه خوفا وجبنا، فضمنت قصته هذه في مقطعين من القصيدة التي أشرنا اليها في فصل سابق. وتفاعلت الجماهير معهما، خاصة عندما أشرت إلى ذلك الرهط من أصدقائه الذين تخلوا عنه في البيت التالي :

قولة الحق والصراحة لـــم تبق له صاحبا وفيًا أمينا

وقد كان تمجيد صراحته وشجاعته وتكريم قيمه وترسيخها في أعماق الجماهير غايتنا من إحياء ذكراه .

وعندما أخذت مقعدي بين طلاب الجامعة في السنوات الثلاث المحددة للتخصص المحضرة للإجازة توفرت لي أسباب المساهمة في الحركة الأدبية بما كنت أنشره باسمي أو بإمضاء مستعار في الصحافة الأدبية بالمغرب وفي جريدة "الثريا"، والزهرة " التونسيتين. وأذكر من بينها دعوتي إلى توحيد شهر الصيام والأعياد، مدللا على ذلك بحجج دامغة من وجهة نظر الذين الإسلامي ومصلحة المسلمين، معتبرا أن تفرق المسلمين في ذلك يستجيب لغايات سياسية لا تمت للدين بصلة . وقد نشر هذا المقال سنة 1943 . ولسوء الحظ فإن هذا الموضوع مازال موضوع الساعة، ولم يتقدم خطوة على طريق حله على مدى أزيد من أربعين سنة.

وبكل أسف لا أحتفظ بهذا الرصيد الأدبي الذي طالما شكوت افتقاده إلى بعض أصدقائي الحميمين، مما دفع أحدهم إلى أن يبعث لي منذ سنتين نسخة مصورة لقصيدتي " أنات طفل " التي استعدتها بهذه الطريقة كهدية ثمينة ظفرت.

بها من ذلك الأخ المراسل الذي لم أتمكن من مكافأته لأنه حرص على أن لا يذكر اسمه .

ربما فاجأت الكثير ممن لم يعرفوني أو لم يزاملوني في فترة ما بين سنوات 1937 و 1944 التي أروي ذكرياتها بالتحدث عن قرضي الشعر عندما ذكرت مرتين في هذا الكتاب وفي مناسبتين مختلفتين أني ساهمت بقصيدة شعرية في ذكرى المرحوم عبد الرحمن ابن القرشي التي أقمناها له سنة 1938 بعد مرور أربعين يوما على وفاته، وأن قصيدة لي بعنوان " أنات طفل " قد نشرت لي بالمغرب وتونس خلال تلك الفترة، فأنا عند الكثيرين من قرائي كاتب أديب أو سياسي أو مؤرخ أو ما يحلو لهم أن ينعتوني به، لكني على كل حال لست عندهم شاعرا، خاصة وأني لم أنشر لي ديوانا ولم أطمح إلى مزاحمة الشعراء بالمناكب عندما أصبحت معروفا على الساحة الفكرية.

بداية صلتي بالشعر

بيد أن تحدثي عن مساهمتي الشعرية في تلك الذكرى تتيح لي فرصة الحديث - في هذه الذكريات - . عن صلتي بالشعر في فترة خاصة من حياتي : فترة الشباب المبكر، وبالضبط عندما بلغت الخامس عشرة من العمر وأنا أرتاد رحاب القرويين، وأتصل عبر مطالعاتي بالشعر والشعراء.

أصبحت أميل إلى قرض الشعر بعد أن تسلحت لذلك بدراسة قواعد علم العروض التي كانت ضمن مواد الدراسة بالقرويين في الطور الثانوي، وبعد أن حفظت منذ بداية دراستي بالمدرسة وعبر القرويين الكثير من الشعر القديم والحديث، وضمن ذلك المعلقات التي كنت أستظهر جلها، وقصائد متنوعة منتقاة من دواوين الشعراء من مختلف العهود : من الشنفرى والسموأل إلى الطغرائي والمتنبي وأبي تمام والبحتري، ومن شوقي وحافظ إبراهيم والزهاوي إلى الشابي ومحمود حسن إسماعيل وإيليا أبو ماضي.

ولقد كنت عندما شرعت في اقتحام قلعة الشعر متأثرا بما وعته ذاكرتي خاصة من الشعر الرصين الذي كان أول ماحفظت، إلا أني بعد قراءة الشعر الحديث تأثرت بمدرسته ومنهاجيته في بعض قصائدي التي واكب نظمها سنوات الحرب العالمية الثانية حيث أصبحت فتى يافعا أكثر وعيا .

ولقد شدني ثلاثة شعراء محدثون إليهم، هم أبو القاسم الشابي التونسي الذي

كان ينشر قصائده المجموعة في ديوانه " أغاني الحياة "،وإيليا أبو ماضي صاحب "الطلاسم "، ومحمود حسن إسماعيل الذي استمتعت بقراءة ديوانه الأول " أغاني الكوخ " فديوانه الثاني " هكذا أغني " . وعند إصداره هذا الديوان توقفت عن قرض الشعر، ولم أعد أركض وراء دواوينه الأخرى التي توالت حلقاتها فيمابعد .

هجر الشعر

ثم انقطعت عن قرض الشعر بعد أن انغمرت في معتركات صرفتني عن الخيال إلي حقائق الحياة . ولم يعد يهزني هاجس الشعر إلا عندما أجالس بعض الشعراء فأساهم في مساجلاتهم الأدبية بأبيات معدودات .

وذو الشوق القديم وإن تعزّى مَشُوق حين يلقى العاشقينا

ومن ذلك ما كان يحفظه الصديق الشاعر المرحوم عمر الأميري من مساهمة لي في مساجلة شعرية راجت بينه وبين المرحوم علا ل الفاسي وكنت ثالثهم في مناسبة استقبال بأحد فنادق الرباط، فانتظمت من مساهمتنا الثلاثية قصيدة كان يحفظها الصديق الأميري ويلذ له ترديدها في المجامع من بين ماكان يتلوه في المجالس من روائع الشعر والأدب .

الشروع في تعلم الفرنسية

وعلى خطوات المسيرة وجدتني أستشرف المستقبل.وأنا أمضي قدما على طريق الحاضر . ومن هذا المنظور قررت ضمن سلسلة التدابير التي حولت مجرى حياتي أن أقتحم صعوبة تعلم اللغة الفرنسية وأنا في سن السابع عشرة من العمر، فقد آمنت أنها وسيلتي إلى تغيير منهج تفكيري وانتشالي من السير الرتيب على وتيرة واحدة، وطريقي السالك إلى ارتياد آفاق رحبة تتسع بها مداركي وتتنوع بها مسالكي إلى المعرفة التي كنت أحلم بها شاملة بدون حدود، متنوعة لا تنغلق جدرانها ولا تفضي إلى باب مسدود.

وقد لا يصدّق جيل اليوم أني شرعت أنقل بدون معلم في دفتر خاص الحروف الهجائية الفرنسية من كتاب فرنسي مدرسي إعدادي لتعلم اللغة الفرنسية، وأني أخذت أستعين بمن ينطق أمامي بالكلمات المثبتة في دفتري للتأكد من الوعي

بنطقها السليم، وأني كنت أردد ما أقرأ وأسمع في صعوبة كاد ينفد معها صبري إلى حد أني اقتنعت ذات يوم أنه ما كان لفتى في سني أن يظل يصارع المستحيل، وأن "عمرا شب عن الطوق"، فاللغة إنما يتعلمها الأطفال في سن تعلمها على مقاعد الدراسة بالمدارس بالوسائل التعليمية الكفيلة باحترائها .

بيد أني لم ألبث أن أدركت أن طريقة التعلم التي حبست فيها نفسي هي مصدر صعوباتي ويأسي، فاهتديت إلى أن أتبادل تعليم اللغة العربية مع أحد تلاميذ ثانوية مدرسة مولاي إدريس بفاس مقابل تلقينه إياي الفرنسية . وكنت أقرأ كتابا فرنسيا في مستواي كلما تقدمت خطوات بهذه الوسيلة في طريق التعرف على اللغة الفرنسية نطقا سليما وكتابة مضبوطة بقواعدها، وكنت أحفظ من المحفوظات الأدبية الفرنسية نثرا وشعرا ما يعزز مداركي ويقوي رصيدي اللغوي، وأنصرف الساعات الطوال لدراسة مقارنة لنصوص مترجمة من الفرنسية إلى العربية مستنجدا بالمعاجم العربية الفرنسية أو الفرنسية العربية .

هكذا كنت أقارن بين النص الفرنسي وترجمة الزيات - مثلا - " لبحيرة لامارتين" أو بين قصة مترجمة إلى العربية من قصص لافونتين ونصها الفرنسي، وكنت أحفظ النص بالفرنسية كما أحفظ ترجمته بالعربية . وكان يلذ لي أن أقرأ من الكتب بالفرنسية ما كنت قرأته مترجما إلى العربية من قبل، حتى إذا ما بلغت مرحلة الإجازة بالقرويين في صيف سنة 1943 ارتفع مستواي في اللغة الفرنسية بما جعلني أشرع في الترجمة منها إلى العربية .

وفي سعيي للولوج إلى إتقان الفرنسية من كل باب آثرت برفقتي فوجا من تلاميذ ثانوية مولاي إدريس على زملائي بالقرويين، حرصت على إفادتهم من آداب العربية بقدر ما كانوا يفيدونني من الأدب الفرنسي . وقد سمحت لي مواصلة رفقتهم بحذق النطق باللغة الفرنسية بطلاقة لا تشينها لكنة، وهو ما لا يتيسر عادة لمن يتعلمون اللغات في السن التي شرعت فيها بطريقتي في تعلم الفرنسية. ومايزال الفرنسيون ومن قرأوا اللغة الفرنسية بالمدرسة في سن مبكرة لايصدقون وهم يسمعونني متحدثا أو خطيبا بها أني تعلمتها في البداية بدون معلم، وأني لم أشرع في تعلمها إلا بعد أن جاوزت البلوغ بثلاث سنوات .

وفي حديث جرى حضرته أخيرا بين جلالة الملك الحسن الثاني ووزير الثقافة الأسبق بفرنسا زميلي في أكاديمية المملكة المغربية "موريس دريون"، ذكر جلالته للوزير الفرنسي كيف تعلمت الفرنسية، فتوقف الوزير مستغربا وقال : لولا أن

من رواها، لأنه - كما قال - قد اتصلت علاقتنا منذ سنوات، ولم يكن يخطر بباله أني اقتحمت تعلم الفرنسية في المَرحلة الأولى بدون معلم وخارج مدارسها .

وأصدقائي المقربون لي يعلمون أني مارست تعلم الأنجليزية وقد تجاوزت الأربعين، وأن ما أدركته من تعلم هذه اللغة مما يساعدني اليوم على قراءة الرسائل والصحف بها وما يجعلني لا أحتاج إلى ترجمان في الأحاديث العادية، إنما أدركته بنفس الطريقة التي جعلتني أمتلك بها اللغة الفرنسية .

وأرجو أن يكون من ذلك حافز لشبابنا ليقتحم غمار المعرفة ويخترق حجبها في كل سن وطور، فالعلم مطلوب من المهد إلى اللحد، وتعلم اللغات السبيل إلى النفوذ إلى الثقافات العالمية. ومن يملك لغتين يملك لسانين وحضارتين، ويفقه بقلبين، والأمي في عالمنا عالم التواصل هو من لا يعرف إلا لغة أمه.

ويبقى علي أن أعترف أني عندما شرعت في تعلم الفرنسية كتمت في تصميم ومكر هذا النبأ عن زملائي بالقرويين الذين لم يكن واردا عندهم التفتح على اللغات الأجنبية في الفترة التي أتحدث عنها، إذ كنت أريد أن أوفر لمن تآمروا علي منهم مفاجأة من هذا النوع تحرق حسدهم كما تحرق النار الحطب، حتى تتباعد بيني وبينهم الفجوات، ويكون ذلك ردي على مكرهم الآثم .

انتهى الجزء الأول

محتويات الجزء الأول

مقدمة الجزء الأول 5
الفصل الأول: أطماع ومناورات 11
الفصل الثاني : الحماية والمقاومة 25
الفصل الثالث: تعليم في خدمة الحماية وتعليم وطني 45
الفصل الرابع : الإصلاح والسلفية ونشأة الحركة الوطنية 59
الفصل الخامس: في فترة مخاض المشرق العربي وتفاعلات المغرب العربي 101
الفصل السادس: التنظيم السياسي المبكر للحركة الوطنية المغربية 135
الفصل السابع : المؤامرات الإستعمارية لتمزيق المغرب 147
الفصل الثامن : الظهيرالبربري .. من المقدمات إلى المواجهة 159
الفصل التاسع : صوت الحركة الوطنية في المشرق العربي واروبا 195
الفصل العاشر : ذكريات دراستي في المدرسة الخضراء.. 207
الفصل الحادي عشر : نشأة الصحافة الوطنية بالمغرب 247
الفصل الثاني عشر : العرش المغربي .. جهاد وبطولة 265
الفصل الثالث عشر: الحركة الوطنية المغربية: التنظيمات السرية الأولى 283
الفصل الرابع عشر : وجوه في الزحام 299
الفصل الخامس عشر : مطالب الشعب المغربي وتأسيس كتلة العمل الوطني 303
الفصل السادس عشر: تأسيس حكومة الجبهة الشعبية بفرنسا 333
الفصل السابع عشر : شمال المغرب في ظل نفوذ اسبانيا 351
الفصل الثامن عشر: بوادر الخلاف في كتلة العمل الوطني 391
الفصل التاسع عشر: ظهور الأحزاب السياسية ذات الاهتمامات المشتركة 415
الفصل العشرون : المغرب في عهد الجنرال نوجيس: الانحدار إلى الهاوية 435
الفصل الحادي والعشرون: الاستعمار الفرنسي يبحث عن البديل 489
الفصل الثاني والعشرون : في رحاب القرويين 521
الفصل الثالث والعشرون : أثر المشرق في النهضة المغربية 565